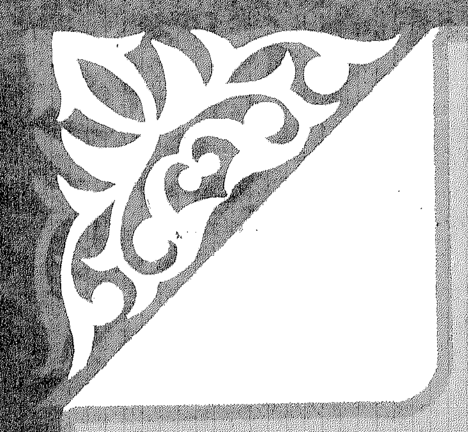
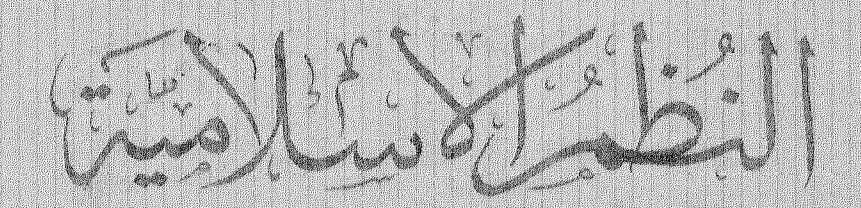


الدكتور حسين الحاج حسن
أستاذ الأدب العربي والحضارة العربية
بالجامعة اللبنانية



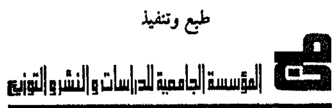


النظم الإسلامية

الطبعة الأولى

1406 هـ ـ 1987 م

طبع وتنفيذ



بيروت ـ الحمراء ـ شارع اميل اده ـ بناية سلام
هاتف : ٨٠٢٤٢٨ ـ ٨٠٢٤٠٧ ـ ٨٠٢٢٩٦

بيروت ـ المصيطبة ـ بناية طاهر هاتف : ٣٠١٠٣٠ ـ ٣١١٣١٠
ص . ب : ٦٣١١ / ١١٣ تلكس LE ٢٠٦٦٥ ـ ٢٠٦٨٠ لبنان

الدكتور حسين الحاج حسن
استاذ الأدب العربي والحضارة العربية
بالجامعة اللبنانية

النظم الاسلامية

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

الإهداء

إلى ولدي خالد

في عيدك السادس عشر لك مني أحسن هـدية « نـظم إسلامية » .

آملاً أن تجد في هذا الكتاب ، معالم الشريعة الاسلامية الهـادفة الى تنـظيم الحياة الانسـانية في كـل عصـر ومصـر والمنهج الصحيح لك ولجميع الشبـاب الطمـوح المتعطش لمعرفة الحقيقة والصراط المستقيم .

أتمنى لك حظاً سعيداً وعمراً مديداً .

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى في كتابه العزيز:

﴿ أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه . . ﴾ الزمر الآية 22

﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ الانعام الآية 125

﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيرا ﴾ الاسراء الآية 9 .

﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ النساء الآية 59 .

قال النبي موسى لقومه عليه السلام :

﴿ يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ يونس الآية 84 .

وجاء في القرآن الكريم عن النبي عيسى عليه السلام :

﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون ﴾ آل عمران الآية 52 .

تمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على رسوله محمد بن عبد الله سيد الدعاة الى الحق والى الطريق المستقيم وعلى آله وصحبه وسلم .

الاسلام دين كامل يشمل الدين والدولة معاً ، حدد علاقة الانسان بربه عزّ وجل كما حدد علاقته بمجتمعه ، وقد انطوت نصوصه وتعاليمه على مبادىء أساسية في جميع مناحي الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والادارية والعسكرية والتربوية والصحية .

ومنذ تكونت دولته الأولى في عصر الرسول ﷺ جاء بأسلوبه الخاص لينسق تنسيقاً دقيقاً بين العقيدة والتشريع وبين الروحيات والماديات ، وهذا ما تميز به الاسلام بالتوسط العادل بين مطالب الروح ومطالب الجسد . فهو لا يأمر الآخذ به أن يحرم نفسه من متعة مادية ولا ملذة جسدية ما دام يتناولها من طريقها المشروع وفي حدها المعتدل . جاء في القرآن الكريم : ﴿ وابتغ فيما أتاك الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ﴾ القصص 77 .

وإن هذا التوسط بين الروحانية المتطرفة والمادية المغالية أمر تستدعيه حياة المجتمعات السعيدة الهانئة ، وهو ما تقبله الفطرة الانسانية . وقد أتى الدين الاسلامي مكملاً للشرائع والأديان التي جاء بها النبيون قبله ، فأوحى الله عز وجل الى رسوله محمد عليه السلام لينشر الاسلام ويبلغ الناس ما أنزل اليه من رب العالمين . يقول الله مخاطباً محمداً ﷺ : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى إبراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا . ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً . رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ النساء 165-163 .

وربما يسأل سائل إذا كان الله قد أوحى الى محمد ﷺ كما أوحى إلى النبيين من قبله فلماذا تختلف هذه الأديان جميعها ؟ . . .

إن القرآن الكريم قد عالج هذا الاعتراض فقدم البديهيات العلمية والمنطقية لتلقي ضوءاً على واقع الأديان الحاضرة وتميز الحق من الباطل . من هذه البديهيات : الدعوة الى وحدانية الله . لذلك أمر الله رسوله محمد ﷺ بدعوة اليهود والنصارى على هذا الأساس .

« قل يا أهل الكتاب(1) تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبدَ إلا الله ولا نشـركَ به شيئاً ولا يتخذَ بعضنا بعضاً أربابا(2) من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بـأنا مسلمـون »(3) .
ومنها : ان الدين واحد ولا يجوز الاختلاف فيه . أما الخلاف الذي حصل عبـر العصور كـان سببه البغي والعدوان عـلى الدين وتحـريف الشريعـة من قبل القـائمين عـلى الأديان بمـا يوافق مصالحهم الخاصة في هذه الدنيا . فكانت رسالة النبي محمد ﷺ إظهار هذه الحقيقـة ، ودعوة النـاس جميعاً ليجتمعـوا على الـدين الاسلامي . قـال تعالى : ﴿ شهـد الله أنه لا إلـه إلا هـو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم . إن الـدين عند الله الاسـلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ، ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب . فـإن حاجّـوك فقـل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتـوا الكتاب والاميين(4) أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فـإنما عليـك البلاغ والله بصـير بالعباد »(5) .

وكـما هو واضـح أن الرسـالة الاسـلامية غـايتها إصـلاح ما طـرأ على الأديـان من بدع مستحدثة والرجوع الى أصلها الأول ، مع الاتيان بشريعة كاملة تنسخ ما قبلها من الشرائع ، وهذه الشريعة متزامنـة مع الحيـاة الانسانيـة ومتوافقـة مع مـا اقتضاه التـطور العقلي لـلانسان وتصلح لكل زمان ومكان ، وانها هي الشريعة المقبولة عند الله التي لا يقبل غيرها . فالأنظمة الاسـلامية جـاءت لتنظم الحيـاة الانسانيـة من جميع نواحيها(6) . ولا ريب أن الاسـلام اليوم بحـاجة الى بيـان مـزايـاه الأصيلة وفضـائله الانسـانيـة أمـام العـالم الغـربي ، الـذي وصفـوه بالمتحضر ، ودحض التشويهات التي ألصقت به من بعض المستشرقين واتباعهم في بـلادنا دون بحث ولا تمحيص ؛ وإظهار حقيقة الاسـلام بما قـدمه من عـلاج وتصحيح لأزمـات انسانيـة مستعصية تسمو بالانسان عن طغيان الشهوات والميول الفاسدة .

نقـول لهؤلاء أن عليهم أن يميزوا بـين النظم التي انفـرد بتشريعهـا الاسـلام ، وطبعهـا بطابعه الأصيل، وبين النظم الأخرى التي وجدها في البلدان المفتوحة فأقر منها بعضها وأدخـل التحسين على البعض الآخر ، تبعاً لمقدار انسجامها مع ما امتاز به هذا الدين من التنسيق بين التشريع الصحيح والتوجيه السليم .

وإن أي إنسان نال قسطاً من العلوم ، ودرس الاسلام دراسـة خاليـة من تأثـير الوراثـة والعاطفة ، تنقاد نفسه بقوة إلى اعتناقه والأخذ بتعاليمه ، لما يرى فيـه من الحقائق التي تسعـد

(1) أهل الكتاب : اليهود والنصارى . وسواء : أي عدل وانصاف .
(2) أرباباً جمع رب وهو السيد الذي يطاع فيما يأمر وينهى ويراد به هنا من له حق التشـريع من تحـريم وتحليل أي لا تطيعوا أحباركم ورهبانكم فيما أحدثوا من التحريم والتحليل دون الرجوع الى شريعة الله .
(3) آل عمران الآية 64 .
(4) المشركون من العرب الذين لا كتاب لهم .
(5) آل عمران الآية 18 -19 -20
(6) جاء في الحديث الشريف : حلال محمد ﷺ حلال الى يوم القيامة وحرامه حرام الى يوم القيامة .

الناس وتجعلهم يعيشون في طمأنينة خالصة وارتياح نفسي يشفي الصدر ويبل الظمأ الروحي .

والحقيقة ان النظم الاسلامية شيء والمسلمين شيء آخر . وقد تنقلب هذه الصورة الرائعة التي يتلقاها باحث الاسلام الى صورة مشوهة عند التأمل في حالة بعض المسلمين في هذه الأيام وقد أصاب حكيم الاسلام الشيخ جمال الدين الافغاني عندما رأى سوء حال المسلمين يسدل حجباً كثيفة بين شعوب أوروبا والاسلام . ومن أقواله في هذا المجال :

« إذا أردنا أن ندعو أحرار أوروبا إلى ديننا يجب علينا أن نقنعهم أولاً اننا لسنا مسلمين فإنهم يرون وراءه أقواماً فشا فيهم الجهل والتخاذل والتواكل . . . فيقولون لو كان هذا الكتاب حقاً مصلحاً لما كان أتباعه كما نرى » .

ولكننا نرى اليوم في البلاد الاسلامية نهضة كريمة لاحياء تراث الاسلام وإظهار الحقيقة واضحة على الملأ ، وذلك بجهود جهابذة من العلماء المخلصين لدينهم ومجتمعهم ، وبعض الجمعيات الدينية والمعاهد التي يدرس فيها الاسلام على وجهه الصحيح .

ولقد كان غرامي بهذا الموضوع قديماً ، ومن حسن الصدف أن كلفوني بتدريس هذا الرصيد « نظم اسلامية » في الجامعة اللبنانية كلية الآداب فروع البقاع منذ عام 1979 فاعتمدت في السنة الأولى على كتب من سبقني في هذا الموضوع ، وقدمت الى الطلاب أمالي هيأتها لهم وهذبتها وأضفت إليها ما أضفت حتى آن لها أن تخرج كتاباً من هذه الدار الكريمة « المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع / مجد / في بيروت .

والحقيقة اني استفدت كثيراً من أمهات الكتب القديمة والحديثة « النظم الاسلامية » أولها الاحكام السلطانية للماوردي « الشافعي »[1] والأحكام السلطانية لأبي يعلى « الحنبلي » وقد كانا أول من تصدى لبحث هذا الموضوع بحثاً شاملاً مستكملاً .

ومن المؤلفين المعاصرين في النظم والحضارة الاسلامية الذين استفدت منهم : الدكتور حسن ابراهيم حسن والدكتور علي ابراهيم حسن من مصر والاستاذين ناجي معروف وعبد العزيز الدوري من العراق . والدكتور الشيخ صبحي الصالح والدكتور الشيخ عبد الله العلايلي والشيخ محمد مهدي شمس الدين والسيد محمد حسين فضل الله والشيخ ابراهيم سليمان والسيد هاشم معروف الحسني والشيخ سليمان اليحفوفي من لبنان .

ومن المصادر التي عولت عليها وأفدت منها : السيرة النبوية لابن هشام (213 هـ) وكتب المغازي والفتوح ، البلاذري (279 هـ) والكتب التاريخية : الطبري (310 هـ) والمسعودي (345 هـ) وابن الأثير (630 هـ) وابن خلدون (808 هـ) وغيرهم . . . [2] .

---

(1) توفى الماوردي سنة 450 هـ وأبو يعلى سنة 458 هـ وقد تشابهت عباراتها في معظم الفصول التي أتيا على ذكرها ، حتى غلب على ظننا أن أبا يعلى قد اقتبس من زميله الماوردي ما طاب له .

(2) راجع فهرس المصادر والمراجع .

ولقد أدرت كتابي على تسعة أبواب[1] :

وقد كتب في هذا الموضوع مؤلفون كثر لهم شأنهم ومكانتهم العلمية والاجتماعية قد لا أصل إليها ، وبعد أن اطلعت عليها رجعت إلى أوراقي وكتبي وقلت في نفسي : إذا وجدت جديداً مضيت في طريقي وألّفت ، وإلا فإني لا أريد أن أكون نسخة صغيرة عمن سبقني . وقد وجدت هذا الجديد الذي أبحث عنه تمثل في عدة نقاط هامة لم تأخذ حظها من البحث المعمق ولم يقف عندها الباحثون طويلاً . فبعضهم من نسيها مهملاً عن قصد أو عن غير قصد ، والبعض الآخر أشار إليها إشارة عابرة .

والحقيقة أن المسلمين ما اختلفوا في شيء اختلافهم في نظام الحكم فى الاسلام وفي طبيعة هذا النظام ، فلقد تشعبت فيه أقوالهم فأعطى فيه كل فريق منهم رأياً سواه من الآراء .

هذا الاختلاف ظهرت طلائعه في أفق السياسة الاسلامية يوم قبض النبي ﷺ بالذات[2] وكان السبب الرئيسي في انشقاق المسلمين على أنفسهم الى شيع وأحزاب . وهنا نقف طويلاً وقفة متأمل رصين لنقول : هل نشأ هذا الخلاف بسبب غموض في التعاليم الاسلامية ، أو ان هناك أسباباً أخرى ؟

ما يراه كل باحث عاقل ان طبيعة الاسلام أبعد ما تكون عن الغموض والتعقيد ؛ وما أراه ان ذلك الخلاف قد حدث بين المسلمين بدافع سياسي صرف ، ولا يخفى أن السياسة في الغالب هي أداة تفرقة وتباعد ؛ أو بدافع آخر هو سوء فهم عند بعض المسلمين لما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة من التعاليم المتعلقة بنظام الحكم .

قال الشهرستاني في هذا المجال :

« واعظم خلاف في الأمة خلاف الامامة ، إذ ما سل سيف في الاسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الامامة في كل زمان »[3].

والمؤرخون كانوا وما زالوا نوعين : أحدهما يريد أن يبحث الحقيقة على وجهها الصحيح يكتبها كما وجدها دون تحوير أو تمويه، مؤدياً الأمانة العلمية على أحسن وجه ، متجرداً من كل ما من شأنه أن يتحكم فيه . كل ذلك لأنه يشعر بتحمل المسؤولية الى التزام الموضوعية في جميع ما يرى ويسمع ويشعر .

والآخر طالب منفعة وبوق سياسة متكسب ، يميل مع سياسة واقع الحال ، فتهون عنده الحقائق ولا تعنيه من بعيد أو قريب ، إلا بمقدار ما توافق نزعته وتجد هوى من نفسه ، فهو بذلك مسيّر حيث يشده تعصبه الى الذاتية الضيقة ، وفي الاستجابة للذات يكمن معنى الآلة المسيرة التي تسير بإرادة خارجة عن إرادة صاحبها . هذا هو التاريخ الاسلامي في شؤونه وشجونه ، وهؤلاء هم المؤرخون يقفون أمامه ليختار كل منهم ما يتناسب مع ميوله وصفاته

(1) راجع التمهيد وفهرست الموضوعات .

(2) راجع اجتماع يوم السقيفة قبل دفن الرسول ﷺ .

(3) انظر الملل والنحل للشهرستاني .

وضميره . والواجب يقضي على كل باحث مسلم مؤمن الى بيان مزايا الاسلام وفضائله ونظمه العادلة والانسانية المتطورة التي تلبي حاجات الفرد والجماعة من أي جنس ومن أي لون . كما عليه أيضاً دحض المعتقدات السيئة والتهم الباطلة التي ألصقت زورا بالدين الاسلامي وإظهار الحقائق جلية واضحة بما قدمه الدين الحنيف من علاج لجميع الأزمات الانسانية المستعصية ، وما أحرانا نحن اليوم ، في خضم ما ينتاب العالم من ويلات مذهلة ، الى السير على المنهج الاسلامي والتمسك بروحية النظم الاسلامية التي هي خير علاج للخلاص من المشاكل الفردية والجماعية على حد سواء .

وبعد فإني أضرع الى الله أن يهبني العافية والقوة على متابعة نشر الكتب الباقية المعدة للنشر ، وييسر أموري لخدمة دينه ، انه نعم المولى ونعم النصير .

حسين ابراهيم الحاج حسن
شمسطار في 11 آب 1986

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

قال سبحانه وتعالى في كتابه العزيز : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾(1) .

الإسلام هو دين الفطرة ، دين الحياة والأحياء ، والاسلام نظام شامل كامل لكل انسان في كل زمان ومكان ، والإسلام نظام دين ودولة في آن معاً . وقد انطوت نصوصه وتعاليمه على مبادىء أساسية وجوهرية في البناء الإجتماعي الانساني العظيم . عمل في التشريع الديني والاجتماعي والاقتصادي والسياسي والتربوي والعسكري . وقد أثبتت الوقائع التاريخية ان الاسلام لم يكن مجرد عقائد فردية منذ نشأة دولته الأولى ، فبرز الى الوجود بأسلوبه الخاص في التنسيق الكامل بين العقيدة والتشريع ، وبين العبادات والمعاملات ، وبين الروحيات والزمنيات . وقد أوردنا نصوصاً كثيرة في فصول من هذا الكتاب تؤكد لكل مرتاب أو متردد وجه الإسلام الحقيقي الذي عالج جميع المشكلات الاجتماعية والحضارية ، فصححها ووضع لكل واحدة منها حلاً عملياً ناجحاً ، لإسعاد الناس أجمعين .

وكم من العلماء المسلمين والباحثين الغربيين المنصفين قد أكدوا هذه الحقائق ، وعرفوا الروح السائدة في التعاليم الاسلامية الصالحة في كل شأن من شؤون الحياة والاحياء ، فقالوا :

- إن الاسلام دين ودولة ، وعقيدة ونظام .
- وقالوا بأن الإسلام في تعاليمه الاساسية حدد على السواء شروط الحياة العائلية والاجتماعية والدينية والسياسية وكل ما يحتاجه الفرد في الدنيا والآخرة .
- وقالوا : إن الحكومة الإسلامية حكومة دستورية ، واجبة بالاجماع والعقل والشرع .

وإني أرغب هنا أن أصف بصورة عامة ، المنطلق الأساسي الاسلامي للنظم التشريعية الحضارية التي قام عليها الإسلام ، الدين الحنيف ، وأنشأ مدنية عامرة ، ملأ شعاعها الكون بأسره حكمة وعدلاً وعلماً ومحبة وأمناً وسلاماً .

وكل باحث جمع إلى سعة المعرفة صفاء الضمير ، يدرك ما انفرد به الاسلام عن غيره من الأديان السماوية الأخرى التي قامت على التراحم والمحبة والتكافل ، من غير أن ترسم

(1) الروم الآية 30

لذلك كله تشريعات واضحة ، وحدوداً صريحة ، حيث تركت للنظم الزمنية القائمة تقرير ما يلزمها من نظم وأصول .

أما الإسلام فإنه نسق تنسيقاً واقعياً عادلاً بين شؤون المادة والروح بنظم واضحة وصريحة ، تتعادل فيها الحقوق والواجبات ، وتكفل بواسطتها ضمانات الحياة المادية وضمانات العدالة الاجتماعية . وعلى هذا يعد الاسلام ، من خلال نظمه وتشريعاته ، دين التوحيد بين قوى الكون جميعاً ، تلتقي فيه القيم الروحية مع القيم الاقتصادية بتعاون وتعادل ، ويعمل على تنشيط العلم وتنميته في جميع المجالات الحياتية ليبلغ حد الجودة والإتقان ، ويتم فيه التوازن الكامل المنسجم بين أشواق الروح ومظاهر الحياة .

فهل نعجب بعد ذلك إذا بلغ الذروة من التسامي الروحي والعدل الاجتماعي ؟ وهل نستغرب إذا دخل فيه الناس أفواجاً أفواجاً لاعتباره ضرورة اجتماعية ومحطة حضارية كبرى في تاريخ الحياة الإنسانية الحرة الكريمة ؟

وما أريد بيانه ، وأنا أكتب في النظم الإسلامية ، أن تلك النظم غير مقطوعة الصلة بأصولها القديمة ، فقد اعتراها التطور الاجتماعي الذي لا غنى عنه لكل نظام يلبي حاجات الإنسان المتطورة مع ثقافات العصر وظروف البيئة والزمان . وهذا ما فعله الاسلام في البلاد المفتوحة حيث أقر بعض تشريعاتها الصالحة والمنسجمة مع تعاليمه العادلة .

من هنا فتح باب الاجتهاد على مصراعيه عند المراجع الدينية العليا ، لعرض رأي الاسلام الصريح المتوافق مع ركب الحياة الحضارية الراقية .

ولا ريب أن مسألة تنظيم الاسلام للحياة الاجتماعية في جوانبها المختلفة بدأت في عصر مبكر ، عصر النبوة ، عصر الرسالة الخالدة . ويقيننا في ذلك أن تلك النظم كانت على أكمل وجه ممكن ، وان أي موضوع جديد قد يطرأ على الحياة الإنسانية المعاصرة ، له بشكل أو بآخر أصل في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة .

ولا غرو فالإسلام كما أسلفنا دين الفطرة في مبناه ومعناه . قال تعالى : ﴿ إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين ﴾[1] والمجتمع الاسلامي ليس أفراداً يلتقون بأجسامهم فحسب ، وإنما هو مجتمع قد استوفى معناه الاجتماعي الصحيح . فالأفراد المؤمنون برسالته الانسانية السمحاء ، يجتمعون على هدف واحد ، هو العمل لوجه الله ، ولخير الناس جميعاً متعاونين متآلفين . عملاً بقوله عزّ وجلّ : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ﴾[2] .

وهناك حقيقة أخرى هامة في الدين الإسلامي لا بد من ذكرها :

وهي أنه توصل إلى هدفه النبيل هذا بتوفير العنصر الأخلاقي في نفس الإنسان . فالإسلام

---

(1) الأنعام الآية 79 والضمير في هذه الآية الكريمة يعود لإبراهيم (ع) في خطابه للمشركين .

(2) آل عمران الآية 103 .

ومكارم الأخلاق صنوان أساسيان لا يفترقان . أما في حال خضوع هذا النظام للدين شكلاً ، ومخالفته في عدم توفر العنصر الأخلاقي ، فلا يمكن اعتبار الحكم حكماً إسلامياً ، ولا الحاكم حاكماً مسلماً .

قال الله عزّ وجلّ في وصفه الرسول الأعظم ﷺ : ﴿ وانك لعلى خلق عظيم ﴾[1]

وقال رسول الله ﷺ : « إنما بعثت لاتمم مكارم الأخلاق » .

والحاكم المسلم يجب أن تتوفر فيه عدة شروط لتثبت قيادته وتمتنع من الانحراف . ولقد فطن الإسلام الى هذا الأمر الخطير فاشترط وجود صفات معينة فيمن يوكل إليه زمام أمر الناس ، كما فرض على الأمة الإسلامية مراعاة هذه الأوصاف عند انتخاب حكامها .

هذه الشروط هي :

أولاً : **الإيمان** بالله الواحد الأحد الفرد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد . الإعتقاد القلبي بالإسلام عقيدة ونظاماً .

ثانياً : **العلم** لما كانت الحكومة الإسلامية تستمد قوانينها من كتاب الله لزم أن يكون الحاكم عالماً به اجتهاداً أو تقليداً . قال الإمام الحسين (ع) « والله ما الإمام الا القائم بالقسط ، الحاكم بالكتاب ، الحابس نفسه على ذات الله » .

ثالثاً : **القدرة على الإدارة** إن الكفاءة في الإدارة وحسن الولاية شرط أساسي في الحكومة الإسلامية لتبوء سلطان الحكم . وصلاحية الشخص للحكم منوطة بقدرته على القيام بلوازم الولاية وتحمل أعبائها .

رابعاً : **العدالة** من أهم صفات الحاكم في الإسلام أن يكون عادلاً منصفاً . وكل حاكم عادل يلتزم بالدين مخلصاً لواجباته ، وفياً لمصالح الأمة التي أؤتمن على مصيرها ومقدراتها .

خامساً : **الحرية** دعا الإسلام الى الحرية وإلغاء الرق فلا يجوز استعباد الانسان واسترقاقه لأخيه الإنسان ، لأنه على حد قول الإمام علي (ع) اما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق .

وأمر هام آخر يجدر بيانه هو أن الإسلام قد وضع أول دستور مكتوب في العالم لبناء دولة حديثة .

يتوهم البعض أن أول من ظفر بالحصول على الدساتير المدونة الولايات الأميركية ، حيث صدر أول دستور لها عام 1771 م ، ثم توالى بعدها إصدار الدساتير في معظم أنحاء العالم ، وبوجه خاص بعد نجاح الثورة الفرنسية عام 1789 م . وقد غاب عن بال هؤلاء الوثيقة البالغة الأهمية التي اعتبرها الباحثون ، الشرقيون والغربيون دستوراً خالصاً ، ألا وهي « الصحيفة »[2] .

يذهب العلماء إلى اعتبارها أول دستور مكتوب في العالم ، وذلك أن الرسول محمد ﷺ

---

(1) القلم الآية 4 .

(2) السيرة لابن هشام ص 16 وكتاب الأموال ص 202 .

كـان قد أصـدرها بعـد هجرتـه إلى المدينـة في حدود عـام 622 هـ أي قبل صـدور الـدستـور الأميركي بما يقارب الألف والمئة والخمسين عاماً .

وعـلى الأرجح أن هـذه الصحيفـة كـان قـد أعلن عنهـا الـرسـول ﷺ في السنـة الأولى للهجرة ، وغايته منها ، تنظيم العلاقات بينه وبين سكان المـدينة من الأوس والخـزرج واليهود والمهـاجرين . وهي تقـع في حوالي خمسـين مـادة(1) . ولا ريب أنني أفـدت من أمـات الكتب القـديمة في « الـنـظم الاسـلاميـة » التي حملت اسم الأحكـام السلطانيـة ، كـالفقيـه المعـروف الماوردي توفى 450 هـ والفقيـه الثاني أبي يعـلى توفى 458 هـ . وقـد تشابهت عبـاراتهما تمـاماً في معظم الفصول التي أتيا على ذكرها وشـرحها . ويغلب عـلي الظن أن أبـا يعلى قـد اقتبس من زميله الماوردي ما طاب له من العناوين الكبيرة والصغيرة .

وقد اعتمدنا أصح النصـوص وأوضح البـراهين متـوخين الحقـائق العلمية البعيـدة عن العاطفة والميل .

يشتمل هذا الكتاب على تسعة أبواب :

الباب الأول : ذكرنـا فيه ضـرورة وجود سلطة حـاكمة تنـظم علاقـات الأفراد وتضـع الأسس والمنهج والقواعد التي يجب أن تقوم عليهـا الدولـة الإسلاميـة واكتفينا بعـرض لمحات تاريخية عن النظم الحضارية قبل الإسـلام في بلاد بيـزنطيـة وفارس . ثم انتقلنـا الى المميزات العامة للحكومة الإسلامية ، وما أبقت عليه ، ومـا انفردت بـه عن سابقـاتها : مثـل العدل ـ والمساواة ـ والأخوة ـ والحرية ـ والتعليم والأخلاق .

البـاب الثاني : يـدور فيه البحث .حول الحركة الفقهية والتشريعية في الإسلام. فرأينـا أن التشـريع الـوضعي لا تتحقق فيه النـزاهة ولا يسلم من الأهـواء والغايـات الشخصيـة ، أمـا التشـريـع السمـاوي الـذي يصـدر من حكم خبـير لا يضـل ولا ينسى ، منـزه عن الغـرض والهوى . يعنى بتوثيق العلاقة بين الإنسان وأخيه ، وبينه وبين خالقه ، رب العالمين .

ثم تحـدثنا عن الفقـه ومدارسـه والمذاهب الفقهيـة الخمسة . ومـا نتـج عنهـا من بـذور الخـلاف ونشأة الفـرق والأحزاب ، حيث وضـع كل حـزب الشعار الخـاص به والمبـدأ الذي يتجاوب مع دعوته .

الباب الثالث : يتضمن هذا الباب التشريع السياسي في الإسلام وكيف رسم الـرسول ﷺ معالم الدولة في المدينة المنورة ، ووضع لها تخطيطها ونظامها ، والأثر الذي تركتـه حكومتـه من النواحي السياسية والدينية والاجتماعية .

---

(1) راجع الباب الأول الفصل الأول من هذا الكتاب .

ولم نجد بداً من ذكر الإمارة ، والإمامة ، والخلافة . مع ذكر شروط كل منها ونظريات الأحزاب المختلفة كالخوارج ، والمرجئة ، والمعتزلة ، والشيعة . ثم تابعنا السير الى عصر الخلفاء الراشدين وكيف تسلم أبو بكر الصديق الخلافة ثم عهد الى عمر بن الخطاب الذي ألف مجلس شورى من ستة أعضاء ، وتسلم بالنهاية عثمان بن عفان ، وحدثت الفتنة الكبرى ، بسبب ضعفه في إدارة الحكم ، وتسلم أقربائه زمام السلطة في الدولة . حتى نقم عليه المسلمون وقتل في بيته وهو يتلو القرآن . وبعده استلم الخلافة علي بعد إصرار الجميع على توليه . وكانت الحروب الدامية التي قادتها السيدة عائشة مع طلحة والزبير وذهب ضحيتها الكثير من الأبرياء .

ثم تحدثنا في الفصل ذاته عن الوزارة وأنواعها ، والكتابة وشروطها ، والحجابة وصلاحياتها .

وقد توقفت عند الخلافة والاستخلاف ، لما حدث من اختلاف في شروط تعيين الإمام عند السنة الذي يتم بانتخاب أهل الحل والعقد ، أو بعهد من امام سابق ، أو الاستحواذ على السلطة .

وشروط تعيين الإمام عند الشيعة يختلف في كثير من النقاط فاشترطوا في الإمام : العصمة وهي أمر خفي لا يعلمه إلا الله تعالى والنبي ﷺ لذلك وجب إظهاره بنص . من هنا كانت نظرة الشيعة الإمامية تقول : إن الإمامة منصب إلهي . فكما أن النبي ﷺ هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو المسؤول عن تبليغ دين الله الى عباد الله فكذلك الخليفة وظيفته تبليغ الدين ونشره والدعوة إليه وحمايته من كيد الطامعين والكافرين .

الباب الرابع : وعرضنا الباب الرابع الذي خصصناه للنظام الإداري فبدأنا بلمحة تاريخية عن حكومة الأقاليم والإمارة وأنواعها ، ثم الدواوين التي قامت بدور هام في تنظيم شؤون الدولة الإسلامية من جميع وجوهها . ثم انتقلنا الى الدستور الأول الذي وضعه الرسول ﷺ عندما آخى بين المهاجرين والأنصار ووادع فيه اليهود . من هذا الكتاب الجامع يظهر طابع القضاء في الإسلام ، واستقرار قواعده المبنية على أسس ثابتة وصحيحة . وقد أعطانا نموذجاً رائعاً في صفات القاضي العادل علي بن أبي طالب (ع) في كتابه لمالك الأشتر عندما ولاّه على مصر . وهو تقنين يطابق القواعد القانونية والحقوقية الحديثة حسب رأي جهابذة التشريع من أبناء عصرنا اليوم ، ويجب أن يضطلع به أي حاكم لأنه يسير مع كل عصر . وبعد القضاء تحدثنا عن ديوان المظالم والحالات التي ينظر فيها صاحبه . ثم ختمنا الباب بالحسبة ومهام المحتسب ، والشرطة ، والبريد . وكلها أمور ضرورية لتنظيم الحياة الإجتماعية في المجتمع الاسلامي الناشىء .

الباب الخامس : خصصنا هذا الباب للبحث في واردات الدولة الإسلامية من زكاة ، وخراج ، وجزية ، وغنيمة ، وفيىء ، وعشور ، وأوقاف ، وكفارات ، ونذور ، وضرائب أخرى يشرعها الحاكم في وقت معين حين تقتضي حاجة الأمة الى ذلك . وقد وجدنا أن السياسة المالية التي وضعها الإسلام لها أهمية كبرى في تحقيق الضمان الاجتماعي العادل

لأفراد المجتمع ، بعيداً عن التمييز العنصري والفوارق الشخصية والمذهبية .

السياسة المالية في الإسلام أفنت المادة بالروح ودعمت آيات الإستقرار والكمال ، وأفسحت للفطرة بأن تأخذ طريقها بدون مزاحم ، وحققت هدف الدين الاسلامي الذي يدعو للاستقامة والتوازن بين المادة والروح ، فاستخرج من خير الأولى تثبيت الأخرى .

الباب السادس : يبحث هذا الباب في النظام الإقتصادي من زراعة وتجارة وصناعة . فقد اهتم الاسلام بشؤون الاصلاح الزراعي ، والتنظيم التجاري ، وما لهما من أثر هام في تنشيط عجلة الحياة وإعمار الأرض . كما اهتم الاسلام أيضاً بالحقل الصناعي ، كصناعة الحرير والقطن والكتان والصوف وصناعة المواد الأولية : ذهب - فضة - حديد - نحاس ، وصناعة الآلات الخشبية والعطور ، وصناعة الأدوية والآلات الطبية ، وصناعة الطواحين المائية والهوائية ، وصناعة الاسطرلاب لعلم الفلك . وكل الصناعات التي احتاجوا إليها في حياتهم الفردية والجماعية اتقنوها اتقاناً رائعاً سدوا بها حاجاتهم وصدروا منها الى البلدان الأخرى .

الباب السابع : واجهنا في هذا الباب النظام الاجتماعي واهتمام الاسلام البالغ بتنظيم الأسرة ، لأن في إصلاحها إصلاح المجتمع بأسره . وضع حقوقاً للمرأة فكرمها أحسن تكريم ، وأعطاها كل ما لها من حقوق كانت محرومة منها في العصور السابقة ، كما وضع عليها واجبات يجب أن تحسن القيام بها .

ثم حدد الإسلام النساء اللواتي يباح التزوج بهن ، وشُرع الزواج المؤقت بشروطه الشرعية ، وذلك لحفظ المجتمع من الانزلاق في متاهات مذلة ، ولأنه راعى حاجات الشباب والشابات في ميعة شبابهم . كما حافظ الإسلام على أهل الذمة فوضع لهم حقوقاً معينة ، وطلب إليهم القيام بواجبات خاصة في المقابل .

وبعد ، انتقلنا الى ما تأثر به العرب بغيرهم في الأعياد والمواسم والألعاب وأنواع التسلية والملابس ومجالس الغناء والطرب .

وما فاتنا ذكر بناء القصور الفخمة في الشام ، والأندلس ، والعراق . وأخيراً ختمنا الباب بالفنون الزخرفية وأثر الفن الأوروبي بالفن العربي والدور المجيد الذي قام به العرب في تقدم سير الحضارة البشرية في هذا المجال .

الباب الثامن : ومضينا بعد ذلك الى النظام التربوي في الاسلام فلمسنا الاهتمام البالغ والعناية الفائقة . رأى الإسلام أن التربية ضرورية جداً لتطور الحياة . ومن أهم الأمور فيها الإيمان بالقيم الأخلاقية ، لأن العلوم المادية وحدها لا تقدر على خلق روح المودة والتعاون بين أفراد المجتمع الواحد إذا تجردت من الأخلاق .

أهداف التربية في الاسلام ثلاثية الفائدة :

الهدف الروحي : يطهر النفس من العيوب ويهذب النفس ويصفيها ليقودها الى معرفة النفس الحقة ، وبالتالي الى معرفة الله ، لأن من عرف نفسه عرف ربه .

والهدف الاجتماعي : نادى الاسلام بالأخوة بين المؤمنين ، والمساواة بين الناس أجمعين ، والإحسان الى كافة الناس ، وإن أكرمهم عند الله أتقاهم .

والهدف المادي : أدرك الإسلام أن المال عصب الحياة فحثّ على العمل بوسائل مشروعة ، فتناول جميع وجوه النشاط والحركة الفاعلة الايجابية ، لأن « ليس للانسان إلا ما سعى ، وإن سعيه سوف يرى » .

ثم انتقلنا الى قانون الوراثة في الاسلام الذي أكد عليه الاسلام وفصله وشرحه بجميع أطواره وحالاته ، من هنا كان الاهتمام بالأسرة وحسن اختيار الزوجة الصالحة ، فوضع منهجاً كاملاً دقيقاً للأب ، والأم ، والأبناء ، فكل واحد منهم له حقوق وعليه واجبات . وهذا ما دعانا الى الحديث عن الأسرة في العصور الحديثة وما تتخبط فيه من مشاكل عائلية وأخلاقية لا تحمد عقباها . فمن انخفاض في نسبة الزواج ، الى الميوعة والتحلل الأخلاقي ، الى عقوق الأبناء ، الى الشذوذ الجنسي ، وكل ذلك يعود الى البيئة وأثرها في التربية .

أمام هذا الواقع ، والإسلام دين التكامل الاجتماعي ، عني الاسلام بأمر البيئة وعالجها معالجة جذرية ، فوضع تخطيطاً تربوياً شاملاً :

حث على العلم وشجع العلماء على المضي في تحصيل علومهم المفيدة ، وعين أنواع العلوم التي دعا اليها ، وكلها ، قد أشار اليها القرآن الكريم ، وحدد سن التعلم وصفات المعلم وحقوقه وآداب المتعلم .

واهتم الإسلام أيضاً بجميع أنواع التربية :

أ ـ التربية المهنية : من اتقان العمل الى الابتعاد عن الغش والأعمال المحرمة ، الى التخصص المهني ، الى المحافظة على مصادر الثروة وأدوات الانتاج .

ب ـ التربية الاجتماعية : دعا الإسلام الى التراحم والتعاطف ، والسعي في قضاء حوائج الناس ، وإغاثة المعوزين ومواساتهم ، والتسامح مع الآخرين ، والتحلي بالأخلاق العالية .

ج ـ التربية الرياضية : كما اهتم الاسلام بالروح اهتم أيضاً بالجسد لأنه وعاء لها ، والعقل السليم في الجسم السليم . وقد جمع بين الرياضتين الروحية والجسدية معاً في الصلاة ، والصوم ، والحج .

د ـ التربية الصحية : أول ما اهتم به الإسلام التشريعات الوقائية فقد أعار النظافة اهتماماً بالغاً حتى قرنها بالإيمان « النظافة من الإيمان » ولم يترك أي أمر يسير منها إلا أتى على ذكره ، فأمر بالوضوء ، والإستحمام ، وتنظيف الأسنان ، ونظافة الثياب ، والاستنجاء .

كما اهتم أيضاً بالمأكل والمشرب فأشار الى المآكل المحرمة : الميتة والدم ولحم الخنزير . . . والمشروبات المحرمة كالخمور والمسكرات .

ثم وضع منهجاً للتغذية فيه الصحة الكاملة للفرد وللمجتمع على حد سواء . كل هذه

المآثر الصحية الوقائية قررها الإسلام لوقاية الأبدان من الإصابة بآفات خطيرة ، ولا غرو فالإسلام دين الدنيا ودين الرحمة .

الباب التاسع : النظام العسكري ، وكان ختامها النظام العسكري ، استهللناه بفصل عن نظام الجيش في تعيين الأفراد والقيادة ، ورواتب القادة والجنود ، والطابور الخامس ، والتجنيد الإلزامي ، ثم تناولنا أشكال أسلحته ، وطرق القتال ، وأساليب التطويق والحصار . وذكرنا بهدف الإسلام في القتال المبني على الدفاع عن النفس وعن الشريعة الإسلامية لحفظها وسلامتها . فنصوصه الصريحة تدل بوضوح أنه يعمل لإصلاح ما أفسده الإنسان في الأرض ، وبالتالي صيانة السلام العالمي الذي تسعى إليه الشعوب المستضعفة . يدلنا على ذلك وصايا أمراء الجيوش الإسلامية لجنودهم . كما اهتم المسلمون بالأسطول البحري ، علماً أن البداوة تغلب على طباعهم ، فصنعوا السفن بأنواعها ومعداتها ، واستفادوا من أسطولهم في الفتوحات الاسلامية ، حتى أصبح لهم السيطرة التامة على البحر الأبيض المتوسط وبيدهم مفتاح الدخول والخروج في عرض البحر . وختمنا الباب بمنهج الاسلام السلمي في الحروب وحسن استعماله لقوته في سبيل الحق ورفع راية الإسلام وصون الدين من كيد الكافرين .

وقبل خضوع العالم لسلطان الله انقسم الى دارين : دار إسلام ودار حرب . دار الإسلام التي تكون فيها السلطة للإسلام والمسلمين ، وتطبق فيها النظم الاسلامية جميعها ، وهي وطن المسلم من أي جنس كان ، إذ لا يرتبط المسلم بطين الأرض والوطن ، بل بالعقيدة التي آمن بها . فالعقيدة فوق الأرض ولا حياة بلا عقيدة .

ودار الحرب هي التي لا تطبق فيها الشريعة الإسلامية ولا تنفذ على أرضها أحكام الإسلام . ويطلق على رعاياها « حربيين » إلا أن يعقدوا ميثاقاً أو عهداً مع المسلمين فيدعون « معاهدين » ومن المعروف أن الإسلام يؤكد على احترام العهود والمواثيق ، ويشدد على الوفاء بها ، عملاً لقول الله عزّ وجل ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤ ولا ﴾[1] .

هذا ما استطعت انجازه بعدما بذلت طاقتي وجهدي ، آملاً أن أكون قد حققت الهدف الذي أبغيه من فائدة خالصة لوجهه الكريم .

والله أسأل أن يلهمني السداد في الفكر والاخلاص في القول إنه نعم المولى ونعم النصير .

شمسطار في 25 رجب 1406
الموافق 6 نيسان 1986

---

(1) الإسراء الآية 34 .

الباب الأول

معالم الحكومة الاسلامية

الفصل الأول

ضرورة وجود سلطة حاكمة

إذا راجعنا تاريخ نشوء المجتمعات ، فهل نظن أنها قامت بدون وجود سلطة حاكمة ، تدير شؤونها وتدبر أمورها ، وإذا سمّينا هذه السلطة الدولة ، فهل كانت ضرورة إجتماعية لا يمكن الإستغناء عنها ؟ من البداهة بمكان أن الفرد لا يمكن أن ينعتق من غريزة الاجتماع ، ذلك أن المجتمع الانساني حاجة نفسية للكائن البشري ، والدولة ضرورة اجتماعية لا يمكن الاستغناء عنها .

ولما وجد المجتمع الانساني وجدت معه العلاقات الاجتماعية المعقدة ، ووجد أيضاً النشاط الاجتماعي المتعدد الوجوه في شتى الميادين . وفي هذه الحالة لا بد من أن يوجد إشراف ، كيفما كان لونه ، ينظم علاقات الأفراد تنظيماً يحول بينها وبين التفكك بفعل تصادم المصالح بين الأفراد والجماعات ، فيعمل إلى تشريع القوانين ليصون بها حقوق الأفراد ويطلب اليهم القيام بواجباتهم نحو مجتمعهم .

ولما كان هذا النشاط ضرورياً للمجتمع ، فالدولة ضرورة حتمية لا بد منها . هذا الجهاز ، أو هذه السلطة ، لا تخرج عن كونها أداة كغيرها من الأدوات التي يتوقف عليها نشوء الخير أو الشر ، وذلك حسب طرق تنفيذها للقوانين . فالأسس التي تقوم عليها الدولة ، والبرامج التي تحدد لها طريق السلوك وسير رجال الحكم وقيامهم بواجباتهم ، ومدى تطبيقهم للقانون ، كل هذه الأمور هي التي تجعل من الدولة عنصراً خيراً صالحاً أو عنصراً شريراً مستغلاً .

أما إذا أهمل رجال الحكم واجباتهم ، وأخذوا برعاية أمور أخرى تعود عليهم وحدهم بالنفع الخاص ، وتعينهم في استغلال المحكومين ، فإننا لا ننظر عندها الى الدولة على أنها كائن يلازمه الشر ملازمة تامة ، لأن الدوافع التي قضت بإقامة سلطة حاكمة « الدولة » هي دوافع خيرة حسنة . فالحكام يذهبون والشعوب المناضلة تستمر وتبقى .

ضرورة وجود سلطة تنفيذية

إن مجموعة القوانين التي كتبت بالحبر على الورق لا تكون مادة إصلاح وإسعاد للبشر ، إلا إذا أنيط تنفيذها الى سلطة تنفيذية عادلة ، لذا فإن الله عزّ وجلّ ، الذي كرم آدم وجعله خليفته على الأرض ، قد أوكل إليه تأليف حكومة ، وجهاز تنفيذ ، وإدارة تعمل جاهدة في

إصلاح شؤ ون الناس كافة وتدبير أمورهم على أكمل وجه .

فالرسول الأعظم ﷺ كان يترأس جميع أجهزة الدولة التنفيذية من إدارة المجتمع ، إلى تفصيل الأحكام وبيان مدلولاتها ، بالإضافة الى مهام التبليغ والبيان . كل ذلك حتى أخرج دولة الاسلام إلى حيز الوجود . ومهمته حينذاك لا تنحصر بالتشريع والشرح والتبليغ ، بل كان يهتم بتنفيذ القوانين ، فيقطع يد السارق ، ويجلد المذنب ، ويرجم الآثم . ولا ننسى أن المسلمين آن ذاك كانوا بأمس الحاجة الى من ينفذ القوانين لأنهم حديثو عهد بالاسلام .

ومن بعد الرسول ﷺ كان الخليفة ، الذي لا تقل مهامه عن مهام الرسول ﷺ ولم يكن تعيينه لبيان الأحكام فحسب ، وإنما لتنفيذها أيضاً . يحكم بكتاب الله الكريم ، وبحديثه الشريف بين الناس ، من أجل ضمان سعادتهم في الدنيا والآخرة .

وإذا اعتمدنا المنطق نرى أن القوانين الشرعية والأنظمة الاجتماعية ، في أي عصر من العصور ، بحاجة إلى منفذ حتى تعطي ثمارها المرجوة . ففي كل دول العالم ، المتخلفة والنامية والراقية ، لا ينفع التشريع وحده ، بل ينبغي أن تعقب سلطة التشريع ، سلطة تنفيذ ، فهي وحدها الكفيلة بإعطاء المواطنين ثمرات القانون العادل . لهذا قرر الإسلام إيجاد سلطة التنفيذ الى جانب سلطة التشريع ، فجعل للأمر ولياً لتنفيذ الأحكام الشرعية ، وطلب إلى المؤمنين إطاعة الله والرسول وأولي الأمر منهم . قال تعالى في كتابه العزيز :

﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، وأولي الأمر منكم . . ﴾[1] .

نشأة حكومة الرسول في المدينة

بعد جهاد شاق وكدح دائب داما عشر سنوات لهداية سكان مكة الى الاسلام ، أحس الرسول أن لا أمل يرتجى في اكتساب المزيد من الأنصار ، فولّى وجهه شطر المدينة (يثرب) لابلاغ دعوته ، منفذاً قول الله عزّ وجل : ﴿يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك . . النساء 59﴾ وما يرجح في سبب الهجرة ان المجتمع المكي كان مجتمعا متماسكا إلى حد بعيد والرجالات النافذين فيه كانوا يرون في الدعوة الإسلامية عائقاً في سبيل مصالحهم الشخصية وزعاماتهم المحلية . فمن الصعب عليهم أن يتحولوا من قادة لقومهم الى أتباع لفتى عبد المطلب الذي يأتيهم بخبر من السماء[1] .

ثم ان تحولهم من عبادة الأصنام ، يعني تحولهم عن ديانتهم وما يرتبط بها من تقاليد وعادات .

ومركز مكة التجاري سوف يتأثر الى حد بعيد بمقاطعة الوثنيين لها[2] ، إذ كانوا يحجون

---

(1) فرض الله علينا طاعة أولي الأمر ، وأولو الأمر بعد الرسول ﷺ الأئمة الأطهار الذين كلفوا ببيان الأحكام والأنظمة الاسلامية ونشرها في المسلمين وغيرهم من شعوب العالم وكلفوا أيضاً بتنفيذ تلك الأحكام والأنظمة وقد فرض على الفقهاء العدول من بعدهم ، أن ينهضوا بهذه الواجبات . النساء الآية 59 .

(2) سورة القصص الآية 57 .

اليها لتقديم النـذور والقرابـين لأصنامهم وللطواف حـول بيت الله الحرام . وفي ذلـك خسارة فـادحة لتجـارة أصحاب النفـوذ والسلطان السيـاسي . لـذا كـان لا بـد للنبي محمـد ﷺ من البحث عن مركز جديد يرى فيه العون لنشر الـدعوة الإسـلامية . ومما يبدو أن الـرسول قـد وجد ضالته في المدينة عندما قابل نفراً مؤمناً خيراً كان ينتظر قدومه بشوق بالغ ورغبة جامحة . ولا شك أن الرسول ﷺ كان يعرف الكثير عن أوضاع هذه المدينة وطبيعة العلاقـات السائـدة بين سكانها . وقد بادر القـوم سائـلاً : « من أنتم ؟ . . قالـوا : نفر من الخـزرج . قال : من مـوالي اليهود : قـالوا : نعم . قـال : أفلا تجلسـون أكلمكم ؟ قالـوا : بلى . فجلسـوا معـه فدعاهم الى الله عزّ وجلّ وعرض عليهم الاسلام وتلا عليهم القرآن »(3) .

ومما يجدر ذكره أن تفوق اليهود العقائدي على العرب كان حافزاً لهم للبحث عن عقيـدة جديدة يواجهون بها التحدي اليهودي . كما كانت سكنى قبيلتي الأوس والخزرج العربيتين إلى جوار القبائل اليهودية (بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة) .

كان لتلك المدينة المباركة تأثير بالـغ على عقليـة أبنائهـا ، إذ أنها جعلت عقيدة التـوحيد والإيمان بالأنبياء واليوم الآخر ، ووجود جنة ونار من العقائد المألوفة لدى الوثنيين العرب(4) .

وثم عامل آخر لا يقل أهمية عما ذكرنا كان حافزاً لسكان يثرب على قبول زعامة الرسول كما كان ممهـداً للدعوة الاسـلامية لتنمـو وتنتشر . وهـو افتقار المـدينة الى قيـادة موحـدة تحسم المنازعات وترعى الصالح العام بين الأفراد والقبائل . ولا يخفى أن المـدينة كـانت قبل دخـول النبي إليها تعيش في أتون المنازعات والحروب القبلية المستمرة والتي ذهب ضحيتها الكثـير من أبناء قبيلتي الأوس والخزرج .

هذه الحروب تركت في نفوس سكـان المدينـة شعوراً عميقـاً بحاجتهم المـاسة إلى زعيم يجمع شملهم وينقذهم من حالة الفوضى وعدم الاستقرار . وقد عبَّـر عن هذا الشعور ألنفـر الخير من سكان المدينة الذين بايعوا الرسول ﷺ بقولهم :

« إنا قد تركنا قومنا ولا قـوم بينهم من العداوة والشـر ما بينهم ، وعسـى أن يجمعهم الله بـك ، فسنقدم عليهم ، فنـدعـوهم إلى أمـرك ونعـرض عليهم الـذي أجبنـاك إليـه من هـذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك »(5) .

ليس من المستغـرب أن يستجيب سكان المـدينة المتنـازعـون والمتنـاحـرون إلى الـدعـوة الاسلامية الهادية الموحدة بيسر وسهولة ، حينما حملها إليهم أولئك النفر الذين قـابلوا الرسـول في مكة ، ووعدوه أن يبشروا قومهم بها . وما انقضى عام واحد على وصولهم حتى سـرى ذكر رسول الله وذكر الدعوة الاسلامية في كل دار من دور الأنصار(6) وكان من الطبيعي ذلك اليسر

---

(3) السيرة النبوية لابن هشام ج 1 ص 266 . . . وانظر حياة محمد لمحمد حسين هيكل ص 190

(4) السيرة النبوية لابن هشام ج 1 ص 267

(5) المصدر نفسه ج 1 ص 267

(6) المصدر نفسه ج 1 ص 268-269

في انتشار الاسلام ، فهل تستأذن الشمس لتنشر نورها في رحاب الأرض وتحيي مواتها ؟ وهل يتعثر الهواء من الدخول إلى صدور الناس ليغذي القلوب وينشطها ؟ وكذلك الاسلام عمل في بث الحياة في النفوس وزرع الأمل في توحيد القلوب حول هدف واحد وغاية واحدة .

تألف وفد من أهل المدينة من اثني عشر رجلاً للسفر إلى مكة ، ومبايعة الرسول ﷺ على قبول الاسلام . « وعلى ألا يشركوا بالله شيئاً ، ولا يسرقوا ، ولا يزنوا ، ولا يقتلوا أولادهم ، ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ، وعلى ألا يعصوا رسول الله ﷺ في معروف »(7) وقد عرفت هذه البيعة ببيعة العقبة الأولى ، وكذلك ببيعة النساء ، لأن الرسول ﷺ بايع بعد ذلك النساء بمقتضاها(8) .

وبعد بيعة العقبة الأولى بدأ الاسلام ينتشر بسرعة وذلك بعد أن حدث (النفر الخير) عن شخصية رسول الله الخارقة ، وعن دعوته المباركة . والنجاح الكبير الذي حققه الاسلام في يثرب هو في إقناع رؤساء العشائر في المدينة على اعتناق الاسلام ، مما جعل جميع السكان العرب يرحبون بفكرة توجيه الدعوة للرسول للهجرة الى مدينتهم سواء أكانوا من المؤمنين أم من المشركين(9) .

أما المؤمنون فقد رحبوا بدعوة الرسول ﷺ بحكم إيمانهم برسالته ، **وأما المشركون فقد** تضامنوا مع رؤساء قبائلهم وأبناء عشائرهم في اتخاذ موقف ر ي من الرسول ﷺ ، عملا بالعرف القبلي الذي يقضي بتضامن أفراد القبيلة يداً واحدة وقلباً واحداً في السراء والضراء . هذا العرف القبلي كان له الدور الفعال في توجيه القبيلة رغم إرادة الفرد في بعض الأحيان حتى قال شاعرهم :

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت   وإن ترشد غزية أرشد

وكان في المدينة فوق كل هذا اليهود ، فما كان موقفهم من دعوة الرسول ﷺ إلى المدينة ؟

حسب ما ذكر المؤرخون كان اليهود يشكلون أقلية بالنسبة لمجموع سكان المدينة . وكانت تربطهم بالعرب أحلاف قبلية تلزمهم باحترام قرارات حلفائهم ، لذا كان الواجب يحتم عليهم احترام رغبة بقية سكان المدينة بدعوة الرسول ﷺ للهجرة اليها .

الى جانب آخر ، اليهود هم من الذميين ، أهل كتاب ، ومبادىء الدين الاسلامي أقرب الى اليهودية من الوثنية التي كانت سائدة في الجزيرة العربية . وفوق هذا كله لم يدر في خلد اليهود للوهلة الأولى أن الاسلام يشكل خطراً على وجودهم الاقتصادي والسياسي والديني والاجتماعي .

---

(7) المصدر السابق ج 1 ص 268-269

(8) المصدر نفسه ج 1 ص 272-273

(9) السيرة النبوية لابن هشام ج 1 ص 272

ولربما فكروا أن وجود الرسول ﷺ في المدينة يسبب الهدوء والإستقرار والأمن وهو أمر ضروري لانعاش اقتصادياتهم[10].

لذلك لم يظهر اليهود أية معارضة لفكرة دخول الرسول الى المدينة . وما أن حان موعد الحج الى مكة بعد سنة من بيعة العقبة الأولى ، حتى أرسل سكان المدينة وفداً مؤلفاً من خمسة وسبعين شخصاً « ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتين » الى مكة لمقابلة الرسول ﷺ ودعوته للهجرة إلى المدينة . وكان الوفد يضم بين أفراده كبار رؤساء العشائر والأسر المدنية من قبيلتي الأوس والخزرج ، مما يفصح عن رغبة القوم الصادقة في قبول الاسلام ودعوة الرسول إلى مدينتهم[11].

وفي ليلة مقمرة جميلة تمت المقابلة بين الرسول ﷺ والوفد ، عند موضع يدعى العقبة . وكانت المقابلة محاطة في غاية من السر والكتمان وذلك خشية مداهمة رجال قريش مكان الاجتماع وإيقاع الأذى بالمجتمعين .

وفي جو يسوده الحماس الديني والاندفاع القوي لنصرة العقيدة الجديدة ومساندة الدعوة الاسلامية الحقة وطاعة الرسول القائد ، تمت البيعة المباركة على أن يهاجر الرسول وأصحابه المخلصون من أهل مكة الى المدينة ، مقابل أن يتعهد المدنيون بالدفاع عن الرسول ﷺ كما يدافعون عن أنفسهم وذويهم[12].

وبعد البيعة التي دعيت بالبيعة الثانية عيّن الرسول ﷺ اثني عشر نقيباً ـ باعتباره قائداً أعلى للجماعة الاسلامية ـ ليكونوا رؤساء على قومهم ، ومعاونين للرسول في إدارة شؤون المدينة . ثم أمرهم بالتفرق بهدوء كي لا يشعر القرشيون بأمر اجتماعهم[13]وكان ذلك الوقت فاتحة دعوة للمكيين من أجل الهجرة الى المدينة بعد أن أصدر الرسول أوامره اليهم ، وأصبحت المدينة مركز الدعوة الجديدة وانطلاقة خيرة للدين الجديد . وبقي الرسول ﷺ منتظراً حتى تمت هجرة معظم المكيين الى المدينة .

وقد أحست قريش بهذا الأمر الخطير المهدد لكيانها ، فليس لها والحالة هذه إلا التخلص من الرسول ﷺ ، فصممت على قتله للحيلولة بينه وبين نجاح خطته . وقد كان المسلمون في المدينة ينتظرون الرسول ﷺ بفارغ الصبر حتى وصلها سالماً في ربيع الأول عام 622 هـ[14].

يمكن اعتبار هذا التاريخ 622 هـ هو تاريخ نشأة الدولة الاسلامية الأولى ، إذ اكتملت فيه العناصر الضرورية للدولة ، من سلطة سياسية متمثلة بزعامة الرسول ﷺ ، وشعب مؤلف من الأوس والخزرج والمهاجرين واليهود ، واقليم محدد بحدود يثرب . وبقيت على

(10) سيرة الرسول لدروزة ترجمة محمد عزة ج 2 ص 51
(11) السيرة النبوية لابن هشام ج 1 ص 273
(12) المرجع نفسه ج 1 ص 275
(13) المرجع نفسه ج 1 ص 276
(14) مروج الذهب للمسعودي ج 2 ص 297

الرسول ﷺ مهمات صعبة يتحتم عليه إنجازها في أول حكمه للمدينة . كان أهمها : تدعيم أواصر الوحدة بين طوائف شعب المدينة ، وتقوية مركزه من حيث هو رئيس الدولة الأعلى الذي يجمع بيده كل السلطات .

ثم التفرغ لتصفية حسابه مع خصوم الدولة الاسلامية في الجزيرة العربية ، من أجل نشر الاسلام في مختلف أنحائها .

إذن كان على الرسول التنظيم الداخلي والتنظيم الخارجي . فمن الناحية الأولى اهتم بالمؤاخاة بين المسلمين . كان هم الرسول ﷺ الأكبر أن يصل بالمدينة ، موطنه الجديد ، إلى وحدة سياسية ونظامية لم تكن معروفة من قبل في سائر أنحاء الحجاز(15).

فكان أول ما انصرف إليه تفكيره هو تنظيم صفوف المسلمين ، وتوكيد وحدتهم ، والقضاء على أية شبهة قد تثير الضغائن القديمة فيما بينهم . ولتحقيق هذه الغاية دعا المسلمين ليتآخوا في الله أخوين أخوين . فكان هو وعلي بن أبي طالب أخوين وفي ذلك قال عليه السلام (علي مني كهارون من موسى . . . ﴾(16). وكان أبو بكر وخارجة بن زيد أخوين ، وكان عمر بن الخطاب وعِتْبان بن مالك الخزرجي أخوين ، وكان عم الرسول ﷺ الحمزة ومولاه زيد أخوين . وتآخى كذلك كل واحد من المهاجرين الذين زاد عددهم في يثرب ، مع كل واحد من الأنصار إخاءً جعل له الرسول حكم إخاء الدم والنسب سواء . وبهذه المؤآخاة إزداد بنيان الوحدة الاسلامية صموداً وازدادت وحدتهم توكيداً .

المودة مع اليهود :

عندما اطمأن النبي محمد ﷺ الى وحدة المسلمين عن طريق المؤاخاة ، عمد الى الإتفاق مع اليهود على أساس متين من الحرية والتحالف والمودة . ولا شك أن هذا العمل يعد من الأعمال السياسية الجليلة التي تدل على قدرة النبي محمد ﷺ في السياسة ، وحنكته في تدبير أمور المجتمع وترسيخ الوحدة بين أفراد أهل يثرب . وقد رأينا كيف أن اليهود أحسنوا استقباله بترحيب بالغ ، وذلك بغية استدراجه إلى دينهم ، كما بادر هو بدوره إلى رد تحيتهم بمثلها ، وإلى توثيق صلاته بهم . فتحدث إلى رؤسائهم فاستهوى بحديثه قلوبهم ، وتقرب إلى كبرائهم فربط بينه وبينهم برابطة المودة ، كأهل كتاب موحدين . وبلغ من ذلك أن كان يصوم يوم صومهم ، وكانت قبلته في الصلاة ما تزال إلى بيت المقدس قبلة أنظارهم ومثابة بني إسرائيل جميعاً . وما كانت الأيام لتزيده باليهود ، أو لتزيد اليهود به إلا مودة وقربى . كما أن سيرته المحمودة ، وعظم تواضعه ، وجميل عطفه وحسن وفائه ، وفيض بره ، وسمو أخلاقه نحو البائس والمحروم ، كل ذلك كان يعطيه من قوة السلطان على أهل يثرب .

وقد وصل الأمر بينه وبينهم الى عقد معاهدة صداقة ، وتقرير لحرية الاعتقاد والتحالف .

هذا الدور من حياة الرسول لم يسبقه إليه نبي أو رسول . فقد كان محمد ﷺ الرسول ،

---

(15) وإن كانت قد عرفت إلى ما قبل ذلك بكثير ببلاد اليمن .

(16) راجع الخطبة التي ألقاها عليه السلام في حجة الوداع .

والسياسي ، والمجاهد ، والفاتح . كل ذلك في سبيل الله وفي سبيل كلمة الحق التي بعث بها ليتم نشر الاسلام على يديه .

ومن أبرز ما كتب الرسول ﷺ الوثيقة السياسية الخطيرة بين المهاجرين والأنصار كتاباً واعد فيه اليهود ، وعاهدهم ، وأقرّهم على دينهم وأموالهم ، واشترط عليهم وشرط لهم .

وخليق بنا أن نتساءل عن طبيعة نشأة هذه الدولة ؟ يبدو لنا أنه قد تعاون في أمر نشأة الدولة الاسلامية عاملان رئيسان . أولها :

عامل ديني Theocracie ذلك لأن المسلمين قد قبلوا زعامة الرسول ﷺ السياسية وخضعوا لها بسبب إيمانهم بدعوته ، واعتقادهم أنه رسول الله وان الله قد أمرهم بطاعته والخضوع لأوامره كما جاء في القرآن الكريم ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾[17].

والعامل الثاني عامل تعاقدي مبني على أساس فكرة العقد الاجتماعي بين الحاكم وشعبه (Contrat social) وذلك لأن الرسول ﷺ قد أسس سلطته السياسية على أساس من رضى سكان المدينة الذي تجسد في بيعتي العقبة الأولى والثانية ، واللتين تعهدوا بموجبها بطاعة الرسول ﷺ والالتزام بالدفاع عنه ، مقابل تعهده لهم بترك مدينته مكة والهجرة إلى يثرب للاقامة فيها . من هذا يتضح لنا أن الدولة الاسلامية دولة قامت على أساس ثنائي ثيوقراطي ـ ديمقراطي في آن واحد .

وسؤال يسأله الكثيرون ، هل كان للسيف من دور في نشأة الدولة الاسلامية ؟

يبدو جلياً للباحث في تاريخ الاسلام أن هذا العامل لم يكن له أثر في نشأة هذه الدولة ، إنما كان له أثر واضح في توسعها وتدعيم أركانها . ذلك أن الرسول ﷺ لم يلجأ إلى السيف لمحاربة خصومه إلا بعد نشأة الدولة الاسلامية في المدينة ، إذ لم يكن يملك القوة التي تمكنه من استخدام السيف في المرحلة المكية .

ما نزل من القرآن الكريم في المدينة المنورة

كما تتبع العلماء والفقهاء علم أسباب النزول وما صح من وجوه الترابط بين آياته ، بما عرف عنهم من ورع بالغ وحاسة نقدية مرهفة ، تعني بالتناسق الفني ولا تهمل التاريخ ، اهتموا أيضاً بالعلم المكي والمدني . فتناولوا القرآن الكريم سوراً وآيات ، لأن كل سورة فيه إما مكية أو مدنية ، وقد تستثنى من السور المدنية بعض آيات مكية ، ومن السور المكية آيات مدنية ، فكل آية من القرآن معروفة « الهوية » واضحة السيرة ، فإذا ما اختلطت مع غير زمرتها أخضعها العلماء الجهابذة لمقاييسهم النقدية الدقيقة فعينوا انتماءها المكي أو المدني .

لقد كان العلم بالمكي والمدني إذن خليقاً بالعناية البالغة عند العلماء فهو بحق منطلقهم لاستيفاء البحث في مراحل الدعوة الاسلامية ، والتعرف على مراحلها المتدرجة مع الأحداث والمرتبطة بالظروف ، وإلى مدى تجاوبها مع البيئة العربية في مكة والمدينة ، وفي البادية

(17) سورة النساء الآية 80

والحاضرة ، وذلك في مخاطبة الرسول الكريم المؤمنين وأهل الكتاب والمشركين . وقد طاف بأذهان العلماء بحوث مختلفة الألوان في هذا المجال ، فهو في آن معاً ترتيب زماني ، وتحديد مكاني ، وتبويب موضوعي ، وتعيين شخصي ، فترددوا في تحديد المكي منه والمدني على أساس من الزمان أو المكان أو الأشخاص . فمنهم من قال : « المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة ، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة » ومنهم من آثر الاصطلاح المعروف : « المكي ما نزل قبل الهجرة إلى المدينة ، وإن كان نزوله بغير مكة ، والمدني ما نزل بعد هجرة الرسول ﷺ الى المدينة ، وإن كان نزوله بمكة . فالقسم الأول من العلماء راعوا أشخاص المخاطبين ، والقسم الثاني عنوا بالترتيب الزمني في مراحل الدعوة الاسلامية[18]. وفريق آخر أضاف عنصراً آخر ، ألا وهو عنصر الموضوع[19].

وبهذا المنهج التاريخي الزمني الذي لم ينس الآفاق النفسية والأطوار الاجتماعية ، ولم يتجاهل أثر البيئة في الحياة والأحياء ، أخذ المحققون من علمائنا ، وشددوا على كل من أراد الخوض في هذا المجال .

ورد في البرهان للزركشي : « قال الحسن بن حبيب النيسابوري : من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته ، وترتيب ما نزل بمكة ابتداءً ووسطاً وانتهاءً وترتيب ما نزل بالمدينة كذلك ، ثم ما نزل بمكة وحكمه مدني ، وما نزل بالمدينة وحكمه مكي »[20].

وقد لاحظ العلماء أن أكثر القرآن نزل نهاراً بصورة عامة ، ولكن هذه القاعدة لم تتبع في بعض الحالات الجزئية ، فسورة مريم مثلاً نزلت ليلاً كما روى الطبراني عن أبي مريم الغساني قال : « أتيت رسول الله ﷺ فقلت له : ولدت لي الليلة جارية ، فقال : « والليلة أنزلت عليَّ سورة مريم ، سمها مريم »[21].

وأما ما أورده اليعقوبي من السور التي نزلت عليه ﷺ بالمدينة فهي :

إثنان وثلاثون سورة : أول ما نزل ﴿ ويل للمطففين ﴾ (83) ثم سورة البقرة (2) ثم سورة الأنفال (8) ثم سورة آل عمران (3) ثم سورة الحشر (59) ثم سورة الأحزاب (33) ثم سورة النور (24) ثم سورة الممتحنة (60) ثم سورة الفتح (48) ثم سورة النساء (4) ثم سورة الحج (22) ثم سورة الحديد (57) ثم سورة محمد (47) ثم سورة الدهر (76) ثم سورة الطلاق (65) ثم سورة البينة (98) ثم سورة الجمعة (62) ثم سورة السجدة (32) ثم سورة المؤمن (23) ثم سورة المنافقون (63) ثم سورة المجادلة (58) ثم سورة الحجرات (49) ثم سورة التحريم

---

(18) راجع الاتقان في علوم القرآن (للسيوطي) ج 1 ص 13 والبرهان في علوم القرآن (للزركشي) ج 1 ص 187

(19) راجع مباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي الصالح ص 168 .

(20) راجع المرجع السابق البرهان ج 1 ص 192 . والنيسابوري : هو النحوي المفسر ، إمام عصره في القراءات ، توفى سنة 406 هـ (بغية الوعاة للسيوطي ص 227) .

(21) الاتقان ج 1 ص 35 والطبراني هو الحافظ صاحب التصانيف الكثيرة وأشهرها المعاجم : الكبير والأوسط والصغير توفى 360 هـ (انظر الرسالة المستطرفة لمحمد بن جعفر الكتاني) ص 30 .

(66) ثم سورة التغابن (64) ثم سورة الصف (61) ثم سورة المائدة (5) ثم سورة براءة (9) ثم سورة النصر (110) ثم سورة الواقعة (56) ثم سورة العاديات (100) ثم المعوذتين وكان آخر ما نزل :

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ، فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾ .

وقد قيل إن آخر ما نزل عليه ﷺ ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا . . . ﴾ .

قال اليعقوبي : « وهي الرواية الصحيحة الثابتة الصريحة . وكان نزولها يوم النفر على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه[22]وقال ابن عباس : كان جبريل إذا نزل على النبي بالوحي يقول له : ضع هذه الآية في سورة كذا في موضع كذا ، فلما نزل عليه ﴿ إتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ﴾ قال : ضعها في سورة البقرة .

أما عن المواضيع التي نزل فيها بما فيها من أحكام وفرائض وشرائع وعبر وأمثال . قال ابن مسعود :

﴿ نزل القرآن بأمر ونهي وتحذير وتبشير ؛ وقال جعفر بن محمد : نزل القرآن بحلال وحرام ، وفرائض وأحكام ، وقصص وأخبار ، وناسخ ومنسوخ ومحكم ومتشابه ، وعبر وأمثال ، وظاهر وباطن ، وخاص وعام . وتابع : وأقام رسول الله يتلوم ويتهيأ للقتال حتى أنزل الله ، عزّ وجل :

﴿ أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظُلِموا وإن الله على نصرهم لقدير الحج الآية 39 ﴾ ، والآية التي بعدها : ﴿ وقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك ﴾ النساء (84) إلى آخر الآية . فكان الرجل من المؤمنين يُعدُّ بعشرة من المشركين حتى أنزل الله عزّ وجل : الأنفال الآية 66 ﴿ الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضَعْفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألفٌ يغلبوا ألفين ﴾ . ثم أنزل الله عليه سيفاً من السماء له غمد ؛ فقال له جبريل : ربك يأمرك أن تقاتل بهذا السيف قومك حتى يقولوا : لا إله إلا الله وإنك رسول الله فإذا فعلوا ذلك حرمت دماؤهم وأموالهم إلا لحقها وحسابهم على الله . وكان أول لواء عقد في الاسلام لحمزة بن عبد المطلب[23] .

وقد عرف العلماء الذين بحثوا في هذا العلم طريقتين لمعرفة المكي والمدني قياسي وسمعي . كما عرفوا أن لكل نوع منها ضابطاً قياسياً له طابعه وخصائصه . ولم يتعذر عليهم وضع أيديهم على زمر متشابهة وفصائل متماثلة ، برزت فيها ملامح صريحة جزموا معها بأنها مرحلة أولى أو متوسطة أو نهائية في مكة أو في المدينة .

---

(22) تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 43

(23) المرجع نفسه ص 44

ومما يبدو لنا أن جميع الحقائق التي عالجتها المرحلة الأولى في الكون والحياة والانسان قد عالجتها أيضاً المرحلة الثانية ، بيد أنها وسعت نطاقها ، وفصلت جزئياتها ، فالتوحيد والوحي والبعث والجزاء كلها أثيرت في أوائل الوحي ولكن بدون تفصيل ، إذ كان المقصود تحريك النظر ولفت الانتباه الى عقيدة التوحيد ، حتى إذا عرف المشركون عنها أشياء أولية أجابهم القرآن بالأدلة الواضحة والبراهين القاطعة .

أما المرحلة الختامية الثالثة فقد تميزت بطول سورها ، وتفصيلها المواضيع تفصيلاً منطقياً عن طريق الشرح والبرهان وضرب الأمثال ، والقصص القرآني ، لعلهم يتذكرون .

وملاحظة أخيرة يلاحظها كل متأمل باحث في القرآن الكريم ، إن من حيث الموضوعات أم من حيث الأسلوب ، فيرى أن تنوع الموضوعات كان الباعث الأهم على تنوع الأسلوب القرآني . فقد كان يشتد أو يلين ، يفصل أو يجمل ، يرهب أو يرغب ، وذلك تبعاً لحال المخاطبين . ولا يخفى أن هذا سر من أسرار الإعجاز التي امتاز بها كتاب الله على مدى العصور والدهور .

الفصل الثاني
لمحة تاريخية عن النظم الحضارية قبل الاسلام

تأثير حضارة البيزنطيين والفرس على البلاد العربية

نظم بيزنطية

تدلنا الوقائع التاريخية أن البلاد العربية كانت مقسومة إلى قسمين قبيل ظهور الاسلام - قسم منها : مصر والشام وافريقية الشمالية خاضع للدولة البيزنطية (الرومية الشرقية) وقسم آخر : العراق وفارس وخراسان والأقاليم المجاورة لها تابع للدولة الفارسية (الساسانية) .

ومما يبدو أن الروابط الفكرية الحضارية كانت ألصق في بلاد العرب ببيزنطية منها بفارس ، وذلك في الفترات الجاهلية السابقة للاسلام ، ونخص بالذكر مسائل التشريع والعقائد ، إذ أمست الامبراطورية البيزنطية تدين بملّة سماوية تشابه تعاليمها تعاليم الدين الاسلامي في كثير من الأصول .

ولا بد لنا من تصوير لمحة موجزة عن نظم هاتين الامبراطوريتين (بيزنطية وفارس) متتبعين الخطوات الاصلاحية التي أرساها الدين الاسلامي في بناء الحضارة الجديدة . فمن أصول تشريعية ، إلى آداب توجيهية ، إلى حقائق في السياسة والاقتصاد والاجتماع ، كان لها الدور الاساسي في تنظيم الحياة الانسانية .

ولا ريب أن الدين الاسلامي الحنيف قد استبقى بعض النظم والأعراف والعادات التي لمس فيها النواحي الايجابية ، كما تعمد ترك بعض الاوضاع والقوانين السلبية ، والأهم من هذا كله ما أثاره الدين الاسلامي في العقول والنفوس من انقلاب فكري ونفسي ، بعيد الأثر في تغيير الحياة الاجتماعية الى حياة أبقى وأنقى وأرقى .

لمحة عن معالم الدولة البيزنطية

شيد قسطنطين الكبير (324 -337) عاصمة الامبراطورية البيزنطية « القسطنطينية » بوجهين مختلفين أحدهما روحي بتقاليده ، والآخر هيليني بثقافته . وبتعبير أدق لم تكن ذات طابع مسيحي خالص . ومع ذلك ، إذا أردنا المقارنة بينها وبين الدولة الاسلامية نلاحظ أنها كانت أقرب اليها من الدولة الفارسية . وان تشريعها وتشريع الاسلام مجال متقاربين . وفي جميع الأحوال لم تكن الدولة الرومية وثنية ولا مجوسية كما عند دولة الفرس ، ولم تعتمد أي

ضرب من عبادة غير الله ، عبادة الطاغوت . جاء في القرآن الكريم : ﴿ الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت . . ﴾[1] .

استمرار القلق والحروب في الدولة البيزنطية

كانت الامبراطورية البيزنطية امتداداً لإمبراطورية الروم الأولى ، وكان من أشهر أباطرتها الامبراطور جستنيان (527 -565) . فهو الذي نهض بالدولة أشواطاً بعيدة الى الأمام ، ولكن ما يبنيه كانت الحروب تفنيه . جاء بعده الامبراطور العظيم والقائد الكبير هرقل (610 -641) وفي عهده انضوى تحت لواء الاسلام كل من الشام ومصر وافريقية . ومما يؤثر عن هذه البلدان أنها انطبعت بطابع الدولة الاسلامية وتلقت الكثير من حضارتها العظمى .

ولو عدنا قليلاً إلى الوراء وألقينا نظرة عابرة على الأقاليم الشرقية ، لألفينا الدولة البيزنطية في حرب دائمة لا ينطفيء أوارها وعلى وجه الخصوص مع الفرس . فمنذ عام 502 شن قباذ الفارسي الحرب على أنسطاسيس البيزنطي ولم تهدأ حملاته على بيزنطية حتى وافته المنية سنة 531 في عهد جستنيان .

وقد استمر القتال بين جستنيان وكسرى أنوشروان الأول حتى سنة 591 . إلى أن كان كسرى أبرويز الثاني حيث استمر بغزواته المتواصلة مدة ربع قرن ضد الامبراطور هرقل (603 حتى 628) .

والأمر الغريب العجيب أن تلك الوقائع والحروب كانت تتكرر دون أي هدف معين ودون أن تقرر شيئاً . لم يكن وراءها غايةً معينة وكل ما يقال عنها أنها للتخريب والفساد والدمار تاركة في القلوب الحزن القاتل وفي النفوس الأسى العميق .

الحكم البيزنطي

نظام الحكم في الدولة الرومية استبدادي أوتوقراطي منذ عهد أغسطس (31 ق.م.) هذا الحكم يعتمد على سلطة الحاكم الفرد المطلق ، تتجمع السلطات كلها في يد الامبراطور الذي كان في نظر البيزنطيين ذا صفة إلهية .

وعندما تحولت الامبراطورية إلى المسيحية أضحى الامبراطور يتم تعينه من قبل الله . منذ ميلاده مسيطراً على البشر لا معقب لحكمه لأنه ينفذ إرادة السماء . وقد وصف المؤرخون هذا النظام من الحكم في تلك الامبراطورية فأطلقوا عليها القيصرية البابوية .

فالامبراطور هو رئيس الكنيسة موكل بحمايتها وتفسير عقائدها ، كما كان في الوقت نفسه القائد الأعلى للجيش ، ورئيس الهيئة الدستورية والادارة المالية . وباختصار يجمع كل السلطات في جعبته ، الدينية والدنيوية . هو ظل الله على الأرض ونائبه ، ينفذ إرادة الله ! وهل يستطيع البشر بعد ذلك من سؤال أو اعتراض !!

---

(1) النساء الآية 76 .

وقد يستعين الامبراطور ببعض مستشاريه إن شاء ، ولكنه في كل الأحوال هو الذي يقرر لكل ولاية ما تحتاجه من نفقات في كل عام ، وعلى حكام الولايات تقسيم ما يخص كل إقليم ، حتى ينتهي الأمر الى السلطات المحلية الصغرى في كل قرية . ولا يخفى أن التفويض الإلّـهي Délégation divine في كل الشؤون وعلى الأخص المالية منها من الاشارات الواضحة على مدى تسلط الامبراطور على جميع مقدرات الدولة . والادارة البيزنطية المعنية بالتنفيذ (البيروقراطية) خاضعة في كل الأمور للامبراطور نفسه أو من ينوب عنه من الولاة .

ولا شك أن مثل هذا الوضع يرهق الرعية بالضرائب الباهظة .

الضرائب في الدولة البيزنطية وأنواعها :

كانت الإدارة البيزنطية (البيروقراطية) تخصص بعض نفقاتها لبناء المؤسسات العامة والكنائس ، والصدقات ، ولكن القائمين على هذه الأموال كانوا لا يتقون الله في كيفية الانفاق ولا في كيفية الجمع . فكم من الأقاليم قد خربت وكم من الآلاف قد أعدموا ، وكم من الثروات قد ابتزت ظلماً من أجل تضخيم ثروة الامبراطور . فمنذ عهد جوستنيان أرهقت الدولة الرعايا بالضرائب الباهظة التي أثقلت كاهل الشعب وبات ينوء تحت حمل ثقيل لا يستطيع الاستمرار في حمله . وبعد جوستنيان باتت خزانة الدولة فارغة في أواخر القرن السادس والاضطراب يسود جميع المناطق وسط شعب يصيح متذمراً من وطأة الفقر والظلم والحرمان .

استمرت الحال على هذا المنوال حتى القرن السابع ، حيث أصبحت الدولة أشلاء يهددها الفقر والعوز بالانقراض ، وكان الافلاس في عهد هرقل ، حيث الحروب المتواصلة مما استنزف خزائن المال ، حتى اضطر الامبراطور الاقتراض من ثروة الكنائس على أن يرد الدين بالربا . والشعب ليس أمامه إلا دفع الضرائب الباهظة أو الموت . أمران كلاهما مُرٌّ .

وقد تفنن البيزنطيون في نوع الضريبة فكان منها ضروب وألوان . فمن ضرائب الأراضي (**الخراج**) الى ضرائب على الرؤوس (**المكوس**) الى ضرائب على المواشي (**الأعشار**) إلى غير ذلك مما كان يراه الحاكم مناسباً .

أما تحديد مقادير هذه الضرائب فأمر من اختصاص الامبراطور ذي التفويض الإلهي ، وظل الله على أرض العمال والكادحين . . . .

والأمر الغريب عن جمع المبالغ المقررة إلى خزانة الدولة ، التي هي فوق كل مصلحة ، فمسؤولية القرية كلها ـ بالتضامن الجماعي . فكان لزاماً على أفراد المجتمع الصغير في كل قرية على حدة من تأمين الضريبة المفروضة مهما تكن باهظة .

من هنا ، هذه المسؤولية الجماعية أعانت على خلق نظام الحماية الذي يتمثل في أن يضع المزارع أرضه تحت تصرف أحد الأغنياء ، ليتولى هذا الثري هو بنفسه دفع ضريبتها بدلاً منه . ويكون في هذا حماية للضعيف الفقير من عسف الحكام المستبدين وجورهم .

ليس بين أيدينا إحصاء دقيق عن مقادير الجزية التي كانت تفرض على أرقاء الأرض في

السلم ، وحتى على الأحرار في الحرب (فريضة الرؤوس) ولكن في الخطاب الذي أرسله عمرو بن العاص فاتح مصر إلى الخليفة عمر بن الخطاب ، إشارة تدل إلى أربعين ألفاً من اليهود كانوا في الاسكندرية يدفعون الجزية . وقد بلغت هذه الضريبة ستة عشر درهماً في القرن الأول على الشخص الواحد ، ثم ارتفعت إلى عشرين درهماً في القرن الثاني[2] . وكما فرضت ضرائب على الانسان كذلك ضرائب العشور على الحيوان .

فجميع المواشي من إبل وبقر وغنم وماعز وحمير على أصحابها أن يدفعوا عليها ضرائب تحدد مقاديرها بإرادة امبراطورية . فضريبة الجمل الواحد كانت تبلغ أحياناً عشرة دراهم[3] وكذلك أيضاً جميع السلع المباعة عليها ضريبة للدولة تبلغ 10% والمنازل التي تم بناؤها حديثاً والبحارة والقرابين في الكنائس . ونختصر القول بأن نظام الضرائب البيزنطية كان أشد ظلماً وأكثر جوراً من أي نظام قديم .

الاضطهاد الديني :

كان دين الدولة الرسمي المذهب الملكاني فكل مواطن لا يدين بدينها كالآخذ بالمذهب اليعقوبي كانت تفرض عليه مذهبها بالقوة والويل لمن يخالف ! فقد يحرق جسده بالنار ، وقد يوضع في كيس مملوء بالرمل ويلقى به في البحر . فالدولة البيزنطية كانت تحمل الناس حملاً على الإيمان وهذا منتهى الجهل والاستخفاف بكرامة الانسان ، وبقي الحال على ما وصفنا من الظلم والاضطهاد حتى جاء الاسلام السمح الكريم فبدد الظلمات وأعطى للإنسان الحرية المطلقة في اعتناق دينه ، بعد أن بين له معالم الطريق بأمثلة وبراهين واقعية . فلم يكره أحداً « لا إكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي » .

نظم فارس

تآكل الدولة

كانت دولة الفرس عزيزة الجانب نافذة السلطان ، حافلة بأسباب الحضارة والعمران ، ولكن الصراع الداخلي بين ملوكها ، والفساد المستشري داخل الدولة والدسائس والمكايد ، كل ذلك مزق أوصالها وجعل منها دولة عفنة ينخر في جسدها سوس الفساد من جراء الحقد الذي يغلي في صدور العباد . وحسبك دليلاً واضحاً أن أحد عشر ملكاً تعاقبوا على الحكم في أقل من خمس سنوات .

في أوائل القرن السابع بدأ كسرى أبرويز بإشعال نار الحرب مع الامبراطورية البيزنطية التي استمرت ربع قرن تحرق الأجساد وتفتت الأكباد (603 -628) وبدأت جيوش كسرى في اكتساح البلدان محولة كل شيء أمامها الى رماد انتصر ابرويز على المغتصب فوقاس سنة

---

(2) انظر النظم الاسلامية للدكتور صبحي الصالح ص 25 عن فتح العرب لمصر (لبتلر) ترجمة فريد أبو حديد .

(3) المرجع نفسه ص 26 .

(603- 610) ومن ثم وجه إنذاراً الى الامبراطور هرقل سنة (610) ولكن هذا الانذار كان شؤماً عليه .

ففي سنة 627 جمع هرقل جنوده وهاجم كسرى أبرويز على حدود بلاده وهزمه في نينوى هزيمة منكرة . وعند ذلك بدأ النفوذ الفارسي بالتقلص رويداً رويداً . وانتهت حياة كسرى بثورة ابنه شيرويه عليه وقتله إياه سنة 628 . ولكن هذا الابن الغادر بأبيه لم يعش أكثر من ثمانية أشهر ، تولى بعده الحكم أردشير وكان هذا صبياً ليس له من العمر إلا سبع سنين ، مما دعا قائد جيشه شهربراز الى اغتصاب العرش بعد أن أمر بقتل أردشير .

وكما استلم الحكم غدراً ، انتزع الحكم منه بعد أربعين يوماً من تسلمه العرش على يد رجال الحرس عنده ، فقتلوه وشنعوا به .

بعده تولت الحكم بنت كسرى أبرويز (بوران) غير أنها ماتت بعد سنة وعدة أشهر فخلفها رجل من أسرة الأكاسرة اسمه جشنسدة لم ينعم بالحكم سوى شهر واحد . من بعده استلمت الحكم أخت بوران آزرميدخت بعد أن قتلت فروخ هرمز أصبهذ خراسان ، ولكن ابنه رستم انتقم لأبيه وقتل آزرميدخت وسمل عينيها وتوالى بعد ذلك خمسة أشخاص في زمن خاطف قصير كان آخرهم يزدجرد الثالث بن شهريار بن كسرى أبرويز آخر ملوك بني ساسان ، وفي عهده تمت الفتوح الاسلامية العظيمة[4] .

نظام الحكم في الامبراطورية الفارسية

كان نظام الحكم في دولة بني فارس ، منذ عهد مؤسسها أردشير الأول سنة 226 م حتى نهاية حكمها في عهد يزدجرد الثالث ، استبدادي فردي يقوم على الاعتقاد بنظرية الحق الإلهي المقدس . هذا الحق هو الذي أتاح لأردشير مؤسس الدولة أن يطلق على نفسه ملك الملوك (شاهنشاه) .

هذه الدولة نظامها نظام طبقي . يتكون من عدة طبقات : طبقة الأشراف الدهاقين ، وطبقة النبلاء المرازبة ، وطبقة رجال الحرب الأصابذة ، وطبقة رجال الدين الموابذة وكل طبقة من هذه الطبقات يتفرع عنها فروع أخرى .

- الدهاقون ـ جمع دهقان : زعيم فلاحي العجم ورئيس الاقليم[5] وقد أكثرت المصادر التاريخية الاسلامية من ذكرهم[6] عناصر هذه الطبقة من الأشراف يملكون الأراضي الواسعة والعقارات الضخمة وهم الواسطة بين الراعي (الملك) والرعية (الشعب) .
- والنبلاء المرازبة هم حكام الولايات . وقد ورد ذكرهم في عقود الصلح التي عقدها القادة العرب في فتح الأقاليم ، في تاريخ الطبري ، والكامل لابن الأثير .

---

(4) راجع التفاصيل في تاريخ الطبري ج 2 ص 166 ومروج الذهب للمسعودي ج 1 ص 120 وتاريخ اليعقوبي ج 1 .

(5) انظر القاموس المحيط للفيروز ابادي .

(6) راجع فتوح البلدان للبلاذري 463 .

ـ والأصابذة هم رجال الحرب يؤلفون الطبقة العسكرية ، تخضع لأمرة القائد الأكبر (إيران أصبهد) . كان الشاهنشاه يختار من بعض الفرسان النبلاء وحدات خاصة له يسميهم الأساورة ، يعتبرهم النخبة الأولى من الجيش ، يستعملهم لحمايته في الأزمات الصعبة .

ـ والموابذة من رجال الدين كانوا دولة داخل دولة ، وعلى الأخص في عهد أردشير كان لهم سلطان بارز وتأثير كبير لم يكن مصدره سلطانهم الروحي وحسب ، بل كان صادراً عن الاستقلال المادي الذي كانوا يمارسونه بحرية كاملة . من غرامات دينية ، وعشور ، وهبات ، كانت مطمع أنظار كبار رجالات الدولة . فلا عجب إذا خولتهم الدولة سلطات كبيرة ، ولا غرابة إذا ساروا جنباً إلى جنب مع نبلاء الاقطاع . هذا النفوذ الكبير للموابذة سمح لهم بفرض أنظمتهم على أفراد الرعية جميعاً . واضطهادهم لمعتنقي الملل السماوية ، ولا سيما المسيحيين بعد أن ازداد القتال عنفاً بين دولة بيزنطية ودولة الفرس(7) .

الضرائب في الدولة الفارسية

كان ملوك الفرس يقاسمون الفلاحين غلال أرضهم ، فيأخذون من خراج بعضها الثلث ، أو الربع ، أو الخمس ، أو السدس ، « على قدر شربها وعمارتها »(8) . هذا النظام عرف بنظام المقاسمة بقي سائداً حتى اعتلى العرش كسرى الأول سنة 531 فألفى بلاده تئن تحت نير الظلم وجور البغي ، والفلاحين في ضيق فادح وبؤس شديد ، والملوك قبله يقاسمونهم غلال أرضهم .عندها ألغى نظام المقاسمة وأقر نظام المساحة . فتنفس الناس الصعداء على أثر بعض الاصلاحات التي أعطت ثماراً طيبة ، إذ « قوي الناس في معاشهم » وأصبحوا أحراراً فيما يملكون ، تمتد أيديهم إليه في ساعة الحاجة(9).

بالاضافة الى هذا دعا كسرى إلى الاصلاح الزراعي ، فنظر في أنواع الضرائب بوجه عام ، وفي الخراج بوجه خاص ، فأمر بتصنيف الغلات ، وضبط الأشجار المثمرة ، وإحصاء السكان ، ووضع ضرائب جديدة مخففة ومحددة على الأرض وعلى الرؤوس . عرفت هذه التحديدات بوضائع كسرى(10) ولا ريب أنها تعد من الاصلاحات الخيرة التي خففت من ثقل الظلم وأحدثت تقدماً نوعياً في المجتمع آنذاك . فضريبة الخراج ، في هذه الوضائع الكسروية ، تناولت الحنطة ، والشعير ، والأرز ، والكرم ، والنخيل ، والزيتون ، والانعام . فكان على كل جريب أرض من مزارع الحنطة والشعير درهم وقفير(11) وعلى كل جريب أرز نصف وثلث . وعلى كل جريب أرض كرم ثمانية دراهم ، وعلى كل أربع نخلات فارسية درهم . وعلى كل ست أصول زيتون مثل ذلك . وأمر كسرى بتدوين وضائعه هذه في نسخ احتفظ في ديوانه بنسخة منها ، وحذر عماله من زيادة الضرائب على المقادير المحددة في نسخة

---

(7) تاريخ الطبري ج 2 ص 122 واليعقوبي ج 1 .
(8) تاريخ الطبري ج 2 ص 122 .
(9) المصدر نفسه وانظر الأحكام السلطانية للماوردي ص 167 .
(10) المصدر نفسه ص 123 .
(11) مروج الذهب للمسعودي ص 115 وراجع التفصيلات في باب النظام الاقتصادي من هذا الكتاب .

الديوان . كما أذن بجباية الخراج على ثلاثة أقساط في العام بدل من دفعة واحدة[12] .

وكذلك أعاد النظر في ضريبة الرؤ وس فقد وضع لها شروطاً وحدد مقاديرها ، فـأمست ضـريبة الـرأس واجبة عـلى كـل رجـل من سن العشـرين إلى سن الخمسـين ، وصنفت عـلى طبقات : اثني عشر درهماً ، وثمانية ، وستة ، وأربعة على قدر إكثار الرجل وإقلاله[13] . وكان في هـذا الاصلاح سعـة للناس وانفـراج لمعاشهم . إلا أن بعض الـطبقـات أعفيت من هـذه الضريبة إعفاء تاماً كالأشراف ورجال الحرب ورجال الدين وكبار الموظفين[14] كما أن الفرس في عهد كسرى فرضوا ضرائب على البضائع التي كانت تمر عبر الحدود ، وهي شبيهة بالرسوم الجمركية في عصرنا اليوم .

نستنتج هذا من معاهدة الصلح التي عقدت بين كسرى الأول وجستنيان سنة 562 م .

في بعض الأحيان لم تكن هذه الضرائب ثابتة ومحدودة ، لأن الدولة قد تضطر إلى فرض بعض الضرائب الاستثنائية في أعقاب الحروب لتأثرها بما يطرأ عليها من الأحوال والظروف .

بذخ وانكسار :

يقول علماء الاجتماع أن كل حضارة في العـالم لا بد لهـا من اتباع خط بيـاني ينطلق من النقاط الدنيا ثم يعلو تدريجياً حتى يصل الى القمة . خلال هذا التصاعد تتأثـر الحضارة بعـدة عوامل اقتصادية ، واجتماعية ، وتربوية ، وخاصة ، تتعاون جميعها من أجل دفـع العجلة الى الأمام بخطى سريعة أو متباطئة ، بغية إدراك القمة المرتقبة بعـد فترة زمنيـة تطول أو تقصـر ، حسب قدرة الأمة في العطاء الخير الكريم .

في الدولة الفارسية كانت الحروب مورداً عظيـماً من موارد خزينة الدولة[15] . فكـان ما يحرز ملك الملوك من الغنائم ينفقهـا على حـاشيته ومصـاريفه الشخصيـة التي كانت تبلغ حـد الترف . وقد صورت لنا المصادر التاريخية صورة دقيقة ومفصلة عن ترف الأكاسرة وإسـرافهم ومباذلهم . فقد حصلوا من الثـروات والكنوز مـا لم يؤت مثلها أحـد من العالمـين . واستمروا على هذا المنوال حتى عصر الشاه المخلوع محمد رضـا بهلوي . ومما يـروى عن بعضهم مثلاً ، كسرى أبرويز الذي عاصر مبعث الرسول العربي الكريم . يقال : ان الرياح ألقت الى ساحل انطاكية ألف مركب احتوت خـزائن الروم ، فـاستولى عليهـا كسرى ابـرويز وسمـاها خـزائن الريح[16] .

ومن ذلـك أيضاً أن كسـرى هذا « قـد جمع من الأمـوال ما لم يجمـع أحـد من الملوك ، وبلغت خيله القسطنطينية وإفريقية . وكان يشتو بالمدائن ويتصيف ما بينها وبين همذان . وكان

(12) تاريخ الطبري ج 2 ص 123 .
(13) الطبري ج 2 ص 122 .
(14) المصدر نفسه .
(15) المراد هنا بخزينة الدولة ثروة الشاهنشاه الشخصية .
(16) مروج الذهب ج 1 ص 120 .

يقال : إنه كانت له اثنتا عشرة ألف امرأة وجارية ، وألف فيل إلا واحداً ، وخمسون ألف دابة . . . وكـان أرغب الناس في الجـواهر والأواني»(17) كما هي الحال عنـد بعض رؤسائنا الذين يحبون المال حباً جماً .

ولكن أكثر مؤرخينا العرب قد وصفوا بطر كسـرى أبرويـز الذي كـان سبباً في سقـوط عرشه ودمار مملكته بأسرها . قال الطبري :

« وكان كسرى قد طغى لكثرة ما قد جمع من الأموال وأنواع الجوهر والأمتعة والكراع ، وافتتح في بلاد العدو ، وساعده من الأمور ورُزِقَ من مواتاتـه ، وبطر وشَـره شرهـاً فاسـداً ، وحسد الناس على ما في أيـديهم من الأموال »(18)وما نستطيع قـوله أن دولـة الأكاسـرة رغم ما كانت تزخر به من مظاهر الحضارة والعمران تـرتقب أجلها المحتـوم ويومهـا المشؤوم . والذي ساعد في دمار هذه الدولة الكبيرة فسق ملوكها وإسـرافهم البالـغ ، وترفهم الـذي بلغ حدوداً بعيـدة . كل هـذا عجل في زوال امبـراطوريتهم ومحق حضـارتهم ، ولأن دار الظالمـين خراب حتى أشـرقت شمس الاسلام فنوّزت قلوب الناس بـالايمان ، فـدخلوا في دين الله أفواجـاً ، واهتـدوا الى المنهج الحيـاتي السليم والصراط المستقيم ، بفضـل النبي الكـريم محمـد ، ﷺ ، الـذي أزال العصبية ، ومحق الـطبقية ، ودعـا الى الانسانيـة الشاملة ، والمبـادىء الاسـلاميـة الخالدة . فالأنظمة الاسلامية تحتوي على قوانين متنوعة لنظام اجتماعي متكامـل . وتحت هذا النظام تسد جميع حاجـات الانسان وتحقق كـل رغباتـه ، بدءاً من عـلاقات حسن الجـوار إلى أبنـاء العشيرة والـوطن ، وجميع جـوانب الحياة العـائلية والـزوجية ، وانتهـاء بالتشـريعـات الاجتماعية من سلم وحرب ، وعلاقات دولية ، وقـوانين جـزائية ، وحقـوق تجاريـة وزراعية وصنـاعية ، كـما نظم الـزواج الشرعي ، وواجبـات الأبوين ، وعـلاقـة الـزوجـين ، وتـربيـة الأولاد ، وفترة الرضـاع وكل مـا يحتاجـه الانسان في حيـاته الحـرة الكريمـة ، فالاسـلام يملك قوانين وأنظمة شاملة من أجل تـربية إنسـان كامـل فاضـل ، يجسد القـانون ويحييـه وينفذه ، ويعمـل لأجله بـدافـع ذاتي . ومعلوم إلى أي حـد اهتم الاسـلام بـالعـلاقـات السيـاسيـة ، والاقتصـادية ، والتـربويـة ، والعلمية ، والاجتمـاعية ، سعيـاً وراء ايجاد انسـان مثقف عادل ومهذب فاضل ، يعرف حدوده فيقف عندها .

كـل هذه الأحكـام الانسانيـة القويمـة استقاهـا الحكام الفقهـاء المجتهـدون من القـرآن المجيـد ، الدستـور الكامـل الدائم ، والسنـة الشريفـة المفصلة والموضحـة لأحكامـه . وكـلا المصدرين يحتويان جميع الأحكام والأنظمة التي تسعد البشر جميعاً وتنحـو بهم نحو الحيـاة المثلى الكريمة .

---

(17) مروج الذهب ج 1 ص 121 .

(18) الطبري ج 2 ص 157 ، وقد قتله ابنه شيرويه سنة 628 .

الفصل الثالث

النظام السياسي ـ للحكومة الاسلامية

قبل البحث عن المعالم الرئيسية في النظام السياسي في الاسلام ، وبيان أصالته وجدارته في معالجة شؤ ون الحياة وتدبير أمور الأحياء ، لا بد لنا من تعريف السياسة لغة واصطلاحاً .

السياسة في اللغة

السياسة « لغة » هي « ولاية شؤ ون الرعية وتدبير أمورها » كما نصت على ذلك كتب اللغة . جاء في لسان العرب :

السَوْسُ : الرياسة . يقال ساسهم سوساً إذا رأسهم ، وسَوَّسُوه أساسوه إذا رأسوه ، وساس الأمر سياسة : قام به ، والجمع ساسة وسواس . ورجل ساسٌ من قوم ساسة وسُوَّاس ؛ أنشد ثعلب :

سادة قادة لكل جَميعٍ   ساسة للرجال يومَ القتالِ

ويقال سَوَّسَ فلان أمر بني فلان أي كُلِّف سياستهم . قال الجوهري : سُوِّسَ الرجل أمور الناس ، إذا مُلِّكَ أمرهم ؛ ويروى قول الحطيئة :

لقد سُوِّسْت أمر بنيك ، حتى   تركتهم أدق من الطحين

وفي الحديث الشريف : « كان بنو إسرائيل يسوسهم أنبياؤهم أي تتولى أمورهم كما يفعل الأمراء والولاة بالرعية . والسياسة : القيام على الشيء بما يصلحه . والوالي السائس يسوس رعيته ويذلل ما يعترضها من صعاب الأمور . قال أبو زيد : سَوَّس فلان لفلان أمراً أي روَّضه وذلله[1] . وجاء في القاموس : سست الرعية : أمرتها ونهيتها[2] .

هذا ما ذكره اللغويون في معنى السياسة ، وهي الولاية على الرعية وتدبير شؤونها بما يصلحها ، ويسعفنا في ذلك شاعر الفلاسفة أبو العلاء المعري عندما هجا حكام عصره لأنهم ساسوا الأمة بغير رشد وعقل فقال فيهم :

---

(1) لسان العرب مادة سوس .

(2) القاموس مادة سوس .

يسوسون الأمور بغير عقل فينفذ حكمهم ويقال ساسه
فأفٍّ من الحياة وأفٍّ منهم ومن زمن رياسته خساسة

السياسة في الاصطلاح

السياسة في الاصطلاح هي فن الحكم ، والسياسي هو الرجل الذي يمارس أعمال الادارة المدنية ، وهو أيضاً الحاكم الرسمي الموجه والناصح[3] وقد كشف عن حقيقتها وعرف مزاياها « القرشي » فقال :

« إنها علم الدولة ، التي تبحث عن التنظيمات البشرية ، وعن تكوين الأحداث السياسية ، وعن تنظيم الحكومات ، وفي فعالية الحكومة التي لها صلة بتشريع القوانين وتنفيذها وفي علاقتها بالدول الأخرى ، وبيان مدى العلاقات القائمة بين الشعب والدولة ، وارتباطات الدول بعضها مع بعض ؛ كما تبحث عن تطور السلطة السياسية بالنسبة إلى حرية الفرد»[4] فالسياسة حسب المفهوم العلمي تبحث عن الشؤون العامة والخاصة للدولة كما تبحث عن تنظيماتها وعلاقاتها بالدول الأخرى .

وقد اهتم الغرب بالبحوث السياسية واعتنوا بها ، فأسسوا لها المدارس ، وفتحوا لها الفروع الخاصة في جامعاتهم ، فتناولوا ، السياسة المحضة الداخلية ، والسياسة الدولية أو الخارجية ، والسياسة المدنية .

والسياسة العادلة هي التي تهتم بسلامة البلاد وراحة العباد ، فيعهد إلى أرباب السياسة أن يتولوا إدارة الحكم ، وينظروا في تولية ذوي المناصب فيضعوا الرجل المناسب في المكان المناسب ، ويسنوا للناس النظام الذي يضمن لهم الأمن ، ويسهل لهم العمل ، ويعقد بين المواطنين الألفة والمحبة ، ويجعلوا المصالح العامة مشتركة بين جميع الأفراد ، بحيث يشعر الجميع أنهم أبناء أمة واحدة ، يقفوا جميعاً بالمرصاد ليذودوا عن حياض الدولة وكرامة الوطن . وإن أرباب السياسة هم المسؤولون عن تقوية وإضعاف الاتحاد الداخلي .

وتختلف السياسات باختلاف البلاد واحتياجاتها ، ومصادر ثروتها ، وقوة جيشها ، وسمو حضارتها .

السياسة في الاسلام

أقام الاسلام سياسته على العدل والمساواة والحرية والإخاء وعمل جاهداً في تحقيق الرفاهية الشاملة لجميع الأمم والشعوب من بني البشر ، حتى قضى على كل غبن وظلم وانحراف عن الناس جميعاً ؛ فرفع مستوى حياتهم الفكرية والاجتماعية والاقتصادية ، ووضع الحدود الكفيلة برعاية مصالح الناس وتلبية حاجاتهم في مختلف العصور والبلدان .

---

(3) راجع أدب السياسة للحوفي .
(4) النظام السياسي في الاسلام لباقر شريف القرشي عن العلوم السياسية ص 45 .

تعريفها :

عرف ابن عقيل السياسة الاسلامية بقوله « السياسة ما كان فعلاً يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح ، وأبعد من الفساد ، وإن لم يضعه الرسول ﷺ ولا نزل به وحي »(5) .

والسياسة الاسلامية تنطلق من كتاب الله الكريم ، وتجري على سنة نبيه العظيم ، وما شذَّت عنها فهي فاسدة ، وليس عمل الحاكم أو قوله في الميدان السياسي حجة دامغة ولا دليلًا قاطعاً ، فإن عارض النص فهو إما مؤول أو مطروح . وعرف السياسة الشرعية عبد الوهاب خلاف فقال :

« إن علم السياسة الشرعية يبحث فيه عما تدبر به شؤون الدولة الاسلامية من القوانين والنظم التي تتفق وأصول الاسلام ، وإن لم يقم على كل تدبير دليل خاص»(6) .

غايتها :

إن الغاية من علم السياسة الاسلامية هي الوصول الى تدبير شؤون الدولة بنظم من دينها ، والابانة عن كفاية الاسلام بالسياسة العادلة ، وتقبله لرعاية مصالح الناس في مختلف العصور والبلدان(7) .

قواعدها :

بنيت السياسة الاسلامية على الايمان الوثيق بكرامة الانسان وحقه في الحياة الحرة الكريمة . قال تعالى في كتابه العزيز : « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً »(8) .

وبنيت على الرحمة والسماحة والدعة ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾(9) .

وبنيت على العدل والحق فلا يضام في ظلها الوارف فرد ، ولا تهدر كرامته .

قال عزّ وجلّ : ﴿ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾(10) .

هذه القواعد العامة التي بنيت عليها السياسة الاسلامية مستقرة ثابتة مستمرة مع الأجيال والأزمان ، وليست هي كالسياسة الحاضرة الحديثة تتلون حسب المصالح والمطامع ، وتتكيف حسب الرغبات والأهواء .

مقياسها :

إن المقياس الصحيح الذي تعرف به السياسة الاسلامية الصحيحة هو عرضها على

---

(5) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية .
(6) راجع السياسة الشرعية .
(7) المرجع نفسه .
(8) الاسراء الآية 70 .
(9) الأنبياء الآية 107 .
(10) النساء الآية 58 .

الكتاب الكريم ، والسنة الشريفة ، وسيرة الاعلام المفكرين من رجال الدين الذين تمثل فيهم الاسلام عقيدة وعملاً .

فالقرآن رسم الخطوط العريضة العامة للسياسة الاسلامية ، والسنة شرحت وفصلت مضامين تلك السياسة ، والرجال المؤمنون المصلحون من أبناء الإسلام ترسموا خطى النبي ﷺ في أعماله وأفعاله وتقريراته ورفعوا شعار سياسته العادلة السمحاء . وكل سياسة لا تتماشى مع هذه الينابيع الخيرة ليست من سياسة الاسلام في شيء ، ولا تمثل أبداً وجهة نظره .

المميزات العامة للحكومة الاسلامية

مظاهرها :

السياسة التي أقامها الاسلام ، وسادت العالم عدة قرون بنورها المشرق الساطع ، كانت أعمق أثراً من أي سياسة أخرى جاءت قبلها أم بعدها يتوضح ذلك بالنقاط الرئيسية التالية :

1 ـ إقامة العدل :

من أهم المبادىء الأساسية التي ركز عليها الاسلام في سياسته بسط العدل والقضاء على الجور والظلم . وقد ارتبطت جميع مناحي التشريع الاسلامي بالعدل فلا يوجد ثمة حكم إلا مرتبط به ، فهو الصلة في التشريع والغاية من البحث الى التكليف .

والعدل عند اللغويين يعني القصد في الأمور وهو خلاف الجور . جاء في لسان العرب : العدل ما قام في النفوس إنه مستقيم وهو ضد الجور وفي أسماء الله سبحانه العدل هو الذي لا يميل به الهوى فيجور في الحكم ، وهو في الأصل مصدر سمي به فوضع موضع العادل ، وهو أبلغ منه لأنه جعل المسمى نفسه عدلاً[11]. وجاء في « التاج » العدل هو الأمر المتوسط بين الأفراط والتفريط .

العدل في القرآن :

حث القرآن الكريم على العدل ، وأمر المسلمين بتطبيقه ، حكاماً كانوا أم محكومين . قال تعالى مخاطباً النبي داود : « يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾[12] كما خاطب الحكام جميعاً عزّ وجلّ : ﴿ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾[13] وآيات عديدة وردت يأمر الله الحكام لإقامة العدل بين الناس .

وأمرنا الله جلّ جلاله لنلتزم بالصدق في أداء الشهادة ولو كانت على أنفسنا أو كانت على الوالدين والأقربين ، وليس للمسلم أن يقول غير الحق في إنسان يحبه أو آخر يكرهه أو غني لغناه أو مسكين لمسكنته . قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط

---

(11) لسان العرب مادة عدل .

(12) ص الآية 26 .

(13) النساء 58 .

ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا أعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾[14] .

فالله عزّ وجلّ يندبنا لتحقيق العدل بين عباده ولا تصدنا عن تحقيق ذلك اعتداءات الظالمين وجور الباغين ، كما يحدث اليوم في جنوب لبنان العزيز ، من قبل اليهود المعتدين الغاشمين . ومن الطريف أن هذه الآية كما يروي المفسرون أنها نزلت في اليهود حين مضى النبي إلى حصن بني قريضة ، يستعينهم في دية ، فهموا بقتله ، فنزلت هذه الآية ، فأمرهم ﷺ بعد النهي عن الجور أن يفعلوا العدل مع كل أحد ولياً كان أو عدواً فإن العدل أقرب للتقوى[15] .

العدل في السنة :

تواترت الأحاديث في الحث على العدل وتطبيقه على واقع الحياة ، كما وردت أخبار كثيرة في الثناء على الحاكم العادل ولزوم مساندته ، وحاجة الناس إليه . قال الامام الصادق (ع) : إتقوا الله واعدلوا فإنكم تعيبون على قوم لا يعدلون »[16] .

وقال ﷺ« عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة قيام ليلها وصيام نهارها»[17] والحاكم العادل قلب المجتمع ومدار حركته وهو بمنزلة الوالد الرحيم يناط صلاح الأمة بصلاحه . قال رسول الله :

« إن أحب الناس الى الله يوم القيامة ، وأقربهم منه مجلساً إمام عادل ، وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذاباً إمامٌ جائر»[18]. وقال (ص) : « لعمل الامام العادل في رعيته يوماً واحداً أفضل من عبادة العابد في أهله مائة عام أو خمسين عاماً . . . »[19].

إن سعادة الأمة تكتمل بعدل حكامها ، فإذا طبقوا العدل على شعوبهم سادت الأمة وحققت ما تصبو إليه من أحلام وسعادة .

فالعدل روح الاسلام وجوهره ، والسياسة الاسلامية بجميع مفاهيمها ركزت أهدافها على أضوائه ، وذلك في جميع أنظمته السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

2 ـ المساواة

أعلن الاسلام المساواة العادلة ما بين الأفراد والجماعات ، وما بين الأجناس التي انصرت تحت لوائه من بني البشر ، وقد أسبغ هذه النعمة على الانسانية بصورة لم يسبق لها نظير في تاريخ المجتمع العالمي . فلا فضل لأبيض على أسود ولا لعربي على أعجمي إلا بتقوى الله . فالناس أمام الشريعة الاسلامية سواسية كأسنان المشط .

---

(14) المائدة الآية 8 وراجع الآية 135 من سورة النساء .

(15) راجع التبيان في تفسير القرآن ج 3 ص 461 .

(16) أصول الكافي ج 2 ص 147 .

(17) جامع السعادات ج 2 ص 219 .

(18) صحيح الترمذي .

(19) الأموال ص 6 .

أ ـ المساواة الاجتماعية

أمر الاسلام بالمساواة بين المسلمين جميعاً وفرضها عليهم باسمه تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[20] .

روى ابن عباس أن السبب في نزول هذه الآية أن أحد الموالي خطب امرأة من بني بياضة فأشار النبي ﷺ على أهلها أن يزوجوها منه فقال له : « يا رسول الله ، أنزوج بناتنا موالينا ؟ » .

فنزلت على النبي هذه الآية الكريمة لتحطم العادات الجاهلية التي تقضي بتفوق بعض الطبقات على بعض .

فالاسلام قضى على نخوة الجاهلية وتفاخرها بالأنساب والآباء والأجداد . قال رسول الله ﷺ : « كلكم بنو آدم وآدم من تراب ، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم ، أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان »[21] .

والمساواة في الاسلام موضوعة.على أساس الفطرة الانسانية السليمة ، فلا تمييز بين فرد وآخر إلا العمل الصالح وتقوى الله . قال النبي ﷺ مخاطباً لاسرته : « يا بني هاشم ، لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم تقولون نحن ذرية محمد ﷺ »[23] .

وقال لابنته فاطمة عليها السلام : « يا فاطمة كوني أباك لا يغنيك شيئاً تذكري قول الله تعالى : ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾ ، وروى أن عبداً أسود من عامة الناس خاصم عبد الرحمن بن عوف وكان من الشخصيات البارزة فغضب ابن عوف وقال له : يا ابن السوداء . .

فلما سمع النبي ﷺ هذا التنابذ اندفع وهو مغيظ قائلاً له :

« ليس لابن بيضاء على ابن سوداء سلطان إلا بالحق »[23] .

فالمسلم هو كفء المسلمة ولا تفاضل بينهما من حيث العرق والنسب ، وقد أعطى الرسول ﷺ المثل الواقعي للناس عندما زوج بنت عمته زينب من غلامه ومملوكه وعتيقه زيد ابن حارثة ، ليقضي بذلك على سيئة التعالي بالأنساب .

والاسلام وضع قواعد المساواة على أساس الفطرة الانسانية السليمة ، فلم يميز قوماً على آخرين إلا بالتقوى . قال الامام زين العابدين (ع) :

« إن الله خلق الجنة لمن أطاعه ، ولو كان عبداً حبشياً ، وخلق النار لمن عصاه ولو كان سيداً قرشياً »[24] .

---

(20) الحجرات الآية 13 .

(21) تفسير ابن كثير ، سورة الحجرات .

(22) النظام السياسي في الاسلام لباقر شريف قرشي ص 208 .

(23) المرجع نفسه .

(24) المرجع نفسه .

فمن المساواة التي فرضها الاسلام كانت جميع عوامل النهوض والارتقاء ، وكل وسائل التعاون والتآلف ، وكم هي الانسانية في الماضي وفي كل وقت ، بحاجة الى المساواة أكثر من غيرها من مقومات الحياة ، لأنها توطد دعائم السلم على الأرض ، وتوطد دعائم السلم بين الشعوب والدول بدل الخصومات والعداوات . إنها تدعو الى الصفاء والوئام حتى لا يبقى في النفوس أي أثر للحزازات والنعرات والامتيازات .

ب ـ المساواة أمام القانون

فرض الاسلام المساواة بين جميع الناس أمام القانون فلا فرق بين رئيس ومرؤوس ، ولا بين غني وفقير ، ولا بين قوي وضعيف ، فالأمراء والفقراء كلهم سواء أمام القانون . وقد طبق ذلك الرسول ﷺ على واقع الحياة عندما سئل أن يعفو عن سارقة لشرف أسرتها فأجاب ﷺ :

« إنما هلك من كان قبلكم لأنهم كانوا إذا أذنب الضعيف فيهم عاقبوه وإذا أذنب الشريف فيهم تركوه ، والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها »[25] .

ولما شعر ﷺ بدنو أجله خرج وهو مريض واعتلى أعواد المنبر وخطب بين المسلمين . مبيناً لهم مدى المساواة التي ينشدها فقال ﷺ :

« أيها الناس من كنت قد جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستفد مني ، ومن كنت قد شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستفد مني ، ومن أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه ، ولا يخشى الشحناء من قبلي فإنها ليست من شأني ، ألا وإن أحبكم إلي من أخذ مني حقاً إن كان له ، أو حللني فلقيت ربي وأنا طيب » . ثم نزل عن المنبر فصلى صلاة الظهر ورجع إلى المنبر وأعاد مقالته الأولى[26] وقد جرت السنة الاسلامية على محاكمة الخلفاء والولاة وتقديمهم الى ساحة القضاء ، لأن الألقاب والمناصب في الاسلام لا تحمي أصحابها . فهذا الامام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) خاصمه يهودي في أيام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ، فقال له عمر : قم يا أبا الحسن وقف مع خصمك . فتغير وجه الامام (ع) وبعد الانتهاء من المرافعة قال : « إنما ساءني أنك كنيتني ، ولم تساو بيني وبين خصمي ، فالمسلم واليهودي أمام الحق سواء »[27] .

ونشير هنا الى بعض الصور الرائعة من المساواة بين الخصمين التي نص عليها الفقهاء في كتاب القضاء وهي :

1 ـ التسوية بين الخصمين في السلام ، فليس للقاضي أن يخص أحدهما بالسلام ويعرض عن الآخر .

2 ـ المساواة بينهما في الكلام فليس له أن ينطلق في كلامه مع أحدهما ويسكت عن الآخر .

3 ـ المساواة في الأذن بالدخول عليه ، وليس له أن يأذن لواحد ويحجب الآخر .

(25) الخراج لابي يوسف ص 50 .

(26) الكامل لابن الأثير ج 2 ص 194 .

(27) النظام السياسي في الاسلام ص 210 .

4 ـ التساوي بينهما في المجلس ، فلا يجوز له أن يرفع أحدهما في المجلس على صاحبه بل عليه أن يساوي بينهما في الجلوس بين يديه .
5 ـ التساوي بينهما في التكريم ، فإذا قابل أحدهما بالقيام تكريماً لزمه أن يقوم للآخر .
6 ـ التساوي بينهما في طلاقة الوجه .
7 ـ الاستماع لكلامهما على حد سواء ، وليس له أن يسمع كلام أحدهما ولا يسمع كلام الآخر .
8 ـ أن يستعمل العدل والانصاف بينهما .

ويستحب للقاضي أن يساوي بينهما حتى في الميل القلبي كما يكره أن يخص أحدهما بالخطاب وذلك لما فيه من الترجيح الذي أقل مراتبه الكراهة(28) .

وكما ترى أن هذه المساواة التي أعلنها الاسلام في عالم القضاء وطبقها رجاله الصلحاء ، لا يوجد لها نظير في سائر الأنظمة الأخرى ، التي لم تساو بين الناس في المناحي التشريعية ولا في غيرها ، حتى باتت بلا ريب مجافية لروح العدل والمساواة . من صور تلك التشريعات التي يرفضها الاسلام : تمييز رئيس الدولة كما كان عند الانكليز ، والاسبان ، والمصريين وغيرهم ، وتمييز رؤساء الدول الأجنبية ، وتمييز السلك الدبلوماسي ، وتمييز أعضاء الهيئة التشريعية أو التنفيذية ، وتمييز الأغنياء أو الشخصيات البارزة في المجتمع .

هذه المساواة التي تقضي بها القوانين الوضعية الحديثة مهيضة الجناح ، مقصوصة الأطراف ، لأنها لم تسو بين الحاكم والمحكوم ، ولا بين الفرد والفرد ، فقد ميزت بين الناس ، وجعلتهم طبقات وبذلك انهارت المساواة وتحطمت أسس العدالة .

إن المساواة العادلة بجميع أشكالها وألوانها تجلت بأفضل أشكالها في الشريعة الاسلامية التي ساوت بين جميع الناس في الحقوق والواجبات . وقد أعلن النبي أروع معاني المساواة بين الرؤساء والمرؤوسين عندما دخل عليه أعرابي ، وأخذته هيبة النبي ، فارتعدت فرائصه ، عندها التفت اليه قائلاً : « هون عليك فإنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد»(29) ، وتقاضاه ﷺ غريم له فأغلظ عليه فهم به عمر بن الخطاب فأنكر عليه النبي ذلك وقال له :

« مه يا عمر كنت أحوج أن تأمرني بالوفاء ، وكان أحوج إلى أن تأمره بالصبر»(30) ، ولو سار المسلمون في بقاع الأرض على ضوء هذه المساواة الرفيعة التي تنشر الأمن في البلاد وتحقق العدل الاجتماعي على الأرض ، لكانوا سادة الأمم وهداة الشعوب ، وقادة العالم الى كل خير وسلام .

ج ـ المساواة في الضرائب :

إن الضرائب التي فرضها الاسلام في أموال المسلمين تجب على كل مسلم فيها إذا

---

(28) اللمعة للشهيد الأول والثاني (كتاب القضاء) .
(29) زاد الميعاد ج 1 ص 95 .
(30) المرجع نفسه .

تنصبت تلك الفرائض في أمواله ، فلا يعفى منها شخص دون آخر ، بـل يتساوى الجميـع في دفعها .

د ـ المساواة في التوظيف :

فرض الاسلام قواعد المساواة بين المواطنين جميعاً في الوظـائف العامـة ، فلا يختص بهـا طـائفة دون أخـرى ، ولا حزب دون سـائر الأحـزاب ، وجميـع من تتـوفـر فيهم الامكـانـات والكفـاءات يتساوون في ذلـك ، بعيداً عن المصـالح الشخصيـة والمنافـع الفرديـة ، لأن ذلك يوجب تأخير البلاد وشيوع الاضطراب في الوطن الواحد . فـالاسلام راعى في الفـرد كفاءاتـه الشخصية ومهاراته الخاصة ، وليس انتماءاته الطائفية ومكانته الحزبية كما هـو حاصـل اليوم في ظل الأنظمة الديمقراطية .

3 ـ الأخوة

رفع الاسلام شعار الأخوة قبل أن تعلنها فـرنسا بقـرون وأجيال[31]، وبناها عـلى أسس رفيعة نبيلة ، وأحاطها بسياج واق متيـن ، فكانت حقيقـة واقعة وتجـربة تـاريخية ، لا كـلاماً عابراً وشعاراً زائفاً .

لم تقم الأخوة الاسلامية على أساس القبيلة والجنس والاقليم ، وإنما بنيت على أنها جزء من أجزاء العقيدة ، يسأل عنها المسلم ويحاسب عليها . وبـذلك أصبحت الأخـوة الاسلاميـة تضم تحت جناحيها طاقات هـائلة من القوة ، تمـد المجتمع الاسـلامي بالـوحدة المتمـاسكة ، والتفاهم البناء ، والتعاون المحب ، والإيثار الخلاق ، حتى غدت نمـوذجاً فـريداً من التكـافل الاجتماعي يسد الطريق أمام الطامعين والأعداء .

وهل أروع وأعظم من هذا الرباط الوثيق الـذي يمسك بـالمسلمين كـالبنيان المرصوص! ظهر ذلك جلياً في القرآن الكريم . قال تعالى :

﴿ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله ﴾[32] .

فالله تعالى أراد أن يجعل الأخوة الاسلامية كالأخوة النسبية في قوتها ومكانتهـا . فأوجب صيانتها فيها إذا شجر بين المؤمنين خلاف ، أو عصفت فيهم ريح التفرقة .

ووصف النبي ﷺ المجتمع الاسلامي في تقارب عواطفه ووحدة مشـاعره بـأنه كـالجسم الواحد في تماسك أعضائه :

« مثل المؤمنين في توادهم ورحمتهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى لـه سائـر الجسد بالسهر والحمى » . وقال ﷺ أيضاً :[33] .

---

(31) قـررت الجمعية الـوطنية في سنـة 1789 اعلان حقـوق الانسان ، بعـد مجازر رهيبـة أثناء الثـورة الفرنسيـة ، فأصدرت بياناً عاماً كان أساساً لمطالب الشعب ، وقواماً لنصـوص الدستـور ، وضمانـاً لسعادة المجمـوع . وخلاصة هذه الحقوق : 1 ـ الحـرية ـ 2 ـ المسـاواة ـ 3 ـ الاخاء . وجميـع المواد التي ذكـرت ترجـع الى هذه المبادىء الثلاثة .

(32) الحجرات الآية 10 .

(33) راجع أصول الكافي للكليني

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ».

الأخوة الاسلامية ليست مجرد عاطفة ظاهرة إنما هي علاقة وثيقة تمتد إلى أعماق القلوب ودخائل النفوس لتحتم على المسلمين أن يشاركوا بعضهم في السراء والضراء . قال الامام الصادق (ع) :

« المسلم أخو المسلم ، هو عينه ومرآته ودليله لا يخونه ، ولا يظلمه ، ولا يخدعه ، ولا يكذبه ، ولا يغتابه » .

وقال الصادق أيضاً : « يحق على المسلمين الاجتهاد في التواصل والتعاون على التعاطف والمؤاسات لأهل الحاجة وتعاطف بعضهم على بعض حتى يكونوا كما أمرهم الله عزّ وجل « رحماء بينكم »[34] .

لقد بنى الاسلام الأخوة الدينية على أسس عميقة لأنه يعلم أنها تؤدي الى التودد والتآلف والمحبة ، وتنهى عن التباعد والتباغض والعدوان . فمن الأخوة الدينية تتفتح عوامل المحبة المتمثلة في :

التراحم والتعاطف : « اتقوا الله وكونوا أخوة بررة متحابين في الله ، متواصلين ، متراحمين ، تزاوروا ، وتلاقوا وتذاكروا أمرنا وأحيوه»[35]. وتتمثل الأخوة بالتزاور : حث الاسلام على تزاور المسلمين بعضهم لبعض لأنه يعقد أواصر المحبة فيما بينهم . قال الامام علي (ع) : « لقاء الأخوان مغنم جسيم وإن قلوا » .

وتوجب قضاء الحوائج : من واجب المسلم قضاء حاجة أخيه من تلقاء نفسه قال النبي ﷺ : « من مشى في قضاء حاجة أخيه ساعة في ليل أو نهار قضاها أو لم يقضها ، كان خيراً من اعتكاف شهر » .

إن السعي في قضاء حوائج الناس ومهماتهم من الأمور التي تبعث الحب في قلوب المؤمنين وتمتن الوئام بين أفراد المجتمع وتزيد في تماسكهم وتواصلهم .

حقوق الأخوة :

وضع الاسلام للأخوة الدينية حقوقاً ألزم المسلمين بمراعاتها وتطبيقها . سأل أبو المأمون الحارثي الامام الصادق (ع) عن حق المؤمن على المؤمن فقال (ع) : « إن من حق المؤمن على المؤمن المودة له في صدره والمواساة له في ماله والخلف له في أهله والنصرة له على من ظلمه وإن كان نافلة[36] في المسلمين وكان غائباً أخذ له بنصيبه ، وإذا مات الزيارة الى قبره ، وأن لا يظلمه ، وأن لا يغشه ، وأن لا يخونه ، وأن لا يخذله ، وأن لا يكذبه ، وأن لا يقول له أفٍ »[37] .

---

(34) أصول الكافي ج 2 ص 174 وهو يشير الى سورة الفتح آية 29 .

(35) المرجع نفسه .

(36) النافلة : الغنيمة .

(37) أصول الكافي ج 2 ص 171 .

وهكذا راعى الاسلام حقوق الانسان وصان له كرامته في ظل حكمه العادل ناشداً الرحمة والاستقرار لجميع الناس على حد سواء .

4 ـ الحرية

الحرية في اللغة :

تطلق على الخلوص من العبودية ، فيقال هو حر أي غير مسترق ، وتطلق أيضاً على الخلوص من القيد والأسر ، أطلق أسر فلان فهو حر .

الحرية في الاسلام :

تطلق على الخلوص من العبودية فيقال حر ، أي غير مملوك ، وقد حرص الاسلام على فك رقاب العبيد واطلاق سراحهم .

كما يراد بها الرضا والاختيار ، فيقال فلان حر في تصرفاته أي غير مكره فيها . وقد يراد بها تخليص النفس من الأوهام والخرافات ، فيقال فلان متحرر من الأوهام والترهات . وكلنا يعلم كم بذل الاسلام من جهود لتحطيم القيود والأغلال ، وإيقاظ عقول الجاهليين وتحرير أفكارهم من العادات الخرافية والأمور الوهمية . فقد دعا إلى إعمال الفكر وجعل الذين يهملون عقولهم ولا يسترشدون بتفكيرهم كمثل الحيوان البهيم . قال تعالى :

﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾(38) .

فالاسلام أطلق حرية الفكر ودعا إلى اطلاق النفس من كل خرافة ووهم ، ونبذ ما كان عليه السلف الجاهلي من ضياع وضلال . فالله الواحد الأحد فاطر السماوات والأرض وواهب الحياة ، هو المعبود الوحيد وليس غيره من الأنصاب والأزلام والطواغيت . وقد ازدرى الاسلام بمن يخضع لغير الله ويظن أنه يستجيب له . قال عزّ وجل : ﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ﴾(39) .

والاسلام رفع شعار العبودية لله تعالى وحده ، لأنه المحيي والمميت ، والرازق الكريم ، واليه ترجع جميع شؤون العباد . من هنا كان أسمى صفات الرسل هي نعتهم بالعبودية لله تعالى جاء وصف النبي ﷺ :

﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله ﴾(40) .

فعبودية الله تعني تحرير الانسان من عبودية الأفراد والارتقاء به إلى سلم الكرامة وجعله مواطناً صالحاً في المجتمع الانساني الراقي الرفيع . والحرية التي منحها الله للانسان عن طريق الاسلام متعددة الجوانب .

---

(38) الأعراف الآية 179 .

(39) الأعراف الآية 194 .

(40) البقرة الآية 23 .

1 ـ حرية العقيدة :

تبنى الاسلام الحرية الدينية في أرحب مفاهيمها وكان الرسول ﷺ مبلغاً ونذيراً ، كانت خطبته في إبلاغ مبادئه الى المجتمع . قال تعالى :

﴿ فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر ﴾(41) .

فمن شاء آمن ومن شاء ترك : قال تعالى : ﴿ نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾(42) .

والاسلام لم يكره الذميين للدخول في الاسلام ، بل تركهم وحريتهم يمارسون عقائدهم وشعائرهم أحراراً . قال تعالى : ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي . . . ﴾(43) وقال تعالى أيضاً مخاطباً نبيه محمد ﷺ : ﴿ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾(44) .

اعتمد الاسلام سياسة التسامح الديني مع كل الشعوب التي امتد إليها الفتح الاسلامي ، ولم يكن اعتناقه أمراً محتوماً ، فالذميون ، كاليهود والنصارى ، ظلوا يستمدون شرائعهم من كتبهم ، كما كان في وسعهم أن يتمتعوا بحرية الشعائر وحماية الدولة الاسلامية ، شرط أن يدفعوا ضريبة الرأس (الجزية) ، أضف إلى ذلك أن المسلمين كانوا يتحلون بكثير من التسامح فلم يرهقوا أحداً في شؤون الدين ، بل ذهبوا في هذه السياسة الى حدود بعيدة ففي بلاد الهند مثلاً كانت الشعائر تقام في الهياكل والمعابد في ظل الحكم الاسلامي .

ومن مظاهر هذه الحرية التامة في المجال العقائدي التي أعلنها الاسلام أنه ترك لغير المسلمين تطبيق أحكام شريعتهم في الأحوال الشخصية . ومن حرية العقيدة كانت حرية التفكير التي دعا إليها الاسلام ، ففتح آفاق الكون أمام العقل ليحلق الى الآفاق البعيدة في الاكتشافات الصالحة الخيرة ، ويفكر في شؤونه في جميع مناحي الحياة الكريمة . لقد نعى على الإنسان الجمود والخمول ، وحثه على الاستزادة من المعارف والعلوم . قال تعالى : ﴿ وقل ربي زدني علماً ﴾(45) .

وكانت أيضاً حرية الرأي والتعبير .

أباح الاسلام حرية إبداء الرأي لجميع الناس وجعله حقاً طبيعياً لكل إنسان فكل فرد كان له الحق في حرية التكلم بما شاء ، وحرية المحاورة وحرية النقد للحكم القائم إذا شذ عن طريق الحق . ولكن هذه الحرية ، المتممة لحرية الفكر كانت مشروطة حتى لا تكون منطلقاً الى إثارة الفتن ، وبث المبادىء الهدامة لوحدة الأمة الاسلامية .

لأن حرية الرأي والقول في الحدود التي وضعتها الشريعة الاسلامية تعود بلا شك على جميع الأفراد بالنفع العام والتقدم المثمر ، وتؤدي إلى بث الإخاء والحب والاحترام بين الأفراد والجماعات . وبذلك حفظ توازن المجتمع ووحدة صفوفه وضبط الأمور على أكمل وجه .

(41) الغاشية الآية 21-22 .

(42) ق . الآية 45 .

(43) البقرة الآية 256 .

(44) يونس الآية 99 .

(45) طه الآية 114 .

2 ـ الحرية السياسية

الحرية السياسية جزء أساسي من الحرية الانسانية ، حيث يكون المرء عضواً فعالاً في الدولة ذات السيادة ، وتكون الفرصة متاحة له ليعبر عن إرادته في سن القوانين ، ورسم سياسة الحكومة ، وذلك باستعمال حقوقه المشروعة في حرية الكلام وحرية الرأي والتعبير .

الاسلام منح الفرد الحرية السياسية ، وهيأ له جميع وسائلها ، وهو الذي وضع جميع المناهج الحية والأصول الثابتة للدولة ، وأغناها عن سن القوانين واستيرادها .

ومن الحرية السياسية كانت حرية الإجتماع ، التي استساغها الاسلام وحث عليها ، ولكن شرط أن لا تكون مخلة بالآداب الاسلامية أو منافية للمصالح العامة .

وكانت أيضاً حرية تأليف الجمعيات ، لم يمانع الاسلام من تأسيس الجمعيات وعقدها ، إذا كانت جمعيات تعاونية أو خيرية ، تعمل من أجل المصلحة العامة للأمة الاسلامية . أما إذا كانت مبادؤ ها ومقرراتها تتنافى مع الشريعة الاسلامية ، وتبث الأفكار الالحادية بين صفوف المجتمع ، فعندها الاسلام يجهز عليها ويزيل آثارها من البلاد .

3 ـ الحرية المدنية

وهي إعطاء الفرد الحرية التامة في العمل الذي يرغب والمسكن الذي يريد ، حسب ميوله ورغباته . ومن هذه الحرية كانت الحرية الشخصية ؛ ونعني بها حرية الفرد في اختيار العمل الذي يريده من أجل كسب معيشته ، فله أن يمارس أي حرفة أو مهنة أو صنعة ، ما لم يكن ذلك العمل محرماً شرعاً في الاسلام ، كصناعة الخمور وغيرها من المحرمات التي نهى الاسلام عن مزاولتها .

وله أيضاً الحرية الشخصية في العلم الذي يريد التخصص به ، كما له الحرية في اختيار الزوجة التي يريدها شريكة حياته ، دون أن تكون من المحرمات اللواتي نص عليهن القرآن الكريم .

وللفرد حرية السكنى ، فهو حر في أي بلد يقيم فيه سواء كان وطنه أم غيره ، وله الحق في سكنى البيت الذي يريد ما لم يكن ذلك البيت مغصوباً .

4 ـ الحرية الاقتصادية :

الحرية الاقتصادية : هي إباحة تصرف الفرد في ملكه حيثما شاء ، فله حرية الاختيار في نوع العمل الذي يريد ممارسته ، كالزراعة والصناعة والتجارة ، والذي يرى فيه ربحاً وافراً . وقد حدد الاسلام الحرية الاقتصادية وفرض عليها بعض القيود من أجل المصلحة العامة . وذلك كمنعه الربا والاحتكار والغش وما إلى ذلك من الأمور ، التي توجب الضرر العام على المواطنين .

من الحرية الاقتصادية كانت الحرية الفردية في التملك :

وهي حرية الشخص في استغلال ملكه ، والتصرف فيه من بيع أو رهن أو إيجار . وقد حدد الاسلام حرية التملك ونهى عن بعض وسائله من أجل المصلحة العامة .

هذه هي بعض ألوان الحرية التي منحها الاسلام للانسان ، وقد كان السباق في هذا المجال لعديد من الدول التي سموها متحضرة . كالبلدان الأوروبية والامريكية وغيرها . وقد أشرنا قبل قليل كيف أن الاسلام سبق أوربا في اعلان الحرية بعدة قرون . جاء في التشريع الجنائي في الاسلام :

« سبقت الشريعة الاسلامية القوانين الوضعية في تقرير نظرية الحرية بأحد عشر قرناً ، لأن القوانين الوضعية لم تبدأ بتقرير هذه النظرية إلا في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، أما قبل ذلك فلم تكن هذه القوانين تعترف بالحرية بل كانت أقسى العقوبات تخصص للمفكرين ، ودعاة الاصلاح ، ولمن يعتقد عقيدة تخالف العقيدة التي يعتنقها أولو الأمر . هذا هو الواقع ، وهذه هي حقائق التاريخ ، فمن شاء بعد ذلك أن يعرف كيف نشأت الأكذوبة الكبرى التي تقول : إن الأوروبيين هم أول من دعوا للحرية فليعلم أنها نشأت من الجهل بالشريعة الاسلامية »[46] .

5 ـ إلغاء التمايز العنصري

لو سارت الدولة على ضوء التعاليم الاسلامية لساوت بين جميع المواطنين في الحقوق والواجبات ، فلا تميز صنفاً على آخر ، ولا فئة على أخرى ، إلّا بمقدار كفاءاته الشخصية ، وعطاءاته الخيرة ، وأخلاقه العالية .

لقد حطم الاسلام جميع الحواجز الطبقية وألغى التمايز العنصري بين أبناء البشر ، وساوى بين الناس جميعاً من أي لون أو عرق .

قال تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعاً ﴾[47] .

وقال تعالى أيضاً : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ﴾[48] . وقال ﷺ : « سلمان منا أهل البيت »[49] وقال ﷺ أيضاً : « ان سين بلال خير من شينهم » .

إن إلغاء التمايز العنصري الذي رفع شعاره الاسلام ، يحقق بلا ريب التعايش السلمي بين جميع الشعوب ، ويزيل الفوارق التي ما تزال موجودة بأجلى مظاهرها في هذا العصر ، في أمريكا المتحضرة ، حيث يعامل الزنوج فيها بكل قسوة وجفاء ، فهم يدرسون في مدارس لا يدرس فيها البيض ولا يسكنون معاً في منزل واحد . والعامل الزنجي يتقاضى أجراً أقل من نصف أجرة العامل الأبيض . ومن طريف ما ينقل عن واقع ذلك المجتمع الذي بني على الامتيازات والفوارق :

إن صاحب مقبرة الكلاب في واشنطن ، أعلن عام 1947 أنه لا يقبل جثث الكلاب التي يملكها الزنوج ، ويعلل ذلك أن زبائنه البيض قد ساءهم أن تعامل كلابهم هذه المعاملة

(46) التشريع الجنائي في الاسلام لعبد القادر عودة ج 1 ص 36 .

(47) الأعراف الآية 158

(48) سبأ الآية 28 .

(49) يقصد بسلمان : سلمان الفارسي . وبلال : بلال الحبشي مؤذن الرسول ﷺ

المنكرة بعد وفاتها كما تعامل كلاب الزنوج . هذه الفوارق التي تبعث الكراهية والحقد بين أفراد المجتمع الواحد ، حطمها الاسلام ورفضها حكام الحكومة الاسلامية . أولئك الذين عشقوا الانسان باخلاص وصدق ، وأحبوا البشرية حباً يلمس شغاف القلوب ، وتمس حرارتها عمق الضمير . وقد لاقت فكرتهم قبولاً عند عامة الشعوب من كل حدب وصوب ، لأنهم وجدوا فيها نفعاً وخيراً ، إذ كيف يمكن قبول دعوة لا تتوفر فيها الصفات الانسانية ولا تكون كما قال الامام علي (ع) عندما كتب إلى واليه على مصر :

« ولا تكن عليهم (الرعية) سبعاً ضارياً ، تغتنم أكلهم ، فإنهم صنفان : إما أخ لك في الدين ، وإما نظير لك في الخلق »[50] .

فالاسلام ، الدين المتكامل والشريعة الخالدة ، نظام اجتماعي وسياسي شامل ، كفل كافة الاحتياجات البشرية للناس أجمعين ، بجميع ألوانهم وأجناسهم ، وأشكالهم ، وقومياتهم ، وحقق لهم على قدم المساواة كل ما يسعون إليه من هدوء واستقرار وسلام .

ولكن القوى الكافرة قد عاثت فساداً في بلاد المسلمين ، ففرقت كلمتهم وأشاعت التحلل بين أبنائهم ، حتى صار المسلمون كما نراهم اليوم غرباء في أوطانهم إنما وعد الله حق فالنصر للاسلام ، والفوز للايمان . قال تعالى في كتابه الكريم : ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ﴾[51] .

وهكذا نرى كيف أن الاسلام أقام حكومة عالمية واحدة على سلسلة من المبادىء والأسس الفكرية ، الكفيلة لوحدة تامة بين شعوب الأرض فالخلق في نظر الدعوة الاسلامية كلهم من آدم وحواء ، وكلاهما من تراب ، وهم متساوون في المشاعر الانسانية ، ومتساوون في المصير النهائي ، فكلهم راجعون الى الله تعالى . ولما كانوا كلهم كذلك فلماذا يختلفون ، ولماذا يتميز بعضهم عن بعض بالعنصر ، أو اللون ، أو الأرض ! وغير ذلك من ألوان التمييز الظالم المرفوض كلياً في النظام الاسلامي العادل والحكومة الاسلامية الواحدة العامة . وإلى هذا يشير قول الله عزّ وجل :

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[52] .

فالتقوى فضيلة أراد بها القرآن الكريم أحكام ما بين الانسان والخلق وأحكام ما بين الانسان والله ، خالق الخلق ورب العالمين . وهي في الأصل جعل النفس في وقاية بالنسبة لما يخاف ويخشى في شريعة الله .

وخوف الله يستدعي العلم بالمخوف ، من هنا كان الذي يعلم الله أكثر هو الذي يخشاه أكثر وبالتالي يتقيه أكثر . والمتقون هم الذين يقون أنفسهم عذاب الله وسخطه في الدنيا

---

(50) نهج البلاغة قسم الرسائل 53 .

(51) القصص الآية 5 .

(52) الحجرات الآية 13 .

والآخرة ، وذلك بالوقوف عند حدوده وامتثال أوامره واجتناب نواهيه . قال تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾[53]، هذه هي التقوى التي أولاها القرآن عناية فائقة لأنها تدل على عمق الروحية الاسلامية ، ولأنها المقياس الدقيق في تصنيف المؤمنين درجات درجات . ولو أن العالم عرف التقوى وعمل بها وقام بواجبها ، لانطفأت ثورة الظلم والشر وساد العدل والسلام على الأرض . قال تعالى ناصحاً عباده : ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ﴾[54] .

وقال النبي ﷺ : « ألا ان خير عباد الله عبد اتقاه ان الناس من عهد آدم الى يومنا هذا مثل أسنان المشط لا فضل لعربي على عجمي ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى »[55] .

6 ـ التعليم والأخلاق في الاسلام

اهتم الاسلام بتثقيف المجتمع وتربيته اهتماماً كبيراً واعتبر تسلحه بالعلوم والأخلاق من الضروريات البالغة ، ومنذ بزوغ نوره رفع منار العلم ، ودعا الى الانطلاق في جميع ميادينه فجعل طلبه « فريضة على كل مسلم ومسلمة »[56] كما قال رسول الله ﷺ . وقد أمر بطلبه ولو كان في الأمكنة النائية قال ﷺ : « اطلبوا العلم ولو بالصين » .

وقد حض الرسول على طلب العلم وجعله ركناً من أركان الخير ، وميز به الناس ، فقال : « الناس معادن فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام إذا فقهوا »[57] ومن بعض أدعيته عليه السلام : « اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن دعاء لا يسمع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع »[58] .

ولم يقتصر طلب الرسول على طلب العلم بل على تبليغه أيضاً ، لأن الغاية منه أن ينتفع به أصحابه ، وينفعوا غيرهم به ، فلا خير من علم مكتوم في صدور العلماء ، لذلك حرم النبي ﷺ كتمان العلم ، وأمر العلماء بنشره في مناسبات عديدة قال ابن مسعود : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « نضّر الله امرأ سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه ، فرب مبلغ احفظ له من سامع ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه »[59] .

إن أول من حمل لواء التحرير من الجهالة والضياع والضلال رسول الله ﷺ فقد كان الرائد الأول الذي بين منزلة العلماء والمعلمين ، فقال : « العلماء ورثة الأنبياء »[60] .

---

(53) آل عمران الآية 102 .

(54) البقرة الآية 197 .

(56) الكافي ج 2 ص 246

(56) سنن ابن ماجه ج 1 ص 50 رواه أنس بن مالك عن الرسول ﷺ .

(57) جامع بيان العلم ج 1 ص 18 .

(58) سنن ابن ماجه ج 1 ص 56 .

(59) مسند الامام أحمد ج 6 ص 96 .

(60) مجمع الزوائد ج 1 ص 121 .

وقد وصى رسول الله ﷺ بطلاب العلم لنلطف بهم ونحدثهم ، روى عن أبي هارون العيدي عن أبي سعيد الخدري قال : أوصانا رسول الله ﷺ أن نوسع لطلاب العلم في المجلس وأن نفقههم فإنهم خلوفنا، وأهل الحديث بعدنا »[61] .

ب ـ الأخلاق في الاسلام

دعا الاسلام الانسان الى التحلي بالاستقامة والفضائل ، والتخلي عن المساوىء والرذائل ، بأسلوب رائع وكلام ساحر يعطينا دليلاً واضحاً على أن القرآن الكريم كتاب روحي من عند الله .

والإنسان إذا فقد الرغبة في الاستقامة واصلاح نفسه ضعف إقباله على الخير ، وأصبح هدفاً سهلاً للتورط في الآثام . لذلك نرى في كتاب الله اهتماماً بالغاً في النواحي الأخلاقية ، ولا غرو فهو معجزة الله على الأرض يستهوي النفوس ويؤثر في أعماقها ، حيث الوعد الجميل والاطمئنان المريح والأجر العظيم لكل مؤمن استقام وعمل صالحاً . قال تعالى :

﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون . نزلاً من غفور رحيم ﴾[62] .

اصلاح النفس وتزكيتها

ومما يتوافق مع الاستقامة ما عبر عنه القرآن بإصلاح النفس وتزكيتها ، لأن التمادي في الظلم والفسق يجر الى عواقب وخيمة على النفس الانسانية وعلى المجتمع البشري . قال سبحانه : ﴿ فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم ﴾[63] .

ولقد حث القرآن على تزكية النفس لتسمو عن النقائض ويرتفع قدرها ، وتأخذ عند الله حظها من الرضوان ، وعند الناس نصيبها من الكرامة . فقال سبحانه : ﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾[64] .

التقوى

عني القرآن الكريم بالتقوى وأكثر من الأمر وتوجيه النفوس إليها ، ليبتعد الانسان عن كل ما يحول بينه وبين الغايات النبيلة ، التي تتكامل في نمو جسمه وروحه . ولهذا وصف الله المتقين بأنهم من تحلوا بالفضائل الانسانية الحقة . قال تعالى : ﴿ ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب

---

(61) شرف أصحاب الحديث ص 72 .

(62) فصلت الآية 30-32 .

(63) المائدة الآية 39 .

(64) الشمس الآية 9-10 ودساها : أي دنسها وهبط بها الى الحيوانية .

وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾[65] .

الاحسان

تشمل الأفعال الحسنة كل خير وكل معاملة ترفع من شأن الإنسان وتهذب نفسه ، وتقربه من خالقه ، وعلى هذا جاءت وصايا القرآن في الدعوة إلى الترغيب في إتيان الاحسان .

وتعاليم القرآن في الاحسان تعالج بما يؤثر في الشخصية الانسانية ، وبما يحقق فيها المثل العليا التي ما زال يدعو إليها رواد الاصلاح في العالم .

والاحسان واجب طبيعي في الاسلام وعلى الإنسان أن يحسن الى غيره كما أحسن الله إليه من تلك النعم الخيرة التي أسبغها الله عليه ، قال تعالى :

﴿ وأحسن كما أحسن الله إليك ﴾[66] .

والمحسنون من الناس يشعرون بطمأنينة نفسية لا يشعر بها غيرهم ، وذلك لما يدخلون من السعادة والود والمحبة الى نفوس غيرهم . لذلك رفع القرآن منزلة المحسن الى درجة الاخلاص لله ، ورغب في الاتيان بها يقول سبحانه : ﴿ ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾[67] وقال تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾[68] .

ولا ننسى أن الجهاد في سبيل الله سواء بالنفس أو المال هو من الاحسان : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين ﴾[69] .

وكثيرة هي الآيات التي رغب القرآن فيها ودعا إليها ، لما تحدث بين الأفراد من محبة وإلفة ورباط اجتماعي وثيق . كل ذلك يوضح لنا أن الإحسان الذي دعا إليه الاسلام هو غاية ما تصبو إليه الإنسانية لإقرار السلام ، ونشر المحبة والوئام بين الأفراد والجماعات . وأي خير يغمر الناس جميعاً إذا سيطرت فيهم صفة الاحسان ، إنهم أحرى بأن يحققوا المدينة الفاضلة التي تخيلها الفلاسفة والتي طبقها الاسلام .

ولا ننسى تأثير الاحسان في استعباد القلوب والانقياد عفواً دون أي حساب وراء من نحب ، قال الشاعر :

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم   فطالما استعبد الانسان إحسان

العفو

هو من الصفات الحميدة التي يتحلى بها الانسان الفاضل صاحب النفس الكبيرة والعقل

---

(65) البقرة الآية 177 .
(66) القصص الآية 77 .
(67) لقمان الآية 22 .
(68) الأنعام الآية 160 .
(69) العنكبوت 69 .

الراجح ، الصابر على تحمل اعتداء الغير وأذاه . فكثيراً ما نخطيء ونزل ، وكثيراً ما يخطيء نحونا الآخرون ، فنفتقر الى العفو والغفران ، وإن لم نغفر لمن أساء إلينا فلا يغفر لنا ، لأن مقابلة الاساءة بالاحسان تنزع من نفس المعتدي البغضاء ، وتردعه عن غيه وطيشه ، وتحول بغضاءه الى مودة . لذلك دعا الله الى مقابلة شرور الناس بالاحسان إليهم فقال تعالى :

﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾(70) .

ولما كانت بعض النفوس جبلت على الاعتداء ، فقد وضع الاسلام علاجاً لها ، لمنعها من التمادي في غيها . ولكن بالرغم من هذا لم يغفل من ترجيح العفو قال سبحانه : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله أنه لا يحب الظالمين . ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم . ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور ﴾(71) .

هذا هو مذهب الاسلام بالعفو ، ولا ريب أن الانسان إذا عفا وهو متمكن من القصاص كان عفوه فيه رحمة وعزة . وهذا العفو قد يؤدي في كثير من الأحيان إلى صداقة قوية بين المتخاصمين ، لأن المعتدي يؤلمه هذا العفو من قادر على القصاص ، فيعمل على إرضائه ومحو أثر الاعتداء من نفسه .

الصدق

من أكمل الصفات في الانسان الصدق ، فهو الذي يكفل الاستقرار في المجتمع ، ويضمن الثقة بين الأفراد ، لذلك اعتمده الاسلام أساساً من أسس الفضائل التي بنى عليه مجتمعه ، وقد سارت على هديه المجتمعات الراقية المتحضرة . والصدق من ضرورات المجتمع الذي ينبغي أن ينال حظاً عظيماً في الأسرة والمدرسة والجامعة وجميع المؤسسات ، فبه ترد الحقوق ، وبه يمحى الكذب ، وبه تتوثق الصلات بين الناس وتسهل المعاملات . فالصادق لا يسرق ولا يفعل المحرمات ولا يتعدى على حقوق الغير ، وبذلك يكسب رضى العباد ورضى رب العالمين .

وقد دعا الله سبحانه للتخلق بالصدق فقال مخاطباً المؤمنين : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديدا ﴾(72) .

وقال النبي ﷺ في الدعوة الى الصدق : « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي الى البر وان البر يهدي الى الجنة وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً . وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وان الفجور يهدي إلى النار وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عبد الله كذاباً »(73) .

---

(70) فصلت الآية 34 .

(71) الشورى الآية 40 -43 .

(72) الأحزاب الآية 70 .

(73) راجع صحيح مسلم .

ومن أنواع الصدق صدق الوعد الذي هو من الصفات الحميدة التي يتحلى بها الانسان ، وهو سبب جوهري من أسباب النجاح في هذه الحياة ، لذلك بشر الله الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم . قال تعالى :

﴿ . . . وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ﴾(74) .

وقال سبحانه ﴿ واذكر في الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبيا ﴾(75) .

الاصلاح بين الناس

من أهداف المؤمن ليس تجنب الإضرار بالناس ، وإنما عليه أن يسعى الى الإصلاح بين الناس . ذلك أن العداوة بين أصدقاء كل من المتعادين قد تتطور الى خصام ومشاجرة وربما إلى سفك دماء . فالاصلاح بين الناس من أنبل الصفات الانسانية التي لا تصدر إلا من قلوب خيرة كريمة ، أحبت الغير وسعت إلى الدفاع عنه . وهل أفضل من الاصلاح الذي يجعل الناس وحدة متماسكة تسعى لبعضها البعض ؟ لهذا أمر الله به بقوله سبحانه :

﴿ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ﴾(76) .

ودعا سبحانه إلى الإصلاح بين طوائف المؤمنين : « وأن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ﴾(77) .

وكثيراً ما يحصل الثرثرة والتناجي بين الناس مما لا خير فيه ، فيغتاب البعض البعض الآخر أو يحيكون المؤامرات ضد من سبقوهم في السلطة بقصد الاستعلاء عليهم ، لذلك حدد القرآن السبيل الفاضل الذي يجب أن يسلكه الناس في تناجيهم وهو تأمين حاجات الطبقة الفقيرة والأمر بالخير ، والاحسان والاصلاح بين المتحاسدين والمتخاصمين، ومن يفعل هذه الأعمال لوجه الله فإنه سبحانه يجزيه الثواب العظيم والأجر الجزيل .

قال تعالى : ﴿ لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ﴾(78) .

فتأمل هذه الروعة التي يحملها النص القرآني من السمو الخلقي الذي تفتقر إليه الجماعة للحصول على الأمن والاستقرار . واليوم كم هي الانسانية بحاجة لمثل هذه التعاليم السامية لتزيل البلبلة والتنازع من صفوف أفرادها ، وتطرد البغضاء والتحاسد والمؤامرات . كل ذلك بسبب إغفالها التعاليم الاسلامية التي دعا إليها القرآن الكريم وشجع على القيام بها منذ قرون خلت .

---

(74) يونس الآية 2 .

(75) مريم الآية 54 .

(76) الحجرات الآية 10 .

(77) الحجرات الآية 9 .

(78) النساء الآية 114 .

التعاون

من أبرز مميزات الحياة الروحية التي دعا اليها الإسلام التعاون على الخير ، للنهوض بالحياة الاجتماعية الى المستوى الانساني الرفيع الذي يؤدي الى سعادة الجماعة والتخفيف من آلامها . وقد أدركت المدنية الحديثة هذه الميزة الفاضلة ، فأسرعت الى تأليف الجمعيات والتعاونيات التي تعطينا الدليل القاطع على فوائد التعاون وضرورته لاسعاد الفرد والجماعة .

هذا المبدأ الخير العظيم كان له الحظ الأوفر في القرآن الكريم فدعا إليه آمراً بالتعاون ناهياً عن الإثم والعدوان . قال تعالى :

﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾(79) .

فالتعاون المحب بين الناس دعا إليه الإسلام لأنه يسعد المجتمع ، ويوحد بين أفراده ، ويزرع في قلوبهم المحبة والتعاطف وعرفان الجميل ، فإذا ما تعاونا جميعاً على البر والتقوى ، كما طلب منا رب العالمين ، سعدنا في حياتنا وحصلنا على كل ما نطمح إليه من استقرار وسلام .

الايثار

من الصفات الكريمة التي دعا إليها الاسلام الإيثار ، شعار النفوس الكبيرة الساعية دائماً الى خدمة الانسانية لا جزاء ولا شكورا ، بعكس الإثرة التي تجعل صاحبها مذموماً منبوذاً وتثمر التباعد والتباغض بين أفراد المجتمع .

فالإيثار له أكبر الأثر في توثيق المحبة بين أفراد المجتمع الواحد ، يجعلهم متعاطفين يشعرون اتجاه بعضهم البعض باندفاع ذاتي ومحبة خالصة . لذلك طلب الينا الله في كتابه العزيز لنعمل بهذه الصفة النبيلة ومدح قوماً تخلقوا بها . قال تعالى : ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾(80) .

وهذه الصفة أيضاً تدل بلا ريب على عمق التربية الروحية التي غرسها الاسلام في اتباعه ، وفيها قبس للذين ينشدون السمو الروحي لخير المجتمع الانساني .

هذه بعض الصفات الأخلاقية التي دعا إليها الاسلام وزكاها ، لأن الانسان لا يمكنه أن يبلغ أي مبلغ من النضوج العلمي ، أو التقدم الاجتماعي من دون أن تتوفر له هذه التربية الواعية ، التي تتكفل بناء شخصية الفرد وقيام مجتمع إنساني صالح .

ولقد تركزت مساعي الانبياء العظام والرسل الكرام على تحقيق الغاية الكبرى من العلم ومكارم الأخلاق ، باذلين في سبيل ذلك أعظم الجهود يدلنا على ذلك أن الله سبحانه خص الأنبياء بمكارم الأخلاق وجعلهم أسوة حسنة لاممهم ، ونخص من بينهم بالذكر نبينا محمد ﷺ فقد وصفه الله عزّ وجل : ﴿ وانك لعلى خلق عظيم ﴾(81) .

---

(79) المائدة الآية 2 .

(80) الحشر الآية 9 .

(81) القلم الآية 4

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : « سمعت النبي ﷺ يقول : « بعثت بمكارم الأخلاق ومحاسنها » وقال (ع) : عنوان صحيفة المؤمن حسن خلقه»[82]. ومن وصايا الرسول الكريم ﷺ بمكارم الأخلاق واهتمامه البالغ بتثقيف النفوس البشرية لتعلو الى أوج السعادة ، قال : ان أحبكم إليّ ، وأقربكم مني مجالس يوم القيامة ، أحاسنكم أخلاقاً ، الموطئون أكنافاً ، الذين يألفون ويؤلفون »[83] .

وقال ﷺ : « إتق الله حينما كنت ، واتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن »[84]

أجل لقد اهتم الدين الاسلامي اهتماماً بالغاً بالانسان جسداً وروحاً ، وهو عنده سبحانه أفضل مخلوق على وجه الأرض إذا كان كما أراده الله أن يكون ، متسلحاً بالعلم والأخلاق فهما له الحصن الحصين ليرتفع بهما الى المستوى الانساني اللائق به في الحياة الحرة الكريمة . وما من شك أن التعاليم السماوية بواسطة الرسل الكرام هي نور وهدى ، وهي الينبوع الأصيل الدائم لكل زمان ومكان ، وكل التعاليم الأخرى مصيرها الى الزوال من أي مصدر كان .

---

(82) و(83) مجمع البيان للطبرسي ج 1 ص 333 ومن لا يحضره الفقيه ص 458 . والبخاري - فضائل الصحابة ص 23 .

(84) و(85) الأخلاق الاسلامية للسيد علي فضل الله ص 10 .

الباب الثاني

لمحة عن الحركة الفقهية والتشريعية في الاسلام

الفصل الأول
حاجة الأمة الى التشريع

التشريع هو مجموعة من القوانين والقواعد والأحكام يضعها المشرع لتنظيم الروابط الفردية والاجتماعية بين الناس ، وبيان ما لهم من الحقوق وما عليهم من واجبات ، ولولاه لعمت الفوضى في البلاد وسيطر الظلم ، فأخذ القوي بقوته الشخصية كل ما يريد ، وفقد المستضعف كل أسباب الحياة الكريمة ومقوماتها .

ولما كان التشريع لهذه الغاية الانسانية النبيلة فلا بد للمشرِّع أن يتجرد عن أهوائه الخاصة ومصالحه الذاتية ، وأن يكون مخلصاً فيما يضعه من القوانين والمبادىء العامة التي تهدف إلى حماية المجتمع من طغيان القوي الجامح والأثرة وحب الذات . ومن الصعب أن تتحقق هذه النزاهة في التشريع إذا وضعه موظف الدولة الممالىء للحكم ، لأنه يستمد عندئذٍ قوته وفعاليته من سلطة الحكم التي تشرف على وضعه لتفرضه على الناس . وكثيراً ما تتحكم في مثل هذا التشريع الأهواء والغايات الشخصية ، فتراعى فيه حالات خاصة وظروف معينة قد يتأثر بها رجال التشريع ، إما بدوافع نفسية خاصة وإما بإيحاء ممن يملكون التوجيه . لذا نلاحظ معارضة الأكثرية من المواطنين يطالبون بالتعديل والتغيير .

أما التشريع السماوي الذي يصدر من حكيم خبير عليم ، محيط بجميع الأمور والحاجات ، لا يضل ولا ينسى ، منزه عن الغرض والهوى وجميع المؤثرات والانفعالات ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وفي الوقت نفسه يربي في القلب طهارة النفس ، ويقظة الضمير ، وقوة الاحساس بالواجب . هذا التشريع العادل الحكيم يعنى بتوثيق العلاقة بين الانسان وأخيه ، وبينه وبين خالقه ، رب العالمين ، فيشجع على الطاعة ويبشر العاملين به أجراً جزيلاً وثواباً عظيماً . قال سبحانه وتعالى :

﴿ . . . من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾[1] .

وقال عزّ وجل : ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ذلك هو الفوز العظيم ﴾[2] .

---

(1) البقرة الآية 62 .

(2) الجاثية الآية 30 .

وإذا أحصينا الآيات الكريمة التي تحث على العمل الصالح وتجزي المحسنين بأعمالهم الصالحة لبلغت أربع وسبعين آية .

إن العامل بما يفرضه التشريع السماوي لا يتخلص من مسؤولية العقاب فحسب ، بل يأخذ على عمله الأجر . أما غير العامل بالشريعة السماوية فجزاؤه في الآخرة بالإضافة الى ما يلقاه في الدنيا التي تفرضها الشرائع .

من أجل ذلك كانت القوانين السماوية أقوى أثراً في نفس المؤمن بالله ، حيث لا مجال للتهرب من مسؤوليتها في الآخرة ، إذا ما استطاع أن يتهرب من العقاب المفروض على مخالفتها في الدنيا .

فالتشريع الانساني الذي حدد للناس علاقتهم بالله سبحانه وبالمجتمع ، وبيّن لهم حقوقهم وواجباتهم ، وحد من كبريائهم وطغيانهم ، ونظم لهم صلاتهم بالله وبالناس ، وعالج جميع شؤونهم هو التشريع الاسلامي . لقد جاء وافياً بحاجة الانسان ، عادلاً في قوانينه ، سليماً في مبادئه ، صالحاً لكل زمان ومكان . فالإسلام هو الذي جمع بين متطلبات الروح وحاجات الجسد ، وربط بين مصالح الدنيا وأوامر الدين ، فلكل إنسان الحق في أن يأخذ نصيبه من الدنيا كاملاً غير منقوص ، ويساهم في بناء المجتمع الصالح البعيد عن البغي والطغيان . قال سبحانه وتعالى : ﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسَ نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغِ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين ﴾[3] .

يجد الباحث في التشريع الاسلامي ثروة غنية مفيدة تهب المسلم المؤمن الكثير من صنوف العطاء ، وتلبي حاجاته ورغباته بجميع متطلبات الحياة مهما امتد الزمن ، وتطورت أساليبه ، واتسعت أسبابه في ميادين العلم المختلفة . قال تعالى : ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون ﴾[4] .

لقد أمر الاسلام بالعلم الذي يصقل العقول ويحررها من الأهواء والأوهام ، ويطهرها من الخرافات ، كما أمر بالعدل والاحسان والإخاء والمحبة ، ورفض التفاضل بغير العمل الصالح وخدمة الانسانية « الناس كلهم عيال الله وأقربهم إليه أنفعهم لعياله » ونهى عن الكذب والدس والظلم وكل ما يدنس الحياة ويعيقها عن التقدم والتطور ، وحارب الاستغلال والجشع والاحتكار .

إن الإسلام بمبادئه العادلة وتشريعاته الانسانية وفر للانسان العزة والكرامة ، والسعادة في الدنيا والآخرة ، تلك المبادىء الخيرة والنظم الصالحة لبناء أمة قادرة على أن تسهم في بعث العالم ووحدته ونهضته ، هي من صنع خالق الانسان ، وليست من صنع الانسان الذي يخطىء ويصيب ، ويندفع مع أهوائه ونزعاته التي تطغى عليه في أكثر حالاته . إنها مبادىء

(3) القصص الآية 77 .

(4) الانعام الآية 38 .

إنسانية عالمية ترتكز على أساس العقيدة بالله سبحانه ولا تدع مجالاً في نفس الباحث إذا كان مجرداً لطلب الحق .

فالإسلام كغيره من الشرائع السماوية يحرص كل الحرص على محاربة الالحاد والوثنية ، ويقيم العشرات من الأدلة والبراهين التي لا تقبل الجدل على أن الإنسان مدين في أموره لقوة تسير هذا الكون ، وتمده بالطاقة الكاملة والتفكير القوي ، لينتج ويكافح ويجاهد وليحقق كل طموحاته وأهدافه . هذه القوة هي السبب في كل شيء وإليها تنتهي جميع الأسباب ، فهي الطاقة التي أمدت المخلوقات بما فيها من امكانيات على اكتشاف الحقائق ، وأسرار الطبيعة . وكلما تقدم الفكر وتطور العلم ، أدرك الانسان جهله وعجزه عن الإحاطة بنظام هذا الكون ، وأحس أنه لا يزال في بداية الطريق . وإن ما وصل إليه لا يعد شيئاً بالنسبة لما بقي مستوراً عنه مهما أبدع في الانتاج ، وأفاد البشرية من خيرات الأرض وأسرار الفضاء . قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾(5) .

الاسلام كتشريع سماوي إنساني ، حريص على أن يرشد الانسان إلى تلك القوة المدبرة لهذا النظام الكوني الشامل . فالإيمان بالله هو الركيزة التي تقوم عليها دعائم الاسلام . وأكثر ما جاء في القرآن الكريم من آيات بيّنات نزلت على الرسول ﷺ في الأيام الأولى من بعثته قبل هجرته الى المدينة المنورة ، معظمها نزل عليه في مكة المكرمة وكلها ترجع إلى توحيد الله سبحانه بأساليب مختلفة ، فمرة بالأدلة والبراهين ، وأخرى بالأمثال والنظائر ، وثالثة بالتحذير والتخويف من أهوال النار وعذاب الآخرة ، أعدهما الله سبحانه للكافرين والجاحدين .

وقلما تخلو سورة من سوره عن آية أو آيات تدعو إلى الايمان بالله ووحدانيته ، بأساليب مختلفة وذلك حسب اختلاف الانسان في تفكيره وسمو إدراكه(6) . قال سبحانه وتعالى : ﴿ وإلـهكم إلـه واحد لا إلـه إلا الله هو الرحمن الرحيم ﴾ كما أن توحيد الله قد جاء به الرسل من أولهم إلى آخرهم ، قال عزّ وجل مخاطباً رسوله محمداً ﷺ : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾(7) .

وبعد أن تناول القرآن « التوحيد » وهو القاعدة الأولى في الاسلام التي يجب أن يعتقد بها قلب المسلم وينطق بها لسانه بقوله ـ أشهد أن لا إلـه إلا الله ـ إنتقل إلى المرحلة الثانية ، مرحلة التشريع والتنظيم فتناول القرآن الكريم قسماً منه ، والقسم الثاني تلقاه الرسول ﷺ من الوحي حسب الحاجة ، وهو بدوره بلغه الى المسلمين في الوقت المناسب وحسب حاجتهم إليه .

قال سبحانه : ﴿ يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت

---

(5) الاسراء الآية 85 .

(6) البقرة الآية 163 .

(7) الأنبياء الآية 25 .

رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين ﴾(8) وقد بلغت آيات كتاب الله الواردة في مقام تشريع الأحكام سواء ما كان منها في الأحوال المدنية أو الأحوال الشخصية أو الجنائية أو القضائية أو العبادات ، نحواً من خمسماية آية .

والمسلمون طوال حياتهم مع الرسول ﷺ كانوا يأخذون منه الأحكام مباشرة ، وقد يرجعون إلى الكتاب فيما كان نصاً في حكم ، أو ظاهراً فيه ظهوراً يحصل منه الاطمئنان بالغاية المطلوبة ؛ هذا في الداخل ، أما من كان خارج العاصمة فكان الرسول ﷺ يبلغهم الأحكام بواسطة القضاة والولاة ، أو بواسطة البعثات التي كان يبعث بها إلى خارج المدينة . كل ذلك من أجل إدارة تلك المناطق سياسياً ودينياً واجتماعياً .

ولما انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى انتهت قيادة المسلمين من بعده الى الخلفاء . فالخليفة وأعوانه يشرفون على تنظيم الدولة ، وتطبيق الرسالة الاسلامية . وفي المدينة ، مهد الحكومة الاسلامية ، كان الكثير من صحابة الرسول ﷺ الذين رافقوه منذ اليوم الأول في دعوته المباركة ، وجاهدوا معه وآزروه في جميع غزواته التي خاضها ضد المشركين والكفار ، والبعض الآخر آمن بالاسلام ومبادئه على مراحل ، مرت من جهاد الرسول في سبيل الدعوة ؛ ومما لا شك فيه أن بين هؤلاء وأولئك عدداً ليس بالقليل ، قد أحاط الأحكام وأدرك أسرار الكتاب نصه وظاهره ، ومجمله ومبينه ، وأخذ عن الرسول أحكاماً كثيرة لم تفصلها النصوص القرآنية وآيات التشريع ، وهؤلاء هم الذين نعنيهم ، من بين الصحابة الكثر الذين سموا أنفسهم بالصحابة وهم منها براء . هؤلاء الصحابة الفقهاء قاموا بنشر رسالة الاسلام وتعاليمه القويمة ، فكانوا المرجع في التشريع حتى عهد التابعين وتابعيهم .

نخلص من هذا كله إلى القول أن التشريع أمر لا بد منه لحفظ النظام وبناء مجتمع صالح ، يلبي حاجات الأفراد ، وتسوده العدالة والحرية والمساواة . والتشريع الاسلامي جاء وافياً بكل ما ذكرنا ، شاملاً لجميع حاجات الانسان في الدارين ، الدنيا والآخرة ، مساوياً بين الناس جميعاً ، فلا سيد ولا مسود ولا ظلم ولا عدوان ، الناس كلهم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لأبيض على أسود ولا لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ، قال سبحانه وتعالى مخاطباً الرسول محمد ﷺ ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾(9) . وقال سبحانه في موضع آخر : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾(10) .

حرص الاسلام في تشريعاته الاجتماعية على تصفية النفس الانسانية من الشوائب والرذائل التي يؤدي الاستمرار عليها الى الشرك بالله ، فلا تبصر الحق ولا تدرك الواقع الصحيح حتى يكون الشيطان لها قرينا؛ يمنيها حسن العاقبة وأنها على صواب فيما تتوهم . قال سبحانه وتعالى :

﴿ ومن يَعْشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ، وأنهم ليصدونهم عن

---

(8) المائدة الآية 67 .

(9) سبأ الآية 28 .

(10) الأنبياء الآية 107 .

السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ، حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ﴾(11) .

بين عصر الصحابة وعصر المذاهب الفقهية :

بعد وفاة الرسول ﷺ وبعد وفاة آخر الصحابة (12) في أواخر القرن الأول الهجري ، بدأ عصر جديد كان تمهيداً لظهور المذاهب الفقهية على أيدي الفقهاء الأعلام والعلماء الرواد ، الذين أسسوا المدارس الدينية والمذاهب الاسلامية التشريعية . فبعد أن فتحت الشام ومصر وفارس والعراق ، واتسعت رقعة الدولة الاسلامية ، وامتزجت حضارات تلك البلدان بالحضارة الاسلامية ، عرضت للناس وقائع جديدة وأحداث لا عهد لهم بها من قبل ، استدعى ذلك وضع بعض التشريعات في المعاملات والقضاء والحلال والحرام . فكان لا بد أن تتكون المدارس الفقهية ، وأولها مدرسة المدينة المنورة ودار السنة المشرفة ، موطن الطبقة الأولى من علماء الصحابة كعبد الله بن عباس وزيد بن ثابت ، وعلي بن أبي طالب(13) .

اشتهرت مدرسة المدينة بفقهائها المعروفين في عالم الفقه والتشريع ، وأولهم علي بن أبي طالب المتوفى سنة 40 هـ وسلمان بن يسار المتوفى سنة 37 هـ وعروة بن الزبير القرشي المتوفى سنة 92 هـ (14) وسعيد بن المسيب القرشي المتوفى سنة 94 هـ وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المتوفى سنة 94 هـ وعبيد الله بن عبد الله بن عقبة بن مسعود المتوفى سنة 98 هـ(15) والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق المتوفى سنة 106 هـ .

وقد بدأت الحركة الفقهية في انطلاقتها الأولى على أيدي هؤلاء الفقهاء ، ومن أقوالهم الحكيمة التي كانت الحجر الأساس في التشريع الاسلامي . وكثير غير هؤلاء الأعلام في الفقه والتشريع وردت أسماؤهم في علم الرجال نذكر منهم :

علقمة بن قيس وكان عالماً فقيهاً من رؤوس محدثي الكوفة ، وسعيد بن جبير(16) من

---

(11) الزخرف الآية (36-37-38)

(12) آخر الصحابة هو أبو الطفيل عامر بن وائلة الليثي الكناني كانت وفاته عام مئة (راجع الاصابة في تمييز الصحابة للعسقلاني ج 1 ص 6) .

(13) هو ابن عم الرسول وربيبه كرم الله وجهه لأنه لم يسجد لصنم امتاز بعلمه وفقهه وأدبه وحكمه ، كان له تأثير كبير في مدرسة الكوفة كما في مدرسة المدينة .

(14) وهو أخو عبد الله بن الزبير .

(15) راجع تاريخ الحضارة العربية للاستاذ ناجي معروف ص 135 .

(16) قال له الحجاج لما دخل عليه بعد طلب منه : أنت شقي بن كسير . أجابه : أمي كانت أعرف باسمي ، سمتني سعيد بن جبير . قال الحجاج : ما تقول في أبي بكر وعمر ، هما في الجنة أو النار ؟ قال : لو دخلت الجنة ونظرت أهلها لعلمت من فيها . قال : ما تقول في الخلفاء ؟ قال : لست عليهم بوكيل . قال : أيهم أحب إليك ؟ قال : أرضاهم لخالقه . قال : أيهم أرضاهم لخالقه ؟ قال : علم ذلك عند ربي ، الذي يعلم سرهم ونجواهم . قال : أبيتَ أن تصدقني ؟ قال : أبيتُ أن أكذبك .

وعن تقريب ابن حجر أن سعيد بن جبير الكوفي الثقة الفقيه ، قتله الحجاج صبراً . (راجع تاريخ الفقه الجعفري للسيد هاشم معروف الحسني ص 263) .

أعلام مدرسة الكوفة وأحد فقهائها الأعلام ، قال عنه الخضري في تاريخ الفقه الاسلامي نقلاً عن الذهبي : أنه من أئمة التشريع في الكوفة ، كما عده اليعقوبي في تاريخه من الفقهاء الذين كانوا يفتون الناس في عصري الوليد وسليمان ابني عبد الملك . قتله الحجاج بن يوسف .

ومن فقهاء التابعين : حبيب بن أبي ثابت الأسدي . حدث عن سعيد بن جبير ، وروى عنه سفيان الثوري وأبو بكر بن عباس وآخرون . ورد في تاريخ التشريع الاسلامي للخضري : إنه أحد الفقهاء الذين تخرجوا من مدرسة الكوفة .

ومن الفقهاء المعروفين ومراجع المسلمين ، أبو الأسود الدؤلي ، كان من أكمل الرجال رأياً وعقلاً ، وعن أبي الفرج الأصفهاني : إنه كان من سادات التابعين وأعيانهم ، وقد وضع علم النحو بارشاد علي بن أبي طالب[17] .

قال عنه السيد عبد الحسين شرف الدين في المراجعات : لقد احتج بحديثه أصحاب الصحاح الستة ، وحديثه في صحيح البخاري ومسلم عن أبي ذر الغفاري وعمر بن الخطاب ، وكان مما أوصى ولده : « يا بني إذا وسع الله عليك فأبسط ، وإذا أمسك عليك فأمسك ، ولا عز كالعلم . إن الملوك حكام الناس والعلماء حكام الملوك » ومن فقهاء الكوفة المعروفين عامر بن عمر الليثي ، كان فاضلاً عاقلاً فقيهاً فصيحاً حاضر الجواب . روى عنه كل من الزهري والحريري وقتادة والقاسم بن أبي بردة ، وعمر بن دينار ، وعكرمة بن خالد وغيرهم . وحديثهم عنه موجود في صحيح مسلم . روى في القدر عن عبد الله بن مسعود ، وروى عن علي بن أبي طالب وحذيفة بن أسيد ، وعبد الله بن عباس ، وعمر بن الخطاب كما يعلم الباحثون عن رجال الأسانيد في صحيح مسلم . ولقد عده ابن قتيبة من رجال الشيعة ومن بداهته في حسن الجواب ، ما روي عنه لما وفد على معاوية سأله : كيف وجدك على خليلك أبي الحسن ؟ قال : كوجد أم موسى على موسى ، وأشكو إلى الله التقصير . قال له معاوية : لقد كنت فيمن حصر عثمان ؟ قال : لا ، ولكني كنت فيمن حضره . قال : فما منعك من نصره ؟ قال : وأنت ما منعك من نصره ، إذ تربصت به المنون ، وكنت في أهل الشام ، وكلهم تابع لك ؟ فقال معاوية : أو ما ترى طلبي لدمه نصرة له ؟ قال : إنك كما قال الشاعر :

لألفيتك بعد الموت تندبني   وفي حياتي ما زودني زادي[18]

ومن هؤلاء أيضاً ابراهيم بن يزيد النخعي ، نقل حديثه البخاري ومسلم عن علقمة بن قيس وغيره ، وروي عنه في الصحيحين وفي صحيح مسلم جماعة كثيرون[19] . وقال عنه الشيخ الخضري : ابراهيم بن يزيد النخعي كان فقيه العراق ، كان من العلماء ذوي

---

(17) المراجعات للسيد عبد الحسين شرف الدين .

(18) مراجع تاريخ الفقه الجعفري للسيد هاشم معروف الحسني ص 217 .

(19) المراجعات للسيد شرف الدين ص 52 .

الاخلاص[20] . وقال عنه أيضاً الدكتور محمد يوسف : أنه زعيم أهل الرأي وشيخ الامام أبي حنيفة ، كان فقيه العراق بالاتفاق . وقد ذهب هذا الامام الجليل إلى أن أحكام الشريعة لها معان معقولة ، كما قامت على علل تفهم من الكتاب والسنة ، وان على الفقيه إدراك هذه العلل ليجعل الأحكام تدور معها . وكان على خلاف في ذلك مع سعيد بن المسيب ، الذي كان همه البحث عن النصوص والآثار أكثر من بحثه عن العلل[21] .

هؤلاء بعض أعلام الفقهاء من مدرسة الكوفة الذين كان لهم دور بارز في شرح الأحكام الاسلامية ، والذين ساهموا في حقل الافتاء في عهد التابعين ، وكانوا فيه من مراجع المسلمين في عصرهم ، وقد أخذ عنهم الفقهاء الأجلاء والمحدثون المخلصون ممن عاصرهم ، بالرغم من قسوة الحكام عليهم ، والرقابة الشديدة على جميع تصرفاتهم ، بدافع القضاء على الحد من التشيع ، وتسخير جميع الطبقات من العلماء والفقهاء والمحدثين لمصالحهم وأغراضهم السياسية . وما يبدو أن آراء هؤلاء جميعاً في الفقه لم تظهر عليها صبغة التشيع كما ظهرت في عهد الصحابة ، وفي عهد الامامين العظمين ، محمد الباقر ، وجعفر الصادق عليهما السلام . شغلت مدرسة الكوفة وكل من تخرج منها من الفقهاء الشيعة ، بال الحكام ، لأن المبدأ الذي ترتكز عليه نظريتهم يحمل في معناه روح الثورة على كل حاكم لا يتخذ المبادىء الاسلامية دستوراً عملياً لحكومته ، لا سيما وانهم اتخذوا منهجاً عقلياً في تفكيرهم وذلك بعد اتصالهم بالشعوب التي غزاها الاسلام . وكان فقهاء مدرسة الكوفة من أكثر الفرق الاسلامية انطلاقاً في تفكيرهم وتشريعهم الموافق للأصول التي وضعها القرآن الكريم والسنة الشريفة .

فنظرية الاختيار التي تحمل في مضمونها أن الانسان هو الذي يصنع مصيره بنفسه ، وهو المسؤول عن أعماله وكل تصرفاته غير مسير أو مجبور . هذه النظرية تجعل الحاكم مسؤولاً عن جميع تصرفاته وأحكامه اتجاه الرعية . والنظرية الثانية هي نظرية العدل ، التي تقرر استحالة الظلم من الخالق ، الرحمن الرحيم ورب العالمين ، ولازمها بلا ريب عدم مساواة المجرم بغيره في الجزاء وذلك عملاً بوحي الآية الكريمة :

﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾[22] .

هاتان النظريتان ، كانتا مسرحاً واسعاً للجدال والنقاش بين فرق المسلمين . فالفقهاء الشيعة سلكوا مسلكاً يتفق مع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ حيث قالوا : ان الانسان مسؤول عن جميع أعماله وتصرفاته ، حاكماً كان أم محكوماً ؛ بينما سلك غير الشيعة مسلكاً آخر ، يتفق مع مصلحة الحكام ورغباتهم حيث يجدون فيه المبررات لميلهم عن الحق وعدوانهم على كل من لا يقر سياستهم الظالمة . لذلك أمعن الحكام الظالمين في تسخير الأفكار وشراء الضمائر للذين تغرهم هذه الدنيا ، وتقتيل وظلم الفريق الآخر من العلماء الأشراف المخلصين ، ومراقبتهم مراقبة دقيقة للغاية .

---

(20) تاريخ التشريع الاسلامي للخضري .

(21) المرجع نفسه .

(22) سورة الزلزلة الآية 7 و8 .

وكان من نتيجة ذلك أن الذين سلموا من الحجاج وغيره من الحكام كانوا يفتون بما يوافق العامة أحياناً ، لذلك اتسم هذا الدور من التشريع بطابع خاص لم يكن في الدور السابق ولا اللاحق . لذا فقد ظهرت آراء الفقهاء والمفتين في المذاهب الفقهية المختلفة .

نشأة المذاهب الفقهية

لقد ظهر الاجتهاد بين فقهاء الصحابة وبرز في فتاويهم وأقضيتهم في تطبيق آيات الأحكام ونصوص السنة في موارد كثيرة . ولكن هذه النزعة لم تكن بارزة في أحكامهم وأقضيتهم ، كما برزت في عهد التابعين وتابعيهم ، وبصورة خاصة عند فقهاء العراق ، الذين اشتهروا بالرأي ، كما اشتهر فقهاء مكة بالحديث ، وذلك لاسباب عديدة أهمها :

الحياة المتجددة بما عرض لها من تطورات سريعة بعد أن فتح المسلمون بلاداً واسعة كالرومان والفرس وشمالي أفريقيا وغيرها من الأقطار التي غزاها الاسلام لنشر رسالته العادلة .

ومما لا ريب فيه أن لكل قطر من هذه الأقطار حضارة خاصة ، وعادات وأعراف مميزة ، فالمسلم يرى فروقاً واضحة بين الحياة التي كان يحياها الرسول ﷺ وصحابته في محيطهم المحدود يوم ذاك ، وبين الحياة التي عاشها الفقهاء بعد ذلك التاريخ ، عندما إنتشر الاسلام في شتى بقاع الأرض ؛ فكان مما لا بد منه أن يتأثر العرب الغزاة ، بما في البلاد المفتوحة من عادات وتقاليد ونظم اجتماعية واقتصادية وسياسية مما يتصل بحياة الانسان اتصالاً مباشراً ، وتؤثر على تفكيره حتى في فهم نصوص القرآن الكريم ومضمون السنة الشريفة . هذا ما دعا تضاعف جهود الفقهاء وحملة الحديث إلى تطبيق تلك القواعد العامة التي وردت في الكتاب والسنة على تلك الوقائع والحوادث التي تجددت مع الزمن ، لا سيما وأن المأثور عن الرسول ﷺ من قضاء وأحكام ، وما طبقه من تلك القواعد الكلية ، لم تكن في الغالب تشبه ما تجدد مع الزمن ، من أوضاع اقتضتها طبيعة الحياة الجديدة .

وقد اقتضى ذلك أن تتضاعف جهود العلماء والفقهاء في البحث عن النصوص التشريعية الاسلامية ، وفهم المراد منها ، ليستطيعوا ربطها بتلك الكليات الواردة في الكتاب والسنة ، وتطبيقها على الجزئيات المتجددة مع تطور الحياة . ومثل هذا التغيير لم تدع إليه الحاجة في عصر الوحي وما بعده من عصر الصحابة ، لعدم التبدل المحسوس في الأوضاع . في تلك الفترة . من أجل ذلك كان لعصر التابعين ذلك الطابع الخاص ، الذي اشتهر فيه العمل بالرأي والاجتهاد بين الفقهاء والمفتين ، وعلى الأخص ما كان منهم خارج الحجاز ، كالعراق مثلاً ، التي اشتهر فقهاؤ ها بأهل الرأي(23) .

هذا النوع من الاجتهاد لا بد منه في مثل هذه الحالات ، لأن الاسلام ، وهو دين الفطرة ، لا يكره أحداً على قبول عقيدته ، ولا يضع سداً أمام اجتهاد العلماء ما داموا يسيرون في فلك كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى .

---

(23) تاريخ الفقه الاسلامي للدكتور محمد يوسف ص 28 .

وقد يتعسر على القضاة والفقهـاء في بعض الأحيان ربط بعض الحـوادث بتلك القواعـد العـامة التي وردت في الكتـاب والسنة ، وفي مثـل ذلك لا بـد لهم من الاعتماد عـلى أنفسهم والحكم بآرائهم ، بعد التحري الدقيق عن الواقع . وقـد أقر الـرسول ﷺ هـذا المبدأ عنـدما أرسل معاذاً الى اليمن وقـال له : « كيف تصنـع إذا عرض لـك قضاء ؟ قـال : أقضي بما في كتاب الله ، قال ﷺ : فإن لم يكن في كتاب الله ؟ قـال : فبسنة رسـول الله ﷺ ، قال ﷺ : فإن لم يكن في سنة رسـول الله ؟ قال : أجتهد رأيي لا آلو . قـال معاذ : فضـرب رسول الله ﷺ صدري ثم قال : « الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضي رسول الله ﷺ »(24) .

إن ذلك الاجتهاد الذي شاع بين فقهاء التـابعين ، وامتـازوا به عن فقهـاء الصحابـة ، كان يدور بلا ريب في فلك القرآن والسنة ، وتطبيق الكليات على مـا تجدد من الأحـداث التي لم يكن شيء منها يشبه ما كان في عصر التشريـع ، عصر الـوحى ، وما بعـده من فجر عصـر الصحـابة . والسبب في ذلـك ليس كما يقـول المستشـرق (كولدزهير) في تـاريخـه ، من أن الاسلام لم يأت على الناس بطريقة كاملة ، وان القرآن لا يمكن أن تكون أحكامه شاملة لكـل هذه العلاقات غير المنتظرة ، مما جاء عن الفتوح ، وانه كان مقصوراً على حياة العرب البسيطة الساذجة(25) .

نقـول لهذا المستشـرق ولأمثـالـه الـذين أرادوا الـدس والتشـويـه في حقـائق التشـريـع الاسلامي :

إن البـاحث بإمعـان وإخلاص في أدلـة التشـريـع الاسـلامي ، سـواء مـا ورد منهـا في العبادات ، أو في المعاملات ، أو في الأحوال الشخصية والجنائية والتربوية وغيـرها ، يـرى أن القرآن الكريم لم يتوجه في كل أحكامه وخطابـاته إلى طبقـة خاصـة من الناس ، أو صنـف من أصناف البشر ، في عصر من العصور ؛ بل توجه بما فيه من تشريع وغيره من أحكام الى العالم بـأسره ، بـطريقة كـاملة غير منقـوصة . ولـو قرأ (كـولدزهـير) الآية ومـا أرسلناك إلا كـافة للناس . . . . ، وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ، مبشراً ونذيراً وسراجاً منيرا ، لما انتقد مجرحاً !

لقـد جمع القـرآن في تشريعـاته وأحكـامه بـين الدين والـدنيا ، وبـين متطلبـات الجسد وحاجات الروح ، وهو كغيره من القوانـين جاء بشكـل نظام كـلي شامـل ، تاركـاً التفاصيـل للقائمين على الدين والمشرفين على تنفيذه وتطبيقه . ومن ثم كـان هذا القـانون الإلـهي قـابلاً للتطبيق في كل زمان ومكان ، إذا عرف القائمون عليه كيف يستوحون أحكامه وأسراره .

وإذا كان يعرف المستشـرق بعض العلماء غير الـراسخين في العلم ، فهـذا لا يعني أن الاسلام غير كامل في أحكامه ولا يوافق إلا حياة العرب الساذجة فقد أخطأ هو خطأ فادحـاً ، فهل نقول أن الاستشراق كله يخطىء ! أبداً ، القاعـدة لا تقاس بـالأفراد ، وإنمـا العكس هو الصحيح .

---

(24) رواه أبو داوود والترمذي عن طريق الحارث بن عمرو .

(25) تاريخ الفقه الاسلامي ، عن العقيدة والشريعة في الاسلام للمستشرق المذكور .

ومما لا شك فيه أن الدواعي الى الاجتهاد في عصر التابعين ، مما استدعته الحاجة ، كان أكثر في بعض الأقطار الاسلامية منها في البعض الآخر . ويمكن تلخيص الأسباب التي من أجلها شاع الاجتهاد والرأي بين فقهاء التابعين بالأسباب التالية :

- كثرة الحوادث والنوازل الناتجة عن انبثاق فجر جديد في الاسلام بعد فتح تلك البلاد الواسعة التي تختلف أشد الاختلاف ، في عاداتها وأعرافها وجميع شؤون حياتها الاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية ، مما أدى بلا ريب إلى الاختلاف في جميع أسباب الحياة . وفي مثل ذلك لا بد من الاجتهاد في فهم النصوص الاسلامية وتطبيقها على الحوادث المستجدة التي اقتضتها أوضاع تلك البلاد وأعرافها الخاصة .
- دخول بعض العناصر الأجنبية في الاسلام الذين عرفوا بالموالي . اعتمد هؤلاء على الفكر أكثر من اعتمادهم على الحفظ ، وقد نبغ فريق منهم في الفقه والحديث والأدب والعلوم الأخرى ، فأخذوا من الصحابة والتابعين . وأصبح في كل حاضرة إسلامية فقيه منهم ، يرجع إليه عامة الناس في أحكام دينهم . جاء عن أعلام الموقعين لمصطفى عبد الرزاق:

« لقد انتقل الفقه ، بعد موت العبادلة في جميع البلدان إلى الموالي ، فكان فقيه مكة عطاء بن رباح ، وفقيه أهل اليمن طاوس ، وفقيه أهل اليمامة يحيى بن كثير ، وفقيه أهل الكوفة ابراهيم النخعي ، وفيه البصرة الحسن البصري ، وفقيه أهل الشام مكحول ، وفقيه أهل خراسان عطاء ؛ إلا المدينة ، فكان فقيهها سعيد بن المسيب »[26] .

وقد نتج من اتساع رقعة الاسلام وانتقال الفقه الى التابعين من العرب وغيرهم ، الذين انتشروا في البلاد لتعليم الأحكام ، فنهجوا منهجاً جديداً في البحث عن العلل والأسباب ، والمصالح والمفاسد ، وسلكوا طريقة لم تكن معروفة في زمن الصحابة ، ولم تدع الحاجة إليها . كل ذلك أدى حتماً إلى اختلاف آرائهم في الفقه ، وكثر الخلاف بينهم في الفروع ، فكان ذلك من أسباب اشتهارهم بالرأي ، بينما اشتهر فقهاء الحجاز بالحديث ، لأن الجو الذي عاشوا فيه ، لم يفرض عليهم أن ينهجوا في البحث عن النصوص على طريقة التابعين . كما وأن قربهم من عصر الوحي واشتهار أحاديث الرسول ﷺ بينهم ومعرفتهم الكاملة بأحوال رواتها عنه ما سهل لهم معرفة الصحيح من الموضوع .

- كثرة الكذب في الحديث في العصر الأموي ، بعد أن قرب الحكام فئة من الدخلاء على الاسلام ، لأغراض سياسية ، حتى وضعوا آلاف الأحاديث في الحلال والحرام ، بين الأحاديث الصحيحة . فلم يكن بالإمكان بعد هذه الحال من تصديق كل ما روي عن الرسول ﷺ بعد أن أصبح محلاً للريب والشبهة بنظر الفقهاء المتفرقين في الأمصار . اقتضى ذلك عدم الأخذ بها والاعتماد على الاجتهاد والرأي أحياناً ، ومجمل القول أن كثرة الحديث الموضوع وانتشاره بين الأحاديث الصحيحة دعا الكثير من الفقهاء في عصر التابعين الى ترك بعض الأحاديث ، والحكم بالرأي في بعض الحوادث الجديدة .

---

(26) تمهيد لتاريخ الفلسفة لمصطفى عبد الرزاق .

وقد يكون الحديث الواحد موثوقاً بـه عند فقيـه ومتروكـاً عند آخـر . وكان ممن اشتهـر بذلك فقهاء الكوفة وعلى رأسهم ابراهيم بن يزيد النخعي .

والثابت أنه كان حتى بين فقهاء الحجاز من يفتي برأيه أحياناً ، إذا لم تتوفر لـه النصوص من الكتاب أو السنة .

قال الاستاذ الشيخ محمد أبو زهرة : « والـرأي كان مـأخوذاً بـه في المدينـة وسائـر مدن الحجاز . وقد رأينا الفقهاء السبعة(27) الذين مثلوا الفقه المدني أصدق تمثيل ، كان كبيرهم ابن المسيب ، لأنه لا يهاب الفتيا ، حتى لقب بالجريء ولا يجرؤ عـلى الإكثار من الافتـاء ، من لا يجرؤ على الرأي ، ولا يوصف بالجريء في الفتيا من يقف عند النص أو الأثر ولا يعدوه . بل يوصف بالجريء من يستر في دائرة المأثور ، ويكثر من التخـريج عليـه والسير عـلى منهاجـه ، وليس ذلك إلا الرأي » .

ومهما يكن فالافتـاء بالـرأي ، المرادف لـلاجتهاد ، لا بـد منه للفقيـه في فهم النصوص وفيما لا نص فيه ، بعد التمحيص والدقة والاطمئنان الى الحقيقـة والواقـع . أما الـرأي الذي يرادف القياس ، والذي غالى به بعض أنصاره ، كـأبي حنيفة وتـابعيه ، فلم يكن شـائعاً بـين فـقهـاء الـعــراق ، وبــالأخص فقـهــاء الشـيـعــة مـنهـم ، الــذيـن تــزعـمــوا تــدريس الفقه والافتاء في عصرهم ، وكان لهم ذكـر مأثـور في مجال التشـريع الاسـلامي وشرح السنـة وتوضيح مضمـونها خدمـة منهم للدين الذي لا فضـل فيه لأسـود على أبيض ولا لعـربي على أعجمي إلا بالتقوى . من هؤلاء ابـراهيم النخعي وعلقمة بن قيس وأمثـالهما كـل ذلك سبب نشـوء المذاهب الفقهيـة الفرديـة التي انقرضت ولم يكتب لهـا البقاء ، والجمـاعيـة التي كـونت مدارس وهي : المذهب الحنفي ، والمالكي ، والشافعي ، والحنبلي ، والجعفري .

---

(27) الامام جعفر الصادق ص 176 والفقهاء السبعة هم سعيد بن المسيب القرشي المخزومي ، عـروة بن الزبـير القرشي ، القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق أبو بكر بن عبد الـرحمن بن الحارث بن هشـام ، خارجـة ابن زيـد بن ثابت ، عبيـد الله بن عبد الله بن عقبـة بن مسعود ، سلمـان بن يسـار (المـدخـل في تـاريـخ الحضارة العربية للاستاذ معروف ناجي ص 135) .

الفصل الثاني
الفقه ومدارسه

لكلمة فقه مدلولان : لغوي واصلاحي ، فالفقه لغوياً يعني الفهم والفطنة ، والفقه اصطلاحاً له عدة تعاريف وكل منها يكمل بعضه بعضاً . وهي : مجموع الأحكام الشرعية الفرعية الكلية أو الوظائف المجعولة من قبل الشارع أو العقل عند عدمها .

وللفقه أصول يرتكز عليها ويبني أحكامه . وذلك من وحي ما تعنيه لفظة أصول حسب معناها اللغوي فهي : ما يرتكز عليه الشيء ويبنى . أما في المصطلحات الفقهية فقد ذكروا لها معاني عدة فقالوا :

- الأصول ما يقابل الفروع ، فيقال مثلاً في باب القياس الخمر أصل النبيذ أي أن حكم النبيذ مستفاد من حكم الخمر .
- والأصول تدل على الرجحان ، فيقال الحقيقة أصل المجاز ، لأي إذا تردد الأمر بين حمل الكلام على الحقيقة وحمله على المجاز ، كان الحمل على الحقيقة أرجح .
- والأصول هي الدلائل ، أي الكاشفة عن الشيء والمرشدة له .
- والأصول هي القواعد ، أي الركائز التي يرتكز عليها الشيء كقوله ﷺ بني الاسلام على خمسة أصول ، أي على خمسة قواعد .
- والأصول هي ما تجعل لتشخيص بعض الأحكام الظاهرية .

هذه الأصول التي اعتمد عليها أصحاب المذاهب سوف نذكرها تباعاً .

1 ـ الكتاب :

والمراد بالكتاب هو كتاب الله عز وجل ، الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ ألفاظاً ومعاني وأسلوباً ، واعتبره قرآناً دون أن يكون للنبي ﷺ دخل في انتقاء ألفاظه أو صياغته .

والقرآن أحصيت آياته فبلغت « ستة آلاف وثلاثمائة واثنتين وأربعين آية . منها خمسماية آية تتعلق بالأحكام »[28] وقد انتظمت هذه الآيات في سور بلغ مجموعها مائة وأربع عشرة سورة ، أولها (الحمد) وآخرها (الناس) .

---

(28) المدخل الى علم أصول الفقه ص 20 .

وآخر آية نزلت من آياته قوله تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا ﴾[29] . وقد نزلت في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة في غدير خم عند عودته ﷺ من حجة الوداع[30] ، بعد أن أعلن الولاية لعلي في كثير من الروايات المأثورة .

حجية القرآن :

والحجية للقرآن موقوفة على التسليم بأمرين :

الأول : هو ثبوت تواتره الموجب القطع بصدوره ، وهذا لا يشك فيه مسلم عَمَّرَ قلبه بالإيمان .

والثاني : ثبوت نسبته لله تعالى ، وعقيدة المسلمين قائمة على ذلك وقد استدل بعضهم ، على كونه من الله بهذه الآيات المباركة :

﴿ تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾[31] و﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما ﴾[32] و﴿وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى ﴾[33] وعلى كل حال ان حجية القرآن أكبر من أن يتحدث عنها بين المسلمين بعد إيمانهم وذلك لثبوت تواتره وإعجازه .

وتواتره أوضح من أن يطال فيه الحديث ، ذكر المرتضى في ذلك فقال : « ان العلم بصحة نقل القرآن كالعلم بالبلدان ، والحوادث الكبار والوقائع العظام ، والكتب المشهورة ، وأشعار العرب المسطورة فإن العناية استدت والدواعي توفرت على نقله وحراسته ، وبلغت إلى حد لم يبلغه ما ذكرناه ، لأن القرآن معجزة النبوة ، ومأخذ العلوم الشرعية والأحكام الدينية ، وعلماء المسلمين قد بلغوا في حفظه وحمايته الغاية حتى عرفوا كل ما اختلف فيه من إعرابه وقراءته وحروفه وآياته فكيف يجوز أن يكون مغيراً أو منقوصاً مع العناية الصادقة والضبط الشديد » .

بعد هذه البديهة لا أظن أننا نحتاج إلى الاستدلال على عدم التحريف بالآية الكريمة : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ الحجر الآية 9 والآية ﴿ وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ فصلت الآية 42 .

2 ـ السنة :

تختلف تحديدات السنة باختلاف المصطلحين ، فهي عند أهل اللغة تعني الطريق

---

(29) سورة المائدة الآية 3 .

(30) فلسفة التشريع في الاسلام ص 144 راجع أسانيدها في كتاب الغدير الجزء الأول .

(*) راجع مجمع البيان ج 1 ص 15 .

(31) سورة السجدة الآية 2 .

(32) سورة النساء الآية 105 .

(33) سورة النجم الآية 4-5 .

المسلوكة ، وأصلها من قولهم سننت الشيء بالمسن إذا أمررته عليه حتى يؤثر فيه سناً أي طريقاً . والسنة هي الطريقة المحمودة المعتادة أو الطريقة السيئة ، كما في الحديث الصحيح : من سنّ سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة .

والسنة عند الأصوليين هي كل ما صدر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير والسنة عند الفقهاء تطلق على ما يقابل البدعة ، ويراد بها كل حكم يستند إلى أصول الشريعة في مقابل البدعة التي تخالف أصول الشريعة ولم توافق السنة . كما ورد في نهاية ابن الأثير مادة (بدع) .

حجية السنة :

1 ـ حجية ما صدر عن النبي من قول أو فعل أو تقرير .

2 ـ حجية ما صدر عن الصحابة .

3 ـ حجية ما صدر عن الأئمة من أهل البيت .

لقد أتت السنة لتفصِّل الآيات المحكمات وتبيان مضامينها . قال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزِّل إليهم ﴾[34] .

أمر الله المؤمنين بالصلاة والزكاة ولكن السنة بينت لنا عدد الصلوات في اليوم وكيفياتها ، والزكاة وأنواعها ومقاديرها ، والأموال التي تجب فيها[35] .

وقال تعالى : ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾[36] ﴿ وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾[37] و﴿ وما ينطق عن الهوى ان هو إلا وحي يوحى ﴾[38] .

3 ـ الإجماع :

الاجماع لغة لفظ مشترك ، من العزم والتصميم ، فيقال : أجمع القوم على النهوض بالعمل الفلاني ، أي عزموا وصمموا عليه واتفقوا عليه .

والفقه اصطلاحاً ، موضع خلاف عند الأصوليين . وموقع الخلاف منه متعلق بالاتفاق فقيل انه مطلق الأمة ، وقيل خصوص المجتهدين منهم في عصر ، وفي رأي مالك : هو اتفاق أهل المدينة[39] وقال بعضهم الاجماع هو اتفاق أهل الحرمين (مكة والمدينة) ، أو أهل المصرين الكوفة والبصرة وربما ضيق فصار : اتفاق الشيخين أو الخلفاء الأربعة[40] .

---

(34) سورة النحل الآية 44 .

(35) تاريخ الفقه الاسلامي للدكتور محمد يوسف موسى ص 229 وراجع فلسفة التشريع في الاسلام ص 144

(36) سورة النساء الآية 59 .

(37) سورة الحشر الآية 7 .

(38) سورة النجم الآية 3 -4 .

(39) عدة الأصول للشيخ الطوسي ص 232 .

(40) أصول الفقه للخضري ص 270 .

ولذلك نرى وجهاً لالتماس تحديد المراد من هذه اللفظة كمصطلح عام ، والمهم في الموضوع أن يبحث هل الاجماع أصل ؟

ونريد بالأصل أن يكون له كيان مستقل في الحكم الواقعي ، أي لا يحتاج الى توسط من قبل أصل من الأصول الثلاثة : الكتاب والسنة وعمل العقل .

والظاهر أن الكثير من العلماء يرون أنه لا استقلال له ، يقول الخضري « لا ينعقد الاجماع الا عن مستند »(41) .

ويقول الآمدي وغيره من الأصوليين « انه لا يشترط المستند ، بل يجوز صدوره عن توفيق بأن يوفقهم الله تعالى لاختيار الصواب »(42) .

وقد ذكرت أدلة لكل من وجهتي النظر في كثير من المراجع وليس في استعراضها ومناقشتها أية جدوى . والذي يقتضي التركيز عليه استعراض أدلة الحجية والنظر في حدود ما تقتضيه مضامينها من استقلال وعدمه .

وقد استدلوا على حجية الاجماع بآيات من القرآن الكريم منها : ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعدما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ﴾(43) .

فبعض المفسرين من قرَّب بين حجية الآية في الاجماع وبعضهم من بعَّد دلالتها . وإني أرى أن الآية لا تحمل على إرادة الاجماع إذ لا معنى للقول : بأن من يتبع غير ما أجمعوا عليه من الأحكام نجعل ما اتبعه من الحكم غير المجمع عليه والياً عليه يوم القيامة .

كما استدلوا بطوائف من الأحاديث المأثورة عن عمرو أبي سعيد الخدري ، وأنس بن مالك ، وابن عمر ، وأبي هريرة . . . فقالوا :

لا تجتمع أمتي على الضلالة . ويد الله مع الجماعة . ومن خرج من الجماعة أو فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع الاسلام من عنقه . ومن فارق الجماعة ومات ، فميتته جاهلية(44) الى غيرها من الأحاديث والروايات .

وهذه الأحاديث ليست جامعة لشرائط الحجية في أخبار الآحاد ولا فائدة من عرضها . وبعد عرض الأدلة والرد على حجيتها يتضح لنا أن : الحجية منوطة بإجماع الأمة لا الصحابة ، ولا أهل المدينة ولا الحرمين ، ولا مجموع المجتهدين ، فتخصيص غير الأمة بالحجية على أي دعوى من هذه الدعاوى لا يتضح له وجه وليس عليه دليل .

قال الكاظمي : والاجماع المحصل هو ما ثبت واقعاً وعلم بلا واسطة النقل . وأكد أن يتولى المجتهد نفسه مؤونة البحث عن هؤلاء المجمعين والتعرف على هواياتهم وآرائهم في

---

(41) المصدر السابق ص 275 .

(42) المصدر نفسه ص 275 .

(43) سورة النساء الآية 115 .

(44) أصول الفقه للخضري ص 279 .

المسألة التي يريد معرفة حكمها حتى يحصل له العلم بالاتفاق على الحكم[45] .

4 ـ القياس ؟

والحديث عن القياس كثير بين الفقهاء كتب عنه المجلدات وكان موضع خلاف كبير . وأول ما يواجهنا الاختلاف في تعريفه .

القياس في اللغة « التقدير » فنقول قسنا الثوب بالمتر أو الذراع إذا قدرناه به ، وقد عرف في اصطلاحهم بالاجتهاد تارة كما ورد عند الشافعي ، وببذل الجهد لاستخراج الحق[46] . وعرفه الآمدي بتعريف لعله أبعد من المؤاخذات فقال بأنه عبارة : « عن الاستواء بين الفرع والأصل في العلة المستنبطة من حكم الأصل »[47] .

والذي يبدو أن أسلم التعاريف من الاشكالات ما ورد من أنه : « مساواة فرع لأصله في علة حكمه الشرعي » لسلامته من المؤاخذات السابقة ، وصلوحه بعد إقامة الأدلة على حجيته لاستنباط الأحكام الشرعية منه . ولا أدري كيف يتساوى الأصل والفرع في العلة ! والمقصود من القياس الوصول الى حكم الفرع وليس مجرد تساوي الأصل والفرع في العلة . ثم كيف تكون عملية الاستنباط من الدليل هي الدليل نفسه مع أنها متأخرة في الرتبة عنه ؟

وهناك اصطلاح آخر للقياس ، شاع استعماله على ألسنة أهل الرأي قديماً ، وفحواه : التماس العلل الواقعية للأحكام الشرعية من طريق العقل ، وجعلها مقياساً لصحة النصوص التشريعية ، فما وافقها فهو حكم الله الذي يؤخذ به ، وما خالفها كان موضعاً للرفض أو التشكيك .

وعلى هذا النوع من الاصطلاح ، قالوا : ان هذا الحكم موافق للقياس وذلك الحكم مخالف له . . .

وقد كان القياس مثار معركة فكرية واسعة النطاق على عهد الامام الصادق (ع) وأبي حنيفة . فأبو حنيفة كان يتسع في استنباطه ، فيبحث عن أحكام المسائل التي لم تقع ، ويتصور وقوعها فهو يستنبط العلل الباعثة للأحكام والغايات المناسبة لشريعتها ، ويبني عليها العلل مطردة في كل ما تنطبق عليه . وقد كان يقدم القياس على الخبر الواحد وكذلك كان مالك بن أنس كما في كثير من فتواه التي نقلها أصحابه .

وقد جرت مناظرة بين الامام جعفر الصادق وأبي حنيفة حول القياس حيث كان عصر أبي حنيفة عصر المناظرات والجدل بين أهل الاهواء والفرق والفقهاء ، والمعروف عن أبي حنيفة أنه قوي المناظرة شديد الجدل . ومما يدلنا على ذلك أن المنصور انتدبه الى مهمة عجزت عن دفعها جماعات الفقهاء ، وهي مسألة انتشار ذكر جعفر الصادق ، فقد ضاق صدر المنصور عندما رأى فروع مدرسة جعفر الصادق تقام في الكوفة ومكة والمدينة وقم .

---

(45) راجع كشف القناع عن وجوه حجية الاجماع ص 4 .

(46) الاحكام للامدي ج 3 ص 3 .

(47) الأحكام للأمدي ج 3 ص 4 .

لذلك اضطر الى جلب الامام من المدينة الى الكوفة ليفتك به أمام جمع غفير في مناظرة يقيمها مع أبي حنيفة .

قال المنصور : يا أبا عبد الله هذا أبو حنيفة ، ثم التفت الى أبي حنيفة وقال: يا أبا حنيفة الق علي أبي عبد الله مسائلك ، فجعل أبو حنيفة يلقي والامام جعفر يجيب حتى أجاب عن أربعين مسألة وبعدها قال الامام جعفر : يا نعمان حدثني أبي عن جدي أن رسول الله ﷺ قال : « أول من قاس أمر الدين برأيه ابليس » قال الله تعالى له : اسجد لآدم فقال : « أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين » فمن قاس الدين برأيه قرنه الله يوم القيامة بإبليس لأنه اتبعه بالقياس .

ثم سأله الامام الصادق (ع) : أيهما أعظم قتل النفس أو الزنا ؟ قال أبو حنيفة : قتل النفس . قال الصادق : إن الله عزّ وجلّ قبل في قتل النفس شاهدين ولم يقبل في الزنا إلا أربعة . ثم قال : أيهما أعظم الصلاة أم الصوم ؟ قال أبو حنيفة : الصلاة ، قال الصادق : فما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة . فكيف ويحك يقوم لك قياسك / إتق الله ولا تقس الدين برأيك . وتابع قائلاً : فإنّا نقف بين يدي الله فنقول : قال الله وقال رسوله وتقول أنت وأصحابك سمعنا ورأينا(48) .

ندرك من هذا الاستشهاد عدم الأخذ بالقياس لأن هذا النوع يشكل خطراً على الدين لفسحه المجال في التلاعب بالشريعة الاسلامية ومسخ أحكامها باسم مخالفة القياس . ومن الطبيعي أن يقف أهل البيت وبخاصة الامام جعفر الصادق (ع) الذي انتشر هذا النوع من القياس على عهده الموقف المعروف . قال الصادق : « إن السنة إذا قيست محق الدين »(49) ومسرح العقل في إدراك علل الأحكام محدود جداً لأن فتح الباب على مصراعيه يشكل الخطر العظيم على الشريعة ، ودين الله لا يصاب بالعقول ، أي ما ثبت أنه دين لا يمكن أن تدرك العقول جميع علله .

والخلاصة أن جميع ما ذكره مثبتو القياس من الأدلة لا تنهض بإثبات الحجية له فنبقى نحن والشك في حجيته ، والشك في الحجية كاف للقطع بعدمها(50) .

5 ـ الاستحسان :

الاستحسان في اللغة هو « عد الشيء حسناً سواء كان الشيء من الأمور الحسنة المادية أو المعنوية(4) .

---

(48) الامام الصادق والمذاهب الأربعة ص 316 وابطال القياس لابن حزم ص 71 .

(49) المؤول بأن السنة إذا قيست محق الدين يعني أن السنة لا تمحق نفسها ، إذ المفروض انها هي التي صرحت بالعلل ، فلا بد أن تكون واردة في خصوص ما لم تدلنا هي على علله ، بل الدليل عليها هو عقولنا التي أثبتت هذه الروايات في الجملة القصور والعجز .

أما التعليل بأن دين الله لا يصاب بالعقول مع فرض كون العلة مستفادة من النص لظهوره فيها ، يكون المشرع هو الذي دل عليها لا أن العقول أصابتها بمنأى عنه .

(50) الأصول العامة للفقه المقارن ص 357

(51) سلم الوصول الى علم الأصول لعمر عبد الله ص 296 .

ولكن تحديده لدى الأصوليين مختلف فيه جداً ، وأكثر التعاريف التي ذكروها هي أقرب الى تسجيعات الأدباء التي كان يراعى فيها إخضاع المعنى للمحسنات البديعية ، منها الى تحديدات المنطقيين . قالوا :

1 ـ الاستحسان ترك القياس والأخذ بما هو أوفق للناس .

2 ـ الاستحسان طلب السهولة في الأحكام فيما يبتلى به الخاص والعام .

3 ـ الاستحسان الأخذ بالسعة وابتغاء الدعة .

4 ـ الاستحسان الأخذ بالسماحة وانتقاء ما فيه الراحة .

وقريب من هذه التعاريف ما نسب إلى المالكية من أنه « الإلتفات الى المصلحة والعدل »(52) وقد أخذ بالاستحسان مالك بن أنس ، وحمل عليه الشافعي فكفانا الرد عليه . عقد الشافعي باباً سماه إبطال الاستحسان قال :

1 ـ الشارع ما ترك أمر الانسان سدى ، بل جاء في الشريعة بما فيه صلاحه ونص على الأحكام الشرعية الواجبة الاتباع وما لم ينص عليه قد أشير إليه وحمل على النصوص بالقياس فلا شيء لم يبينه الشارع . وإلا كان ثمة نقص في البيان .

2 ـ إن سبحانه ، أمر بإطاعته تعالى وإطاعة رسوله ﷺ وذلك باتباع ما جاء في كتاب الله تعالى ، ثم ما جاء في سنة رسوله ﷺ وان لم يكن نص فيهما كان الاتباع بالحمل على النص في أحدهما والاستحسان ليس واحداً منهما .

3 ـ إن النبي ﷺ قد استنكر تصرف من اعتمد على استحسانه من الصحابة لأنه لم يعتمد على نص .

4 ـ ان الاستحسان لا ضابط له ولا مقاييس يقاس بها الحق من الباطل . فلو جاز لكل مفت أو مجتهد أن يستحسن فيما لا نص فيه لكان الأمر فوضى ولاختلفت الأحكام في النازلة الواحدة على حسب استحسان كل مفت ، فيقال في الشيء ضروب من الفتيا والأحكام ، وما هكذا تفهم الشرائع ولا تفسر الأحكام الدينية(53) .

إن هذا النوع من الاستدلال أقرب الى النهج الخطابي منه الى الروح العلمية ، لأن ما ذكروه من الدلائل على حجيته لا يصلح للاثبات على الخصوص .

والخلاصة إن كان المراد بالاستحسان ، هو خصوص الأخذ بأقوى الدليلين فهو حسن ولا مانع من الأخذ به ، إلا أن نعده أصلاً في مقابل القرآن والسنة ، ودليل العقل لا وجه له وكما ورد في ارشاد الفحول : « ما يقع في الوهم من استقباح الشيء واستحسانه من غير حجة دلت عليه من أصل ونظير فهو محظور والقول به غير سائغ »(54) .

وقد ورد عن الامام الصادق من مرجحات باب التعارض قوله : « إذا ورد عليكم

---

(52) فلسفة التشريع في الاسلام ص 174

(53) الامام الصادق والمذاهب الأربعة ص 526 .

(54) الأصول العامة للفقه المقارن ص 377 .

حديثان مختلفان فاعرضوهما على كتاب الله ، فما وافق كتاب الله فخذوه ، وما خالف كتاب الله فردوه ، فإن لم تجدوه في كتاب الله فأعرضوهما على أخبار العامة ، فما وافق أخبارهم فذروه ، وما خالف أخبارهم فخذوه »[55] .

وقد نفى الاستحسان علماء كثير ، أظهرهم الشافعي وقد علل وجهة نظره بقوله « أفرأيت إذا قال المفتي في النازلة ليس فيها نص خبر ولا قياس ، وقال : استحسن فلا بد أن يزعم أن جائزاً لغيره أن يستحسن خلافه فيقول ، كلى حاكم في بلد ومفتٍ بما يستحسن ، فيقال في الشيء الواحد : بضروب من الحكم والفتيا ، فإن كان هذا جائزاً عندهم فقد أهملوا أنفسهم فحكموا حيث شاؤ وا ، وان كان ضيقاً فلا يجوز أن يدخلوا فيه »[56] .

6 ـ العرف :

ذكروا للعرف تعريفات متعددة فقد عرفه الجرجاني بقوله :

« العرف ما استقرت النفوس عليه بشهادة العقول ، وتلقته الطبايع بالقبول »[57] .

وعرفه الاستاذ علي حيدر عندما تحدث عن العادة فقال : « هي الأمر الذي يتقرر بالنفوس ويكون مقبولاً عند ذوي الطباع السليمة بتكراره المرة بعد المرة » ثم تابع : « والعرف بمعنى العادة »[58] .

ومما يبدو من هذه التعاريف أخذها شهادة العقول وتلقي الطباع له بالقبول في مفهومه ، مع أن الأعراف تتفاوت وتختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة ، فهل تختلف العقول والطباع السليمة معها أم ماذا ؟

ولعل أقرب التعريفات التي ذكروها هو : ان « العرف ما تعارفه الناس وساروا عليه من قول أو فعل أو ترك » ثم قال : « ويسمى العادة »[59] .

قسموا العرف الى تقسيمات متعددة نذكر منها :

أ ـ العرف العام : الذي يشترك فيه غالبية الناس على اختلاف في أزمانهم وبيئاتهم وثقافاتهم ومستوياتهم . وينتظم في هذا القسم بعض الظواهر الاجتماعية .

ب ـ العرف الخاص : وهو العرف الذي يصدر عن فئة من الناس تجمعهم وحدة زمان محدود ، ومكان معين أو مهنة أو فن كالأعراف التي تسود في بلد أو قطر خاص ، أو أرباب مهنة خاصة .

من مجالات العرف : ما يستكشف منه حكم شرعي فيما لا نص فيه ، وإنما يكتشف منه مثل هذا الحكم بعد إثبات كونه من الأعراف العامة التي تتخطى طابع الزمان والمكان لتصبح سنة بالاقرار والعمل المتكرر .

(55) راجع مصباح الأصول ص 415 .

(56) فلسفة التشريع الاسلامي ص 174 . وما بعدها .

(57) سلم الوصول الى علم الأصول ص 317 .

(58) المصدر السابق ص 419

(59) المصدر السابق ص 317

الفرق بين الاجماع والعرف :

الاجماع لا ينعقد إلا باتفاق الأمة أو مجتهدي مذهب معين من مذاهبها ، ومبدأ الاتفاق مأخوذ فيه بلا ريب ، بينما في العرف لا يؤخذ بهذا العنصر بل يكفي فيه سلوك الأكثرية ويشترك في هذا السلوك العامة والخاصة والمجتهدون والأميون ، فيصبح العرف أقرب ما يمكن تسميته بالسيرة .

هل العرف أصل ؟

استدلوا إلى حجية العرف برواية عبد الله بن مسعود : « ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن »(60) وهذه الرواية لا تصلح للحجية علماً أن ليست كل الأعراف متعلقة قطعاً بعوالم الحسن ، وذلك لعدم ابتنائها عليها غالباً ، وما أكثر الأعراف غير المعللة لدى الناس ، حتى عصرنا الحاضر . والمعلل منها نادر جداً . وقد قال بعضهم « أن الشارع الاسلامي في تشريعه راعى أعراف العرب في بعض أحكامه فوضع الدية على العاقلة واشترط الكفاءة في الزواج . . . »(61) .

والحقيقة أن الشارع لم يراع العرف لأنه عرف ، وإنما وافقت أحكامه بعض ما عند العرف ، فأبرزها بطريق الاقرار ، لذلك اعتبرنا اقراره سنّة وبهذا لا يكون العرف أصلاً يرجع إليه في الكشف عن الأحكام الواقعية . وقالوا : « إن ما يتعارفه الناس من قول أو فعل يصير من نظام حياتهم ومن حاجاتهم ، فإذا قالوا أو كتبوا فإنما يعنون المعنى المتعارف لهم ، وإذا عملوا فإنما يعملون على وفق ما تعارفوه واعتادوه ، وإذا سكتوا عن التصريح بشيء فهو اكتفاء بما يقضي به عرفهم ، ولذا قال الفقهاء : المعروف عرفاً كالمشروط شرطاً . وقالوا : إن الشرط في العقد يكون صحيحاً إذا اقتضاه العقد ، وورد به الشرع أو جرى به العرف »(62) .

وهذا الدليل لا يصلح دليلاً لاستكشاف الحكم الشرعي منه ، وليس عندنا من الأدلة ما يسمى بنظام الحياة ، والذي نعرفه من أنظمة الحياة التي تعارف عليها الناس أن بعضها مقبول في الاسلام والبعض الآخر غير مقبول ، ولا يسوغ الركون اليه . وكم من الأعراف والعادات التي كانت سائدة في الجاهلية قد استأصلها الاسلام وقضى عليها وحرمها .

أما الكلمات والأقوال التي اشتهرت على السنة كثير من الفقهاء والحقوقيين :

العرف في الشرع له اعتبار ـ العرف شريعة محكمة ـ التعيين بالعرف كالتعيين بالنص ـ الثابت بالعرف كالثابت بالنص ـ العادة محكمة .

إن هذه الأقوال والتعميمات لا تستند بعمومها على أساس منطقي وحكم شرعي .

7 ـ إجماع أهل المدينة :

كان مالك بن أنس يعطي أهمية كبرى بما يجري عليه أهل المدينة ، وكان يرد الحديث

---

(60) سلم الوصول ص 322 .

(61) مصادر التشريع ص 124 .

(62) المصدر السابق .

لأنه لم يجر عليه عمل أهل المدينة فهم أدرى الناس بالسنة وبالناسخ والمنسوخ قال في رسالة الى الليث بن سعد :

فإنما الناس تبع لأهل المدينة ، اليها كانت الهجرة ، وبها نزل القرآن وأحل الحلال وحرم الحرام ، إذ رسول الله بين أظهرهم .

وقد رد عليه الليث برسالة طويلة ناقشه فيها بمناقشة علمية ذكرها ابن قيم الجوزية في اعلام الموقعين . قال في بعض فصولها :

وكان من خلاف ربيعة لبعض من قد مضى ما قد عرفت وحضرت قولك فيه ، وقول ذوي الرأي من أهل المدينة . . . الخ ويتابع : وأما العمل النقلي فلا خلاف في حجيته عند مفسري مذهب مالك كنقل أهل المدينة تعيين محل منبر النبي وقبره ومحل وقوفه للصلاة ، وتعيينهم مقدار المد والصاع والأوقية في عهد الرسول ، ونقلهم كيفية الآذان والاقامة . أما المسائل الاجتهادية فالأمر فيه سواء بين مجتهدي الصحابة والتابعين من المدنيين والكوفيين والشاميين والمصريين(63) وقد رد على هذه الرسالة ابن حزم فقال :

وأما من قال ان الاجماع إجماع أهل المدينة لفضلها ، ولأن أهلها شهدوا نزول الوحي فقول خطأ من وجوه . نذكر منها :(64)

1 ـ ان الذين شهدوا الوحي ، إنما هم الصحابة رضي الله عنهم لا من جاء بعدهم من أهل المدينة ، وعن الصحابة أخذ التابعون من أهل كل مصر .

2 ـ ان الخلفاء الذين كانوا لا يخلو حالهم من أحد الوجهين لا ثالث لهما :

إما أن يكونوا قد بينوا لأهل الأمصار من رعيتهم حكم الدين أو لم يبينوا ، فإن كانوا قد بينوا لهم الدين ، فقد استوى أهل المدينة وغيرهم في ذلك .

وإن كانوا لم يبينوا لهم ، فهذه صفة سوء أعاذهم الله تعالى منها ، فبطل قول هؤلاء بيقين .

3 ـ إنه إنما قال ذلك قوم من المتأخرين ليتوصلوا بذلك الى تقليد مالك بن أنس دون علماء المدينة جميعاً ، ولا سبيل لهم إلا مسألة واحدة أجمع عليها جميع فقهاء أهل المدينة المعروفون من الصحابة والتابعين خالفهم فيها سائر الأمصار .

وبعد الرسالة والرد عليها يمكننا القول أن عمل أهل المدينة الذي بني على فهم القرآن السليم واتباع السنة النبوية ليس بعلم دقيق ، تأخذ به كما نأخذ بعمل غير أهل المدينة من الأمصار الأخرى إذا تمثلوا شروط العمل نفسها .

8 ـ المصالح المرسلة :

ومن أصول مذهب مالك القول بالمصالح المرسلة ، كما نسب الى الحنفية القول

---

(63) التشريع الاسلامي ص 241 وضحى الاسلام ج 2 ص 212 .

(64) الامام الصادق والمذاهب الأربعة ص 523 .

بالاستحسان . ويحسن بنا تحديد معناها :

المصلحة أولاً والارسال ثانياً . يقول الغزالي :

المصلحة هي « عبارة في الأصل عن جلب منفعة أو دفع مضرة » وقال : « ولسنا نعني به ذلك ، فإن جلب المنفعة ودفع المضرة مقاصد الخلق وصلاح الخلق في تحصيل مقاصدهم ، ولكنا نعني بالمصلحة المحافظة على مقصود الشرع » .

ومقصود الشرع من الخلق خمسة : وهو ان يحفظ عليهم دينهم ، ونفسهم ، وعقلهم ، ونسلهم ، وماهم ، فكل ما يتضمن هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة ، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة »(65) .

أما تعريفهم للارسال فقد وقع موقع اختلاف فقال بعضهم : إن عدم الاعتماد على أي نص شرعي وإنما يترك للعقل حق اكتشافها ، بينما يذهب البعض الآخر الى أن معناها هو عدم الاعتماد على نص خاص وإنما تدخل ضمن ما ورد في الشريعة من نصوص عامة ، واستناداً الى هذا التفاوت في معنى الارسال ، تفاوتت تعاريف المصلحة المرسلة .

قال بعض الأصوليين : « إنها الوصف المناسب الملائم لتشريع الحكم الذي يترتب على ربط الحكم به جلب نفع أو دفع ضرر ، ولم يدل شاهد من الشرع على اعتباره أو إلغائه »(66) .

وعرفها ابن برهان بقوله هي : « ما لا يستند الى أصل كلي أو جزئي »(67) .

وبما أن هذه التعاريف لا تحكي عن واقع واحد ، وربما اختلف الحكم فيها لديهم باختلاف مناهجها ، رأينا من الأنسب أن نعرض لأحكامها . وتحاكم على أساس ما ينتظمها من الأدلة نفياً كانت أم إثباتاً . وقد قسموا الأحكام المترتبة عليها بالنسبة لمصالحها من رتب إلى ثلاثة أقسام .

1 ـ الضروري : وهو المتضمن لحفظ مقصود على المقاصد الخمس التي لم تختلف فيها الشرائع بل هي مطبقة على حفظها(68) يقول الغزالي :

« وتحريم تفويت هذه الأصول الخمسة والزجر عنها يستحيل أن لا تشتمل عليها ملة من الملل ، وشريعة من الشرائع التي أريد بها اصلاح الخلق ، لذلك لم تختلف الشرائع في تحريم الكفر ، والقتل ، والزنى ، والسرقة ، وشرب المسكر »(69) .

2 ـ الحاجي : وأرادوا به « ما يقع في محل الحاجة لا الضرورة »(70) ، كتشريع أحكام البيع والإجارة .

---

(65) المستصفى ج 1 ص 140 .

(66) سلم الوصول ص 309 .

(67) ارشاد الفحول ص 242 .

(69) المستعفى ج 1 ص 140 .

(68) ارشاد الفحول ص 216 .

(70) ارشاد الفحول ص 216 .

3 ـ التحسيني : وأرادوا به ما يقع ضمن نطاق الأمور الذوقية كالمنع عن أكل الحشرات ، ضمن ما تقتضي آداب السلوك كالحث على مكارم الأخلاق . ورعاية أحسن المناهج في العادات والمعاملات وقد عرفه الغزالي : « ما لا يرجع الى ضرورة ولا حاجة ، ولكن يقع موقع التحسين والتزيين والتيسير للمزايا والمزايد »(71) .

يبدو من هذا التقسيم أن المصالح مقدم بعضها على بعض من حيث الأهمية . وخلاصة ما انتهينا اليه في ذلك اعتبار أمور ثلاثة إن توفرت في شيء ما ، كشفت عن وجود الحكم فيه وهي :

1 ـ كون المصلحة ضرورية .
2 ـ كونها قطعية .
3 ـ كونها كلية .

هذا كله إذا وقعت في مرتبة الضروري وان وقعت في مرتبة الحاجي فقد رأى الغزالي ردها ورأى غيره قبولها .

أما الأحناف فالمنسوب اليهم أنهم لا يقولون بالمصالح المرسلة ، ولا يعتبرونها دليلاً(72) . وخلاصة ما انتهينا اليه أن تعاريف المصالح المرسلة مختلفة ، ولا يتوفر فيها الإدراك الكامل إلا في حالات نادرة ، وليس لدينا من الأدلة ما يثبت ذلك وما يكون الرؤ ية الكاملة . والشك في الحجية كاف للقطع بعدمها لتقومها بالعلم . والشيعة لا يقولون بالمصالح المرسلة إلا ما رجع منها إلى العقل على سبيل الجزم .

9 ـ فتح الذرائع وسدها :

الذريعة لغة واصطلاحاً :

الذريعة في اللغة هي الوسيلة التي يتوصل بها الى الشيء .

والذريعة اصطلاحاً وقعت موضع اختلاف في مقام التحديد . فالشاطي يحددها « التوصل بما هو مصلحة الى مفسدة »(73) .

وجاء على ألسنة بعض المتأخرين فهي : ما يتوصل به الى شيء ممنوع مشتمل على مفسدة »(74) .

وقالوا أن هذين التعريفين غير جامعين لاقتصارهما على وسائل الأمور المحرمة بينما تعم الذريعة جميع الوسائل سواء كانت وسائل لمحرمات أم واجبات أم غيرها من الأحكام . وورد في المدخل « الذريعة كما يجب سدها يجب فتحها وتكره وتندب وتباح »(75) .

---

(71) المستعفى ج 1 ص 140
(72) مصادر التشريع ص 74 .
(73) الموافقات في أصول الشريعة ج 4 ص 199 .
(74) المدخل للفقه الاسلامي ص 266 .
(75) ألمصدر السابق ص 266 .

وقريب منه قول آخر : « الذرائع اذا كانت تفضي الى مقصد هو قربة وخير أخذت الوسيلة حكم المقصد . وإذا كانت تفضي الى مقصد ممنوع هو مفسدة ، أخذت حكمه ، ولذا فإن الامام مالكاً يرى أنه يجب فتح الذرائع في الحالة الأولى لأن المصلحة مطلوبة ، وسدها في الحالة الثانية لأن المفاسد ممنوعة »[76] وأقرب تعاريفها الى السلامة ما ذكره ابن القيّم :

« الذريعة ما كان وسيلة وطريقاً الى الشيء »[77] .

وقد قسمها ابن قيم الجوزية الى أربعة أقسام :

1 ـ الوسائل الموضوعة للافضاء الى المفسدة ومثل لها بشرب المسكر المفضي الى مفسدة السكر .

2 ـ الوسائل الموضوعة للأمور المباحة ، إلا أن صاحبها قصد بها التوسل الى مفسدة ومثل لها من يعقد البيع قاصداً به الربا .

3 ـ الوسائل الموضوعة للأمور المباحة ، والتي لم يقصد التوسل بها الى المفسدة لكنها مفضية إليها غالباً ومفسدتها أرجح من مصلحتها .

4 ـ الوسائل الموضوعة للمباح ، وقد تفضي الى المفسدة ومصلحتها أرجح من مفسدتها . ومثلوا لها بكلمة الحق عند سلطان جائر[78] .

أما حكمها فقد اختلفوا فيه فالذي عليه ابن القيم وجماعته ، ان الوسيلة تأخذ حكمها مما تنهي اليه ، وقرب ذلك بقوله : « لما كانت المقاصد لا يتوصل اليها إلا بأسباب وطرق تفضي اليها ، كانت طرقها وأسبابها تابعة لها معتبرة بها . فوسائل المحرمات والمعاصي في كراهتها والمنع منها بحسب إفضائها الى غاياتها وارتباطاتها بها ، ووسائل الطاعات في محبتها والأذن فيها بحسب إفضائها الى غاياتها[79] .

ولكن المالكية والحنابلة ركزوا في الحرمة على خصوص القسم الثاني منها ـ أعني الوسائل الموضوعة للأمور المباحة . ويقصد فاعلها التوصل بها الى المفسدة[80] . إن أكثر الأصوليين هم من القائلين بفتح الذرائع وسدها وان لم يتفقوا في حدود ما يأخذون منها وما يتركون يقول الأستاذ سلام :

« الواقع أن الفقهاء جميعاً يأخذون بأصل الذرائع مع اختلاف في مقدار الأخذ به وتباين في طريقة الوصول الى الحكم ، إذ المشاهد في أحكام الفروع ان أكثر الفقهاء يعطي الذريعة حكم الغاية إذا تعينت الذريعة ـ الوسيلة ـ لهذه الغاية ، أما إذا لم تتعين طريقاً لها ، فالمشهور

---

(76) المدخل للفقه الاسلامي ص 266 .

(77) اعلام الموقعين ج 3 ص 147 .

(78) المصدر نفسه ج 3 ص 148 .

(79) اعلام الموقعين ج 3 ص 147 .

(80) المدخل للفقه الاسلامي ص 269 .

عن الامام مالك إنها تعتبر أصلاً للأحكام ، ويقرب منه في ذلك الامام أحمد ، وتبعهما ابن تيمية وابن القيّم(81) .

والذي نريد بيانه أنهم اعتبروا سد الذرائع وفتحها أصلاً في مقابل بقية الأصول مع أنها لا تعدو كونها من صغريات السنة أو العقل .

وما قاله مالك وأحمد بن تيمية وابن القيم : انها من أصول الأحكام في مقابل بقية الأصول ، لا يتضح له وجه .

هذه هي أهم الأصول التي اعتمدتها المذاهب الخمسة فبعضهم أخذ بها جميعاً وبعضهم الآخر أخذ ببعض منها .

وعلى ضوء هذه الأصول سوف نتكلم بإيجاز على المذاهب الاسلامية الخمسة فنذكر المذهب الحنفي ، والمذهب المالكي ، والمذهب الشافعي ، والمذهب الحنبلي والمذهب الجعفري .

---

(81) المدخل للفقه الاسلامي ص 269 .

الفصل الثالث
المذاهب الفقهية

1 ـ المذهب الحنفي : 80 هـ ـ 150 هـ ـ 767 م .

ينسب هذا المذهب الى الامام أبي حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي ، من أهل كابل وقيل من مدينة نسا من أهل بابل . وكان اسمه عتيك بن زوطة ، وكان أبوه عبداً مملوكاً لقَيْم الله بن ثعلبة الكوفي من ربيعة ، وهو تابعي لأنه رأى الصحابة(1)

نشأ بالكوفة ، وقد كانت من أكبر الأمصار الاسلامية في ذلك العصر ، وأحفلها بالعلماء من كل فئة . فيها مدارس الفقه واللغة والأدب وغيرها من ألوان العلوم . درس علم الكلام حتى برع فيه ، ثم التحق بحلقة حماد شيخ فقهاء الكوفة ، تلقى العلم عن ابراهيم النخعي الذي تلقاه عن علقمة بن قيس الذي تلقاه عن عبد الله بن مسعود . وما زال أبو حنيفة يداوم على حضور حلقة شيخه حماد حتى توفي سنة 120 هـ وانتهت إليه رئاسة مدرسة الكوفة ، التي عرفت بمدرسة الرأي وأصبح إمام فقهاء العراق . اجتمع مع أشهر علماء عصره بمكة والمدينة والبصرة ، ثم ببغداد بعد أن بناها المنصور .

أصول مذهبه

روى أحدهم عنه سمعه يقول : آخذ بكتاب الله ، فإن لم أجد فبسنة رسول الله ﷺ ، فإن لم أجد أخذت بقول أصحابه من شئت منهم ، وأدع قول من شئت ولا أخرج من قولهم إلى قول غيرهم ، فاما إذا انتهى الأمر الى إبراهيم والشعبي وابن سيرين والحسن وعطاء وابن المسيب وغيرهم ، فقوم اجتهدوا فاجتهد كما اجتهدوا(2) .

أما اجتهاده فيما لم يكن فيه نص من كتاب أو سنة ولا قول صحابة ، فقد كان مرجعه إلى القياس ، ومن أنواع القياس عنده ، الاستحسان الذي فسر بأنه قياس خفي في مقابله قياس جلي .

---

(1) راجع ترجمة أبي حنيفة في تاريخ بغداد ج 13 ص 323 وقد اختلف في سنة مولده والمشهور هو سنة 80 هـ ، توفي ببغداد في السجن سنة 150 هـ ، وقبره في حي سمي باسمه حي « الأعظمية » نسبة إلى الإمام الأعظم .

(2) السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي ص 452 .

كان صاحب مدرسة عرفت بمدرسة (الأرأيتيين) أي الذين يفرضون الوقائع بقولهم : أرأيت لو حصل كذا ؟ أرأيت لو كان كذا ؟) وقد قيل كل من قال هذه العبارة : هل أنت من الأرأيتيين ؟ وهل أنت قادم من العراق ؟

كانت دعوة العباسيين قائمة على أساس الانتماء الى النبي واتباع سلالة البيت النبوي ، فهم أحق بأمر الخلافة من أمية خصوم الاسلام وأعداء محمد ﷺ .

ومن الطبيعي أن يظهروا الاتصال الوثيق بين الدين والدولة ، ليكونوا من أحكام الشريعة الاسلامية دستوراً تسير الدولة عليه سيراً صورياً ، فقربوا العلماء واتصلوا بهم اتصالاً وثيقاً ، وآثروا نشر العلم ، وجعلوا القضاء بيد أهل الرأي من أهل العراق ، حتى ولي أبو يوسف سلطته الواسعة في الجهاز التنفيذي .

وأبو يوسف(3) هو تلميذ أبي حنيفة وقد تربى في نعمه ، وبتوليه منصب القضاء استطاع نشر المذهب الحنفي . ثم ولي منصب رآسة القضاء العامة في عهد الرشيد فقوى نفوذه ، حتى أنه لم يقلد ببلاد العراق وخراسان والشام ومصر إلا من أشار به القاضي أبو يوسف . وبلغ من الرشيد مبلغاً لم يبلغه عالم بعلمه ولا محبوب بمرتبته(4) .

أما إذا نظرنا الى مقومات المذهب الحنفي فنجد أنه يقوم على أكتاف أربعة من أصحاب أبي حنيفة ، فهم الذي ألّفوا فيه وهذبوا مسائله ، وليس لأبي حنيفة إلا المشاركة في الرأي أحياناً ، علماً أنهم خالفوه في أكثر المسائل ، بعد أن وسعوا دائرة المذهب في الحيل الشرعية ، وكان أول هؤلاء الأربعة أبو يوسف القاضي :

أبو يوسف القاضي :

هو يعقوب بن ابراهيم الأنصاري ولد 113 هـ عربي الأصل نشأ في الكوفة فقيراً اتصل بأبي حنيفة وأقام عنده ينفق عليه وعياله مدة عشر سنين ، وبعد وفاة أبي حنيفة استقل أبو يوسف برآسة أصحاب أبي حنيفة وكانت الظروف السياسية قد ساعدته وأقبلت الدنيا عليه بعد الفقر والعوز ، ووقع موقع قبول عند خلفاء بني العباس ، وهو الذي نشر مذهب أبي حنيفة في الأقطار على أيدي القضاة الذين كان يعينهم أبو يوسف من أصحابه . وبذلك استمد المذهب نفوذه وسلطانه من نفوذه وسلطة أبي يوسف .

لأبي يوسف كتب كثيرة دون فيها آراءه وآراء شيخه ذكرها ابن النديم منها : كتاب الصلاة ، كتاب الزكاة ، كتاب الصيام ، كتاب الفرائض ، كتاب البيوع ، كتاب

---

(3) أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن خنيس بن سعد الأنصاري المتوفى سنة 182 هـ ببغداد المدفون في مدافن قريش وهو أول من دعي بقاضي القضاة ، تولى القضاء لثلاثة من الخلفاء المهدي وابنه الهادي والرشيد . قال الطبري : ما قوم نحا من أهل الحديث حديثه لغلبة الرأي عليه وتفريع الفروع والأحكام مع صحبة السلطان وقال عمار بن أبي مالك : ما كان في أصحاب أبي حنيفة مثل أبي يوسف ولولا أبو يوسف ما ذكر أبو حنيفة . وعن ابن المبارك أنه ضعّفه وعن يزيد بن هارون أنه قال : لا تحل الرواية عنه لأنه كان يعطي أموال اليتامى ويجعل الربح لنفسه .

(4) خطط المقريزي ج 4 ص 144 .

الخراج ، كتاب الوكالة ، كتاب الوصايا ، كتاب اختلاف الأنصار . كتاب الرد على مالك وغيرها . . . وأبو يوسف هو أول فقهاء الرأي الذين دعموا آراءهم بالحديث ، وبذلك جمع بين طريقة أهل الرأي وأهل الحديث .

والثاني : محمد بن الحسن الشيباني 132 هـ ـ 189 هـ

حضر على أبي حنيفة ولم يتم دراسته عليه لأن أبا حنيفة مات وعمر محمد في الثامنة عشر فأتم دراسته على أبي يوسف ، وكان ذا فطنة وذكاء ، أخذ عن الثوري والأوزاعي ورحل الى مالك ، وتلقى عنه فقه الحديث والرواية ، وهو الذي أدخل الحديث في فقه أهل الرأي وألف كتباً في ذلك أصبحت هي المرجع الأول لفقه أبي حنيفة . وكان يخالفه في أكثر مسائله .

والثالث : زفر بن الهذيل 110 هـ ـ 158 هـ

أبوه عربياً وأمه فارسية ، أخذ عن أبي حنيفة فقه الرأي ، وكان أشد أصحاب أبي حنيفة قياساً ، تولى القضاء في عهد أبي حنيفة في البصرة .

والرابع الحسن بن زياد : الكوفي المتوفى سنة 204 هـ

هو من فقهاء المذهب ورواة آراء أبي حنيفة ، وقد طعن المحدثون فيه ، ورفضوا روايته . قال ابن معين : أنه كذاب غير ثقة ، وقال النفر بن شميل : لرجل كتب الحسن بن زياد : لقد جلبت الى بلدك شراً(5) .

هؤلاء الأربعة هم دعامة المذهب الحنفي في توسيع دائرته وانتشاره ، ولم ينقل لنا التاريخ عن أبي حنيفة كتاباً يتضمن مسائله وفقهه . والذين دونوا علم المذهب تلامذته ثم جاء من بعده هؤلاء الأربعة علماء نسبوا لهذا المذهب فكانت لهم آراء مستقلة تكونت منها مجموعة من الفقه وكلها تنسب لأبي حنيفة ، وإن لم يفت بها ولم يعرفها ولكنهم قالوا : أمر أبو حنيفة أصحابه بأن يأخذوا من أقواله بما يتجه لهم من الدليل عليه .

2 ـ المذهب المالكي :

صاحبه : أبو عبد الله مالك بن أنس (93 هـ ـ 179 هـ) . إمام دار الهجرة ومحدثها المعروف . ولد بالمدينة ونشأ بها وتوفي فيها . تلقى العلم عن كبار الفقهاء من التابعين كالزهري مثلاً الذي سمع منه كثيراً ، حتى أصبح من أشهر تلاميذه ، واستمر دائباً في طلب العلم وتحصيله حتى أصبحت له الامامة في الحجاز . هرع إليه أهل العلم من مختلف بقاع الأرض وعقد لهم المجالس في مسجد النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم . عرف مالك بالفقه والحديث معاً ، واحتج بالمرسل كأبي حنيفة ، وعمل أهل المدينة عنده أقوى من حديث الآحاد . ومن أشهر من رد حجية عمل أهل المدينة ابن حزم ، فقد ناقش مالكاً في كتابه « المحلى » وكان شديد الوطأة في نقاشه(6) .

---

(5) راجع لسان الميزان ج 2 ص 208 .

(6) راجع الإحكام في أصول الأحكام .

الموطّأ :

أشهر ما عرف به الامام مالك كتابه « الموطّأ » الذي ألفه بإشارة من الخليفة العباسي المنصور . وسماه الموطأ لأنه عرضه على سبعين فقيهاً من فقهاء المدينة فكلهم واطأه عليه . ولما حج الخليفة المهدي سمعه منه فأمر له بخمسة آلاف دينار ولتلاميذه بألف ، ثم رحل إليه الرشيد في إحدى حججه مع أولاده وسمعه منه ورغب أن يحمل الناس عليه فأبى مالك قائلاً : « لا تفعل يا أمير المؤمنين فإن أصحاب رسول الله ﷺ اختلفوا في الفروع وتفرقوا في البلدان وكل مصيب »(7) .

وقد عني بتأليفه وتدوين الأحاديث الصحيحة فيه حتى قالوا أنه مكث فيه أربعين سنة يهذبه وينقحه . يستدل على ذلك ما رواه السيوطي في مقدمة شرحه للموطأ عن الأوزاعي ، أنه قال : « عرضنا على مالك الموطأ في أربعين يوماً فقال : كتاب ألفته في أربعين سنة ، أخذتموه في أربعين يوماً ، ما أقل ما تفقهون فيه »(8) وقد بوّب الموطأ على أبواب العلم المختلفة ، فذكر في كل باب ما جاء فيه من الحديث عن النبي ﷺ ثم ما ورد من الآثار عن الصحابة والتابعين ، وأحياناً كان يفسر كلمات الحديث بعد سرده ويبين المراد من بعض عباراته .

وقد بلغت روايات الموطأ المتداولة نحواً من ثلاثين نسخة من أشهرها :

موطأ يحيى بن يحيى ، وموطأ بن بكير ، وموطأ أبي صعب ، وموطأ بن وهب ، وموطأ الامام محمد بن الحسن ، وهذه النسخ تختلف فيما بينها تقديماً وتأخيراً وزيادة ونقصاً وذلك لاختلاف الزمن الذي رويت فيه عن مالك ، ولهذا اختلفت الأقوال في عدد أحاديث الموطأ .

يختلف المذهب المالكي عن بقية المذاهب بكثرة أصوله فهو يعتمد على تسعة أصول : **الكتاب ، والسنة ، والاجماع ، والقياس ، والاستحسان ، والعرف ، واجماع أهل المدينة ، والمصالح المرسلة ، وسد الذرائع** وقيل أكثر من ذلك .

ذكر القاضي عياض في المدارك والأصول العامة للفقه الاسلامي ، وذكر بعد ذلك أصول مالك ومقامها من تلك الأصول فقال : وأنت إذا نظرت لأول وهلة منازع هؤلاء الاعلام من الأمة ومآخذهم في الفقه واجتهادهم في الشرع وجدت مالكاً رحمه الله ناهجاً في هذه الأصول مناهجها ، مرتباً لها مراتبها ومدارجها ، مقدماً كتاب الله على الآثار ، ثم مقدماً لها على القياس ، تاركاً منها ما لم يتحمله الثقاة العارفون لما تحملوه ، أو ما يجهلونه ، أو ما وجد الجمهور الجم الغفير من أهل المدينة قد عملوا بغيره وخالفوه ، ولا يلتفت الى من تأول عليه مظنه في هذا الوجه سوء التأويل ، وقوله ما لا يقوله ، بل صرح بأنه من الأباطيل .

هذا ما ذكره القاضي عياض في أصول مذهب مالك ، ذكر الكتاب والسنة ، وعمل أهل المدينة والقياس ولم يذكر غيرها . فلم يذكر الاجماع ولم يذكر القواعد التي امتاز بها

---

(7) أنظر السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي ص 486 .

(8) المرجع نفسه .

مذهب مالك ، وهي المصالح المرسلة وسد الذرائع ، والعرف . ومما يبدو أن مالكاً لم يدون أصوله التي بنى عليها مذهبه ، فهو في ذلك كأبي حنيفة ، لقد صنع فقهاء المذهب المالكي في فقه مالك ما صنعه فقهاء المذهب الحنفي . فجاؤ وا الى الفروع وتتبعوها واستخرجوا منها ما يصح أن يكون أصولاً قام عليها الاستنباط في ذلك المذهب ، ودونوا تلك الأصول التي استنبطوها على أنها أصول مالك فيقولون مثلاً :

مالك يأخذ بمفهوم المخالفة وبفحوى الخطاب وبظاهر القرآن ، ويقول في العموم كذا ، والحقيقة أن هذه ليست أقوالاً له مأثورة قد ذكرها ورويت عنه . بل هي مستخرجة من الفروع التي أثرت عنه أدلتها التفصيلية التي ذكرت بجوارها أو ذكرها الفقهاء من بعده لها ولا يمكن الاستدلال بسواها(9) .

وبذلك أصبح المجهود الذي بذله علماء المالكية هو مجموع أصول المذهب المالكي وفي أكثرها مخالفة لرأي مالك ، أو تفردهم بما لم يرد من مالك أثر فيه ، وقد ظهرت بعد وفاته آراء كبار تلاميذه الذين خالفوه فيها ، وسجلوا تلك المخالفة .

مصادر المذهب المالكي :

للفقه المالكي طريقان أحدهما كتابه الموطأ الذي رواه عنه الكثيرون ممن تلقوا عنه إلا أن في رواياتهم اختلافاً من زيادة ونقص ، وأشهر رواة الموطأ الذين ذكرناهم يحيى بن يحيى الليثي ، وهو مطبوع بمصر . وموطأ يرويه محمد بن الحسن ، وهو مطبوع ببلاد الهند(10) .

وثانيهما : تلاميذه الذين كانوا يدونون ما يفتي به من مسائل .

ومن كتب المذهب المالكي (المدونة) وهي أصح الكتب المعتبرة في المذهب تتألف من مجموعة رسائل من فقه مالك جمعها تلميذه أسد بن الفرات النيسابوري(11) .

وقد دخل مذهب مالك الأندلس في عهد الحكم الأول (180 -206 هـ) وحل محل مذهب الامام الأوزاعي الذي ظهر في المدينة . وقد قبل الأمير الأموي هذا المذهب لأنه يحرر بلاده من تأثير العباسيين الأدبي(12) . وانتشر المذهب المالكي في المغرب بالوقت نفسه . يقول المقريزي : لما ولي المعز باديس حمل جميع أهل افريقيا وأهل الأندلس على التمسك بمذهب مالك وترك ما عداه ، فرجع أهل افريقيا وأهل الأندلس كلهم الى مذهبه رغبة فيما عند السلطان وحرصاً على طلب الدنيا ، إذ كان القضاء والافتاء في جميع تلك المدن لمن سمي

---

(9) مالك لمحمد أبو زهرة ص 255 .

(10) تاريخ التشريع الاسلامي ص 305 .

(11) أسد بن الفرات بن سنان المتوفى سنة 213 هـ . أصله من خراسان ، وولد بحران من دياربكر ، رحل لمالك وسمع موطأه ، ثم رحل الى العراق فلقي أبا يوسف ، ومحمد بن الحسن ، وأسد بن عمرو ، وأصحاب أبي حنيفة ، فتفقه منهم ، وسمع أبو يوسف منه موطأ مالك ، وتولى قضاء القيروان واقتصر بالعمل على مذهب أبي حنيفة ، فانتشر بسببه مذهب أبي حنيفة وله مدونة على مذهب مالك .

(12) ويرجع السبب في ذلك الى أن العباسيين كانوا يسيرون وفق مذهب أبي حنيفة لذلك مال الأمويون في الأندلس الى مذهب الأوزاعي وتجنبوا المذهب الحنفي الذي اتخذه العباسيون .

بمذهب مالك ، فاضطرت العامة الى احكامهم وفتاواهم ففشي هذا المذهب هناك(13) .

حظي المذهب المالكي بظروف سياسية ملائمة ساعدت على انتشاره ، فهو كالمذهب الحنفي ساعد السلطان على نشره بواسطة القضاة . ولما عين ابراهيم بن علي اليعمري قاضياً على المدينة قام بنشر مذهب مالك بقوة سلطانه وسطوته ، وذلك في القرن السابع . كذلك القاضي منذر بن سعيد البلوطي قاضي الجماعي بقرطبة كان يقضي بمذهب مالك وأصحابه لأنه ألزم بالعمل به من قبل السلطان(14) .

وإن كلًا من المذهبين المالكي والحنفي قد أسعده الحظ بالقبول عند سلطان عصره ، فأبو حنيفة قرَّبه المنصور إليه لغاية في نفسه ، ولكنه فشل في محاولته فآل أمره الى أن يغضب عليه ويقتله .

ومالك قد حظي برضا المنصور والمهدي والهادي والرشيد ، فأكرموه ورفعوا من شأنه . والمذهب المالكي تأثر بالمذهب الحنفي بما أدخله عليه أسد بن الفرات .

وكذلك المذهب الحنفي دخلت فيه آراء مالك ورواياته عن طريق أبي يوسف ومحمد بن الحسن ، طبقوا آراءهم على الموطأ واستخرجوا لها شواهد من الآثار .

هذا وان لتلاميذ مالك آراء بجوار آرائه ومنزلتهم منه كمنزلة محمد وأبي يوسف من أبي حنيفة .

أهم الأصول التي كان يعتمد عليها مالك في منحاه الاجتهادي .

عمل أهل المدينة ، والمصالح المرسلة ، والاستحسان ، والقياس .

3 ـ المذهب الشافعي :

ينسب الى الامام محمد بن ادريس بن عثمان بن شافع (150 هـ ـ 204 هـ) .

كان ظهوره في مصر ، وأكثر من الأصحاب هناك ، وغلب مذهبه على بغداد وعلى كثير من بلاد خراسان ودخل شيء منه إلى بلاد افريقيا والأندلس بعد سنة 300 هـ وقويت شوكته وعظمت شهرته في عهد الدولة الأيوبية التي كانت تتسم سمة شافعية ، وبذلوا قصارى جهدهم في نصرته ، فبنوا المدارس لفقهاء الشافعية ، واختصاص القضاء بهم ، وكان الغالب على أهل مصر الشيعة في عهد الفاطميين الذين كانوا يملكون مصر قبله ، وكان المذهب الجعفري يدرس في الجامع الأزهر وغيره ، حتى جاء صلاح الدين فأبطل درسه فيه وأحيا مذهب الشافعي وأبي حنيفة ومالك . وبنى لهم كثيراً من المدارس التي رغب الناس فيها بما أجزله عليهم من ريع الأوقاف التي حبسها عليها مما رغبهم في هذه المدارس حتى هجروا المذاهب الأخرى .

وبعد صلاح الدين جاء ملوك اعتنقوا مذهب الشافعي وساعدوا على نشره ، وقد نجح

---

(13) الامام الصادق والمذاهب الأربعة الجزء الأول .

(14) نفح الطيب ج 1 ص 45 .

الشافعي في بدء أمره عندما قدم مصر وزاحم مذهب مالك ، حتى تعصب عليه المالكية ، لأنه كاد أن ينسى الناس مذهب مالك إلى أن آل الأمر بهم فقتلوه بسبب التعصب ، والذين آزروه في مصر جماعة من آل عبد الحكم كان لهم مقام رفيع وجاه عظيم . من الذين شدوا أزره أبو محمد عبد الله بن الحكم وكان عالماً مدركاً أكرم مثواه حتى مات الشافعي في بيته فاعتنق مذهب الشافعي وكتب كتبه لنفسه . دخل الشافعي مصر وهو يحمل من الرشيد كتاب توصية لوالي مصر ليهتم بأمره ويعتني به وكان ذلك حوالي السنة 198 هـ . وفي مصر دون مذهبه الجديد الى أن توفي عام 204 هـ ، بعد أن ملأ الدنيا علماً واجتهاداً . أحبه الناس واعترفوا بأمامته لما كان يتمتع به من علم غزير ومنطق سليم وإحاطة واسعة بكتاب الله وسنة رسوله ، وإلى جانب هذا كله كان بارعاً في اللغة والشعر والأدب ، قوي الحجة في المناظرة .

وضع قواعد الرواية ، وأعلن رأيه الذي خالف فيه مالكاً وأبا حنيفة ، وهو أن الحديث متى صح بالسند المتصل إلى النبي ﷺ يجب العمل به من غير تقييده بموافقة عمل أهل المدينة كما اشترط مالك ، أو بالشروط المتعددة التي اشترطها أبو حنيفة .

وقد دافع الشافعي عن السنة دفاعاً مجيداً وكان إلى جانب أهل الحديث مما جعلهم يطلقون عليه لقب « ناصر السنة » من هنا أجله علماء الحديث فقال عنه محمد بن الحسن « إن تكلم أصحاب الحديث يوماً فبلسان الشافعي » وقال عنه أحمد بن حنبل « ما علمنا المجمل من المفسر ولا ناسخ حديث رسول الله ﷺ من منسوخه حتى جالسنا الشافعي »(16) .

آثار الشافعي وآراؤه :

يمتاز الشافعي عن غيره من أئمة المذاهب بنسبة الكتب التي عرف أنه صنفها . من هذه الكتب المشهورة كتاب (الأم) وهو المرجع لفقه الشافعي . ولكن هذا الكتاب دار الشك والجدل في نسبته الى الشافعي ، فأحمد أمين ينفي نسبة الكتاب الى الشافعي الذي بين أيدينا ، وأنه عكف على كتابته وتأليفه في هذا الموضع النهائي . كما أنه لا يستطيع أحد أن ينكر أن في « مذهب الشافعي بقوله وعبارته » : أخبرنا الربيع قال الشافعي أن الكتاب من تأليفه .

فالظاهر أنها آمال أملاها الشافعي في حلقته ، وكتبها عنه تلاميذه ، وأدخلوا عليها تعليقات من عندهم ، واختلفت رواياتهم بعض الاختلاف(15) .

وكذلك كان رأي الدكتور زكي مبارك فقد نفى نفياً قاطعاً نسبة كتاب الأم الى الشافعي مؤكداً أنه من تأليف البريطي أحد تلاميذه .

وله كتاب آخر معروف اسمه « الرسالة » وضعه تلبية لرغبة عبد الرحمن بن المهدي ضمنه أصول الفقه .

---

(16) راجع السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي ص 495 .

(15) ضحى الاسلام ج 2 ص 231 .

رأيه في القرآن :

يرى الشافعي أن القرآن كلام الله غير مخلوق ويقول : ان الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وكلم الله موسى تكليما ﴾ .

ولا يخفى أن مسألة خلق القرآن التي نادى بها المأمون هي من أهم المشاكل التي حلت بالجامعة الاسلامية . « أخذ المأمون جماعة من الفقهاء فحبسهم وماتوا في السجن »(17) .

رأيه في الرؤية :

قال الربيع كنت يوماً عند الشافعي فجاءه كتاب من الصعيد يسألونه عن قوله تعالى : « كلا انهم عن ربهم يومئذٍ لمحجوبون » .

فكتب الشافعي : لما حجب قوماً بالسخط ، دل على أن قوماً يرونه بالرضى ، قال الربيع : أوتدين بذلك ؟

قال : والله لو لم يدن محمد بن إدريس: انه يرى ربه في المعاد لما عبده في الدنيا(18) .
يتضح من هذا أن الشافعي يؤمن بأن الرؤية محققة في الآخرة ولولا ذلك لما عبد الله في الدنيا .

واختلف المسلمون في رؤية الله تعالى ، فذهب قوم الى جوازها في الدنيا والآخرة .
وذهب أهل البيت وشيعتهم الى استحالة الرؤية في الدنيا والآخرة وعدم امكانها لأنه تعالى لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ، فالابصار تتعلق بالهيئات ،الأجسام .

قال السيد شرف الدين : ان العقل الذي عرفنا الله به يحكم مستقلاً بامتناع رؤية الباري سبحانه . سواء أكانت الرؤية بصرية ، أم قلبية ، أم خيالية وهمية ، لامتناع لوازمها بحكم العقل .

ندرك بأبصارنا آيات الله المتجلية في عجائب مخلوقاته .

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

رأيه في الصفات :

عن يونس بن عبد الأعلى المصري عن الشافعي أنه قال : أتانا أخبار عن الله أنه سميع وان له يدين : بل يداه مبسوطتان ، وان له يميناً «والسماوات مطويات بيمينه» . وان له وجهاً ، « كل شيء هالك الا وجهه » وانه يضحك من عبده المؤمن يقول النبي ﷺ للذي قتل في سبيل الله : وانه لقيَ الله وهو يضحك اليه(19) .

---

(17) منهم يوسف بن يحيى البويطي خليفة الشافعي في مصر مات في سجن بغداد 206 هـ ونعيم بن حماد الخزاعي مات في السجن سنة 228 . هـ . وعبد الأعلى الغساني مات في سجن المأمون سنة 208 هـ .

(18) طبقات الشافعية ج 1 ص 231 .

(19) طبقات الحنابلة للقاضي محمد بن أبي يعلى ج 1 ص 283.

فإن هذه المعاني التي وصف الله بها نفسه . ووصفه بها رسوله لا تدرك حقيقة بالرؤية والفكر ، ولكن تثبت هذه الصفات وينفي التشبيه كما نفى الله تعالى عن نفسه فقال : « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » .

رأيه في الامامة :

يرى الشافعي أن الامامة في قريش ، ولا يشترط البيعة ، ولم يشترط الهاشمية ، والعبرة عنده في الخلافة بأمرين : كون المتصدي لها قرشياً واجتماع الناس عليه . وكان يرى أن علي ابن أبي طالب وهو الامام الحق في عصره[20] ، وان معاوية وأصحابه كانوا من الفئة الباغية . وقد اتهم الشافعي بأنه رافضي . وهو لا يبالي بإظهار حب آل محمد ، وان اعترضت حواجز في طريق إظهار ذلك الحب ، كما شاعت السياسة بأن يرمى محب أهل البيت بكل تهمة ويكون عرضة للخطر . وقد أعلن الشافعي ذلك بقوله :

إن كان رفضا حب آل محمد   فليشهد الثقلان اني رافض

وكان يذكر علياً بكل إعجاب وتقدير وله اشعار في مدحه ، وسئل يوماً عن علي فقال : ما أقول في رجل أخفت أولياؤه فضائله خوفاً ، وأخفت أعداؤه فضائله حسداً ، وشاع له من هذين ما ملأ الخافقين[21] .

رأيه في علم الكلام :

المعروف عن الشافعي أنه كان يبغض علم الكلام وينهي عنه حتى ذهب الى عدم جعل كتب الكلام من كتب العلم . وهذا التشديد من الشافعي قد نضج فيه علم الكلام واتسع نشاط المتكلمين ، وكان لا بد لكل عالم أن يتلمس الدلائل والبراهين الفلسفية لتقوية جانبه والرد على مخالفيه . ولعل السبب في ذلك يعود الى أن المعتزلة هم الذين حرضوا الخلفاء على أذى العلماء .

ونذكر أن الشافعي امتد عصره من آخر خلافة المنصور المتوفى 158 هـ ، الى أول خلافة المأمون ، أي من سنة 150 هـ الى سنة 204 هـ . وعلى هذا فقد أدرك ثماني سنين من خلافة المنصور ، وخلافة المهدي 165 هـ . وخلافة الهادي المتوفى 170 هـ ـ وخلافة الرشيد المتوفى 193 هـ . والأمين المقتول سنة 198 هـ. وست سنين من خلافة المأمون .

4 ـ المذهب الحنبلي :

ينسب إلى الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني ولد 164 هـ في بغداد وتوفي 241 هـ. فيها[22] ظهر مذهب أحمد بن حنبل ببغداد وهو آخر المذاهب لتأخره زمناً في الحدوث. كان انتشاره خارج حدود العراق قليلاً جداً ، ولم ينل شهرة غيره من المذاهب .

---

(20) وقد وشي به إلى الرشيد فأحضر إلى بغداد متهماً بالتشيع والدعوة لآل البيت ، وكان ذلك سنة 184 فتدخل محمد بن الحسن عند الرشيد حتى اقتنع ببراءته .

(21) راجع الامام الصادق والمذاهب الأربعة ج 3 ص 216 .

(22) طبقات الحنابلة ج 1 ص 4 .

حضـر في أول طلبه العلم مجلس القـاضي أبي يوسف ، صـاحب الامام أبي حنيفـة ثم انتقل إلى طلب الحديث ، وما زال يجد في طلبه ويلقى الشيوخ الأعـلام ، ويكتب عنهم حتى أحاط بالسنة وبلغ الذروة في حفظها حتى أصبح امام السنة في عصره بـلا منازع . أخـذ الفقه عن الشـافعي ثم أخذ الشـافعي عنـه الحـديث . وذهب الى اليمن ليـأخـذ من عبـد الـرزاق الصنعـاني . كما روى عن يحيى بن سعيـد القـطان ، وسفيـان بن عيينـة ، وسليمـان بن داود الطيالسي واسماعيل بن عليَّـة وبشر بن المفضل الرقاشي وغيرهم .

وروى عنه البخاري ومسلم وأبو داود ويحيى بن آدم الكوفي وعلي بن المديني .

كان الامام أحمد آية في الحفظ والضبط والورع والزهد والأمانة وشهادات العلماء في حقه كثيـرة منها قـول الشافعي : « خـرجت من بغداد ومـا خلفت فيها رجـلاً أفضـل ولا أعلم ولا أورع ولا أتقى من أحمد بن حنبل » توفي ببغداد سنة 241 ومشى في جنازته خلق كثير(23) .

وحـوالى القرن السـابع الهجـري ظهر المـذهب الحنبلي في مصـر ، ولكنه انتشـر بصورة أوسع بعد فترة قصيرة عندما تـولى القضاء عبـد الله بن محمد بن عبـد الملك الحجازي ، منـذ ذلك الوقت زاد انتشاره . قال ابن خلدون :

فأما أحمد بن حنبل فمقلده قليل لبعد مذهبه عن الاجتهاد وأصالته في معاضـدة الروايـة والأخبار بعضها ببعض ، وأكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها .

والقدماء كانوا يعتبرون أحمد بن حنبـل من أهل الحـديث وليس من الفقهاء . قـال عنه ابن جرير : أنه رجل حديث لا رجل فقـه . وكذلـك ابن قتيبة لم يـذكره في معـارفه في عـداد الفقهاء(24) .

والخلاصة أن المذهب الحنبلي كان أقل المذاهب انتشاراً ، واعتبر مقلدوه هذه القلة فخراً لهم ! ظهرت عظمته في بغداد حيث احتفظ متبعوه باتحاد وثيق ، وقد كونوا لهم قوة استطاعـوا بها إقلاق بال السلطة ، فتظاهروا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكانت صولتهم عظيمة ، فأوقعوا ما اشتهوا من التنكيل والأذى في سائر المذاهب التي خالفتهم . ولكن الحكومة ضيقت دائرة اتساع دعوتهم .

نال المذهب الحنبلي قوة انصار تدين لـدعوتـه في البلاد النجـدية بصـورة خاصـة . وقد ساعدته الظروف الزمنية على يد محمد بن عبد الوهاب مؤسس المذهب الوهـابي . حيث طغى هذا المذهب على المذهب الحنبلي الى حد ما .

ولا يخفى ما لابن تيمية وتلميذه ابن القيم الجوزية من الفضل في انتشار المذهب الحنبلي ونشاطه ، وهما في الحقيقة أصحاب دعوته وعنهما أخذ ابن الوهاب تعاليم مذهبه الجديد ، علماً أن معتنقي هـذا المذهب هم اليـوم أقل عـدداً بالنسبـة الى معتنقي المذاهب الأخـرى في العالم الاسلامي .

---

(23) راجع ترجمته في تاريخ بغداد ج 4 ص 412 .

(24) الامام الصادق والمذاهب الأربعة ج 1 ص 169 .

وما يجب التذكير به أن في عصر أحمد بن حنبل غصت المدن الاسلامية بعناصر مختلفة من أمم متباينة في العرق والدم والنزعات ، فقد ترجمت العلوم الفلسفية من اللغة السريانية واليونانية وغيرهما وامتزجت مدنيات وتلقحت أفكار وتصارعت حضارات .

ومن طبيعة العصر الذي تكثر فيه المنازعات وتضطرم باحتكاك المدنيات ، أن تظهر فيه آراء وأخلاق فيها بعض الانحراف والشذوذ الفكري والاجتماعي ، حتى أصبح الغريب هو المألوف ، ففي هذا الوسط كان أحمد بن حنبل وكان مذهبه .

محنة أحمد بن حنبل :

ظهرت محنة خلق القرآن في بداية القرن الثاني للهجرة وتبلورت وظهرت من طي الكتمان الى البروز في عهد المأمون . وبذلك وجد المعتزلة في المأمون تحقيق بغيتهم ، أصدر المأمون أمراً عاماً يأخذ الناس بهذه المحنة في كافة أرجاء البلاد الاسلامية . فسارع إسحق بن ابراهيم والي بغداد الى تنفيذ رغبة المأمون ، فأحضر المحدثين والفقهاء والمغنين ، وأنذرهم بالعقوبة الصارمة .

جاء في كتاب المأمون الرابع لعامله اسحاق يأمره بأن يستدعي بشر بن الوليد ، وابراهيم بن المهدي ، وأحمد بن حنبل ، وشحادة ، والقواريري ، ومحمد بن نوح ، جمعهم إسحاق وقرأ عليهم الكتاب ، فأصغى كافة الفقهاء في بادىء الأمر ثم شدوا بالحديد حتى اليوم التالي ، ولما أصبحوا أعاد امتحانهم ، فاعترف القواريري بخلق القرآن فأطلق سبيله ، وبعد يوم آخر أجاب شحادة فأطلقه . وبقي أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح . فقادهما الى بغداد موثوقين بالغلال ، وفي أثناء الطريق قرب الأنبار جاءهم نعي المأمون . فأما محمد بن نوح فقد مات وهو عائد الى بغداد ، ففك قيده وصلى عليه زميله أحمد بن حنبل ثم أطلق الله سبيله[25] . إلى أن جاء عهد المعتصم فاشتد كثيراً في امتحان الناس ، وكان أحمد سجيناً عنده . وبعد المناظرة مع فقهاء المعتصم أقر أحمد واعترف بأن القرآن مخلوق . وكان هذا الاعتراف في مناظرة طويلة ذكرها اليعقوبي[26] .

آثار أحمد بن حنبل :

لم يصنف أحمد بن حنبل كتاباً في الفقه يعد أصلاً يؤخذ منه مذهبه ، ولم يؤثر عنه إلا الحديث ، ومما يروى عنه أنه كان يكره أن تدون آراؤه في كتاب ، إذ يرى أن كتابة الرأي محدثة[27] . ومن آثاره البارزة المسند :

وهو مجموعة كبيرة من الأحاديث يشتمل على أربعين ألف حديث تكرر منها عشرة آلاف :

شرع أحمد بجمع المسند ، فكتبه في أوراق منفردة وفرقه في أجزاء متفرقة ، ولكن القدر

---

(25) الامام الصادق والمذاهب الأربعة ج 2 ص 457 .

(26) تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 198 .

(27) الطبقات لابن أبي يعلى ص 39 .

أدركه قبل أن ينقحه ويهذبه ، وبقي المسند على حاله حتى جمعه ابنه عبد الله فألحق به ما يشاكله ، وضم إليه من موسوعاته ما يشابهها .

وقد كثر الحديث عن المسند وجمعه وترتيبه . وحكم ابن الجوزي على عدة أحاديث منه بالوضع ، وقال الذهبي في سيرة النبلاء عن المسند : جملة من الأحاديث الضعيفة مما لا يسوغ نقلها ولا يجب الاحتجاج بها .

أما ابن تيمية فقد أكد أن عبد الله بن أحمد قد زاد على مسند أبيه زيادات كثيرة . كما زاد أيضاً أبو بكر القطيعي ، وفي زيادات القطيعي أحاديث كثيرة موضوعة فظن الجهال أنها من رواية أحمد ، رواها في المسند وهذا خطأ قبيح .

لذلك قام الحافظ بن جعفر وألف كتاباً سماه : القول المسدد في الذّب عن مسند أحمد . أجاب عنه حديثاً حديثاً ، ورتب مسند أحمد في المرتبة الثانية ، يعني بعد الصحاح وصرح الخطيب أن كتاب الموطأ مقدم عليه .

وقال ابن حزم : أولى الكتب الصحيحان ثم صحيح سعيد بن السكن ، والمنتقى لابن الجارود ، ثم بعد هذه الكتب كتاب أبي داود ، وكتاب النسائي ، ومصنف الطحاوي ومسانيد أحمد والبراز(28) .

أما أصول مذهبه فهي : الكتاب والسنة والاجماع والقياس . وكان كثير الأخذ بالسنة ، حتى أوثر عنه قوله : « ضعيف الحديث عندي أولى من رأي الرجال » ، وكثير الاتباع لآراء الصحابة حتى إذا كان لهم رأيان في المسألة الواحدة كان له فيها رأيان مثلهم . من هنا لم يعده بعض العلماء من الفقهاء ، والحق أنه امام مجتهد فقيه وإن كانت تغلب عليه صبغة الحديث .

5 ـ المذهب الجعفري :

الامام جعفر الصادق 83 هـ ـ 148 هـ ـ سمي بالجعفري نسبة الى الامام جعفر الصادق ، أبو عبد الله بن محمد الباقر ، بن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي بن أبي طالب . ولد بالمدينة المنورة يوم الاثنين 17 ربيع الأول سنة 83 هـ . ونشأ فيها تحت رعاية جده الامام زين العابدين قضى مع جده ومعلمه ما يقارب 18 سنة من عمره وبعد وفاة جده سنة 94 هـ . تولى أبوه الباقر تربيته ، وكان الامام الصادق مقدماً عند أبيه حيث كان من طليعة تلامذته في مدرسته بالمدينة . بقي مع أبيه بعد جده تسع عشرة سنة . ولما توفي أبوه الباقر 114 هـ . تفرد بالزعامة ، وقام بأعباء الامامة بوصية من أبيه والتي دامت 34 سنة .

وصف الامام جعفر بالصادق لأنه عرف بصدق الحديث والقول والعمل حتى أصبح حديث الناس في عصره . قال فيه ابن الحجاج :

يا سيداً أروي أحاديثه رواية المستبصر الحاذق
كأنني أروي حديث النبي محمد عن جعفر الصادق

(28) قواعد التحديث للقاسمي ص 237 .

لقد كان يطلب الحق للحق لا يبتغي عنه بديلاً ولا تلتبس عليه الأمور ، وكأن النبي ﷺ عناه بقوله : إن الله يحب ذا البصر النافذ عند ورود الشبهات ، ويحب ذا العقل الكامل عند حلول الشهوات .

قال فيه مالك بن أنس : ما رأت عين ولا سمعت أذن ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر بن محمد الصادق علماً وورعاً وعبادة .

وقال فيه أبو حنيفة : ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد ، لقد قال لي المنصور : إن الناس قد افتتنوا بجعفر بن محمد فهيىء له من المسائل الشداد وأسأله عنها فهيأت له أربعين مسألة . فقال لي المنصور : يا أبا حنيفة ألقِ على أبي عبد الله مسائلك فجعلت ألقي عليه مسألة مسألة وهو يقول في جوابها : أنتم تقولون كذا ، وأهل المدينة يقولون كذا ونحن نقول كذا حتى أتيت على الأربعين مسألة ما أخل منها بمسألة واحدة وبعد المناظرة قال أبو حنيفة : أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس . عندها أحس المنصور بالخيبة وتبددت آماله لأنه كان يتمنى أن يتوقف الامام الصادق ولو بمسألة واحدة .

وقال الشهرستاني في الملل والنحل : كان أبو عبد الله الصادق ذا علم غزير في الدين ، وأدب كامل في الحكمة ، وزهد في الدنيا ، وورع تام عن الشهوات . . .

وقال فيه عبد الله بن المبارك :

أنت يا جعفر فوق المدح والمدح عناء
انما الاشراف أرض ولهم أنت سماء
جاز حد المدح من قد ولدته الأنبياء

معاصرته للحكم الأموي :

أدرك الامام الصادق طرفاً كبيراً من العهد الأموي ، وعاصر كثيراً من خلفائهم ، فقد ولد في عهد عبد الملك بن مروان مدركاً من خلافته ثلاث سنين من سنة 83 هـ . الى سنة 86 هـ .

وجاء بعده الوليد بن عبد الملك سنة 86 وتوفي سنة 96 هـ . ثم ملك أخوه سليمان بن عبد الملك وتوفى سنة 99 هـ . ثم ملك بعده عمر بن عبد العزيز بن مروان المتوفى سنة 101 هـ . وملك بعده هشام بن عبد الملك المتوفى سنة 125 هـ . وجاء بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك المتوفى في سنة 126 هـ . ثم جاء مروان الحمار بن محمد بن مروان بن الحكم وكان آخر خلفاء بني أمية قتل سنة 132 هـ . وبذلك انتهى حكم بني أمية بالحروب والثورات الدامية .

كانت هذه المدة التي لا تقل عن ثمانية وأربعين سنة قضاها الامام الصادق في الحكم الأموي المليء بالأحداث الأليمة التي نكدت عليه عيشه لما شهد فيها من أنواع الظلم وضروب المحن . تراكمت المصائب على أهل البيت وتوالت عليهم الحوادث ، من قتل وتشريد ومراقبة شديدة في تحركاتهم ومنع الاتصال بهم .

أما بقية حياته التي قضاها في العهد العباسي وهي من سنة 132 هـ . الى سنة 148 هـ . سنة وفاته . رفعت الرقابة المشددة عن أهل البيت الى حد ما حتى جاء المنصور وتشدد في معاملته للامام الصادق وعامله بقسوة لا مزيد عليها ، حتى اغتاله بالسم في الخامس والعشرين من شهر شوال 148 هـ .

والخلاصة أن الامام الصادق عاش هذه المدة في وسط معترك سياسي وفكري ، فقام بواجبه الاصلاحي دون أن يخضع للسلطات الجائرة ، أو يتخلى عن المسؤولية في أداء الرسالة الاسلامية الحقة ، فسلك منهج آبائه في محاربة الظالمين ، متسلحاً بالايمان بالله ، متحملاً الأذى في سبيل الدعوة الى الله .

مدرسة الامام الصادق :

كانت الفترة التي عاشها الامام الصادق فترة محنة تمر بها الأمة ، فالحكم الأموي الجائر ابتعد عن الأحكام العادلة والاسلام الصحيح . ودولة بني العباس التي لبست لباس الدين ظاهراً لم يكن حكامها أقرب الى الخط الصحيح الذي رسمه رسول الاسلام أكثر من الحكام الأمويين ، وكان البيت العلوي محط انظار الأمة وآمالها للحض على التمسك بأحكام القرآن وتنوير الرأي العام ومداواة النفوس من الأمراض الاجتماعية .

كان طابع المدرسة الجعفرية ومنهجها الذي اختصت به ، من بين المدارس الاسلامية هو استقلالها الروحي ، وعدم خضوعها لنظام السلطة ، فلم تفسح المجال لولاة الأمر من التدخل في شؤونها . ولم تمكنهم من أن يكون لهم يد في توجيهها ، ولذلك لم يتسنّ لذوي السلطة من استخدامها كغيرها ، في مصالحهم الخاصة مهما بذلوا من جهد وحيل . وقد حاول المنصور أن يستميل الامام الصادق ليسير في ركاب الدولة عدة مرات ، ولكن محاولاته باءت بالفشل . من هذه المحاولات نذكر :

إن المنصور كتب اليه قائلاً : لولا تغشانا كما تغشانا سائر الناس .

فأجابه الامام الصادق :

ما عندنا من الدنيا ما نخافك عليه ، ولا عندك من الآخرة ما نرجوك له ، ولا أنت في نعمة فنهنيك عليها ، ولا نعدها نقمة فنعزيك بها فلم نغشاك ؟! ومرة أخرى عاود المنصور الى كتابته ثانية : تصحبنا لتنصحنا . فأجابه الامام : من أراد الدنيا فلا ينصحك ، ومن أراد الآخرة فلا يصحبك . وبهذا يتجلى موقف الامام الصادق من حكام عصره جميعهم .

لم يحصل بين مدرسة الصادق وبين حكام عصره أي انسجام ، فالنزاع بينها وبين الدولة كان على أشده ، فلا الدولة تستطيع التنازل لمنهج المدرسة الذي ارتبط بالثقلين : كتاب الله وعترة رسوله ، فتكسب ودها وتساندها في حكمها ، ولا المدرسة في إمكانها أن تتنازل لإرادة الدولة فتؤازرها وتسير في ركابها . وكيف يكون ذلك ؟! والمدرسة الصادقية التي وضع حجرها الرسول الكريم وعمل على تنميتها الأئمة المعصومون من بعده ﷺ حتى جاء دور جعفر الصادق الذي سار على الخط المرسوم أمامه . فليس من شأنه السكوت عن الظلم ومسايرة الظالمين ، لأن مذهبه اتخذ القرآن دستوره والسنة الشريفة طريقه . والقرآن الكريم ينهى عن

معاونة الظالمين والركون إليهم . قال تعالى : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون ﴾(29) .

هذا ما سبب الصراع العنيف بين المدرسة والدولة ، الأمر الذي جعلها عرضة للخطر ، ولكنها رغم ذلك صمدت لتلك الهجمات وتحملت عسف الظالمين ، فواصلت كفاحها في الدعوة الى الحق والعدل والمساواة والخير والأخوة الاسلامية ومحاربة أهل الأهواء والبدع والضلالات . يتضح ذلك من زعماء هذه المدرسة وسيرتهم العادلة واهتمامهم البالغ بتوجيه الأمة نحو الدين الحق الذي يتكفل لهم بالسعادة الدائمة ويدعوهم الى الأهداف النبيلة والغايات الشريفة والمثل العليا .

نشأة المدرسة الجعفرية :

وضع الحجر الأساسي للمدرسة الجعفرية وغرس بذرتها النبي ﷺ فهو الذي وضع منهاجها ونظامها وحث الناس الى الدخول فيها . فقال : « اني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً »(30) .

جاء في كتب التفسير أن الثقل ضد الخفة والثقل متاع المسافر وحشمته وكل شيء نفيس عنده . وقالوا : جعلهما ثقيلين لأن الأخذ بهما ثقيل والعمل بهما أثقل . وجاء في اللسان ، واصل الثقل أن العرب تقول لكل شيء نفيس مصون خطير فسماهما ثقلين إعظاماً لقدرهما وتفخيماً لشأنهما ، ويقال للسيد العزيز : ثقيل .

والعترة : عن ثعلب عرابي الأعرابي : ولد الرجل وذريته وعقبه من صلبه ولا تعرف بغير هذا .

فالمدرسة الجعفرية كانت في عهد صاحب الرسالة وكان رئيسها الأول : الامام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وهو الذي رافق الرسول وأخذ عنه العلم وتلقى عنه التشريع العملي . فالرسول معلم علي ومتولي تربيته ونشأته ، وقد عوّل ﷺ عليه في جميع شؤونه .

وتولى رئاسة المدرسة بعد علي إبنه الحسن ، ولكن الظروف القاسية في عهد معاوية لم تسمح للمدرسة أن تتقدم على الوجه المطلوب .

وجاء دور الحسين بن علي (ع) وهو أعظم الأدوار وأهمها ، تابع معاوية في بطشه وغيه وانحرافه عن الخط الاسلامي الصحيح فحرّف الكلم عن مواضعه ممهداً الأمر لابنه يزيد الفاسق المستهتر . لم يجد الحسين طريقاً للسكوت ، فنهض منتصراً للحق ، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، وقد أعطى دروس التضحية والتفاني في سبيل انقاذ الأمة ، حتى باتت منهجاً اصلاحياً للثورات التي أتت من بعده . إنه شعلة الحق في وجه الظلم والطغيان .

---

(29) سورة هود الآية 113 .

(30) هذا الحديث الشريف بين مقاصده كثير من العلماء وألفوا فيه رسائل . ذكر في صحيح مسلم ج 7 ص 122 وسنن الترمذي ج 2 ص 308 وسند أحمد ج 2 ص 17 وتفسير ابن كثير ج 3 ص 486 .

ومن بعده انتقلت الرئاسة الى ابنه الامام علي زين العابدين (ع) أروع أهل زمانه وأتقاهم وأعلمهم . وقد اشتدت الرقابة عليه من قبل الأمويين ومع ذلك تابعت المدرسة سيرها وكفاحها ، وخرجت عدداً وافراً من علماء الأمة الأعلام .

وكذلك كان عهد ولده الامام الباقر ، ولكن ما أن دب الضعف في جسم الدولة الأموية ، حتى بعث النشاط في مدرسة أهل البيت ، فقام الامام الباقر بإحياء السنة ، وكانت حلقة درسه في مسجد النبي ﷺ .

ولما جاء عصر الامام الصادق اتسعت فيه الحركة العلمية ، وأصبحت مدرسة جامعة اسلامية كبرى ، تشد الرجال وتقصدها البعثات من سائر الأقطار الاسلامية ، ولم يحفظ لنا التاريخ أن سئل عن شيء ولم يفد عنه . بل كان المتفوق على كل من ناظره وقد اشتهر عنه أنه قال : سلوني قبل أن تفقدوني فإنه لا يحدثكم أحد بمثل حديثي »[31] .

والامام الصادق يروي عن أبيه الباقر عن أبيه زين العابدين عن الحسين بن علي عن علي بن أبي طالب . وهذا الاسناد هو المعروف بالسلسلة الذهبية وهو أصح الأسانيد وأقواها[32] .

من حكم الصادق الخالدة : أفضل الملوك من أعطى ثلاث خصال : الرأفة والجود ، والعدل ، وليس يُحب للملوك أن يفرطوا (أي يقصروا) في ثلاث : في حفظ الثغور ، وتفقد المظالم ، واختيار الصالحين لأعمالهم .

- إحذر من الناس ثلاثة : الخائن ، والظلوم والنمام . لأن من خان لك خانك ، ومن ظلم لك سيظلمك ، ومن نمّ إليك سينم عليك .
- خذ من حسن الظن بطرف تروج به وتروح به قلبك .
- من ظهر غضبه ظهر كيده ، ومن قوي هواه ضعف عزمه ، ومن أنصف من نفسه رضي حكماً لغيره .
- العجب يكلم المحاسن ، والحسد للصديق من سقم المودة ، ولن تمنع الناس من عرضك إلا بما تنشر عليهم من فضلك .
- العز أن تذل للحق إذا ألزمك .
- إن خير ما ورَّث الآباء لابنائهم الأدب لا المال ، فإن المال يذهب والأدب يبقى .
- ومن وصيته للمفضل بن عمر قال عليه السلام : أداء الأمانة إلى من ائتمنك ، وان ترضى لأخيك ما ترضى لنفسك . واعلم أن للأمور أواخر فاحذر العواقب وان للامور بغتات فكن على حذر ، وإياك ومرتقى جبل إذا كان المنحدر وعراً ، ولا تعدن أخاك ما ليس في يدك وفاؤه .

---

(31) تذكرة الحفاظ ج 2 ص 157 .

(32) معرفة علوم الحديث ص 55 .

ـ ومن حكمه : العلم جُنّة[33] ، والصدق عز . والجهل ذل . وحسن الخلق مجلبة للمودة والعالم في زمانه لا تهجم عليه اللوابس . والحزم مشكاة الظن . والله ولي من عرفه . والعاقل عفور والجاهل ختور . وإن شئت أن تكرم فلن . وإن شئت أن تهان فاخشن . من كرم أصله لان قلبه . ومن خشن عنصره غلظ كبده . ومن فرَّط تورَّط . ومن خاف العاقبة تثبت فيما لا يعلم . ومن هجم على أمر من غير علم جدع أنف نفسه .

وقد طلب منه سفيان الثوري أن يتزود ببعض حكمه فقال : أوصني يا ابن رسول الله ، فقال الصادق :

يا سفيان إذا جاءك ما تحب فأكثر من الحمد لله وإذا جاءك ما تكره فأكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله ، وإذا استبطأت الرزق فأكثر من الاستغفار.

يا سفيان لا مروءة لكذوب ولا أخ لملول ولا راحة لحسود ولا سؤدد لسيء الخلق .

فقال سفيان : يا ابن رسول الله زدني :

يا سفيان ثق بالله تكن مؤمناً وارض بما قسم الله تكن غنياً وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً ، ولا تصحب الفاجر فيعلمك من فجوره وشاور في أمرك الذين يخشون الله .

يا سفيان من أراد عزاً بلا عشيرة وغنى بلا مال وهيبة بلا سلطان فلينتقل من ذل معصية الله الى عز طاعته . وإذا أنعم الله عليك بنعمة واحببت بقاءها فأكثر من الحمد والشكر عليها، فإن الله عز وجل قال : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ وإذا استبطأت الرزق فأكثر من الاستغفار فإن الله يقول في كتابه العزيز: ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ﴾ .

إنتشار المذهب الجعفري

انتشر المذهب الجعفري في الأقطار الاسلامية بمقوماته وقوته بعيداً عن عوامل الترغيب في اعتناقه ، وبدون مساندة الدولة كغيره من المذاهب الأخرى . وأول ظهور الشيعة كان في الحجاز وفي المدينة المنورة ، مهد الدولة الاسلامية الأولى . وفي القرن الرابع الهجري انتشر بصورة ظاهرة كما انتشر في بلاد الشام بفضل الصحابي العظيم أبي ذر الغفاري الذي نشر المذهب هناك ولا يزال له مقام معروف باسمه بين صيدا وصور في قرية الصرفند ، اتخذ مسجداً معموراً . وقد نجح من رجال الشيعة رجال أعلام شغلوا مناصب مهمة في حكومة سوريا ، منهم الأطباء والعلماء والتجار الكبار ، وتقام عندهم مآتم عزاء الحسين عليه السلام علناً في عاصمة الأمويين ، ويحضرها الكثير من أهل السنة والخطيب يفضح مخازي معاوية وفضائح يزيد وحكام بني أمية الذين انحرفوا عن خط الرسالة الاسلامية الصحيحة .

يقول ابن جبير في وصفه المذاهب المتغلبة في بلاد الشام خلال القرن السادس : أن الشيعة أكثر من السنيين وقد عموا البلاد بمذهبهم .

---

(33) راجع الامام الصادق والمذاهب الأربعة ج 3 ص 136 .
والجُنّة : الستر وهنا : السلاح الواقي . ختور : خبيث وفاسد .

ويقول محمد كردعلي : وفي دمشق يرجع عهد الشيعة الى القرن الأول للهجرة وفي أكناف حوران وهم مهاجرة جبل عامل ، وفي شمال لبنان والمتن والبترون وهم مهاجرة بعلبك ، ولا يقل عدد الشيعة في الشام من الامامية عن مئتي ألف نسمة[34] .

أما جبل عامل فقد كان بدء التشيع فيه بفضل الجهود التي بذلها المجاهد أبو ذر الغفاري ، وقد تخرج من ذلك الجبل عدد كبير من جهابذة العلم والمجتهدين وحملة دعوة الاصلاح .

وقد لاقى الشيعة نكبات فظيعة كادت تقضي عليهم نذكر منها تلك الكارثة التي ذكرها ابن الأثير عندما أفتى الشيخ نوح الحنفي بكفر الشيعة واستباحة دمائهم . فقتل بسبب هذه الفتوى أربعون ألفاً من الشيعة وانتهبت أموالهم وأخرج الباقون إلى القرى .

وغلب مذهب التشيع في حلب بصورة ظاهرة وأصبح لهم قوة فاعلة هناك . وسرى التشيع في افريقيا سرياناً عظيماً إلى أن قاومته السلطة يوم كان أمير افريقيا المعز بن باديس الذي فتك بالشيعة فتكاً ذريعاً وأوقع بهم وقيعة عظيمة فنهبت دورهم واحرقوا بالنار وتتبعهم فرداً فرداً ، ولجأ منهم بالمدينة الى الجامع (في القيروان) فقتلوا كلهم[35] .

وهذه إحدى النكبات التي لاقاها التشيع وما أكثرها . ومع ذلك كله فإن التشيع منتشر في افريقيا الجنوبية والوسطى زهاء عشرة ملايين نسمة . وفي أندونيسيا عدد كثير من الشيعة يقدر بثمانية ملايين نسمة . وفي مصر انتشر التشيع عند انتشار الاسلام هناك بواسطة المقداد وأبو ذر الغفاري وأبو أيوب الأنصاري وعمار بن ياسر وقيس بن سعد إلى أن وليها عمرو بن العاص تأخر سير تلك الحركة حتى زالت دولة الأمويين ولا زال يظهر التشيع ويخفى حسب العوامل التي تدعو الى ظهوره وإخفائه .

كما ظهر التشيع في الهند وتركيا والعراق واليمن وروسيا والأفغان وما نحب الالتفات إليه أن تاريخ الشيعة لم يدرس الدراسة الكافية التي ترفع الغموض عن مبادئهم إذ المصادر التي يستمد منها المعلومات عن الشيعة مضطربة لأنها لم تسلم من سيطرة التعصب الأعمى والتحيز الممقوت .

---

(34) خطط الشام لمحمد كردعلي ج 6 ص 252 .

(35) الكامل لابن الأثير ج 9 ص 123 .

الفصل الرابع
بذور الخلاف ونشأة الفرق

إذا استنطقنا تاريخ المجتمعات الانسانية وجدنا أن الخلاف طبيعي بينها ، ولا سيما أتباع الملل، والأمة الاسلامية مرت كغيرها من الأمم بمراحل من النزاع وفترات من الخلاف يمت أكثرها إلى أسباب شخصية وحزبية .

من هذه الخلافات ما حدث أثناء مرض الرسول ﷺ حيث أخذوا يفكرون بأن الأمة الاسلامية ستخلو من هذه الشخصية الفريدة ، فمن سيخلفها ؟ وهل يستطيعون سد الفراغ ؟

كتاب النبي في مرض موته :

بعد أن عاد الرسول ﷺ من الحج الى المدينة ، مرض ثلاثة أيام ، ولما اشتد عليه المرض أراد أن يكتب للمسلمين كتاباً .

ورد عند الشهرستاني عن البخاري أنه قال : « فأول تنازع وقع في مرضه ﷺ رواه البخاري «لما اشتد بالنبي ﷺ مرضه الذي مات فيه قال : « إيتوني بقرطاس ودواة أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعدي » فقال عمر رضي الله عنه : إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع ، حسبنا كتاب الله . عندها كثر اللغط فقال النبي ﷺ : « قوموا عني ، لا ينبغي عندي التنازع » فقال ابن عباس ، وهو حبر الأمة الاسلامية «الرزية كل الرزية ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله »[1] ولم يأتوا بقرطاس ودواة ، فما أدراهم أن هذه الوصايا التي يريد كتابتها ، سياسية أم أخلاقية ؟ وكل ما في الأمر أنه ﷺ يريد أن يحصّنهم بأقواله الأخيرة من النزاع والخلاف . فكان من المفروض أن يلبوا طلبه ويطيعوا الله والرسول ﷺ عملاً بالآية الكريمة ، وعليهم أن يستنتجوا من ذكره هذا الكتاب أشياء غير الجوانب التشريعية التي ما انفك القرآن يتنزل بها حتى آخر لحظة من حياة النبي عليه السلام ؛ ذلك الكتاب الذي سيحتوي مسائل هامة جداً تتعلق بتصرفهم في مجتمعهم ومجالات حياتهم . لقد رأى الرسول ﷺ أن منيته قد دنت ، فأراد ألّا يفسح المجال أمام المسلمين كي يتنازعوا بالقرآن على القرآن ، وبالسنة على السنة ، فيتفرقوا وتذهب ريحهم . لذلك ودَّ لو يضع لهم خطة عمل دائمة يتمسكون بها وكأنهم

(1) راجع الملل والنحل ج 1 ص 13 -14 والسيرة النبوية لابن هشام ج 2 ص 604 .

يتمسكون بأمر الله عزّ وجل ، فيحفظهم ويعلو شأنهم ويكونوا كما أرادهم ، جل شأنه ، خير أمة أخرجت للناس .

ولا بد لنا من الاعتراف بأنه لم يكن من المنتظر أن يقف بين الصحابة مثل عمر ليقول ما قال ، ولا من المتوقع إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يختار المؤمنون غير ما يختاره المعصوم !

هذه أول بادرة من بوادر النزاع ، أما ثانيتها فهي :

تجهيز جيش أسامة بن زيد

بعد رجوع النبي ﷺ من حجة الوداع عقد لاسامة بن زيد بيده الشريفة لواء جيش حشر فيه وجوه المهاجرين والأنصار ، والرسول عندئذٍ يعاني من مرضه قال لصحابته مؤكداً عليهم « جهزوا جيش أسامة ، لعن الله من تخلف عنه » قال الدكتور الشيخ صبحي الصالح : « وكأن الرسول عليه السلام كان يستشف حجب الغيب ويدرك ما يكون من أمر المسلمين لو تهاونوا في مثل هذا الأمر الخطير فهو أمر تترتب عليه نتائج حاسمة في علاقات المسلمين بالدول الأجنبية ، لذلك لم يستنكف أن يستخدم عبارة اللعن »[2] .

ولكن هل استجاب المسلمون لنداء الرسول الأكرم ؟ لقد طعن قوم في تأمير أسامة على الجيش وفيه عيون الناس وقادتهم ، مدلين بحجج واهية بعيدة عن المنطق . منها : أن أسامة كان شاباً حدث السن وهل يعقل أن ينضوي تحت لوائه كبار القوم ، النافذون في قبائلهم ؟

ومنها : ان النبي في مرض شديد ولا يحسن مفارقته وهو على تلك الحالة : « فلا تسع قلوبنا مفارقته والحالة هذه ، فنصبر حتى نبصر أي شيء يكون من أمره »[3] ولما بلغ النبي طعنهم وتأخيرهم ، غضب غضباً شديداً ، وخرج وهو محموم حتى أتى المسجد فقال : « يا أيها الناس ما مقالة ما بلغني عن بعضكم في تأميري أسامة ، ولئن طعنتم في تأميري أسامة ، لقد طعنتم في تأميري أباه من قبله ، وأيم الله إن كان لخليقاً بالامارة ، وإن ابنه من بعده لخليق بها »[4] وهنا لا بد لنا من التساؤل ، لماذا هذا الالحاح من النبي ﷺ على وجوب إرسال جيش أسامة بعد أن حشد فيه أعيان المسلمين ، وقادة الجماهير علماً أن الحكمة ، في ظاهر الأمر ، تقضي بإبقاء هؤلاء الاعلام في المدينة ليذودوا عنها الخطر بعد وفاته ، لأنها كانت عاصمة ملكه وعنوان الاسلام ؟ ومع ذلك أصر عليه السلام على إنفاذ جيش أسامة .

نستنتج من ذلك أمور عدة منها :

إننا نرى في ذلك تدبيراً حكيماً من النبي ﷺ يريد من خلاله إفساح المجال للخليفة الحقيقي ليتولى الأمر دون أي معارضة تضعف شأن الاسلام ، حتى إذا تم له الأمر ، يرى الطامح نفسه أمام أمر واقع فيسلم للأمر ويذعن لواقع الحال .

وأمر آخر يستوقفنا لأول وهلة ، وهو كيف تصرف النبي ﷺ في تأمير شاب حدث السن

---

(2) نظم اسلامية ص 79 .

(3) الملل والنحل للشهرستاني ج 1 ص 14 .

(4) راجع تاريخ الطبري .

لم يبل الحرب ولم يعرف أسرارها وأبعادها ، على جيش حشر فيه أقطاب الناس وقادة الجماهير، فلم فعل ذلك ؟

وما نراه أن النبي ﷺ لم يخرج عن قاعدته في اتباع الكفاءة الشخصية في جميع أطوار حياته ، تلك القاعدة التي ما زالت مثلاً أعلى يحتذى في كل زمان ومكان . فصغر السن وكبره ليسا مقياساً للإمارة والقيادة ، لذلك وجدناه قد غضب عندما علم بتخاذل القوم فقال : « وإنه لخليق بالإمارة » فكفاءته هي التي ساقت الامارة إليه ، ولو كان في المسلمين من هم أخلق بها منه في ذلك الظرف لما تقدمه أسامة أبداً .

ونقطة هامة أخرى ، وهي بعد أن ألح بتجهيز جيش أسامة أمر علياً بالبقاء بالقرب منه ليتمكن من تنفيذ الخطة التي رسمها . وليس هذا فحسب فهو يستهدف ﷺ أمراً آخر من تأمير أسامة على الجيش ، فهو عندما يطبق قاعدة الكفاءة التي نادى بها فكأنه يهيء نفوس المسلمين لتقبل حكم علي بن أبي طالب حين يتسلم مقاليد الحكم بعده ، لأن علياً كان أيضاًصغير السن بالنسبة الى كثير من الصحابة ، هذا هو التفسير الذي يفسر به الشيعة بعث أسامة . قال العلامة الشيخ محمد مهدي شمس الدين :

« ولكن يبدو أن هؤلاء الذين أراد النبي أن يزّج بهم في هذا الجيش أدركوا ما يستهدف النبي من ورائه ، فتخاذلوا عن الذهاب وانتحلوا أعذاراً لا تبرر ما أتوه من المخالفة لأمر النبي الصريح ، الذي لا يقبل التأويل . فبعد أن رد النبي على قولهم بصغر سن أسامة ، راحوا يعرقلون سير الجيش بشتى الوسائل والاشاعات ، حتى نجحوا وأبطلوا تدبير النبي »(5) .

ورب قائل يقول : إن هذا التصرف لم يكن من الحكمة في شيء ، فلو أن النبي توفى والجيش بعيد عن المدينة ، لهوجمت من قبل الأعراب والمرتدين الذين كانوا ينتظرون الفرصة المناسبة لذلك ، فلعل هؤلاء الذين تقاعسوا عن السير وعرقلوا البعث أرادوا الخير للاسلام والمسلمين بإبقاء الجيش في عاصمة الاسلام ، يذود عنها عادية العادين . قال الدكتور صبحي الصالح في هذا المجال : « فلا ضير فيما قالته الفئة المتخلفة ، لأنها لم تكن تمانع في طاعة النبي وامتثال أمره ، بل كانت تعتقد أن مرضه لم يكن يسمح لها بأن تفارقه ، فانتظرت وارتقبت الحوادث حتى تعرف كيف تنجلي هذه الغيمة ، لعل الرسول عليه الصلاة والسلام في قوة شوكته وعافيته يأمرهم بغير هذا الأمر »(6) ولكنه استدرك بعد ذلك فقال :

« ولكن مجرد إقدامهم على التخلف يعد دون شك ثغرة من الثغرات لا ندري من أي مكان أُتوها »(7) .

أما ابن الأثير فيقول في تاريخه فيما يعود إلى هذه النقطة :

---

(5) نظام الحكم والإدارة في الاسلام ص 220 .

(6) النظم الاسلامية للدكتور الشيخ صبحي الصالح .

(7) المصدر نفسه ص 80 .

« فقد جهل هؤلاء ـ الذين برروا تخلفهم بـالاشفاق عـلى النبي ـ أن أبا بكـر رضي الله عنه لما تم له أمر الخلافة ، وجه أسامة إلى حيث وجهه النبي ﷺ وترك المدينة خالية من حامية تدافع عنها عند الحـاجة ، وقـال : والذي نفسي بيـده لو ظننت أن السبـاع تخطفني لانفـذت جيش أسامة كما أمر النبي »(8) .

ويعلق الشيخ محمد مهدي شمس الدين على هذا التخلف قائلاً : « فلمـاذا لم يمنع أبـو بكر أسامة عن السير ، وهو واحد ممن تخلفـوا عن الجيش في حياة النبي ؟ ومـا نريـد بيانـه في نهايـة هذا الخـلاف أن النبي ﷺ كان عـالماً بـدنو أجله ، وهـذه الحقيقة تـرتبط ارتباطـاً وثيقـاً بالحادث التاريخي : تجهيز جيش أسامة بن زيد . بعد تحليلنا لهذه الاختلافات قبيل وفاة الرسول ﷺ نرى أنها نزعات انسانية فطرية لم يتيسر لهـا أن تشكل فـرقاً أو شيعـاً أو مذاهب فقهيـة أو كلامية ، كما لم يتح لها أن تكون أحزاباً سياسية . فالمسلمون بوجود النبي ﷺ كانوا يدينون له بالطاعة المطلقة ، ويتلقون ما يأمرهم به وما ينهاهم عنه بالقبول والاذعان ، لأنه عليه الصـلاة والسلام بتعليماته وتصرفاته قضى على عصبية الجاهلية الرعناء ، وكان يدعو دائماً الى المؤاخـاة بين الناس والمحبة والوئـام ، كما كـان يؤكد بـالقول والعمـل على الكفـاءة العلمية ، والمهـارة الشخصيـة ولكن بعد أن زالت تلك الهـالة المنيـرة التي كانت تحيط بقلب كـل مؤمن في حياة الرسول ﷺ ، أتيح لتلك النزعات الفطرية والاختلافات الشخصية أن تجد طريقهـا للتعصب المـذموم . وكـانت أولى المسائـل التي اشتجرت فيهـا آراء قادة الـرأي في المسلمين هي مسـألة الخلافة . وهي التي سببت ظهور الأحزاب الاسلامية التي منها الفرق الاسلامية .

وأول حركة سياسية ظهرت بعد وفـاة النبي هي مبادرة الأنصـار من الأوس والخزرج ، يوم توفي النبي ، إلى عقد اجتماع في سقيفة بني ساعدة .

اجتماع السقيفة

بعد أن تأكـد الأنصار أن أكـثر المهاجـرين قد اجتمعـوا على إبعـاد علي عن الخـلافة ، أرادوا أن يبرزوا كطرف آخـر لأنهم لا يرون فضـلاً وميزة لأحـد من الناس عليهم سـوى علي (ع) ، لـذلك اجتمعـوا في سقيفة بني سـاعدة لاختيـار سعد بن عبـادة الأنصاري ، زعيمهم وسيـدهم المعروف بينهم . وإنـا نرى أن مـوقفهم في السقيفة كـان رداً على مـوقف المهاجـرين واتفاقهم على إبعاد علي عنها .

يؤيد ذلك ما جاء في شرح النهج من رواية الزبـير بن بكار فقـال : لما كـان آخر النهـار اجتمع قوم من الأنصار وتعاقبوا فيما بينهم ، فقال عبد الـرحمن بن عوف : يـا معشر الأنصـار إنكم وإن كنتم أولي فضل ونصـر وسابقة ، ولكن ليس فيكم كأبي بكر وعمر وعلي وأبي عبيـدة فقال زيد بن الأرقم : إنـا لا ننكر فضـل من ذكرت يـا عبد الـرحمن ، وان لمنا سيـد الأنصار سعد بن عبادة ، ومن أمر الله ورسوله أن يقرأه السلام ، وأن يأخـذ عنه القـرآن ، وإنا لنعلم أن بين من سميت من قريش من لـو طلب هذا الأمـر لا ينازعـه فيه أحـد ، وهو عـلي بن أبي

---

(8) راجع تاريخ ابن الأثير .

طالب ومجمل القول كما يروي ابن هشام عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب ، انه قال : لما توفي رسول الله خالفنا الأنصار واجتمعوا مع أشرافهم في سقيفة بني ساعدة ، وكان قد تخلف عنا علي بن أبي طالب والزبير بن العوام ومن معهما ، واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر ، فقال عمر لأبي بكر إنطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء الأنصار ، فانطلقنا نؤمهم حتى لقينا منهم رجلان صالحان ، فذكرا لنا ما تمالأ عليه القوم ، وهما معن بن عدي وعويم بن ساعدة(9) . ولما جلس الجميع تشهد خطيب الأنصار وأثنى على الله بما هو أهله ثم قال :

أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الاسلام ، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا ، وقد دفت دافة من قومكم(10) وإذا هم يريدون أن يجتازونا من أصلنا ويغصبونا الأمر . عندها قام أبو بكر مخاطباً :

إن ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل ، ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش هم أوسط العرب نسباً وداراً ، وقد رضينا لكم أحد الرجلين ، فبايعوا أيهما شئتم ، وأخذ بيد عمر ويد أبي عبيدة بن الجراح . فقال قائل من الأنصار .

أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش ، فكثر اللغط وارتفعت الأصوات حتى تخوفت الاختلاف ، فقال عمر أبسط يدك يا أبا بكر فبسط يده فبايعه ثم بايعه المهاجرون ، وبايعه الأنصار(11) وبعد أن ظهر التفكك بين الأنصار إثر خطاب أبي بكر الذي ذكرهم بالخلافات القديمة بينهم ، قال للناس : بايعوا أحد الرجلين عمر بن الخطاب أو أبا عبيدة . عندها انتفض الاثنان معاً وقالا بلسان واحد : معاذ الله ، والله لأنت أفضل المهاجرين وخليفة رسول الله على الصلاة : أبسط يدك فبسطها دون تردد وبايعاه ، وبالطبع كانت الأوس تكره استخلاف سعد ، الخزرجي ، وتود أن يتولاها غيره ، فلما بايعه عمر وأبو عبيدة وبشير بن سعد ، دعا أسيد بن حظير قومه من الأوس أن يسرعوا إلى البيعة لتكون لهم اليد الأولى عند الخليفة ، فأسرعوا جميعاً وتسابق الناس إلى بيعته حتى كادوا أن يطأوا سعداً ، سيد الخزرج ، بأرجلهم . وانتهت البيعة إلى أبي بكر وعلي بن أبي طالب وبنو هاشم وجماعة من المهاجرين وبعض الأنصار ، لا يعلمون بكل ما جرى ، لانصرافهم الى تجهيز الرسول ﷺ ، إلى مثواه الأخير(12) . ومجمل الحديث عن سقيفة بني ساعدة وما انتهت إليه كما نصت الروايات من شرح النهج ، ورواية الواقدي ، وما أورده ابن هشام في سيرته ، عدة أمور :

- إن الأنصار كانوا ملتزمين من جانبهم بحق علي لولا المعارضة ، وبعد أن طلبها غيرهم وجدوا أنفسهم أحق بها من أولئك الذين أرادوها لأنفسهم .

---

(9) وكانا من المتحمسين لأبي بكر كما جاء في شرح النهج عن الواقدي .

(10) الدافة هم قوم يسيرون سيراً معقولاً وفي ذلك دلالة على أن حركة الأنصار كانت رداً على تكتل جماعة من المهاجرين واتفاقهم على الاستيلاء على السلطة .

(11) راجع شرح النهج ج 1 ص 128 وتاريخ ابن خلدون .

(12) راجع سيرة المصطفى للسيد هاشم معروف الحسني .

ـ ان دخول أبي بكر وعمر وأبي عبيدة إلى السقيفة وقول أبي بكر بايعوا أحد الرجلين ، وإسراع عمر إلى بيعته ، والنبي لم يدفن بعد ، كل ذلك يكشف عن أنهم كانوا على إتفاق سابق بينهم على أن يتداولوها ثلاثتهم متعاقبين : أبو بكر ـ عمر ـ أبو عبيدة . يشير إلى ذلك مقالة عمر بن الخطاب[13] حينما طعنه أبو لؤلؤة :

ـ إن بيعة أبي بكر على الشكل الذي تمت عليه هي أقرب الى التعيين منها إلى الشورى ، لقد بايعه عمر بن الخطاب متجاهلاً المئات من المهاجرين وبني هاشم وعلى رأسهم علي بن أبي طالب .

ـ لقد تذرع عمر بن الخطاب في تقديمه أبي بكر عليه ، بأنه خليفة رسول الله على الصلاة ، كما جاء في رواية الطبري .

لقد اعتمد عمر على صلاة أبي بكر بالناس عندما كان النبي مريضاً ، وهذا يكفي لتولية أبي بكر مقاليد السلطة ، ولكن ألم يتذكر ما قاله النبي ﷺ لعلي (ع) في **غدير خم** على حشد يزيد على مائة ألف نسمة كما جاء في أكثر الروايات :

من كنت مولاه فهذا علي مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وانصر من نصره واخذل من خذله وأدر الحق معه أينما دار .

وحديث الثقلين :

إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا من بعدي[14] .

وحديث يوم الدار :

أنت أخي ووصيي وخليفتي من بعدي[15] .

وحديثه يوم غزوة تبوك :

أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي من بعدي ، ولا ينبغي أن أذهب إلا وأنت خليفتي[16] .

وقوله ﷺ **يوم الأحزاب** حينما برز علي لمحاربة عمرو بن ود العامري بحضور كبار المهاجرين والأنصار :

برز الإيمان كله إلى الشرك كله[17] .

كل هذه الأقوال نسيها عمر بن الخطاب وتذكر صلاة أبي بكر بالناس عندما كان النبي مريضاً ، فهي وحدها دليل كاف بنظره على أحقيته في خلافة المسلمين !

---

(13) (لو كان أبو عبيدة حياً ما عدوته) .

(14) أنظر ابن كثير في البداية والنهاية وابن ماجه في الصحيح وأحمد بن حنبل في المسند وغيرهم .

(15) راجع تاريخ الطبري وابن الأثير ومسند أحمد وشرح النهج .

(16) راجع الخصائص للنسائي ج 2 ص 203 والكثير من المراجع الأخرى كالمراجعات للامام شرف الدين .

(17) سيرة المصطفى للسيد هاشم معروف الحسني .

الأحزاب

بعد اجتماع سقيفة بني ساعدة فاز المهاجرون على الأنصار في مناورة سياسية محمومة ، ثم ولي الخلافة أبو بكر دون أن يعلم بنو هاشم وبعض الصحابة الاعلام ، أمثال المقداد بن الأسود ، وسلمان الفارسي ، وأبي ذر الغفاري والزبير بن العوام ، وعمار بن ياسر ، وعلي بن أبي طالب الذي أمره النبي ﷺ أن يبقى إلى جانبه أثناء مرضه ، إذ كان هؤلاء جميعاً في شغل عن القوم بتجهيز الرسول ودفنه . وقد كان لهم جميعاً رأي خاص فيمن يخلف النبي ﷺ إذ كانوا يرون بقناعة تامة أن المعين لهذا المنصب (الخلافة) هو علي بن أبي طالب .

في هذه الفترة من الزمن تكونت الأحزاب ، وبرزت على الساحة الاسلامية العامة ثلاثة ، لكل منها وجهة نظر خاصة يرى من خلالها أن له الحق في أن يلي أمور المسلمين بعد النبي ﷺ . هذه الأحزاب هي :

1 ـ حزب الأنصار

هذا الحزب لم تكتب له الحياة ، لذلك لم يستمر ، وما نميل إلى الأخذ به أن الأنصار كانوا يشعرون بالاضطهاد من قبل المهاجرين ، لذلك نرجح أن اجتماع السقيفة كان عن سابق تصور وتصميم . ورد عن النبي ﷺ أثناء مرضه الذي توفي فيه : « أيها الناس ، فإن الناس يكثرون وتقل الأنصار حتى يكونوا كالملح في الطعام فمن ولي منكم أمراً يضر فيه أحداً أو ينفعه فليقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم »(18) كما قال في مناسبة أخرى : « ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض »(19) وهذا ما يشير بأنهم سيكونون الفئة المستضعفة في الجماعة الاسلامية .

إن مثل هذه الأقوال النبوية في أكثر من مناسبة أثرت في نفوس الأنصار ، وجعلتهم يحذرون من مصيرهم السيء ؛ هذا الشعور الجماعي بالخطر وحّد بينهم وحدة متماسكة ، قوّت مركزهم في الجماعة الاسلامية ، ورصت صفوفهم ، مما جعلهم في مأمن من عدوان مرتقب من قريش ، وغير قريش ، ممن يبطنون لهم الضغينة ويظهرون لهم الود والمحبة المزيفة .

وما نعتقده أن السبب الرئيسي في وجود هذا الحزب هو عامل الخوف لا عامل الطمع في الخلافة . والمرشح من بين أعضاء هذا الحزب هو سيد الخزرج سعد بن عبادة . أما حججهم التي يستندون إليها في أفضليتهم في تسلمهم الخلافة ، كما يظهر من خطبهم في اجتماع السقيفة ، هي :

أ ـ السبب الذي ذكرناه قبل قليل وهو تخوفهم من قريش عندما تتملك زمام الأمر ، فتنتقم منهم شر انتقام ، لأنهم قتلوا أهم رجالها في حروب الاسلام الأولى . يدلنا على ذلك قول الحباب بن المنذر : « والله ما ننفس هذا الأمر عليكم أيها الرهط ، ولكننا نخاف أن

(18 -19) راجع البخاري باب فضائل الأنصار .

يليه بعدكم من قتلنا أبناءهم وإخوانهم »[20] ففي قوله : « والله ما ننفس هذا الأمر عليكم أيها الرهط . . . » يكشف بصراحة عن عامل التخوف ومبادرة الاجتماع لمبايعة سعد بن عبادة ، تخوفهم من أن تلي الأمر قريش فتقتص منهم ، وليس طمعاً في منصب الخلافة .

ب ـ بذلهم للاسلام في سبيل الدعوة الاسلامية . لقد ضحوا بدمائهم وأرواحهم ونذروا أنفسهم للكفاح في سبيلها وإعلاء شأنها . وشاهدنا في ذلك قول الحباب بن المنذر نفسه في اجتماع السقيفة : « وأنتم أحق بهذا الأمر منهم فإنه بأسيافكم دان الناس بهذا الدين »[21] .

ج ـ إن دار الأنصار هي دار الهجرة التي منها ولد المجتمع الاسلامي وتكون مستوفية خصائص المجتمع السياسي ، حيث أصبح له حكومة وإدارة ونظام . ومن هذه الدار انطلقت الدعوة الاسلامية بهمة عالية فاكتسحت الجزيرة العربية بأسرها ، ثم العالم كله كما نرى ونسمع اليوم .

هذه هي حجج الأنصار التي نادوا بها واعتمدوها . ولكن أين هي من خطبة أبي بكر الرائعة ، أبو بكر السياسي القدير ، والخطيب العبقري الذي استطاع أن يتلاعب بنفوس الأنصار جميعاً من أوس وخزرج ، ويؤثر فيهم تأثيراً بالغاً حيث فرق صفوفهم ، وتسلم أمر الحكم دون أي معارضة .

لقد لمح في خطبته تلك ببراعة وحذق إلى ما يطرد عامل الوهم من أنفسهم ويثبت الأمن والاطمئنان في قلوبهم الخائفة والمذعورة .

فقال : « وأنتم يا معشر الأنصار من لا ينكر فضلكم في الدين ، ولا سابقتكم العظيمة في الاسلام ، رضيكم الله أنصاراً لدينه ولرسوله ، وجعل إليكم حجرته وفيكم جلة أزواجه وأصحابه ، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تفتاتون بمشورة ، ولا يقضى دونكم الأمر »[1] لقد وفق أبو بكر إلى حد بعيد بهذه اللفتة الخطابية ، فأجاد في ترتيب المثيرات النفسية المناسبة والموفقة .

وكلنا يعلم العداء القديم بين فئتي الأنصار الأوس والخزرج الذي سببته حروب الجاهلية فقد استغل ذلك أبو بكر ببراعة فائقة فقال مخاطبهم :

« إن هذا الأمر (الخلافة) إن تطاولت إليه الخزرج لم تقصر عنه الأوس ، وإن تطاولت إليه الأوس لم تقصر عنه الخزرج . وقد كان بين الحيين قتلى وجراح لا تداوى فإن نعق منكم ناعق فقد جلس بين لحيي أسد يضغمه المهاجري ويجرحه الأنصاري »[23] .

---

(20) راجع تاريخ الطبري .

(21) المصدر نفسه .

(22) راجع الكامل لابن الأثير وتاريخ الطبري .

(23) تاريخ الطبري .

لقد أثار في نفوس المجتمعين من الأنصار بلفتته البارعة صوراً عديدة كفيلة بتحطيم الوحدة الشعورية التي كانت تجمع بينهم . فبعد أن أزال عامل الخوف وطمأن قلوبهم بالأمان ، عمد إلى تذكيرهم بالخلاف المستحكم قديماً في قلوبهم .

أثار في أخيلة الأوس الطامحين إلى الخلافة صورة الأمير الخزرجي الذي يتوق إليها دونهم ، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الخزرج ، على حد تعبيره . أما قوله : وقد كان بين الحيين قتلى . . . فكأنه يناديهم الى الأخذ بالثأر الواجب المقدس عندهم ، والجراح العميقة والدماء المسفوحة والحقد المميت . بهذه اللفتات البارعات حطم أبو بكر الوحدة الشعورية بين الأوس والخزرج ، فريقي الأنصار ، وكانت فعلاً ضربة حاسمة ، إذ على أثر تلك الخطبة انشطر الأنصار ، وبادر سيد الأوس (أسيد بن حضير) فكان أول المبايعين لأبي بكر . ثم تبع الأوس في البيعة سيدهم ، وتبعهم بعد ذلك الخزرج إلا سيدهم (سعد بن عبادة) الذي أحفظه الخذلان ، فقال حين دعي للمبايعة : « لا والله ، حتى أرميكم بما في كنانتي من نبل ، وأخضب سنان رمحي ، وأضربكم بسيفي ما ملكته يدي ، وأقاتلكم بأهل بيتي ومن أطاعني من قومي ، فلا أفعل وأيم الحق لو أن الجن اجتمعت لكم مع الأنس ما بايعتكم حتى أعرض على ربي »[24] .

الحزب القرشي

وهو الحزب الذي تم له الانتصار بفوز زعيمه أبي بكر خليفة للمسلمين ، وما نرجحه إن هذا الحزب لم يظهر فجأة يوم توفي النبي ﷺ ، وساعة علم عمر بن الخطاب باجتماع الأنصار في السقيفة ، وإنما قد قضى عليه ردح من الزمن . وأقطابه ثلاثة هم : أبو بكر ، وعمر ، وأبو عبيدة بن الجراح .

أما وجهة نظره في خلافة النبي فتتلخص : في أن هذا الحق لقريش وحدها لا ينازعها فيه إلا مدل بباطل أو متجانف لإثم ، أو متورط في هلكة ، على حد تعبير عمر بن الخطاب يوم السقيفة . وحججه في إثبات حقه نوجزها في أمرين .

الأول: اعتماده على سبقه في الاسلام ، والثاني قرابته من رسول الله ﷺ . ورد في تاريخ الطبري عن عمر بن الخطاب قال :

« فهم أول من عبد الله في الأرض وآمن بالله وبالرسول ، وهم أولياؤه وعشيرته ، وأحق الناس بهذا الأمر من بعده »[25] .

وهذا عمر بن الخطاب يؤكد حق قريش في الخلافة فيقول :

« هيهات ، والله لا ترضى العرب أن تؤمركم ونبيها من غيركم ، ولكن العرب لا تمتنع أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم ، وولي أمورهم منهم ، ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين . من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ونحن أولياؤه

---

(24) المرجع السابق .

(25) راجع تاريخ الطبري .

وعشيرته إلا مدل بباطل ، أو متجانف لاثم ، أو متورط في هلكة »[26] .

فيما نلاحظه في هذا الكلام يخرج النبوة عن معناها الديني والقدسي الى معنى دنيوي مقيت ، يظهر ذلك جلياً في العبارة « من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته . . » حيث أصبحت الخلافة مسألة شخصية بعيدة كل البعد عن صفتها الدينية التي أرادها رسول الله لها ﷺ . فالخلافة في الاسلام ليست ملكاً ، وليست إمارة كالملك القيصري والملك الكسروي . والخليفة في الاسلام ليس ملكاً ، أو أميراً ، أو شاهاً ، بل هو خليفة الله ينفذ شريعة الله ، ويعمل بكتاب الله ، وسنة رسول الله ﷺ .

الحزب الهاشمي

مذهب هذا الحزب هو مذهب الحزب القرشي ، يقول الخلافة في قريش وليس في غيرها . ولكنه يرى أنها منحصرة في بني هاشم ، فهم أحق بها وعلى وجه التخصيص في شخص الامام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه . وما يبدو واضحاً من عناصر هذا الحزب أنه يتمسك بالعنصر العقائدي وليس بالعنصر القبلي كالحزبين السابقين . فقد كان يتكون من قبائل شتى ، ومن عناصر متباينة في العرق والدم ، نذكر منهم على سبيل الذكر سلمان الفارسي ، وجندب بن جنادة(أبو ذر الغفاري)، والمقداد بن الأسود الكندي ، وخالد بن سعيد بن العاص الأموي ، وعمار بن ياسر العبد ، وغيرهم من كبار عيون المهاجرين والأنصار .

والحزب الهاشمي كغيره من الحزبين السابقين لم يكن ابن ساعته ، بل كان قد تكون منذ أوائل البعثة النبوية . وهو يعتبر ان الخلافة من حقه دون غيره ، معتمداً في ذلك على الأحاديث النبوية التي حدث بها الرسول ﷺ أمام الناس عامة وفي عدة مناسبات . ولا بد أن هذه الأحاديث قد سمع بها جميع المسلمين من أنصار ومهاجرين .

فهذا الزبير بن بكار ، المعروف بتعصبه للحزب القرشي وبغضه لعلي وأولاده ، يقول : في حديث له : « كان عامة المهاجرين وجل الأنصار لا يشكون أن علياً هو صاحب الأمر بعد رسول الله » .

ونذكر أن أعضاء هذا الحزب كانوا في شغل بما فدحوا به من وفاة النبي ﷺ بينما كان أعضاء الحزبين الآخرين في سقيفة بني ساعدة يتجادلون حول الخلافة . وهكذا تقرر مصير الخلافة الاسلامية بمبايعة أبي بكر دون أن يعلم أحد من الحزب الهاشمي ؛ الذين كانوا جميعاً يتوقعون أن المرشح الوحيد للخلافة هو علي بن أبي طالب . لذلك فوجئوا بالخبر عندما ذاع الخبر بينهم ، البراء بن عازب ، بعد خروج القوم (من الحزبين) من السقيفة إلى المسجد .

أما العباس بن عبد المطلب فإنه كان حذراً من الأمر ، وكأنه يشعر بأن الأمر يوشك أن يفلت من يد ابن أخيه ، ولذلك كان يلح عليه دائماً في طلب البيعة . قال لعلي عندما أقبل عليه أبو سفيان :

---

(26) المرجع نفسه .

« يا ابن أخي هذا شيخ قريش قد أقبل فـأمدد يـدك أبايعـك ويبايعـك معي ، فإنـا إن بايعناك لم يختلف عليك أحد من بني عبد مناف ، وإذا بايعك بنـو عبد منـاف لم يختلف عليك قرشي ، وإذا بايعتك قريش ، لم يختلف عليك بعدها أحد من العرب » . فالعباس ، بما لديه من معلومات ، كان يدرك أن هناك من يعمل على غير هواه في مجال الخلافة الاسلامية .

والآن ماذا على الحزب القرشي الحاكم ؟ بعد أن تم له تحطيم كيان حزب الأنصـار اتجه بأنظاره إلى الحـزب الهاشمي ليقـوم بالعمـل نفسه ، فهـو القوة المنـاوئة لـه الآن على الصعيـد السياسي . ولكن الأسلوب المتبع هنا يختلف عن أسلوب إخضاع حزب الأنصار . فقد اعتمد اسلوب العنف والسلطة والاكراه ، لأنه اكتسب الصفة الشرعيـة والسلطة الفاعلة . وبعـد أن تمت البيعـة لأبي بكر أرسـل عمر بن الخـطاب إلى دار النبي ـ وفيهـا الهـاشميـون ومن معهـم ـ يدعوهم للبيعة ، فتوعدهم بأن يضرم عليهم البيت ناراً إذا لجأوا إلى دار الزهراء ؛ فأخـرجهم منها واضطرهم الى البيعـة اضطراراً ، اللهم إلا عـلي فإنـه أبى البيعة واعتصم بـداره لا يخرج منها ، لأنه يرى أن القوم قد عدوا على حقه فسلبوه إياه ، قال لهم ، وهو الخطيب البليغ :

« أنا أحق بهذا الأمر منكم ، لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لي ، أخـذتم هذا الأمـر من الأنصار ، واحتججتم عليهم بالقرابة من النبي ﷺ وتأخذونـه منا أهـل البيت غصباً . ألستم زعمتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم لما كان محمـد منكم ، فاعـطوكم المقامـة وسلموكم الامـارة ، فأنـا أحتج عليكم بمثـل ما احتججتم عـلى الأنصار ، فنحن أولى بـرسول الله حيـاً وميتاً ، فانصفونا إن كنتم مؤمنين » .

فتأمل هذا الكلام البليغ وهذه الحجـج الدامغـة ، لقد كـال للقوم بكيلهم ، حتى سـد عليهم كل باب وعطل لهم كل جواب .

واستمر الحزب الهاشمي في صراعه من أجل ما يراه حقاً له ، فخـرج علي والـزهراء في الليل إلى الأنصار ، لعلهم يتوبوا إليه ، ويرجع الأمر الى غير ما استقر عليه ، من البيعـة لأبي بكر . ولكن الأنصار كـانت قد تمت بيعتهم ، ولا رجـوع بعد عن كلمتهم ، لأن الكلمـة إذا تكلم بها العربي الأصيل ملكته وأصبحت عهداً عليه لا يستطيع منهـا فكاكـاً . فقالـوا للزهراء « لو أن زوجك سبق إلينا قبل أبي بكر لما عدلنا به » ولكن تأخير علي كان بسبب وفاة الـرسول ﷺ وتجهيـز جنازتـه ، فليس من المعقول أن يتـرك الجنازة ، جنـازة سيد الخلق وخـاتم النبيين والـرسل ، ويتحـدث في أي موضـوع آخر مهما كلف الأمر . لـذلك قـال كرم الله وجهـه : « أفكنت أدع رسول الله في بيته ، ثم أخرج أنازع الناس سلطانه » .

ولكن هـذه الحركـة الهاشميـة وإن لم تثمر في دفع الأنصار إلى التملص من بيعتهم لأبي بكر ، وعقد الخلافة لعلي ، إلا أنها أجدت في عقد مؤتمر بني بيـاضة في المـدينة ، الـذي ضم طائفة كبيرة من زعماء الأنصار ومثلها من أعضـاء الحزب الهـاشمي . وغايـة هذا المؤتمر إعادة الأمر شورى بين المسلمين، كما أرادها رسول الله ﷺ ورددها في أحاديثه الشريفة . وهـذا الجو خليق لأن تتم الخلافة في جو هادىء ، بعيد عن التصدع والوهن في الأمة الاسلامية .

ويرشح من هذا المؤتمر أن الأنصار بعد أن فشلوا في الميـدان السياسي ، انضم حـزبهم

الى الحزب الهاشمي وأصبحوا يداً واحدة يعملون لهدف واحد . ولما علم الحزب القرشي بنبأ هذا المؤتمر قام فوراً بحركة مضادة ، فاستدعى أبو بكر وعمر أبا عبيدة بن الجراح ، والمغيرة ابن شعبة، ليتدبر معهما وجوه الرأي . وبعد الأخذ والرد قال المغيرة : « الرأي أن تلقوا العباس فتجعلوا له ولولده في هذا الأمر نصيباً ليقطعوا بذلك ناحية علي بن أبي طالب »(27) .

فأخذ الشيخان بهذا الرأي وذهبا إلى العباس فقال له أبو بكر في بعض كلامه : « . . . وما انفك يبلغني عن طاعن يقول بخلاف قول عامة المسلمين ، يتخذكم لجأ ، فتكونوا حصنه المنيع وخطبه البديع »(28) . فكما عمل الحزب القرشي في تحطيم حزب الأنصار أراد أن يعيد الكرة مع حزب الهاشميين ، فيعمل على تقويضه ، وذلك بكسب العباس ورهطه إلى صفه ضد علي بن أبي طالب ، إلا أن الوسيلة اختلفت في المحاولتين . ففي الأولى كانت إثارة البغضاء وتذكيرهم بإراقة الدماء والعداء بينهم . أما المحاولة الثانية ، مع الهاشميين فمغايرة ، فلجأوا الى الإغراء بالسلطة والمال ، حيث لم يكن بين أفراده إراقة دماء . قال أبو بكر للعباس : « فاما دخلتم فيما دخل فيه الناس أو صرفتموهم عما مالوا إليه . . . فقد جئناك ونحن نريد أن نجعل لك في هذا الأمر نصيباً ولمن بعدك من عقبك »(29) ولكن العباس لم يلن ولم تغره الأموال ، بل بقي صامداً في موقفه لا يتزحزح ، وخرج القوم من عنده دون أن يحققوا شيئاً من غايتهم .

ولم تكن هذه الحركة الهاشمية في مؤتمر بني بياضة تريح الحزب القرشي ، لأنها لو تركت دون رادع لكانت عقبة كأداء في سبيل السلطة القرشية . لذلك جند الحزب القرشي لتقويض هذه الحركة والقضاء عليها فسلط لها ألسنة الشعراء المتكسبين ، والخطباء المراوغين ، فسلكوا مسلك التهديد والوعيد . فلا بد والحالة هذه إلا أن ينبري لهم شعراء الأنصار والهاشميين معاً وتبدأ مساجلات النقد والهجاء على أشدها(30) . ولقد أصبحت القضية مسألة سياسية صرفاً عادت بهم الى العصبية القبلية من التفاخر بالأنساب ، والأحساب ، وعرض النقائص والأخطاء. وهنا قد تجد الجماعات التي تكيد للاسلام الفرصة سانحة لهم ليبثوا سموم الحقد والضغينة والأذى في صفوف الأمة الاسلامية كعمرو بن العاص وغيره من المؤلفة قلوبهم .

عندما وجد علي الحالة تسير من سيء إلى أسوأ فيما يعود لمصلحة الأمة الاسلامية ، والفتنة تتفاقم يوماً بعد يوم ، خاف على المسلمين من التشرذم وعلى الأمة الاسلامية من التصدع والانهيار ، في وقت حرج هي بأشد الحاجة إلى الوحدة والتضامن ؛ عندها أوعز إلى الهاشميين والأنصار بالكف عما هم فيه من الجدل ، ومضى إلى أبي بكر فبايعه قائلاً مثله الأعلى الذي سعى من أجله طوال حياته « سلامة الدين أحب إلينا » وقد بقي دائماً وأبداً سنداً

---

(27) شرح نهج البلاغة .

(28) المرجع السابق .

(29) المرجع نفسه .

(30) راجع الكامل لابن الأثير وتاريخ الطبري .

حصيناً للاسلام يضحي بكل ما هو شخصي وخاص في سبيل إعلاء كلمة الله ، حتى في عهد أبي بكر وعهد عمر وعثمان ، مع شعوره باغتصابهم حقه ، كان المستشـار الأول لا يتأخـر ولا يتـوانى عن تفسير أي إشكـال ديني ، أو حل أي معضلة تعـرض لها أحـد الخلفاء الـراشـدين الثلاثة في حل المعضلات التي كانت تعترضهم .

وبمبايعة علي لأبي بكر تم الدور الأول من الأدوار التي مرت بها الدولة الاسلامية .

الفصل الخامس
نشأة الفرق في الاسلام

الشيعة

لا بد لنا من الرجوع إلى بداية التشيع وهل هو عملية عاطفية أم عملية عقلانية انتهى إليها معتنقوها بتعقل ومعاناة وحكمة .

لما اختلف الباحثون في هذه الأمور ، وأخذ كل منهم يستنتج وفقاً لمزاجه وأهوائه وما تجمع لديه من ترجيحات ، وجدنا لزاماً علينا تقديم نماذج من آراء الباحثين لنستشف منها رأياً موضوعياً يقبله التاريخ ويقره المنطق . من هؤلاء من يرى أن بذرة التشيع وجدت بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام .

قال ابن خلدون في تاريخه: « إن الشيعة وجدت لما توفي الرسول ﷺ وكان أهل البيت يرون أنفسهم أحق بالأمر وأن الخلافة لرجالهم دون سواهم من قريش. . . . [1] .

وفي تاريخ الاسلام السياسي للدكتور حسن ابراهيم حسن قال : فقد اختلف المسلمون بعد وفاة النبي ﷺ فيمن يولونه الخلافة وانتهى الأمر بتولية أبي بكر وأدى ذلك الى انقسام الأمة العربية الى جماعية وشيعية[2] .

وقال اليعقوبي في تاريخه : ويعد جماعة من المتخلفين عن بيعة أبي بكر هم النواة الأولى للتشيع ومن أشهرهم سلمان الفارسي وأبو ذر الغفاري والمقداد بن الأسود والعباس بن عبد المطلب[3] .

وفي كتاب العقيدة والشريعة للمستشرق جولد زهير : إن التشيع نشأ بعد وفاة النبي ﷺ وبالضبط بعد حادثة السقيفة[4] .

وفريق آخر من الباحثين يرى أن تكوّن الشيعة أيام خلافة الإمام علي (ع) من هؤلاء ابن النديم حيث حدده بفترة واقعة البصرة وما سبقها من مقدمات كان لها الأثر المباشر في

---

(1) راجع تاريخ ابن خلدون ج 3 ص 170 .
(2) تاريخ الاسلام السياسي ج 1 ص 371 .
(3) تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 104 .
(4) العقيدة والشريعة ص 174 .

تبلور فرقة الشيعة وتكوينها[5] .

ومنهم من يرى أن التشيع تميز سياسياً ابتداءً من مقتل أمير المؤمنين علي (ع) ويتضمن ذلك فترة قتل الحسين (ع) حيث يعتبرها امتداداً للفترة السابقة[6] .

إن هذه الآراء وما شايعها أمثال المستشرق بروكلمن في تاريخ الشعوب الاسلامية ، بعيدة عن الدقة والتوثيق الصحيح وقد اعتمد الظن والوهم . أما رأي المحققين من الشيعة وجمهورهم ، فيرون أن التشيع ولد أيام النبي ﷺ وأن النبي نفسه هو الذي غرسه في النفوس عن طريق الأحاديث الصحيحة التي أكدها الرواة الثقاة من الشيعة وغيرهم من المذاهب الأخرى . روى السيوطي في الدر المنثور عن ابن عساكر عن تفسير الآيتين السادسة والسابعة من سورة النبي بسنده عن جابر بن عبد الله قال :

كنا عند النبي ﷺ فأقبل علي (ع) فقال النبي ﷺ : والذي نفسي بيده إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة فنزل قوله تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك خير البرية » .

كما أخرج ابن مردويه عن علي (ع) قال : قال لي رسول الله ﷺ ألم تسمع قوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات . . . ﴾ هم أنت وشيعتك وموعدي وموعدكم الحوض إذا جاءت الأمم للحساب تدعون غراً محجلين[7] . من هنا ذهب الرازي في كتابه روضات الجنات : إلى أن أول إسم لمذهب ظهر في الاسلام هو الشيعة ، وكان هذا لقب أربعة من الصحابة : أبو ذر الغفاري وعمار بن ياسر وسلمان الفارسي والمقداد بعد موقعة صفين[8] .

ومن الروايات والقرائن الدالة التي تثبت أن ظهور الشيعة كان زمن النبي ﷺ فكثيرة ، أورد قسماً منها الدكتور عبد العزيز الدوري الذي ذكرناه قبل قليل كما نص على قسم من هذه الأدلة يحيى هاشم فرغل في كتابه : عوامل وأهداف نشأة علم الكلام[9] .

لذلك ذهب أكثر الباحثين الى تخطئة من يؤرخ للتشيع وظهوره بعصور متأخرة علماً بأن ما أوردناه من الأدلة التاريخية التي تفيد على وجودهم أيام الرسول ﷺ يقول محمد بن عبد الله العنان في كتابه : تاريخ الجمعيات السرية ، معلقاً على الحادثة حين جمع النبي عشيرته عند نزول الآية الكريمة : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾[10] ودعاهم إلى اتباعه فلم يجبه إلا علي بن أبي طالب . عندها أخذ النبي ﷺ برقبته وقال : « هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا

---

(5) الفهرست لابن النديم ص 175 .

(6) راجع مقدمة في تاريخ صدر الاسلام للدكتور عبد العزيز الدوري ص 72 .

(7) الدر المنثور للسيوطي ج 6 ص 376 وقد أخرج الحديث وأكده ابن عدي عن ابن عباس . المصدر نفسه .

(8) روضات الجنات للخونساري ص 88 .

(9) عوامل وأهداف نشأة علم الكلام ج 1 ص 105 .

(10) الشعراء الآية 214 .

له وأطيعوا . . . ثم قام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب : قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع »(12) .

فالنصوص التاريخية وصفت جماعة بالتشيع أيام النبي ﷺ ولذلك قال النوبختي في كتابه الفرق والمقالات عند تعريفه للشيعة « فالشيعة فرقة علي بن أبي طالب المسمون بشيعة علي في زمن النبي ثم عدد جماعة منهم وقال : وهم أول من سمي باسم التشيع لأن اسم التشيع كان قديماً لشيعة ابراهيم »(13) .

هذا عن البذور الأولى للتشيع ، أما ظهور النزعة الشيعية في المحيط الاسلامي فإنها برزت بعد حادثة السقيفة ، حيث كانت عدة نزعات تخالفها وتنازعها . وقد بقيت هكذا تساير الأوضاع السياسية حيناً ، وتكافح قدر استطاعتها حيناً آخر ، إلى أن بويع علي بالخلافة وعصى معاوية بن أبي سفيان ، والي الشام ، فلم يبايع .

في تلك الظروف تركزت الفكرة واستمدت عناصر حياة جديدة ، حيث اتخذت صفة نضالية ضد كل من أراد ظلمها أو إبعادها عن حقها الذي تعتبره حقاً مشروعاً لها ، بحجج ثابتة لا يشوبها شائبة . وبقيت تنمو ويشتد ساعدها الى أن نشبت حرب الجمل بقيادة السيدة عائشة ، وذهب ضحيتها الألوف من الضحايا البريئة والنفوس الطيبة الطاهرة .

وفي أواخر الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية تكامل النظام الفكري للمذهب الشيعي ، في أبحاث منطقية ومنهج عقلي فيها يعود حول أمور الخلافة والامامة وغيرها من العقائد الاسلامية .

قال في ذلك ابن النديم : « أول من تكلم في مذهب الامامة علي بن إسماعيل بن ميثم النمار ، وله من الكتب كتاب « الامامة » وكتاب الاستحقاق »(14) . ومنذ ذلك الحين أصبح المذهب الشيعي مدرسة فكرية لها منهج علمي منظم ، كان لها وما يزال الدور الايجابي في نظام الدولة السياسي . تلك الجامعة التي أسسها الأئمة الاثنا عشر في سبيل العلم والدين والانسانية من أجل رفع كلمة الله وتثبيت ونشر تعاليم الرسالة الاسلامية التي بشر بها رسول الله محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، نهض بها الامامان العالمان الباقر والصادق(15) .

أما الأدلة والحجج التي اعتمدها الشيعة في وجوب حق الخلافة لهم فكثيرة منها أحاديث نبوية متواترة ، ومنها آيات قرآنية كريمة .

---

(12) تاريخ ابن الأثير ج 2 ص 28 وتاريخ الطبري ج 2 ص 216 .

(13) الفرق والمقالات للنوبختي .

(14) الفهرست . وعلي بن اسماعيل عاش في أيام الرشيد والمأمون وهو من علماء الشيعة ومتكلميهم .

(15) محمد الباقر وابنه جعفر الصادق اللذان نهضا بجامعة أهل البيت التي انضم إليها أربعة آلاف من العلماء وطلاب العلم وكان ذلك في عهد الخليفة العباسي المنصور الذي حاول أكثر من مرة ان يفتك بالامام الصادق راجع في ذلك كتاب سيرة الأئمة الاثني عشر للعالم هاشم معروف الحسني .

1 ـ حديث غدير خم

خرج النبي ﷺ من مكة متجهاً إلى المدينة ومعه وفود غفيرة لم تشهد لها مكة نظيراً من قبل في تاريخها الطويل . ولما انتهى الى مكان في الصحراء وعلى غير ماء وكلأ قرب (الجحفة) أنزل الله عليه : ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾ .

عند ذلك لم ير بدأ من تنفيذ أمر الله عزّ وجل الذي يشكل إنذاراً له لأنه سيعصمه من الناس ، وكان ذلك في حجة الوداع . فنزل في غدير خم ثم قال :

كأني قد دعيت فأجبت إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي فانظروا كيف تخلفوني فيهما فإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض ثم قال : الله مولاي وأنا ولي كل مؤمن ومؤمنة وأخذ بيد علي (ع) وقال من كنت مولاه فهذا علي وليه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه .

وقد روى الحديث بنصه الذي ذكرناه ، كل من ابن ماجه في صحيحه ، وأحمد في مسنده ، والحاكم في مستدرك الصحيحين ، والسيوطي في الدر المنثور ، والخطيب البغدادي في تاريخه ، والنسائي في خصائصه ، وابن حجر في الصواعق المحرقة ، وابن قتيبة في الامامة والسياسة ، وابن الأثير في أسد الغابة والهيثمي في مجمع الزوائد .

كما نص كل من الامام أحمد والفخر الرازي في تفسيره ، والبغدادي في تاريخه ، والطبراني في ذخائره ، وصاحب الرياض النضرة ، وصاحب فيض الغدير في شرحه . كل هؤلاء قالوا : ان عمر بن الخطاب بعد أن انتهى النبي ﷺ من خطابه هنأ علياً وقال له : أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة .

كما نص جماعة من المحدثين : أن أبا بكر قال له : أمسيت يا ابن أبي طالب مولانا ومولى كل مؤمن ومؤمنة[16] .

وقد أورد السيد هاشم معروف الحسني في سيرة المصطفى : أن حسان بن ثابت استأذن الرسول ليصف موقفه من علي (ع) في ذلك اليوم فأذن له فوقف على مرتفع من الأرض وتطاول المسلمون لسماع كلامه فأنشأ يقول[17] :

يناديهم يوم الغدير نبيهم	بخم واسمع بالنبي مناديا
وقال فمن مولاكم ووليكم	فقالوا ولم يبدوا هناك التعاميا
الهك مولانا وأنت ولينا	ولن تجدن منا لك اليوم عاصيا
فقال له قم يا علي فانني	رضيتك من بعدي إماماً وهاديا
فمن كنت مولاه فهذا وليه	فكونوا له أنصار صدق مواليا
هناك دعا اللهم وال وليه	وكن للذي عادى علياً معاديا

(16) انظر الحديث في فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج 1 ص 350 وما بعدها .

(17) سيرة المصطفى للسيد هاشم معروف الحسني ص 693 وما بعدها .

فقال له النبي ﷺ لا تزال يا حسان مؤيداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك .

أما الآية الكريمة التي قال عنها المفسرون أنها نزلت بحق علي فيما يعود الى الخلافة فهي : ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴾ .

جاء في الكافي للكليني بسنده الى زرارة والفضيل بن يسار وبكير بن أعين ومحمد بن مسلم وبريد بن معاوية عن أبي جعفر الباقر (ع) أنه قال : أمر الله عز وجل رسوله بولاية علي (ع) وأنزل عليه الآية : ﴿ إنما وليكم . . ﴾ وقد جاء في مجمع البيان بسنده إلى أبي ذر الغفاري رحمه الله قال : صليت مع رسول الله صلاة الظهر ولما فرغ النبي ﷺ من صلاته رفع رأسه الى السماء وقال : اللهم ان أخي موسى سألك فقال : رب إشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي أشدد به أزري وأشركه في أمري ، فأنزلت عليه سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا .

اللهم وأنا نبيك وصفيك ، اللهم اشرح لي صدري ويسر لي أمري واجعل لي وزيراً من أهلي علياً أشدد به ظهري ، قال أبو ذر فوالله ما استتم كلامه حتى نزل عليه جبريل من عند الله تعالى فقال يا محمد إقرأ قال : وما أقرأ ؟ قال : إقرأ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون(18) .

هذه الظاهرة في مذهب التشيع ، وهي التمسك بولاء أهل البيت ، بيت النبي ﷺ ، وحبهم والانحياز معهم في كل نازلة تنزل بهم أو خطب ينالهم هي نفسها قلنا عنها أنها موجودة في جماعة الحزب الهاشمي الذي تحدثنا عنه قبل تكون الفرق .

فرق الشيعة

عند تعرض مؤرخو الفرق الاسلامية ، وهم كثر ، لذكر الشيعة ، ذكروا العدد الكبير من الفرق البعيدة عن الخط الشيعي السليم والمنهج الشيعي الصحيح ، تلك الفرق المنحرفة والبعيدة عن المذهب الشيعي ، كانت قد اتخذت لها مذهباً خاصاً في الامامة وغيرها من العقائد الدينية . وبعد وقوفنا على تاريخها وجدنا أن أكثر هذه الفرق قد نشأت لسببين :

أ ـ انحراف مرضي في التفكير يدخل في باب الهوس الديني ، فترى بعض أفرادها يجهر بدعوى مرتجلة فيتجمع حوله أفراد مرضى مثله ، ومن ثم تأخذ هذه الفئة المنحرفة اسم « الفرقة » في تاريخ الفكر الإسلامي وتنسب مقالتها إلى الشيعة .

ب ـ طمع في مال أو سيادة . قد يروق لبعض أصحاب النزعات والشهوات المحبين للسيادة ، أو الطامعين في جمع المال ، فيجهر طامع منهم بدعوى ضعيفة التفكير ساذجة ويجمع حوله أمثاله في الهوى وضيق التفكير ، إلى أن تأخذ هذه الفئة المستغلة اسم فرقة أيضاً في تاريخ التفكير الاسلامي وتنسب إلى المذهب الشيعي .

---

(18) رواية أبي ذر هذه ذكرها الثعالبي في تفسيره عن أبي بكر الرازي في أحكامه كما رواها الرماني والطبري كما رواها صاحب الميزان في تفسيره .

وما نراه أن الـذي دفع الكثير من مؤرخي الفرق الاسـلامية إلى اعتبـار كل ذي مقـالة منحـرفة شيعيـاً ، هو التعصب البغيض ضـد الشيعة الـذين اضطهـدوا في عصـور كثيـرة من التاريخ . فلا يجوز بأي حال من الأحوال أن نتهم الشيعة وأن نأخذ بما يدعيه مؤرخو الفـرق الاسلامية ، فتصدق الأقاويل المزيفة لتلك الفرق المنحرفة . إن المذهب الشيعي يتبرأ من كـل هذه الفرق ويكفرها لأنها خارجة عن مذهبه الصحيح ، وعن الشيعة الاسلامية الكريمة[19] أما الموجود حالياً من فرق الشيعة فثلاث :

1 ـ الامامية الاثنى عشرية :

وهم الذين يعتقدون بـإمامـة الأئمة الاثني عشـر وهم بذلـك يوافقـون الحديث النبـوي الذي يقول :

يكون اثنا عشر أميراً كلهم من قريش[20] .

كما جاء في صحيح مسلم أن النبي قال : لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعـة ويكون عليهم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش[21] .

والـذي لا يسع تجـاهله والتنكر لـه ، أن هذه الـروايات مـع ما بينهـا من الاختلاف في صيغها ، لكنها كلها تصب في مصب واحد ، عـلى أن العدد المستحق لـلامامـة أو الخلافـة لا يتجاوز الاثني عشر ، عـدد نقباء بني اسـرائيل الـذين بعثهم الله لارشاد قـومهم وإنقاذهم من الضلالة كما تشير الآية الكريمة :

﴿ ولقد أخذ الله ميثاق بني اسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً ﴾[22] .

2 ـ الزيدية

تكونت هذه الفرقة سنة 122 هـ ، حين نهض زيد بن علي زين العابدين بن الحسـين في الكوفة ثائراً على هشام بن عبد الملك ، بفئة قليلة من المقاتلين ، وقد اضطر الى قتالهم بعد أن غدر به أهل العراق كما غدروا بـآبائـه من قبل . فقيـل لمن خذلـه « الرافضـة » ولمن ثبت معه «الزيدية» ، ولا يزالون في اليمن حتى اليوم[23] .

3 ـ الإسماعيلية

ينتسبون إلى اسماعيل ابن الامام جعفر الصادق وأخ الامام موسى الكاظم . اتباع هذه الفرقة ينفصلون عن الامامة في الامام موسى الكاظم ويذهبون الى إمامة أخيه اسماعيل[24] .

وقـد تشعبت الاسماعيليـة إلى طوائف متعـددة ، لكل طـائفـة آراء وأقـوال خـاصـة في

---

(19) راجع كتاب الشيعة في التاريخ .

(20) صحيح البخاري بسنده إلى جابر بن سمرة .

(21) صحيح مسلم كما رواه الترمذي في صحيحه وابن حجر في صواعقه والحاكم في المستدرك وزاد فيه أن النبي قال عدد نقباء بني إسرائيل ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد وغيره من المحدثين والمؤلفين

(22) المائدة الآية 13 .

(23) فرق الشيعة .

(24) فرق الشيعة .

الأصول والفروع ، وقد بلغ عند بعضها الشذوذ الى الخروج على الاسلام ، من هؤلاء : السبعية القائلين بأن الامامة تدور على سبعة كأيام الاسبوع ، والسموات السبع والأرضين السبع والأفلاك السبع . والسبعة الأول يبتدئون بعلي وينتهون باسماعيل بن جعفر . والامام السابع ينسخ شرائع من تقدمه .

ومن الاسماعيلية القرامطة ، يدعي هؤلاء أن إسماعيل توفي في حياة والده الامام الصادق (ع) [26] .

الخوارج

بعد أن قتل عثمان إثر نقمة المسلمين عليه في المدينة وخارجها لأنه حابى أقاربه وولاته الذين خرجوا عن المخطط الاسلامي واستخفوا بالمقدسات الاسلامية[27] ، بويع لعلي بالخلافة من كافة الصحابة والثوار سوى نفر طلبوا منه أن يعفيهم من البيعة فأعفاهم منها[28] .

ولم تمض على بيعته أيام حتى خرج عليه طلحة والزبير وعائشة على رأس جيش ساروا به إلى البصرة ، لأن عائشة أصيبت بصدمة قوية لتقديرها أن قريبها طلحة سيتولى الخلافة بعد الخليفة الراحل ، بالاضافة إلى ما كانت تكنه لعلي (ع) في نفسها من عداء قديم يرجع إلى عهد الرسول ﷺ .

سار علي (ع) بمن خف معه من أهل الحجاز ومن وافاه من أهل الكوفة ، وكانت معركة الجمل التي ذهب ضحيتها الكثير من الأبرياء وكان النصر فيها لعلي بعد أن أوقع بالثوار الخارجين على خلافته الشرعية . عاد بعدها إلى الكوفة وكان معاوية والي الشام في عهد عثمان ، قد أبى مبايعة علي لأنه علم أن الخليفة لا يقره بأي حال من الأحوال على عمله ، ولا يمكن أن يستعين به في حكومته ، فأعلن عصيانه في وجه الخليفة الشرعي بعد أن أغرى أهل الشام استطاع أن يقودهم إلى النزاع المسلح مع علي (ع) .

أما تذرع معاوية بالعصيان فيعود سببه بأن قتلة عثمان مع علي ، ولا ينزل تحت طاعته إلا إذا قتلهم علي واقتص منهم . وقد اختلفت الرسل بين معاوية وعلي علّ هذا الأخير يعود إلى رشده وينقاد لأمر الخليفة بالسلم ؛ ولكن النتائج باءت بالفشل . ولما يئس علي من انقياد الوالي الخارج عن طاعة الخلافة عمد الى الحرب فكانت موقعة صفين[29] وكان جلياً ان الدائرة ستدور على معاوية وأنصاره لولا خدعة قام بها عمرو بن العاص ضعضعت جيش علي ومنعته عن متابعة القتال . قال اليعقوبي في تاريخه يصف حيلة ابن العاص فقال : « وزحف

---

(26) راجع الملل والنحل للشهرستاني ج 1 ص 332 .

(27) اشتركت السيدة عائشة وطلحة والزبير مع الوفود التي زحفت إلى المدينة من مختلف البلاد الاسلامية لتشكو الى عثمان ما تقاسيه الأمة الاسلامية من جور ولاته واستخفافهم بشعائر الدين . وقد حرض الثلاثة الثوار على المضي الى النهاية .

(28) وهم : سعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، ومحمد بن مسلمة ، وأسامة بن زيد . راجع العروة الوثقى لجمال الدين الأفغاني .

(29) راجع تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 188 وما بعدها .

أصحاب علي وظهروا على أصحاب معاوية ظهوراً شديداً ، حتى لصقوا به ، فدعا معاوية بفرسه لينجو عليه ، فقال له عمرو بن العاص : إلى أين ؟ قال : قد نزل ما ترى ، فما عندك ؟ قال : لم يبق إلا حيلة واحدة ، ان ترفع المصاحف ، فتدعوهم إلى ما فيها ، فتستكنهم وتكسر من حدهم ، وتفت في أعضادهم ، قال معاوية : فشأنك ! فرفعوا المصاحف ودعوهم إلى التحكيم ؛ وقالوا : ندعوكم إلى كتاب الله . فقال علي : إنها مكيدة ، وليسوا بأصحاب قرآن . فاعترض الأشعث بن قيس الكندي ، وقد كان معاوية استماله ، وكتب إليه ودعاه إلى نفسه ، فقال : قد دعا القوم إلى الحق ! فقال علي : إنهم إنما كادوكم ، وأرادوا صرفكم عنهم . فقال الأشعث : والله لئن لم تجبهم انصرفت عنك . ومالت اليمانية مع الأشعث ، فقال الأشعث والله لتجيبنّهم إلى ما دعوا إليه ، أو لندفعنّك إليهم برمتك ، فتنازع الأشتر[30] والأشعث ، حتى كاد أن يكون الحرب بينهم ، وحتى خاف علي أن يفترق عنه أصحابه . فلما رأى ما هو فيه أجابهم إلى التحكيم ، وقال علي : أرى أن أوجه بعبد الله ابن العباس. فقال الأشعث : إن معاوية يوجه بعمرو بن العاص ولا يحكم فينا مضريان ، ولكن توجه أبا موسى الأشعري ، فإنه لم يدخل في شيء من الحرب . وقال علي : إن أبا موسى عدو ، وقد خذّل الناس عني بالكوفة ونهاهم أن يخرجوا معي . قالوا: لا نرضى بغيره . فوجه علي أبا موسى على علمه بعداوته له ومداهنته بينه وبينه ، ووجه معاوية عمرو ابن العاص .

فخدع عمرو بن العاص أبا موسى ، وذكر له معاوية فقال : هو ولي ثأر عثمان وله شرفه في قريش . فاخلع علياً واخلع أنا معاوية ، ويختار المسلمون . وقدَّم عمرو أبا موسى الى المنبر ، فخلع علياً ، ثم صعد عمرو بن العاص فقال : قد ثبتُّ معاوية كما ثبت خاتمي هذا في يدي . فصاح به أبو موسى : غدرت يا منافق ، إنما مثلك كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث . قال عمرو : إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً[31] . وتنادى الناس : حكم والله الحكمان بغير ما في الكتاب، والشرط عليهما غير هذا . وتضارب الناس ، وافترقوا ونادت الخوارج : كفر الحكمان ، لا حكم إلا الله »[32] . عندها قال علي : كلمة حق يراد بها باطل .

خرجوا عليه لأنه قبل بالتحكيم الذي اضطر إليه ، وكانوا اثني عشر ألفاً وصاروا الى قرية يقال لها حروراء بينها وبين الكوفة نصف فرسخ فسموا بـ « الحرورية » ويسمون أيضاً بـ « المحكّمة الأولى » لأن فيهم أول من حكم فقال : « لا حكم إلا الله » قال أبو زهرة في المذاهب الاسلامية :

« وسواء أكان هذا أو ذاك فقد انتهى التحكيم بعزل علي وتثبيت معاوية ، فاشتد ساعد البغي وأمست الخلافة ملكاً عضوضاً »[33] .

---

(30) الاشتر : مالك الأشتر علم من أعلام الأنصار المعروفين .

(31) سورة الأعراف الآية 176 وسورة الجمعة الآية 5 .

(32) تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 189 -190 والشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة ص 40 .

(33) قارن بالكامل لابن الأثير ج 3 ص 289 وما بعدها والمذاهب الاسلامية لأبي زهرة .

وقد انتهى إليهم علي بعد رجوعه من صفين ، فجادلهم فيما صاروا إليه من رأي فلم يستجيبوا له . ذكر اليعقوبي بعضاً من ذلك الجدال قال علي مخاطبهم : « وأما قولكم إني لم أضربكم بسيفي يوم صفين حتى تفيئوا الى الله ، فإن الله عز وجل يقول : ولا تُلْقوا بأيديكم إلى التَهْلُكة ، وكنتم عدداً جماً ، وأنا وأهل بيتي في عدة يسيرة » .

« وأما قولكم إني حكَّمتُ الحكمين ، فإن الله عزّ وجل حكم في أرنب يباع بربع درهم فقال : يحكم به ذو عدل منكم ، ولو حكم الحكمان بما في كتاب الله لما وسعني الخروج من حكمهما .

وأما قولكم إني كنت وصياً فضيعت الوصية ، فإن الله عزّ وجل يقول : « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين » أفرأيتم هذا البيت ، لو لم يحجج إليه أحد كان البيت يكفر ، إن هذا البيت لو تركه من استطاع إليه سبيلا كفر ، وأنتم كفرتم بترككم إياي لا أنا كفرت بتركي لكم » .

فرجع يومئذٍ من الخوارج ألفان ، وأقام أربعة آلاف ، والتحمت الحرب بينهم مع زوال الشمس ، فأقامت مقدار ساعتين من النهار ، فقتلوا من عند آخرهم ولم يفلت من القوم إلا أقل من عشرة »(34) .

ثم خطب علي (ع) في الكوفة فقال : أما بعد أيها الناس ! فأنا فقأت عين الفتنة ولم يكن ليجترىء عليها أحد غيري ، ولو لم يكن فيكم ما قوتل الناكثون ، ولا القاسطون ، ولا المارقون ، ثم قال : سلوني قبل أن تفقدوني ، إن القرآن لا يعلم علمه إلا من ذاق طعمه ، وعلم بالعلم جهله ، وأبصر عمله ، واستمع صممه ، وأدرك به مأواه ، وحيّ به إن مات ، فأدرك به الرضى من الله ، فاطلبوا ذلك عند أهله ، فإنهم في بيت الحياة ، ومستقر القرآن ، ومنزل الملائكة ، وأهل العلم الذين يخبركم عملهم عن علمهم ، وظاهرهم عن باطنهم ، هم الذين لا يخالفون الحق ، ولا يختلفون فيه ، قد مضى فيهم من الله حكم صادق ، وفي ذلك ذكرى للذاكرين » .

وقد بقي منهم طائفة قليلة جداً استمرت في تعاليم مبدئها حتى استوعبت فيما بعد خلقاً كثيراً من الرجال ، شغلوا الدولة الاسلامية بحروب عدة أجيالاً . وقد تعددت فرق الخوارج الى عدة فرق أهمها ستة كما يقول الشهرستاني في الملل والنحل :

1 ـ الأزارقة وهم أتباع نافع بن الأزرق .
2 ـ والنجدات : وهم أتباع نجدة بن عامر الحنفي .
3 ـ البيهسية : أتباع أبي بيهس الهيصم بن جابر .
4 ـ الأبايضة : وهم أتباع عبد الله بن أباض ولا تزال من هذه الفرقة بقية حتى يومنا هذا في الجزائر وعُمان . . ،
6 ـ الثعالبة .

(34) تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 192 -193

وعلى اختلاف فرقهم كانوا يحكمون بالكفر على كل حاكم أو خليفة لم يأخذ بمبدئهم . فحكموا على الخليفة الامام علي بالكفر والمروق بعد أن قبل التحكيم، كما حكموا على الخليفة عثمان بالكفر بعد ست سنوات من توليه الخلافة ، سوى الخليفتين أبي بكر وعمر فقد كانوا يتولونهما معتبرين ان حكمهما حكماً شرعياً ، وذلك يعود إلى رضا الشعب ورغبته الأكيدة بهما فالحكم العادل عندهم يرجع إلى إرادة الشعب . وإذا انحرف الحاكم عن الحق والعدالة وجب عزله ومحاربته .

وقد أضافوا شرطاً آخر إلى مبادئهم ، وهو ان الخلافة لا تنحصر في القرشيين وحدهم ، ويصلح لها كل مسلم حراً كان أو عبداً . ولم يعترفوا بالأحاديث النبوية المروية عن الرسول ﷺ التي تنص أن الخلافة محصورة في قريش دون سواهم ، واعتبروها من وضع القرشيين أنفسهم لفرض احتكار السلطة فيما بينهم .

يمكن للباحث أن يجد لهم مبرراً في هذا المبدأ الذي اعتمدوه في اختيار الحاكم. ذلك أن الاسلام ، المعروف بمنطقه وعدالته ومساواته بين جميع خلق الله ، حيث لم يفرق بين لون ولون ، ولا بين العرب وغيرهم ، بل جعل مقياس التفاضل بين الناس التقى والأعمال الصالحات . فالعبد الحبشي المخلص في إيمانه لله أفضل من العربي القرشي المنحدر من أفضل القبائل العربية إذا لم يعمل بما افترضه الاسلام .

وقد اعتبر جماعة من الباحثين والمؤلفين أن في هذه الفكرة خروجاً على المبدأ الذي اعتمده القرشيون في اختيار الحاكم ، لأن الرسول قد حصر الخلافة بالقرشيين ، مع أن عمر ابن الخطاب هو الذي وضع نواة هذه الفكرة قبل الخوارج ، فسبقهم إليها بعشرين عاماً تقريباً ؛ ذلك أنه في الأيام الأخيرة من حياته وهو يستعرض من يصلح للخلافة من بعده قال : لو كان سالم مولى حذيفة حياً ما عدوته[35] قال ذلك وفي المسلمين علي بن أبي طالب (ع) وغيره من أعيان المسلمين .

لكن الخوارج قد جعلوها موضع التنفيذ ، فاختاروا عبد الله بن وهب الراسبي أحد زعمائهم وجعلوه أميراً عليهم وجاهدوا معهم لتحقيق أهدافهم .

ومن طرائف حكمهم البعيد كل البعد عن الشريعة الاسلامية الحقة ، ما حدث لهم في طريقهم إلى النهروان . وورد في الكامل للمبرد قال :[36] « في طريقهم الى النهروان التقوا بالصحابي الجليل عبد الله بن خباب بن الأرث ومعه زوجته ، فقالوا له : حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله قال الصحابي : ستكون بعدي فتنة القاعد فيها خير من القائم ، والواقف فيها خير من السائر، والماشي خير من العادي، ومن أمكنه أن يكون مقتولاً فيها خير له من أن يكون قاتلاً ، ثم قالوا له : ما تقول في أبي بكر وعمر : فأثنى عليهما خيراً كما أثنى على عثمان في

(35) راجع شرح النهج لابن أبي الحديد ج 1 ص 64 . قال عمر بن الخطاب ذلك مخاطباً أبا لؤلؤة الذي طعنه .

(36) الكامل للمبرد ج 2 ص 143 .

السنين الستة الأولى من خلافته ولما سألوه عن التحكيم قال :

إن علياً أعلم بكتاب الله منكم وأشد توقياً على دينه وأنفذ بصيرة ، فقالوا له : إنك تتبع الرجال على أسمائهم وجروه على شاطىء النهر ، فاستجار بكتاب الله وكان معلقاً برقبته ، فقالوا : إن الذي تستجير به يأمرنا بقتلك فذبحوه ؛ ثم جاؤوا إلى زوجته فبقروا بطنها واستخرجوا منها حملها ، وبعد قتله ساوموا نصرانياً على نخلة ليأكلوا ثمرها فبذلها لهم بدون ثمن فرفضوا أن يأخذوها إلا بثمنها ، فقال لهم : ما أعجب ما أرى منكم ! تقتلون مثل عبد الله بن خباب الصحابي الجليل ولا تقبلون منا نخلة إلا بثمنها ؟!

والعجب العجاب انهم يشرعون المبدأ الذي يتناسب مع ميولهم وأفكارهم ويخدم مصالحهم دون سواهم .

لقد اتفقوا بجميع فرقهم على تكفير مرتكب الكبيرة من الذنوب ، وإن فاعلها يخلد في النار ، ولم ينسب الخلاف لأحد منهم إلا للنجدات ؛ أتباع نجدة بن عامر الحنفي .

المرجئة :

أصل التسمية : وردت أقوال عدة في تسمية المرجئة فمنهم من قال انه مأخوذ من قولهم : أرجأت الأمر أي أخرته . وبهذا المعنى ورد في الآية الكريمة : ﴿ قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين ﴾(37) .

ومنهم من قال أنهم سموا بالمرجئة لأنهم يعطون الرجاء ، يقول هؤلاء : لا تضر مع الايمان معصية ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة . ولذلك غلب لفظ المرجئة على فئة من الناس وقفوا من الخوارج والمعتزلة موقفاً وسطاً ، حيث قال الخوارج : إن العصاة كفار ، وقال المعتزلة : ان العصاة مخلدون في النار . وقال المرجئة بأنهم مؤمنون لأن الايمان عقد القلب ، والعمل ليس جزءاً منه ولا شرطاً في تحققه ، فارتكاب المعاصي لا يسلب العبد صفة الإيمان .

ويرجع الدكتور أحمد أمين في فجر الاسلام أن الإرجاء بمعنى الامهال والتأخير ، وإن هذا الاسم أصبح علماً على الذين يرجئون أمر الفريقين فلا يقضون بحكم على هؤلاء ولا على هؤلاء(38) .

والذي يؤيد هذا المعنى هو أن كلمة المرجئة لم تعرف قبل العصر الأموي ولم تستعمل إلا بعد أن علم من حال الخوارج أنهم يكفرون العصاة سواء كانوا من الحكام أم من غيرهم . وقف المرجئة مقابل الفئتين ، الخوارج والمعتزلة ، فلم يحكموا عليهم بالكفر ولا بالعقاب في الدنيا بل أرجأوا ذلك وأخروه الى اليوم الآخر .

أما عن ظهور المرجئة كمدرسة مستقلة فكرية فليس محدداً وإنما المرجح أنهم ظهروا في أواسط العصر الأموي ، وأبدوا نشاطاً كبيراً في إشاعة فكرتهم ، وقد ناصرهم الحكام الأمويون لأنها تثبت شرعية ملكهم وإيمانهم وقد كانوا بأمس الحاجة إلى مقولتهم ، ولا سيما في

---

(37) الشعراء الآية 36 .

(38) راجع فجر الاسلام ص 279 .

تلك الظروف التي كان الخوارج ينادون بكفر الأمويين ، والمعتزلة يرون أن الاسلام عقيدة وعمل بالفرائض وبكل ما جاءت به الشريعة الاسلامية الحقة ، فمن لم يعمل بها ولا يطبق أحكامها يستحق الخلود في جهنم ولو كان معتقداً بكل أركان الاسلام . وبذلك يصبح الأمويون اما كفاراً كما يدعي الخوارج ، أو مخلدين في جهنم كما يدعى المعتزلة . أما عند المرجئة فهم مؤمنون لم يخرجوا عن الايمان بالرغم من استهتارهم وإسرافهم في المنكرات . ورد عند ابن حزم قال عن بعض فرقهم : « إن الإيمان الاعتقاد بالقلب وإن أعلن الكفر بلسانه ، وعبد الأوثان أو لزم اليهودية والنصرانية في دار الاسلام وعبد الصليب وأعلن التثليث في دار الاسلام ، ومات على ذلك فهو مؤمن كامل الإيمان عند الله عزّ وجلّ ومن أهل الجنة »(39) .

ومن الطبيعي أن تجد فكرة المرجئة هذه قبولاً عند بعض الحكام وأنصاراً أو مؤيدين لأن هؤلاء لا يجدون فرقة من فرق الاسلام تمنحهم هذه الصفات التي تؤكد لهم شرعية ملكهم وتسلطهم على رقاب المسلمين مهما أسرفوا في المعاصي واستهتروا بتعاليم الاسلام المقدسة . وليس غريباً ان نجد الحكام أنفسهم هم أبطال هذه الفكرة ودعاتها عندما شاعت آراء الخوارج والمعتزلة في العصاة ومرتكبي الكبائر .

وقد قضى عليهم العباسيون لأنهم كانوا يناصرون الأمويين . جاء عن بعض المستشرقين : إن البحث عن المرجئة وبدء تكوينها وتاريخها محاط بشيء من الغموض . والسبب في ذلك يرجع إلى أن الدولة العباسية قضت عليهم وأفنت أصحاب هذه المقالة ، لأنهم كانوا يناصرون الأمويين(40) .

وقد تفرقت المرجئة إلى فرق عدة ذكر منهم، السيد هاشم معروف الحسني نقلاً عن كتاب التبصير للاسفراييني .

إن القائلين بالارجاء قد افترقوا الى خمس فرق وعد منهم :

أ ـ اليونسية ، أتباع يونس بن عون ، القائلون أن الايمان بالقلب واللسان وحقيقته معرفة الله سبحانه ومحبته ، والتصديق برسله وكتبه .

ب ـ الغسانية ، أتباع غسان المرجئي القائل بأن الإيمان هو الاقرار بالله والمحبة له ، ولكنه يقبل الزيادة والنقصان .

ج ـ الثنوية ، أتباع ابي معاذ القائل بأن الإيمان ما وقاك من الكفر .

د ـ الثوبانية ، أصحاب أبي ثوبان المرجئي ، وهؤلاء قد أضافوا إلى الاقرار ، بالله ورسله ، الواجبات العقلية ، واعتبروا بصحة كل ما يراه العقل من أركان الإيمان .

هـ ـ المريسية ، أتباع بشير المريسي الذي أضاف إلى أقوال من ذكرناهم القول بخلق القرآن .

وما يبدو أن جميع هذه الفرق متفقة على أن العمل ليس من أركان الايمان . وقد

---

(39) الملل والنحل لابن حزم ج 4 ص 204 وانظر كذلك فجر الاسلام لأحمد أمين ص 281 .

(40) المصدر السابق ص 281 .

خالفهم باعتقادهم هذا أكثر الفقهاء والمحدثين فقالوا : الايمان من ثلاثة أركان : تصديق بالجنان ، وإقرار باللسان ، وعمل بالأركان .

وقد اشتهر من شعراء بني أمية بالقول بالارجاء ثابت بن قُطْنَة(41) وكان من أصحاب يزيد بن المهلب وأعوانه . له قصيدة تعد وثيقة قيمة في توضيح مذهب المرجئة . يستفاد منها أن صاحبها لا يحكم على أحد بالكفر مهما ارتكب من الذنوب ، وان المسلمين إذا اختلفوا وكفرت كل طائفة منهم الأخرى تركناهم الى الله يحاكمهم يوم القيامة بما يستحقون . قال :

نُرْجى الأمورَ إذا كانت مشبَّهة ... ونصدق القولَ فيمن جاز أو عندا
ولا أرى أن ذنباً بالغٌ أحداً ... م الناس شِركاً إذا ما وحَّدوا الصَّمدا
كل الخوارج مُخْطٍ في مقالته ... ولو تعبَّد فيما قال واجتهدا
أما عليٌّ وعثمانٌ فإنهما ... عبدان لم يشركا بالله مذ عبدا
وكان بينهما شغْبٌ وقد شهدا ... شقَّ العصا وبعين الله ما شهدا
يجزي علياً وعثماناً بسعيهما ... ولست أدري بحق آيةً وردا
الله يعلم ماذا يحضران به ... وكلُّ عبدٍ سيلقى الله منفردا

هذا النوع من الإرجاء الذي يدين به صاحب القصيدة هو الارجاء الذي يقول به جمهور الفقهاء ، وهو من أقرب المرجئة إلى الواقع ، لأنه ينفي العذاب عن العصاة ، ولا يقطع بعقوبتهم ، بل يترك الحكم عليها إلى الله وحده .

ومجمل القول ان الارجاء الذي شاع القول به في العصرين الأموي والعباسي وأصبح مذهباً لفريق من الناس في مقابل غيرهم من أصحاب المذاهب ، لا يقول به الامامية ، لأن هؤلاء مجمعون على أن المرجئة فساق ومعذبون بذنوبهم ، فهم لا يحكمون على العصاة بأي حكم من الأحكام وبعضهم يدعي ان مرتكبي الكبائر مؤمنون ومنعمون في الجنة !

المعتزلة

يظهر من المؤلفات التي صدرت حول المعتزلة وآرائهم ومعتقداتهم التي كانت تسيطر عليها النزعة العقلية ، إن السبب في وصفهم بالاعتزال يعود إلى ثلاثة أمور .

أ ـ كان واصل بن عطاء يتبنى الرأي القائل أن الإنسان يصنع أفعاله بنفسه بدون أن يكون لله أي أثر في ذلك . وهذا الاعتقاد اعتمده معبد الجهني وغيلان الدمشقي وهما أول من أظهرا القول بمعنى الاختيار المطلق في مقابل الجهمية أتباع الجهم بن صفوان ، الذين قالوا بالقدر المرادف للجبر . وقد تأثر واصل بهذه العقيدة وأخفاها عن رفقائه ، وحتى عن أستاذه الحسن البصري(42) ، بينما يرى الجمهور الأكبر من المسلمين أن أفعال الانسان

---

(41) إن فكرة المرجئة تخدم في أساسها مصلحة بعض الحكام كما ذكرنا ، فكان لا بد وأن يساعدوا على انتشارها وتداولها وتحويرها لصالحهم حتى أصبح الايمان عندهم الاقرار باللسان مهما ارتكب من المنكرات لا يعذب في النار .

(42) كان الحسن البصري يلقب إمام أهل البصرة لأن أثره فيها كان أوسع أثراً وأشده وقد امتاز بسعة الأفق ⟵

مخلوقة لله سبحانه ، فيكون وصفه بالاعتزال لأنه اعتزل رأي الجمهور الأكبر من المسلمين .

ب ـ ومنهم من يقول ان هذا الوصف غلب عليهم لأنهم اعتزلوا قول الخوارج والمرجئة والفقهاء في مرتكب الكبيرة ، حيث أن الخوارج يرونه كافراً والمرجئة يرونه مؤمناً يدخل الجنة ، والفقهاء يرونه منافقاً . ولما سئل الحسن البصري عن رأيه في أصحاب الكبائر فقال في مسجد البصرة :
« دخل أحدهم عليه وسأله : يا إمام الدين لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم لا تضر مع الايمان ، بل العمل ـ على مذهبهم ـ ليس ركناً من الايمان ، ولا يضر مع الايمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، وهم مرجئة الأمة ، فكيف تحكم لنافي ذلك اعتقاداً ؟ ففكر الحسن البصري ، وقبل أن يجيب تكلم واصل فقال : أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق ، ولا كافر مطلق ، بل هو في منزلة بين المنزلتين : لا مؤمن ولا كافر »[43] ثم قام واصل واعتزل الى ناحية في المسجد وانضم إليه جماعة منهم صهره عمر بن عبيد وغيره . ولما رأى الحسن ذلك منه نادى بأعلى صوته : لقد اعتزل عنا واصل ، اعتزل عنا واصل ، فسارت هذه التسمية في كل المجتمعات .

ج ـ والرأي الثالث يقول : انما وصفوا بالاعتزال لأنهم عزلوا مرتكب الكبيرة عن المؤمنين والكافرين كما يظهر ذلك[44] .

ويرى بعض المحدثين والمستشرقين أن جماعة من المسلمين كانوا أتقياء للغاية أعرضوا عن ملاذ الحياة وزهدوا في الدنيا فسماهم الناس معتزلة لهذا الإعتبار .

وثمة رأي يرجع مذهب الاعتزال إلى عهد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، فقد استعفاه جماعة من البيعة منهم سعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، ومحمد بن مسلمة ، وأسامة بن زيد وآخرون ، وامتنعوا عن البيعة لأنهم ـ في زعمهم ـ لم يبد لهم وجه الحق فيما صار إليه أمر الناس بعد عثمان ، فلذلك اعتزلوا الناس ، فلم يوافقوا من بايع علياً ولا من عصاه ، وهكذا يرى الحسن بن موسى النوبختي أن هؤلاء هم أصل المعتزلة إلى الأبد[45] .

= وقوة الورع ، وصدق الدين ، وبعد النظر ، حتى أمكن تسميته بدائرة المعارف ، كما ورد في موسعة الاسلام . يقصده طالب الفقه وطالب اللغة وطالب العقائد . أثيرت في عهده قضية القدر فرأى الحسن البصري وفقاً لمنهجه الجامع بين الايمان الورع والعقل المستنير ان الايمان لا يكون إيماناً حقاً إلا إذا حمل صاحبه حملاً على العمل بمقتضاه ، فإن عمل بما يؤمن به فهو مؤمن حقاً ، وإن نقص من العمل شيئاً نقص من إيمانه قدر ما نقص من عمله ومرتكب الكبيرة في رأيه منافق وليس بكافر ، والخير من الله والشر من العبد .

(43) انظر الملل والنحل للشهرستاني ج 1 ص 64 ـ وفجر الاسلام لأحمد أمين ص 298 .

(44) مروج الذهب للمسعودي .

(45) فرق الشيعة للنوبختي .

وقد وجدنا أن الرأي الشائع بين المؤرخين وكتاب الفرق ان واصل بن عطاء قد اعتزل مجلس استاذه الحسن البصري بعد أن كان أحد تلامذته المختصين به ، واتخذ مركزاً مستقلاً للمناظرة والبحث والجدل ، فوزع دعاته وأنصاره في البلاد ، فأرسل عبد الله بن الحارث إلى المغرب ، وحفص بن سالم إلى خراسان لمناظرة الجهم بن صفوان ، وألف كتاباً فيه ألف مسألة للرد على المانوية ، وانصرف جميع أتباعه كعمر بن عبيد وأشباهه الى الدعوة لمبادئهم[46] .

ثم أضاف واصل بن عطاء إلى القول بالمنزلة بين المنزلتين ، المبادىء الخمسة التالية التي لا يسمى معتزلياً من لم يأخذ بها أو يسلك غير سبيلها ، كما لا تتحمل المعتزلة إثمه ولا تلقى عليها تبعته .

هذه الأصول المعتزلية هي :[46]

1 ـ التوحيد .
2 ـ القدر .
3 ـ الوعد والوعيد .
4 ـ المنزلة بين المنزلتين .
5 ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ولكن ابن حزم يسرد تلك المبادىء على غير هذه الصورة فجعلها :

1 ـ القول بخلق القرآن .
2 ـ نفي رؤية السعداء لله يوم القيامة .
3 ـ نفي القدر .
4 ـ القول بالمنزلة بين المنزلتين .
5 ـ نفي الصفات .

التوحيد

كان التوحيد أهم مبادىء المعتزلة ، حتى نسبوا إليه فسموا أهل التوحيد ويتلخص في القول بأن صفات الله كالقدرة والارادة والعلم وغيرها هي عين ذاته وليست أشياء قديمة خارجة عن ذاته كما يقول « الصفاتية » وهم أهل السنة ، لأننا لو ذهبنا مذهبهم لاثبتنا وجود قديمين ، وهذا يقتضي وجود إلهين أو أكثر . فالمعتزلة نظروا إلى التوحيد نظرة بعيدة المدى ، فكانوا يردون على الملحدين رابطين بين النصوص القرآنية والآراء العقلية التي طالما دعوا الناس الى التفكير فيها . وقد ورد عن أكثر الباحثين ، أن الكلام في التوحيد كان للمعتزلة دون سواهم .

القدر أو العدل

نسب المعتزلة الى مبدأ ثان يكاد يضارع مبدأ التوحيد ، وهو العدل فقيل فيهم أهل العدل والعدلية . ويعني عندهم أن فعل العبد خيره وشره منه وليس من الله ، والله عز وجل

---

(46) راجع أبا حنيفة للشيخ محمد أبي زهرة ص 156 وفجر الاسلام لأحمد أمين ص 300 .

منح الانسان القدرة على ذلك ، إذ يقبح على الله أن يأمره بالفعل ثم لا يقدره عليه ، وينهاه عن الفعل ثم يضطره إليه .

وقد عولوا في هذا المبدأ على آيات قرآنية وأحاديث نبوية .

جاء في كتاب الله العزيز ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت . . ﴾[47] وجاء أيضاً في سورة المدثر :

﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾[48] .

وأوضح رسول الله عليه الصلاة والسلام ، هذا المفهوم نفسه في أحاديث كثيرة ، حيث رد الأشياء كلها ، بعد الاعتقاد بأن الانسان حر مختار ، الى الذي وهب القدرة عليها ، وهو الله عزّ وجل . قال :

« لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره أو شره »[49] .

أو قوله ﷺ : ﴿ ما بلغ عبد حقيقة الايمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وإن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ﴾[50] .

فالنبي ﷺ عرف العبد بقوته الذاتية بعد أن رد الأشياء في مبادئها ونهاياتها الى الذي منح القدرة عليها .

أجمع المعتزلة على اعتبار العبد خالقاً لأفعال نفسه مخترعاً لها ، بعد تسليمهم بأن الله على كل شيء قدير ، وأنه هو العليم الحكيم ، ولكن بمقتضى حكمته وعدله وعلمه ، لا يريد أن يكون له صنع في أفعال العبد ، لا في حال وجود الشيء وهو يريد إيجاده ، ولا في حال عدمه وهو يود إعدامه . لكن رأى أكثرهم أن أفعال الطبيعة التي تصدر عن الذات الانسانية ، اضطرارية تشبه ما نراه من ضرورات الحياة الطبيعية ، كالنار التي تحرق ، والثلج الذي يجمد الأعضاء[50] .

من هذا المنطلق كان اشتقاق كلمة القدرية ، وهم على تناقض تام مع القدرية الأخرى أي المجبرة الذين يقولون أن القدر خيره وشره من الله .

الوعد والوعيد

اعتمد المعتزلة في الأصل الثالث ، الوعد والوعيد ، على مفهوم التكليف ، فلولاه لما كان أي مسوغ أو موجب لارسال الرسل وإنزال الكتب . وعندما يؤمر العبد بمراعاة تلك التعاليم السماوية فالغاية كلها إشعاره بمدى قدرته على التقيد بما كلف به واجتناب ما نهى

---

(47) البقرة الآية 186 .
(48) المدثر الآية 38 .
(49) مسند أحمد ج 2 ص 181 .
(50) المرجع نفسه .
(51) راجع الملل والنحل للشهرستاني ج 3 ص 32 .

عنه ؛ ولو لم يكن أهلاً لاختيار عمله لما كان للتكليف معنى ، ولبطل مفهوم الوعد لمن أحسن والوعيد لمن أساء .

وللانسان المختار أن يسائل نفسه : هل أجبرني الله على عملي ثم يحاسبني على ما فرطت يداي ؟ ايقدرني على شيء ثم يحاسبني على ما أقدرني عليه ويظلمني هل يقف الانسان هذا الموقف أم يكون هو خالقاً لأعماله بنفسه ، ثم إن أساء عوقب ، وإن أحسن أثيب ؟(52) .

ليس للمعتزلة أن يختاروا بين هاتين الزاويتين المتضادتين لئلا ينسبوا إلى الله الظلم والجور ، فنفوا عن الله كل ذلك مستندين إلى آيات في القرآن الكريم﴿وان الله ليس بظلام للعبيد ﴾(53) وقوله : ﴿ وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾(54) .

نظر المعتزلة إلى حدود قدرة الله نظرة تنزهه عن الظلم والجور . فقالوا رداً على مرضى القلوب : إن قدرة الله لا تتناول حد الظلم ، والظلم ليس في متناول يده ، فالله عادل لا يفعل الظلم ولا يجور على أحد من عباده . وقد أولوا ما ورد من آيات وأحاديث بما ينسجم مع منهجهم العقلي الذي ينفي نسبة الظلم الى الله !

المنزلة بين المنزلتين

شاع هذا الأصل عندهم لأنه كان المنطلق الأول نحو تسميتهم بالمعتزلة منذ اليوم الذي اعتزل فيه واصل بن عطاء أستاذه الحسن البصري ، وحكم على مرتكب الكبيرة بأنه منافق ، ليس بالمؤمن ولا بالكافر . هذه الفكرة ميزت المعتزلة عن سواهم ومنحتهم طابعاً خاصاً تميزوا به .

إن التوازن في الحياة الانسانية والتزام الطريق الوسط معروف في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف . لقد دعا الله في كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل لا من خلفه ولا من أمامه ، إلى التزام التوسط والاتزان ، فلا نغل يدنا كل الغل ولا نبسطها كل البسط . جاء في سورة البقرة : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا . . ﴾(55) .

وقال النبي أحاديث كثيرة في هذا المجال ، مجال الاتزان والالتزام في العقائد والأخلاق فقال : « خير الأمور أوسطاها » .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

أكبر المعتزلة هذا الأصل ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، معتقدين أن لن يساويهم أحد في قوة الدفاع عن الدين ، وردع الناس عن الأعمال المنكرة . وقد اعتمدوا في مبدئهم هذا على الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، ونصوص الاسلام صريحة وكثيرة في الأمر

---

(52) الملل والنحل ج 3 ص 56 .
(53) آل عمران الآية 182 .
(54) البقرة الآية 57 .
(55) البقرة الآية 143 .

بالمعروف والنهي عن المنكر . منها قوله تعالى : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾[56] وقول النبي ﷺ في حديثه المعروف :

« من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » .

ولنا مثل واضح من رائد المعتزلة واصل بن عطاء في مهاجمته بشاراً بعنف ، فعرض به في الأسواق والمجالس وحلقات الدرس . ورد في البيان والتبيين قال : « أما لهذا الملحد الأعمى المشنّف المكنّى بأبي معاذ من يقتله ؟ أما والله لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية لبعثت إليه من يبعج بطنه على مضجعه ويقتله في جوف منزله وفي يوم حفله »[57] .

واستمر واصل في تحريضه الناس على بشار حتى نفاه عن البصرة الى حران . وفيها بقي حتى مات واصل ، فتجرأ عندئذٍ بشار المنفي الى الرجوع الى مدينته العريقة .

أخذت مدرسة الاعتزال تنشط وتنتشر بمبادئها ومناهجها ، بمناصرة الحكام العباسيين الى أوائل القرن الرابع الهجري سنة 331 هـ في السنة التي توفى فيها الجبائي ، الرائد المعتزلي الأخير لتلك المدرسة .

وخلال هذه المدة بلغ عدد الرواد من المعتزلة عشرين رائداً . ولكل زعيم منهم أتباع ومؤيدون .

وبموت الجبائي وظهور الأشعري خفت صوت المعتزلة ، وبدأ الضعف يسري فيهم ، ولا سيما بعد أن لقي الأشعري من الحكام ما شجعه على المضي في الطريق الذي اختطه لنفسه بعد أن لازم المعتزلة زمناً طويلاً ، وتلقى عنهم أكثر معلوماته .

ومع ذلك لم ينته عهد الانعزال ولكنه بقي محدوداً في نطاق الفرق المتعددة التي أنهاها الباحثون في الفرق الاسلامية الى عشرين فرقة . وحول آراء هذه الفرق كانت تنشط المناظرات والمجادلات التي بلغت حد العنف ، وربما كانت تنتهي بالتفسيق والتكفير من كلا الفريقين .

أول هذه الفرق للرائد الأول واصل بن عطاء تلميذ الحسن البصري .

الواصلية

نسبة إلى واصل بن عطاء[58] . يقوم اعتزال الواصلة على أربع قواعد :

---

(56) آل عمران الآية 104 .

(57) البيان والتبيين ج 1 ص 31 .

(58) كان مولده بالمدينة سنة ثمانين من الهجرة ، نشأ في أحضان مواليه الهاشميين كما جاء في بعض الروايات ، وقيل أنه كان مولى لبني ضبة وكني بأبي حنيفة وقد نسبه اسحق بن سويد الى الخوارج وفي ذلك يقول :

برئت من الخوارج لست منهم ... من الغزال منهم وابن باب

ويظهر مما رواه المؤرخون أنه كان واسع العلم قوي الحجة محيطاً بمذاهب العصر الذي عاش فيه ؛ وكان مع ذلك لا يتكلم إلا بمقدار الحاجة ، حتى اتهم بالخرس من طول صمته وبقيت صلاته طيبة باستاذه الحسن

أ ـ نفي صفات الله تعالى من العلم والقدرة والارادة والحياة .
ب ـ القول بالقدر فأفعال العباد عندهم محصورة في النظر والعلم ، فمن المستحيل أن يخاطب الله عبده بصيغة (إفعل) وهو عاجز عن الفعل ، وإنما يخاطبه حين يكون بعدله وحكمته قد آتى الانسان مقدرة على صنع أعماله بنفسه .
ج ـ المنزلة بين المنزلتين وقد ورد الحديث عنها سابقاً .
د ـ قولهم في الفريقين المتنازعين من أصحاب الجمل وأصحاب صفين : إن أحدهما مخطىء لكن لا بعينه ، فالخطأ واقع ولكنا لا نعرف من المخطىء . وهذا ما يؤيد ما قيل عنهم أنهم أقرب الى الخوارج .

ثم انتقل واصل وأصحابه من القول المطلق إلى التخصيص حين حكموا على أحد الفريقين بالفسوق لا بالنفاق . وجاء عنه أنه قال : لو شهدوا بأجمعهم على باقة بقل لم أقبل شهادتهم[59] .

الفرقة الثانية : العمرية

أتباع عمر بن عبيد[60] تلميذ الحسن البصري وقد لازمه زمناً طويلاً . ولما اعتزل واصل عن أستاذه واستقل في زاوية من زوايا المسجد مع جماعة كانوا يرون رأيه انضم إليه عمرو بن عبيد ، بعد محاورة جرت بينهما بالنسبة لمرتكب الكبيرة ، واتفق هو وواصل على أصول الاعتزال الخمسة . وقد كان متصلباً في اعتناق القدرية ، فقد ادعى أن لا سيطرة على الانسان في أفعاله والانسان وحده هو الذي يصنع ويفعل .

وقد خالف زميله في الحكم على علي (ع) وطلحة والزبير ومعاوية ، فذهب الى أن كل واحد منهم فاسق بعينه وظالم للآخر ، بينما كان واصل يدعي أن أحد الفريقين لا بعينه ظالم للآخر ، والحق في جانب أحدهما ، ولكنهما قد اتفقا معاً على تفسيق معاوية ومن معه .

وتؤكد المصادر التاريخية أنه رفض صلة من المنصور العباسي عندما أهدى إليه الأموال والنفائس . وله مع الخليفة مجالس كان يعظه بها ويوجه إليه الانتقادات اللازمة . وجاء عنه أنه مر على سارق قد أمر الحاكم بقطع يده ، فقال عمرو : لا إله إلا الله ، سارق السر قطعه سارق العلانية .

الفرقة الثالثة : الهذيلية

أتباع محمد بن الهذيل المعروف بالعلاف[61] كان في البصرة وقد رحل الى بغداد بعد أن

= البصري إلى أن خالفه في مرتكب الكبيرة ، فانقطع بينهما حبل المودة ، وبعد حوار طويل بينه وبين رفيقه عمرو بن عبيد اعتنق عمرو مذهبه الشيعة وقال : « ما بيني وبين الحق من عداوة » .

(59) راجع الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة للسيد هاشم الحسني ص 131 .

(60) ولد عمرو وزميله واصل بن عطاء في سنة واحدة ، كان والده نساجاً في بداية أمره ، ثم عين في شرطة الحجاج الثقفي وبطانته . ولسوء سمعة أبيه في البصرة كان الناس يقولون بعد أن نبغ ولده عمرو : خير الناس ابن شر الناس وهم يعنون بذلك عمرواً ووالده .

(61) عاش أبو الهذيل مائة سنة وتوفي سنة 227 هـ كما في رواية المسعودي في مروج الذهب . وولد في البصرة سنة 135 هـ .

دعاه المأمون سنة 204 هـ وسمي بالعلاف لأن داره في محلة العلافين بالبصرة . كان بارعاً قوي الجدل . في وسط البصرة الفكري المتضارب بشتى النزعات والأهواء المتباينة ، نشأ أبو الهذيل أحد أعلام الطبقة الثانية من طبقات المعتزلة ، وقف على رأي علماء عصره في مختلف النواحي ، وقد اختاره المأمون رئيساً لمجلس مناظراته ، روى عنه ابن خلكان ان صالح بن عبد القدوس(62) مات له ولد فحزن عليه كثيراً فقال له أبو الهذيل :

لا أعرف لجزعك وجهاً ! إذا كان الانسان عندك كالزرع ، فقال له صالح : إني لأجزع عليه لأني قد ألفت كتاباً إسمه كتاب الشكوك ولم يقرأه، وهو كتاب يشك كل من قرأه فيما كان حتى يتوهم أنه لم يكن ، وفيما لم يكن حتى يتوهم أنه قد كان ، فقال له أبو الهذيل : فشك أنت في موت ابنك ، واعمل على أنه لم يمت وان كان قد مات . وشك في قراءة كتاب الشكوك وإن كان لم يقرأه(63) .

ومما اختص به من شيوخ المعتزلة أنه كان يذهب الى أن مقدورات الله سبحانه لا بد وأن تنتهي بحيث يصبح عاجزاً عن كل شيء ، وعندها لم يستطع أن يزيد في نعيم أهل الجنة ، ولا في عذاب أهل النار .

ومن آرائه أن الله لا يقدر على ما أقدر عليه عباده ولا يوصف بالقدرة على الصلاة والصيام وغيرهما من موضوعات التكاليف ، لأنها أعمال جسمية ، وهو منزه عن كل ما هو من لوازم الجسم(64) .

النظامية ، الفرقة الرابعة من فرق المعتزلة

اتباع ابراهيم بن سيار النظّام المتوفى سنة 221 هـ وله من العمر 35 سنة . كان من العلماء البارعين في علم الكلام والفلسفة ، وقد حفظ القرآن والانجيل والتوراة ، كما كان يحفظ الكثير من أشعار العرب وفتاوى الفقهاء وتاريخ الأمم .

وقد تناقض أقوال المؤرخين فيه فمنهم من وصفوه بالإلحاد والكفر وإليه ينسبون ما وجدناه عند أبي نؤاس(65) :

ما زلت آخذ روح الزق في لطف	وأستبيح دماً من غير مجروح
حتى انثنيت ولي روحان في جسدي	والزق مطرح جسماً بلا روح

---

(62) كان صالح على مذهب الثنوية القائلين بتعدد الآلهة : وقد صلى يوماً الصلاة التي يصليها المسلمون فقيل له ما هذه الصلاة ومذهبك معروف ؟ فقال : أصليها لأنها سنة أهل البلد . انظر الأمالي للسيد المرتضى ج 1 ص 100 .

(63) راجع الفرق الاسلامية ص 155 .

(64) المرجع نفسه ص 164 . والملل والنحل للشهرستاني ح 1 ص 19 .

(65) من هؤلاء عبد الله بن مسلم بن قتيبة المتوفى سنة 276 هـ .

ومنهم من وصفوه بالاستقامة والدين والدفاع عنه ضد كيد الملاحدة(66) وقد نسب إليه أنه قال : القرآن لا إعجاز فيه ، وينكر جميع المعجزات التي رواه المحدثون عن الرسول ﷺ . وكان يتأول صفات الله تأويلاً سلبياً . وله آراء أخرى خالف فيها أسلافه المعتزلة كانت من جملة المآخذ عليه حتى ألف بعضهم كتاباً في تكفيره(67) .

الفرقة الخامسة : الجاحظية

أتباع عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى 256 هـ له مؤلفات كثيرة بحث في شتى المعارف العلمية والأدبية والفلسفية والتجارة والصناعة . . . (68) تدل على سعة علمه وقدرته في علم الكلام والجدل والمناظرات . من جملة مؤلفاته كتاب الحيوان ، يقول فيه أن المعارف كلها من لوازم الطبيعة ، ومن عرف شيئاً عرفه بطبعه لا بتعليم . ولم يخلق الله له علماً به . أما فيما يعود إلى مرتكب الكبيرة ، فقد ذهب إلى ان الله لا يدخل العصاة في النار ، بل هي تجذبهم إليها ، وإن القرآن جسد ينقلب تارة رجلاً وأخرى امرأة .

الفرقة السادسة : الجبائية

أتباع محمد بن عبد الوهاب الجبائي المتوفى سنة 303 هـ وهو الزعيم الأول للطبقة الثالثة من المعتزلة . تميز بالذكاء من صغره . واشتهر بالاقناع وقوة الحجة والبرهان عندما اكتملت رجولته ، ونبغ في علم الكلام ، حتى بلغ ما أملاه على تلامذته مائة وخمسون ألف ورقة (69) ومن أشهر تلامذته وأكثرهم اتصالاً به علي بن اسماعيل الأشعري ، رافقه مدة أربعين سنة أخذ عنه آراء المعتزلة وعقائدهم وأصبح من أعلامهم المتبحرين ، وبعد أن لمع صيته واشتهر انفصل عنهم وتراجع عن مذهب الاعتزال ، وألّف في الرد عليهم . وقد ذكر كتاب الفرق بعض المناظرات التي كانت تجري بينه وبين أستاذه أدت إلى انفراد الأشعري عنه . من جملتها :

إن رجلاً دخل على الجبائي وقال له : هل يجوز أن يسمى الله عاقلاً ؟ فقال الجبائي : لا ! لأن العقل مشتق من العقال ، وهو المانع ، والمنع في حقه سبحانه محال . فقال له أبو الحسن الأشعري : فعلى قياسك لا يسمى الله حكيماً ، لأن هذا الاسم مشتق من حكمة اللجام وهي الحديدة المانعة للدابة عن الخروج . فإذا كان اللفظ مشتقاً من المنع ، والمنع على الله محال ، لزمك أن تمنع إطلاق اسم حكيم عليه سبحانه وتعالى .

أجاب الجبائي : لم منعت أنت ان يسمى الله سبحانه عاقلاً ، وأجزت أن يسمى حكيماً أجابه الأشعري : لأن طريقي في مأخذ أسماء الله الإذن الشرعي دون القياس اللغوي ، فأطلقت عليه حكيماً متابعة للشرع ، ولم أطلق عليه عاقلاً لأن الشرع قد منع من ذلك(70) .

---

(66) أنظر الفرق الاسلامية ص 190 وما بعدها .

(67) المصدر نفسه .

(68) راجع أعلام في العصر العباسي للمؤلف « الجاحظ » .

(69) راجع الشيعة بين الاشاعرة والمعتزلة للسيد هاشم معروف الحسني ص 140 .

(70) أنظر الفرق الاسلامية .

وبسبب تباين الرأي واختلاف وجهة النظر بين الاستاذ والتلميذ بعد مناظرات عديدة انفرد التلميذ عن أستاذه وترك المعتزلة بعد أن دافع عنها زمناً طويلاً بتجرد واخلاص ؛ ومن يتتبع تاريخ كبار المعتزلة الذين ترأسوا فكرة الاعتزال منذ ظهور واصل حتى الجبائي في القرن الثالث ، يجد بينهم اختلافاً كبيراً في أكثر المسائل الكلامية والفلسفية . حتى أن ابن الجبائي محمد خالف والده في مسائل عدة .

وهناك فرق أخرى لا يتسع المجال هنا لذكرها كالاسوارية أتباع علي الأسواري من تلامذة النظام ، والمعمرية أتباع معمر بن عباد ، والجعفرية أتباع جعفر بن بشير وجعفر بن حرب ، والاسكافية أتباع محمد بن عبد الله الاسكاف ، والبشرية أتباع بشر بن المعتمر ، والهشامية أتباع هشام بن عمر القوصي ، والحابطية أتباع أحمد بن حابط ، والثمامية أتباع ثمامة بن الأشرس النميري ، والمزدارية أتباع عيسى بن صبيح المزدار ، والخياطية أتباع عبد الرحيم الخياط - ومجمل القول أن هذه الآراء القليلة التي عرضناها من آراء المعتزلة تمثل النزعة العقلية التي طغت على تفكير المعتزلة ، فقد اعتمدوا العقل وحده في جميع أبحاثهم شرعية كانت أم غيرها ، محاولين حل جميع المشاكل حلاً منطقياً مقنعاً . لذلك أقروا للعقل وحده بالسلطة المطلقة واعتبروا الشرع موضحاً ومتمماً لشريعة العقل ، حتى أنهم توصلوا إذا بدا تناقض بين ما جاء به الوحي ، وبين ما حكم به العقل ، فلا بد لهم من تأويل الوحي بما يوافق حكم العقل . فشريعتهم هي شريعة العقل وهي عندهم في منتهى القداسة ، ولا يمكن أن تمس بأي حال من الأحوال .

هذا الإفراط في تحكيم العقل كان حدثاً جديداً في تاريخ الاسلام بنظر المحدثين الذين اعتادوا أن يبحثوا الدين عن طريق النصوص منذ فجر الاسلام لذلك اتسعت شقة الخلاف بنهم وبين المعتزلة ، وتراشقوا بالخروج عن الدين والتكفير ، فادعى كل منهما أنه وحده الحامي عن الاسلام من كيد المعتدين والدساسين وحاولوا فرض آرائهم على الناس ولا سيما محنة خلق القرآن التي جرت البلاء على الفريقين ، وبلغت أشدها فى عهد المعتصم والواثق اللذين تبنا وصية المأمون بمساعدة المعتزله والتنكيل بخصومهم

وبقي سلطان المعتزلة في صعود حتى جاء المتوكل العباسي فخفف من حدته ، وأفسح المجال للمحدثين ليعملوا باجتهاداتهم ويعبروا عن آرائهم ، ولا سيما في الشطر الأخير من حكمه .

ومع أن تلك الخصومات المذهبية التي استمرت قروناً من الزمن قد أضرّت بالمسلمين ، بما أدخلته من الآراء المستوردة من أعداء الإسلام ، إلا أنها أفادت من عدة نواح إيجابية ، فلا يسعنا أن نتجاهل المكاسب التي استفادها المسلمون من هذا الصراع العقائدي ، ومن تحكيم العقل والمنطق في تعليل الحوادث وإرجاع الأمور إلى أسبابها الواقعية . هذا الأسلوب الجديد أفاد الفكر الاسلامي كثيراً ، وأكسبه قوة ومرونة على الجدل والنقاش .

والواقع أن لكل من الطرفين حسناته وسيئاته فكلاهما قد أفسد بما أدخل على الدين من البدع، وما يسيء الى تعاليم الاسلام ومبادئه القوية كما أفاد من ناحية أخرى بما أكسب

الفكر الاسلامي قوة ومرونة وغنى في وجه الدساسين والمخربين . ومن هذا الصراع الفكري تم نشر الثقافة الاسلامية في الأمصار ، وتأليف الموسوعات العلمية والدينية والفلسفية الغنية جداً بالعطاء الخير الجزيل .

وبقيت الخصومات العقائدية بين المعتزلة والمحدثين إلى أوائل القرن الخامس الهجري ، حتى جاء القادر العباسي فتدخل رسمياً لانهائها ، ووضع حداً لها بعد أن جمع المحدثين وأنصارهم الأشاعرة ، فوضعوا كتاباً أسموه « الاعتقاد القادري » تضمن ما يجب على المسلم الاعتقاد به من أصول الدين كالتوحيد وصفات الله . وخلق القرآن وغير ذلك من المسائل التي كانت محلاً للخلاف بين الطرفين . ثم وقعه الطرفان وتعهدت الخلافة بنشره بين المسلمين وعقاب كل مخالف له بعقوبات صارمة . وأصدر الخليفة القادر أوامره بعدم الخوض في المباحث الكلامية والمناظرات على مذاهب الاعتزال على الاطلاق .

وبذلك تم القضاء على الاعتزال كمذهب ، وأصبحت السيادة المطلقة لمذهب المحدثين والأشاعرة بتأثير السلطة الحاكمة يومذاك . وانتهى دور الاجتهاد وتحكيم العقل في أصول العقائد . وكلمة أخيرة نقولها في هذا المجال : إن التحجير على العقول ومنعها من التحليق في رحاب العلم ومجالاته الواسعة إساءة الى العلم والدين معاً ولولا العقول البصيرة النيرة لما نجحت دعوة الرسل الكرام في إصلاح الفاسد وتقويم المائل عن الحق ، ولما تقدمت الامم في تاريخ حضاراتها الانسانية التي نشرت خيراتها العميمة على بني الانسان في كل مكان .

أهل السنة

عرفوا أهل السنة بأهل الحديث وذلك قبل أن تتكون مدرستهم بمناهج عقلية خاصة ، كما عرفوا بالتابعين ، الطبقة الثانية بعد الصحابة . وكان همهم الوحيد منصرفاً إلى الأبحاث الفقهية التي يتكون منها القانون الاسلامي بفرعيه : العبادي والعملي ، ومن جهة أخرى اهتموا بالأحاديث النبوية وتفسيرها وتصنيفها وتمييز الصحيح منها من الموضوع فيها .

كان شعارهم قبل أن تتكون مدرستهم المعروفة باسمهم ، عدم البحث في جميع مسائل نظام الحكم والإدارة في الخلافة الاسلامية ، وعدم التعرض لكل ما يتصل بالصحابة من قريب أو بعيد .

تكونت مدرستهم على يد أبي الحسن الأشعري ، وذلك بعدما انفصل عن الجبائي الزعيم الأخير من زعماء المعتزلة . وقد حدث كما أشرنا آنفاً إلى خلاف بينهما في مسائل عدة إثر مناظرات ومحاورات طويلة .

من مسائل الخلاف . بينهما : الصلاح والأصلح ، فقد كان الجبائي يذهب إلى وجوبه فيوجب تبعاً لذلك بعث الأنبياء والرسل ، وخالفه الأشعري في ذلك فقال بعدم وجوبه . ولذلك ذهب إلى أنه لا يجب على الله إرسال الأنبياء والرسل[71] قال الشهرستاني « . . . حتى جرى بين أبي الحسن الأشعري وبين أستاذه مناظرة في مسألة الصلاح والأصلح ، فتخاصما

(71) أنظر الملل والنحل للشهرستاني .

وانحاز الأشعري إلى هذه الطائفة ـ أي أهل الحديث والفقهاء ـ فأيد مقالتهم بمناهج كلامية ، وصار ذلك مذهباً لأهل السنة والجماعة »[72] .

وقد أطلقوا على هذه الفرقة أيضاً « الصفاتية » مقابل المعتزلة الذي سموهم « المعطلة » لأنهم ذهبوا الى تأويل كل ما ورد في الكتاب والسنة من صفات الله ، فقالوا أنها عين ذاته وليس مباينة لذاته .

أما أهل السنة فكما أسلفنا أخذوا ما ورد في الكتاب والسنة من صفات الباري عزّ وجل على ظاهره فقالوا هو قادر بقدرة ، ورحيم برحمة ، وعالم بعلم . . . وقالوا : إن هذه الصفات موجودة قديمة ومباينة لذاته ، ومن هنا لقبوا بالصفاتية . وقد ابتعدوا وغالوا في إثبات الصفات فانتهى بهم الأمر الى التجسيم فأثبتوا لله عيناً ويداً ورجلاً ووجهاً وأعضاء تشبه أعضاء البشر ومنهم الكرامية أصحاب محمد بن كرام[73] وقد تبع أبا الحسن الأشعري في مذهبه طائفة من علماء الحديث كالقاضي أبي بكر الباقلاني ، وأبي إسحق الاسفراييني ، وأبي حامد الغزالي .

الأشاعرة

ينتسب الأشاعرة إلى علي بن إسماعيل المعروف بأبي الحسن الأشعري[74] وهو الذي وضع أصول هذا المذهب بعد أن انفصل عن أستاذه الجبائي إثر مناظرات في مختلف المواضيع . ناصر الأشعري المحدثين في أكثر آرائهم في أصول العقائد ، وقد سلك طريقاً وسطاً بين المحدثين الذين يعتمدون النصوص ، ولا يرون للعقل أي سلطان ، وبين المعتزلة الذين اعتمدوا على العقل وحده فهو عندهم السلطان الأكبر ، حتى أنهم اعتبروا الوحي مقرراً لأحكام العقل .

وبعد انفصاله عن استاذه الجبائي ، وقف الى جانب خصومه الأشداء على المعتزلة . وعلى حد قول ابن المقفع : احذر الصديق إذا انقلب عدواً ! وقد سأل استاذه عن حقيقة الطاعة ، فقال الجبائي : هي موافقة الارادة : فقال له الأشعري : هذا يوجب أن يكون الله مطيعاً لعبده إذا أعطاه مراده فالتزم الجبائي بذلك .

وقد بلغت الخصومة أشدها بينهما في مسألة الصالح والأصلح على الله سبحانه ، وكان لا يرى ذلك الأشعري . فقال له : ما قولك في ثلاثة : مؤمن وكافر ، وصبي ؟

قال الجبائي : المؤمن من أهل الدرجات والكافر من أهل الدركات ، والصبي من أهل النجاة .

---

(72) المرجع السابق .

(73) الملل والنحل للشهرستاني .

(74) ولد في البصرة سنة 260 وتوفي سنة 333 هـ وينتهي نسبه إلى بن موسى الأشعري وقد نشأ ببغداد وتوفى فيها . وأخفى أصحابه قبره خوفاً من أن ينبشه الحنابلة لأنهم أباحوا دمه وحكموا بكفره . اتصل بالمعتزلة ولازم الجبائي حوالي 40 سنة كان من ألصق الناس به وأشدهم إيماناً بآرائه ثم أنفصل عنه وأصبح من ألد خصومه .

قال الأشعري : فإن أراد الصبي أن يرقى إلى أهل الدرجات بعد موته صبياً ، هل يمكن ذلك أم لا ؟

قال الجبائي : لا يمكن ذلك ، لأن المؤمن إنما نال هذه الدرجات بالطاعة وليس للطفل مثلها .

قال الأشعري : للطفل أن يقول له : ليس التقصير مني ، فلو أحييتني كنت أعمل الطاعات كعمل المؤمن .

أجاب الجبائي : إن الله يقول له : كنت أعلم أنك لو بقيت لعصيت ، فراعيت مصلحتك ، وأمتك قبل أن تنتهي إلى سن التكليف .

فرد الأشعري : فللكافر إذن أن يقول له : لقد علمت حالي كما علمت حال الطفل ، فهلا راعيت مصلحتي مثله ، وأمتني قبل سن التكليف ، كي لا أقع في معصيتك التي نلت بها العقاب ؟

وعندما وصل النزاع بينهما إلى هذا الحد ، وجد الجبائي نفسه عاجزاً فأعرض عنه[75] .

وبعد هذه المناظرة اعتكف الأشعري في بيته زمناً طويلاً عن جميع الناس وتفرغ للمقارنة بين آراء المحدثين والفقهاء ، وآراء المعتزلة .

وبعد التمحيص والمقارنة والدراسة الدقيقة لآراء الفريقين خرج على الناس ودعاهم إلى الاجتماع في مسجد البصرة بعد الصلاة ، ثم وقف خطيباً أمام تلك الجماهير المحتشدة وقال : [76]

أيها الناس! أنا علي بن اسماعيل بن إسحق الأشعري . كنت أقول بخلق القرآن وإن الله تعالى لا يرى بالأبصار ، وان أفعال الشر أنا أفعلها ، وأنا تائب مقلع عما كنت أقول ، ومتصدٍ للرد على المعتزلة ، ومخرج لفضائحهم . وقد تغيبت عنكم هذه المدة ، ونظرت في الأدلة فتكافأت عندي ، ولم يترجح شيء على شيء ، فاستهديت الله سبحانه وتعالى فأهداني إلى اعتقاد ما أودعته كتبي هذه ، وانخلعت من جميع ما كنت أعتقد ، كما انخلعت من ثوبي هذا . ثم انخلع من ثوب كان عليه، وأبرز للناس ما كتبه في المدة التي احتجب فيها عن الناس ، وكان قد ألّف كتابه (الإبانة) الذي أورد فيه مذهبه ، كما ألف في الموضوع نفسه كتابين آخرين هما : الموجز والمقالات . ومما جاء في كتبه التي أبرزها للناس : أن ديانتنا التي تدين بها هي التمسك بكتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ وما روي عن الصحابة ، والتابعين وأئمة الحديث . واستطرد يقول : ونحن بذلك معتصمون لما كان عليه أحمد بن حنبل نضّر الله وجهه ، ورفع درجته ، وأجزل مثوبته متبعون ، ولمن خالف قوله مجانبون ، لأنه الامام الفاضل والرئيس الكامل الذي أبان الله به الحق عند ظهور الضلال ، وأوضح به المنهاج ،

---

(75) أنظر المذاهب الاسلامية لأبي زهرة ص 286 والفرق الاسلامية لعلي الغرابي .

(76) المرجع السابق ص 226 ومقدمة كتاب مقالات الاسلاميين لمحمد محي الدين عبد الحميد ص 24 .

وقمع به بدع المبتدعين وزيغ الزائفين ، وشك الشاكين[77] .

يبدو واضحاً أنه يناصر آراء المحدثين وعلى الأخص أحمد بن حنبل الخصم العنيد لمذهب الاعتزال[78] ، ومع ذلك فقد لقي من الحنابلة عنتاً شديداً وتحاملاً عليه وعلى أتباعه ، من هؤلاء رجل من شيوخ الأشاعرة يدعى القشيري ، اضطر إلى الخروج من بغداد وهجرها من شدة وطأ الحنابلة عليه .

وقد نسبوا إليه بعض الآراء الشاذة ليوجهوا الرأي العام ضد الأشاعرة من ذلك : أن الرسول ﷺ كانت نبوته في حال حياته أما بعد وفاته فقد انتهت نبوته[79] .

أما عن سبب هذا الصراع بين الأشاعرة والحنابلة المحدثين ، فمرده إلى أن الأشعري وان تجاهر أولاً بالدعوة لمذهبهم ، وتأييده لآراء الامام أحمد شيخ الحنابلة الأول ، إلا أن دراسته الطويلة على المعتزلة ، وأتباعه لطريقتهم نحواً من ثلاثين سنة أو أكثر ، طبعته بطابعهم وأثرت على تفكيره تأثيراً عميقاً ، فلم يستطع أن يتحرر منها مهما جرب وحاول . ولذا نراه في جميع أبحاثه لم يتعبد للحديث وحده تعبد المحدثين ، ولم يسلط سلطان العقل عليه ، بل حاول أن يوفق بينهما متخذاً موقفاً وسطاً .

أما إذا حاولنا تلخيص آرائه بإيجاز نستطيع القول :

ـ رؤية السعداء لربهم يوم القيامة

اعتمد الأشعري في هذه الرؤية الى بعض الآيات القرآنية ورد في سورة المطففين ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذٍ لمحجوبون ﴾[80] . فقال : وندين أن الله تعالى يرى بالابصار يوم القيامة كما يرى القمر ليلة البدر ، يراه المؤمنون ويحجب عنه الكافرون .

لم يؤول الأشعري النصوص القرآنية ، ولم ينف أخبار الآحاد النبوية كما فعلت المعتزلة ، ولم يقل كالمشبهة : إن الله يرى يوم القيامة بكيف وحدود . فهو إلى التوسط أقرب وهذه هي مزيته في جميع آرائه . فرغم استدلاله للعقائد على طريقة المعتزلة لم يهمل النصوص كما أهملوها ، ولم يتطرف تطرفهم المعروف .

ـ أفعال العبد مخلوقة لله سبحانه

قال تعالى : ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾[81] .

قال الأشعري إن أفعال العبد مخلوقة لله سبحانه ، لا يقدر العباد أن يخلقوا منها شيئاً . فالإنسان إن لم يستطع خلق عمله فهو قادر على كسبه . وهنا أيضاً نرى الأشعري يقف وسطاً بين المعتزلة المصرحين بأن العبد هو الذي يخلق أفعاله بنفسه بقوة أودعها فيه الله تعالى ، وبين

(77) المرجع السابق .

(78) كما جاء في كتب الاشعري الابانة والموجز والمقالات .

(79) الحضارة الاسلامية لآدم متز ج 1 ص 362 .

(80) المطففين الآية 15 .

(81) الصافات الآية 96 .

الجبرية القائلين : إن الإنسان كالريشة في مهب الريح[82] .

ـ القرآن غير مخلوق

في نظر الأشعري إن القرآن كلام الله وهو غير مخلوق ، ولا حادث ، ولا مبتدع ، لكن الحروف المقطعة فيه ، والألوان ، والأجسام ، والأصوات هي مخلوقات المبتدعات . على حين ذهبت المعتزلة الى أن القرآن مخلوق محدث خلقه الله تعالى .

ـ الأخذ في مسألة التوحيد بظواهر النصوص القرآنية والأحاديث النبوية

وصف الأشعري الله تعالى بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسول الله ﷺ فقال بوضوح تام : « إن الله واحد أحد ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وهو على عرشه كما تقول الآية الكريمة ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ وان له يدان ، لقوله ﴿ يداه مبسوطتان ﴾ وله وجه : ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ﴾ وإن أسماء الله لا يقال : إنها غير الله كما يدعي المعتزلة والخوارج : « أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة »[83] .

ـ القبيح هو المنهى عنه فقط

ذهب الأشعري أن العمل القبيح هو المنهى عنه فقط من الوجهة الشرعية ، أما العمل الحسن فلا . ولذلك لم ير إيجاب الأصلح على الله ، إذ لو وجب ذلك للزم أن يكون في كل عصر نبي ، وفي كل بلد معصوم يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، لأن اللطف عند القائلين به هو المقرب من الطاعة ومن أظهر مصاديقه الأنبياء والأولياء ، مع أن القائلين بوجوبه لا يلتزمون بذلك[84] .

ـ صفات الله عزّ وجل قديمة وزائدة على ذاته

ذهب الأشعري إلى أن صفات الله عز وجل قديمة وزائدة على ذاته فهو عالم بعلم وقادر بقدرة ورحيم برحمة وحي بحياة . وقد استدل على ذلك بأن هذه الصفات لو كانت عين ذاته ومتحدة معها ، لم يكن لحملها على الذات فائدة ، ولزم من حملها على نفسها حمل الشيء على نفسه .

ولو كانت غير ذاته لزم كون المعنى المتحصل من جميعها واحداً ، مع أن معانيها مختلفة في الوجود .

وما يبدو لنا أن رأي الأشعري هنا في الصفات ورده على المعتزلة فيها ، وانتصاره لأهل الحديث والسنة هو المنهج الكلامي الجيد ، والطريقة الفضلى في الاستدلال ؛ ومع أنه التزم النصوص وجعل العقل خادماً لظواهر أخبار الآحاد ، لم يتخل عن طريقة الاستدلال المنطقي ليثبت بها ما جاء في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل لا من خلفه ولا من أمامه ، أو ما ألهم

---

(82) الملل والنحل للشهرستاني ومع ذلك فقد عده ابن حزم من الجبرية لأنه لا يثبت للعبد الاختيار بتعبير صريح .

(83) مقالات الاسلاميين ص 330 .

(84) راجع الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة ص 220 . وما بعدها .

النطق به رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى .

ـ مرتكب الكبيرة يعود أمره لله تعالى

قال الأشعري عن مرتكب الكبيرة : هو في مشيئة الله تعالى ، إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة ، وإن شاء عاقبه بذنبه ثم أدخله الجنة . بينما قال المعتزلة : إن صاحب الكبيرة إذا لم يتب مع إيمانه وطاعته لا يخرج من النار ، وقال المرجئة : من أخلص لله وآمن به فلا تضره كبيرة مهما تكن[85] .

هذه أبرز الآراء التي أتى بها أبو الحسن الأشعري وكلها تحاول التوفيق بين العقل والنقل ، سلك بها صاحبها أسلوباً جديداً للتقريب بين العقل والحديث أثار به إعجاب الذين جاؤ وا بعده ، فتبنوا مذهبه وساروا على طريقته . فكان حلقة وصل بين الشافعية والمالكية والحنابلة والأحناف . ومن مشاهير الفقهاء والمتكلمين الذين تابعوه وتعصبوا لآرائه ، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني الذي قال عنه ابن العماد الحنبلي : أنه كان أصولياً أشعرياً ، مجدداً للدين على رأس المائة الرابعة[86] .

ومن الفقهاء المناصرين له إمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله الجويني ، الفقيه الشافعي الملقب بضياء الدين ، كان على رأي الأشعري في أصول العقائد ، ومعتمداً طريقته في العقل والنقل .

وقد ذكرنا سابقاً أن الدولة العباسية قد فرضت آراء الأشاعرة على المسلمين بقوة السلطان ، كما فرضت الرقابة العباسية على المعتزلة في مناظراتهم ومجالسهم حتى أصبح أكثر المسلمين على رأي الأشعري ، ولم يشذ عنه سوى الحشوية[87] .

---

(85) الملل والنحل ج 4 ص 204 .

(86) راجع الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة للسيد هاشم الحسني ص 157 .

(87) وهم القائلون بأن الله سبحانه جسم من لحم ودم ، وله أعضاء وجوارح تجوز عليه المصافحة والمعانقة ، واثبتوا له كل ما هو للبشر .

الباب الثالث
النظام السياسي

الفصل الأول
حكومة الرسول في المدينة

المدينة المنورة :

الى شمالي مكة وعلى بعد ثلاثمائة ميل ، تقع المدينـة ، أو يثرب ، كـما كانت تسمى في الجاهلية . تلي مكة في الأهمية بين مدن الحجاز .

تقوم المدينة في واد خصب تكتنفه مرتفعات يعلو بعضها بعضاً تكثر فيها العيـون والآبار وهذا ما أتـاح لها أن تصبـح واحة جميلة تكتظ بـالنخيل والأشجـار والزرع . كـان في المدينـة شعب خليط يقـال أن العماليق هم أول من سكنـوها وظلوا بهـا حتى سكنها اليهـود في القرن الثـاني الميلادي عـلى أثر اضـطهاد الـرومان لهم في فلسـطين . بنى العماليق في المـدينة الـدور والقصور(1) .

ثم غزاها اليهود النازحون من الشام ، وقضوا على هؤلاء العماليق(2) .

ولـما جاء الاسـلام اتخذوا العـربية في حيـاتهم اليوميـة بينـما ظلوا يحتفـظون بـطقـوسهم الدينية . وقد أمر الرسول ﷺ زيد بن ثابت أن يتعلم لغتهم العبرية (3) سكنت بعض طوائف منهم وطاب لهم المقام . فأقامت بنـو قريـظة والنضير وسط المـدينة وفضـل بنو قينقـاع داخلها وشمالها الغربي(4) .

أما العرب في المدينة فكانوا من الأوس والخزرج ، قدموا اليها بعد انهيار سـد مأرب في اليمن وتفرق أهل اليمن في البلاد(5) .

أوقـع اليهود بـين الأوس والخزرج حتى قـامت الحروب بينهـما وحدثت الـوقائـع والأيام الدامية فكأنهما تعاهدتا على الفناء لولا أن نزل الرسول ﷺ بينهم وأصبحوا بنعمة الله أخواناً إذ دخلوا في دينـه الحنيف أفواجـاً . كـانـت الزراعـة عمـاد الحيـاة في المـدينـة ، وأكـثر سكـانها

---

(1) معجم البلدان ج 7 ص 425 .
(2) المرجع نفسه ص 427 .
(3) البلاذري ص 474 .
(4) الشعر الغنائي لشوقي ضيف ص 5 .
(5) الكامل في التاريخ ج 1 ص 400 .

يتخذون في ضواحيها الضياع التي تدر عليهم الرزق الوفير ، وقد ضرب حول المدينة سور متين يصد عنها هجمات الاعراب المغيرين(6) .

ويبدو أن هذا السور قد تهدم لأن النبي ﷺ حفر خندقاً حول المدينة في غزوة الأحزاب . بالإضافة الى الزراعة كانت التجارة التي أجادها سكان المدينة فوطدوا العلاقات الطيبة مع بعض الأقاليم المجاورة كالشام ومصر . إذ كان يتفرع من مدين طريقان يصلان المدينة بهذه البلدان(7) .

كيف نشأت النظم الاسلامية :

بدأ الاسلام في تنظيمه للحياة الاجتماعية منذ أول عهده ، وهذه النظم كانت نتيجة للوحي القرآني ولوقائع السيرة النبوية ، فنظريات الفقهاء في الأحوال الشخصية وتنظيم الأسرة ، والتنظيمات السياسية ، والعسكرية ، والمعاهدات الدولية ، وكل ما يتعلق بالأمور المالية والاقتصادية ، ليست إلا امتداد لبعض الوقائع التي حدثت في عهد الرسول ﷺ وكان له فيها قول ، أو تنبيه ، أو إرشاد ، أو تقرير .

إن كل ما نلمسه في حياتنا العامة والخاصة من مواضيع نتوهم أنها جديدة على الحياة الانسانية المعاصرة ، له أصل بشكل أو بآخر في القرآن الكريم أو في السنة الشريفة .

فعصر النبي كان منطلقاً خيراً لكل ما عرف في الاسلام من نظم وقوانين . قال عز وجل : ﴿ وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾(8) .

لقد وضعت في المدينة أسس المجتمع الجديد من توحيد الله ، الى المجاهرة بالحق ، الى العمل الصالح ، الى المكارم الأخلاقية الى التضامن والبناء في كل شؤون الحياة .

فلقد أصبحت المدينة بفضل الرسول ﷺ ومن ناصره موطن الاسلام ، والمستقر الصالح للدعوة الاسلامية ، ومركز التحول والتغيير في تنظيم المجتمع السياسي ، والاجتماعي ، والاقتصادي .

كانت الهجرة تجسيداً لهذه التنظيمات بمعناها الشامل الواسع الذي زادته ممارسة الوقائع تفصيلاً وتوضيحاً . ولقد تمكن المسلمون الأولون من تحويل المرحلة النظرية الى مرحلة عملية تطبيقية .

من هنا نعلم أن الحياة الجديدة والتنظيم الجديد ، بكل ما ورد فيه من تشريع لم يكن إلا امتداداً لما بدأ به الرسول وجماعته في مكة المكرمة .

ومما يبدو أن جو المدينة المنورة كان أكثر ملاءمة للتشريع ، وأكثر مناسبة لاظهار الحركة السياسية ، والاجتماعية ، والعسكرية ، في شكل جديد . فلقد قام في يثرب مجتمع جديد

---

(6) معجم البلدان ج 7 ص 428 .
(7) معجم البلدان ج 7 ص 432 .
(8) النحل الآية 44 .

في شكله ومضمونه ، على قواعد أساسية ، تحت قيادة رئيس واحد .

من المدينة المنورة بدأ عهد جديد يرسم للانسان منهجاً سليماً في الحياة ، وينير له الطريق من غبار الجهل وأدران الجاهلية ، بدأ منهج في التغيير نحو الأفضل والأكمل .

الأثر الذي تركته حكومة الرسول في المدينة :

لقد ترتب على قيام الحكومة النبوية في المدينة المنورة آثار بعيدة المدى في جميع الحقول والميادين .

أ ـ الأثر الديني :

قضى الإسلام على الوثنية والشرك بالله ، ودعا إلى عبادة إلّه واحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد ، هو رب العالمين . فأنكر العصبية القبلية ورفض مبدأ الشعوب المختارة ، وبنى أركانه على أعمال إنسانية نبيلة تشعر الانسان بعاطفة صادقة مخلصة .

فرض على الناس إقامة الصلاة في تدبر وخشوع ، وإيتاء الزكاة لرعاية التكافل الاجتماعي ، والحج والصوم بمعانيهما الروحية والاجتماعية .

فرضت الصلاة منذ بدء الدعوة الاسلامية ، فهي ركن أساسي في الاسلام[9] . ولم يعرف الآذان إلا بعد انتقال النبي الى المدينة حيث وجد المسلمون متنفساً لأداء الشعائر الدينية . وكان ﷺ قد أمر بلالاً صاحب الصوت الندي الجميل ليؤذن بالناس للصلاة .

وإقامة الصلاة دعت الى بناء المساجد . فكان مسجد « قباء » بناه الرسول ﷺ في طريقه الى المدينة ، وفي المدينة بنى مسجداً جديداً آخر[10] .

بلغ عدد المساجد التي بنيت في عهد الرسول تسعة مساجد ، اتخذ أكثرها مدارس للتعليم[11] ومما يذكر أن هذه المساجد كانت خالية من الزخرف ، فهي مواضع للعبادة وهذا ما بنيت من أجله .

والاسلام كالأديان السماوية التي سبقته يدعو إلى مكارم الأخلاق ، ولا يفرق بين أحد من الأنبياء ، لأنهم جميعهم يبلغون رسالات الله ولا يخشون أحداً الا هو ، وان اتباعهم يؤلفون أمة واحدة تعبد الله وحده ، ولا تشرك به أحداً .

أما ما أصاب الأديان من تحريف لا بد أن يكون من شروح الاتباع من العلماء والأحبار ولا يد فيه للأنبياء والمرسلين[12] .

ب ـ الأثر السياسي :

كانت الحروب وعدم الاستقرار تسود معظم الجزيرة العربية طوال فترة بعيدة من

---

(9) سيرة ابن هشام ج 1 ص 158-159 .

(10) المقدمة لابن خلدون ص 283 .

(11) المصدر نفسه ص 283 وفتوح البلدان ص 6 .

(12) الوحي المحمدي للسيد محمد رشيد رضا ص 152 .

الزمن ، حتى ملت القبائل تلك الحياة المشحونة بـالمنازعـات ، كل هـذا الوضـع المتأزم جعـل الناس يتوقون الى نظام سياسي جديد .

وجاء الإسلام بدعوته الكريمة الانسانية وطلب من الناس الـدخول بـالرضى والـطواعية في دين الله أفواجاً . حتى عم السلام جميع أنحاء الجزيرة العربية فقد وضـع الرسـول ﷺ منذ هجرته الى يثرب النواة الأولى للحكومة الاسلامية ، بعد أن حصَّـنها بالمبادىء العادلة السـامية التي كفلت لها الاستمرار والبقاء .

وكان النبي يرأس هذه الحكومة التي بدأت شورية ديمقـراطية منـذ يومها الأول[13] عملاً بقوله تعالى : ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ وقوله أيضاً : ﴿ وامرهم شورى بينهم ﴾ .

وبدأ عليه السلام يقوم بمهمات الرئاسة فيؤم المسلمين في الصلاة ، ويقودهم في الحرب ويصلح بـين المتنازعـين منهم ، ويقسم الغنائم والفيء والأنفـال . واتخذ كتـاباً يمـلي عليهم ما ينزل من الوحي . أما الجند فلم تكن الحاجة ماسة بعد الى اتخاذ سجلات وإقامة الدواوين .

وأخذت رقعة الاسلام بالتـوسع في أطـراف الجزيـرة الذائيـة ، وأمر الـرسول ﷺ بعض صحبه العلماء بتعليم الناس مبادىء الدين الحنيف ، كما عهد [illegible] البعض الآخر ممن يرى فيهم الكفاءة في الحسابات المالية بجمع المترتبات المالية من البلاد التي [illegible]خل أهلها في الاسلام .

وكلنا يعلم ما كان للعصبية القبلية العمياء من تأصل في نفوس العرب آنـذاك ، لذلـك عمل ﷺ في زرع الاخاء الاسـلامي ليشد بـه أزر المسلمين ، ويلفهم بثـوب يجمع كلمتهم ، ويعلي شأنهم ، أمة واحدة لا تمييز ولا تفريق بـين جميع أفـرادها . وقـد أعطاهم المثـل الناطق فجعل من سليمان الفارسي أخاً حميماً ، ومن بلال الحبشي مؤذناً صالحاً بنسبه . ووصى وهـو على فراش الموت بالتآخي بين المسلمين ، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر .

ج ـ الأثر الاجتماعي :

لا شك أن كل ما يجود بـه الانسان من معـطيات فكـرية هـو في سبيل المجتمـع ، ومن أجل نموه وتطوره ، والمجتمعات في شتى أنحاء العالم مرت بمراحل انتقالية عدة . فمن مـرحلة البدائية والهمجية ، إلى المرحلة الميتافيزيقيـة ، الى المرحلة العلميـة الحديثـة . والاسلام الـذي نسّـق بين الروح والمادة ، فأعار لفتة كريمة الى التنظيم الاجتماعي في دنيا الانسان الحـاضرة ، ولم يفته التذكير في اليوم الآخر يوم الحساب الأكبر .

ومن أبرز الآثار الاجتماعية التي تـرتبت على قيـام الحكومـة النبويـة في المدينـة ، تحطيم الطبقية ومـا بينها من فـروق ، ومحاربـة الرق والعبـودية ، ورفـع مستوى المـرأة في الأسرة وفي المجتمع ، وإلغاء المسكرات وكل ما يؤذي الانسان صحياً ومعنوياً .

كل ذلك حدث بأسلوب نبوي فريـد ، فمنذ أن حـل رسول الله بمـدينة الأنصـار طفق بأقواله وأعماله يقضي على التمييز العنصري ، ويهدم قواعد الكبرياء ، ويلغي الفروق الاجتماعية القبلية . واضعاً الموازين العادلة لأسس المساواة الحقيقية بين الناس أجمعين .

---

(13) المصدر السابق ص 208 .

فأعلن عليه السلام : الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى . فالتقوى هي الميزان والمعيار للمفاضلة بين الانسان وأخيه الانسان ، ولا وزن في الاسلام بعد للعرق أو الجنس أو اللون .

من هنا انطلق عليه السلام يتدرج في تحرير الرقيق(14) فكل إنسان له الحق في الحياة حراً كريماً ، وليس لأحد من سلطة عليه في حجز حريته . هذا ما جاهد من أجله رسول الله محرماً استرقاق الحر واستغلال العبد .

ومن وحي تصرف الاسلام في هذا الشأن بدأ الضمير البشري يسير على خطاه المباركة .

إنسجاماً مع هذه التعاليم التي تكرم الانسان ، ولا تفرق بين عناصره إلا بقدر ما يقدم الفرد من التقى والعمل الصالح ، أقر الاسلام للمرأة بأهليتها في الحقوق المدنية والمالية ، وجعلها مساوية للرجل في المجال الديني والاجتماعي والانساني ، وقد بلغ من تكريمها وانصافها ما لم يبلغه تشريع اجتماعي في القديم ولا في الحديث(15) .

الامارة

لغة : الأمير ، الملك لنفاذ أمره ، بيِّنُ الإمارة والأَمارة والجمع أمراء . وأمر : وَلِيَ . وأَمَرَ الرجل يأمر إذا صار عليهم أميراً . ويقال : أُمِّرَ فلان إذا صُيِّر عَلَماً أي أميراً . والانثى : أميرة والمصدر : الإمرة ، والإمارة . والتأمير : تولية الامارة . وأمير مُؤَمَّر : مُمَلَّك(16) .

أما من الناحية الصرفية فكلمة أمير على وزن فعيل ، مبالغة لاسم الفاعل « آمر » كقولك « رحيم » إذا أردت المبالغة لاسم الفاعل راحم . وأمير استعملت بصيغة المبالغة لكثرة ما يصدر الأمير من الأوامر .

إصطلاحاً : تطلق هذه اللفظة على الموظف الكبير الذي يكون مسؤولاً عن إدارة منطقة ، أو عن جزء من إدارتها . وقد استعملت للدلالة على معنى « ملك » في كثير من المواضع ، كما هي الحال في اللغة الفرنسية مثلاً ، حيث تدل كلمة Prince إما عن رئيس الدولة ، وإما على من دونه من أفراد العائلة المالكة . فهي في عرف الأقدمين أقرب ما يكون ، في اصطلاح اليوم إلى ألفاظ : المحافظ أو القائمقام(17) .

وقد تداول العرب لفظ الأمير منذ يوم السقيفة ، فقال الحباب بن المنذر : « منا أمير ومنهم أمير » ثم اشتقوا منها فعلاً فخاطب عمر بن الخطاب الأنصار « إنه والله لا ترضى العرب أن تؤمركم ونبيها من غيركم »(18) .

(14) الوحي المحمدي للسيد محمد رشيد رضا ص 253 وما بعدها .

(15) المصدر نفسه ص 245 .

(16) لسان العرب مادة أمر .

(17) راجع نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الاسلامي لظافر القاسمي .

(18) الامامة والسياسة لابن قتيبة ص 7 .

ولما تولى الخلافة استحسن لقب أمير المؤمنين[19] .

وقال الشيخ صبحي الصالح : « لقد كان لقب الأمير من سمات الخلافة حقاً ، إذ كانوا يسمون قادة البعوث باسم الأمير وكان الصحابة يدعون سعد بن أبي وقاص « أمير المؤمنين » لإمارته على جيش القادسية . وعرف الصحابة من رسول الله نفسه إطلاق كلمة الأمير على من يقود جماعة من المسلمين في الغزو أو الحج . وكان الأمير في عهده عليه السلام يؤم الناس في الصلاة بالإضافة الى قيادة الجيش أو إشرافه على شؤون الحجيج »[20] .

الإمامة

لغة : أمّ القوم وأمَّ بهم : تقدمهم . والإمام كل من إئتم به قوم كانوا على الصراط المستقيم أو كانوا ضالين . ورد عن ابن الأعرابي في قوله عز وجل : يوم ندعو كل أناس بامامهم ، قالت طائفة بكتابهم ، وقال آخرون بنبيهم وشرعهم . وقال ابن سيدة : والامام ما ائتم به من رئيس وغيره ، والجمع أئمة . وفي التنزيل العزيز : فقاتلوا أئمة الكفر ، أي قاتلوا رؤساء الكفر وقادتهم . وأممت القوم في الصلاة إمامة . وأتمَّ به أي اقتدى به . والامام : المثال . قال النابغة : بَنَوْا مجد الحياة على إمام .

من هنا قالوا : امام القوم ؛ هو المتقدم لهم ، ويكون الامام رئيساً كقولك امام المسلمين[21] .

وقد وردت اللفظة في القرآن الكريم مفرداً وجمعاً . قال سبحانه : ﴿ وإذا ابتلى ابراهيمَ ربُّهُ بكلمات فاتمهنَّ ، قال : إني جاعلك للناس إماماً ﴾[22] وقال عزّ وجل :

﴿ ونريد أن نمنَّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ﴾[23] .

كما وردت بصيغة المفرد لكنها تفيد الجمع . قال سبحانه : ﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً ﴾[24] .

إصطلاحاً : الإمامة هي أسلوب من أساليب الحكم في المجتمع الاسلامي ، خضعت لتعاليم الاسلام ونظمه ومقرراته . وإذا راجعنا أبحاث الفقهاء وجدنا أن كلمة إمام أكثر ما كانت تقترن بموضوع الصلاة ، فالناس يقتدون بإمامهم في كل ما يقول أو يعمل أو يقرر حتى شاع هذا المعنى على ألسنة العامة في مختلف الأجيال .

والإمامة في نظر الاسلام دين ودولة تجمع في آن واحد بين طرفي الدنيا والآخرة لذلك

---

(19) راجع مقدمة ابن خلدون الفصل 32 .

(20) النظم الاسلامية ص 289 .

(21) لسان العرب مادة أمم .

(22) البقرة الآية 124 .

(23) القصص الآية 5 .

(24) الفرقان اة 74 .

عرفها الماوردي : « الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا »(25) .

وبهذا المعنى يصبح الإمام خليفة النبي ﷺ يخلفه مقتدياً به في حراسة الدين وحمايته ، وفي سياسة الدنيا بكل ما تتطلب من تشريعات وواجبات تلبي حاجة الانسان المسعدة له في حياته الفردية والاجتماعية في آن معاً . وقد تحدث ابن خلدون عن النوع الثالث من نظم الحكم « الإمامة » فقال : « هو حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها : إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به ، والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها(26) .

ومهما يكن من أمر فإن الحاكم المسلم ، بأي لقب سماه الناس ، خليفة أو أميراً أو إماماً لا يستطيع أن يتحرر من سلطان الدين الذي يدين به هو والأمة التي بايعته رئيساً عليها .

وبعد هذا العرض السريع تبين لنا أن الألقاب الثلاثة التي أطلقت على رئيس الدولة في الاسلام : الخليفة أو أمير المؤمنين أو الإمام ترتد الى معنى واحد وان كانت نشأة كل منها قد اختلفت تاريخياً عن نشأة الآخرين(27) .

الخلافة ونظمها

الخلافة لغة :

هي مصدر من (خلف) . يقال خلفه خلافة ، كان خليفته وبقي بعده . ومنها خلفت المرأة . أي تركت وراءها من يخلفها ، فالخلافة موضوعة في الأصل لكون الشخص خلفاً لأحد . من هنا كان من يخلف الرسول في إجراء الأحكام الشرعية خليفة ، وأطلق عليه البعض (إماماً) وفيه اختلاف لأن الامام هو الذي يؤم الصلاة تشبيهاً للرسول واقتداء به وليس كل أمام خليفة .

وأما خليفة فلانه يخلف النبي في أمته ، فيقال خليفة باطلاق ، وخليفة رسول الله . وأجاز بعضهم تسميته : خليفة الله ، فهو يخلق النبي في أمته ، وذلك اقتباساً من الخلافة العامة التي للادميين في قوله تعالى : ﴿ اني جاعل في الأرض خليفة ﴾(28) وقوله : ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ﴾(29) . ومنع أبو بكر عنه هذه التسمية قائلا : لست خليفة الله ،

---

(25) الأحكام السلطانية ص 3 .

(26) المقدمة ص 191 .

(27) راجع الامامة والخلافة للسيد رشيد رضى ص 10 وما بعدها .

(28) الوحي المحمدي للسيد محمد رشيد رضا ص 245 .

(29) البقرة الآية 30

ولكني خليفة رسول الله ﷺ ، ولأن الاستخلاف إنما هو في حق الغائب أما الحاضر فلا[30] .

الخلافة اصطلاحاً :

هي رئاسة عامة في أمور الدين والدنيا نيابة عن النبي ﷺ وفي ذلك يقول ابن خلدون : « والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة اليها ، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع الى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به[31] .

ومنزلة الخليفة من الأمة كمنزلة النبي من المؤمنين ، له عليهم الولاية العامة والطاعة التامة ، وله حق القيام على دينهم ، فيقيم فيهم حدوده ، وينفذ شرائعه ، وله بالأولى حق القيام على شؤون دنياهم أيضاً ، بيده وحده زمام الأمة ، فكل ولاية مستمدة منه ، وكل خطة دينية أو دنيوية متفرعة عن منصبه . فهو الحاكم الزمني والروحي . ولا تتعدى وظيفته الدينية المحافظة على الدين . وباعتباره حامي الدين والذائد عنه ، يستطيع أن يعلن الحرب على الكفار ويعاقب الخارجين على الدين ويؤم الناس في الصلاة ، ويلقي خطبة الجمعة .

شروط الخلافة :

الخلافة هي التي تكون نتيجة انتخاب الأمة وبيعتها برضاها ، ويشترط في الشخص المرشح لها أن يكون جامعاً لصفات عينها العارفون بالدين ، وشروط لازمة لها وردت على لسان أكثر المؤرخين ، وهي :

(1) العلم ، (2) والعدالة ،على شروطها الجامعة ، (3) والكفاية ، (4) وسلامة الحواس والأعضاء ومما يؤثر في الرأي والعمل ، (5) الرأي المفضي الى سياسة الرعية وتدبير المصالح ، (6) الشجاعة والنجدة ، (7) النسب .

هذا النوع من الخلافة هو خلافة اختيارية .

وقالوا عن آخر : الخلافة القهرية وهي التي نالها صاحبها بالطلب والقوة ، ويرى الفقهاء انعقادها ولزوم الطاعة لصاحبها[32] .

ويراد بالعلم العلم المؤدي الى الاجتهاد في النوازل والأحكام الفقهية . وبالعدالة على شروطها الجامعة أن يكون الخليفة صاحب استقامة في السيرة والسلوك متجنباً المعاصي .

والكفاية يقصد منها أن يكون قادراً على إقامة الحدود ، بصيراً بالحروب ، كفيلاً بحمل الناس عليها ، صاحب رأي وتدبير . والرأي المفضي الى سياسة الرعية وتدبير مصالح الناس بحكمه وحسن تدبير والنسب ان يكون من قريش . الشجاعة والنجدة : المؤدية الى حماية البيضة وجهاد العدو لصيانة حقوق المسلمين ورفع كلمتهم .

---

(30) مقدمة ابن خلدون ص 159 .

(31) المصدر نفسه .

(32) الأحكام السلطانية للماوردي ص 4 والمقدمة لابن خلدون ص 152

نظرية الخوارج في الخلافة :

يمكن تلخيص نظريتهم في الخلافة في أنها حق لكل عربي حر ، وأنه إذا اختير الخليفة فلا يصح له أن ينزل عنها وإذا جار استحلوا عزله أو قتله إذا اقتضت الضرورة ذلك(33).

ثم ادخلوا شرطاً آخر ، فشرطوا الاسلام والعدل ، بدل العروبة والحرية ، ولا سيما حين انضم الى صفوفهم كثير من المسلمين غير العرب الأحرار والأرقاء . فجعلوا حق الخلافة شائعاً بين جميع المسلمين .

نظرية المرجئة :

نذكر بتعريف المرجئة . سميت هذه الطائفة بالمرجئة ، من الأرجاء وهو التأخير ، لأنهم يرجئون الحكم على العصاة من المسلمين الى يوم البعث(34). كانوا يتحرجون من إدانة أي مسلم مهما كانت الذنوب التي اقترفها . فالعقيدة الأساسية عندهم هي عدم تكفير أي إنسان اعتنق الاسلام ونطق بالشهادتين .

وقد قالوا بالخلافة لبني أمية لأن أفكارهم تتفق تماماً مع أفكار رجال البلاط الأموي ومن يلوذ به .

وبزوال الدولة الأموية أفل نجم طائفة المرجئة ولم تصبح بعد حزباً مستقلاً ، وقد ظهر من بينهم أبو حنيفة صاحب المذهب المشهور(35) .

نظرية المعتزلة في الخلافة :

ابتدأت المعتزلة فرقة دينية لا دخل لها في السياسة في أول أمرها ، على عكس ما كان عليه الخوارج والمرجئة ، إلا أنها لم تلبث أن خاضت غمار السياسة ، فتكلمت في الامامة وشرط الامام ، يقول المسعودي :

« يذهب المعتزلة الى أن الإمامة اختيار من الأمة ، وذلك أن الله عزّ وجلّ لم ينص على رجل بعينه ، وان اختيار ذلك مفوض الى الأمة تختار رجلاً منها ينفذ فيها أحكامه سواء كان قرشياً أو غيره من أهل ملة الاسلام وأهل العدالة والايمان . ولم يراعوا في ذلك النسب ولا غيره . وواجب على أهل كل عصرأن يفعلوا ذلك(36) .

نظرية الشيعة في الخلافة :

اعتمد الشيعة في إثبات الخلافة أنها حق لهم ، وفي نظرهم أن علياً هو أحق الخلفاء بها . والأدلة الشرعية تفرض مذهب أهل البيت الذين طهرهم الله عز وجل . قال تعالى :

---

(33) مروج الذهب ج 2 ص 110 -111 .

(34) تاريخ الاسلام لحسن ابراهيم حسن ص 418 والشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة للسيد هاشم الحسني ص 116 .

(35) تاريخ الاسلام لحسن ابراهيم ج 1 ص 418 .

(36) مروج الذهب ج 2 ص 191 وتاريخ الاسلام السياسي لحسن ابراهيم ج 1 ص 421 .

﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾(37) .

وتخريج هذه الآية ، آية التطهير ، على أيدي الحفاظ ، أخرجها مسلم في صحيحه عن طريق عائشة : خرج النبي ﷺ وعليه فرط مرجل من شعر أسود فجاء الحسن بن علي عليه السلام فأدخله ، ثم جاء الحسين فدخل معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء علي فأدخله ثم قال : إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا(38) وأخرج الحديث الترمذي(39) وأخرجه الحافظ أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي المتوفى 303 هـ . من طريق سعد بن أبي وقاص(40) وأخرجه الخطيب من طريق أبي سعيد عن أم سلمة(41) . وأخرجه ابن الأثير عن طريق أم سلمة(42) . وعن أنس بن مالك أنها نزلت في رسول الله ﷺ وعلى فاطمة والحسن والحسين عليهم السلام(43) .

كما أخرج الحديث الطبري في ذخائر العقبى ، والحاكم في المستدرك ، وابن كثير في تفسيره ، وابن عساكر في تاريخه ، والشافعي في كفاية الطالب ، وابن عبد ربه في العقد الفريد ، والألوسي في غالية المواعظ ، وأخرجه الواحدي في أسباب النزول عن أبي سعيد عن أم سلمة .

والمعتمد الثاني للشيعة هو حديث الثقلين وخطبة النبي ﷺ في عيد الغدير . أخرجه مسلم في صحيحه من طريق زيد بن أرقم قال :

« لما نزل النبي بغدير خم في رجوعه من حجة الوداع وكان في وقت الضحى والحر شديد فأمر الدوحات . ونادى الصلاة جامعة فتجمعنا فخطب خطبة بالغة ثم قال : إن الله تعالى أنزل إليّ : ﴿ بلّغ ما أنزل إليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾ . وقد أمرني جبريل عن ربي أن أقوم في هذا المشهد وأعلم كل أبيض وأسود أن علي بن أبي طالب أخي ، ووصي ، وخليفتي ، والإمام بعدي ، فسألت جبريل أن يستعفي لي ربي لعلمي بقلة المتقين وكثرة المؤذين لي واللائمين لكثرة ملازمتي لعلي ، وشدة اقبالي عليه حتى سموني أُذناً ، فقال تعالى :

﴿ ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أُذُنٌ قل أُذُنُ خير لكم ﴾(44) ولو شئت أن أسميهم وأدل عليهم لفعلت ولكني بسترهم قد تكرمت ، معاشر الناس فإن الله قد نصبه ولياً واماماً ، وفرض طاعته على كل أحد ماضٍ حكمه جائز قوله ، ملعون من خالفه ، مرحوم

---

(37) سورة الأحزاب الآية 33 .

(38) سورة الأحزاب الآية 33 وصحيح مسلم ج 4 ص 127 .

(39) الترمزي ج 4 ص 304 .

(40) الخصائص ص 4 .

(41) الخطيب ج 9 ص 127 .

(42) أسد الغابة ج 5 ص 521 .

(43) تفسير ابن جرير ج 7 ص 22 .

(44) التوبة الآية 61 .

من صدقه ، اسمعوا وأطيعوا فإن الله مولاكم وعلي أمامكم .

ثم يقول فيها : « افهموا كتاب الله ، ولا تتبعوا مشابهة ولن يفسر ذلـك لكم إلا من أنا آخذ بيده شائل بعضـده وفعلكم : ان من كنت مولاه فعـلي مولاه ومـوالاته من الله عـز وجل أنـزلها عـليّ . الا وقد أديت ، الا وقـد اسمعت ، الا وقد أوضحت ، الى آخـر خـطبتـه التي رواها الثقاة من أبناء الأمة . ومما جاء في خطبته عيد الغدير حديث الثقلين . يقول الحديث :

« إني تـارك فيكم الثقلين ما ان تمسكتم بهـما لن تضلوا بعدي : كتـاب الله الممـدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي فانظروا كيف تخلفوني فيهما[45] .

علامات الخلافة :

الخلافة الحقة هي تطبيق السنة النبوية تطبيقاً صحيحاً شاملاً ، وهي ترجمة أقـوال النبي أعمالاً . وكم هو جميل في كل عصر ومصر ان نوحّـد بين القول الحكيم والعمل العظيم . أما العلامات الخارجية التي تشبهوا بها الخلفاء بالنبي فهي :

أ ـ البردة :

بردة النبي هي لباسه الخارجي يلبسها النبي في استقبالاته الرسمية . ومما يـروى أنه ﷺ أعطاها الى كعب بن زهـير بن أبي سلمى الشاعـر المعروف . وكـان كعب قد هجـا النبي وفر هارباً من وجه المسلمين . ولما تم فتح مكة على أيدي المسلمين كتب اليـه أخوه بجـير بن زهير ليعود إلى حضرة النبي تائباً مؤمنـاً والنبي يصفح عنـه ويسامحـه قال بجير: «وان من بقي من شعراء قريش قد هربوا في كل وجه فإن كانت في نفسك حاجة فطر الى رسول الله ﷺ فإنه لا يقتل أحداً جاءه تائباً»[46]. فجاء كعب المـدينة وسلم نفسـه الى النبي ومدحـه بقصيدة رائعـة مطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول

---

(45) راجع ـ صحيح مسلم ج 7 ص 122 .
و ـ سند أحمد ج 2 ص 14 .
وتاريخ البغدادي ج 8 ص 443 .
ونفسير ابن كثير ج 2 ص 486 .
و ـ سنن الترمذي ج 2 ص 308 .
و ـ مصابيح السنة ج 2 ص 204 .
و ـ المستدرج ج 4 ص 109 .
هذا ويطول بنا الشرح عن هذا الحديث قال ابن حجر في الصواعق المحرقة : ولهذا الحديث طرق كثيرة عن بضع وعشرين صحابياً .
كما روى عن الشافعي أنه قال بوجوب الصلاة على الآل في التشهد الأخير ، وروى له قوله :
يـا آل بـيـت رسـول الله حـبكـم فـرض من الله في القـرآن أنـزلـه
كفـاكم مـن عـظيـم القـدر أنكم من لم يصـل عليكم لا صـلاة لـه
(46) تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان ج 1 ص 129 .

فأكرمه النبي ومنع القوم أن يأذوه وخلع عليه بردته . وظلت البردة عند أهل كعب حتى اشتراها منهم معاوية بن أبي سفيان ، ظناً منه أن يوهم الناس بحقه بالخلافة ، وقد دفع ثمنها أربعين ألف درهم أي ما يعادل ثمانين ألف ليرة لبنانية وتوارث البردة بعد معاوية الخلفاء الأمويون والعباسيون ، وهي الآن من جملة المخلفات النبوية الموجودة في السراي القديمة في الآستانة .

ب ـ الخاتم :

إتخذه الخلفاء بعد النبي ﷺ تشبهاً به ، فقد كان يكتب الى كسرى وإلى قيصر يدعوهما الى الاسلام فقيل له أن العجم لا يقبلون كتاباً إلا أن يكون مختوماً ، فاتخذ خاتماً من فضة نقش عليه « محمد رسول الله » . ومما يروى أن هذا الخاتم انتقل الى أبي بكر ، ثم إلى عمر ، ثم إلى عثمان ، وقد وقع من يد عثمان في بئر إريس ولم يعثر عليه بعد ذلك . فاصطنع عثمان خاتماً مثله . وكان كل من ولي الخلافة بعده يصطنع له خاتماً يختمون به الكتب في أسفل الكتابة وفي أعلاها بالطين أو بالمداد أو الشمع بعد طيها ، وما زال هذا الخاتم يستعمل حتى العصر العباسي . يذكر البلاذري أن زياداً أول من اتخذ من العرب ديوان زمام وخاتم مقلد الملوك الفرس ، فجعل عدة خواتم منها خاتم للسر وخاتم الرسل وخاتم السجلات والاقطاعات وخاتم الخراج[47] .

وبقي ديوان الخاتم الذي استحدثه زياد معمولاً به حتى أواسط العصور العباسية فأسقط وتحولت مباشرة الأعمال الى الأمراء والوزراء وغيرهم . . . ولما أراد الرشيد أن يستوزر جعفر بن يحيى البرمكي بدل الفضل أخيه قال لأبيهما يحيى :

« يا أبت إني أردت أن أحول الخاتم من يميني الى شمالي » وهو يعني الوزارة .

ولما نشأت السلطات جعل السلاطين علامة السلطة مثل علامة الخلافة وسموها (الطغراء) وهي نقشة تكتب بخط عريض وفيها ألقاب الملك .

والدولة السلجوقية تسمى ديوان الانتشاء ديوان الطغراء . والطغرائي الشاعر المعروف كان وزيراً للسلطان السلجوقي وكان خطه جميلاً ، وكان يكتب تلك الطغراء فلقبوه بها وهو أول من كتبها .

ومما يروى أن الخلفاء نقشوا على خواتمهم عبارات فيها مواعظ وحكم . فقد كان نقش خاتم أبي بكر « نعم القادر الله » وخاتم عمر « كفى بالموت واعظاً يا عمر » وخاتم عثمان « لتصبرن أو لتندمن » وخاتم علي « الملك لله » . وجرى على ذلك خلفاء بني أمية وبني العباس ، ولكل منهم فقرة خاصة نقشها على خاتمه . من هذه العبارات : ختم المأمون نقش عليه : « عبد الله يؤمن بالله مخلصاً » والواثق كتب على خاتمه : « الله ثقة الواثق » والمتوكل كتب : « على الله توكلت » . والمعتمد : « إعتمادي على الله وهو حسبي »[48] .

---

(47) أنظر فتوح البلدان البلاذري .

(48) راجع المقدمة لابن خلدون ـ تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان ونظام الحكم في الشريعة والتاريخ الاسلامي لظافر القاسمي .

ج ـ القضيب :

وهو أيضاً من علامات الخلافة ، فإذا تولى الخليفة جاؤ وه بـالبردة والخـاتم والقضيب ، وظل الأمر على ذلك في بني أمية وبني العباس . هذه هي العلامات السائدة للخلافـة في ذلك العصر .

أما عن شارات الخلافة فكانت ثلاث أيضاً .

أ ـ **الخطبة** : كـان يدعى للخلفـاء على المنـابر ، وقـد كانـوا هم أنفسهم يتولـون الصلاة بعـد اختتامهم فروض الصلاة فيدعون للنبي ﷺ والصحابـة . ولما فتحـوا البلاد وبعثـوا إليها العمال صار الولاة يتولون إمامة الصلاة في ولاياتهم ويختمونها بالدعاء للخلفاء .

ب ـ **السكـة** : ومن شارات الخـلافـة الختم عـلى النقـود بـطابـع من حـديـد ينقش فيـه اسم الخليفة ، ويقال لها السكة ولا بد منها للدولة .

ج ـ **الطراز** : وذلك أن يرسم على ثـوب الخليفة أو السلطان عـلامات تختص بهم بخيـوط من ذهب وهو أمر معروف في قديم الـدول من عهد الفـرس والروم . هـذه الألبسة الملوكيـة تدل ان لابسيها من أهل الدولة .

الفصل الثاني

عصر الخلفاء الراشدين

الخلافة الراشدة :

ارشـدوا الناس الى الحق فكـانـوا الـراشـدين . بعـد أن لحق رسـول الله ﷺ بـالـرفيق الأعلى ، وأفِلَتْ شمس النبوة ، لم يصدق العرب انـه مات ، ونسـوا انه رسـول قد خلت من قبله الرسل(1) . فلقد نزل خبر النعي عليهم كالصاعقة . وقد زادهم هولاً شعـورهم بالفـراغ بعد انطفاء السراج المنير . فمن هو الخليفة الذي يجمع عليه المسلمون ؟ وكيف يتدبرون الأمر في مسألة الخلافة وهي شورى بين المسلمين : « وأمركم شـورى بينكم » . وكان من الـطبيعي أن يطمع في الخلافة كثيرون فالأنصار وبنو هاشم والمهاجرون كلهم يريدون الخلافة .

وهذا أمر طبيعي في نظرة الانسان الى الحياة الدنيا ، وحب الاثرة في نفسه إذ تحاول كل جماعة ترشيح رئيسها ليتولى زمام أمور المسلمين .

فالأنصار تميل في الخلافة الى سعد بن عبادة سيد الخزرج(2) ولكن سعد لم يكن قادراً أن يجمع شمل الأوس والخزرج لما بينهما من خلافات مزمنة .

وقال بنو هـاشم أن الخلافـة من حقهم ، وأولاهم بها عـلي بن أبي طالب . فهـو أفضل الصحابة ، وربيب رسول الله ﷺ وابن عمه وزوج ابنته فاطمة . كما لا يخفى أنـه أول الناس اسلاماً ، فكرم الله وجهه ، وأوسعهم علماً (أنا مدينة العلم وعلي بـابها) فضـلاً عن هذا كله يبقى أمر الوصاية له قرب غدير خم أثناء حجة الـوداع(3) لذلـك أقبل العبـاس عم النبي ﷺ وقال لعلي : « ابسط يـدك ولنبايعـك »(4) لكن الأمر الغـريب أن الرسـول ﷺ لم يدفن بعـد ، وعلي مشغول في ذلك . فتباطأ في قبول البيعة . وقد عللوا أمر التباطؤ أيضاً ليزيل من صدور المسلمين ما قد يداخلها من شبهة توارث النبوة بين آل البيت المطهّـرين .

والمهاجرون الذين هاجروا مع الرسول ﷺ من مكة الى المدينـة كانـوا يطلبـون الخلافـة

---

(1) الكامل لابن الأثير ج 2 ص 219 .

(2) السيرة لابن هشام ج 2 ص 115 .

(3) دعائم الاسلام ج 1 ص 25 .

(4) النزاع والتخاصم للمقريزي ص 6 .

ويرغبون في أبي بكر توليها . فهو من السابقين في الاسلام ووالد زوج الرسول عائشة وصاحب النبي في الغار. . . .[5] .

خلافة أبي بكر الصديق :

أراد أبو بكر إطفاء نار الفتنة فجاء بحديث وحل به مشكلة الخلافة . يقول الحديث : « الأئمة من قريش »[6] وحديث آخر ، لعمر بن الخطاب : لا ترضى العرب أن تؤمركم ونبيها من غيركم »[7] .

عند ذلك هب الأنصار فقالوا : « منا أمير ومنكم أمير » فأبى المهاجرون وبايع عمر أبو عبيدة أبا بكر[8] وآلت الخلافة اليه .

خطب أبو بكر في الناس يعلن للمسلمين دستوره . فأكد لهم في بيانه هذا أنه سيسوسهم في العدل . وأنه مسؤول عنهم أمام الله . وأنه له عليهم حق المشورة والمؤازرة ، وقال من على منبر الرسول أول خطبة له جاء فيها :

« يا أيها الناس إني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني . الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإني عصيت الله ورسوله فلا طاعة عليكم »[9] .

لقد خلف الرسول ﷺ لأبي بكر في المنطقة الوسطى من الحجاز حكومة قوية تشتمل على مكة والمدينة وكثير من المناطق المجاورة[10] وذلك بعد أن أحل في المجتمع الاسلامي رابطة الدين وإخاء المؤمنين محل العصبية البغيضة والشعور القبلي المقيت[11] .

ولكن هذه الوحدة التي اهتم بها الرسول اهتماماً بالغاً ، بدأت تضعف بعد موته ، ولا سيما بين القبائل التي لم يدخل الاسلام الى أعماق قلوبها فسمَّت الزكاة (إتاوة)[12] ولما وجدت الفرص سانحة علقت دفع الزكاة وشجعت روح الانفصال على الظهور أولئك هم أهل الردة . الذين اضطر أبو بكر الى محاربتهم إلا أن يرجعوا الى الدين ويتعهدوا بإقامة أركانه ،

---

(5) الفصل والنحل لابن حزم ج 4 ص 97 .
(6) مقدمة ابن خلدون ص 153 .
(7) عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص 34 .
(8) السيرة النبوية لابن هشام ج 2 ص 1016 .
(9) السيرة النبوية لابن هشام ج 2 ص 1017 .
(10) السيرة النبوية لابن هشام ج 2 ص 933
(11) الدعوة الى الاسلام لارنولد ص 42 .
(12) الكامل لابن الأثيرج 2 ص 238 .

والا فلا يهادنون ولا يصالحون[13]. توفي أبـو بكر في 22 جمـادى الآخرة سنـة 13 هـ . بعد أن قضى على فتنة المرتدين واحرز انتصارات عظيمة في حركة الفتوح .

خلافة عمر بن الخطاب :

قالوا أن أبا بكر أراد أن يجنب فرقة المؤمنين وهم أحوج ما يكونون الى وحدة الكلمة في تلك الظروف ، فاستشار الصحابة في استخلاف عمر ، فحمدوا لـه ذلك حتى كـأنهم انتخبوا عمر انتخاباً . وكان ان كتب عهداً لعمر بالخلافة تاركاً له بعد وفاته مقاليد الأمور[14] .

ودعي عمر خليفة أبي بكر[15] .

وبعد أن ثاب المرتدون ورجعوا الى الاسلام لقبوه بأمـير المؤمنين ، ولقب الأمـير عندهم هو من يقود جيشاً أو سرية أو يلي جهة من جهات المسلمين[16] .

ولا شك أن عصر عمر هو مكمل لأبي بكر ، وقد تم في أيامـه الكثير من الاصـلاحات في الشؤون الادارية والمالية . حتى قالوا : عمر هو أول من دوّن الدواوين ، فقـد عين رواتب للمقاتلين من أهل الحجاز ولعائلاتهم والمنضمين اليهم من عرب الجزيرة عرفت هـذه الرواتب بالعطاء»[17] وقد قدر ذلك العطاء حسب قرابتهم من النبي ﷺ[18] أو شهودهم بدر الكبرى ، أو حضورهم المواقع المشهورة كالقادسية واليرموك[19] .

مجلس شورى :

فكّـر عمر في مشكلة الحكم من بعده ، بعد أن طعنة أبو لؤلؤة المجوسي في أواخر سنة 23 . هـ[20] فألح عليه المهـاجـرون أن يستخلف ، فخـاف عـاقبـة الاستخـلاف وقـال : « ان استخلف فقد استخلف من هو خـير مني ، وان أترك فقـد ترك من هـو خير مني » . وآثـر أن يحصر الأمر بيد ستة من كبار أصحاب النبي ﷺ ليختاروا واحداً من بينهم فيبايعه المسلمون ، وهم : علي بن أبي طالب ، وعثمـان بن عفان ، وطلحـة بن عبد الله ، والـزبير بن العـوام ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف . وأولئك ألفوا مجلس شورى الدولة الاسـلامية وسمـوا بأهـل الشورى[21] قال عمر لأهـل الشورى : « إني نـظرت فوجـدتكم رؤساء القـوم وقادتهم ، ولا يكون الأمر إلا فيكم » . وقد جاء في الكامل :

ومنذ بدء تشاورهم بدا على أكثرهم أنهم يميلون الى تولية عثمان ، لأن عبد الرحمن كان

---

(13) الأحكام السلطانية للماوردي ص 44 وما بعدها .

(14) النظم الاسلامية للدكتور صبحي الصالح ص 260 . عن الكاحل لابن الأثيرج 2 ص 292 .

(15) تاريخ عمر لابن الجوزي ص 41 .

(16) الفصل لابن حزم ج 4 ص 90

(17) فتوح البلدان للبلاذري ص 449

(18) خراج أبي يوسف ص 50 .

(19) الكامل ج 2 ص 350-351

(20) تاريخ عمر لابن الجوزي ص 152 .

(21) الكامل لابن الأثيرج 3 ص 36 .

صهـره ، وسعداً من أقربائه[22] من هنا كـان عـلي يعلم أن اختيـار عمـر لهؤلاء الستـة ليس لمصلحته لأنه سمعه يقول : إذا كنتم ثلاثة بثلاثة فمن كان فيهم عبد الرحمن بن عوف هو الخليفة .

ثم يتابع : وربما زادهم تمسكاً بهذا الرأي خوفهم من استحالة الخلافـة إرثاً لبني هـاشم لو اختاروا علياً كرّم الله وجهه[23] .

وقد رغب كل منهم التخفف من حمل المسؤولية الضخمة ، فخلع كل نفسـه وعهد الى الآخر باختيار الخليفة[24]، حتى انتهى الأمر الى عبد الرحمن فأعلن في المحرم سنة 24 هـ. تولية عثمان[25] وساء الأمر بني هاشم وقد أبدوا امتعاضهم لتحامل القوم عليهم وانّ وجد علي نفسه مضطراً لمبايعة عثمان كما بايع من قبل أبا بكر وعمر[26] .

خلافة عثمان والفتنة الكبرى :

أكمل عثمان سياسة عمر في حركة الفتوح وعمل على زيادة نشاط أسـطوله الـذي أقلق بيزنطية[27] وجمع القـرآن وأرسل منـه النسخ الى الأمصـار ومع ذلـك كله لم يكن عهـده عهـد استقرار ، لأنه أضاع نفسه بسبب تولية أقربائه عمالاً مكـان الذين ولاهم عمـر[28]فتذمـر أهل الأمصار وتمنوا زوالهم . وأصبح عثمان مهدداً من قبل الأكثرية الساحقة . علماً أنه كان جديراً أن يعمل بوصية عبد الرحمن بن عوف الذي أخذ عليه الميثاق ـ قبل إعلان خلافته ـ ألا يحمل بني أمية على رقاب الناس[29] ولكنه كان ضعيفاً أمام ذوي قرباه .

لم يظهر عثمان أمام المعارضين من عرب الأمصار إلا الضعف واللين ووعدهم بإصـلاح الأخطاء واعترف أنه ثاب الى الله[30]. ولكنه استمر بوعوده دون تنفيذ . عندها عاد المتمـردون وحـاصروا داره وألـزموه أن يخلع نفسـه من الخلافـة ، ولمـا رفض قتلوه وهـو يقـرأ القـرآن في المحراب[31] .

خلافة علي :

وبعد مقتل عثمان هرع الناس الى علي يطلبون توليه ، فرفض أول الأمر لأنه يعلم من أمـر المسلمين مـا يعلم . فلم يجد بـداً من قبـول الخـلافـة . وقـد عـرضهـا عليـه أهـل بـدر

---

(22) الكامل ج 3 ص 38 وص 35 .
(23) الكامل ج 3 ص 37 .
(24) الأحكام السلطانية للماوردي ص 9 .
(25) مقدمة ابن خلدون ص 166 .
(26) أنساب الأشراف ج 5 ص 22 .
(27) الكامل ج 3 ص 58 .
(28) أنساب الأشراف ج 5 ص 22 .
(29) أنساب الأشراف ج 5 ص 22 .
(30) أنساب الأشراف ج 5 ص 46 .
(31) الكامل ج 3 ص 85 وأنساب الأشراف ج 5 ص 83 .

والمهاجرون والأنصار[32] وأطلق عليه شيعته لقب « الإمام »[33] وذلك تأكيداً لسلطاته الدينية حين يؤم المسلمين في الصلاة[34] .

حرض الثوار علياً على عزل العمال الذين عينهم عثمان ، فأذعنوا جميعاً إلا معاوية والي الشام الذي علّق على المنبر قميص عثمان وطفق يحض الناس على الثأر للخليفة المقتول[35] .

وعندما سار علي الى العراق خرجت السيدة عائشة يعاونها أنصارها لشن الحرب على الإمام علي ومنهم طلحة والزبير وأخذت تحمس الجند ، وهي في هودجها على الجمل ، فانتصر علي في هذه المعركة وعقر جمل السيدة عائشة وقتل دونه سبعون رجلاً ، وقد عرف ذلك اليوم بموقعة الجمل . فما كان من علي ، وهو المعروف بحلمه ونبله ، إلا أن يعيد عائشة الى مكة محاطة بالتكريم ، وقد ثابت بعد هذه الموقعة الى الله آسفة على الضحايا التي أريقت دماؤهم[36] .

وبعد الجمل كان يوم صفين ، وكان التحكيم وبدأ الوهن والتصدع يظهر بين أتباع علي ، وعرف معاوية كيف ينتهز الفرص لإثارة الاضطرابات في أرجاء البلاد[37] فازدادت نقمة الخوارج وقرروا قتل معاوية وعلي ، فلم ينجحوا في قتل أولهما [38] أما علي فقتله عبد الرحمن بن ملجم في المسجد في شهر رمضان . وفي مصرع علي انتهت خلافة الراشدين ، وخلا الجو لمعاوية ليعلن خلافته بالشام[38ب] ولا يخفى أنه أدخل مبدأ الوراثة على نظام الحكم ، ذلك المبدأ الذي ينافي روح الاسلام والذي حاربه رسول الله ونهى

الوزارة :

معنى الوزارة :

كلمة الوزير مشتقة من الوزر ، والوزر الثقل أو العبء ، لأن الوزير يتحمل أثقال الحكم وأعباء الوزارة . وقد ورد اللفظ في القرآن الكريم بمعان متشابهة .

قال تعالى : ﴿ كلا لا وزر إلى ربك يومئذٍ المستقر﴾[39] والوزر هو المعتصم[40] فالناس يلجأون إلى الوزير في أمورهم المعاشية .

وبهذا المعنى طلب النبي موسى من ربه المناصرة والمؤازرة . فقال : « واجعل لي وزيراً

---

(32) العقد الفريد ج 2 ص 398 .

(33) الكامل ج 3 ص 98 .

(34) مقدمة ابن خلدون ص 179 .

(35) الأمامة والسياسة لابن قتيبة ج 1 ص 133 .

(36) الكامل ج 3 ص 138 .

(37) المرجع نفسه .

(38 أ) المرجع نفسه .

(38 ب) المرجع نفسه ص 178 .

(39) القيامة الآية 11 .

(40) الأحكام السلطانية ص 13 .

من أهلي . هارون أخي . أشدد به أزري . . . »[41] .

فالوزير هنا بمعنى النصير الذي يتحمل الأعباء عن أخيه .

ولو تتبعنا استعمال لفظ وزير في المصادر لوجدنا أنه قد تعدى المنصب الاستشاري ، الى المناصب الفعلية التي تستطيع التصرف في سياسة الدولة .

من ذلك ما جاء في رسالة وجهها محمد بن الحنفية الى مالك الأشتر جاء فيها : « أما بعد ، فإني قد بعثت اليكم بوزيري وأميني ونجيي الذي ارتضيته لنفسي ، وقد أمرته بقتال عدوي ، والطلب بدماء أهل بيتي ، فانهض معه بنفسك ، وعشيرتك ، ومن أطاعك »[42] .

فهذا كلمة وزير تعني المندوب المطلق الصلاحية ، الذي يمثل الامام والذي توجب طاعته في كل ما يأمر .

وجاء في اللسان : الوزير : حبأ الملك ، الذي يحمل ثقله ويعينه برأيه . والحبأ : جليس الملك وخاصته . وحالته الوَزارة والوِزارة .

وقيل لوزير السلطان وزير ، لأنه يزر عن السلطان أثقال ما أسند إليه من تدبير المملكة . فالوزير هو الموازر .

وفي دائرة المعارف الاسلامية : كلمة وزير معناها الحاكم أو المقرر ، وهي من أصل فارسي . أما أحمد أمين ، فقد رجح أن أصل الكلمة عربي ومعناه الأمر أو التقرير[43] .

تاريخ الوزارة :

سلك الرسول ﷺ الطريق السليم في سياسة الرعية فكان يشاور أصحابه في المشكلات الاصلاحية التي تعترضه عملاً بقوله تعالى : ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ .

ومن المعروف أن عمر كان وزيراً لأبي بكر ، يوزع الزكاة ويقضي بين الناس بأمر من الخليفة .

وعثمان عمل وزيراً للخليفة عمر ، فقد كان من أصحاب المعرفة بالأنساب وأحوال القبائل وعلي كان وزيراً للنبي ﷺ [44] ومستشاراً في عهد الخلفاء الثلاثة وعلى الأخص في عهد الخليفة عمر ، فهو المعروف ببلاغته وفقهه في الدين وذكائه في أحوال وشؤون الناس .

والفرس عرفوا مثل هذا اللقب ولربما أخذه العرب عنهم . لكن أبهة الملك كانت بعيدة عن هؤلاء الخلفاء والوزراء . فقد امتازت حياتهم بالبساطة في جميع مظاهرهم ، فالتقى والورع والزهد والتقشف من سلوكهم ومن صفاتهم في أقوالهم وأعمالهم .

كان للخليفة مجلس شيوخ يستعين به في تنظيم أمور الدولة وفي تخطيط مشاريعها

---

(41) طه الآية 29 .

(42) الطبري ج 6 ص 16 .

(43) ضحى الاسلام لأحمد أمين ج 1 ص 172 .

(44) ابن أبي الحديد في شرح النهج ج 1 ص 49 .

الاصلاحية والتنظيمية في جميع الميادين . هذا المجلس يتألف من رؤساء القبائل وأعيان القوم وكبار الصحابة ، لا سيما الذين رافقوا الرسول في حله وترحاله ، وقد كانوا يتحلون بالنظرة الصائبة والعقل الراجح . وبهذا كان الحكم في إجماله قريباً من النظام الديمقراطي ، أما في العهد الأموي فقد أصبح الحكم ضرباً من الملكية الوراثية ، كان لا بد للخلفاء من استشارة أصحاب الرأي ليتحملوا معهم بعض الأعباء ، لكنهم لم يصطلحوا على تسمية أي واحد من هؤلاء وزيراً بشكل رسمي ، ما عدا زياد بين أبيه الذي لقب بالوزير في عهد معاوية بن أبي سفيان[45] .

في نهاية العصر الأموي اتجهت الادارة نحو التمركز فقد بدأ الخليفة يتخذ لنفسه كتاباً ، حتى أصبح الوزير خلفاً للكاتب الأموي في أواخر عصر بني أمية[46] .

وفي العصر العباسي استحدث منصب الوزير ، ومما يظهر أن أبا العباس حين أقر نظام الوزارة راعى تطور الدولة واتجاهها نحو التمركز وتوزيع السلطات ، وربما تم ذلك بتحريض من الفرس وتأثير الخراسانيين ، لأنهم كانوا أنصاراً طبيعيين للعباسيين ، إذ أنهم دعوا أبا سلمة الخلال « وزير آل محمد » وقد أقره العباس على منصبه وتسميته . وظل العباسيون يطبقون نظام الوزارة بأبسط صورة طوال العصر العباسي الأول .

فأبو سلمة الخلال مثلاً ـ مع أنه سمي وزيراً ـ لم يكن يتمتع بصلاحيات كاملة في جميع الدواوين ، فلم يكن ديوان الخراج وديوان الجند مثلاً داخلين في سلطته ، بل كان كل منهما في يد خالد بن برمك .

من هنا نرى كيف أن خالد بن برمك رفض أن يلقب بالوزير بعد مصرع الخلال ، مع أنه خلفه في مهام منصبه .

أما صلاحيات الوزير فلم تكن محددة ، ولذلك كثيراً ما كان يقع التصادم بين سلطة الخليفة من نحو وسلطة الوزير من نحو آخر ، وأما عن سلطة الخليفة فهي واضحة إذ كان يعتبر الوزير مساعداً له ليس غير . وطبيعي أن سلطة الخليفة هي التي تثبت في النهاية بعد وقوع الصدام ، وإذا ما استعرضنا تاريخ الوزارة في العصر العباسي كالمنصور مثلاً فإننا لا نجد وزيراً دائماً ، بل مرة نجد وزيراً ، وأخرى نجد كاتباً . وأكثر الذين شغلوا هذا المنصب كانوا من الموالي ، وقد آثرهم على العرب لحذقهم في الكتابة ومهارتهم في الإدارة ، يقول المورياني : « ليس من شيء إلا نظرت فيه إلا الفقه ، وقد نظرت في الكيمياء والطب والنجوم والحساب وحتى السحر »[47] .

والمنصور استفاد من تجربة السفاح مع وزيره الخلال فلم يعط وزراءه كثيراً من النفوذ

---

(45) تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 259 والكامل ج 3 ص 244 .

(46) الحضارة العربية ص 26 .

(47) الحضارة العربية ص 27 والمورياني كان وزيراً من هؤلاء الذين أشرنا اليهم ، وهو يعني بقوله هذا أن الوزير كان يعنى بتوسيع ثقافته الى أبعد الحدود .

القتال عنه وان الأصل أن يؤخذ من كل غير مسلم بدل عسكري هو الجزية إلا إذا ارتضى أن يقاتل مع المسلمين ، وهذا متروك للمسلمين إذا وثقوا به .

الغنيمة :

الغنيمة معناها اللغوي مأخوذ من الفوز بالشيء(31) ومعناها الاصطلاحي مشتق من المعنى اللغوي وهي مال من أموال الكفار ظفر به المؤمنون على وجه الغلبة والقهر(32)

وبعد أن تجمع الغنائم يقسمها الامام خمسة أقسام ، ثم يتناول خمساً منها ، خمسة أسهم بين أهل الخمس المذكورين في قوله تعالى : ﴿ واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل(33) .

والأسهم الخمسة في هذا الخمس أحدها سهم للرسول ينفقه في مصالحه ومصالح بيته وما يراه بعد ذلك من مصالح المؤمنين ، وقد سقط هذا السهم بعد موته .

والسهم الثاني لذوي القربى النبي من بني هاشم وبني عبد المطلب . والسهم الثالث لليتامى ، والسهم الرابع للمساكين ذوي الحاجة من المسلمين ، والسهم الخامس لابن السبيل المسافر المنقطع عن بلده ، والاخماس الأربعة الباقين للغانمين(34) .

والامام له الحق ام آثر أن يمنّ على الأسرى بالحرية فله ذلك(35) كما له أن يقتلهم جميعاً إن وجد أن المصلحة في قتلهم لمقابلة العدد بالمثل في بعض الحالات . غير أن الأخماس الأربعة ، ملك الغانمين ، نظمها الرسول ﷺ بالعدل بين المقاتلين فأعطى الفارس ثلاثة أسهم والراجل سهماً واحداً(35) .

والغنيمة تقسم الى أربعة أقسام : الأسرى والسباء والأراضي والأموال .

فالأسرى : كل محارب وقع أسيراً ، والسباء : يراد به النساء والأطفال فلا يجوز أن يقتلوا ، ولا سيما إذا كانوا من الذميين . أما الأرض التي استولى عليها المسلمون عنوة وقهراً ، فتقسم بين الغانمين إلا أن يطيبوا نفساً بتركها فتجعل وقفاً على مصالح المسلمين(36) .

هذا التقسيم كان يحدث بلا ريب بعد انتهاء الحرب ولا بد من الانتظار حتى تضع الحرب أوزارها وذلك حتى لا يتشاغل المسلمون بالأسلاب ويتلهون عن إحراز النصر . ويدخل في باب الغنيمة ، وربما أصبح ملكاً لسالبه . وما يبدو أن هذا العمل يعتبر تشجيعاً لبعض المؤمنين على البلاء الحسن في القتال . وجاء في الحديث : « من قتل قتيلاً فله سَلَبُه » والقتيل من الكفار الذين آذوا المؤمنين ووقفوا في طريق الاسلام .

---

(31) القاموس المحيط (للفيروزابادي) باب الميم فصل الغين (غنم) ص 121 وكتاب الأم للشافعي ج 4 ص 64 .

(32) سورة الأنفال الأية 41 .

(33) تفسير الجلالين ص 240 .

(34) أحكام أهل الذمة تحقيق الدكتور صبحي الصالح ص 16 .

(36) انظر أحكام الماوردي ص 132 وأحكام أبي يعلي ص 134 .

للحسب والأدب والسياسة ، داعياً للأشرار ، طارداً للأخيار . . »[51] .

وفي عصر البويهيين اكتسبت الوزارة صفة عسكرية حربية ، فكان للوزير سلطة قيادة الجيش وتوجيهه الى المواقع الحربية . ووضع الخطط أثناء الحرب . قسمت الوزارة في عهد العباسيين الى قسمين :

1 ـ وزارة تنفيذ . 2 ـ وزارة تفويض .

فوزارة التنفيذ تنفذ أوامر الخلافة ولا يحق للوزير أن يتصرف في أمر إلا بعلم الخليفة فهو همزة وصل بين الإمام وبين الشعب[52] .

قال ابن طباطبا صاحب كتاب الفخري في الآداب السلطانية :

« الوزير وسيط بين الملك ورعيته ، فيجب أن يكون في طبعه شطر تناسب طباع الملوك ، وشطر يناسب طباع العوام ، ليعامل كلاً من الفريقين بما يوجب له القبول والمحبة ، والأمانة والصدق رأس ماله .

قيل إذا خان السفير ، بطل التدبير . وقيل ليس لمكذوب رأي . والكفاءة والشهامة من مهماته . والفطنة والتيقظ والدعاء والحزم من ضرورياته ولا يستغني أن يكون مفضالاً مطعاماً ، ليستميل بذلك الأعناق . وليكون مشكوراً بكل لسان »[53] .

وإذا لاحظنا التعريف الذي أورده العلماء لوزير التنفيذ ، لوجدنا أن عمله دائم حيناً ومؤقت حيناً آخر ، فهو أشبه بصاحب البريد . ومن ناحية أخرى كان يتمتع باختصاصات عملية . قال الماوردي في أحكامه :

« وأما وزارة التنفيذ فحكمها أضعف ، وشروطها أقل : لأن النظر فيها مقصور على رأي الامام وتدبيره . وهذا الوزير وسيط ، يؤدي عنه ما أمر ، وينفذ عنه ما ذكر ، ويمضي ما حكم . فهو معين في تنفيذ الأمور ، وليس بوالٍ عليها ، ولا متقلداً لها .

فإن شورك في الرأي كان باسم الوزارة أخص ، وان لم يشارك فيه كان باسم الوساطة والسفارة أشبه »[54] .

فوزير التنفيذ لما تلاحظ له صلة بالخلافة غير أنه لا يحق له أن يبادر أي أمر من الأمور من رأيه أو اجتهاده ، بل هو أداة لتبليغ أوامر الخليفة ، وإعلامه بأحوال خلافته .

أما الطريقة التي كان يعين بها وزير التنفيذ فقد أخبرنا عنها الماوردي فقال : « وليس تفتقر هذه الوزارة الى تقليد ، وإنما يراعي فيها مجرد الإذن » وأما عن صفات المرشح لمنصب وزير قالوا عنها :

---

(51) المصدر نفسه ص 127 .

52) أحكام الماوردي ص 25 .

(53) الفخري في الآداب السلطانية لابن طباطبا ص 121 .

(54) الماوردي ص 25 .

« ولا تعتبر في المؤهل لها الحرية ولا العلم ، لأنه ليس له أن ينفرد بولاية ولا تقليد فتعتبر فيه الحرية ، ولا يجوز له أن يحكم فيعتبر فيه العلم . وإنما هو مقصور النظر على أمرين : أحدهما أن يؤدي الى الخليفة . والثاني : أن يؤدي عنه[55] .

فظاهر النصوص يفيد أن لفظ وزير تنفيذ لم يكن يطلق إلا لمن كانت له مشاركة في الرأي ، وإلا سمي وسيطاً أو سفيراً .

شروط تعيين وزير التنفيذ

وأبو يعلي عندما ذكر وزارة التنفيذ لاحظ في شروط تعيين الوزير أوصافاً عدة :

1 ـ الأمانة فلا يجوز للوزير أن يخون أو يغش فيها قد إئتمن عليه واستنصح فيه .

2 ـ الصدق . وذلك حتى يكون موضع ثقة فيما أسند اليه من أمر أو نهي .

3 ـ قلة الطمع حتى لا يرتشي ولا ينخدع .

4 ـ أن يسلم فيما بينه وبين الناس من عداوة وشحناء ، فإن العداوة تصد عن التناصف وتمنع من التعاطف .

5 ـ أن يكون ذَكُوراً لما يؤديه للخليفة وعنه ، لأنه شاهد له وعليه .

6 ـ أن يكون ذكياً حتى لا تدلس عليه الأمور فتشتبه ، ولا تموه عليه فتلتبس .

7 ـ ألا يكون من أهل الأهواء فيخرجه الهوى من الحق الى الباطل .

8 ـ أن يؤتى الحنكة والتجربة التي تؤديه الى صواب التدبير إن كان مشاركاً في الرأي[56] .

وقد حرموا وزارة التنفيذ على المرأة ، وأجازوها لأهل الذمة فقالوا : « ولا يجوز أن تقوم بذلك امرأة ، وإن كان خبرها مقبولاً ، لقول النبي ﷺ : « ما أفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة » ولأن في أمر الولايات من طلب الرأي ، وثبات العزم ما تضعف عنه النساء ، ومن الظهور في مباشرة الأمور ما هو عليهن محظور .

« ويجوز أن يكون وزير التنفيذ من أهل الذمة ، وإن لم يجز أن يكون وزير التفويض منهم »[57] .

2 ـ وزارة التفويض

وضع علماء السياسة الشرعية مبادىء عامة لنوعي الوزارة أخذوها عن السوابق التاريخية ومن دواعي العقل ومستلزمات العمل فقالوا : « وزارة التفويض هي أن يستوزر الامام من يفوض اليه تدبير الأمور برأيه ، وامضاءها على اجتهاده . فيعتبر في تقليد هذه الوزارة شروط الامامة ، وهو ان يكون من أهل الكفاية فيها وكل إليه من أمر الحرب والخراج خبيراً بهما . فإنه مباشر لها تارة بنفسه ، وتارة يستنيب فيهما ، ولا يصل إلى استنابة الكفاية إلا أن يكون منهم ، كما لا يقدر على المباشرة إذا قصر عنهم .

---

(55) المصدر نفسه ص 25 .

(56) احكام الماوردي ص 16 .

(57) المصدر نفسه ص 27 .

وروى الماوردي كتاباً عن المأمون قيل أنه كتبه في الشروط الجامعة لوزير التفويض . قال :

« إني التمست لأموري رجلاً جامعاً لخصال الخير ، ذا عفة في خلائقه ، واستقامة في طرائقه ، قد هذبته الآداب ، وأحكمته التجارب . ان ائتمن على الأسرار قام بها ، وإن قلد مهمات الأمور نهض فيها . يسكته الحلم ، وينطقه العلم ، وتكفيه اللحظة ، وتغنيه اللمحة . له صوت الأمراء ، وأناة الحكماء ، وتواضع العلماء ، وفهم الفقهاء . إن أحسن إليه شكر ، وإن ابتلي بالإساءة صبر لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده . يسترق قلوب الرجال بخلابة لسانه وحسن بيانه »[58] ..

هذه الشروط الجامعة لوزير التفويض أو نائب الخليفة وإن كملت فيه ، تبقيه بعيداً عن الامام ويبقى بلا ريب فروق بين الوزير والامام دل الماوردي على هذه الفروق بشرطين :

1 ـ أحدهما يختص بالوزير : وهو مطالعة الامام لما أمضاه من تدبير وأنفذ من ولاية وتقليد ، لئلا يصير بالاستبداد كالإمام .

2 ـ والثاني مختص بالإمام : وهو ان يتصفح أفعال الوزير ، وتدبيره الأمور ، ليقر منها ما وافق الصواب ، ويستدرك ما خالفه ، لأن تدبير الأمة إليه موكول ، وعلى اجتهاده محمول »[59] .

ومما يبدو أن هذا الافتراض الذي تدعو إليه السياسة وحسن العلاقات بين الامام والوزير لم يكن مرعياً دوماً ، وربما استبد الوزير فعلاً بكل شؤون الدولة وحجز الخليفة أو حبسه في قصره ومنع الناس من الدخول إليه . من ذلك ما رواه السيوطي في تاريخ الخلفاء قال : « . . . انحدر المعتمد على الله إلى سامرا ، فتلقاه صاعد بن مخلد كاتب الموفق (أخي المعتمد) فأنزله في دار أحمد بن الخصيب ، ومنعه من نزول دار الخلافة ، ووكل به خمسمئة رجل يمنعون من الدخول اليه . . . وأقام صاعد في خدمة المعتمد ، ولكن ليس للمعتمد حلّ ولا ربط . وقال المعتمد في ذلك :

أليس من العجائب أن مثلي	يرى ما قلّ ممتنعاً عليه ؟
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً	وما من ذاك شيء في يديه ؟
إليه تحمل الأموال طرا	ويمنع بعض ما يجبى إليه !

« وهو أول خليفة قهر ، وحجر عليه ، ووكل به »[60] .

وأمثال ذلك كثير وهذه قصة برواية ابراهيم بن المهدي تعد نموذجا لما تمتع به بعض الوزراء من صلاحيات بعيدة الحدود . جاء في العقد الفريد : ابراهيم بن المهدي وجعفر بن يحيى وعبد الملك بن صالح .

---

(58) الأحكام السلطانية ص 23 .

(59) المصدر نفسه ص 24 .

(60) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص 365 .

خـلا جعفر بن يحيى في منـزله يـوماً مـع ندمـائه وكـان ابراهيم معهم . ثم قـدم إليهم الطعام فطعموا ولما غسلوا أيديهم خلع عليهم ثياب المنادمة وضمخوا بالخلوق وأمضوا أسر يوم مر معهم . ثم تذكر جعفر حاجة فدعا الحاجب وقال له : « إذا جاء عبد الملك القهرمان فأذن له ، فنسي الحاجب ، وجاء عبد الملك بن صالح الهاشمي على جلالته وسنـه وقدره وأدبـه ، فأذن له الحـاجب . فما راعنـا إلا طلعة عبـد الملك بن صالـح ، فتغير لـذلك وجـه جعفر بن يحيى ، وتنغّـص عليه ما كان فيه . فلما نظر إليه عبد الملك على تلك الحالة دعا غلامـه فدفـع إليه سيفه وسواده وعمامته ، ثم جاء فوقف على بـاب المجلس فقال : اصنعـوا بنا مـا صنعتم بـأنفسكم . قال : فجـاء الغلام فـطرح عليه ثيـاب المنادمـة ، ودعا بـطعام فـطعم ، ثم دعا بالشراب فشرب ثلاثاً ثم قال : ليخفف عني فـإنه شيىء مـا شربتـه قط . فتهلل وجه جعفـر فرحاً . وقد كان الرشيد حاور عبد الملك على المنادمة فأبى ذلك وتنزه عنـه . ثم قال لـه جعفر ابن يحيى :

جعلني الله فداك ، قد تفضلت وتطولت وأسعدت ، فهل من حاجـة تبلغها مقـدرتي ، وتحيط بها نعمتي فأقضيها لك مكـافأة لما صنعت ؟ قال : بـلى ، ان قلب أمير المؤمنـين عاتب علي ، فتسأله الرضا عني . فقال : قد رضى عنك أمير المؤمنين .

ثم قـال : وعلي أربعـة آلاف دينار : قـال هي حاضـرة ، ولكن من مال أمـير المؤمنين أحب إلي من مالي .

قال : وابني ابراهيم أحب أن أشد ظهره بمصاهرة أمير المؤمنين . قال : قد زوَّجـه أمير المؤمنين ابنته عائشة الغالية .

قال : وأحب أن تخفق الألوية على رأسه بولاية . قال : قد ولاه أمير المؤمنين مصر .

قال : فانصرف عبد الملك ونحن نعجب من إقدام جعفر على الرشيد من غير استئـذان فلما كان الغد وقفنـا على بـاب أمير المؤمنـين ، ودخل جعفـر ، فلم يلبث أن دعا بـأبي يوسف القاضي ومحمد بن الحسن وابراهيم بن عبد الملك ، فعقـد له النكـاح وحُملت البِدَر الى عبـد الملك وكتب سجل إبراهيم على مصر . وخرج جعفر فأشار إلينـا ، فلما صار إلى منـزله ونحن خلفـه ، نزل ونـزلنا بنـزوله . فـالتفت الينا ، فقـال : تعلقت قلوبكم بـأول أمـر عبـد الملك فأحببتم أن تعرفوا آخره ، وإني لما دخلت على أمير المؤمنين ومثلت بين يديـه سألني عن أمسي فـابتـدأت أحـدثـه بـالقصـة من أولهـا إلى آخـرهـا ، فجعـل يقـول : أحسن والله ، أحسن والله ! »[61] .

في هذا الخبر التزم جعفر بمـا أورده الماوردي فـاطلع أمير المؤمنـين على مـا أبرم . ولكن تمادي الوزير وتطاوله على صلاحيات الخليفة أمر غريب عجيب ! إلا أن مـردّ ذلك إلى مـا كان يتمتع به جعفر بن يحيى من ثقة الخليفة هارون الرشيد ، ولمـا آنس فيه تسلمـه مفاتيـح أبواب الحكم عنده . ولكن على الرغم من هذا التفويض المطلق ، فإن العلماء قد نصـوا أموراً ثـلاثة

(61) العقد الفريد ج 5 ص 72 .

لا يصح لوزير التفويض أن يقوم بها قال الماوردي :

« يجوز لهذا الوزير أن يحكم بنفسه ، وأن يقلد الحكام ، كما يجوز للامام لأن شروط الحكم فيه معتبرة . . . وكل ما صح من الإمام ، صح من الوزير ، إلا ثلاثة أشياء :

أحدها : ولاية العهد ، فإن للامام أن يعهد إلى من يرى ، وليس ذلك الى الوزير .

الثاني : ان للامام أن يستعفي الأمة من الامامة ، وليس ذلك للوزير .

والثالث : ان للامام أن يعزل من قلده الوزير ، وليس للوزير أن يعزل من قلده الامام .

« وما سوى هذه الثلاثة فحكم التفويض إليه يقتضي جواز فعله ، وصحة نفوذه منه »[62] .

الفروق بين الوزارتين

والآن نذكر الفروق بين الوزارتين :

أولاً : يجوز لوزير التفويض مباشرة الحكم والنظر في المظالم ، وليس ذلك من حق وزير التنفيذ .

ثانياً : يجوز لوزير التفويض أن يستبد برأيه في تقليد الولاة ولاياتهم .

ثالثاً : يحق لوزير التفويض أن ينفرد بتسيير الجيوش وتدبير الحروب ووضع الخطط العسكرية .

رابعاً : يجوز لوزير التفويض أن يتصرف في بيت المال بالقبض والدفع[63] .

وما عدا هذه الأوصاف الأربعة ليس ما يمنع لأهل الذمة من تقلد الوزارة .

الكتابة :

لما عجز الوزير بمفرده عن القيام بجميع ما عهد إليه من السلطات كان لا بد له من كاتب يساعده في تيسير الأمور ، بالاضافة الى موظفين كبار ، يعملون في إدارة شؤون الدولة . من هنا نشأت وظيفة الكتابة وأصبح الكاتب من أكبر أعوان الخليفة والوزير .

وكما أسلفنا أن النبي ﷺ أول من اتخذ كتاباً يكتبون له الوحي . ثم أمسوا يقومون على تعاقب الزمان بأعمال تشبه أعمال الوزراء . من هؤلاء الكتاب في العصر النبوي علي بن أبي طالب ، وعمر بن الخطاب ، وزيد بن ثابت ، وعثمان بن عفان ، والمغيرة بن شعبة . ولما كان السواد الأعظم منَ الناس في صدر الاسلام لا يحسنون الكتابة والقراءة عرفوا هؤلاء بالكتاب أو الخطاط .

وهذه وصية علي بن أبي طالب لعبد الله بن أبي رافع ، قال :

يا عبد الله ، ألقِ دواتك وأطل شباة قلمك ، وفرّج بين السطور ، وقمّط بين الحروف » .

---

(62) الاحكام السلطانية ص 25 .

(63) أحكام أبي يعلي ص 16 والأحكام السلطانية ص 27 .

وفي عهد الأمويين تنوعت وظيفة الكتاب وتخصص كل منهم في مجال معين ، فكانوا خمسة أصناف منهم كتاب للرسائل ، وكتاب للخراج ، وكتاب للجند ، وكتاب للشرطة ، وكتاب للقضاء ، أما أعظمهم فكانوا كتاب الرسائل لأنه موضع أسرار الدولة . وغالباً ما كانوا من ذوي أصحاب الدولة وخاصتهم جرياً على رواسب العادات القبلية .

أما في العصور العباسية فقد حرص الخلفاء على أن يتولى كتابة الرسائل الذين ينتمون الى نسب رفيع ، ويتمتعون بسعة العلم وعمق الثقافة . وقد يعادل مركز الكاتب مركز الوزير ، فهو الذي يحرر الرسائل الداخلية والخارجية الرسمية ، وهو الذي ينشر المراسيم والقرارات والبلاغات ، وقد يجلس مع الخليفة على منصة القضاء لينظر في الدعاوى .ويختمها أخيراً بخاتم الخليفة(64) .

وفي ذلك ألف الجهشباري كتاباً قيماً في موضوع الكتابة والوزارة يقول فيه : « وكانت ملوك فارس تسمي كتاب الرسائل تراجمة الملوك وكانوا يقولون لهم : لا تحملنكم الرغبة في تخفيف الكلام والإيجاز فيه على حذف معانيه وترك ترتيبه وتوهين حجمه»(65) .

فالكتاب تراجمة الملوك على حد قول الجهشياري في العصر العباسي كما كانوا قبل في عصر الأكاسرة الفارسيين .

من هؤلاء الذين اشتهروا في هذا الحقل يحيى بن خالد بن برمك ، والفضل والحسن ابنا سهل ، وأحمد بن يوسف في عهد المأمون ، ومحمد بن عبد الملك الزيات ، والحسن بن وهب ، وأحمد بن المدبر في عهد المعتصم والواثق . وقد رسم لنا ابن خلدون صورة صادقة عن الأعمال التي كان يقوم بها الكاتب قال : « ان أصول السلطان وتصرفاته لا تعدو أربعة ، لأنها إما أن تكون في أمور الحماية والمطالبة ، وصاحب هذا هو الوزير المتعارف في الدول القديمة بالمشرق ، ولهذا العصر بالمغرب ، اما أن تكون في أمور مخاطباته لمن بعد عنه في المكان أو في الزمان ، وتنفيذه الأوامر فيمن هو محجوب عنه ، وصاحب هذا هو الكاتب ، وإما أن تكون في جباية المال وانفاقه وضبط ذلك من جميع وجوهه أن يكون بمضيعة ، وصاحب هذا هو صاحب المال والجباية ، واما أن تكون في مدافعة الناس ذوي الحاجات عنه ان يزدحموا عليه فيشغلوه عن مهمته ، وهذا راجع لصاحب الباب الذي يحجبه وهو الحاجب »(66) .

الحجابة :

والحجابة أنشأتها ظروف معينة أيضاً . كان الخلفاء الراشدون لا يحتاجون الى حاجب قط لأنهم ببساطتهم وحسن عشرتهم للرعية لم يمنعوا أحداً من الدخول عليهم ليلاً أو نهاراً ، ولكن معاوية بمجرد توليه الحكم اتخذ الحجاب كارهاً مضطراً بعد حادثة الخوارج مع علي وعمرو بن العاص خوفاً من ازدحام الناس على بابه الذي قد يذهب بحياته(67) .

(64) النظم السياسية لحسن ابراهيم حسن ص 125 .

(65) الوزراء والكتاب للجهشياري .

(66) مقدمة ابن خلدون ص 90 .

(67) تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 271 .

ويختلف معنى الحجابة بين بلد وآخر ، ففي العراق مثلاً كان الحاجب يقوم بعمل مدير التشريفات اليوم ، بينما كان الحاجب في الأندلس يتمتع بسلطات رئيس الحكومة وهو أقرب الوزراء الى الخليفة الأندلسي حتى ليقدر على تمثيله في جميع سلطاته الفعلية(68) .

وما يلاحظ أن العباسيين اقتدوا بالأمويين في مسألة الحجابة ، بل ربما أسرفوا في منع الناس من المقابلات الرسمية . وهذا ما دعا ابن خلدون الى تسميته بالحاجب الثاني فكان بين الناس والخليفة حاجزان . ففي الدار الأولى الدار الخاصة وفي الثانية الدار العامة ، فكان الخليفة يقابل كل طائفة بحسب حالاتها وظروفها وتبعاً لإرادة الحاجب على الباب .

وعندما ازداد انهيار الدولة زادوا حاجباً ثالثاً لكي يحجب السلطان عن الخاصة والعامة حجاباً تاماً ، وهنا برز الحاجب الثالث وقوى نفوذه وتوسع سلطانه حتى أصبح مستشار الخليفة في جميع الشؤون المهمة وفي مختلف مرافق الدولة الحيوية . وبعض الحجاب الأقوياء استطاعوا أن يضعفوا من قوة الوزراء عن الخلفاء . إذ أنهم كانوا يؤخرون تنفيذ أي قرار لا يرغبون فيه ، قال ابن مسكويه : « غلب محمد بن ياقوت على تدبير الأمور بنظره في جباية الأموال ، وحضور أصحاب الدواوين مجلسه ، وتفرده بكل ما يعمله الوزراء»(69) يبدو مما سبق أن الوزارة قد تطور مدلولها بتطور الظروف وتنوع الأحوال وقد غلبت عليها صفة الكتابة ففي أغلب الأحيان كان الوزير كاتباً وفي أحيان أخرى غلبت عليها الحجابة فكان الوزير حاجباً . وقد نال كل من هؤلاء من الحظوة والنفوذ حسبما كان له من الذكاء والدهاء وقوة الشخصية »(70) .

واسم الحاجب في الدولة دليل رقيها وحضارتها فكان أعظم الملوك شأناً لا بد له من ذكرالحاجب(71) وذي الوزارتين ، يعنون السيف والقلم .

قال ابن خلدون : « لم يكن في دول المغرب وافريقية ذكر لهذا الاسم للبداوة التي كانت فيهم وربما يوجد في دولة العبيديين بمصر عند استعظامها وحضارتها إلا أنه قليل»(72) .

ودولة الموحدين التي لم تستمكن فيها الحضارة لم يكن اسم الحاجب معروفاً عندهم يومئذٍ .

وأما دولة زناته بالمغرب فلا أثر أيضاً لاسم الحاجب ، وباب السلطان وحجبه عن العامة رتبة عندهم يسمى صاحبها بالمزوار ومعناه المقدم على المتصرفين بباب السلطان في تنفيذ أوامره وتصريف عقوباته . . . وأما دولة الأندلس فالمخصوص عندهم بالحسبان وتنفيذ حال السلطان وسائر الأمور المالية يسمونه بالوكيل .

---

(68) المدخل في تاريخ الحضارة العربية ص 30 .

(69) النظم الاسلامية لحسن ابراهيم حسن ص 130 .

(70) المصدر نفسه ص 130 .

(71) يدلون بالحجابة على حجابة السلطان عن العامة والخاصة وبذي الوزارتين عن الجمع لخطتي السيف والقلم .

(72) المقدمة ص 241 .

ودولة الترك بمصر فاسم الحاجب عندهم موضوع لحاكم من أهل الشوكة[73] ينفذ الأحكام وكأنه يقوم بدور النيابة التي لها الحكم في أهل الدولة وفي العامة على الإطلاق . وللحجاب في هذه الدولة الحكم فقط في طبقات العامة والجند عند الترافع إليهم وإجبار من أبى الانقياد للحكم[74] .

---

(73) الذين ينفذون الأحكام بين الناس في المدينة .

(74) المقدمة ص 242 .

الفصل الثالث

الخلافة والاستخلاف في الاسلام

إذا راجعنا التاريخ الاسلامي بجزئياته وتفصيلاته وجدنا منهجين مختلفين في أمر الاستخلاف ، ولزم علينا أن نسأل سؤالين هامين :

1 ـ هل استخلف النبي ﷺ أحداً بعده ؟

2 ـ وهل بيّن للمسلمين طريقة الاستخلاف التي يتم بها تعيين الامام ؟

إذا افترضنا أن النبي ﷺ الذي اختاره الله سبحانه وتعالى لينشر الدين الاسلامي ويبلغ رسالة الاسلام ، لم يستخلف أحداً بعده لأن له من المبررات في نظر البعض من المسلمين ، فلم يبين لهم جميعاً طريقة الاستخلاف التي يتم بها تعيين الامام ؟ والشروط الواجب توفرها فيه ، والأمور التي تجرده من صلاحيات الامامة ؟

إذا رجعنا إلى مراجع أهل السنة ألفيناهم يجمعون على أن النبي ﷺ قد أهمل جميع هذه الأمور ولم يصدر عنه فيها أي شيء .

كلنا يعلم أن النبي كرئيس دولة فتية ، ناشئة بين دولتين كبيرتين لهما تاريخ طويل وهام هما دولة الفرس ودولة الروم وغيرهم من الذين يضمرون العداء للاسلام .

وأنه ﷺ صاحب رسالة إنسانية عالمية ، أعلنت الحرب على كل تضليل بثته الديانات المريضة في ذلك العصر الوثني والتي سممت عقول الناس وأفسدت نفوسهم .

وأنه ﷺ كرئيس دولة هذه ظروفها ، وصاحب رسالة انسانية إلـهية هذه مشاكلها ، مسؤول أمام الله عز وجل وأمام التاريخ البشري . فلا بد له ﷺ أن يحتاط ويمعن في الاحتياط لدولته الناشئة ولرسالته الانسانية العظيمة ، ولا بد من أن يحشد كل ما يمكنه من الضمانات اللازمة التي تهيىء هذه الرسالة وهذه الدولة لكي تسيرا في طريق الحياة والنمو والانتشار ؛ حيث أن الرسالة الاسلامية التي كلف بتبليغها ونشرها لم تكن للعرب وحدهم وإنما كانت للناس كافة . قال سبحانه : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيرا ﴾(1) وقال سبحانه أيضاً ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾(2) .

---

(1) سبأ الآية 28 .

(2) الأنبياء الآية 107 .

فهل يصح بعد هذا ان من باب الاحتياط لرسالته ، أن يهمل أمر طريقة استخلافه على الأقل ، المكلف بنشرها والمدبر لها والمفكر في حفظها ؟ وهل يمكن أن ننسب إليه الاهمال بين أصحاب الرسالات ، وهو النبي العظيم والانسان الكامل ، والسياسي المحنك ، والإداري الواعي ، والمصطفى المختار من رب العالمين ؟

وهل يكون بمستوى العظمة المستوعبة جميع وجوه حياته الفذة أن يقال عنه ﷺ أنه أهمل رسالته ودولته هذا الاهمال العظيم ؟

يقول الباحثون القدماء من أهل السنة في تعليل ما ينسبونه الى النبي ﷺ من إهمال طريقة الاستخلاف : في أن نظام الحكم في الشريعة الاسلامية ليس من شؤون الدين ، ولذلك لم يعره صاحب الرسالة اهتمامه .

وما نراه أن أمر الحكومة الاسلامية من صميم أمور الدين ، إذ ما من دعوة في تاريخ الأديان والمذاهب على اختلافها قدر لها النجاح إلا إذا ساعدتها على ذلك دولة تعضدها وتكون لها بمثابة الكيان الحي ، فكيف بالاسلام وهو دين العدالة الانسانية الذي ساوى في رعايته الروح والمادة وجعل أحدهما مقوماً للآخر ؟

فهل يصح أن يقال أن صاحب هذه الدعوة لم يسع الى قيام دولة تشتق مبادئها من مبادئه ، وتسير كما أرادها الله على هدى دعوته ؟

إن النبي ﷺ مكلف من الله عزّ وجل بنشر الاسلام ، والحكومة الاسلامية جزء من الاسلام[3] ، فهل يمكن أن ننسب إليه ﷺ الاهمال ؟

والغريب في قول هؤلاء القدماء أنهم يدعون تارة استبعاد الخلافة عن الدين وشؤونه ، ثم يرددون بعد ذلك بأن الخليفة يستمد سلطته من الله ، والله قيم على الدين والدنيا معاً . وهذا تناقض واضح لا يحتاج الى أدنى توضيح .

ويقول الباحثون المحدثون من أهل السنة : إن النبي لم يهمل هذه الناحية إلا لغاية بعيدة المدى ، إذ أنه كان ينظر بعين الغيب الى مستقبل المسلمين ويأمل تطورهم في أساليب الحياة . فرأى ﷺ ضرورة عدم تقييد المسلمين بما يتنافى وتطورهم ، فترك أمر الخلافة لهم يتصرفون بها كما تفرض عليهم ظروفهم وحياتهم في مجتمعهم .

وهذه دعوى باطلة جملة وتفصيلاً ، لأن الاسلام دين اجتماعي انساني تطوري ، في كل تشريع من تشريعاته ينص على قابليته للتطور بالتعميم ، أو بالتخصيص ، أو بالنسخ ، وذلك حسب ما تقتضيه الأحوال . وعلى المسلمين الواعين أن يسايروا الروح التطورية العامة للحياة ضمن النطاق الاسلامي المشروع ، أما فيما يخرج عن هذه الحدود فالاسلام يرى ذلك رجعية وجاهلية لا تطوراً وتحضراً .. وهذه الروح التطورية التي يحملها الاسلام في دستوره لا تقتصر على ناحية خاصة وإنما تشمل كل ما يحتاجه الانسان في حياته الخاصة والعامة ؛ ولم نر

(3) هناك آيات كريمة تشير الى حتمية الحكومة الاسلامية نذكر منها على سبيل المثل : ﴿ إنا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ﴾ النساء 105 وانظر كذلك سورة المائدة الآية 49 و50 .

أنـه أهمل تشـريعاً من هـذه التشريعـات التطوريـة لمجرد القـول بأنـه قد يـطرأ على المسلمـين تطورات قد لا تلائم التشريع في عمومه أو في خصوصه ، بل سن الاسلام التشريع وسن معه الضوابط الكفيلة بأن تجعله مرناً يتطور مع الحيـاة الانسانيـة الكريمـة في تقلباتهـا ضمن الإطار الاسلامي الذي يحيط بها .

وهذه التعلة التي ذكرها المحدثون لا تمنع النبي أبداً من أن يسن تشريعاً تطورياً شأنه في ذلك شأن المسائل الأخرى التي عرض لها .

وبعـد هذا وذاك وإذا اعتبـرنا أن هـذا الاهمال من النبي ﷺ مقصـوداً ، فلماذا لم يعلن ﷺ للمسلمين أنه ترك هذا الأمر إليهم ليروا فيه مـا يلائم أوضـاعهم وما تقضيـه مصلحتهم المستقبلية ؟

إنها تعلات غير مقبولة والنبي ﷺ لم يتهرب قط من مسؤ وليته كصاحب رسالـة إنسانيـة وكمؤسس دولة اسلامية ، والمفروض فيه ألا يهمل ولا بد من أن يكون قـد وضع تشـريعاً في هذه المسألة لا محالة .

شروط تعيين الامام عند أهل السنة

لما ذهب ، قدماء ومحدثـون من أهل السنـة أن النبي ﷺ لم يستخلف أحداً بعـده ، ولم يبين طريقة الاستخلاف ، قالوا أن تعيين الامام في الدولة الاسـلامية أمـر ليس فيه نص وإنمـا عليهم أن ينتهـوا إليه بـآرائهم . والخلاصـة التي وصلوا إليهـا في التعيـين تنحصـر في الـطرق التالية :

1 ـ انتخاب أهل الحل والعقد .

2 ـ العهـد من الامام السـابق ، وهي أن يختار الامـام السابق طـائفة من أهـل الحـل والعقـد ويكلفهم في تعيين الامام .

3 ـ الاستحواذ على السلطة ، وهي في حالة عدم العهد من الامام السابق وقـد تتم له الامـامة العامة ولو لم يبايعـه أحد ، وذلـك في حالـة عدم وجـود منازع لـه ، اما إذا وجـد منازع فتنعقد الأمامة لاسبقها في إعلان الترشيح .

هذا هو الواقع أما الشائع عند الباحثين من أهل السنة ، هو أن المرجع في تعيين الامـام هو الأمة المسلمة .

وقد رأينا أن كلمة أمة بما لهذا اللفظ من معنى ، فكرة لم تطرق أذهان الباحثين القدمـاء من علماء أهل السنة ، وحينما عرضنا لمسألة الأمة بالدرس خـرجنا بنتيجـة : وهي أنها أخذت معنى مجازياً عندهم ، فكان المراد منها ، أهل الحل والعقد وهؤلاء كانوا على قسمين : أحدهما اعتمد اجماع أهل الحل والعقد في الأمة المسلمة بأسرها ، والقسم الثاني لم يعتمد الاجماع .

وهم يرون في ذلك صورة جديدة من صور الديمقراطية في الحكم ، ويكون الاسلام قد حقق سبقـاً عظيمـاً على الحضـارة الحديثـة في تشريـع هذا القـانون . والاسـلام كدين إنسـاني

عادل ، يعارض النظام الديمقراطي لعدة أمور نذكرها باختصار :

أ ـ المرشح لزعامة الشعب في النظام الديمقراطي مدعو ليشرح للناس سياسته التي ينتهجها في حكمه وما يترتب عليها من المنافع ، فكان لا بد لـه من الاتصال الجماهيري . من هنا أصبح من المفروض أن تكون الصلة بين النظام الديمقراطي وبين الجمهور ذات تأثير كبير على حقيقة هذا النظام ، فدراسة نفسية الجمهور في وحدة الهوى والزمان والمكان أصبحت لازمة . والوحدة عند الجمهور في الهوى ترجع في طبيعتها الى الغريزة وليس الى العقل ، وإذا استعملت الغريزة انشل عمل العقل وانـدحرت الفروق الفكرية بين الأفراد ، واستوى بذلك العالم والجاهل وانعدمت القدرة على التدبير والتمييز . وهذا يستتبع دون شك انقياداً أعمى للفكرة التي يدعو اليها المرشح للزعامة ، إذا أجاد عرضها واتقن الدعوة اليها .

أما عن نفسية الجماعات الانتخابية التي يناط بها أمر تعيين الحاكم في النظام الديمقراطي الذي نعرفه ونعيشه اليوم ، كما عرضها لنا علم الاجتماع وعلم النفس ، فهي التي تكون آراءها فيما يتعلق بأمر حكمها . وكما نلاحظ عملياً أن هذه الجماعات ليس عندها آراء مبرهنة حيث تكون أصوات الناخبين في قبضة اللجان الانتخابية التي قد يكون زعماؤها من تجار الخمر أو ما يماثلهم . فلا يصعب التأثير والحالة هذه على اللجان ما دام المرشح ذا موارد وافرة .

على هذا النحو تفتح الجماعات الطريق أمام زعمائها للوصول الى الحكم ، حيث تصنع لهم تماثيل وصوراً وتمجدهم وترفع من شأنهم . فتمثل هذه الجاهلية الحديثة في عبادة الأشخاص !

حينما نعرض الحكم الديمقراطي على المبادىء الاسلامية نراه منافياً لها ، لأن في الاسلام يجب توفر العنصر الأخلاقي في نظام الحكم بحيث لا يقع ظلم وعدوان على الفرد أو على الجماعة فحقوق الجميع محفوظة في دستور الاسلام .

أما في الحكم الديمقراطي فنرى أنه كثيراً ما يسوق الى الظلم والعدوان ، فإرادة الشعب التي يستند اليها كثيرة العثرات والأخطاء ، لأن ليس لدى الجماهير المقاييس العقلية ، وإنما حكمها حكم الغريزة الذي يرادف الاضطرار لا الاختيار . وإننا نرى أن الأساليب التي يتبعها هذا الحكم لا تقرها الفضيلة ولا يطمئن إليه الضمير فتأتي بزعماء يعتمدون النفوذ المادي والشخصي لاستهوائها واستمالة عواطفها ، فتصبح الجماهير مسوقة الى اختيار حكامها بالضرورة التي لا تفقه معنى الرضى والاختيار . إن هذا الأسلوب من الديمقراطية لا بد أن يفسح المجال للأحزاب السياسية المتعارضة والمدمرة للوحدة بين جميع الأطراف ، فتنشأ الفرق والمصالح الشخصية وتنمو فرص التشتت والتشرذم المناقض لمبادىء الاسلام . لقد عمل الاسلام بكل ما عنده من طاقة للقضاء على العصبيات الشخصية والتحزبات القبلية البغيضة ، كل ذلك رفضه الاسلام رفضاً باتاً لأنه يحول بين الانسان المسلم المؤمن وبين بلوغه غايته المثلى ألا وهي توفير العنصر الأخلاقي في نفسه . قال تعالى :

﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾(4) .

وقال عزّ وجلّ : ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾(5) .

ينادي الله المؤمنين ليعتصموا بحبله وحده إذ لا حبل غير حبله ، ولا يتنازعوا فيفشلوا وتذهب ريحهم ، وعليهم أن يتماسكوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً فيصبحوا وحدة موحدة بنعمة ربهم سبحانه إخواناً . فهل يسمع مؤمنو عصرنا اليوم في هذه الظروف الحرجة صوت ربهم ويعملون جميعاً بإيمان عميق ووعيٍ منظم في سبيل المصلحة العامة التي أرادها الله لهم ؟! ولكن ما نأسف له أن المصلحة العامة اليوم تخضع لاعتبارات نسبية عند هذه الأحزاب والفئات التي تقول أنها تصب في مصب واحد ونحو هدف واحد .

إن الاسلام هو عقيدة جامعة ومبدأ كامل ، لا يقبل في ظله قيام أحزاب متعددة ومبادىء غير مبادئه . فالكل يذوب في بوتقة واحدة ، والكل يتجه باتجاه واحد ، ويعبد إلهاً واحداً ، رب العالمين .

من البداهة أن نقول أن الاسلام قد فوض أمر الحكم الى الفرد العربي المتعصب لقبيلته والمتمسك بتقاليده وعاداته ، بعد أن عرفنا الحياة التي كان يحياها ، والحوافز التي كانت تدفع به في دروب تلك الحياة . فكيف تقوم الخلافة على الانتخاب والاختيار بعد ملاحظة تلك الحقائق ، وكلنا يعلم أن كل قبيلة كانت تطمح الى حيازة هذا المنصب الرفيع .

ومتى تعود العربي الطماح دائماً ، أن يقسر نفسه على الخضوع لغيره والتنازل لسواه وبخاصة عن هذا المنصب العظيم الذي تهون إزاءه الحياة نفسها ؟ ولنا أمثلة عديدة من تنافس العرب في الرياسة والطموح والجاه ، منها قضية الحجر الأسود ، حينما أرادت قريش بناء الكعبة الشريفة ، وهو دون الخلافة بلا ريب ، فكل قبيلة طمحت في نقل الحجر الى مكانه ، حتى كادت أن تؤدي هذه القضية إلى انشقاق القبيلة على نفسها إلى أحلاف ، مع ما يجمع بينها من لحمة النسب ورابطة الدم ، لولا أن تدارك النبي محمد ﷺ ذلك بحكمته المعهودة وحسن تدبيره وعناية ربه الذي اختاره واصطفاه رحمة للعالمين . فالقبائل التي تصطرع على نقل الحجر الأسود ، لا تأنف من الاصطراع على منصب الخلافة ، منصب الريادة والشرف الذي لا يعدله طريف أو تليد ومن البداهة بمكان أن يتم تسليم أمور الحكم إلى الجماهير التي لا يمكنها التخلص من عادات وتقاليد كانت تنزل في نفوسها منزلة العقيدة من الدين .

أما عن الديمقراطية المتمثلة في بيعة أبي بكر للخلافة رضي الله عنه حسبما يروي المحدثون من أهل السنة، فنقول أن تلك البيعة قد تمت في جو بعيد كل البعد عن الرضى والاختيار . فالتاريخ يفيدنا أن المبايعين كانوا في السقيفة طائفتين يتشاورون في أمر الخلافة والرسول ﷺ لم يدفن بعد ، طائفة بايعت بفعل الايحاء والاستهواء ، وهي الخزرج ، وطائفة

---

(4) آل عمران الآية 103 .

(5) الأنفال الآية 46 .

أخرى بايعت بدافع العصبية القبلية التي أثارتها خطبة أبي بكر . وقد تمت البيعة دون أن يعلم علي بن أبي طالب وبنو هاشم وفريق كبير من أصحاب النبي ﷺ المعروفين والذين أبلوا بلاء حسناً في الاسلام .

إن النصوص التاريخية تثبت لنا أن البيعة العامة كانت كالبيعة الخاصة ، لا رأي فيها للأكثرية ولا حرية في الاختيار فأين هي من الديمقراطية التي يدعونها ؟

وهذه بعض الأمثلة التي أوردها اليعقوبي وابن أبي الحديد في شرح النهج . ورد عند اليعقوبي . قال العباس عم النبي ﷺ في رده على أبي بكر ومعه عمر بن الخطاب وأبو عبيدة ابن الجراح والمغيرة بن شعبة حينما دخلوا عليه بغية استمالته نحوهم وإبعاده عن علي بن أبي طالب لقاء نصيب من المال ولعقبه من بعده

« حمد العباس الله واثنى عليه وقال : إن الله بعث محمداً كما وصفت نبياً وللمؤمنين ولياً ، فمنَّ على أمته به ، حتى قبضه الله إليه ، واختار له ما عنده فخلى على المسلمين أمورهم ليختاروا لأنفسهم مصيبين الحق ، لا مائلين بزيغ الهوى ، فإن كنت برسول الله فحقاً أخذت ، وإن كنت بالمؤمنين فنحن منهم ، فما تقدمنا في أمرك فرضاً ، ولا حللنا وسطاً ، ولا برحنا سخطاً ؛ وإن كان هذا الأمر إنما وجب لك بالمؤمنين ، فما وجب إذ كنا كارهين ما أبعد قولك من أنهم طعنوا عليك من قولك إنهم اختاروك ومالوا إليك ؛ وما أبعد تسميتك بخليفة رسول الله من قولك خلّى على الناس أمورهم ليختاروا فاختاروك ؟ فأما ما قلت أنك تجعله لي ، فإن كان حقاً للمؤمنين ، فليس لك أن تحكم فيه ؛ وإن كان لنا فلم نرضى ببعضه دون بعض ، وعلى رِسْلك ، فإن رسول الله من شجرة نحن أغصانها وانتم جيرانها »[6] وجاء في شرح النهج عن أحد رواته .

« . . . وإذا بأبي بكر ومعه عمر وأبو عبيدة ، وجماعة من أصحاب السقيفة ، وهم مختمرون بالأزر ، لا يمرون بأحد إلا خبطوه وقدموه ، فمدوا يده فمسحوها على يد أبي بكر يبايعه شاء ذلك أم أبى »[7] .

فتأمل بعد هذا أية حرية وأي اختيار !

والآن ننتقل الى ما يذهب إليه أهل السنة في الطرق التي اعتمدوها في تعيين الامام ، وقد أشرنا إليها قبل قليل .

أ ـ انتخاب أهل الحل والعقد

يبدو لنا أن هذا الطريق غامض مبهم مترجرج لقد ذهبت طائفة إلى أن الأصل في تعيين الخليفة هو إجماع أهل الحل والعقد في الأمة المسلمة وقالت طائفة ثانية : نكتفي بمن اجتمع منهم في مركز الخلافة ، واعتبرت اجماعهم على الخليفة شرطاً في صحة خلافته ، وطائفة ثالثة

---

(6) تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 126 .

(7) راجع نظام الحكم والإدارة في الاسلام للشيخ محمد مهدي شمس الدين ص 148 .

لم تشترط الاجماع ، ورابعة اكتفت بخمسة من أهل الحل والعقد ، وخامسة اعتبرت الواحد كافياً في تعيين الخليفة .

والذي مر معنا في دراستنا للفرق الاسلامية هو أن أهل السنة يذهبون الى أنه ليست لبيعة أهل الحل والعقد أية قيمة في ذاتها ؛ إنما قيمتها في أنها كاشفة عن أن هذا المرشح الذي تمت له البيعة هو معين من الله ورسوله خليفة لهما في الأرض ، فوظيفة الامام هي وظيفة الرسول تماماً ، غير أن الرسول يكون بتعيين من الله ، أما الإمام فيكون بتعيين أهل الحل والعقد . يقول الشيخ محمد مهدي شمس الدين في هذا المجال متسائلاً : « إذا كانت بيعة أهل الحل والعقد كاشفة عن أن من بايعوه هو الامام عند الله ورسوله ، فمن الذي جعل لبيعتهم هذا الكشف؟»[8] . ويتابع الشيخ شمس الدين نقلاً عن الايجي في شرح المواقف :

« وإذا ثبت حصول الامامة بالاختيار والبيعة فاعلم أن ذلك الحصول لا يفتقر إلى الإجماع من جميع أهل الحل والعقد ، إذ لم يقم على هذا الافتقار دليل من العقل أو السمع ، بل الواحد والاثنان من أهل الحل والعقد كاف في ثبوت الامامة ووجوب الاتباع على أهل الاسلام ، وذلك لعلمنا أن الصحابة مع صلابتهم في الدين ، شدة محافظتهم في أمور الشرع كما هو حقها اكتفوا في عقد الامامة بذلك من الواحد والاثنين كعقد عمر لأبي بكر ، وعقد عبد الرحمن بن عوف لعثمان ، ولم يشترطوا في عقدها اجتماع من في المدينة من أهل الحل والعقد فضلاً عن إجماع الأمة من علماء أمصار الاسلام ومجتهدي جميع أقطارها ، هذا وعلى الاكتفاء بالواحد والاثنين في عقد الامامة انطوت الأعصار بعدهم إلى وقتنا هذا»[9]. ونحن بدورنا نتساءل هل كان هذا الاسلوب في التعيين يتوافق مع المبادىء الاسلامية ومع الظروف الاجتماعية الخاصة التي كان يعيشها المسلمون . الخليفة في الاسلام يجب أن يتمتع بكفاءة تامة ليكون الحكم في يد أمينة جديرة بأن تقوم على التنفيذ خير قيام ، فهل باستطاعة الواحد أو الاثنين أو الستة أن يؤمنوا تنفيذ هذا المبدأ على الوجه الذي يريده الاسلام ؟

هذا من جهة ومن جهة أخرى إذا نظرنا الى ظروف المجتمع القبلي في ذلك العصر وجدنا أن العصبية القبلية هي التي كانت مسيطرة وقد بقيت على حالها أحقاباً كثيرة بعد وفاة النبي ﷺ وإن تفويض أمر تعيين الخليفة لأهل الحل والعقد لا بد وأن يسمح لها بالظهور . وكفار قريش لا يستطيعون أن يعترفوا بسلطة هؤلاء عليهم ، ولا ننسى عندما طلبوا من النبي ﷺ أن يجعل لهم يوماً ولغيرهم من المسلمين يوماً ثمناً لاسلامهم . هذه الروح القبلية تأبى عليهم كل الاباء أن يعترفوا لأهل الحل والعقد بالسلطة عليهم . وقد تمثلت بصورة واضحة في المدينة بين المهاجرين والأنصار عندما ولي أبو بكر الخلافة فكنت ترى تبادل السباب بينهم في الشعر والنثر ، وقد تراجع معظم القبائل العربية خارج المدينة وامتنعوا عن تأدية الزكاة فماذا كان موقف أهل الحل والعقد ؟ ورد في المصادر التاريخية :

« . . . وقد كانت فرقة اعتزلت عن أبي بكر فقالت لا نؤدي الزكاة إليه حتى يصح

(8) المرجع السابق ص 150 .

(9) المرجع السابق ص 152 . والشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة للسيد هاشم الحسني ص 243 .

عندنا لمن الأمر ومن استخلفه رسول الله ﷺ بعده ، ونقسم الزكاة بين فقرائنا وأهل الحاجة منا »[10] .

ولما ولي عثمان ظهرت الروح القبلية في تصرفاته واضحة جلية فكان رد الفعل عند القبائل الأخرى وإيقاظ الروح القبلية في نفوس أفرادها . هذه العقابيل سببت قلقاً مستمراً في الحياة الاسلامية لأنها أبعدت المسلمين عن التأثير بروح الاسلام الاجتماعية الصحيحة .

رأينا أن مبدأ تعيين الخليفة من قبل أهل الحل والعقد عند أهل السنة كان جنوحاً عظيماً نحو الفردية وبعيداً عن الديمقراطية التي يدعونها البعيدة كل البعد عن المنهج الاسلامي الصحيح .

ثم هذا الواحد أو هذان الاثنان اللذان أوكل اليهما تعيين الامام ما الذي يمنعهما من الانحراف عن الجادة التي أرادها الاسلام ؟ أهي العصمة ؟ والعصمة عند أهل السنة لا تكون إلا للأنبياء .

وبعد ، فلماذا لا يجعل هذا الواحد نفسه إماماً ، والدنيا غرارة ومحبوها كثر ؟

ولنا شاهد واضح في فشل هذا الأسلوب في التعيين في المجتمع الاسلامي من تصرف الخليفتين العظيمين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، اللذان حادا عن هذا الطريق عندما رأيا ما يكفل للمسلمين الخير والسلامة في دينهم ودنياهم . فأبو بكر عين عمر ، وعمر عين عثمان بواسطة الشورى وكانوا ستة كلهم من قريش ، علماً بأن أهل الحل والعقد يومئذٍ لم يكونوا محصورين في قريش ، بل كانوا فيها وفي غيرها من سائر المسلمين .

كل هذا يظهر لنا بجلاء بأن نظام أهل الحل والعقد الذي اعتمده أهل السنة في تعيين الخليفة لم يكن هو المنهج الذي فرضه الاسلام وبالتالي لم يكن يلائم روح المجتمع العربي .

ب ـ العهد من الامام السابق

وهي الطريقة المفضلة عند أهل السنة ، ترتبط بحق الخليفة أن يعهد بالحكم إلى من يخلفه دون أن يستشير أحداً من المسلمين . كما له الحق بأن يعهد إلى أكثر من شخص ، إلى هيئة تجتمع فيها طائفة من أهل الحل والعقد وتنظر فيمن توليه أمور المسلمين . فهي فردية ولكنها تلبس لباس الشورى والمظهر الوحيد لهذه الشورى في تاريخ الاسلام كانت من الخليفة عمر بن الخطاب حين فوض أمر تعيين الخليفة الى ستة أشخاص اختارهم هو بنفسه . وهم : علي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، وطلحة بن عبد الله ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف .

والذي يبدو لنا من خلال هذا التدبير أن عمر كان يرغب بعثمان خليفة بعده ، ولكنه لم يرد أن يتحمل مسؤولية استخلافه فأوجد هذه الهيئة وحدد طريقة التعيين بأن الحق مع أربعة أن خالف اثنان، وان تعادلت الكفتان فالحق إلى جانب من فيهم عبد الرحمن بن عوف .

---

(10) راجع فرق الشيعة للنوبختي وروح الدين الاسلامي لعفيف طبارة .

وبهذا الأسلوب فكأنه عين عثمان سلفاً ولو ألبس هذا التعيين لباس الشورى . ولا ندري الدافع الحقيقي الذي حدا بالخليفة عمر الى إيجاد هذا الشكل الذي يضمن لعثمان الفوز . فلعله كان يرى أن مصلحة المسلمين كانت تقضي باستلام عثمان للخلافة من بعده ؟

قال الماوردي في أحكامه :

« ولو عهد الخليفة الى اثنين أو أكثر ، ورتب الخلافة فيهم فقال : الخليفة بعدي فلان ، فإن مات فالخليفة بعد موته فلان ، فإن مات فالخليفة بعده فلان ، جاز ، وكانت الخلافة متنقلة الى الثلاثة على ما رتبها »(11) .

وما يتوضح من التاريخ الاسلامي أن العقابيل التي خلفتها الشورى في المجتمع الاسلامي قد أثارت الأطماع في نفوس الكثيرين من الطامحين الى الخلافة ، لأن كل طائفة رأت أنها ليست دون بعض الشخصيات التي اختارها الخليفة عمر في جماعة الشورى ، من بين هؤلاء معاوية بن أبي سفيان . وحرب الجمل ليست إلا نتاجاً لتلك الشورى .

ج ـ الاستحواذ على السلطة

في هذه الحالة ينهض من بين الجماعة رجل يستحوذ على الإمامة بالسلم أو بالحرب وذلك كفيل وحده بأن يجعله إماماً . صرح بهذا جمع من فقهاء أهل السنة منهم أحمد الدهلوي في كتابه حجة الله البالغة ، والشربيني في مغني المحتاج ، والباجوري في حاشيته قال : « وثالثها استيلاء شخص مسلم ذي شوكة متغلب على الامامة ، ولو غير أهل لها ، كصبي ، وامرأة ، وفاسق ، وجاهل ، فتنعقد امامته ، وتنفذ أحكامه للضرورة»(12). ولا ريب أن هذا الأسلوب بعيد كل البعد عن المبادىء الاسلامية ، لأنه يمثل النظام الاستبدادي الذي يرفضه الاسلام ، لأنه يدعو الى الخنوع والذل والاستكانة لطاعة الظالمين .

هذه هي الطرق الثلاث التي اعتمدها أهل السنة في تعيين الخليفة وقد وجدناها متناقضة ومتعارضة مع المبادىء الاسلامية والظروف السياسية والأحوال الاجتماعية للعرب المسلمين في ذلك الزمان .

شروط تعيين الامام عند الشيعة

تبين لنا أن نظرة الشيعة الامامية الاثني عشرية إلى الإمامة تخالف نظرة أهل السنة في كثير من النقاط ، فقد ذهبوا قبل كل شيء إلى أن الإمامة من أصول الدين ومرجع الأمر فيها هو الله تعالى ، فعليه جل جلاله واجب نصب الامام ، إذ بوجود الامام في الأمة يصلح أمرها ، وبدونه يصيبها التفكك والانهيار . وقد اشترطوا في الامام العصمة فلو لم يكن الامام معصوماً لجاز عليه الخطأ والمعصية ، وإذا جازا عليه انتقض الغرض من تنصيبه .

---

(11) راجع الأحكام السلطانية للماوردي .

أما المستند التشريعي فهو فصل النبي في مؤته حين جعل الامارة على الجيش لثلاثة يلونها متعاقبين فإذا قتل واحد مبهم انتقلت الى من يليه .

(12) راجع حاشية الباجوري .

والعصمة أمر خفي لا يعلمه إلا الله تعالى والنبي ﷺ ولما كان المتعين للامامة هو المتصف بهذه الصفة وجب عندها إظهاره بالنص مم الله أو من رسول الله . من هنا كانت نظرة الشيعة الامامية تقول ان الامامة منصب إلـهي ، وكما أن النبوة رسالة سماوية وظيفتها نشر أصول الدعوة الاسلامية وتبليغ الدين ، وكما أن النبي ﷺ هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو المسؤول عن تبليغ دين الله الى عباد الله ، فكذلك الخلافة منصب إلـهي وظيفته تبليغ الدين ونشره والدعوة إليه وحمايته من كيد الطامعين والكافرين .

ولما كانت الخلافة عند الشيعة بهذه المثابة والأهمية التزموا بأن النبي أن يقوم بتبليغ الأمر كبقية الأحكام الإلهية الأخرى ، وهذا بالنسبة الى التشريع الاسلامي ضروري لايجاد الأحكام المناسبة . وحيث أن الاجماع قائم على أن النبي قد أدى كل ما عهد إليه بتبليغه فلا بد إذن من أن يكون قد أدى الى الناس هذا الأمر المهم جداً في حياتهم الاجتماعية المنظمة والمتطورة ، وأمر واقعي أن يكون هناك نص على الخليفة من بعده ﷺ والشيعة تقول بوجود هذا النص .

ونوجز القول أن الأمور البارزة في نظام الحكم في الاسلام عند الشيعة الامامية تنحصر في ثلاثة مواضيع .

1 ـ الامامة من أصول الدين ومرجع الأمر فيها هو الله تعالى .
2 ـ العصمة في الامام فلا يذنب ولا يخطىء .
3 ـ النص هو الطريق الوحيد لتعيين الامام .

1 ـ الوجوب على الله .

إن مرجع الانسان في كل شؤونه الدنيوية والأخروية هو الله جل جلاله . فكل الأحكام القرآنية تناولت شؤون الانسان العامة والخاصة جميعها وعلاقاته الاجتماعية والدينية والاقتصادية والسياسية . . . فالله حقيقة ماثلة وراء كل ما جاء به الاسلام ، فإليه مرجع كل أمر وهو مالك كل شيء . وليس هناك سوى سلطة واحدة هي سلطته لا يشاركه فيها غيره ، وما الإنسان إلا عبد من عباده . قال تعالى :

﴿ ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير ﴾[13] .

وعندما تكون سلطة الله هي الواحدة السائدة ، تصبح جميع الأوامر من دنيوية وأخروية تنبع من مصدر واحد هو المرجع نفسه الذي ترجع إليه كل أمور الدنيا والآخرة . وكم هي كثيرة الآيات التي تقرر بصراحة وحدة المرجع ووحدة الملك وأولها :

﴿ قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ﴾[14] .
فالله الصمد والله المقصد والله المرجع في كل شيء .

---

(13) المائدة الآية 18 .
(14) الاخلاص الآيات (1 -2 -3 -4)

وقال سبحانه : ﴿ ولله ملك السموات والأرض والى الله المصير ﴾[15] .

وقال عزّ وجلّ : ﴿ له ملك السموات والأرض والى الله ترجع الأمور ﴾[16] .

وقال جل جلاله : ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء ، إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه ، والى الله المصير﴾[17] . وقال سبحانه : ﴿ . . . وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾[18] .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ والذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله **عاقبة الأمور**﴾[19] كما ورد في السورة نفسها قوله تعالى : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم والى الله ترجع الأمور﴾[20] .

وقال عزّ وجلّ : ﴿ ولله غيب السموات والأرض ، **وإليه يرجع الأمر كله** ، فاعبده وتوكل عليه ، وما ربك بغافل عما تعملون﴾[21] .

هذه الآيات الكريمات ، وهي قليل من كثير ، تدل دلالة قاطعة على أن الاسلام ينادي قبل كل شيء بأن المرجع في أمور الدنيا والآخرة هو الله تعالى ، أما غيره فليس مرجعاً أبداً لا في الصغير ولا الكبير من شؤون خلقه .

والشيعة الذين ينادون بأن الخلافة واجبة على الله ، إنما يطبقون المبدأ العام الذي جاء به الاسلام . والامامة وهي استمرار للنبوة ، وليست لوناً جديداً من السلطة ، يجب أن تنبع من الينبوع نفسه فلا صلاحية أو قوة يصح أن تكون مصدراً مع وجود الله ، رب العالمين . وبذلك ما يذهب إليه الشيعة موافق للمبادىء العامة التي جاء بها الاسلام . وعندما يكون مرجع الأمر في الحكم هو الله ، دون أن تعترض بينه وبين الأمة سلطة أخرى ، فلا يقع حينئذٍ بين أفراد الأمة نزاع وصراع مصدرهما التكالب على الحكم والسلطان . لأنهم يعلمون بأن مرجع الأمر هو الله ، وهو أعلم منهم بلا ريب ، بالصالح للحكم . وإذا راجعنا الأحداث الأليمة التي وقعت بين المسلمين والحروب والدسائس والاغتيالات والمحن ، عرفنا أن السبب بذلك كله تجريد الأمامة من وجوبها على الله .

ولكي تضمن الرسالة الاسلامية النجاح لنفسها في الحقل الاجتماعي ، وجب عليها إيجاد نظام ثابت للحكم ، نظام تتوفر العناصر الأخلاقية المثالية التي تبعده عن الشذوذ والشطط والظلم .

أما السياسة النفعية والتوجيه المصلحي وتحكم فئة بأخرى وامتيازات طائفة على بقية

---

(15) النور الآية 42 .

(16) الحديد الآية 5 .

(17) آل عمران الآية 28 .

(18) البقرة 385 .

(19) و(20)الحج الآية 41 و76 .

(21) هود الآية 123 .

الطوائف ، كل هذه الأمور السائدة في عصر الكهرباء والذرة والتقدم العلمي لا يقرها دين له من تشريعه قوة تكفل له الصمود والبقاء أمام هذه التيارات المادية الخداعة .

والنظام الاسلامي الذي ركز على النواحي الأخلاقية عن الحاكم العالم يبغي نظام حكم صالح في كل عصر وزمان ، يحقق العدالة ، والمساواة وتكافؤ الفرص أمام كل إنسان . قال سبحانه : ﴿ إنا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما ﴾[22] .

وقال تعالى : ﴿ قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك في ما كانوا فيه يختلفون ﴾[23] .

وقال سبحانه أيضاً : ﴿ وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه . . . ﴾[24] .

وقال سبحانه أيضاً : ﴿ ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم ﴾[25] .

وغيرها من الآيات التي تنيط الحكم في الاسلام إلى كتاب الله ، وكل حكم لا يستلهم مبادئه منه ولا يستند إليه يراه الاسلام فاسداً : ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾[26] .

هذا عن الحكم الذي يريده الاسلام والمرجعية فيه لله تعالى وحده دون سواه ، أما عن الهيئة الحاكمة فهي كل شيء في الدولة لأنها الأداة المشرفة على التنفيذ . وهذه الأداة تستطيع أن تلون الحكم بما تعكسها عليها إرادتها من ميول ورغبات ، فإما أن يكون الحكم تقدمياً متطوراً عادلاً وإما أن يكون رجعياً متزمتاً ظالماً .

وقد كافحت الانسانية منذ القديم في سبيل إيجاد حكم صالح يحول بين الحاكم والطغيان ، وجربت عدة ألوان من الأشكال الحكومية منذ جمهورية أفلاطون ومدينة الفارابي الفاضلة وحتى اليوم فأوجدت أجهزة التفتيش وهيئات المراقبة وفصلت بين السلطات التشريعية والتنفيذية ؛ وبعد هذا كله هل استطاعت أن تحول بين الحاكم وطغيانه لا تظن ذلك قد حصل ، لأننا ما زلنا نشاهد ونسمع أنين الشعوب من جور حكامها وطغيانهم .

من هنا أكد الشيعة على صفة العدالة عند الحاكم ، العاصم النفسي الذي يمسك بالحاكم عن الزيغ والانحراف . كما أكدوا أن المرجع في تعيين الحاكم ليس سلطة بشرية لها حدود من المعرفة والإدراك تقف عندها ولا تستطيع استكناه بواطن الأمور ، ولذلك فقد تخطىء القصد وتنحرف عن الجادة السليمة . لهذا يرى الشيعة أن المرجع في هذا الأمر هو الله

---

(22) النساء الآية 105 .

(23) الزمر الآية 46 .

(24) البقرة الآية 213 .

(25) الممتحنة الآية 10 .

(26) المائدة 49 و50 .

. . . . فهو مرجع كل شيء إليه مصير كل الأمور . وهم يخالفون مذهب أهل السنة الذين وسطوا بين الله وبين خلقه سلطة أهل الحل والعقد التي قد تنحرف وتزيع ، فالنبي هو المعلن لتعيين الامام وليس هؤلاء .

أما إذا كان النظام الانتخابي أو التعيين المشبوه هو المعمول فيه في الاسلام فإن ذلك سيدفع بولاة أمور المسلمين إلى الإنحياز مع الشعور الحزبي والقبلي عند كل نازلة ؛ وفي هذا ما يدفع الامم الأخرى الى الكيد للاسلام والتربص بالمسلمين ويدفعهم الى الخروج عليهم والواقع التاريخي شاهد ناطق على صدق ما نقول .

والحقيقة التي يمكننا الخروج بها هو أن المجتمع الاسلامي لم يكن مؤهلاً تأهيلاً كافياً لاختيار الامام ، والنبي ﷺ لا يمكن أن يفرط برسالته الانسانية ويترك المسلمين في بلبلة وفوضى عندما يترك لهم صلاحية اختيار الخليفة . ومن المعروف أن الاعتقاد بالامامة أمر واجب لكل شيعي امامي . ويسوق الشيعة أدلتهم في تعيين الامام من الله تعالى من القرآن الكريم والسنة الشريفة .

ورد في سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾[27] فبدأ سبحانه بالخليفة قبل الخليقة ، وأمر بديهي أن يبدأ الحكيم العليم بالأهم قبل الأعم .

وقال عزّ وجلّ : ﴿ أولئك الذين أتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين ﴾[28] .

وجاء في سورة البقرة أيضاً : ﴿ وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات فاتمهنَّ قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين ﴾[29] .

قال الشيخ الطوسي عند تفسيره لهذه الآية : المراد بالكلمات هي الامامة على ما قال مجاهد . والمراد بالعهد هو الامامة وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله (ع) قالوا : لا يكون الظالم اماماً .

وقال الطوسي أيضاً في التبيان : « واستدل أصحابنا بهذه الآية على أن الامام لا يكون إلا معصوماً من القبائح لأن الله تعالى نفى أن ينال عهده ـ الذي هو الامامة ـ ظالم ، ومن ليس بمعصوم فهو ظالم : إما لنفسه أو لغيره »[30] .

أما الأدلة على وجوب الامامة على الله في السنة فهي كثيرة وقد جمع ابن شهراشوب طائفة منها[31] . روى الكليني أن حديثاً جرى عن الامامة في الجامع بحضور أحد أصحاب الرضى (ع) وهو عبد العزيز بن مسلم قال : « دخلت على سيدي (ع) فأعلمته خوض الناس

(27) البقرة الآية 30 .
(28) الانعام الآية 89 .
(29) البقرة الآية 124 .
(30) التبيان في تفسير القرآن ج 1 ص 446 وما بعدها .
(31) راجع مناقب آل أبي طالب ج 1 ص 211 وما بعدها .

في أمر الامامة فتبسم (ع) ثم قال : جهل القوم وخدعوا عن آرائهم ، إن الله عز وجل لم يقبض نبيه ﷺ حتى أكمل له الدين وأنزل عليه القرآن فيه تبيان كل شيء . قال عزّ وجلّ : ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾(32) وأنزل في حجة الوداع . . . وهي آخر عمره ﷺ : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا ﴾(33) وأمر الامامة من تمام الدين . ولم يمض ﷺ حتى بين لأمته معالم دينهم وأوضح لهم سبيلهم . . . فهل يعرفون قدر الامامة ومحلها من الأمة فيجوز فيها اختيارهم ، ان الامامة أجل قدراً وأعظم شأناً . . . وأبعد غوراً من أن يبلغها الناس بعقولهم ، أو ينالوها بآرائهم ، أو يقيموا إماماً باختيارهم ، ان الامامة خص الله عزّ وجلّ بها ابراهيم الخليل (ع) بعد النبوة والخلة مرتبة ثالثة وفضيلة شرفه بها فقال : « إني جاعلك للناس إماماً » فقال الخليل (ع) سروراً بها : « ومن ذريتي » قال الله تبارك وتعالى : ﴿ لا ينال عهدي الظالمين ﴾ . فأبطلت هذه الآية إمامة كل ظالم الى يوم القيامة وصارت في الصفوة فلم تزل في ذريته . . . حتى ورثها الله تعالى النبي ﷺ فقال جلّ وتعالى : ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين﴾(34). فكانت له خاصة فقلدها ﷺ علياً (ع) بأمر الله تعالى على رسم ما فرض الله ، فصارت في ذريته الأصفياء الذين آتاهم الله العلم والايمان ، بقوله تعالى ﴿ وقال الذين أوتوا العلم والايمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث﴾(35) فهي في ولد علي خاصة إلى يوم القيامة ، إذ لا نبي بعد محمد ﷺ فمن أين يختار هؤلاء الجهال .

إن الامامة هي بمنزلة الأنبياء وإرث الأوصياء . ثم يسوق الطوسي أدلة حصر الامامة في علي أمير المؤمنين دون غيره(36) .

2 ـ العصمة

وهذه مسألة خالف بها الشيعة من عداهم ، فالعصمة عند الشيعة الامامية هي عدم وقوع الامام في الخطأ والخطيئة والنسيان . فالامام بمثابة النبي معصوم من جميع الرذائل والفواحش ما ظهر منها وما بطن ، عمداً أو سهواً .

وهذه العصمة التي يشترطها الشيعة في الامام هي عبارة عن ملكة نفسية ، لا تصدر المعاصي عمن اتصف بها مع قدرته على ممارستها . أما المنابع التي تستمد منها هذه الملكة قوتها فتتركز على الوعي التام عند المعصوم لما في الطاعة والاستقامة من حسن وصلاح ، ولما في المعصية من عيوب ومآخذ يجب أن يتسامى عنها كل إنسان يحترم نفسه ويعلم أن الله يؤاخذه إذا فرط أو أهمل أو ابتعد عن السير على صراطه المستقيم .

إن نظرية العصمة عن الشيعة ليست نتاجاً عقلياً بحتاً ، بل تستند في كثير من عناصرها

---

(32) الانعام الآية 38 .

(33) المائدة الآية 3 .

(34) آل عمران الآية 68 .

(35) الروم الآية 56 .

(36) أصول الكافي ج 1 ص 198 وما بعدها .

الى نصـوص قرآنيـة وأحاديث نبـوية شـأنها في ذلك شـأن أغلب جوانب التفكـير الديني عنـد المسلمين .

جاء في سورة الأحزاب قوله تعالى : ﴿ . . . إنما يريـد الله ليذهب عنكم الـرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا . . ﴾[37] .

ورد عن عائشة قالت : « خرج رسـول الله ﷺ غداة يـوم وعليه مـرط مرجـل من شعر أسـود ، فجاء الحسن بن عـلي فأدخله ، ثم جـاء الحسين فـدخل معـه ، ثم جـاءت فـاطمـة فأدخلها ، ثم جاء علي فأدخله ، ثم قال : الآية التي ذكرناها قبل قليل . آية التطهير[38] .

ومن الأحاديث الشريفة التي تناولت مسألة العصمة ، حديث الثقلين المعروف وقد جاء فيه : . . . فلا تقـدموهمـا فتهلكوا ، ولا تقصـروا عنهما فتهلكـوا ، ولا تعلموهـم فـإنهـم أعلم منكم»[39] والضمائر ترجع الى الثقلين ، وهما كتاب الله وعترة النبي ﷺ وهم أهل بيته . وجاء في روايات أخرى :

« فإنهم لن يخرجوكم من باب هدى ولن يدخلوكم في باب ضلالة»[39أ].

وجاء أيضاً في المصدر نفسه : « وليقتد بأهل بيتي من بعدي ، فـإنهم عترتي خلقـوا من طيني ورزقوا فهمي وعلمي » [39ب] والمقصود في هذه الروايات علي وذريته. يخرج الباحث من دراسة هذه النصوص واستجلاء تعـابيرهـا بنتيجة هي أن البـذور الأولى لنظريـة العصمة التي اعتمدها مفكرو الشيعة أساساً في عقيدتهم من إذهاب الـرجس الوارد في الآيـة الكريمـة وكون أهل البيت لن يخرجـوا من هدى ولن يـدخلوا في ضلالـة كلها تشـير إلى العصمة عن الـذنب والسير على منهاج الشريعة الاسلامية كما أرادها الله عزّ وجل ورسوله ﷺ .

ونورد هنا طائفة من الأدلة التي أوردها الحلي[40] في إثبات العصمة منها :

1 ـ لما كان نصب الامام واجباً على الله تعالى استحال صدور الذنب منه . « إذ لـو صدر عنـه الذنب لجوزنا الخطأ في جميع الأحكام التي يأمر بها وذلك مفسدة عظيمة »[41] .

2 ـ أمر الله بطاعته ، وطاعة رسوله ، وطاعة أولي الأمر « وكـل من أمر الله تعـالى بطاعتـه فهو معصوم لاستحالة ايجاب طاعة غير المعصوم مطلقاً لأنه قبيح عقلاً » .

3 ـ جاء في قوله تعالى : ﴿ أهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضـوب عليهم ولا الضالين ﴾ وغير المعصوم ضال فلا يسأل اتباع طريقه قطعاً .

---

(37) الأحزاب الآية 33 .

(38) راجع صحيح مسلم ومستدرك الحاكم ومراجع أخرى كثيرة روت هذا الحديث .

(39) و(39أ) و(39ب) المراجعات للسيد شرف الدين .

(40) يعد العلامة الحلي (توفى 726 هـ) من أكثر الكتاب الامامية عناية في معالجة موضوع العصمة بكتابه الموسوم بـ « الالفين الفارق بين الحق والمين » راجع تاريخ الامامية للدكتور فياض ص 154 .

(41) تاريخ الامامية للدكتور فياض ص 155 .

ويرى مفكرو الشيعة الامامية المعاصرون أن العصمة أمر ضروري لأن الأئمة حفظة الشرع والقوامون عليه ، وحالهم في ذلك حال الأنبياء ﷺ وأن الدليل الذي اقتضانا أن نعتقد بعصمة الأنبياء هو نفسه يقتضينا أن نعتقد بعصمة الأئمة بلا فرق(42) .

ويناقش المرتضى معنى العصمة فيقول : « إعلم أن العصمة هي اللطف الذي يفعله الله تعالى ، فيختار العبد عنده الامتناع من فعل القبيح ، ويقال ان العبد معصوم لأنه اختار عند هذا الداعي الذي فعل له الامتناع من القبيح »(43) .

ورأى المسعودي أن السبب الذي من أجله قال الامامية بالعصمة هو تجنب تسلسل الأئمة الى غير نهاية ، وخوفهم من أن يكون المعصوم فاجراً أو فاسقاً ، فقال : « نعت الامام في نفسه أن يكون معصوماً من الذنوب لأنه إن لم يكن معصوماً لم يؤمن أن يدخل فيما دخل فيه غيره من الذنوب ، فيحتاج أن يقام عليه الحد ، كما يقيمه هو على غيره ، فيحتاج الإمام إلى إمام الى غير نهاية ، ولم يؤمن عليه أيضاً أن يكون في الباطن فاسقاً ، فاجراً ، كافراً »(44) .

والاعتقاد بعصمة الأئمة جعل الأحاديث التي تصدر عنهم صحيحة دون أن يشترطوا إيصال سندها الى النبي ﷺ كما هو الحال عند أهل السنة . قال الامام الباقر موضحاً ذلك بقوله(45) : « إذا حدثت في الحديث فلم أسنده ، فسندي فيه أبي عن جدي عن أبيه ، عن جده ، عن رسول الله ، عن جبرائيل ، عن الله عزّ وجل » .

وبعد هذا العرض السريع عن العصمة لا بد لنا من بيان حقيقة نراها ضرورية في هذا المجال .

الدين الاسلامي كنظام اجتماعي تطوري يقدر تقديراً دقيقاً ويحسب حساباً بعيداً للمجال النفسي والوضع الاجتماعي بالنسبة لكل حكم من أحكامه ، مراعياً بذلك الظرف والمجال اللذين يسودان المجتمع من حين لآخر . فقد كان يحرص كل الحرص أن تواكب أحكامه المجتمع في ظرفه الاجتماعي ولا ترهقه فتطلب منه اللحاق بها وهو عاجز لعدم توفر امكانياته . وقد كان النبي ﷺ على وعي تام لهذه الحقيقة النفسية والاجتماعية العظيمة .

وبعد وفاته ﷺ كان المجتمع الاسلامي لا يزال في عهد الطفولة بالنسبة إلى إدراك العقيدة الاسلامية فلم يدركها إدراكاً كافياً ، فكان لا بد والحالة هذه من ممثل للنبي ﷺ يأخذ على عاتقه إصدار التشريعات الاجتماعية الموافقة للظرف والحادث ، مستلهماً ذلك من صميم المبادىء الإسلامية الحقة ، سيما وأن العالم الاسلامي كان مقدماً على تطورات لا بد منها في نشأة المجتمعات الحديثة . وإذا لم يترك النبي لجنة تشريعية تتولى إصدار الأحكام والتشريعات فقد ألقى هذه المهمة على عاتق الحكومة الاسلامية حيث يكون الامام هو المرجع التشريعي الأعلى .

---

(42) المرجع السابق عن عقائد الشيعة لمظفر محمد رضا ص 45 .

(43) الامالي ج 2 ص 347

(44) مروج الذهب ج 3 ص 156 .

(45) تاريخ الامامية عن الشيخ المفيد ص 158 .

وهنا لا بد لهذا المرجع التشريعي من أن يتحلى بعلم تام لروحية القانون العامة بحيث يكون على وعي عميق لكافة التطورات الاجتماعية في الأمة التي أناطت به مهمة التشريع ، وذلك حتى ينفذ الى أعماق النفس الانسانية ولن يكون هذا الخليفة الذي أناط اليه النبي مهمة التشريع إلا خليقاً بها ، وأولى هذه الضمانات المطلوبة في مثل هذا الانسان العظيم هي العصمة التامة عن الذنب وعن الخطأ والانحراف عن سواء السبيل . هذه هي نظرية العصمة التي اشترطها الشيعة في الامام وهم يطبقون مبادىء الاسلام الضرورية للواقع الاسلامي من جميع وجوهه .

3 ـ النص

ذهب الشيعة الى اشتراط النص في أمر الخلافة ، والواقع كما نراه وكما اتضح لنا بأن عدم النص مناقض لمبادىء الاسلام وحكمة النبي ﷺ وذلك انطلاقاً من الوضع الذي كان فيه المسلمون والظروف التي توفى بها النبي ﷺ هذا الوضع الذي يفرض على المسؤول عن أمة كاملة ورسالة عالمية استخلاف من يقوم مقامه ليحفظ سير هذه الرسالة وهدفها الاسلامي الانساني .

إن منطق العقل يملي علينا القول بضرورة العهد إلى من يقوم بأمور المسلمين من بعده ، والشيعة الامامية الاثنا عشرية يؤمنون بهذا المنطق لأنهم يرون أنها ضرورة حتمية واجبة على إنسان عادي فكيف يمكن تجويزها على نبي مرسل من رب العالمين ؟

والسؤال الذي يتبادر الى الأذهان طرحه ، هل ترك النبي ﷺ نصاً معروفاً سمى به مسؤولاً يتولى أمر الخلافة من بعده ؟[46] .

نصوص كثيرة وردت عن النبي ﷺ في هذا الشأن تثبت أنه ﷺ أعلن على الملأ مرات عديدة أن الخلافة بعده لعلي بن أبي طالب . وقد رددها مرات أن علياً خليفته ووصيه لترسيخ هذا الأمر في نفوس المسلمين . أما النصوص التي يستند عليها الشيعة فهي :

أ ـ نص الدار

وهو أول نص صدر عن النبي في خلافة علي ، وكان ذلك في فجر الدعوة الاسلامية وليس في وقت متأخر كما يظن البعض .

ونص الدار كما رواه أكثر المؤرخين والمحدثين كالطبري وابن الأثير ومسند أحمد ،

---

(46) جاء في شرح السيرة الحلبية : بعد أن جهر النبي بنص الغدير في علي بن أبي طالب بلغ ذلك الحارث بن النعمان الفهري فاتجه نحو النبي حتى أتى الأبطح فنزل عن ناقته فأناخها وعقلها ثم أتى النبي وهو في ملأ من أصحابه ، وقال : يا محمد أمرتنا من الله أن نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسوله ففعلناه وأمرتنا أن نصلي خمساً فقبلناه وأمرتنا أن نصوم شهر رمضان فقبلناه وأمرتنا أن نحج البيت فقبلناه ، ثم لم ترض بهذا حتى رفعت بضبعي ابن عمك وفضلته علينا وقلت : « من كنت مولاه فعلي مولاه ، وهذا شيء منك أم من الله ؟ فقال النبي ﷺ والذي لا إله إلا هو من الله .

وشرح النهج . ويتلخص الحديث لما نزلت الآية الكريمة : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾[47] دعا الرسول علياً ، وكلفه بتحضير الطعام ودعوة آل عبد المطلب ، فقام علي بتنفيذ الأوامر ، وبعد أن شبع القوم وارتووا ، وقف الرسول بينهم مخاطباً : « يا بني عبد المطلب إني والله ما أعلم أن شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ، إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه ، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر ، على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم » .

أحجم القوم عن الدعوة إلا علياً ، وهو أحدثهم سناً ، فقد أجاب قائلاً : « أنا يا رسول الله أكون وزيرك عليه » . أما النبي فقد أعاد القول ولا يزال القوم محجمين ، ولا يزال علياً معلناً القبول . . . وعندئذٍ أخذ النبي برقبة علي وقال للحاضرين : « هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا »[48] .

هذا الحديث لا ريب في صحته وقد اتفق عليه فحول المحدثين والعلماء ، وهو يدل دلالة قاطعة بأخوة علي ووصايته وخلافته بعد النبي ﷺ .

ب ـ حديث المنزلة

وهذا مستند ثان للشيعة بشأن ولاية علي . وذلك ان النبي ﷺ لما آخى بين المهاجرين قبل الهجرة اصطفى علياً لنفسه فآخاه وقال له : « أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي »[49] . فمنزلة علي من النبي كمنزلة هارون من موسى عندما سأل ربه عز وجل : ﴿ . . . واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي ، أشدد به أزري وأشركه في أمري ﴾ (طه الآية 29) والذي يثبت هذه الصفات كلها لهارون هو قوله تعالى : ﴿ قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾ طه الآية 26 .

ثم قال موسى لهارون :

« أخلفني في قومي واصلح ولا تتبع سبيل المفسدين » الأعراف الآية 142 .

فهارون وزير أخيه موسى وشريكه في أمره وخليفته في قومه ، فإذا أنزل النبي علياً من نفسه بمنزلة هارون من موسى ، فقد أثبت له بحكم هذا التنزيل جميع الصفات التي ثبتت لهارون ، اللهم إلا النبوة فقال ﷺ : « إلا أنه لا نبي بعدي » .

فالنبي ﷺ أراد علياً في جميع المنازل والشؤون ومنها الخلافة العامة . وآخر موارد هذا الحديث غزوة تبوك ، التي كانت في السنة التاسعة للهجرة والوجه الذي كان يقصده النبي في هذه الغزوة ، بلاد الروم ، البعيدة عن المدينة فأراد النص على علي بما لا يقبل الشك عندما اتبع الحديث قوله : « إنه لا ينبغي لي أن أذهب إلا وأنت خليفتي » .

---

(47) الشعراء الآية 114 .

(48) راجع نظام الحكم والادارة في الاسلام للشيخ محمد مهدي شمس الدين ص 206 .
وانظر الأمالي للشيخ المفيد ص 18 .

(49) راجع صحيح مسلم ومستدرك الحاكم وكتاب المراجعات للسيد الامام شرف الدين .

ج ـ حديث الغدير

أمر النبي ﷺ وقد انتهى بالسير إلى غدير خم ، مرافقيه بالوقوف ، كما أمر برد الذاهب وحبس الآتي عن المسير ، حتى تكاملوا واجتمعوا فقام وخطب فيهم قائلاً : « اللهم أشهد . . . اللهم أشهد . . . اللهم أشهد :

إن الله مولاي ، وأنا مولى المؤمنين ، وأنا أولى بهم من أنفسهم ، فمن كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله ، وادر الحق معه أينما دار .

وما ان فرغ من كلامه حتى اندفعت الوفود الى علي تبايعه وتهنئه :

بخ بخ لك يا علي أصبحت مولانا ومولى كل مؤمن ومؤمنة[50] .

هذا هو حديث الغدير الواضح كل الوضوح والذي فيه من الأدلة والقرائن ما لا يدع مجالاً للشك في مدلوله عند الشيعة الاثني عشرية . وما ينبغي لنا معرفته أن هذا البلاغ لم يصدر عن النبي ﷺ إلا بدافع قاهر لا يمكن رده أو الوقوف دونه ، فلقد أمر الله النبي بأن ينصب علياً للناس ويخبرهم بهذه الولاية وعندما تأخر ﷺ بالتبليغ خوفاً من اتهامه من بعض الحاسدين والمنافقين ، بالميل لصهره والجنوح لقرابته نزلت الآية الكريمة في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة في السنة العاشرة للهجرة في حجة الوداع في غدير خم . قال تعالى :

﴿ يا أيها النبي بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ، إن الله لا يهدي القوم الكافرين ﴾[51] .

د ـ حديث الولاية

ونص آخر يعتمده الشيعة دليلاً على ما يذهبون في الخلافة ، وهو قول النبي لعلي في مناسبات عديدة : أنت ولي كل مؤمن بعدي[52] .

في منطق العقل وقبل أن ينص على خلافة علي القرآن الكريم نرى أن الاسلام كان ثورة كبرى ، ثورة شاملة تناولت جميع مظاهر الحياة الانسانية فقلبت عقائد الروح ونظم الحكم والاجتماع والعلاقات الانسانية بأسرها ، متى أوجدت من الكل المتنافر نظاماً محكماً متناسقاً . فمن يا ترى سيكون القائم على رأس هذه الحكومة الاسلامية الخالفة للحكومة النبوية من بين رجال المهاجرين والأنصار ؟

فهل يتبادر إلى الذهن أن يكون غير علي بن أبي طالب الذي عاش غمار الدعوة

---

(50) روى الحديث مائة وعشرة من الصحابة ، وأربع وثمانون من التابعين ، وثلاثمائة وخمسون من العلماء على اختلاف طبقاتهم .

(51) المائدة الآية 67 وقد ورد في هذه الآية اشتراع لركن من أركان الدين لا يكمن إلا به في منطق القرآن الكريم كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل أبداً .

(52) مسند أحمد ومستدرك الحاكم .

الاسلامية ورافقها في مختلف محنها وأطوارها ، وتجرع الكافي من الآلام في سبيلها ، حتى اتسمت روحه بها ، وأصبحت علامة مميزة لحياته في جميع مظاهرها . لقد كان أعلم الناس بها ، وأوعى الناس لها ، من بين جميع صحابة النبي ﷺ . وقد قال فيه ﷺ : « أقضاكم علي » .

فلذلك كله كان يرى المسلمون أنه أجدر الناس في عصره برئاسة الحكومة الاسلامية الخالفة لحكومة النبي ﷺ .

هذه هي المبادىء التي يعتمدها الشيعة في أمر الخلافة ومنهج الاستخلاف وقد أوردناها مفصلة ليتبين لكل ذي بصر وبصيرة الفروق الواضحة بين منهجهم وبين منهج أهل السنة .

وهكذا فقد أدى النبي ﷺ الرسالة كاملة التي كلفه بها رب العالمين وعندئذٍ نزلت الآية الكريمة ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا ﴾ .

جاءت هذه الآية المباركة تبارك تصرف الرسول ، وتعلن كمال الاسلام وتمام النظام باعلان الولاية ، إثباتاً لتبليغ الرسالة الانسانية الرحيمة الى الناس جميعاً : « . . . وان لم تفعل فما بلغت رسالته . . . » .

ونوجز القول بخلاصة واضحة في نقطتين هامتين :

- تصور النبي ﷺ عن مسألة القيادة بعده .
- تصور الصحابة عن هذه المسألة .

مما لا ريب فيه أن من أهم الأدلة على لزوم نصب الامام وخليفة النبي بعده هو تصور النبي نفسه عن هذه المسألة .

فهل كان النبي يعتقد بلزوم نصب الخليفة أو الامام أو القائد من جانب الله تعالى ، أم كان يعتقد ترك هذا الأمر إلى الأمة لتختار من تراه مناسباً بإرادتها واختيارها .

إن المأثور عن النبي الأكرم ﷺ وموقفه من قضية القيادة بعده ، تدل على أنه ﷺ كان يعتبر أن هذه المسألة ، أمر تعيين القائد ، مسألة إلٓهية وحقاً إلهياً . ولا شأن لأهل الحل والعقد في ذلك . فالله تعالى هو الذي له أن يعين قائد الأمة الاسلامية وينصب الخليفة الذي يخلفه بعد وفاته . فالأدلة العقلية والشواهد النقلية تفيد بأجمعها بأن النبي ﷺ ذكر للأمة مراراً أن تعيين الخليفة من بعده أمر إلهي ولا يمكنه أن يقطع لأحد عهداً ويستخلفه من بعده ، دون أن يأذن الله تعالى له في ذلك أو يأتيه منه سبحانه أمر ووحي

ورد في السيرة النبوية لابن هشام لما عرض الرسول ﷺ نفسه على بني عامر الذين جاؤ وا إلى مكة في موسم الحج ودعاهم الى الاسلام قال له كبيرهم :

« أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أن يكون لنا الأمر من بعدك ؟ » .

فقال النبي ﷺ : « الأمر الى الله يضعه حيث يشاء »[53] .

فالنبي كما نرى كان يتجنب أن يفيد عن مسألة الخلافة من نفسه ، ولم يقل أن أمرها يرجع إلى إرادة الأمة ، بل أكد بوضوح أن هذه المسألة تعود الى الله تعالى[54] .

وأمر بديهي أن مسألة انتخاب الخليفة بعد النبي ﷺ لو كانت من شؤون الأمة وصلاحياتها ، لوجب عليه ﷺ وهو الأمين على الرسالة الاسلامية أن يصرح بذلك أو يشير موضوع الاستخلاف ولو بالاجمال ، بل واجب عليه على الأقل أن يبين للأمة الطريقة الصحيحة في الانتخاب ويشرح لهم الشروط والضوابط وكل ما يلزم لأمر منهجية الاستخلاف وصفات الناخب والمنتخب . بينما نجد النبي لم يتعرض لهذا الأمر أبداً لا من بعيد أو قريب ولم يؤثر عنه أي شيء من هذا القبيل ، من إرشاد أو تعليم في هذا المجال ، رغم أهمية الموضوع وخطورته البالغة ، علماً أنه ﷺ قد تعرض لأمور أبسط وأسهل بكثير من ذلك .

فهل مسألة القيادة والادارة لأمة بذل ﷺ الكثير من أجلها وضحى طيلة ثلاثة وعشرين عاماً في سبيلها ، تكون أقل شأناً وأقل أهمية من المستحبات والمكروهات التي وردت في الكثير الكثير من الأحاديث النبوية في شأنها !؟

والنقطة الهامة الثانية هي :

تصور الصحابة عن الخلافة بعد النبي ﷺ .

إذا تتبعنا تاريخ الصحابة والخلفاء الراشدين الذين تعاقبوا على الخلافة بعد النبي ﷺ نرى بوضوح أن الطريقة التي اتبعها أولئك الصحابة ، والخلفاء كانت طريقة التعيين أو التنصيب وليست الطريقة الانتخابية المعروفة . فالخليفة السابق كان ينصب الخليفة اللاحق إما مباشرة ، أو بتعيين شورى أو لجنة تتولى هي تعيين الخليفة . والتاريخ يفيدنا أن أحداً من أولئك الخلفاء لم يترك أمر القيادة الى إرادة الأمة واختيارها ، أو إلى أهل الحل والعقد ليختاروا بمحض إرادتهم من يشاؤون للخلافة والأمرة .

وإليك النصوص التاريخية الدالة على طريقة استخلاف الصحابة .

أ ـ استخلاف أبي بكر الصديق لعمر بن الخطاب

ورد في تاريخ الخلفاء لابن قتيبة : « . . . دعا (أبو بكر) عثمان بن عفان فقال اكتب عهدي ، فكتب عثمان وأملى عليه : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة آخر عهده بالدنيا نازحاً عنها ، وأول عهده بالآخرة داخلاً فيها ، إني استخلف عليكم عمر بن الخطاب فإن تروه عدل فيكم ظني به ورجائي فيه ، وإن بدل وغير فالخير أردت ، ولا أعلم الغيب وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون »[55] .

---

(53) السيرة النبوية لابن هشام ج 2 ص 424 .

(54) لقد ذكرنا الآية الكريمة التي أنزلها الله على رسوله ﷺ بأمر الولاية قبل قليل في سورة المائدة الآية (67) تقول:
﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ، إن الله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ .

راجع حديث الغدير

(55) الامامة والسياسة لابن قتيبة الدينوري ص 18 وانظر ابن الأثير في الكامل ج 2 واليعقوبي في تاريخه ج 2 =

ب ـ استخلاف عثمان

نقلها لنا أعلام السيرة وأثبتها كتاب التاريخ . قال ابن قتيبة في كتابه الامامة والسياسة :

قال عمر : سأستخلف النفر الذين توفى رسول الله وهو عنهم راض ، فأرسل إليهم فجمعهم وهم : علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف . قال : يا معشر المهاجرين الأولين إني نظرت في أمر الناس فلم أجد فيهم شقاقاً ولا نفاقاً فإن يكن بعدي شقاق ونفاق فهو فيكم فتشاوروا ثلاثة أيام ، فإن جاءكم طلحة إلى ذلك ، وإلا فاعزم عليكم بالله أن لا تتفرقوا من اليوم الثالث حتى تستخلفوا أحدكم »(56) .

وكتب ابن الأثير في الكامل :

« إن عمر بن الخطاب لما طعن قيل له : يا أمير المؤمنين لو استخلفت ؟

فقال: من أستخلف ؟ لو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته . . . ولو كان سالم مولى حذيفة حياً لاستخلفته . . . فقال رجل : أدلك عليه ؟ عبد الله بن عمر .

فقال (عمر) : قاتلك الله كيف استخلف من عجز عن طلاق امرأته . . . إلى أن قال : عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله ﷺ أنهم من أهل الجنة وهم : علي وعثمان وعبد الرحمان وسعد والزبير بن عوام وطلحة بن عبيد الله .

فلما أصبح عمر دعا علياً وعثمان وسعداً وعبد الرحمن ، والزبير فقال لهم :

إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم وقد قبض رسول الله وهو عنكم راض . . . فانهضوا الى حجرة عائشة باذنها ، واختاروا منكم رجلاً ، فإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام ، وليصلّ بالناس صهيب ، ولا يأتي اليوم الرابع إلا وعليكم أمير » .

قال عمر لصهيب : « صلّ بالناس ثلاثة أيام وأدخل هؤلاء الرهط بيتاً وقم على رؤوسهم فإن اجتمع خمسة وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف . . . وان اتفق أربعة وأبى اثنان فاضرب رأسيهما . . وان رضي ثلاثة رجلاً وثلاثة رجلاً ، فحكموا عبد الله بن عمر فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر ، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمان بن عوف ، واقتلوا الباقين ان رغبوا عما اجتمع فيه الناس »(57) .

كما روى ابن قتيبة أيضاً عن الصحابة مثل هذا الموقف قال :

نقل ان عمر بن الخطاب لما أحس بالموت قال لإبنه عبد الله اذهب الى عائشة واقراها

= وطبقات ابن سعد الكبرى ج 3 ونظام الحكم والإدارة للشيخ محمد مهدي شمس الدين .

وهل يمكن أن يتنبه الخليفة الى الخطر الكامن في ترك الأمة دون خليفة يستخلفها عليهم ولا يلتفت إليها النبي ﷺ ؟!

(56) الامامة والسياسة لابن قتيبة ص 23 .

(57) معالم الحكومة الاسلامية للاستاذ الشيخ جعفر السبحاني ص 177 . عن الكامل لابن الأثير .

مني السلام ، واستأذن منها أن أقبر في بيتها مع رسول الله ومع أبي بكر . فأتاها عبد الله بن عمر فاعلمها ، فقالت « نعم وكرامة » . ثم قالت :

« يا بني أبلغ عمر سلامي فقل له : لا تدع أمة محمد بلا راع . . . استخلف عليهم ، ولا تدعهم بعدك هملا ، فإني أخشى عليهم الفتنة »(58) فأتى عبد الله الى أبيه فاعلمه .

هناك حقيقتان هامتان في الدين الاسلامي لا بد من ذكرهما :

الحقيقة الأولى هو أنه ليس ديناً تنحصر تعاليمه في علاقات الانسان بربه فحسب ، وإنما هو ضرورة اجتماعية بما شرع من أنظمة سياسية محكمة ، وأنظمة اجتماعية كاملة . وهو يستهدف من ذلك كله تكوين مجتمع مثالي لكل إنسان في أي مكان .

والحقيقة الثانية أنه توسل إلى هدفه هذا بتوفير العنصر الأخلاقي في نفس الانسان ، لأن الاسلام ومكارم الأخلاق صنوان أساسيان لا يفترقان ، أما في حالة خضوع هذا النظام للدين خضوعاً شكلياً وخالفه في عدم توفر العنصر الأخلاقي فلا يمكن اعتباره اسلامياً .

وبملاحظة هاتين النقطتين نعلم أن نظام الحكم في الاسلام يجب أن يكون خاضعاً خضوعاً صحيحاً للمبادىء الاسلامية ، ملتزماً بها التزاماً كاملاً ، فلا يتعدى الحدود التي رسمت له ، ولا يقصر دونها . عملاً بالحديث الشريف : رحم الله أمرأ عرف حده فوقف عنده . من هنا كان الاسلام دين الحياة والاحياء .

الاسلام دين الحياة والأحياء

الاسلام نظام شامل كامل ، نظام دين ودولة في آن معاً ، فلقد انطوت نصوصه وتعاليمه على مبادىء أساسية وجوهرية في البناء الاجتماعي الانساني . فعمل في التشريع الديني والسياسي والاجتماعي والاقتصادي والعسكري . وقد أثبتت الوقائع التاريخية أن الاسلام لم يكن مجرد عقائد فردية منذ نشأة دولته الأولى ، وبرز إلى الوجود بأسلوبه الخاص في التنسيق الكامل بين العقيدة والتشريع وبين العبادات والمعاملات وبين الروحيات والزمنيات . وسوف نورد نصوصاً كثيرة في الفصول اللاحقة تؤكد لكل متردد أو مرتاب وجه الاسلام الحقيقي الذي عالج جميع المشكلات الاجتماعية والحضارية ، ووضع لكل واحدة منها حلاً عملياً لاسعاد الناس أجمعين .

وكم من العلماء المسلمين والباحثين الغربيين المنصفين أكدوا هذه الحقائق ، وعرفوا الروح السائدة في التعاليم الاسلامية ، الصالحة في كل شأن من شؤون الحياة والأحياء . فمنهم من قال : إن الإسلام دين ودولة ، وعقيدة ونظام . وقالوا أيضاً بأن الاسلام في تعاليمه الأساسية حدد على السواء شروط الحياة العائلية والاجتماعية والدينية والسياسية وكل ما يحتاجه الفرد في الدنيا والآخرة .

وقال بعضهم أن الحكومة الاسلامية حكومة دستورية ، واجبة بالاجماع والعقل

---

(58) الامامة والسياسة لابن قتيبة ص 32 وما نراه غريباً هو أن كيف أن أم المؤمنين تيقظت لهذا الأمر وغفل عنه النبي ﷺ وهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟!

والشرع . وإننا نرغب ههنا أن نصف بصورة عامة المنطلق الاسلامي الأساسي للنظم الحضارية التي قام عليها هذا الدين الحنيف ، وأنشأ مدنية ملأ شعاعها الكون بأسره حكمة وعلماً وعدلاً وإنصافاً ومحبة ووئاماً ، وأمناً وسلاماً .

هذه الأقوال وما يشابهها ، المستوحاة من روح الاسلام أدرك أصحابها ما انفرد به هذا الدين عن غيره من الأديان السماوية الأخرى التي قامت جميعها على التراحّم والمحبة والتكافل من غير أن ترسم لذلك كله تشريعات واضحة ، وحدوداً صريحة إذ تركت للنظم الزمنية القائمة تقرير الأصول والنظم .

أما الإسلام فإنه نسق تنسيقاً واقعياً جميلًا بين شؤون المادة وشؤون الروح بنظم واضحة وصريحة ، تتعادل فيها الحقوق والواجبات ، وتكفل بواسطتها ضمانات الحياة المادية ، وضمانات العدالة القانونية . وعلى هذا يعد الاسلام ، من خلال نظمه وتشريعاته ، دين التوحيد بين قوى الكون جميعاً ، تلتقي فيه القيم الروحية مع القيم الاقتصادية بتعادل وتعاون ، ويعمل على تنشيط العلم وتنميته في جميع المجالات الحياتية ليبلغ حد الجودة والاتقان ، ويتم فيه التوازن الكامل المنسجم بين أشواق الروح ومظاهر الحياة .

وهل نعجب بعد ذلك إذا بلغ الذروة من التسامي الروحي والعدل الاجتماعي ! وهل نستغرب إذا دخل فيه الناس أفواجاً أفواجاً لاعتباره ضرورة اجتماعية ومحطة حضارية كبرى في تاريخ الحياة الانسانية الحرة الكريمة !

وما أريد بيانه ، وأنا أكتب في النظم الاسلامية : إن تلك النظم غير مقطوعة الصلة بأصولها القديمة ، بل لقد اعتراها التطور الاجتماعي الذي لا غنى عنه لكل نظام يلبي حاجات الانسان المتطورة مع ثقافات العصر وظروف البيئة والزمان . من هنا فتح باب الاجتهاد على مصراعيه عند المراجع الدينية العليا لعرض رأي الاسلام الصريح المتوافق مع ركب الحياة الاجتماعية الهائلة ، ومع أزهى عصر عرفته حضارة الانسان .

ولا ريب أن مسألة تنظيم الاسلام للحياة الاجتماعية في جوانبها المختلفة بدأت في عصر مبكر ، عصر النبوة ، عصر الرسالة الخالدة ، ويقيننا في ذلك أن تلك النظم كانت على أكمل وجه ممكن ، وأي موضوع جديد على الحياة الانسانية المعاصرة له بشكل أو بآخر أصل في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة .

ولا غرو فالاسلام دين الفطرة في مبناه ومعناه . قال تعالى :

﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾(59) .

وهو ـ كما تنص مبادئه ـ دين البشرية عامة في الجيل الذي شهده وفي الأجيال التي أعقبته وتعقبه الى أن تتبدل الأرض غير الأرض والسموات غير المساوات قال عزّ وجل :

---

(59) الروم ـ الآية 30 .

﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيرا ﴾[60]. ولما كان الاسلام دين الفطرة فلا بد أن يرجع بالبشرية الضالة الى فطرتها لينطلق فيعيد إلى الحياة معناها السامي الكريم ، ويوجه الانسان نحو القيم الانسانية العليا .

والواقع الذي كان يعانيه العالم يومذاك لم يتطلب من الاسلام علاجاً لبعض نواحي الحياة فحسب ، وإنما كان في أمس الحاجة الى إصلاح جذري ، فتناول الأصول والقواعد الفاسدة التي درج الناس عليها فمحقها وأقام مكانها أصولاً جديدة تتجه بالحياة الانسانية سبيلاً جديداً .

كل ذلك من أجل أن يوحد المسلمين في شتى بقاع الأرض ويعمل على بث الدين الاسلامي في العالم أجمع . وقد أشارت الآية الكريمة إلى ذلك ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ﴾[61] .

والمجتمع الاسلامي ليس أفراداً مجتمعين يلتقون بأجسامهم فحسب ، وإنما هو مجتمع استوفى معناه الاجتماعي فالأفراد المؤمنون برسالته الانسانية السمحاء ، يجتمعون على معنى واحد هو العمل لوجه الله ولخير الناس جميعاً ، والمجتمع المسلم جسم واحد تواشجت أعضاؤه فيما بينها بصدق ومحبة وإخلاص . قال النبي ﷺ : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » . وقال ﷺ : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

وهكذا نجد الاسلام ـ دين الحياة والاحياء ـ في جميع ميادين النشاطات الانسانية التي عرض لها في تشريعاته يضع نصب عينيه القيم الانسانية العليا ويأخذ المسلم المؤمن بالسير عليها في حياته العملية .

أما الهدف الذي سعى إليه فهو تكوين مجتمع انساني مثالي ، وأما الوسيلة إلى ذلك فهي توفير العنصر الأخلاقي في نفس الانسان ، لأن الفرد هو النواة الأساسية في بناء المجتمع فإذا صلحت هذه النواة صلح البناء بأسره . وإن هذا العنصر الأخلاقي ، الذي هو الأساس في بناء أي مجتمع متحضر ، لا يأتي إلا بالرجوع الى سواء الفطرة ، فطرة الدين الحنيف ، فطرة الله جل جلاله . قال رسول الله ﷺ : « إنما بعثت لاتمم مكارم الأخلاق » . وقال الله عزّ وجل في وصفه الرسول الأكرم ﷺ : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾[62] .

---

(60) سبأ ـ الآية 28 .

(61) آل عمران الآية 103 .

(62) القلم الآية 4 .

الباب الرابع
النظام الاداري

الفصل الأول
لمحة تاريخية

وضع الرسول ﷺ اللبنة الأولى للتنظيم الاداري ، فقد أرسل الى القبائل في النواحي من يفقهها في الدين ويعلمها أحكام القرآن ، وقد أخذ التنظيم بالاتساع يوم بدأ ينيب عنه ﷺ بعض عماله في بعض المدن والقبائل الكبيرة في كل من الحجاز واليمن . من أهم الأعمال والوظائف لهؤلاء العمال تتلخص في إمامة المسلمين في الصلاة ، وإصدار الأوامر في جمع الزكاة وجبايتها قبل تفصيل شؤون الخراج .

ومما يروى أن أول راتب مالي أعطي للعمال والولاة والموظفين على عهد النبي ما فرضه ﷺ لعتاب بن أسيد ، نائبه على مكة ، فقد خصه بدرهم واحد كل يوم(1) وعده الصحابة يوم عرفوا بالأمر غنياً لما كان يغلب عليهم من حياة التقشف والزهد .

وكذلك كبار الصحابة كانوا كلما أوفدهم النبي ﷺ في معارك وأبلوا فيها بلاء حسناً ، خصهم بنصيب من الغنائم ، ولما ولي الخلافة أبو بكر رضي الله عنه أقر عمال النبي ﷺ على وظائفهم وأعمالهم التي كانوا يقومون بها . فأبو عبيدة جعله على المال ، ولعمر رضي الله عنه أعطاه القضاء ولعلي كرم الله وجهه الفتوى في كل المشكلات التي يستعصي حلها : من دينية وقضائية واجتماعية . والعمال اختاروا القضاة في الأمصار المختلفة وعينوهم عليها ، ولما اتسعت الدولة الاسلامية بعد الفتوح الكثيرة ، وجد عمر أن لا بد من التقسيم الاداري في المناطق والأمصار ليسهل عليه أمر الاشراف والادارة ، فجعل بلاد فارس ثلاث ولايات ، وبلاد العراق ولايتين ، وافريقيا ثلاث ولايات لسعة مساحتها ، أما بلاد الأهواز والبحرين فجعل لها ولاية مشتركة ، وجعل كلاً من سجستان ومكران وكرمان مجتمعة ولاية واحدة . وجعل في كل من طبرستان وخراسان ولاية مستقلة . كما جعل فلسطين ولاية مستقلة أيضاً .

فعمر هو أول من أدخل التنظيم الاداري ولا سيما نظام الدواوين بعد إشارة من أحد المرازبة الفرس عندما اتسع مورد الدولة اتساعاً ملحوظاً . وتسمية الأمير بالعامل يشير إلى سلطته الواسعة فلا قيود عليه بل كان يعمل ما يراه الأفضل في كل مرفق من مرافق الحياة دينياً ودنيوياً .

---

(1) السيرة لابن هشام ج 2 ص 500 .

وقـد اختار عمـر عمالـه من العرب بنـاء لمقدرتهم في فهم أصـول الشريعـة الاسلاميـة وفقههم في أصول الدين . وليس تعـظيماً لعـرقهم أو جنسهم ، لأن عليهم أن يقيموا بـالناس الصلاة ، ويقضوا بينهم بالحق ، ويقسموا الغنائم والعشور .

وقـد سار عثمـان سيرة عمـر في أول تسلمه الخـلافة ، أمـا قبل نهايـة حكمه فكـان قد ضعف ولم يكن قـوياً حـازماً ، فقـرب عشيرتـه وسلمهم مختلف زمام شؤون الحكم فتـذمرت الرعية وشكت مرات في مختلف الولايات ، الأمر الذي أدى الى الفتنة الكبرى ومصرع الخليفة المؤلم .

كان الأمير أو الوالي يجعل من المسجد ندوة للاجتماع ، فمنه تذاع الأخبـار العامـة وفيه تلقى الخطب الاصلاحية والتوجيهية وبيانات الولاة في السياسة والدين والاجتماع(2) .

أما في العصر الأموي يمكن القول بصورة عامة أن النظام الاداري في عهد بني أمية ظل أولياً بسيطاً أقرب الى السذاجة ، لم تكثر فيـه الاختصاصـات على النحـو الذي تحـول إليه في عهد العباسيين . لأن الأمويين كانوا يؤثرون العمـال العرب ولا يعينـون في الادارة إلا العرب الخلّـص وهذا ما دفع الجاحظ الى القول أن الدولة دولة عربية أعرابية ، وقد ازداد نفوذ الوالي في العهد الأموي ، فكان الحجاج مثلاً يجمع الأموال بطريقتـه الشخصية ولا يـراجع في ذلـك الخليفة ، فله سلطة مطلقة حتى على أرواح البشر .

أما في العصر العباسي الأول فقد اقتصـرت سلطات العمال عـلى أمامـة الصلاة وقيـادة الجيش ، بينما الشؤون الأخرى المالية أو العدلية أو شؤون البريد والمـواصلات كـان يقوم بهـا غير المسلمين . والخليفة العباسي كان يختار عمال الأقاليم بنفسـه ، وإذا شك في صـدق أحد عماله فانه يأمر بمصادرة كل أملاكه من ثابت ومنقول ، هذا إذا سلم رأسه من سيف الجلاد .

ولمـا تمادى الضعف في جسم الـدولة العبـاسية ، ثـار بعض العمال واستقلوا بـولاياتهم الاقليمية ، فقامت في المشرق بعض الدويلات كالحمدانية والمهلبية ، وقامت في مصر دويلات أخرى كالطولونية والأخشيدية والفاطمية .

في عهد النبي وبعده ، وهذه صورة مفصلة عن حكومة الأقاليم .

حكومة الأقاليم

عندما استقر النبي ﷺ بالمدينة ، وانتشر الاسلام في جزيرة العـرب ، بعث صلوات الله عليـه عمالـه وأمراءه ، إلى كـل البلاد التي دخلت في حكم الاسـلام . وكـانت مهمـة هؤلاء العمال والأمراء ، إمامة النـاس في الصلاة ، وجمـع الصدقـات ، وإقامـة الحدود والفصـل في القضايا . وقد عرفوا عماله بالعلم والتقوى والفقه في الدين .

أجمع المؤرخون وكتاب السير أن أهم عماله ﷺ هم :

1 ـ عامل الطائف : عثمان بن أبي العاص .

---

(2) النظم الاسلامية ص 136 .

2 ـ عامل البحرين : العلاء بن الحضرمي .
3 ـ عامل حضرموت : زياد بن لبيد .
4 ـ عامل صنعاء : المهاجر بن أبي أمية .
5 ـ عامل مكة : عتاب بن أسيد الأموي(3) .

وأول راتب فرضه النبي ﷺ للعمال هو راتب عتاب بن أسيد ، وكان درهمان في كل يوم .

في عهد أبي بكر قسمت البلاد التي كانت تحت الادارة الاسلامية الى عشر ولايات على كل ولاية منها أمير ، من واجباته إقامة الصلاة ، وجمع الصدقات ، والفصل في القضايا ، وإقامة الحدود ، كما كانت الحالة أيام الرسول ﷺ فالأمير قاضٍ ومنفذ ، يقوم بعمل الشرطة اليوم .

هذه الولايات ، الخمس المذكورة : الطائف والبحرين وحضرموت وصنعاء ومكة . أقر عليها أبو بكر ولاتها السابقين . أما الولايات الخمس المستجدة فهي :

6 ـ خولان وعليها يعلى بن أمية .
7 ـ زبيد ورمع وعليهما معاً أبو موسى الأشعري .
8 ـ الجند وعليها معاذ بن جبل .
9 ـ نجران وعليها جرير بن عبد الله البجلي .
10 ـ جرش وعليها عبد الله بن ثور .

أما العراق والشام فالحروب كانت فيهما على قدم وساق ، وأمراء الجند كانوا ولاة الأمر فيهما .

وفي عهد عمر اتسعت رقعة البلاد الاسلامية ؛ فقسمها الى أقسام إدارية كبيرة ، وجعل على كل قسم منها والياً يتولى شؤونها ، وذلك حتى يسهل حكمها والاشراف عليها وعلى مواردها .

وحكام الولايات كانوا من أفاضل القوم وأرفعهم علماً وهدياً ، سيراً على سنن النبي ﷺ في اختيار الأصلح للولاية . وقبل إرسالهم الى الحكم كان يتعهدهم بالنصح والإرشاد . من ذلك نذكر بعض نصائحه لعماله . قال : « إني لم أبعثكم جبابرة ولكن بعثتكم أئمة . فلا تضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تجمروهم فتفتنوهم . ولا تمنعوهم فتظلموهم وأدروا لقحة المسلمين »(4) .

الولايات في عهد عمر هي عشر أيضاً :
1 ـ مكة وأميرها نافع بن عبد الحارث الخزاعي .

---

(3) سيرة ابن هشام ج 2 ص 349 وتاريخ الطبري ج 2 ص 455 وعتاب من مسلمي الفتح ، استعمله النبي ﷺ على مكة لما خرج الى حنين وكان عمره 20 سنة .
(4) الخراج للقاضي أبي يوسف ص 66 .

2 ـ الطائف وأميرها سفيان بن عبد الله الثقفي .
3 ـ صنعاء وأميرها يعلي بن منبه .
4 ـ الجند وأميرها عبد الله بن أبي ربيعة .
5 ـ البحرين وأميرها عثمان بن أبي العاص .
6 ـ الكوفة وأميرها المغيرة بن شعبة .
7 ـ البصرة وأميرها أبو موسى الأشعري .
8 ـ دمشق وأميرها معاوية بن أبي سفيان .
9 ـ حمص وأميرها عمير بن سعد .
10 ـ مصر وأميرها عمرو بن العاص .

وهكذا أصبح للدولة الاسلامية نظام إداري يكفل للخليفة حسن الاشراف عليها .

وفي عهد عثمان بقيت الأقاليم على ما هي عليه من حيث التقسيم والتأمير الشيء المميز في هذا العهد إن بعض الولاة والمقربين من الخليفة أثروا ثراء فاحشاً فملكوا الضياع والمزارع وآلاف المواشي والقناطير من الذهب والفضة وبنوا الدور بالجص والعقيق . جاء في تاريخ التمدن الاسلامي :

« وخلف زيد بن ثابت من الفضة والذهب ما كان يكسر بالفؤوس غير الضياع والأموال بمائة ألف دينار . وبنى الزبير داره بالبصرة وبنى أيضاً بمصر والكوفة والاسكندرية . وكذلك بنى طلحة داره بالكوفة وشيد داره بالمدينة وبناها بالجص والآجر والساج . وبنى سعد ابن أبي وقاص داره بالعقيق ورفع سمكها وأوسع فضاءها وجعل على أعلاها شرفات . . »(5) .

هذا كله في عهد عثمان . أما في عهد علي عهد الزهد والتقشف والحروب الداخلية المريرة . فقد انسلخ عن الأقاليم المذكورة إقليم الشام وكان واليه معاوية بن أبي سفيان الذي تولاه طوال العهد الراشدي ، حتى كان عهد علي ، أمر بعزله من ولاية الشام لما رأى انحرافه عن الخط الاسلامي من بذخ واسراف ومجون وتهتك ، رفض معاوية أمر الخليفة ودارت الحروب والمعارك وأبرزها معركة الجمل المعروفة .

وكذلك كان أمر مصر التي كان أميرها عمرو بن العاص الذي استقل بولايته وعصى أمر أمير المؤمنين وتصرف كما يتصرف ملوك القياصرة وملوك الأكاسرة بعيداً عن شريعة الاسلام العادلة السمحاء .

وبقي تحت أمرة علي ثماني ولايات الباقية وهي : مكة والطائف وصنعاء والجند والبحرين وما والاها والكوفة والبصرة وحمص .

ولما كان العهد الأموي بلغت الدولة الاسلامية حداً بعيداً من الاتساع وقد قسمت إلى خمس إمارات كبرى :

---

(5) تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان ج 1 ص 80 .

1 ـ الحجاز واليمن وأواسط بلاد العرب .
2 ـ مصر بقسميها السفلى والعليا .
3 ـ العراقان : أ ـ العربي ويشمل بلاد بابل وآشور القديمة .
ب ـ والعجمي وهو بلاد فارس
4 ـ بلاد الجزيرة : ويتبعها أرمينية ، وأذربيجان ، وبعض أراضي آسيا الصغرى .
5 ـ افريقيا الشمالية وتشمل ما غرب مصر ، وبلاد الأندلس ، وجزيرة صقلية وسردانية ، والبليار ومركزها القيروان(6) ..

أعمال الدولة الاسلامية في العصور العباسية

إتسع نطاق الدولة الاسلامية على عهد العباسيين الى حد لم تبلغه من قبل وقد بلغت حدودها شمالاً إلى أعالي تركستان في آسيا وجبال البرنس في شمالي افريقيا ، وجنوباً الى بحر العرب والمحيط الهندي والصحراء الافريقية الكبرى وشرقاً الى بلاد السند من بلاد الهند ، وغرباً المحيط الاطلنطي ، وبذلك فقد زادت مساحتها على ضعفي مساحة أوروبا(7) .

وهذا العهد ترتبت الولايات على هذه الصورة :

1 ـ الكوفة والسواد .
2 ـ البصرة وما وراءها جنوباً الى البحرين وعمان .
3 ـ الحجاز واليمامة .
4 ـ اليمن .
5 ـ الأهواز (خوزستان) .
6 ـ بلاد فارس .
7 ـ خراسان .
8 ـ الموصل .
9 ـ الجزيرة بين النهرين وأرمينية وأذربيجان .
10 ـ الشام .
11 ـ مصر وافريقية .
12 ـ السند في حدود الهند .
13 ـ الأندلس .

وقد خرجت بعض الأعمال عن سلطة العباسيين كالأندلس لما تولاها بنو أمية والطاهرية والسامانية والأغلبية والطولونية ونحوها . ولكن أمراء هذه النواحي المستقلة كانوا يخطبون للخليفة العباسي ما عدا الأندلس .

ولا تزال أمم كثيرة من آسيا وافريقيا تكتب لغاتها بالحروف العربية الى الآن :

---

(6) المصدر نفسه ص 108 وتاريخ الحضارة الاسلامية أبو زيد شلبي ص 178 .
(7) تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان ج 1 ص 108 .

كان الخلفاء العباسيون يتبعـون سياسـة تغيير الـولاة بين وقت وآخـر ، مما جعـل هؤلاء ينصرفون عن القيام بالأعمال الخيرية والمفيدة ، ولا يكـاد الوالي يبـدأ بمشروع اصـلاحي حتى يخلع ويعين غيره ، ممن عرف بالمرونة السياسية ، والخبرة الادارية ، وحسن التدبير . وفي أيام يزيد بن عبد الملك أصبحت المحاباة عاملاً أساسياً في الترشيح لتولي أعمال الدولـة . فلا هم للوالي إلا إرضاء الخليفة وحاشيته بالهدايا الغالية على حساب الرعية المظلومة .

وقد قسم الفقهاء الامارة الى نوعين :

إمارة خاصة وإمارة عامة :

فالإمارة الخاصة تقتصر على تدبير الجيش ، وسياسة الرعية ، والدفاع عن كيـان الدولـة وليس لهذا الأمير التعرضّ للقضاء والأحكام ، ولا لجباية الخراج والصداقات .

والامارة العامة جعلوها هي الأخرى إمارتين :

إمارة استكفاء وإمارة استيلاء :

فإمارة الاستكفاء كانت بعقد عن اختيار ، فالأمير يتـولاها بـرضى الخليفة . وأمـا إمارة الاستيلاء . فكانت بعقـد عن اضطرار ، أي أن الأمـير كان يـأخذهـا بالقـوة فيضطر الخليفـة عندها الى إقراره عليها .

وفي كلا النوعـين كان لا بـد من النظر في تـدبير الجيـوش ، ووضع الخـطط الحربيـة ، وتقليد القضاة ، وجباية الخـراج وقبض الصـدقـات وإقامـة الحدود ، وتسيـير الحجيج وجهـاد الاعداء ، وتوزيع الغنائم بين المتقاتلين وأخذ خمسها لأصحاب الخمس حسب التوزيـع الوارد نصه في القرآن .

وفي كلا النوعين من الامارة يستبد الأمير أو الوالي أو العامل بالسياسة الداخلية والتـدبير الخاص حسب مزاجه ولكنه يترك للخليفة وحده كل شأن يتعلق بالدين والأمور الروحية رعاية للرمز الديني الذي يمثله الخليفة أو الامام(8) .

الدواوين :

ذكرنا من قبل أن عمر بن الخطاب كان أول من وضـع التنظيم الاداري بـإدخالـه نظام الدواوين الذي أشار به عليـه أحد مـرازبة الفـرس وذلك بعـد أن أحرزت الـدولة الاسـلامية فتوحات واسعة النطاق(9) .

واصل الديوان : الدفتر أو السجل بالفارسية . وقد أطلقوا اسم الديوان على المكـان أو الدائرة التي يحفظ فيها من باب المجاز(10) .

ولكن عمر أخذ هـذا النظام الفـارسي ولم يتركـه على حـاله ، لأن كـل دولة ولهـا شأنها وخصوصياتها بل جعل منه عدة فروع وأبواب وذلك تبعاً لحاجات الدولة الجديدة والواسعة .

---

(8) أحكام الماوردي ص 28 -32. وأحكام أبي يعلى ص 17 وما بعدها . وقد فصلنا ذلك في فصل الامارة .

(9) الأحكام السلطانية لأبي يعلى ص 221 .

(10) الأحكام السلطانية لأبي يعلى ص 221 .

1 ـ **فأنشأ ديوان الجنود** لينظر فيها يخص الجنود من العطاء ومصاريف الحرب والدفاع .
2 ـ **وديوان الخراج** لينظر في ما يرد الى بيت المال من جباية وما يفرض لكل مسلم من عطاء .

والدواوين في الدولة الاسلامية الحديثة منها المركزية التي أنشأها العرب أنفسهم فكان كل ما فيها عربياً خالصاً غير مستورد .

ومنها المحلية الاقليمية التي وجدها العرب في البلدان المفتوحة . فوجدوا من الحكمة إبقاء أهلها عليها حتى لا يفاجئوهم بجديد ولا يضطرب عليها الأمر ، كما كانت الحال في العراق وايران ، فقد كانت دواوينها على النمط الفارسي حسب تقاليدها ومحيطها .

أما الشام فقد كانت دواوينها على النمط الرومي أي البيزنطي ، وفي مصر كانت قبطية وفي عهد عبد الملك بن مروان والوليد وهشام من الخلفاء الأمويين فقد عربت هذه الدواوين . وقد كان عمر بن الخطاب يميل في تنظيمه الاداري الى المركزية بصورة عامة ولذلك ربط الجند بالمركز حين أنشأ **ديوان الجند** . وصاروا يطلقون اسم الديوان على هذا الديوان نفسه دون قيد أو شرط . لأنه كان في زمن عمر الديوان الوحيد ذا الصفة الواضحة المستقلة . وقد آثر عمر أن يسوى في العطاء والهبات بين العرب الخلّص والموالي ، وكتب بذلك الى أمراء الأجناد في الأمصار[11] .

الدواوين في العصر الأموي

تيسرت الظروف الملائمة للأمويين من الاتصال بالفرس والبيزنطيين ، أكثر مما تيسرت للراشدين ، فاتسعت بذلك مرافق الدولة في شتى الميادين واحتاجت الى دواوين جديدة تنظم إدارتها وتتلاءم مع تطورها ، ومع ذلك ظلت هذه الدواوين بدائية ولم تأخذ شكلها النهائي إلا في العصر العباسي . وهذه أهم دواوين العصر الأموي[12] .

1 ـ ديوان الخراج : يتولى تنظيم أمور الخراج ومشاكلها وما يتناسب مع روح العصر الجديد ، ولا ريب أن هذا التطور وثبة حضارية يتطلبه كل تقدم في كل الأمم التي واكبت الحضارة في سيرها المتقدم .
2 ـ ديوان الرسائل : يشرف على مراسلات الخليفة في الداخل والخارج وفي كل ما يتعلق بالشؤون ذات الصبغة السياسية والاقتصادية مع الدول الأخرى .
3 ـ ديوان المستغلات أو ديوان الايرادات المتنوعة كالموارد الغير منقولة كالأراضي والأبنية الحكومية وكل ما يعود من أملاك عامة للدولة .
4 ـ ديوان النفقات : تتعلق مهمته في صرف ما ينفق على تسليح الجيش من معدات وآليات ورواتب العسكريين وألبستهم ، والادارة المركزية التي توزع مرافق الدولة على الدوائر المختلفة .

(11) فتوح البلدان للبلاذري .
(12) راجع المدخل في تاريخ الحضارة العربية لناجي معروف فيه الشروح المفصلة عن الدواوين في العصر الأموي (ص 34 وما بعدها) .

5 ـ ديوان الصدقات : ويعنى بتوزيع موارد الزكاة على أصحاب الحقوق على النحو الذي صرح بتوزيعه القرآن الكريم . واسمه مأخوذ من آية الصدقات في قوله تعالى : ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾(13) .

6 ـ ديوان الجند : يعنى بإحصاء أسماء الجنود وتحديد عطاياهم ورواتبهم فقط .

7 ـ ديوان الطراز ومهمته تختص بالمعامل التي كانت تنتج الأزياء الرسمية والاعلام في الحرب ، والشارات والشعارات في جميع الأحوال الرسمية الخاصة بالدولة .

8 ـ ديوان البريد : كان ينظم الاتصالات وضروب النقل وآلات بين العاصمة ومقاطعات الدولة ، ولنقل الأخبار السياسية والادارية والدينية من ولاية الى أخرى .

9 ـ ديوان الخاتم : أنشأه معاوية بن أبي سفيان لنسخ أوامره وبلاغاته ويودع هذا الديوان في مكان أمين بعد حزمه بخيط وختمه بالشمع الأحمر بخاتم صاحب الديوان ، أو رئيس الديوان .

وقد بقي ديوان الخاتم هذا من أيام معاوية حتى أواسط الدولة العباسية حيث تحولت أعماله على الوزراء والسلاطين والحجاب ثم ألغي بعد ذلك .

وفي عهد عبد الملك بن مروان (86 هـ) حدث أمر هام حيث عربت الدواوين في العراق والشام ، ثم عربت دواوين مصر في خلافة الوليد الأول ودواوين خراسان في خلافة هشام بن عبد الملك ، وأمست اللغة الرسمية في السياسة والادارة هي اللغة العربية بعد أن نقلت اليها أدق المصطلحات الفارسية واليونانية في الحساب والفنون التي كانت شائعة في تلك العصور(14) .

الدواوين في العصر العباسي

اتسعت رقعة الدولة العباسية وكثرت خيراتها فكثرت الدواوين وتنوعت اختصاصاتها مما دعا العباسيون الى الاستعانة بخبرة الفرس الادارية في تنظيمها وتوسيع صلاحياتها . ولئن احتفظ العباسيون ببعض تنظيمات الدولة الأموية في الدواوين والدوائر الرسمية فإنهم آثروا التجديد في كثير من موضوعات تلك الدواوين وأشكالها وما تتناوله سلطات أصحابها المشرفين عليها .

والشيء الحديث الذي أوجده بنو العباس هو أنهم جمعوا تلك الدواوين في دفاتر وسجلات بدلاً من أن تكون صحفاً مبعثرة متفرقة .

ففي عهد المنصور 754 م ـ 775 أبرز ما استحدث ، الديوان الخاص الذي أنشأه لحفظ أسماء الأشخاص الذي صودرت أموالهم ، وقد أطلق عليه اسم ديوان المصادرات . من هذا

---

(13) التوبة الآية 60 .

(14) راجع المدخل في تاريخ الحضارة العربية لناجي معروف ص 34-35

نعلم كثرة من صودرت أموالهم في عهد هذا الخليفة العباسي ، حتى دعتهم الحاجة إلى إنشاء مثل هذا الديوان .

وفي عهد المهدي 775 م ـ 785 م استحدثت دواوين جديدة أيضاً متعددة الاختصاصات سموها : دواوين الأزمة وهي عبارة عن دوائر مهمتها الاشراف على الدواوين الكبيرة . فكأنها ديوان محاسبة في عصرنا اليوم . لأنها تعنى بالدرجة الأولى بالتدقيق بالحسابات والشؤون المالية التي يتصرف بها كل ديوان . بالاضافة الى هذه الدواوين أنشىء :

ديوان زمام الأزمة : وتنحصر مهمته في تنظيم جميع دواوين الأزمة في آن معاً . ومن اسمه إشارة أنه كان قواماً لكل أمر عالجه أي ديوان آخر على حدة . في كل مرفق من مرافق الحياة المدنية .

وديوان ثالث أنشىء في عهد المهدي أيضاً هو ديوان النظر في المظالم والغاية من إنشاء هذا الديوان النظر في المظالم والشكاوى التي تتشكى منها أفراد الرعية من ظلم ولاتها . فهو يقوم بدور مجلس شورى الدولة اليوم ، ومن صلاحياته أيضاً مراقبة غلاء الأسعار فهو يقوم أيضاً بدور وزارة الاقتصاد . كما ينظر في كثرة إيداع الناس السجون من غير نظر دقيق في دعاويهم . وفي بعض الأحيان ينظر في أمور الأملاك المصادرة بغير حق .

وفي عهد الرشيد 786م ـ 809 م ، استحدث ديوان الصَّوافي ، وهي الأراضي التي تملكها الخزينة الرسمية . والخزينة الرسمية هذه هي خزينة الخليفة التي اصطفاها لنفسه . حتى جاء المعتصم 833 م ـ 809 م وأنشأ ديوان الغلمان والموالي . ومما يظهر أن في نفسه ميلاً ورغبة لابتياع الغلمان الأتراك . الأمر الذي ثار حفيظة العلماء الأتقياء واستنكروا إنشاء هذا الديوان ، ومما يبدو أن الغاية منه لم تتعد النظر في الاستكثار من العلمان ، والسعر المناسب لكل واحد منهم .

وفي العصر العباسي الثاني الذي بدأ بالخليفة المتوكل 847 -861 م كان ما سمي بديوان الاستخراج . وهو عبارة عن دائرة رسمية تتبع أخبار الوزراء والكتاب والحجاب والعمال والولاة المتهمين بالرشوة والغش فتسجل أسماءهم ، وتحدد أوضاعهم ، ثم ترفع الأمر الى الخليفة حتى يعد أمر المصادرة للأموال التي جمعوها حراماً وبغير حق . وهنا يتولى الأمر ديوان المصادرات الذي أشرنا إليه سابقاً .

كما ظهر في هذا العصر أيضاً ديواناً آخر اسمه ديوان الخاصة وهو الذي كان ينظر في أموال الخليفة وأملاكه وعقاراته المكتوبة باسمه والراجعة إليه والى ورثته(15) .

---

15) راجع النظم الاسلامية للدكتور حسن ابراهيم حسن ص 156 .

الفصل الثاني
الدستور الأول للحكومة الاسلامية

أعلن النبي ﷺ الدستور الأول للدولة الاسلامية عندما آخى بين المهاجرين والأنصار ووادع فيه اليهود فقال بعد البسملة ما نصه :

« هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، إنهم أمة واحدة من دون الناس والمهاجرون من قريش على ربعتهم[1] يتعاقلون بينهم ، وهم يفدون عانيهم[2] بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عوف على ربعتهم[1] يتعاقلون بينهم ، وهم يفدون عانيهم[2] بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم[3] الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ثم عدد ﷺ بقية الطوائف على هذا النسق كبني الحرث وبني جشم وبني النجار وبني عمرو بن عوف وبني النبيت وبني الأوس ، وإن المؤمنين لا يتركون مفرحاً بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل .

ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه ، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة[4] ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين وإن أيديهم عليه جميعاً لو كان ولد أحدهم ، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافر على مؤمن ، وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم ، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس ، وإنه من اتبعنا من يهود فإن له النصرة والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم ، وإن سلم المؤمنين واحدة . لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم ، وإن كان غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً ، وإن المؤمنين يبيء[5] بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله ، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه وانه لا يجير مشرك مالاً لقريش ، ولا نفساً ولا

---

(1) الربعة : الحال التي جاء بها الاسلام وهم عليها .

(2) العاني : الأسير

(3) المعاقل : جمع معقلة من العقل وهو الدية .

(4) الدسيعة : ما يخرج من حلق البعير إذا رغا وتستعار للعطية .

(5) يبيء : يمنع

يحـول دونه عـلى مؤمن وانه من اعتبط(6) مؤمنـاً قتلاً عن بينـة فإنـه قود بـه إلا أن يرضى ولي المقتول وان المؤمنين عليـه كافـة ، ولا يحل لهم إلا قيـام عليه ، وإنـه لا يحل لمؤمن أقـرَّ بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً، ولا يؤويه ، وانه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل ، وإنكم مهـما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده الى الله عزّ وجل والى محمـد ﷺ وإن اليهود ينفقـون مع المؤمنـين ما دامـوا محاربين ، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين :

لليهـود دينهم ، وللمسلمـين دينهم ، مـواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم وأثم فـإنـه لا يوتغ(7) إلا نفسه وأهل بيته ، وإن ليهود بني النجـار مثل مـا ليهود بني عـوف ، وإن ليهود بني الحرث مثل ما ليهود بني عوف ، وان يهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف ، وإن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف ، وكذلك : بني الأوس وبني ثعلبـة ، إلا من ظلم وأثم فإنـه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيتـه ، وان جفنة بـطن من ثعلبة كـأنفسهم ، وإن لبني الشطيبـة مثل مـا ليهود بني عوف وإن البر دون الاثم وإن موالي ثعلبـة كأنفسهم وأن بـطانة يهـود(8) كأنفسهم ، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ وانه لا ينحجز على ثأر جرح وانـه من فتك فبنفسـه فتك وأهل بيته إلا من ظلم ، وإن الله على من آبر هذا وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وان بينهم النصـر على من حـارب أهل هـذه الصحيفة وان بينهم النصـح والنصيحة والبـر دون الاثم ، وإنه لم يـأثم امرؤ بحليفـه وان النصر للمـظلوم ، وان اليهود ينفقـون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هـذه الصحيفـة وإن الجار كـالنفس غير مضار ولا آثم ، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها ، وإنه ما كان بين أهـل هذه الصحيفـة من حدث أو اشتجار(9) يخاف فساده فإن مرده الى الله عزّ وجل والى محمـد رسول الله ﷺ وان الله عـلى من اتقى ما في هـذه الصحيفة وأبـره وإنه لا تجار قريش ولا من نصـرها ، وان بينهم النصر على من دهم يثرب . وإذا دعوا الى صلح يصالحونه ويلبسونه ، وإنهم إذا دعوا الى مثل ذلـك فإنـه لهم على المؤمنـين إلا من حارب في الـدين : على كـل أناس حصتهم من جـانبهم الذي قبلهم ، وإن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثـل ما لأهـل هذه الصحيفـة مع البـر الحسن من أهل هذه الصحيفة وإن البر دون الإثم : لا يكسب كـاسب على نفسـه ، وإن الله على من أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره ، وإنه لا يحول هـذا الكتاب دون ظـالم وآثم ، وإنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم وإن الله جار لمن بر واتقى ومحمد رسول الله ﷺ(10) .

وخلاصة هذا الكتاب الذي يعتبر دستور الحكومة الاسلامية الأول نختصره فيما يلي :

(6) اعتبط : قتل من غير سبب يوجب القتل .

(7) يوتغ ـ وتغ : إذا هلك .

(8) البطانة : خاصة الرجل وأهل سره .

(9) الاشتجار : الاختلاف أو الاقتتال .

(10) السيرة لابن هشام ج 2 ص 119 -123 .

1 ـ وحدة الشعوب الاسلامية وحدة كاملة فقد جعلهم ﷺ أمة واحدة على اختلاف قبائلهم وشعوبهم .
2 ـ فرض الحدود والديات (المعاقل) على أسلوب خاص وضعه الاسلام وبينته السنة وكتب الفقه الاسلامي ، وإقرار المهاجرين من قريش على عاداتهم وسننهم في أحكامهم الخاصة بهم .
3 ـ المهاجرون مسؤولون عن فداء أسيرهم وتخليصه من أيدي المشركين .
4 ـ الطوائف والقبائل عامة مسؤولة بأن تفدي أسيرها بالقسط والمعروف .
5 ـ إقرار القبائل التي وردت أسماؤها في الكتاب الشريف على عاداتهم وكل طائفة منهم مسؤولة عن فداء عانيها .
6 ـ على المؤمنين إعانة المثقل منهم بالديون من أجل الفداء .
7 ـ شجب الظلم والبغي في جميع حالاته وفي كل المجالات ، والجميع مسؤولون عن مناهضة القائم به حتى ولو كان ولداً لأحدهم .
8 ـ لا يقتل المؤمن بالكافر لو قتله ، وعند ذلك تؤخذ منه الدية لا غير .
9 ـ لكل مسلم الحق أن يجير أي شخص يشاء مهما كانت منزلته الاجتماعية .
10 ـ لا يسمح للمشركين بأن يجيروا مالاً أو دماً للمشركين من قريش .
11 ـ القاتل للمؤمن من غير سبب يقاد به إلا أن يرضى ولي المقتول بالدية فتؤخذ منه .
12 ـ عدم السماح للمسلمين بنصرة المحدثين والمبتدعين منهم في الاسلام وعليهم مقاومتهم وعلى هؤلاء المحدثين لعنة الله وغضبه يوم القيامة .
17 ـ النبي ﷺ هو الحكم في حل جميع المشاكل بين المسلمين ومهما اختلفوا فإن مرده الى الله عزّ وجل والي محمد ﷺ رسول الله .
14 ـ لليهود حقوقهم العامة من الأمن والحرية وغير ذلك اتجاه الدولة الاسلامية الا من ظلم وأثم وعاث فساداً في الأرض .
15 ـ التأكيد على حقوق الجار فهو للمسلم كالنفس غير مضار ولا آثم .
16 ـ النصر للمؤمنين على كل من دهم يثرب .
17 ـ الله شاهد على من أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره .

هذه أهم البنود التي وردت في هذه الصحيفة التي تعتبر أول دستور للدولة الاسلامية الناشئة .

طابع القضاء في الاسلام

إن الطابع الاساسي للقضاء الاسلامي الشدة على الظالمين والمعتدين ، فهو يقف لهم بالمرصاد ليمنعهم من الغي ويصدهم من الاعتداء ويأخذ منهم حق المعتدى عليه بالقوة والعنف ، يقول الله تعالى في وصفه لرسول الله محمد ﷺ والصفوة من أصحابه : ﴿ محمد رسول الله والذين آمنوا معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾(11) .. وقال أمير المؤمنين علي بن

(11) الفتح الآية 26 .

أبي طالب في نهج البلاغة :

« الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق لـه ، والعزيـز عندي ذليـل حتى آخذ الحق منـه »
وقال أيضاً عليه السلام في هذا المجال :

« لن تقدس أمة لا يؤخذ فيها بحق المظلوم من الظالم » .

استقرار قواعده

القواعد العامة التي بني عليها القضاء في الاسلام ثابتـة مستقرة لا يطرأ عليها تغيـير أو تبديل في جميع مراحل الحياة ، ذلك أنها تسعى لصالح الانسان في كل مكان على حد سـواء ، فـلا مكر ولا خـداع ولا مواربـة ، إنها بنيت على الحق والعـدل ولا يختلف أبـداً منـطق الحق والعدل في جميع الأزمان. بني القضاء الاسلامي على الايمان الراسخ بكرامـة الانسان ، وحقـه المقدس في الحياة الحرة الكريمة .

كـما بني على الـرحمة والسمـاحة للتـائبين ، والشـدة والقسوة عـلى الظالمين ونشر الأمن والدعة بين الناس أجمعين .

هذه المفاهيم القضائية الخيرة مستمرة ثابتة على مر الأزمـان ومع كـل الأجيال لأنها تنبـع من معيـن الحيـاة الانسـانية فـلا تشـذ عن سنن الحيـاة ونـواميسهـا . أيـن هـي من سياستنـا الحديثة وقضائنا الحديث حيث لا يعتمد فيه على أسس ثابتة ولا على منطق سليم ، بل سرعان مـا يتلون حسب المصالـح الشخصية والمـطامع الـطائفيـة ويتكيف حسب الـرغبـات والأهـواء السياسية .

المقياس الصحيح :

إن المقياس الصحيح الذي تعرف به صحة القضاء وفساده هـو ان يعرض القـاضي كل مـا لديـه من قضايـا وأحكام عـلى الكتاب الكـريم والسنة الشـريفة وسيـرة الصحابـة الفقهاء والعلماء من أعـلام الفكر الاسـلامي الذين مثلوا الاسـلام قولاً وعمـلاً ، وناصـروا الاسـلام وساروا على ضوئه مترسمين خطاه . قال الامـام الحسين بن عـلي (ع) : (إنما الخليفـة من سار بكتاب الله وسنة نبيه) [12] .

القرآن الكريـم ، الدستور الانساني الدائم ، رسم الخطوط العامة لحياة الانسان الفردية والاجتماعية ، والسنة المباركة شرحت تلك المضامين وفصلتهـا تفصيلاً ، والصحـابة الاعـلام الرجال المصلحون ، رفعوا شعارها وطبقوها في تشريعاتهم وقضائهم . فكل سياسة لا تتـوافق مع هذه الينابيع الثرة ليست من سياسة الاسلام في شيء ، والقضاء الاسلامي براء منها ، ولا تمثل وجهة نظره . كالوليد والمنصور والمتوكل وغيرهم من حكـام الظلم والجـور الذين طـاردوا المصلحين الأخيار وقربوا من بلاطاتهم الفاسدين الأشرار . هؤلاء هم بعيدون كـل البعد عن الاسـلام وقضائـه القويم المستقيم ولا يصـح بأي حـال أن تتخذ أعمـالهم مقياسـاً يقـاس بـه القضاء الاسلامي .

---

(12) الارشاد للمفيد ص 210

إن الاسلام لا يمثل مفاهيمه تمثيلاً صحيحاً إلا الأكفاء الذين تربوا على مثاليته وهديه ، وطبقوا أهدافه وأحكامه على واقع حياتهم الفردية والاجتماعية ، فأعمال هؤلاء الصالحين الخيرين هي التي تكون مقياساً صحيحاً ودليلاً صالحاً يسير عليه الحكام العادلون . نذكر من هؤلاء الخلفاء الراشدون أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب الذي تميز بطول باعه في القضاء وبعد بصره فيه ، كما تميز باستيعابه الشريعة الاسلامية وعلمه الغزير . حتى وصفه الرسول ﷺ بباب مدينة العلم فقال ﷺ « أنا مدينة العلم وعلي بابها »(13) .

(13) راجع كتاب التكامل في الاسلام .

الفصل الثالث

القضاء والحسبة والشرطة

القضاء :

كـان رسول الله هـو الحكم الفصل بـين سكان المـدينـة الأصيلين والقـادمـين اليهـا من المهاجرين ، فإليه وحده مرجع كل نزاع ، وهو قاضيهم الوحيد في كل أمورهم وشؤونهم .

وقـد جاء في الحلف الـذي عقده الـرسول ﷺ بـين المهاجـرين وبين أهـل المدينـة من المسلمين واليهود وغيرهـم : « إنه ما كان بين أهل هـذه الصحيفة من حـدث أو شجار يخـاف فساده فإن مرده الى الله عزّ وجل وإلى محمد رسول الله »(14) .

والإسلام إنما قرر السجن لبعض الجرائم وقد كانت قليلة كالمديون المماطـل يحبس حتى يعطي الدين ، أو يعطيه الحاكم من أمواله ، وكالمرأة المرتـدة تحبس حتى ترجـع الى الاسلام ، وكالذي أخذ انساناً ، فقتله شخص آخر ظلماً وجوراً . . . وما أشبه ذلك مما هو مقـرر في فقه الاسلام .

وقد أصاب الاسلام في إلغاء السجـون التي كانت مـوجودة عنـد الفرس وعنـد الروم ، وأخطأت سائر الدول المهتمة في بناء السجون وهدر الطاقات الكبيرة في سبيلها .

وإذا ما سألنا ماذا يصنع الحاكم الاسلامي بالمجرم نقول : السجنـاء أعضاء عـاملون في الحيـاة فإذا سجنـوا جمدت هـذه الطاقـة تجميداً تـاماً . وإن من يتـوهم من أن بعض السجون يضـع الأعمال للسجنـاء والمرشـدين لهم ، فذلـك صحيـح ، لكنـه ليس عـلى وجـه العمـوم والشمول ، وبصورة عامة يعتبر السجن تجميداً لطاقات الانسان الفاعلة .

ومن جهة أخرى هناك هدر لطاقة إدارة السجن من مدير ومساعد وخـدام وبناء السجن كلها هذه طاقات انسانية إذا وجهت نحـو العمل الايجـابي كانت جـديرة بـأن تدفـع الحياة الى التقدم المفيد والعطاء الخير .

والسجن لم يكن بـأي حال رادعـاً للجرائم وكثيـراً من العاطلين يجـرمون فيلقى بهم في السجن ويستريحوا من عبء الحياة ومصاريفها .

---

(14) السيرة لابن هشام ج 2 ص 119 -123 .

وقد يسأل أحدهم إذا كسر الاسلام السجون وفك الأغلال تدب الفوضى في أوساط المجتمع ، وإذا أجرى حدوده المقررة على المسجونين قد يسبب سوء سمعة بالنسبة للدولة الاسلامية . يجيب الحاكم المسلم بقوله :

لا يلزم من إطلاق السجناء فوضى أبداً ، لأن المجرم إذا عرف العقاب الصارم تجنب الآثام وبذلك يمتنع الاجرام في الدولة الاسلامية . ومما يروى أن الاسلام لم يقطع سوى ستة أيدي من السارقين مدة قرنين فما رأيك لو أعلنت الدولة اليوم أن كل قاتل يقتل وكل سارق تقطع يده . إني على يقين أن القتل يزول بسرعة والسرقة تمتنع بتاتاً . نعم . . . إذا كان العقاب السجن ، ويخففه المحامي والرشوة والعفو والسجن مزود بالغذاء والكساء وكل لوازم الانسان الحياتية ، من الطبيعي أن تزداد حوادث القتل والسرقة وكل أنواع الاجرام .

وبعد هذا : إن تحصين الاسلام الناس بالقاء الايمان في قلوبهم يبعدهم عن الجريمة وينفرهم من ارتكاب الآثام ، فهل رأينا من يحضر الصلوات الخمس ويقوم بالعبادات الاسلامية يقتل النفس المحرمة ؟ أو يعاقر ؟ أو يخون في أعراض الناس أو يبيع شعبه للوصول الى الكرسي . . . . ؟

فالاسلام بصرامة العقاب وإشاعة روح التقوى والفضيلة في المجتمع تمكن من إزالة الجريمة فلا ترى في المجتمع الاسلامي أثراً لها إلا نادراً .

فإجراء الحدود وتطبيق النظام دون أي واسطة أو مواربة والحكم الصارم البعيد عن الرشوة والمحاماة يمنع الجريمة . من هنا كانت الآية الكريمة « ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب »[15] .

إن بساطة الحياة في ذلك المجتمع الناشىء لم تكن تستدعي في المدينة كثيراً من القضاة ، وفي بعض الأحيان كان الرسول ﷺ ينيب عنه أحد أصحابه لفض خلاف أو يرسل بعضهم والياً على ناحية أعلنت خضوعها للحكومة الاسلامية .

من ذلك أنه قلّد ﷺ علياً القضاء في اليمن ، ولم يختبره لعلمه به ، ولكن زوده ببعض آداب القضاء[16] . والحديث عن قضاء علي وتفقهه في الدين وبعد نظره في كل أموره وأبعاده لا ينتهي عند حد معين . فكما أسلفنا أن علياً كان مستشاراً قضائياً في حل كل القضايا الصعبة طوال الخلافة الراشدة .

وقد اشتهر غيره في الفتيا والقضاء من الصحابة فبلغوا على عهد الرسول مئة وواحداً وثلاثين رجلاً وامرأة[17] .

ومن عادته عليه السلام أنه لم يقلد القضاء لأحد طلبه ، ولا لضعيف لا يقدر على إقامة

---

(15) البقرة الآية 179

(16) الأحكام السلطانية لأبي يعلي ص 46 .

(17) النظم الاسلامية لحسن ابراهيم ص 249 .

الحق بين الناس . قال ﷺ لأبي بردة بن أبي موسى الأشعري ورجلين من بني عمه : « إنّا والله لا نولّي هذا العمل أحداً سأله »[18] .

وقال لأبي ذر الغفاري : « يا أبا ذر ، إنك ضعيف ، وإنها أمانة ، وانها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها ، وأدى الذي عليه فيها »[19] .

وكان رسول الله يفصل بين المتنازعين ببساطة تامة بعيدة عن أبهة القضاء وكبرياء الحكام ، فهو يحكم بالظاهر والله يتولى السرائر ، ويصرح للناس بأنه لم يؤت علم الغيب ، فقد يختصم إليه رجلان منهم ، فلعل أحدهما ألحن بحجته من أخيه ، فمن قضى له بشيء ليس حقاً له فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليدعها .

وقد علم أصحابه أصول الدعوى ، وأساليب التظلم والشكوى ، فعلى من ادعى ان يبين الحق بالدليل ، وعلى خصمه ان أنكر أن يحلف اليمين « البينة على من ادعى واليمين على من أنكر » .

أما الحكم الصادر عنه ﷺ فمقترن بالتنفيذ الفوري فلا إستئناف ولا تمييز قال الله تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾[20] .

لم يكن السجن معروفاً في عهد الرسول ولا في عهد أبي بكر ، بل كان المتهم يحبس في المسجد ويلازمه خصمه أو نائب عن خصمه لئلا يحاول الفرار ، وغاية الرسول ﷺ منع المتهم من الاختلاط بغيره .

يقول الطوسي فيما يعود الى البيِّنة واليمين :

« وإن أقام المدعي البينة ، فذكر المدَّعَى عليه : أنه قد خرج إليه من حقه ؛ كان عليه البينة بأنه قد وفّاه الحق . فإن لم تكن له بيّنة وطالب صاحب البينة بأن يحلف بأنه : ما استوفى ذلك الحق منه ؛ كان له ذلك . فإن امتنع من ذلك خصمه ، وأبى أن يحلف أنه : لم يأخذ حقه ، بطل حقُّه .

وإن قال المدَّعى : ليس معي بينة ، وطلب من خصمه اليمين فحلّفه الحاكم ثم أقام بعد ذلك البيّنة على صحة ما كان يدعيه ، لم يُلْتفت إلى بينته ، وأُبطلت .

وإن اعترف المنكر بعد يمينه بالله بدعوى خصمه عليه ، وندم على إنكاره لزمه الحق والخروج منه إلى خصمه . فإن لم يخرج إليه منه ، كان له حبسه فإن ذكر إعساراً ، كشف عن حاله : فإن كان على ما قال : أُنْظِر ولم يُحْبَس وإن لم يكن كذلك ، أُلزِم الخروج إلى خصمه من حقه .

---

(18) مسند الامام أحمد ج 4 ص 409 .

(19) صحيح مسلم وقال النووي : هذا أصل عظيم في اجتناب الولاية .

(20) سورة النساء الآية 75 .

ومتى بدأ الخصم باليمين من غير أن يحلفه الحاكم ، لم يبرئه ذلك من الدَّعوى ، وكان متكلِّفاً »[21] .

وإن أصاب المتهم حداً من حدود الله أقيم عليه فوراً دون ريث ولا إبطاء حتى عهد عمر ابن الخطاب أصبح السجن حبساً للمجرمين .

في عهد أبي بكر أسند القضاء الى عمر بن الخطاب فظل عامين كاملين لا يأتيه خصمان لما عرف الناس عنه من الشدة والحزم . ولما تولى عمر الخلافة وجد أنه بحاجة إلى تعيين بعض القضاة في الولايات والأمصار ليفصلوا بين الناس فيما يحصل لهم من مشاكل وقضايا ، وربما ازدادت الحاجة الى القضاة تبعاً لازدياد الاختلاط بين العرب وسكان البلاد المفتوحة ، فولّى شريحاً الكندي قضاء الكوفة ، وعثمان بن قيس بن أبي العاص قضاء مصر ، وأبا موسى الأشعري قضاء البصرة .

وإلى أبي موسى الأشعري كتب رسالة مشهورة تتضمن كل شروط القضاء وأحكامه . جاء في الرسالة :

« واس بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك حتى لا يطمع شريف في حَيْفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك ، البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرّم حلالاً ، ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه عقلك ، وهديت فيه لرشدك ان ترجع الى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل »[22] .

قال ابن قيم الجوزية معلقاً على هذه الرسالة :

« وهذا كتاب جليل القدر تلقاه العلماء بالقبول ، وبنوا عليه أصول الحكم والشهادة والحاكم »[23] .

وأخيراً إليك النص الدستوري الذي أملاه علي أمير المؤمنين ربيب الرسول المفضل وتلميذ القرآن الأول ، كرم الله وجهه على عامله على مصر مالك الأشتر .

يحتوي هذا النص على قواعد وأصول مهمة تتعلق بالقضاء والقضاة ولا ريب أنه يطابق القواعد القانونية والحقوقية الحديثة حسب رأي جهابذة التشريع وأساطين علم الحقوق من أبناء عصرنا اليوم .

يقول الكتاب :

« ثم اعلَمْ يا مالكُ ، إني قد وجهتكَ الى بلاد قد جَرَتْ عليها دُوَلٌ قبلَكَ من عدل وجور . وأنَّ الناس ينظرون من أُمورِكَ في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قَبْلَكَ ،

---

(21) راجع النهاية للطوسي ص 340 .

(22) البيان والتبيين ج 2 ص 23 وأحكام الماوردي ص 68 .

(23) أعلام الموقعين ج 1 ص 98 .

ويقـولون فيـكَ ما كنتَ تقـولُ فيهم ، وإنما يُسْتَـدلُّ على الصـالحين بمـا يُجْـري اللهُ عـلى أَلْسُنِ عباده ، فليَكُنْ أحبَّ الذخائر إليك ذخيرةُ العمل الصالح ، فامْلِكْ هَوَاكَ ، وشُحَّ بنفسِكَ عمَّا لا يَحِلُّ لكَ ، فإنَّ الشُحَّ بالنفسِ الانصافَ منها ، فيما أحَبَّتْ أو كرِهَتْ .

وأَشْعِـرْ قَلْبَكَ الـرحمةَ للرعيَّـة ، والمحبـةَ لهم واللُّـطْفَ بهم ، ولا تكونَنَّ سَبُعـاً ضـارِيـاً تَغْتَنم أَكْلَهُمْ ؛ فإنهم صنفان : إما أَخٌ في الدين أو نظيرٌ لك في الخلق ! تَفْرطُ[24] منهم الزَّلَلَ ، وتَعْرُضُ لهم العِلَلْ ، ويُؤْتى على أيْديهم في العَمْدِ والخطأ ، فاعطهم من عَفْوِكَ وصَفْحِكَ مثلَ الـذي تحبُّ وتَرْضى أن يُعْـطيكَ الله من عَفْـوه وصَفحه ، فـإنـك فوقهم ، ووليُّ الأمـر عليكَ فوقك ، والله فوقَ من وَلَّاكَ ! وقد استَكْفَاكَ أمرَهُمْ ، وابتلاكَ بهم ، ولا تنصبنَّ نفسَكَ لحرب الله ، فـإنه لا يَـدَ لَكَ بنقمتـه ، ولا غنى بك عنْ عَفْـوِهِ ورحمته . ولا تنـدَمَنَّ عـلى عَفْـوٍ ، لا تَبْجَحنَّ[25] بعقوبةٍ ، ولا تسرعَنَّ إلى بَادَرَةٍ[26] وجدت منها مَنْدُوحةً[27] ، ولا تقولَنَّ إنِّـي مُؤَمَّـر آمُرُ فأُطَاعُ ، فإن ذلـك إدغالٌ[28] في القلب ، وَمَنْهَكَـةٌ للدِّين[29] ، وتَقَـرُّبٌ من الغِيَرْ[30] ، وإذا حدث لك ما أنتَ فيه من سُلْطَانِكَ أُبَهَةً[31] أو مُخَيْلَةً[32] ، فانظر إلى عِـظَمِ مُلْكِ الله فَوْقَـكَ ، وقُدْرَته منكَ على مـا لا تقدر عليـه من نفسك فـإن ذلك يـطامن[33] إليك من إطمـاحِكَ[34] ، ويكُفُّ عنك من غَرْبكَ[35] ، ويُفي إلَيْكَ بما عَزَبَ عَنْكَ من عَقْلِكَ ! » .

فانظر هذه الاحكام والشمول الذي وضع فيه شخصية الحاكم وما يجب أن يكون عليـه من العدالة النفسية ، والثقافة الحقوقية حتى يتمكن من إقامة العدل بين المجتمعات .

إنه تقنين يسير مع كل عصر ، ويجب أن يضطلع به أي حاكم نوجز أبرز قواعده باختصار .

- لا مخـرج للحاكم ، لاستـظهار الحق ليعمـل له ويقف عنـده ، من لزوم وقـوفه عـلى تـطورات التاريخ ، في إقليمه ، وما كـان يجري عليـه من تشريعـات وتقاليـد وأعراف ، وذلـك ليمكنه الافادة منها ، في تيسير أموره وتنفيذ أوامره ، وليستبين من خلالها من تسرب منه الجور فيعمـل على منعه ، وما يصلح منها العباد فيرسخه ويشيد عليه .
- العدالة في التشريع الاسـلامي هي الهدف والغـاية . والاسـلام أوجب على الحـاكم الاسلامي

(24) تفرط منهم الزلل : يسبق منهم الخطأ .

(25) بجح بالشيء : فرح به .

(26) البادرة : ما ظهر من حدة الغضب .

(27) مندوحة : متسعاً ومخرجاً .

(28) ادغال : إفساد .

(29) أنهكهض : أتعبه وأضعفه .

(30) الغير : حادثات الزمان .

(31) الابهة : الكبرياء والعظمة .

(32) مخيلة : العجب والخيلاء

(33) طامن : خفض .

(34) الطماح : النشوز .

(35) الغرب : الحدة

انتهاج سبيلها ، لايصال كل ذي حق حقه ، بلا أي امتيازات عرقية ، أو اجتماعية . فإيقاف المرء عند حدوده المشروعة ، وإيصاله الى حقوقه ، من أهم العوامل الرئيسة ، لبقاء تماسك الهيكل الاجتماعي . لذلك ركز عليه السلام على عامله بأن يملك هواه ويشح بنفسه وأوقفه على أن الانتصاف للنفس ميزان العدل .

وأراد من عامله ، الأشتر ، أن يحيط عدله بعوامل اللطف والرحمة والمحبة فعليه إذن أن يفضي عن بوادر الزلل التي تملك الانسان أحياناً فتنزل به القدم ويصعب عليه الانفلات من إسارها . قال رسول الله ﷺ « لا يكون المسلم مسلماً حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه ، ويكره منها ما يكره منه ولعمري هذا هو المعنى الدقيق للعدالة النفسية ، وتلك هي القواعد المتينة للعدالة الاجتماعية » .

ـ حماية الفرد من عسف الحاكم

ولا تكونن سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم ، فإنهم صنفان : إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق .

ولا غرابة أن أوصى بهذه الحكمة وهو تلميذ القرآن الأول ، الحكمة البالغة في اعتدال الساسة والمرتشفة من قوله تعالى :

﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم . ان تبروهم وتقسطوا إليهم ان الله يحب المقسطين ﴾(36) .

هذه اولى الوثائق الدستورية لحماية الفرد والمجتمع دونها الاسلام وأهملتها المجتمعات المعاصرة على الأخص المجتمعات الغربية . حتى وقعت أبشع أنواع الجرائم ضد الجنس البشري إشباعاً للنزوات العنصرية ، بعد انتهائها قام المجلس الاقتصادي الاجتماعي للامم المتحدة بتشكيل لجنة خاصة ، باسم لجنة حقوق الانسان وعهد إليها بمهمة دراسة موضوع تدوين حقوق الانسان عام 1946 . وكانت ثمرة جهودها إعلاناً عالمياً أقرته الجمعية العامة للأمم المتحدة لحقوق الانسان(37) كحق الحياة وحق الحرية ، وحق المساواة ، وحق التمليك . . . الخ غير ذلك من الحقوق .

وليس ما ذكرنا من العهد الدستوري لعلي أمير المؤمنين (ع) هو الوحيد في التشريع الاسلامي ، بل تلك الحقوق يزخر بها الشرع الاسلامي وهي من الأوليات التي يجب على المسلم المؤمن تطبيقها ، وهي قرارات ملزمة يقع كل من تجاوزها تحت طائلة المسؤولية . على عكس ما نشاهد ونسمع في عصرنا الحاضر من قرارات وتشريعات تفتقد صفة الالزام والعقاب وبالتالي هي عديمة الجدوى .

من هنا تميز التشريع الاسلامي بتلك الخاصة عن جميع المبادىء الأرضية ، بل والسماوية ، لأنه سوّى بين الروح والجسد مساواة دقيقة فلاءم كل عصر وساير جميع الحضارات الانسانية ،

---

(36) الممتحنة الآية 8 .

(37) كان ذلك في 10 / 12 / 1948 ووقع الاعلان في ثلاثين مادة .

ودفع الناس للتنافس على الفضيلة ـ إن أكرمكم عند الله اتقاكم ـ هذا الشعار يحمل للناس عامة شعلة من النور لا تخمد ولا تنطفىء عبر الأجيال والأزمان .

والاسلام ألغى جميع الامتيازات الشخصية بين جميع أفراد الأسرة البشرية أياً كانت صفتهم ، واعتبر الخلق جميعاً كأسنان المشط ، وهم قسمان : إما أخ في الدين أو نظير في الخلق .

ـ **المساواة بين الحاكم والمحكوم**

الجميع في التشريع الاسلامي متساوون ، الحاكم والمحكوم ، أمام القضاء ، فلا فرق بين رئيس ومرؤوس ، ولا بين جنس ولون ، أو غني وفقير ، ولا يختلف الحكم بالنسبة للجاني أياً كانت صفته ، كما على الحاكم أن يمنح الناس من صفحه وعفوه فلا يشعر أنه فوقهم أو آمرهم ، لأن الله قد ولاّه عليهم وهو فوق الجميع ، فوق الراعي وفوق الرعية .

كل ذلك حتى لا يشعر الحاكم من إفساد في قلبه وضعف في دينه وزوال لحكمه . وإذا غرب هذا عن باله فلينظر إلى عظم ملك الله فوقه وقدرته منه على ما لا يقدر عليه من نفسه . عندها لا ريب أنه يخفف من حدته ويفيء إليه بما عزب عنه من عقله .

وإذا نظرنا الى التقنين الوضعي لا نجد من سبيل للمقارنة بينه وبين التشريع الاسلامي ، وإن وجدنا فيه ما يقبله العقل السليم ، فقد اقتبس منه كل ما قاله في الحرية والمساواة والعدالة .

فقبل الثورة الفرنسية كان القانون الجنائي يميز بين الحاكم والمحكوم فللنبلاء امتياز وللشرفاء امتياز الى غير ذلك من التفاوت الطبقي ، حيث كان يختلف الحكم حسب منزلة الجاني الاجتماعية . والتاريخ اليوم يعيد نفسه . حتى جاءت الثورة الفرنسية وجعلت المساواة ـ نظرياً ـ أساساً للحكم وبعد الجهود المضنية التي بذلتها لم تتمكن من التخلص من أداء الامتيازات القديمة ، كما هي حالنا نحن اليوم . لأنها :

ظلت تقر بامتيازات خاصة لرئيس الدولة أو الملك . فالرئيس هو السلطة العليا ، فيجب أن لا يخضع لسلطة أدنى منه . فلا يصح إدانته إلا بالخيانة العظمى .

ثم إن كل ما ذكر من قوانين يطبق عليه ضمن دولته وإقليمه وليس في دولة أخرى واقليم آخر . فالقوانين الوضعية تمنع محاكمته وتجريمه فيها ، على افتراض ارتكابه جريمة تقتضيها . إلى الكثير من الامتيازات الأخرى . كإعفاء حاشيته من الخضوع للمحاكمة في اقليم أجنبي وما يحملونه من أموال منقولة ، وكإعفائه هو من الرسوم والضرائب . كل ذلك في ظل الحصانة التي تحميه .

هذا هو التقنين الوصفي أما المساواة وأمام غيرها من المنجزات التي حققها الفكر الانساني على صعيد الحضارة .

وهذا هو الاسلام الذي ألغى جميع الامتيازات ، بين جميع أفراد الأسرة البشرية ، أياً كانت صفتهم معتبراً الخلق كلهم كأسنان المشط ، فلا فضل لانسان على إنسان إلا بالتقوى . وهذا القدر يكفي للتدليل على ما حققه التشريع الاسلامي من السبق في مضمار التقنين الحضاري المتطور .

لم يكن هنـاك بناء مخصص للحـاكم في عهد عمـر ، فقد كـان القـاضي يحكم في بيتـه ثم أضحى يعقد جلساته في المسجد ، وكان يقوم بنفسـه بتنفيذ الأحكـام على الفـور أسوة بـالرسـول الكريم ، ومما يبدو أنه لم يكن هناك سجل لتدوين الأحكام وكاتب يسجلها .

ظل القضاء مستقلاً لا يتأثر بالأحزاب ولا بميول الدولة الحاكمة حتى كـان العصر العبـاسي فأصبح العلماء يتورعون عن استلام منصب القضاء لئلا يغضبوا الله برضى الخلفاء . وهـل من السهل أن يبيع الحاكم آخرته بدنياه !

وما استحدثه العباسيون منصب « قاضي القضاة » وهو بمثابة وزيـر العـدل اليوم يقيم في حاضرة الخليفة ، أما الأقاليم المجاورة فكان يعين من ينوب عنه .

كـان أول قاض للقضـاة أبا يـوسف مؤلف كتاب الخـراج ، وصاحب الامـام أبي جنيفة . وقـاضي الرشيـد المشهور . ويعـزى إليه أنـه أول من استحدث زيـاً خاصـاً للعلماء وزيـاً آخـر لـ للقضاة . وقد أحاطهم بكثير من مـظاهر الاجـلال والتكريم . أمـا رواتب هؤلاء القضاة فكـانت تختلف باختلاف الزمان والبيئات .

وفي العصر العباسي كان القضاء على نوعين قضاء خاص ، وقضاء عام ، فالقضاء الخاصر يقتصر على النـظر فيما تضمنـه ، كالحكم بـالاقرار دون البينـة أو الديـون دون قضايـا الزواج ، أو مقدار من المـــال .

وأمـا القضاء العـام فمن يتولاه كـان يفصل في المنـازعـات ، ويستـوفي الحقـوق ويثبت الولاية لمن كان ممنوعاً من التصرف ، وينظر في الأوقاف ، وينفذ الوصايا عـلى شروط المـوصي فيـها أباحـه الشرع ، ويقيم الحـدود على مستحقيهـا وينظر في مصـالح عمله ، من الكف عن التعدي في الطرقات ، ويتصفح شهوده وأمناءه ، ويختار النائبين عنه من خلفائه(*)

ومما يلاحظ أن معـظم كتب الفقه تعقـد بابـا « آداب القضاء ومـا يجب أن يكون عليـه القاضي من أحوال » .

خلاصته : أن القاضي لا يقضي وهو غضبان ، ولا جائع ولا عطشـان ، كما لا يقضي إذا غلبه النعاس ، أو أقلقه المرض ، ولا مشغول القلب بتجارة ولا خـوف ولا حزن ولا فكـر في شيء من الأشياء ، « لأنه يحتـاج الى الفكر ، وهـذه الأعراض تمنـع صحة الفكـر ، فتخل بالقضاء »(**) .

(*) أحكام أبي يعلى ص 49 -50 .

(**) راجع النهاية للطوسي ص 338 وما بعدها .

صفات الحاكم في الاسلام

إن قيادة الأمة بما لها من أهمية بالغة وما يترتب عليها من سعادة الناس وشقائهم ، تقتضي وجود سلسلة من الشروط والصفات في الحاكم الاسلامي . وهذه الشروط لها ضرورة حتمية ، إذ لولاها لانحرفت القيادة عن طريق الحق وانهارت الأمة انهياراً كاملاً .

ولقد فطن الاسلام الى هذا الأمر الخطير ، فاشترط وجود صفات معينة في الحاكم الاسلامي ، وأكد على ضرورتها عند انتخاب الحاكم أو الرئيس . وهذه أهم تلك الصفات نوجزها فيما يلي :

أ ـ الإيمان بالله

على الحاكم الاسلامي أن يعتقد بالاسلام عقيدة ونظاماً وخلقاً اعتقاداً قلبياً كما في القرآن الكريم والسنة الشريفة . فالعقيدة بالله تعالى وبشرائعه عز وجل من المبادىء الأولية التي يجب أن يتحلى بها الحاكم في الاسلام . فلا يحق للكافر أن يسود المؤمنين ، لأن ذلك يكون من قبيل تسويد من لا كفاءة له ولا قدرة على صاحب الكفاءة العالية والقدرة التامة ، قال تعالى في كتابه العزيز :

﴿ ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ﴾(40) وهل أقوى من سبيل الولاية والحكم على المؤمنين ؟!

ب ـ الكفاءة وحسن الولاية

إن صلاحية الحاكم للحكم والادارة منوطة بقدرته على القيام بلوازم الخلافة وأعباء الولاية . فالكفاءة الادارية وحسن الولاية شرط أساسي لاستلام سدة الرئاسة . والتاريخ يفيدنا بأن من تسلم الخلافة من غير القادرين على الادارة وغير الأكفاء لها ، جر على الأمة الاسلامية وغير الاسلامية المآسي المحزنة والويلات المدمرة .

ومن البداهة أن هذا الشرط له أهميته لكل من أراد تسلم أمور المسلمين ، ولا يحتاج الى إقامة دليل ، والرسول ﷺ أشار إلى أهمية هذه الصفة في الحاكم الاسلامي . قال ﷺ :

« لا تصلح الامامة إلا لرجل فيه ثلاث خصال : ورع يحجزه عن معاصي الله ، وحلم يملك به غضبه ، وحسن الولاية على من يلي حتى يكون كالوالد الرحيم »(41) . بالاضافة الى هذا اشترط الاسلام أن يكون الحاكم من أكفاء الموجودين في عصره على الإدارة وأقدر منهم جميعاً على حسن الولاية والقيادة .

وفي هذا المجال قال الامام علي بن أبي طالب (ع) :

« أيها الناس إن أحق الناس بهذا الأمر أقومهم وأعلمهم بأمر الله فإن شغب شاغب استعتب وإن أبى قوتل »(42) .

---

(40) النساء الآية 141 .

(41) راجع الكافي ج 1 ص 407 وفي رواية كالاب الرحيم .

(42) نهج البلاغة الخطبة 172 .

ولا يخفى أن هذه الصفة إذا ما تمثلت في الحاكم والرئيس استطاع أن يلم شعث المسلمين ، ويجمع شملهم ويدفعهم الى مدارج حضارة الامم الراقية التي ترفل بسعادة الهدوء والاستقرار وتنعم بالمدنية والازدهار . ولا ريب أن هذا لا يتأتى إلا بالسياسة الراشدة والعقل الراجح .

ج ـ العدالة :

من أهم المبادىء الأساسية في الاسلام إقامة العدل والقضاء على الظلم والجور ، وقد ارتبطت جميع مناحي التشريع الاسلامي بالعدل فلا يوجد ثمة حكم إلا ارتبط به ، فهو العلة في التشريع . لذلك نرى أن أهم ما يجب أن يتحلى به الحاكم الاسلامي هو أن يكون عادلاً منصفاً بعيداً عن كل جور أو ظلم ، مخلصاً لواجباته وفياً لمصالح الأمة . ولعل أوضح ما يدل على لزوم وجود مثل هذه الصفة في الحاكم وحث الناس على اعتبارها فيه عند اختياره وانتخابه هو قول الله عزّ وجل :

﴿ ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار ، ومالكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون ﴾[43] .

كما ورد في القرآن الكريم إلزام المسلمين بتطبيق العدل على واقع حياتهم إن في الحكم أو الشهادة أو القول .

العدل في الحكم : لقد ألزم القرآن الولاة أن يحكموا بالعدل ولا يتبعوا الهوى والاغراض ، بل لا بد أن يكون الحكم الصادر منهم مبعثه العدل والواقع .

قال تعالى : ﴿ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾[44] .

كما حث القرآن على العدل في القول فقال عزّ وجل : ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ﴾[45] .

وقد أمرنا الله أن لا نركن الى الظالمين ولا نقبل بولاية الفاسقين ولا نرضى بالانصياع لأوامرهم وتسليم مقدرات الأمة إليهم . قال تعالى : ﴿ ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار ، ومالكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون ﴾[46] .

وقال سبحانه : ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً ﴾[47] .

وفي هذا المجال قال رسول الله ﷺ « لا تصلح الامامة إلا لرجل فيه ثلاث خصال :

---

(43) هود الآية 113

(44) النساء الآية 58 .

(45) الانعام الآية 152

(46) هود الآية 113 .

(47) الكهف الآية 28 .

ورع يحجزه عن معاصي الله ، وحلم يملك به غضبه ، وحسن الولاية على من يلي حتى يكون لهم كالوالد الرحيم .

وقال علي عليه السلام : « وقد علمتم أنه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والاحكام وإمامة المسلمين :

1 ـ البخيل ، فتكون في أموالهم نهمته .

2 ـ ولا الجاهل ، فيضلهم بجهله .

3 ـ ولا الجافي ، فيقطعهم بجفائه .

4 ـ ولا الحائف للدول فيتخذ قوماً دون قوم .

5 ـ ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق ويقف بها دون المقاطع(48) .

6 ـ ولا المعطل للسنة فيهلك الأمة » .

فالعدالة في الحاكم المسلم شرط أساسي لأن الاسلام ، وهو دين الانسان يرى أن الحاكم المتربع على مسند القيادة العامة ، والآخذ بمقدرات الأمة الاسلامية ، والمتصرف في عامة شؤونها ، والمدبر لشتى أمورها في جميع مجالات الحياة لا بد أن يكون عادلاً في إدارته منصفاً في حكمه .

د ـ التفوق في الادارة والدراية السياسية

إن حسن الولاية والعدالة لا تكفي كما علمنا منطق الاسلام بل يشترط أن يكون الحاكم الاسلامي متفوقاً على غيره في الدراية السياسية فيكون صاحب بصيرة فذة وصدر رحب أوسع من غيره في الاطلاع على مصالح الأمة وأعرف أفرادها بأمورها وحاجاتها . كل ذلك لكي ينجح في إدارته فلا يغلب في رأيه ولا يخدع في حل أمور رعيته .

من أجل ذلك يتعين على الحاكم الأعلى للامة الاسلامية أن يكون صاحب مراس بحيث تبلغ رؤيته السياسية والاجتماعية درجة يستطيع معها أن يقود الأمة سياسياً واجتماعياً قيادة حكيمة فيدفع بالرعية في طريق التقدم ويجنبها عثرات الزمن ومحنه العديدة .

وعلى الحاكم أن يكون ملماً بالأوضاع السياسية عارفاً بما يجري على الساحة الدولية من تطورات لكي يحفظ أمته من كل ما يمكن أن يتوجه إليها من أخطار قال الامام جعفر الصادق (ع) المتفوق في شتى العلوم والمعارف :

« العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس والعلم جُنَّة ، والصدق عز ، والجهل ذلٌّ والجود نُجْحٌ ، وبين المرء والحكمة نعمة العالم ، والجاهل شقي بينهما والله ولي من عرفه وعدو من تكلفه(49) .

إن سائس الأمة دون بصيرة بالأحوال والأوضاع المحيطة بها لا ريب أنه يجر إليها الويلات والمصائب كما حدث ويحدث في شتى الأزمان . قال الامام الصادق أيضاً عليه

---

(48) نهج البلاغة الخطبة 127 والمقاطع : يعني الحدود التي عينها لها .

(49) الكافي ج 1 ص 27 ومن تكلفه أي أظهر من معرفته ما ليس له .

السلام : « العامل على غير بصيرة كالسائر على غير طريق ، لا تزيده سرعة السير من الطريق إلا بعداً »(50) .

فتسلم قيادة الجماعة إلى من لا يعرف شؤون الادارة والسياسة معرفة كافية وشاملة كمن يعطي قيادة مركبة الى جاهل بقيادتها . لقد حث الاسلام على هذا الشرط وأكد عليه بدرجة كبيرة لأنه يبغي من وراء ذلك صيانة الأمة الاسلامية من التورط في المشاكل التي تضعف القادة والحكام وبالتالي تضعف أفراد الرعية . وبسبب هذا الضعف والجهل يمكن أن تقع الأمة فريسة للمؤامرات الأجنبية الشرسة وتصبح آلة طيعة بأيدي الأعداء الذين ينفذون أغراضهم ويحققون أغراضهم ومقاصدهم . وهذا أعظم وباء تصاب به الأمم والشعوب في تاريخ حياتها الاجتماعية والسياسية والحضارية .

هـ ـ معرفة القانون والعمل به اجتهاداً أو تقليداً

القرآن الكريم هو كتاب الله وهو الدستور الكامل للانسان ، والحكومة الاسلامية هي حكومة هذا الكتاب ، والحاكم الاسلامي يلزمه المعرفة الكاملة للقانون الالهي في جميع مجالات الحكم والإدارة ، وإذا لم يحصل هذا أصبحت الحكومة دكتاتورية استبدادية ينبع القانون فيها من إرادة الحاكم الشخصية . فالحاكم الاسلامي هو الفقيه العادل العارف بالقانون عن طريق الاجتهاد أو التقليد . قال الامام الحسين بن علي عليهما السلام « مجاري الأمور والأحكام على أيدي العلماء بالله والأمناء على حلاله وحرامه »(51) .

وقوله أيضاً (ع) :

« والله ما الامام إلا القائم بالقسط ، الحاكم بالكتاب الحابس نفسه على ذات الله »(52) .

ومما لا ريب فيه أن القيام بالقسط والحكم على تطبيق الكتاب (القرآن) لا يحصل إلا عن العلم بالقانون الاسلامي إجتهاداً ، أو تقليداً .

و ـ الأخلاق الانسانية العالية

لقد حث الاسلام ، كدين انساني ، على التحلي بالأخلاق الكريمة والعالية ، ودعا الى السلوك الحسن والمعاملة الطيبة مع جميع الناس ، الزوج مع زوجته ، والأخ مع أخيه والابن مع والديه والرجل مع أهله وأقاربه والجار مع جاره والمسلم مع غيره من الأخوان أصحاب الكتاب . والأمثلة كثيرة في القرآن الكريم . وقد وصف الله نبيه بالخلق العظيم . قال تعالى :

﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾(53) .

---

(50) المصدر السابق ص 42 .

(51) معالم الحكومة الاسلامية ج 2 ص 283 .

(52) المصدر نفسه ج 2 ص 283 .

(53) القلم الآية 4 .

وقال رسول الله ﷺ « إن أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً »(54) .

فالمؤمن هو صاحب الأخلاق الحسنة والخلق الحسن يساوي الايمان من حيث أهميته في الدين والدنيا وهي معادلة هامة وقويمة بلا ريب . وقال عليه السلام : « إن الخلق الحسن يميث الخطيئة كما تميث الشمس الجليد »(55) .

وقال عليه السلام مؤكداً على الأخلاق الفاضلة الحسنة :

« أفاضلكم أحسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون وتوطّأ رحالهم »(56) .

فالمؤمن لين الجانب يستوعب غيره من الناس بصدر رحب ووجه بشوش فلا يتأفف أو يتذمر . وفي ذلك وصف علي بن أبي طالب المؤمن فقال : « المؤمن مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف »(57) .

وأحاديث كثيرة قيلت بهذا الشأن تحث على الأخلاق العالية فالأحرى بالحاكم ، وهو المثل الأعلى لسائر الناس ، أن يبلغ الدرجة العليا منها .

كما نوه الاسلام لكل من أراد القضاء أو الرئاسة أن لا يطلبها بنفسه بل يلبي نداء الواجب إذا طلب منه ذلك . قال رسول الله ﷺ :

« إنا والله لا نولي هذا العمل (القضاء) أحداً سأله ، أو أحداً حرص عليه »(58) .

وعندما طلب عبد الله بن عباس من الامام علي (ع) أن يفوض إمارة البصرة والكوفة الى طلحة والزبير اللذين كانا يطلبان الرئاسة متعطشين لاستلامها . قال : « ويحك ان العراقين بهما الرجال والأموال ، ومتى تملكا رقاب الناس يستميلا السفيه بالطمع ، ويضر الضعيف بالبلاء ، ويقويا على القوي بالسلطان ، ولولا ما ظهر لي من حرصهما على الولاية لكان لي فيهما رأي »(59) .

الى غير ذلك من الأخلاق الفاضلة التي اشترطها الاسلام على الحاكم . فعليه أن يكون بعيداً عن أساليب الجبابرة الطغاة فلا يتخذ حاجباً مثلاً يحجب الرعية عنه . وقال رسول الله ﷺ :

« من ولاه الله شيئاً من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم احتجب

---

(54) الكافي ج 2 ص 99 .

(55) يميث : يذيب راجع الكافي ج 2 ص 100 والمجازات النبوية للشريف الرضي .

(56) الاكناف جمع الكنف بمعنى الجانب والناحية يقال رجل موطىء الأكناف : أي كريم وضياف وفراش وطيء : لا يؤذي جنب النائم . أراد ﷺ الذين جوانبهم وطيئة يتحكم منها من يصاحبهم ولا يتأذى . راجع الكافي ج 2 ص 102 .

(57) المصدر نفسه ص 102 .

(58) معالم الحكومة الاسلامية ج 2 ص 290 .

(59) الامامة والسياسة لابن قتيبة ج 1 ص 40 .

الله دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة »[60] .

وعلى الحاكم الاسلامي أن يكون عطوفاً مع الضعفاء والأيتام يشعر معهم ويلبي حاجاتهم ويعيش مشاكلهم .

قال الامام الصادق (ع) في التعريف بالامام : « يحقن الله به الدماء ، ويصلح به ذات البين ، ويلم به الشعث ويشعب به الصدع ، ويكسو به العاري ، ويشبع به الجائع ويؤمن به الخائف »[61] .

ويطول بنا المقال إذا نحن تتبعنا كل ما قيل من آداب القضاء ومن واجبات القاضي وقد اختصرها لنا الامام الطوسي في كتابه النهاية فقال في باب القضاء وما يجب أن يكون القاضي عليه من الأحوال :

« وينبغي أن لا يتعرض للقضاء أحد حتى يثق من نفسه بالقيام به . وليس يثق أحد بذلك من نفسه حتى يكون :

عاقلاً كاملاً ، عالماً بالكتاب وناسخه ومنسوخه ، وعامّه وخاصّه ، وندبه وإيجابه ، ومحكمه ومتشابهه ، عارفاً بالسنة وناسخها ومنسوخها ، عالماً باللغة ، ومضطلعاً بمعاني كلام العرب ، بصيراً بوجوه الإعراب ، ورعاً من محارم الله تعالى ، زاهداً في الدنيا ، متوفراً على الأعمال الصالحات ، مجتنباً للكبائر والسيئات ، شديد الحذر من الهوى ، حريصاً على التقوى فإذا كان بالصفات التي ذكرناها ؛ جاز له أن يتولى القضاء ، والفصل بين الناس »[62] .

ز ـ الحرية

دعا الاسلام الى الحرية ، وعمل على إلغاء الرق ، وقام بعمل جليل لم تعرفه النظم البشرية قبله ، تلك التي كانت ترى استعباد الانسان واسترقاقه لأخيه الانسان ؛ بحجة ثقافته الضعيفة ، أو لأنه يعيش في بيئة فقيرة ، أو أنه لا ينتسب لحزب معين ! قال تعالى :

﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ﴾[63] .

---

(60) جامع الاصول ج 4 ص 52 . أخرجه أبو داوود .

(61) الكافي ج 1 ص 314 .

(62) النهاية ص 337 .

(63) آل عمران الآية 64 .

الفصل الرابع

ديوان المظالم

ديوان المظالم

عرف الماوردي في أحكامه السلطانية ديوان المظالم وصاحبه وهدفه فقال : « ونظر المظالم هو قود المتظالمين إلى التناصف بالرهبة وزجر المتنازعين عن التجاحد بالهيبة ، فكان من شروط الناظر فيها ان يكون جليل القدر ، نافذ الأمر ، عظيم الهيبة ظاهر الصفة ، قليل الطمع ، كثير الورع ، لأنه يحتاج في نظره الى سطوة الحماة وثبت القضاة ، فيحتاج الى الجمع بين الفريقين وأن يكون بجلالة القدر نافذ الأمر في الجهتين »[64] .

يبدو لنا من خلال هذا التعريف أن ديوان المظالم هذا شبيه بمحاكم الإستئناف أو محاكم التمييز في بلادنا ، ولكنه يزيد على هذه المحاكم بقوة التنفيذ . فهو يصدر الأحكام ويقوم على تنفيذها . على أن مهمة ديوان المظالم لم تقف عند سلطان محاكم الإستئناف والنقض والتمييز كما أسلفنا وإنما يقوم بمهمة مجلس شورى الدولة الذي يفصل في المنازعات التي تنشب بين الأفراد والحكومة ، فينصف المظلوم من الظالم ويعطي كل ذي حق حقه مهما سما قدر المعتدي ولو كان محتمياً بسلطان الدولة مقرباً من الخليفة أو صاحب وظيفة عليا .

كان القضاء في الدولة الاسلامية يؤدي عمله في نطاق الكفاءة والعدالة على أفضل الوجوه وأتمها فتسير الحياة السوية في المجتمع سيراً سليماً بعيداً عن الغش والجشع والظلم . ولكن لا يخلو الأمر في بعض الأحيان من مشاكل كانت تستعصي أمام القضاء العادي ، مما يصعب التعامل معها بمقتضى سلطات المحتسب ، كأن يكون الخصم صاحب مركز سام ومقام كبير ، أو أن تكون الظلامة مرتبطة بالدولة والٍ أو عامل أو بيت مال ، عند ذلك لا بد من وجود هيئة لها هيبتها ورهبتها لكي تبت في الأمر المستعصي على الحل وتقضي في الخلاف الذي يحتاج الى حزم قوي وسلطة قادرة قوامها العدل ودستورها الحسم والشدة ولا ريب أن ديواناً هذه صفاته لا بد وأن يحتاج الى رئيس عادل حازم مهيب نافذ البصيرة بالأمور .

وبعد أن اتسعت رقعة الدولة الاسلامية ، وتشعبت أمورها ، وضعف وازع الضمير فيها ، وانحرفت بعض النفوس عن مسيرة الخير ، نشأت ظلامات تعدت طبيعة خطرها حدود القاضي ، فكان والحالة هذه لا بد من أصحاب الاختصاصات ذوي الهيبة والنظر في

---

(64) الأحكام السلطانية للماوردي ص 74 .

المظالم حتى ولو كان الخليفة نفسه هو الذي يجلس للنظر فيها . وكان أول من جلس مجلساً رسمياً للنظر في شكاوى المتظلمين عبد الملك بن مروان ، بيد أنه كان يحيل ما يشكل عليه الى قاضيه أبي إدريس الأزدي . فعبد الملك الآمر وأبو إدريس المباشر .

وبعد أن زادْ جور الولاة وتشكي الرعية منهم ،كان لهم الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز الذي رد مظالم بني أمية على أهلها وندب نفسه لانصاف المظلوم واحقاق الحق(65) . وأول خطبة خطبها حين آلت إليه الخلافة قال : « أوصيكم بتقوى الله فإنه لا يقبل غيرها ولا يرحم إلا أهلها وقد كان قوم من الولاة منعوا الحق حتى اشتري منهم شراء ، وبذلوا الباطل حتى افتدي منهم فداء ، والله لولا سنة من الحق أميتَتْ فأحْيَيْتها ، وسنة من الباطل أحيَتْ فأمتُّها ما باليْتُ أن أعيش وقتاً واحداً ، أصلحوا آخرتكم تصلح لكم دنياكم إن امرءاً ليس بينه وبين آدم إلا الموت لمعوّق له في الموت »(66) .

ثم وضح لنا الماوردي الأسباب التي دعته إلى إقامة ديوان المظالم والتشدد في دفع ظلم الظالمين فقال :

« كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله أول من ندب نفسه للنظر في المظالم فردها وراعى السنن العادلة وأعادها ، ورد مظالم بني أمية على أهلها حتى قيل له وقد شدد عليهم فيها وأغلظ : إنا نخاف عليك من ردها العواقب ، فقال : كل يوم أتقيه وأخافه دون يوم القيامة لا وُقيتُه . . . ثم تابع : ثم جلس لها من خلفاء بني العباس جماعة ، فكان أول من جلس لها المهدي ثم الهادي ثم الرشيد ثم المأمون ، وآخر من جلس لها المهتدي حتى عادت الأملاك الى مستحقيها »(67) .

صفات صاحب ديوان المظالم

يتميز صاحب ديوان المظالم عن القاضي بفروق عديدة نلخصها بما يلي :

1 ـ يتميز ناظر المظالم بجلال هيبته وقوة تنفيذه وبعد نظره حتى يكف الخصوم عن التجاحد والتغالب والتجاذب .
2 ـ لا يتقيد ناظر المظالم بصيغ الوجوب وإنما يخرج إلى سعة الجواز بعيداً عن القيود التي يلتزم بها القاضي فتكون حركته أسرع وحكمه أنفذ .
3 ـ إذا وجد صاحب المظالم بأن أمامه عقدة مستحكمة الحل ، لمراوغة الباغي ومخادعته ، فقد يعمد الى الارهاب وغايته من ذلك إظهار الحق وإنصاف المظلوم ، وهو أمر لا يتأتى للقضاة بحكم طبيعة مناصبهم .
4 ـ يقوم صاحب المظالم بتأديب الظالم وتهذيب المعتدي .
5 ـ لصاحب المظالم الحق بأن يأخذ فرصة من الوقت يقدرها بنفسه فيتأنى في النظر الى القضايا

(65) راجع الأحكام السلطانية لأبي يعلي ص 59 .
(66) الأحكام السحطانية للماوردي ص 76 .
(67) المصدر نفسه ص 74 .

التي تعرض عليه ملماً ومستقصياً جميع أطراف الدعوى ولا يحق لأي من الخصمين الطلب إليه لاصدار حكم سريع .

6 ـ يحق لصاحب المظالم رد الخصمين الى وسطاء لفض الخصومات والفصل في أي تنازع عن طريق الصلح بالتراضي مهما تمادى طرف واعتدل الآخر ، وهذا أمر ليس من صلاحيات القاضي إلا إذا رضي الخصمين بهذا التصرف .

7 ـ له الحق إذا ما اشتد التجاذب بين الخصمين ، بأن يلزم من يشاء منهما بالكفالة فيما يسوغ فيه ذلك ، حتى ينقاد طرفا النزاع الى التناصف ويرتدا عن التكاذب .

8 ـ كما له الحق في سماع شهود مستورين ، أي الذين لا يقفون أمام القضاء ، من يشاء ومن جميع الطبقات وذلك حتى يستبين له الحق من الباطل ، وهو ما يخرج عن عرف القضاة في عصرنا اليوم .

9 ـ يجوز لصاحب المظالم أن يستكثر من الشهود ما شاء له ، ليتبدد كل ارتياب ويزول كل شك في شأن القضايا التي ينظرها ، كما يحق له أن يتصرف مع الشهود الذين يرتاب في شهادتهم حسبما يراه مناسباً .

10 ـ يجوز له أن يستدعي الشهود قبل أن يدلي المدعي ببينته ، وأن يسألهم عما لديهم من معلومات عن تنازع الخصوم ، بينما يبدأ القضاء بأن يكون المدعي صاحب القول الأول في ادعائه ، يقول ببينته إذا كانت لديه ثم يأتي دور الشهود .

هذه الفروق الظاهرة بين سلطات صاحب المظالم وسلطات القاضي تظهر لنا بوضوح حرية الحركة التي يتمتع بها صاحب المظالم دون القاضي حتى يستطيع أن يكشف الحق ويسترده من الظالم إلى المظلوم فيحقق بذلك عدالة القانون ويمكن المجتمع من العيش الهادىء المطمئن في ظل الدولة الاسلامية بعيداً عن جور الظالمين وظلم الحاكمين وطغيان الولاة والنافذين .

هيئة ديوان المظالم

لمجلس المظالم هيأة حاكمة وهيكل ثابت ويوم معروف ، ولا يتم انعقاده ويستكمل أسباب شرعيته إلا بحضور أعضائه وهم خمسة أصناف من الحكم والرعية .

أولاً : الحماة والأعوان الذين لديهم القدرة للقبض على المذنب إذا ثبتت إدانته وحاول الفرار من وجه القضاء ، أو إذا حاول العبث واللجوء الى القوة .

ثانياً : القضاة والحكام وهم بمثابة مستشارين لصاحب المظالم يجتمعون إليه قبل أن ينظر أمام المجلس من قضايا لمعرفتهم بأحوال الخصوم ولاستلام ما يثبت عندهم من الحقوق .

ثالثاً : الفقهاء ليرجع اليهم فيما أشكل عليه ويسألهم عما اشتبه لديه من أمور عالقة .

رابعاً : الكتاب الذين يسجلون ما يجري بين الخصوم ويدونون ما لهم من الحقوق وما عليهم .

خامساً : الشهود الذين يشهدهم صاحب المظالم على ما أوجبه من حق وما أصدره من أحكام .

أعمال والي المظالم والحالات التي ينظر فيها

قسم رجال الأحكام والفقهاء اختصاص ديوان المظالم الى قسمين **ثلاثة** اختصاصات منها يقوم بها والي المظالم تلقائياً دون أن يلجأ إليه متظلم **والسبعة** الباقية ينظر فيها بعد أن يتقدم المتظلم بظلامته الى الديوان . فأما الثلاثة التي يقوم بها تلقائياً وبدون طلب فهي :

أ ـ تعدي الولاة على الرعية

على صاحب المظالم أن يتتبع سيرة الولاة ليكتشف أحوالها إن أحسنوا أم ظلموا . فإن كانوا من العادلين شكرهم وشجعهم ، وإن ظلموا قولهم وأرشدهم أو استبدل بهم غيرهم ويكون بذلك قد طبق مبدأ الثواب والعقاب .

ب ـ جباية العمال

على صاحب المظالم النظر في جور العمال فيما يجبون من أموال فإن كانوا يجورون على الناس في طريقة التحصيل فعليه أن يراجع القوانين حسبما هي مثبتة في الدواوين فيحمل العمال عليها والالتزام بها فإن كانوا قد رفعوه إلى بيت المال رده الى من حصل منهم ، وإن كانوا قد جبوه لأنفسهم استرجعه إلى أصحابه .

ومما يروى في هذا المجال أنه قد رفع الى الخليفة المهدي 7750 م ـ 785 م مظلمة من أهل السواد في شأن الخراج الذي كان حكام بني أمية قد أوقعوا ظلماً على هؤلاء من خلال تحصيلهم . فأمر المهدي بأن تسقط الزيادة المشكو منها عن الناس للحال ، قائلا : « معاذ الله أن ألزم الناس ظلما تقدم العمل به أو تأخر . فقال الحسن بن مخلد : إن أسقط أمير المؤمنين هذا ذهب من أموال السلطان في السنة اثنا عشر ألف درهم ، فقال المهدي : عليَّ أن أقرر حقاً وأزيل ظلماً وإن أجحف بيت المال »[68] .

ج ـ مراقبة كتاب الدواوين

لأنهم أمناء الرعية فيما يستوفونه من الأموال . على والي المظالم أن يراقب أحوال هؤلاء الكتاب وما وكل إليهم من أمور وذلك ليطمئن الى حسن سير الأمور على نمط سليم من الدقة والأمانة . وهو مطلق الصلاحيات في مكافاة الأمين وقصاص المنحرف .

قالوا : إن الخليفة العباسي المنصور 754 م ـ 775 م بلغه أن جماعة من كتاب دواوينه زوروا في دفاتر التحصيل وغيروا فيها ، فأمر بإحضارهم ، وبعد التحقيق أدبهم وقاصصهم بذنبهم . فقال فتى منهم وهو يضرب معترفا بذنبه :

أطال الله عمرك في صلاح	وعز يا أمير المؤمنينا
بعفوك نستجير فإن تجرنا	فإنك عصمة للعالمينا
ونحن الكاتبون وقد أسأنا	فهبنا للكرام الكاتبينا

عندها أمر المنصور بإطلاق سراحهم وأحسن الى الفتى بعد أن وصله لاعترافه وندمه على خطأ ارتكبته جماعته .

---

(68) معالم الحضارة الاسلامية للدكتور مصطفى الشكعة ص 100 و12 ألف ألف درهم يساوي 12 مليونا

وأما المظالم التي ينظر فيها والي المظالم بناء على تظلم متظلم فتنحصر في سبعة اختصاصات :

أ ـ تظلم المسترزقة من نقص أرزاقهم أو تأخرها عنهم .
عندما يتظلم المسترزقة من إجحاف النظر بهم يأمر والي المظالم برفع الظلم عنهم وإجراء الأمور على طبيعتها .

ب ـ رد الغصوب الى أصحابها سواء كان المغتصب الدولة أو الأفراد وذلك متى ثبت لصاحب المظالم كافة القرائن والوثائق .

ج ـ الإشراف على الأوقاف العامة والخاصة وإجرائها على شروط واقفيها .

د ـ تنفيذ الأحكام التي عجز القضاة عن إنفاذها وتطبيقها على المحكوم عليه مهما علا قدره وقويت يده ، فلا يد أقوى من يد المظالم ولا أمر أنفذ من أمره .

هـ ـ النظر فيما عجز عنه عمال الحسبة في المصالح العامة ، كالمجاهرة بمنكر ضعفوا عن دفعه ، والتعدي على حق لم يقدروا على رده .

و ـ مراعاة العبادات الظاهرة كالحج والجهاد والأعياد . . . من إخلال بشروطها وتقصير فيها .

ز ـ النظر بين المتخاصمين والحكم بين المتنازعين فلا يسوغ لوالي المظالم أن يحكم بينهم إلا بموجب الحق ومقتضاه . وربما اشتبه حكم المظالم على الناظرين فيها فيجورون في أحكامها ، ويخرجون إلى الحد الذي لا يسوغ فيها(69) .

وقد كانت هيئة محكمة المظالم تنعقد في المسجد أول الأمر ، وكان يرأسها الخليفة أو الوالي أو من ينوب عنه الذي يتحرى في اختياره الكثير من الهيبة والعلم والفطنة والقدرة والحزم .

وقد حرص بعض الخلفاء العباسيين على هيبة ديوان المظالم فبنى المهتدي 859 م ـ 870 م قبة لها أربعة أبواب كان يجلس فيها ويستقبل العامة والخاصة وسماها قبة المظالم . ولكن نظام المظالم لم يستقر على حالة واحدة .

فمن طريف الأمر أن « السيدة » أم الخليفة الموفق استطاعت أن تعين قرمانتها « ثومال » صاحبة المظالم . وباشرت هذه عملها في الرصافة وجلست تنظر في رقاع الناس كل جمعة ، وكان يحضر مجلسها القضاة والأعيان وتبرز التواقيع وعليها خطها(70) .

هذا ونشير هنا إلى انتقاد بعض المستشرقين الظالم لديوان المظالم (71) كالمستشرق « جرون باوم » الذي وجه انتقاداً عاجلاً وخاطئاً فعزا القصور إلى الشريعة الاسلامية لأن القاضي في نظره ملتزم بأن يحكم في القضية فوراً فيصدر الأحكام الفورية دون روية .

إننا نعجب لرأي هذا المستشرق المسكين الذي لم يفهم من العربية الا القليل ولا من

---

(69) راجع الأحكام السلطانية لأبي يعلى 76 -79 .

(70) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص 253 .

(71) راجع الحضارة الاسلامية لجوستاف جرون باوم ص 212 وما بعدها .

أحكام الشريعة الاسلامية إلا الأقل .

نذكر هذا المستشرق وأمثاله أن الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة الذين تبعوهم بصدق وأمانة فقد دققوا وترووا واستشاروا الفقهاء قبل اصدار الحكم واستكملوا كل ما يجب استكماله من قرائن ووثائق دالة . قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قضية رفعت إليه :

« ادعوا لي علياً ، وادعوا لي زيداً فكان يستشيرهما ثم يفصل بما اتفقوا عليه وكانت القضية ترفع إليه فربما تأمل في ذلك شهراً ويستشير أصحابه »(72) .

إن القضاء والمظالم والحسبة ثلاثة عناوين هيأت للمسلمين في فترات حكم المصلحين من الخلفاء حياة سعيدة مترعة بالطمأنينة والأمان ، وأن الاصلاح في أي مجتمع من المجتمعات تطبيق وتنفيذ قبل أن يكون حبراً في سطور والنصوص القانونية التي توصل اليها الفكر المتحضر فيها يعود الى الحرية والديمقراطية والمساواة والعدالة الاجتماعية التي تهيىء للأمة كل أسباب الأمن والرخاء والسعادة مدونة هي في الدستور ولكن . بقيت تنتظر من يتبنى تنفيذها ويقوم على تطبيقها بكل تجرد وإخلاص . وبعد أن عالجنا القضاء والمظالم نأتي إلى الحسبة .

---

(72) أنظر فجر الاسلام لأحمد أمين ص 239 .

الفصل الخامس

الحسبة

الحسبة : صورة من صور القضاء في الاسلام وهي « أمر بالمعروف إذا ظهر تركه ، ونهي عن النكر إذا ظهر فعله » . يقوم المحتسب بهذه الوظيفة فرضاً متعيناً عليه لا نافلة يتطوع بها متى شاء ، فليس له أن يتشاغل عن هذه الوظيفة بغيرها ، وهو ما جور عليها براتب يقبضه من بيت المال[73] .

الحسبة والقضاء

وتقترب الحسبة من القضاء من جانبين :

الجانب الأول : جواز الاستعداء وفيها على المُستَعدَى عليه في حقوق الناس ، إذا تعلقت ببخس أو طفيف في الكيل والميزان ، أو غش أو تدليس في المبيعات والأسعار ، أو مطل في الدين وتسويف رغم القدرة على الأداء ، ففي هذا ضرب من النهي عن المنكر ، وتصد لإزالته من المجتمع الاسلامي القائم على المكارم والأخلاق والعدالة الاجتماعية .

والجانب الثاني : إن لكل من المحتسب والقاضي إلزام المدعى عليه الخروج من الحق الذي عليه ، لأن في تأخير الحقوق منكراً لا بد من إزالته .

والحسبة تقتصر على القضاء من جانب آخر . وتقصر في الدعاوى الخارجة عن ظواهر المنكرات ، كما في العقود والمعاملات ، وهي لا تتناول إلا الحقوق المعترف بها فليس من حق المحتسب أن يسمع بيّنة على إثبات حق ولا أن يحلّف يميناً على نفي حق ، بينما هذا يعد من واجبات القاضي إذ يحق له سماع البينات وتحليف الخصوم إن شاء .

وفي الحسبة تمييز عن القضاء ، فعلى المحتسب أن يتحلى بالشدة والرهبة وقوة الصراحة ، ولا نجد ذلك في القاضي ، ولذلك اشترطوا أن يكون المحتسب ذا رأي وصراحة وخشونة في الدين وعلم بظواهر المنكرات[74] .

وعلى هذا إذا جاز لوالي القضاء أن يحكم فإن والي الحسبة يأمر وينهر من غير أن يحكم . فتصبح الحسبة أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر[75] ولعل الرسول ﷺ هو أول المحتسبين

---

(73) أحكام الماوردي ص 231 .

(74) أحكام أبي يعلي ص 269 .

(75) أحكام أبي يعلى ص 268 .

فهو على وداعته ولطفه وايناسه ، كان شديداً في الحق ، لا يخاف في الله لومة لائم ، ولا يسكت عن منكر ، ولا يقصر لحظة في الدعوة الى المعروف(76) .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يجب أن لا يقصر عن حقوق الله وما حده من حدود بل يشملان بالحسبة حقوق البشر ، والحقوق المشتركة بين الله وعباده . فكما ينظر المحتسب في مراعاة الأحكام الشرعية ، ويسهر على إقامة الحدود ، على مستحقيها فإن سلطته تمتد إلى الاشراف على الأسواق ، فيتفقد اللحوم(77) والمآكل ، المطبوخات ، فيزيل ما برز من الحوانيت وعاق نظام المرور(78) ولم تبق الحسبة على حالها فهي مثل كل نظام تخضع للتطور تبعاً لتطور البيئات . ففي الأندلس كانت خطة في الحسبة سموها الاحتساب حيث كان لها نواب يطوفون في الأسواق لمعاقبة كل من يرتكب المخالفات ، وكانوا يستعينون بالشرطة من أجل التنفيذ فوراً(79) ومن مهماته :

مهام المحتسب

الأمر بأداء الصلاة في مواقيتها ، فيعاقب تارك الصلاة بالضرب أو الحبس ، كما يتعهد الأئمة والمؤذنين فمن فرط منهم في حقوق الامامة أو خرج عن الآذان المشروع ألزمه بالطريق الصحيح . ويقوم المحتسب على إتلاف المغشوش من الطعام والثياب ويراقب موازين السوقة ومكاييلهم .

كما له الحق في التدخل لضغط الأسعار ومنع التجار من الاستغلال والغلو في رفع الأسعار وجني الأرباح غير المشروعة . ويقوم المحتسب على منع الربا ولعب الميسر ومطاردة ممتهنين الصرافة .

وللمحتسب أن يفرض رحمة الانسان على ماشيته ودوابه ، وفي هذه الحال يقوم بعمل جمعيات الرفق بالحيوان .

وينظر والي الحسبة في مقاعد الأسواق ، فيقر منها ما لا ضرر فيه على المارة ، ويزيل ما يتضرر منه الناس .

كما يتدخل أيضاً في شؤون السفن والبحارة ، فإذا ما حملوها ما لا تسعه منعهم من ذلك خوفاً من الغرق ، وعند اشتداد الريح لا يسمح بالمسير وفي أسفار البحر الطويلة يهيء للنساء أمكنة خاصة تحفظ عليهن كل أسباب الحشمة والراحة عند قضاء حوائجهن .

وللمحتسب الحق في التدخل لصالح المستأجر إذا رفع المالك الأجرة بغير حق ، أو إذا بنى أحد أفراد الرعية داراً مرتفعاً يضايق جاره ، أو غير ذلك مما يضر الناس .

وبعد هذا نرى أن وظيفة المحتسب تأخذ شكلاً اجتماعياً إصلاحياً في حفظ حقوق

---

(76) النظم الاسلامية لحسن ابراهيم ص 270 .

(77) المدخل في تاريخ الحضارة العربية ص 40 . (الزموا البائع أن يكتب ورقة بسعر مبيعاته) .

(78) النظم الاسلامية لحسن ابراهيم ص 271 .

(79) حضارة العرب ص 40 .

الناس والحفاظ عليهم ومنع أي فرد من مضايقة الآخرين .

ونختصر القول : إن المحتسب مخول في تولي كل أمر يتصل بالنظام العام وحماية الناس ، وصلاحياته غير محدودة طالما تصب كلها في سبيل الخدمة العامة . وإذا دققنا ملياً في صلاحيات المحتسب نراها تطال القضاة والولاة ، حتى قاضي القضاة يخضع لرقابة المحتسب ويأتمر بأمره في بعض الشؤون .

ومما يروى في هذا المجال أن ابراهيم بن بطحاء والي حسبة بغداد مر بدار أبي عمر بن حماد ، قاضي القضاة يومئذٍ ، فرأى الخصوم جلوساً على بابه ينتظرونه وقد أصبح الوقت ضحى واشتدت حرارة الشمس ، فقوى واستدعى حاجبه وقال له : قل لقاضي القضاة : الخصوم جلوس على بابه ، وقد بلغتهم الشمس وتأذوا بالانتظار ، فإما جلست لهم أو عرفتهم عذرك فينصرفوا ويعودوا وقد اختصر لنا ابن خلدون في مقدمته صلاحيات والي الحسبة وكل الأمور التي له الحق التدخل بها لاصلاحها فيما يعود على عامة الناس بالخير ويدفع عنهم الأذى والضرر[81] .

إذن لقد كانت سلطة المحتسب واسعة وصلاحياته كبيرة ولكنها سلطة حصينة تستثمر دائماً للنفع العام تحت أية ظروف . لذلك وجب على المحتسب أن يتحلى بثقافة عامة وعلوم واسعة وإرادة قوية وهيبة جليلة حتى يتمكن رفع الضرر عن الناس مهما كانت مراتبهم الاجتماعية .

فالمحتسب يعطي تعليماته الصحيحة والقويمة للخبازين والتجار والجزارين ، والقصابين ، والصيادين ، والمعلمين والولاة والقضاة . . .

إن نظام الحسبة في الاسلام ، هو نتيجة خيرة لآخر ما توصل إليه الحكم الحصيف وغايته الحرص على راحة الناس وأمنهم ودعتهم والحفاظ على رفاهيتهم وتجنبهم كل أسباب القلق والضيق . فهو يحمي المجتمع مادياً وأدبياً وأخلاقياً حماية غير محدودة بحدود ولا مقيدة بقيود إلا حدود الأمن وقيود الذوق . ونكاد لا نجد حكماً معاصراً يعتمد مثل هذا الأسلوب من أسلوب حماية المواطنين مثل وظيفة الحسبة . من هنا نعلم أن الحكم الاسلامي صالح دائماً وأبداً لكل انسان في أي زمان لأنه يراعي مصلحة الجماعة وكل ما يعود على الأمة بالخير العام والعدالة الاجتماعية والمساواة بين جميع أفراد الرعية وإعطاء كل ذي حق حقه فيمنع الظالم ويردعه ويرجع حق المظلوم ويحميه .

الشرطة

رجال الشرطة هم الحراس الذين يسهرون على الأمن ويحافظون على كل ما يبعث على الطمأنينة في نفوس الناس ، فهم أمناء على المصلحة العامة . ففي عهد عمر بن الخطاب كان

---

(80) لأحكام السلطانية ص 248 .

(81) راجع المقدمة لابن خلدون ص 225-226 .

نظام « العسس »(82) أو حراس الليـل ، وفي عهد علـي بن أبي طالب سمي رئيسهـا « صاحب الشرطة »(6) ثم ازدادت أهميتها والعناية بها في عهد الدولة الأمويـة ، وكان صـاحبها يختـار من علية القوم وأهل العصبية والقوة ، وأطلقوا عليه صاحب الأحـداث ، وهو يشبـه مديـر الأمن العام أو مدير المخابرات في وقتنا الحاضر .

وكـانت الشرطـة من توابـع القضاء في أول الأمـر ، وكان الغـرض منهـا تنفيـذ أحكـام القضاء ، وفرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم ، وإقامـة التعزيـز والتأديب في حق من لم يرتدع عن الجريمة ، ومساعدة القاضي في إثبات الذنب على مرتكبه ، وكذلك كـان صاحب الشرطة يتولى إقامـة الحدود : كحـد الزنـا وشرب الخمـر ، وغير ذلـك من الأمور الشـرعية . وبعدها انفصلت عن القضاء وأصبحت وظيفة مستقلة .

يقول ابن خلدون : « وكان أيضاً النظر في الجـرائم وإقامـة الحدود في الـدولة العبـاسية والأموية بالأندلس ، والعبيـدين بمصر والمغـرب ، راجعاً إلى صـاحب الشرطـة ، وهي وظيفة دينية أخرى ، كـانت من الوظـائف الشرعيـة في تلك الدول ، تـوسع النـظر فيها عن أحكـام القضـاء قليلاً ، فيجعـل للتهمة في الحكم مجـالاً ، ويفرض العقـوبات الـزاجـرة قبـل ثبـوت الجرائم ، ويقيم الحدود الثابتة في محالها ، ويحكم في القود والقصاص ويقيم التعزير والتـأديب في حق من لم ينته عن الجريمة »(83) .

ولم تكن مهمة الشرطة في الدولة العباسية عامـة التنفيذ في طبقـات الناس ، ولكن كـان حكمها على أهل الريب ، والضرب على أيدي الرعاع والفجرة .

ولم تتفـرد الشرطـة عن القضاء إلا في عهـد هشـام بن عبـد الملك 105 -125 هـ . فقـد استقلت بالنظر في الجرائم . أنشأ هشام نظامـاً وسطاً بـين شرطـة الأمن وشرطـة الجيش سماه « نظام الأحداث » .

وقد أعطوا للشـرطة مكـانة رفيعـة ونزيهـة ، فقلدوها كبـار القواد وعـظماء الخاصـة من مـواليهم . وفي عهد بني أميـة عظم شـأنها وقسموهـا إلى قسمـين : شـرطـة كبـرى وشـرطـة صغرى ، فالكبـرى تنظر وتحكم عـلى الزعـماء وكبار القـوم . والصغرى تحكم في رعـاع القوم وعامة الناس .

أمـا ولاية الشـرطة فلم تكن تعـطى إلا للأكـابر من رجـالات الدولـة ترشيحـاً للوزارة والصحابة .

وصـاحب الشرطـة لقبوه « بصـاحب الليل » أو « صـاحب المدينـة » لأنـه يحفظ النـظام ويسـاعد الـوالي على استتبـاب الأمر في المـدينـة فيمنـع السـرقـة ويضـرب عـلى أيـدي الجنـاة العابثين(84) .

---

(82) وعس يعس عساً : أي طاف بالليل .

(83) المقدمة لابن خلدون ص 251 .

(84) المقدمة لابن خلدون ص 251 .

البريد

قال صاحب الفخري في الآداب السلطانية : « البريد أن يجعل خيل مضمرات[86] في عدة أماكن ، فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منها وقد تعب فرسه ركب غيره فرساً مستريحاً ، وكذلك يفعل في المكان الآخر والآخر حتى يصل بسرعة .

ومعنى البريد لغة من بَرَدَ أو أبرد أي أرسل ، كما في قولك : بردت الحديد إذا أرسلت منه ما يخرج منه[87] .

وقيل أن لفظ بريد عربي ومعناه الرسول أو الثابت[88] . وجاء في صبح الأعشى : « أما معناه لغة فالمراد منه مسافة معلومة مقدرة باثني عشر ميلاً[89] . وقد قدره الفقهاء وعلماء المسالك والممالك بأنه أربعة فراسخ والفرسخ : ثلاثة أميال . . .

وقد ضبط بعضهم ذلك بقوله :

إن البريد من الفراسخ أربع   والفرسخ فثلاث أميال ضعوا
والميل ألف أي من الباعات أقل   والباع أربع أذرع فتتبعوا

فالبريد = 4 فراسخ = 12 ميلاً = 1200 باعاً = 4800 ذراعاً[90] .

وقيل إنه فارسي معرب ومعناه : محذوف الذنب أو مقصوصه ، لأن الفرس كانوا يقصون ذنب بغل البريد ليمتاز بذلك عن غيره من الدواب الأخرى ، قال أمرؤ القيس :

على كل مقصوص الذنابي معاودٍ   بريد السُّرى بالليل من خيل بربرا

وجاء في صبح الأعشى « ثم اختلف فيه فقيل : إنه عربي ، وعلى هذا ذهب الخليل بن أحمد إلى أنه مشتق من بردت الحديد إذا أرسلت ما يخرج منه وقيل من أبردته إذا أرسلته . وقيل من برد إذا ثبت ؛ لأنه يأتي بما تستقر عليه الأخبار : يقال : اليوم يوم بارد سمومه أي ثابت »[91] .

وهذا لا ينفي أن العرب في نظام البريد مقلدون .

نشأة البريد

ورد عند القلقشندي في صبح الأعشى « والبريد اختراع جداً عرفه الفرس والرومان ، ولكن الفضل في تقدمه يرجع الى ما قام به دارا الأول من ربط أجزاء الامبراطورية الفارسية

---

(86) تضمير الفرس : أن تعلفه حتى يسمن ثم ترده إلى القوت ـ لسان العرب والقاموس .

(87) النظم الاسلامية لحسن ابراهيم حسن 184

(88) الفخري في الآداب السلطانية لابن الطقطقي ص 79 .

(89) صبح الأعشى ج 14 ص 366 .

(90) راجع لسان العرب .

(91) صبح الأعشى للقلقشندي ج 14 ص 367 وراجع ابن الأثير في النهاية ولسان العرب والحضارة الاسلامية لآدم متز ج 2 ص 404 والكامل للمبرد ج 1 ص 223 .

في الشرق الأدنى »[92] .

وكثير من المصطلحات التي كانت مستعملة عند العرب فارسية الأصل ، ومنها الفيج وهو الساعي على قدميه . والشاكري بمعنى راكب البريد . والاسكدار وهو السجل الذي بدون فيه عدد الحقائب البريدية ، كما يثبت فيه ساعات الوصول الى سكك البريد والخروج منها[93] .

الغاية من البريد

كان الغرض من البريد في صدر الاسلام توصيل أوامر الخلفاء إلى ولاتهم وعمالهم ، وأخبار هؤلاء الى الخلفاء . ثم توسعوا فيه حتى جعلوا صاحب البريد : عينا للخليفة فهو بالاضافة الى أنه كان ينقل أمره الى ولاته وعماله ، كان رقيباً عليهم ، ينقل أخبارهم الى الخليفة . ومن مهماته أيضاً ، يتجسس على الأعداء ، ويتسقط أخبارهم ، ليعرف ما عندهم ، فأصبح البريد والحالة هذه أشبه بالشعبة الثانية في المخابرات في وزارة الدفاع في عصرنا الحاضر . ورد في الفخري في الآداب السلطانية « ومن جملة الأشياء وضعهم البريد بكل مكان طلباً لحفظ الأموال ، وسرعة وصول الأخبار ، ومتجددات الأحوال »(*) .

مما يبدو أن البريد كان مقصوراً على أغراض الدولة ، ثم أبيح فيما بعدُ للرعية ليستفيدوا منه في نقل رسائلهم .

تطور البريد عبر العصور

أ ـ البريد في صدر الاسلام

كان البريد معروفاً عند ملوك العرب في الجاهلية ، ثم عرف أيضاً في صدر الاسلام[94] وفي الحديث أنه قال ﷺ : إذا أبردتم إليّ بريداً فاجعلوه حسن الوجه ، حسن الاسم[95] .

وقد ذكر المؤرخون بينما كان المسلمون يقاتلون الروم في موقعة اليرموك جاء البريد يحمل وفاة أبي بكر ، وتولية عمر بن الخطاب ، وعزل خالد بن الوليد من قيادة الجيش وتولية أبي عبيدة بن الجراح مكانه[96] .

ب ـ البريد في العصر الأموي

كان معاوية بن أبي سفيان أول من عني في وضع نظام البريد في الاسلام ، وذلك لتسرع إليه أخبار البلاد من جميع أطرافها ؛ فأمر باحضار دهاقين من رجال الفرس وأهل أعمال الروم ، وطلب إليهم ما يريد ، فوضعوا له البريد[97] وقد أصدر أوامره بوضع الخيل

---

(92) صبح الأعشى للقلقشندي ج 14 ص 367 .

(93) راجع الحضارة الاسلامية لآدم متز ج 2 ص 404 .

(*) الفخري في الآداب السلطانية ص 176 .

(94) الكامل للمبرد ج 1 ص 222 .

(95) راجع لسان العرب .

(96) تاريخ الطبري ج 4 ص 35 .

(97) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص 134 وقارن بصبح الأعشى للقلقشندي ج 14 ص 368 .

المضمرات في عدة أماكن ، فإذا وصل صاحب الخبر المسرع الى مكان منها وقد تعب فرسه ، ركب غيره فرساً مستريحاً ، وهكذا يفعل في المكان الآخر حتى يصل البريد . وربما اضطروا الى أخذ الدواب بالسخرة إذا لم تتوافر المضمرات(98) .

ولكن أمر البريد أحكم ونظم في عهد عبد الملك بن مروان فقد كان حريصاً عليه وشديد التعلق به . وقد أثر عنه أنه قال لابن الدغيدغة :

« وليتك ما حضر بابي إلا أربعة : **المؤذن** فإنه داعي الله تعالى فلا حجاب عليه ، **وطارق الليل** فشر ما أتى به ، ولو وجد خيراً لنام ، **والبريد** : فمتى جاء من ليل أو نهار فلا تحجبه ، فربما أفسد على القوم سنة حبسُهم البريدَ ساعة . **والطعام** إذا أدرك ، فافتح الباب ، وأرفع الحجاب ، وخل بين الناس وبين الدخول »(99) .

البريد في عصر العباسيين

إهتم العباسيون بالبريد اهتماماً كبيراً ، واعتنوا به عناية كبرى لأنهم اعتمدوه في إدارة دواوينهم . وصاحب البريد له شأنه في إدارة الخلافة ، فهو يراقب العمال ، ويتجسس على الأعداء ، ويكتب الى المراكز عن معاملة الوالي للرعية ، وغلاء المعيشة ، وزيادة الأسعار ، وأمور الخراج ، وكان يجمع الرسائل بنفسه ، وينظمها ويقدمها إلى الخليفة أو الوزير . وفي بعض الأحيان ربما استعان الخليفة به لرسم خطة الحرب ، والوقوف على أفضل خطة لمباغتة العدو . لذلك كان أبو جعفر المنصور يقول :

« ماكان أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر لا يكون على بابي أعف منهم ، فقيل له : يا أمير المؤمنين من هم ؟ قال : أما أحدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية ، فإني عن ظلمها غني ، والرابع ثم عض على إصبعه السبابة ثلاث مرات ، يقول في كل مرة آه آه ! فقيل له : من هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : صاحب بريد يكتب إليّ بخبر هؤلاء على الصحة »(100) !!

وقد بلغ من اهتمامه وانتظام أعمال البريد في زمانه أن عماله كانوا يوافونه بذلك مرتين في كل يوم : من بعد صلاة الصبح ومن بعد صلاة المغرب . وقد مكنه هذا الاطلاع الدقيق على جميع أحوال البلاد ، والالمام بأحوال الخلافة على أكمل وجه فلا ظلم ولا ظلامة فالقاضي يقف عند حدود القانون ، والتاجر يبيع بسعر معقول . وإن رأى تقصيراً من أحد عماله لامه ووبخه أو عزله من منصبه . ورد في كتاب النظم الاسلامية لحسن ابراهيم حسن عن « فون كريمر » :

« إنه كان على رأس كل مصلحة في الولايات الكبيرة عامل بريد مهمته موافاة الخليفة

---

(98) طبقات ابن سعد ج 5 ص 276 .

(99) صبح الأعشى ج 14 ص 368 وقارن بالعقد الفريد ج 1 ص 79 .

(100) تاريخ الطبري ج 6 ص 313 .

بجميع الشؤون الهامة ، بل والاشراف على أعمال الوالي ، كما كان بعبارة أخرى مندوباً أولته الحكومة المركزية ثقتها »(101) .

فكما نرى كان الخلفاء يعدون عمال البريد عوناً لهم على الاشراف على أمور دولتهم كما كانوا لا يولون البريد إلا ثقاتهم من أهل التعقل والدراية ، لأن على ما ينقلون من أخبار تتوقف علاقة الخلفاء بعمالهم أو بمعاصريهم(102) .

البريد الجوي ـ الحمام الزاجل

لم يكتف خلفاء الدولة الاسلامية بما توصلوا إليه في تطوير نظام البريد البري بل خطوا خطوات واسعة في تنظيم البريد الجوي وسرعة وصوله ، فاستعملوا في ذلك الحمام الزاجل ، وقد اهتم الخلفاء العباسيون بهذا الحمام الرسائلي ، وتنافسوا فيه ، وبالغ رؤساء الناس في العراق في اقتنائه حتى بلغ ثمن الطائر الواحد سبعمائة ديناراً(103) .

وفي أوائل القرن الرابع الهجري نجد الكثير من الأخبار عن استخدام الحمام الزاجل في نقل البريد الجوي ، وسرعة توصيل الأخبار ، وهذا أمر هام جداً في الحروب .

ورد في الحضارة الاسلامية ، إنه لم تقلد حامد بن العباس الوزارة عام 304 هـ ـ 916 م وأرسل إليه الخليفة المقتدر 908 م ـ 932 م بالقدوم عليه ، كتب على عدة أطيار بخروجه من يومه . قال الثعالبي : « إن الرسائل كانت تصل في ذلك العصر من الرقة والموصل إلى بغداد ، وواسط ، والبصرة ، والكوفة بواسطة الأطيار في يوم وليلة »(104) .

البريد بواسطة النار

عرف المسلمون في المراسلة طريقة أخرى أيضاً أسرع من طريقة الحمام الزاجل ، وهي بناء المنائر ، كالأبراج العالية على المرتفعات ، ونقل الاشارات عليها بإشعال النار ، فيصل الخبر بسرعة من برج الى برج حتى يبلغ المكان المقصود . ولكل نار علاماتها الخاصة بها عرفت عند العرب جميعاً .

استخدم هذه الطريقة الحجاج بن يوسف ، فاتخذ هذه المنائر بينه وبين قزوين فكان إذا دخن أهل قزوين دخنت المنائر إن كان نهاراً ، وان كان الوقت ليلاً أشعلوا ناراً ، وكانت المنائر متصلة بين قزوين وواسط فيصل الخبر في وقت قصير(105) .

وخط جوي آخر استخدمه المسلمون بواسطة بريد النار . قال القلقشندي : « واستخدم المسلمون استخداماً حسناً في القرن الثالث الهجري على الساحل الافريقي الشمالي ؛ فقد كانت الرسائل تصل من الاسكندرية الى سبتة في ليلة واحدة ، ومن طرابلس

---

(101) النظم الاسلامية لحسن ابراهيم حسن ص 257 .

(102) راجع تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان ص 239 .

(103) راجع صبح الأعشى للقلقشندي ج 14 . ص 390 .

(104) الحضارة الاسلامية لآدم متز ج 2 ص 416 .

(105) تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان ص 242 .

إلى الاسكندرية في ثلاث ساعات ، ولم يبطل هذا الخط الأخير إلا في سنة 440 هـ ـ 1048 م حينما ثار المغرب على الفاطميين ، ولم يعد بإمكانهم حماية الحصون من البدو »[106] .

وفي صبح الأعشى فصل خاص عن هذه المنائر ختمه القلقشندي فقال : « على أن مرتبها بهذه المملكة أولاً أتى بحكمة ملوكية لا تساوي مقداراً ؛ إذ قد ترقى بسرعة بلوغ الأخبار إلى الغاية القصوى ، وذلك أن البريد يأتي من سرعة الخبر بما لم يأت به غيره ، والحمام يأتي من الخبر بما هو أسرع في البريد والمناور تأتي من الخبر بما هو أسرع من الحمام ، وناهيك أن يظهر عنوان الخبر في الفرات بمصر في مسافة يوم وليلة »[107] .

البريد في الحروب

إن سرعة نقل الخبر أثناء الحروب له أهمية كبرى في نجاح المعركة أو فشلها لذلك اهتم المسلمون بالبريد اهتماماً كبيراً وأعاروه جل اهتمامهم .

ففي العصر العباسي وفي ولاية المأمون 813 م ـ 833 م كان للبريد ديوان مركزي كبير في بغداد لتسلم البريد والتقارير المرسلة من أنحاء البلاد ، وكان صاحب البريد يعرض على الخليفة الهام منها ويرسل ما عداها الى الدواوين المختلفة كما كان للبريد محطات على طول الطريق .

« وقد بلغ عدد سكك البريد في إبان الدولة العباسية 930 سكة ، ونفقات الدواب وأثمانها وأرزاق رجالها 159100 في السنة ، وفي أيام الدولة الأموية كان ينفق على البريد أربعة ملايين درهم ، أي نحو ضعفي ذلك »[108] .

وقد ساعدت معالم هذه الطرق التي أقامتها الحكومة التجار في أسفارهم ، والباحثين في الجغرافيا في بحوثهم . والبريد كان خاصاً بأعمال الخليفة وشؤون مملكته وليس لنقل مراسلات الجمهور من ذلك يذكر آدم متز :

« وكانت تنظم أثناء الحروب بُرُدٌ حربية لشؤون الحكومة ؛ فمن ذلك أنه لما استطال صاحب القيروان على أرض مصر ، أنهض المقتدر مؤنساً الخادم ، وندب معه العساكر لمحاربة صاحب القيروان عام 302 هـ ـ 914 هـ . وتقدم علي بن عيسى بترتيب الجمّازات من مصر الى بغداد لتبلغه الأخبار كل يوم »[109] .

ومن طرق البريد إرسالها مع السعاة ، وهم رجال خفاف تعدوا الجري والصبر على السير . وأول من أنشأ أمر السعاة هؤلاء معز الدولة ، أنشأهم في بغداد لإعلام أخيه ركن الدولة بالأحوال التي تجري حوله سريعاً[110] . وعند انتشار خبر السعاة في الأقاليم تهافت

---

(106) صبح الأعشى ج 14 ص 400 .

(107) المصدر السابق ص 400 .

(108) تاريخ التمدن الاسلامي ج 1 ص 232 .

(109) الحضارة الاسلامية لآدم متز ص 414 والجمازات : جمز الانسان والبعير وغيره جمزاً وهو عدو دون الحضر وفوق العنق . لسان العرب .

(110) المصدر السابق ص 414 . ولا تزال كلمة ساع هي اسم حامل البريد الى اليوم .

شبان بغداد وغيرهم على هذه الحرفة الجديدة ، وأقبل فقراء الناس على تسليم أبنائهم للسلطان معز الدولة لتدريبهم . وقد امتاز من هؤلاء السعاة اثنان ، اسم أحدهما فضل والثاني مرعوش فاقا سائر السعاة ، حيث كان كل منهما يقطع نيفاً وأربعين فرسخاً أي حوالي (180) كيلومتراً من شروق الشمس إلى مغربها[111] وقد اعتمد الخلفاء والأمراء الحيطة والحذر ؛ فجعلوا بينهم وبين بريدهم علامة يتفقون عليها سراً فلا يعتمد أحدهم كتاب صاحب بريده إلا إذا كان متسماً بتلك العلامة ، ولو كان الكتاب بخط صاحب البريد نفسه وخاتمه « إذ يفعل ذلك بالرغم منه ، كما حدث حينما دعا المنصور إليه أبا مسلم الخراساني فقد خاف عاقبة تلك الدعوة ، ولما عزم على المضي للخليفة استخلف على عسكره أبا نصر بن الهيثم وقال له : إن جاءك كتابي وهو مختوم بنصف خاتمي فهو كتابي ، وإن كان مختوماً بكل الخاتم فاعلم أنه ليس ختمي » .

وحين مثل أبو مسلم بين يدي المنصور قتله ، وكتب على لسانه كتاباً لابن الهيثم وختمه بخاتم أبي مسلم ، فلما وصله الكتاب مختوماً بكل الخاتم عرف أن أبا مسلم لم يكتبه »[112] .

---

(111) راجع ابن الأثير ج 8 ص 425 والحضارة الاسلامية لآدم متز ج 2 ص 414 وتاريخ التمدن الاسلامي ص 232 .

(112) الفخري في الآداب السلطانية ص 124 .

الباب الخامس
النظام المالي

الفصل الأول

لمحة تاريخية عن تكون ، الثروة المالية في العصر الاسلامي

في النصف الأول من القرن السابع الميلادي بدأت حركة الفتوح الاسلامية ، فقضت بسرعة فائقة على الامبراطورية الفارسية التي غدت متعفنة ينخر في جسمها الفساد . وفي الوقت ذاته انتزعت الدولة الاسلامية أجمل الأقاليم من خلفاء قسطنطين .

وقد مرت الحضارة الاسلامية بمراحل عدة تنمو وتتطور آخذة من الحضارتين الفارسية والبيزنطية ما يساعدها وينشطها في شتى الميادين الحضارية .

تكونت الدولة الاسلامية بصورة رسمية سنة 622 م . على أثر هجرة الرسول الى المدينة فكان فتح المدينة أول فتح اسلامي ، وربما كان من أجلِّ الفتوح لأنه كان حجر الزاوية للدولة الاسلامية[1] .

ومن المعلوم أن المهاجرين تركوا معظم أملاكهم وأموالهم في مكة ، بلدهم الغالي والحبيب ، ولكن الترحيب الكريم الذي لاقوه من أخوانهم الأنصار أنساهم الماضي وانطلقوا الى تأسيس حياة جديدة . فاشتغل معظمهم في الزراعة لتحصيل موارد رزقهم ، ولكن الجهاد الى القتال يدعوهم ، مما اضطرهم الى ترك أعمالهم معتمدين على الغنائم التي يحصلون عليها من الحرب ، فهذه الغنائم شكلت في البداية أكثر مواردهم .

والنبي ﷺ اعتمد أول بداية تأسيس الدولة الاسلامية على الغنائم من المعارك والفتوح ينمي عن طريقها مالية الدولة .

وأول غنيمة غنمها المسلمون كانت بعض ابل لقريش محملة ادماً وتجارة ، وذلك في مكان يقال له نخلة بين مكة والطائف[2] وقد أصابت هذه الغنيمة عدداً قليلاً من المقاتلين .

أما الغنيمة الوفيرة السلاح والمال فكانت في غزوة بدر الكبرى[3] .

ومن عادة اليهود نقض العهود في أي زمان ومكان ، همهم مصالحهم ومكاسبهم ، فبعد شهر واحد من موقعة بدر نقض يهود بني قينقاع العهد الذي عاهدهم عليه رسول الله ﷺ عند قدومه المدينة . وقد اعترف لهم ﷺ بأنهم (أمة دون الناس) ؛ فجلاهم الى ناحية اسمها

---

(1) الخراج والنظم المالية للريس ص 92 .

(2) تاريخ الطبري ج 2 ص 262-264 .

(3) لقد فصلت أمر هذه الغنيمة سورة الانفال في القرآن الكريم رقم 41 ص 182 .

اذرعات من بلاد الشام ، عندها اغتنم المسلمون كثيراً من أموالهم ولا سيما الذهب الذي كانوا يصنعون منه الحلى ، لأنهم كانوا يحترفون الصياغة[4] .

ما ذكرته كتب التاريخ أن أول أرض افتتحها رسول الله كانت من يهود بني النضير[5] تحالفوا هؤلاء مع بعض قبيلة قريش وحرضوا على اغتيال الرسول محاولين قتله ، عندها أمرهم بالجلاء وحاصرهم خمس عشرة ليلة طلبوا على أثرها مصالحته ، ووافقوا على خروجهم من بلدهم بعد ستة أشهر من وقعة أحد ، على أن لهم ما حملت الابل ما عدا السلاح . وقد أقرهم النبي على هذا فتحولت أرضهم كلها لبيت المال . إلاّ ما كان ليامين بن عمير ، وأبي سعد بن وهب ، فإنهما أسلما فأحرز اسلامهما أموالهما ، كما تنص القاعدة الاسلامية[6] .

ولكن بني النضير هؤلاء أضمروا الحقد في قلوبهم حتى كانت غزوة الخندق ، التي وقعت في شوال من السنة الخامسة بتأليب من يهود بني النضير . الذين جاؤوا من خيبر الى مكة لتحريض قريش وغطفان على قتال المسلمين . وقد غنم المسلمون الكثير من الأموال والأسلحة .

وقد أخرج النبي يومذاك خمس الغنائم وكان للناس ثلاثة أسهم : للفرس سهمان ولفارسه سهم واحد ، وللراجل سهم واحد .

ثم توصل الرسول في ذي العقدة من السنة نفسها الى عقد صلح من قريش (صلح الحديبية) وعندها أمن الجانب الداخلي وتفرغ لقتال اليهود الذين ظلوا يتآمرون عليه ويدسون ويؤلبون الأعداء ، فغزا يهود خيبر في المحرم من السنة السابعة وحاصرهم شهراً كاملاً ، وفتح حصونهم كلها . ووزع على أهل الحديبية ما كان من مال وطعام وحيوان .

وكانت عدة أهل الحديبية يومذاك ألفاً وأربع مئة ، بينهم مئتا فارس ، فأعطى الفرسان ستمئة سهم ، ثلاثة لكل منهم ، وللرجالة ألفاً ومئتي سهم ، وذلك بحسب عدتهم لكل رجل منهم ثم دفع رسول الله بأرض خيبر ونخلها الى أهلها مقاسمة على النصف مما يخرج من الثمر والحب[7] .

وصالح النبي أهل فدك على أن يكون له نصف أرضهم ونخيلهم ، وكان يصرف مما يأتيه منه إلى أبناء السبيل [8] .

وفي السنة السابعة صالح رسول الله ﷺ أهل وادي القرى ، بعد أن فتح بلادهم عنوة ، على أن يترك في أيديهم أرضهم ونخيلهم ويقاسمهم كما قاسم أهل خيبر .

وما كان من أهل تيماء عندما سمعوا بأنباء هذا الفتح ، إلا أن سارعوا الى عقد صلح

---

(4) الكامل ج 2 ص 52.

(5) الكامل ج 2 ص 52 والأحكام للماوردي .

(6) راجع فتوح البلدان ص 28 .

(7) راجع فتوح البلدان ص 29 .

(8) فتوح البلدان ص 37 .

مع النبي ودفعوا الجزية المفروضة عليها(9) .

في السنة الثامنة كان فتح مكة المكرمة ، فلم يقسم أموالها ، ولم يغنم منها شيئاً ، بل منّ على أهلها بالحرية والأموال .

في شوال من السنة نفسها انتصر المؤمنون في غزوة حنين وغنموا الأموال ولكن الرسول ﷺ عفا عن السبي وتأسى به المسلمون ، فعفوا عما بأيديهم من السبأ(10) .

وفي رجب من السنة التاسعة 631 م . كانت غزوة تبوك بين المسلمين والروم في فصل الصيف اللاهب فجهز الرسول ﷺ جيشاً لغزو الروم وانتصر عليهم . وصالحه أهلها على دفع الجزية ، فكان على كل رجل بأرضه دينار . وصالح بعد ذلك أهل أدرج على مئة دينار كل رجب . وأهل جرباء على الجزية وأهل مقنا على ربع ثمارهم ، وصالح أيضاً أُكَيْدر الكندي ملك دومة الجندل على الجزية(11) وفي هذه الغزوة أنزل الله على رسوله سورة التوبة التي تحث على الجهاد في سبيل الله مهما كانت العقبات .

ولدى مقدمه ﷺ من تبوك في رمضان وفد عليه رسل ملوك حمير يعلنون اسلامهم ، فأرسل ﷺ عماله يعلموهم حدود الصدقات الواجبة عليهم :

العشر على ما سقت السماء أو العين ، ونصف العشر على ما سقي بالغَرْب ، وجعل على كل حالم من أهل اليمن من الذميين ديناراً . ثم تتابع اسلام أهل اليمن بعد ذلك حتى أسلمت همدان كلها في يوم واحد(12) .

وفي السنة العاشرة عقد الرسول معاهدة مع أهل نجران ، العرب النصارى من بني الحارث ، وكانوا قد أرسلوا إليه وفداً يسأله الصلح فكتب لهم بشروط هذا الصلح كتاباً ذكر فيه :

« إن لنجران وحاشيتها جوار الله ، وذمة محمد النبي رسول الله ، على أموالهم وأنفسهم ، وأرضهم ، وملتهم ، وعشيرتهم ، وبيعهم ، وكل ما تحت أيديهم ، لا يغيّر أسقف من أسقفيته ، ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته . . . ولا يطأ أرضهم جيش ما لم يحدثوا حدثاً أو يأكلوا الربا »(13) .

ولقاء هذا العهد على أهل نجران أن يدفعوا حلة من حلل الأواقي . (أي من الحلل التي يكون ثمن كل منها أوقية من الفضة ، وهي أربعون درهماً)(14) وفي العام العاشر شرعت الوفود تتعاقب على الرسول ﷺ من كل حدب وصوب تعلن اعتناقها الاسلام ومناصرة الدين الحنيف .

---

(9) فتوح البلدان ص 41-42 .

(10) الكامل ج 2 ص 99-100 .

(11) الطبري ج 3 ص 146 .

(12) الطبري ج 3 ص 159 والغرب : الدلو .

(13) فتوح البلدان للبلاذري ص 71 الأموال ص 27 وأحكام أهل الذمة ص 698 .

(14) الكامل لابن الأثير ج 2 ص 12 وإذا اعطوا دروعاً أو سلاحاً أو خيلاً أنقصوا من تلك الأواقي بقيمتها .

وقد امتد سلطان الدولة الاسلامية الى شمال الجزيرة العربية ووسطها ، وإلى شمال الحجاز حتى مشارف الشام ونجران واليمن والبحرين وعمان . ومن الأحاديث الموثوق بها قوله عليه السلام :

« إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده . والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله » .

هذا وما لحق الرسول بالرفيق الأعلى إلا بعد أن امتد سبيل الفتوح في العصر الراشدي تحقيقاً لوعد الله الذي لا يخلف الميعاد .

واردات الدولة بعد العصر النبوي

في عهد أبي بكر فتح خالد بن الوليد العراق فصالحه أهل الحيرة على مئة ألف وتسعين ألف درهم ، فكانت أول جزية قدم بها هذا القائد من العراق(15) وقبل وفاة أبي بكر سنة 13 هـ . كان خالد قد أتم فتح غربي الفرات ، معطياً ذمة المسلمين لمن لم ينهضوا للحرب ، مقراً لهم على أراضيهم جاعلاً عليهم الجزية كما أوصاه خليفة رسول الله(16) .

وفي عهد عمر بن الخطاب 13 هـ ـ 23 هـ تم فتح سورية وفلسطين وسواد العراق ، وأكثر أقاليم الفرس ، وكذلك مصر وافريقية ، فتوسعت رقعة الدولة الاسلامية كثيراً ، وبات الأمر يختلف عما كان عليه من قبل من حيث فرض الضرائب وأنواعها وأصول تنظيمها .

كتب سعد بن أبي وقاص الى عمر بقسمة الفيء والمغانم بين المسلمين ، وكتب أبو عبيدة بن الجراح لقسمة الملك وأهلها ، والأرض وما فيها من شجر وزروع(17) . وعندها وجد عمر نفسه أمام مسألة تحتاج الى استشارة كبار الصحابة الضليعين في مثل هذه المواضيع ، وخيراً رأى أن يحتكم المسلمون الى عشرة من الأنصار : خمسة من الأوس ، وخمسة من الخزرج ، وذلك بعد أن لمس بعض الاختلاف في وجهات النظر . ثم وضع الخراج على الأرض والجزية على أهلها ، حتى تكون فيئاً للمسلمين . وخطب فقال : « أرأيتم هذه الثغور لا بد لها من رجال يلزمونها ! أرأيتم هذه المدن العظام ! لا بد لها من أن تشحن بالجيوش ويدرّ عليها العطاء ! فمن أين يعطى هؤلاء ! إذا قسمت الأرضون ومن عليها ؟(18) .

ثم يقول : لقد وجدت الحجة في كتاب الله وقرأ هذه الآيات من سورة الحشر : « وما أفاء الله على رسوله منهم » والآية ﴿ وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله والرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، كي لا يكون دولة للأغنياء منكم ﴾ . والآيات من سورة الحشر رقم 6-7-8 . وقال : هذه عامة في القرى كلها .

---

(15) تاريخ الطبري ج 4 ص 13 .

(16) الكامل لابن الأثير ج 2 ص 148 .

(17) كتاب الخراج لابي يوسف ص 24 .

(18) المصدر نفسه ص 25 وانظر الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام ص 14 -15 .

ثم قرأ قوله تعالى :

﴿ للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانا ﴾ وقال : هذه للمهاجرين .

ثم قرأ الآية بعدها : ﴿ والذين تبؤوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » . وقال : هذه للأنصار .

ثم ختم بقوله تعالى : ﴿ والذين جاؤوا من بعدهم يقولون : ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ﴾[22] ثم قال : هذه عامة لمن جاء من بعدهم فاستوعبت الآية الناس ، وقد صار هذا الفيء بين هؤلاء جميعاً ، فكيف نقسمه لهؤلاء وندع من يجيء بعدهم ؟ وكان جواب القوم :

الرأي رأيك فنعم ما قلت وما رأيت[23] .

فكتب عمر الى سعد : « إن ينظر ما أجلب به الناس عليه من كراع أو مال ، فيقسمه بين من حضر من المسلمين ، ويترك الأرضين لعمالها ، ليكون ذلك من أعطيات المسلمين »[24] .

ولما كثرت الأموال في أيام عمر وضع الديوان وفرض الرواتب للعمال والقضاة ومنع إدخار المال ، كما حرم على المسلمين اقتناء الضياع والأملاك الواسعة لأن أرزاقهم وأرزاق عيالهم تدفع لهم من بيت المال . أما إذا أراد أحد من أهل الذمة أن يدخل في الاسلام ، صار ما في يده من أرض وأملاك الى أصحابه من أهل قريته ، تفرق فيهم وأخذوا يؤدون عنها ما كان يؤدى من خراجها ، ويسلمون إليه ماله ورقيقه ، وحيوانه ويفرضون له راتباً في الديوان مثل سائر المسلمين .

وغاية عمر من هذه الطريقة أن يبقى أهل الذمة وأرضهم مصدراً للمال الذي يحتاج إليه المسلمون في إتمام الجهاد . أما في حال شراء المسلمين لتلك الضياع والأرزاق فإنها تصبح أملاكاً خاصة بهم ويستقلون بنفعها دون سواهم[25] . ولكن عمر يريد أن يبقيها محبوسة على أهل هذه الأمة من المسلمين المجاهدين ، قوة على جهاد من لم يظهروا عليه يعد من المشركين ، فلا تباع ولا تورث لما ألزموه أنفسهم من إقامة فريضة الجهاد .

وأما في عهد عثمان بن عفان (33 هـ ـ 35 هـ) فتغيرت الحال واقتنى الكثير من المسلمين المحسوبين عليه ضياعاً وأملاكاً كبيرة وثروات طائلة ، لأنه لم يكن شديداً عليهم ، ومع ذلك كان أموياً ، اعتز الأمويون به وأرادوا أن يعيدوا لأنفسهم السلطة التي كانت لهم في

---

(22) الآيات من سورة الحشر 9 و10

(23) خراج أبي يوسف ص 25 .

(24) الأموال ص 59 .

(25) كتاب الخراج لأبي يوسف ص 14 .

الجاهلية . ولى عثمان أعمال الخلافة رجالاً من أقربائه « وفيهم من لم يعتنق الاسلام إلا يأساً من فوزه على المسلمين »(26) . كثرت في أيامه الفتوح وفاضت الغنائم فكان يخصص أهله بها بأكثر من سائر الصحابة كما فعل بغنائم افريقية سنة 27 هـ ، حاربها المسلمون وعلبهم عبد الله بن سعد (أخو عثمان من الرضاع) بلغت غنائمهم منها 2,500,000 دينارا أعطى خمسها الى مروان بن الحكم وزوجه ابنته(27) وكان هذا الخمس من حقوق بيت المال .

وقد أبطل عثمان السنة التي سار عليها قبله عمر في محاسبة العمال ، فتركهم وشأنهم ، فازدادوا طمعاً في حشد الأموال لأنفسهم ،وخصوصاً معاوية بن أبي سفيان عامله على الشام ، وكان أكثرهم دهاء وأبعدهم مطمعا ، يحب الدنيا ولا شأن له في الآخرة !

اقتدى معاوية بالروم بذخاً وإسرافاً ، ورأى من عثمان ضعفاً وميلا ، فكتب إليه ان الذي أجراه عليه الخليفة لا يقوم بمؤون من يقدم عليه من وفود الأجناد ورسل الروم ، ووصف في كتابه أن مزارع هؤلاء لا مالك لها ، وليست هي من قرى أهل الذمة ولا الخراج ، وسأله أن يقطعه إياها ، فأجاب عثمان معاوية الى طلبه وأقطعه تلك الضياع فوضع يده عليها وحبسها على أهل بيته .

اقتدى بمعاوية غيره من العمال وسائر الصحابة ، فاقتنوا الضياع والأراضي الواسعة وفيهم جماعة من كبار الصحابة مثل طلحة والزبير وسعد وغيرهم ، وزادت أموالهم كثيراً حتى عثمان نفسه فإنه اقتنى الضياع الكثيرة واختزن الأموال ، فوجدوا عند خازنه بعد موته 150000 ديناراً 000 1000 درهماً قيمة ضياعه بوادي القرى وحنين(28) وغيرهما 000 100 دينارا ، وخلف خيلاً وابلاً .

ومما يظهر أن عثمان اندفع إلى تسهيل ازدياد الثروة على المسلمين لازدياد الأموال عنده وتضخم ثروته . وذلك بعد أن أغراه أهله وخصوصاً معاوية حتى بات امتلاك العقار مألوفا وشائعاً في عهده .

« ومن أسباب شيوع الأملاك بين المسلمين أن عثمان أقطع هو وخلفاؤه بعض الأرض مما لم يتعين مالكوه ، على أن يدفعوا شيئاً لبيت المال في مقابل الايجار أو الضمان . فلما حصلت فتنة الأشعث سنة 82 هـ حرق الديوان وضاعت السجلات فأخذ كل قوم ما يليهم »(29) .

ولكن المسلمين عامة كانوا غير راضين عن أعمال معاوية في هذا الشأن ، وسكوت الخليفة عنه ، لأنه لم يساو بينهم فيه . فنقموا عليه وخصوصاً الفقهاء ورجال التقوى . وفي حكاية أبي ذر الغفاري ما يغني عن البيان . لقد كان هذا الرجل المتمسك بدينه يرى :

(26) تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان ج 1 ص 269 .

(27) تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 191 .

(28) مروج الذهب للمسعودي ج 1 ص 301 .

(29) الأحكام السلطانية للماوردي ص 183 .

« إن المسلم لا ينبغي له أن يكون في ملكه أكثر من قوت يومه وليلته أو شيء ينفقه في سبيل الله أو يعده لكريم »(30) وقد ولع الفقراء بقوله وأوجبوه على الاغنياء . فشكا هؤلاء أبا ذر الى معاوية . ولما سأله والي الشام ، الذي لا هم له سوى جمع المال ومنعه عن الفقراء ، وبخه أبو ذر وقال له إثر بنائه قصر الخضراء في دمشق : قال معاوية :

كيف ترى هذا يا أبا ذر ؟ قال أبو ذر : « إن كنت بنيته من مال الله فأنت من الخائنين ، وإن كنت بنيته من مالك فأنت من المسرفين »(31) .

عندها عظم الأمر على معاوية الداهية وأراد أن يوقع أبا ذر في ما يوجب محاكمته ، فبعث إليه بألف دينار أراد أن يغره بها ثم يتهمه باكتناز المال . فلما وصلت الدنانير إلى أبي ذر فرقها للحال ، وجاءه رسول معاوية يزعم أنه دفع المال إليه رشوة ، وإن معاوية يطلبه ، فأخبره أنه أنفقه لساعته على الفقراء . فلم ير معاوية من سبيل الى اتهامه فكتب الى عثمان : « إنك أفسدت الشام على نفسك بأبي ذر . فرد عليه الخليفة عثمان : « احمله على قتب بغير وطاء »(32) ولما جاء المدينة حاكمه عثمان فلم يرهب سلطانه وجاهر بما يراه من الجشع ، فأخرجه عثمان من المدينة الى الربذة بالعنف ، وظل هناك حتى مات فيها . فنقم المسلمون على عثمان في جملة ما نقموه عليه .

إذا كان يقال في أبي ذر ما قيل من الزهد والتقوى ، فماذا يمكن أن يقال في الخليفة الراشدي الرابع ، علي بن أبي طالب (ع) ؟

عرف علي بزهده للدنيا وتقاه وورعه . حافظ على شريعة الله ونفذها كما جاء في كتاب الله ، وسار على الخط الذي رسمه له رسول الله . ابن عمه وعشيره وربيبه منذ الطفولة ، وصهره وحبيبه بعد النبوءة .

حارب معاوية لأنه انحرف عن الخط الاسلامي وانفق أموال المسلمين في غير مصارفها . ونختصر فنقول مع اليعقوبي أن مناقبه لا تحصى من أقواله (ع) « تزوجت بفاطمة ومالي فراش الا جلد كبش ، ننام عليه بالليل ونعلق عليه ناضحنا بالنهار ، ومالي خادم غيرها » وجاءه مال أيام خلافته من أجهان فقسمه على سبعة أسهم ، فوجد فيه رغيفاً ، فقسمه على سبعة أسهم ، ودعا أمراء الاسباع فأقرع بينهم لينظر ايهم يعطي أولاً ، ولم يبين آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة ، وكان يأتي بحبوبه من المدينة في جراب . وقيل أنه أخرج سيفاً له إلى السوق فباعه وقال : « لو كان عندي أربعة دراهم ثمن أزرار لم أبعه ، ومناقبه لا تحصى »(33) .

ولا ريب أن العامل إذا ما رأى خليفته زاهداً تقياً يسير على خطاه ويمنع نفسه من كل

---

(30) تاريخ ابن الأثير ج 3 ص 55 .

(31) المصدر نفسه .

(32) تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 199 .

(33) تاريخ اليعقوبي ج 3 ص 183 .

شيء ، يقتدي به ولو كان ذلك مخالفاً لرأيه ، على أن الخليفة نفسه لا يولي إلا من يكون على رأيه . فأبو بكر وعمر وعلي ولوا الأتقياء الزاهدين وعثمان ولى الأقرباء المسرفين .

إن الثروة الفضفاضة في عصر الراشدين كانت محرمة على المسلمين ، ولكن تحريمها لم يبق طويلاً لأن بقاءه يقتضي بقاء أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب . ولم يكد يختلط العرب بالفرس والروم حتى تاقت نفوسهم الى الترف وحشد الأموال ، والخلافة ليست ملكاً وليست كسروية ولا قيصرية كما عرفها الأمويون .

وانقضى عصر الراشدين ولم ير المسلمون مثله بعده ، وظل أبو بكر وعمر وعلي مضرب أمثال القوم قروناً متطاولة في الزهد والعدل والتقى فإذا اعوجّ حاكم أو خليفة طلبوا إليه أن يقتدي بهم .

الفصل الثاني
أنواع الضرائب في الاسلام

من واردات الدولة الاسلامية الضرائب . **التي ازدادت وتنوعت بتنوع الحاجات** الاجتماعية ، وقد جرى العمل بها على تقاليد ونظم لا بد من معرفتها . وأكثر مبادىء النظام المالي أقرها القرآن وأوضحها النبي ﷺ وجرى العمل بها في العهد النبوي . وكل ذخل أو إنفاق يتم من بيت المال .

أهم واردات الدولة : **الزكاة ، والخراج ، والجزية ، والغنيمة ، والفيء ، والعشور** وبعضها ضريبة على الأرض وبعضها الآخر ضريبة على الأشخاص كما سنفصل ذلك في الصفحات التالية :

الزكاة :

الزكاة أو الصدقة تشمل معان عدة منها السند والقوة فنقول زكا القول أو زكا فلان أي ثبت قوله وقواه ، ومنها التزكية أي الزيادة عن الأصل ، والزكاة في الاسلام هي أول ضريبة فرضت على الأغنياء اتجاه الفقراء حتى لا يبقى في المجتمع فقير معدم . ولكنها كانت في أول الأمر صدقة اختيارية غير محدودة الأنصبة ، وقد أثنى القرآن الكريم على الذين يتصدقون بها . قال تعالى :

﴿ والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ﴾[1] . فالزكاة حق صريح للفقراء عند الأغنياء ، والزكاة بمثابة العمود الفقري في النظام المالي الاسلامي لأنه يقوم على أساس الاعتراف لله بأنه المالك الأصيل ، وبالتالي الاعتراف بأنه له وحده الحق في تنظيم قضية التملك والزكاة هي التعبير العملي عن هذا كله .

ثم أمر الله نبيه أن يأخذها من أموال الأغنياء ليردها على الفقراء ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلّ عليهم ، إن صلاتك سكن لهم ﴾[2] ومعنى قوله تطهرهم وتزكيهم بها أي تطهر ذنوبهم وتزكي أعمالهم .

ليس في القرآن الكريم ما يحدد مقادير الزكاة ، ولكن السنة النبوية التي جاءت لتفصل القول وتوضح معاني الكلام عرفت الزكاة فقالت أنها على عدة أنواع :

(1) المعارج الآية 24 -25 .

(2) التوبة الآية 103 .

أ ـ زكاة على أموال التجارة .
ب ـ وزكاة على الذهب والفضة .
ج ـ وزكاة على الزرع والثمار .
د ـ وزكاة على المواشي والأنعام .
هـ ـ وزكاة المعدن والركاز .

لا تستحق الزكاة إلا بشرطين : الأول : ملك النصاب الذي يختلف باختلاف الأنواع المذكورة . والشرط الثاني : مرور عام على ملكية هذه الأشياء ليطهر الغني بالزكاة ماله الذي حفظه الله عليه أو زاده له . ولهذا قال بعض المفسرين : الزكاة مأخوذة من زكا الشيء يزكو إذا نما وازداد . يقال زكا الزرع والماء إذا نما وزاد . وقيل الزكاة مأخوذة من التطهير ، فكأن الخارج من المال يطهر ومن تبعة الحق الذي جعله الله للمساكين(3) .

1 ـ وزكاة أموال التجارة ، على ما يقول الفقهاء لا تزيد على 1/2 2 بالماية وهي كل شيء اشتراه الانسان ونواه للتجارة ، فانه يقوم وتدفع زكاته .

2 ـ زكاة النقود : يعني بالنقود الذهب والفضة والأوراق المالية المتداولة المفيدة مالاً ، سواء كانت نحاسية أو غيرها فكلها مال تجب فيه الزكاة . فما ملكه الانسان من ذهب أو فضة أو عملة مالية عليه زكاته إذا كان مالكاً أكثر من الحد الأدنى ، وحال على بداية هذا التملك حول قمري كامل ، فإنه عليه أن يدفع 2,5% مما ملكه وما ربحه خلال العام ، يضاف الى رأس المال ، فالزكاة مستحقة على المال وعلى نموه خلال العام .

3 ـ زكاة الزروع والثمار تقتصر الضريبة على الحبوب التي تكال وتدّخر ، وعلى الخضر والبقول فضلاً عن الحبوب وهي على قسمين :
1 ـ « إن فيما سقت السماء أو سقي سبيحاً من ماء القنوات العشر »
2 ـ « وفيما سقي بالضرب (أي بعمل الانسان) نصف العشر »(4)

وقال الشافعية : ما يخرج من الأرض سواء كانت عشرية أو خراجية فيه زكاة إذا توفرت فيه شروط معينة .

1 ـ أن يكون مما يقتات به .
2 ـ أن يكون مملوكاً لمالك معين .
3 ـ أن يبلغ نصاباً ، والنصاب عندهم خمسة أوسق والوسق يعدل 120 كلغ .
4 ـ ولا تجب الزكاة على الثمار إلا أن تكون عنباً ورطباً أما غيرها من الفواكه فلا زكاة فيها عندهم . ومذهب الحنابلة والمالكية قريب من مذهب الشافعية .

4 ـ وفي زكاة المواشي كالابل والغنم والبقر شرط بلوغها النصاب القانوني أو الحد الأدنى في

(3) أنظر الاختيار شرح المختار ج 1 ص 98 .
(4) الأموال ص 38 .

العدد « فيكون في كل خمس من الابل شاتان ، وفي العشر أربع شياه وفي البقر ثلاثون ، وفي الغنم أربعون . وكل هذه المواشي يجب أن تكون سائمة في المراعي وغير مشتغلة بشيء .

ففي زكاة البقر يلاحظ التفرقة بين تبيعها ومسنها ، فتبيعها فهو الذي أوفى سنة من العمر ، فما زال يتبع أمه ، ومسنها هو الذي استكمل سنتين .

ففي كل ثلاثين ثوراً تبيع ، وفي كل ثلاثين بقرة تبيعة ، وفي كل أربعين مسن الى ستين ضعف ما ذكرنا . . .

وزكاة الغنم تقرر في كل أربعين منها شاة ، وفي كل مئة وإحدى وعشرين شاتان ، وفي كل مئتين وواحدة ثلاث شياه ، وفي كل أربع مئة أربع شياه ، وما زاد على ذلك ففي كل مئة شاة[5] .

أما الحيوانات الأخرى كالخيل والبغال والحمير فلا تجري عليها ضريبة الزكاة إلا إذا دخلت في أموال التجارة ، فيلزم دفع الجزية عنها قدر بربع العشر أي 1/40 وقد ورد في القرآن الكريم الأصناف الثمانية التي سميت بمصارف الزكاة 2,5% قال سبحانه وتعالى :

﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله ، والله عليهم حكيم ﴾[6] . فالصدقات مصروفة :

للفقراء : الذين لا يجدون ما يقي موقعاً من كفايتهم . والمساكين وهم الذين يتظاهرون باعتناق الدين الاسلامي من النافذين في قومهم فليثبت هذا وحتى يسلم نظراؤهم ويذبوا عن المسلمين . وقد ألغي سهم هؤلاء فيما بعد ، وفي الرقاب : هم العبيد الذين تعاقدوا مع سادتهم على تحرير رقابهم في سبيل الله لقاء مقدار من المال ، فبيت المال يتحمل عن هؤلاء المبلغ المقرر ليحررهم من نير العبودية . والاسلام هو العامل منذ البداية على إلغاء الرق . ويدخل في المؤلفة قلوبهم أن يعطى الزعماء السياسيون المجمدون عن العمل السياسي في الدولة الاسلامية .

والغارمين : أهل الدين اذا استدانوا لغير معصية أو تابوا وليس لهم وفاء أو لإصلاح ذات البيت ولو أغنياء .

وفي سبيل الله : القائمون بالجهاد المقدس ممن لا فيء لهم ولو أغنياء .

وابن السبيل : المنقطع في سفره فإنه يعطي من مورد الزكاة ولو كان من الأغنياء في بلده . وصرف هذه الأموال فريضة من الله العليم الحكيم ولا يجوز صرفها لغير هؤلاء[7] .

---

(5) الأموال ص 41 وقانون اختيار شرح المختار ج 1 ص 106 .

(6) التوبة الآية 60 .

(7) خراج ابي يوسف ص 59 .

وكما ذكرنا كان للزكاة ديوان خاص في مركز الخلافة يتبعه فروع في سائر البلدان .

بيت مال الزكاة

الأساس في النظام المالي الاسلامي أن يكون للزكاة ميزانية خاصة ينفق منها على مصارفها المحدودة ، وهي مصارف إنسانية لا تضم إلى ميزانية الدولة العامة التي تتسع لمشروعات مختلفة . وفي الآية الكريمة في سورة التوبة إشارة إلى هذا المبدأ ، حين قررت أن العاملين عليها يأخذون مرتباتهم منها . لذلك وجب أن يجعلوا للزكاة بيت مال خاص بها .

وقد قسموا بيت المال في الدولة الاسلامية الى أربعة أقسام :

1 ـ **بيت مال الزكاة** : وفيه تكون حصيلتها تجبى بواسطة السعاة وتوزع على مصارفها حسب الحاجة إليها .

2 ـ **بيت مال الجزية والخراج** : والجزية مال يؤخذ من غير المسلمين الذين يقيمون على أرض الدولة الاسلامية ، يؤخذ منهم مقابل ما يؤخذ من المسلمين في الزكاة . والخراج ضريبة سنوية تفرض على الأرض حسب انتاجها .

3 ـ **بيت مال الغنائم والركاز** : خاص يصرف في مصارفها المشروعة له .

4 ـ **بيت مال الضوائع** : وهي الأموال التي لا يعرف لها مالك ومنها الأموال التي لا وارث لها .

وقد شدد الاسلام على الزكاة فجعلها القرآن الكريم مع التوبة من الشرك وإقامة الصلاة عنوان الدخول في دين الاسلام . قال تعالى في شأن المشركين المحاربين ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم ﴾[8] . وجاء أيضاً في السورة نفسها : ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فأخوانكم في الدين ﴾[9] .

ومنهج القرآن الكريم والسنة الشريفة يقرنان الصلاة بالزكاة دائماً ، دلالة على قوة الاتصال بينهما ، فالصلاة عمود الاسلام ، والزكاة قنطرته ، من عبر عليها نجا . قال عبد الله بن مسعود : ﴿ أمرتم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ومن لم يزكّ فلا صلاة له ﴾[10] .

إن للزكاة أثراً جليلاً على المجتمع ، فمن مظاهرها التكافل الاجتماعي والأخوة الانسانية ، فعدم استئثار الفرد على أخيه بما يكون أحوج إليه منه ، يشيع عدالة اجتماعية رفيعة المستوى ، عدالة تنبع من داخل الفرد ولا تفرض عليه ، فهو يشعر أن ما في يده يجب أن يسخره بدافع شخصي لقضاء حاجة أخيه ، لأن الأخوّة هي الرباط الوثيق التي تجمع أفراد المجتمع وتجعل منهم جسماً واحداً ، إذا أصيب أحد أعضائه تداعت له سائر الأطراف بالحمى والسهر . والأخوة أرفع شأناً من المال، وما جعل المال إلا صوناً لها . وعندما يشعر الطرف الآخر ، الذي يُعْطى ان ما في يد أخيه لقضاء حوائجه ، يكون بلا ريب أدعى في نفسه

---

(8) التوبة الآية 5 .

(9) التوبة الآية 11 .

(10) تفسير الطبري ج 14 ص 153

للحفاظ عليه ، ويحب ازدياده بين يديه بلا طمع أو غيرة أو حسد .

وعندما يكون المال للجميع وبخدمة الجميع دون مفاضلة ، يتحقق عندها التوازن الاجتماعي ، وتزول الفوارق بين الأفراد فيذهب الفقر ويزول الفقراء . فالزكاة بمفهوم الشرع الاسلامي تقوم بأداء دور المساواة ، وتحقيق العدالة الاجتماعية حتى يكون الناس جميعاً طبقة واحدة ، في مستوى المعيشة ، لا يفضل أحدهم على الآخر ، إلا بصفاته الشخصية ، الموهوبة له تكوينياً لا تشريعياً .

« أما روح الزكاة ، فهي الفريضة التي يجبر على تأديتها المستخلف ، عند تخلفه عن تأدية مهمة الاستخلاف ، وتحقيق غايتها « وهي عدم الاستئثار على الأخ بما هو أحوج إليه » فتقوم الفريضة ، بتأدية هذا الدور في الحدود الممكنة ، لأن المال مال الله جعله خواتيمه في الأرض لصالح عباده ، فلا فضل لمجتنيه إلا فضل الوسيط في إيصال ما أؤتمن عليه »(11) .

هـ ـ زكاة المعدن والركاز

المعدن هو ما خلقه الله تعالى في الأرض من ذهب أو فضة أو نحاس أو رصاص أو كبريت أو غيره . والركاز هو كل ما ركزه الله في الأرض ولم يضعه أحد من البشر ، أو كان كنزاً تركه بعض الناس .

وتجب الزكاة في المعادن المستخرجة من الأرض إذا بلغت الكمية المستخرجة والصافية النصاب . سواء كان المستخرج مسلماً أو غير مسلم في أرض الاسلام ولا يشترط في الوجوب حولان الحول .

قال الحنابلة : المعدن هو كل ما تولد من الأرض ، سواء كان جامداً كذهب أو فضة . . . أو مائعاً كالزرنيخ والنفط .

وعند ذلك يجب على من استخرج من ذلك شيئاً وملكه ربع العشر أي ما يعادل وقد اشترطوا شرطين :

1 ـ أن يبلغ بعُد تصفيته نصاباً من ذهب أو فضة ، أو ما تساوي قيمته نصاباً من غيرها .
2 ـ أن يكون المستخرج مسلماً .

وجاء عند الدكتور صبحي الصالح عن الحسن البصري : « ما كان من ركاز في أرض الحرب فقيه الخمس ، وما كان في أرض السلم ففيه الزكاة ، وهو ربع العشر »(12) .

ندرك من كل ما تقدم مقدار ما يمكن أن تجمعه الدولة في صندوق الزكاة من أموال طائلة تلبي حاجات الفقراء والمساكين كلهم وتزيل الفقر بأبشع صورة . الفقر الذي يعيق الناس من التقدم والعطاء ويمنعهم من تفجر كفاءاتهم ومواهبهم .

---

(11) الأموال لأبي القاسم والاسلام لسعيد حوى (باب الزكاة) . وراجع الضمان الاجتماعي في الاسلام للشيخ سليمان اليحفوفي ص 85 .

(12) نظم اسلامية للدكتور الشيخ صبحي الصالح ص 357 .

فالأوراق النقدية من جميع أنواعها في أيدي الناس أو الشركات فيها الزكاة .
وكل عروض التجارة الموجودة في المصانع والمعامل فيها الزكاة .
وكل المواشي من أغنام وأبقار وجمال فيها الزكاة .
وكل الزروع والثمار إذا بلغت النصاب فيها الزكاة .

والمعادن الجامد والسائل وخاصة البترول فيه كذلك الزكاة ، وكلنا يعلم كم يعطي الذهب الأسود من ملايين ومليارات في دول الخليج ، فلو ضبط ودفع أصحابه الزكاة المتوجبة عليهم لما بقي لا فقير ولا مسكين على جميع الأراضي العربية .

الخراج :

ضريبة تفرض على الأرض التي صالح عليها المشركون بمقدار معين من حاصلاتهم الزراعية أو من أموالهم ، وهذا المقدار المفروض يسمى خراجاً(13) وقد ميز بين الأرض العشرية والأرض الخراجية كل أرض أسلم أهلها عليها ، أو فتحت عنوة وقسمت بين الغانمين ، فهي عشرية ، وما فتح عنوة وأقر الامام أهلها عليها أو صالحهم فهي خراجية سوى مكة شرفها الله تعالى .

وقد وردت لفظة خراج في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ فخراج ربك خير وهو خير الرازقين ﴾(14) . فهنا الخراج يعني الأجر والثواب والرزق . ومن الناحية اللغوية تأتي بمعنى التخريج ، كأن هذا المقدار المأخوذ خارج من الشيء الذي وقعت عليه الضريبة .

والخراج يؤخذ عن الأراضي التي افتتحها المسلمون عنوة وحرباً فإذا أراد الخليفة ، وقفها على مصالح المسلمين ، أو وزعها على المحاربين .

كما يفرض الخراج عن الأراضي التي أفاء الله بها على المسلمين فملكوها صلحاً ، واستحوذوا على مقدراتها دون قتال . كان أهل هذه الأراضي يؤدون الى المسلمين خراجاً معلوماً يدخل بيت المال . وإذا ما القينا نظرة الى مساحة الأراضي الشاسعة التي منحها المسلمون صلحاً دون قتال ، هالنا المقادير الكبيرة من الأموال التي دخلت الخزينة الاسلامية .

كان الخراج شيئاً مقدراً من حاصلات زراعية . ورد في كتاب الأموال :

« . . . إن عمر بعث ابن حنيف الى السواد . فطرّز الخراج ، فوضع على جريب الشعير درهمين ، وعلى جريب الحنطة أربعة دراهم ، وعلى جريب القصب ستة دراهم ، وعلى جريب النخل ثمانية ، وعلى جريب الكرم عشرة ، وعلى جريب الزيتون اثنا عشر ، ووضع على الرجل الدرهم في الشهر والدرهمين في الشهر(15) وكان الخلفاء يشرفون بأنفسهم على جباية

---

(13) تفسير الجلالين ص 258 .

(14) سورة المؤمنون الآية 72 . تفسير الجلالين ص 458 .

(15) الأموال ص 98 وطرز الخراج فصل مقاديره . وفرض على الرجل الدرهم وعلى الآخر الدرهمين تبعاً لحال كل منهما .

الخراج عندما يظنون سوءاً في أمر الولاة أو الجباة ، وكانت محاسبتهم على ما جنت أيديهم »
هذا النظام أطلق عليه نظام المقاسمة[16] وهناك نظام آخر هو نظام الالتزام أو نظام الاقطاع وهو على نوعين :

نظام اقطاع استغلال ونظام اقطاع تمليك . والتمليك يقسم الى قسمين :

أ ـ موات . ب : عامر[17]

والنبي عليه السلام اقطع أناساً من مزينة أرضاً لا ليتملكوها فحسب بل ليعمروها ، وفي هذا قال عمر بن الخطاب : « من كان له أرض ثم تركها ثلاث سنين لا يعمرها ، فعمرها قوم آخرون فهم أحق بها »[18] .

والغرض من نظام الاقطاع هذا هو تشجيع الناس على إحياء الأرض الموات وتنشيط مختلف الزراعة والعمران .

ولكن الناس في كل زمان يسيئون تطبيق النظام فيخالفون بوقائعهم العملية أنبل التعاليم والأنظمة ، فكان بعض الذين أعطوا أرضاً ليلتزموا عمارتها لا يترددوا في إثقال الأهالي بأنواع الضرائب المختلفة ، فيؤدي الى بيت المال ما عليه من الخراج ويحتفظ بما زاد عنه لنفسه ، وهكذا جمعت باسم الاقطاع والنظام أموال حرام .

وفي العصر العباسي عندما تولى الأتراك السلطة ، امتاز الاقطاع بنوع من الشمول فلم يعد مقصوراً على اقطاع أجزاء من الأرض في الولاية الواحدة ، بل أصبح يشمل ولاية كاملة . فكان المتنفذون من الأتراك يقطعون بعض الناس الولاية كلها بشرط أن يؤدوا في المقابل ـ في العصر العباسي مبلغاً كبيراً من المال الى خزانة الدولة ، هذا عدا عن الهدايا وغيرها من الرشوة .

وقد عمرت معظم المناطق الزراعية كالعراق مثلاً فقد نجح أهلها بزراعة الحنطة والشعير ، حتى بات أهل السواد يدفعون منها الخراج بدلاً من النقد والعملة . والدولة الاسلامية ، سبقت غيرها من الدول في فرض مثل هذه الضرائب على الأرض بغية إعمارها وإصلاحها وتنمية موارد بيت المال . الى جانب هذا أفادت في تخفيف حدة النزاع الطبقي بين المالكين والفقراء[19] .

حكم الأرض الخراجية

اختلف الصحابة في مصير أرض الخراج فهل تقسم بين المجاهدين أو أنها تحبس على المسلمين ؟ وبعد أن استقر الرأي على حبسها وضرب الخراج عليها فهل يجوز شراؤها ؟ وإذا انتقلت من ذمي الى مسلم فهل يؤدي عنها خراجها ؟ ومن ثم زكاتها وهو العشر ؟

---

(16) الخراج ص 417 .
(17) الأحكام السلطانية للماوردي ص 183 .
(18) النظم الاسلامية لحسن ابراهيم ص 197 .
(19) راجع كتاب الأموال ص 386 وما بعدها .

أكثر الصحابة قالوا بأن تبقى أرض الخراج بيد الذميين الذين يعملون عليها ويؤدون خراجها ولا تنتقل الى المسلمين بالشراء أو الهبة .

وقد علل أبو عبيد القاسم بن سلام فقال : « إن الخراج صغار . وقد روى عن عمر بن الخطاب أنه قال : « لا تشتروا رقيق أهل الذمة فإنهم أهل خراج وأرضوهم فلا تبتاعوها ، ولا يقرن أحدكم بالصغار بعد إذ نجاه الله منه »[20] .

ورأي عمر أن الخراج يضرب على أهل الذمة فإذا انتقلت أرض الخراج من يد ذمي الى يد مسلم بخراجها ، لزم على المسلم في هذه الحال أن يؤدي الخراج كما يؤديه الذمي . أما الامام مالك فإنه يرى أن كل أرض فتحت صلحاً فهي لأهلها . لأنهم منعوا بلادهم حتى صولحوا عليها ، وكل أرض فتحت عنوة فهي فيء للمسلمين[21] .

ولكن عمر بن عبد العزيز يرى أنه لا صغار في أداء خراج الأرض ، ومن ثم فلا حرج في شرائها ؛ وان الآية الكريمة : ﴿ حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ أنها على الرؤوس لا على الأرض .

فيلزم على المسلم والحالة هذه أن يدفع العشر والخراج . لأن العشر زكاة واجبة على المسلم لا تسقط بأي حال ، والخراج أصل مفروض على الأرض تعلقت به حقوق قبل أن تنتقل الأرض إلى يد المسلم .

ويفرق أبو عبيد بين العشر والخراج فيقول موضحاً : إن الخراج أعطية المقاتلة وأرزاق الذرية ، والعشر صدقة الأصناف الثمانية التي ذكرها الله جل شأنه في قوله : ﴿ إنما الصدقات للفقراء ، والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب ، والغارمين ، وفي سبيل الله ، وابن السبيل ﴾ . التوبة الآية 60 .

ويروى عن ابن عباس أنه كان يقول : « لا أحب أن يجتمع على المسلم صدقة المسلم وجزية الكافر »[22] .

الجزية :

وجبت الجزية بنص من القرآن الكريم قال سبحانه وتعالى : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾[23] .

والجزية هذه مبلغ معين من المال يوضع على الرؤوس من الناس[24] .

(20) كتاب الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام ص 79 .
(21) المصدر نفسه ص 77 .
(22) المصدر نفسه ص 89 .
(23) سورة التوبة الآية 29 .
(24) أحكام أهل الذمة ص 22 .

وضـريبة الجـزية تختلف عن ضـريبة الخـراج فهي تسقط بالاسـلام على حـين لا يسقط الخراج باعتناق الدين الاسلامي .

وقد فرضت الجزية على أهل الذمة كما فرضت الزكاة عـلى المسلمين ، والجميـع في نظر الاسلام رعية لدولة واحدة . يتمتعون بحقوق واحدة ، وينتفعون بمصالح الدولة العامة بنسبة واحدة . أما الزكاة ، فهي تتضمن معنى تعبدي ، بينما الجزية تحمـل معنى قانـوني يدخـل فيما يسمى بحقوق الدولة الخاصة . قال القرطبي في ذلك :

الجزية وزنها فعلة من جزى يجزى إذا كافأ عما أسدى إليه(25) .

فكأن الجزية أثبتت للذمي الأمن العام على نفسه وأهله وماله في المقام والسفر .

فـالمسلم وجب عليه الجهـاد في سبيل الله ، والـذمي وجبت عليه الجـزيـة وذلـك بغيـة التكافؤ العادل بين المسلمين والذميين .

تؤخذ الجزية من ثلاث أصناف :

1 ـ الأغنياء فرض عليهم قيمة ثمانية وأربعون درهماً .

2 ـ المتوسطون فرض عليهم قيمة أربعة وعشرون درهماً .

3 ـ الفقراء فرض عليهم قيمة اثنان وعشرون درهماً وقد أعفى من هؤلاء المرضى والعجز وغير المتكسبين من حرفة أو غيرها .

فلا جزية على مسكين ، ولا على مقعد ، ولا على المجنـون ، ولا على ذي عـاهة ، ولا على الرهبان في الأديرة ، ولا على المرأة ، ولا على الصبي ، ولا على العبد المملوك(26) وبذلـك توجب الجزية على الحر القادر .

والجزية موجودة منـذ العهود القـديمة قبـل الاسلام ، فقـد فرضهـا اليونـان قبل الميـلاد بقـرون ، وكذلـك الرومـان والفرس فقـد ألزمـوا الأمم التي خضعت لحكمهم عـلى دفعهـا . وكانت باهظة جداً أثقلوا بها كواهل الشعوب .

وممـا ذكر أنها كـانت سبعة أضعـاف الجزيـة التي وضعها الاسـلام على الـذميين . وقـد أوصى المسلمون بالتلطف عند أخذها ، فلا يضرب أحد من أجل استيفائهم الجـزية ، ولكن يرفق بهم ويحبسون حتى يؤدوا ما عليهم(27) .

وقد أظهر المسلمون تسامحاً كبيراً مع أهل الـذمة حتى غيّـر بعضهم دينهم . ففي العهـد الأموي تسلم المسيحيون مناصب رفيعة في الحقل المالي وعاملهم الأمويون معاملة حسنة وكانوا من أهل الذمة المقربين ، ومما ذكر من مواطن الشدة في الشرع الاسلامي ينصرف الى اليهود ، مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ لتجدنّ أشد الناس عداوة للذين آمنـوا اليهود والـذين اشركـوا ولتجدنّ أقـربهم مودة

(25) أحكام أبي يعلى ص 137 .

(26) أحكام أهل الذمة ص 49 . والأحكام السلطانية للماوردي ص 128 .

(27) المصدر نفسه ص 34 .

للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وانهم لا يستكبرون ﴾(28) .

فالنصارى لا يستكبرون عن أتباع الحق كما يستكبر اليهود وأهل مكة . قال المفسرون أن هذه الآية نزلت في وفد النجاشي القادمين عليه من الحبشة قرأ ﷺ سورة يس فبكوا واسلموا وقالوا ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى عليه السلام .

واجبات أهل الذمة وحقوقهم في أمر الجزية

وعندما يدفع أهل الذمة الجزية وجب لهم حقوق على الدولة الاسلامية :

1 ـ الكف عنهم ليكونوا آمنين .

2 ـ الحماية لهم ليكونوا محروسين .

روى نافع عن ابن عمر قال : كان آخر ما تكلم به النبي ﷺ أن قال : « احفظوني في ذمتي »(29) .

وقد سمعت بعضهم يقول : ان الجزية رمز لخضوع الانسان للسلطة الاسلامية . نقول لهذا السائل ولغيره عن المبررات لدفع الجزية .

أولاً : يستمتع دافعو الجزية بالمرافق العامة مع المسلمين كالقضاء والشرطة وغيرها . . . والمرافع العامة كما نعلم تحتاج الى نفقات يدفع المسلمون القسط الأكبر منها . فلا بد لأهل الكتاب ومن جرى مجراهم من أن يدفعوا الجزية ويشاركوا في تكاليف هذه المرافق .

ثانياً : يعفى أهل الكتاب من حمل السلاح من أجل الدفاع عن البلاد ، ويقوم بذلك المسلمون ، ولذلك وجب على أهل الكتاب دفع هذه الضريبة نظير إعفائهم من الجهاد والدفاع عندما تقضي الحاجة . أما إذا أحب أحدهم أن يشترك في أمر الدفاع تسقط عنه الجزية ويعفى من دفعها .

كما تسقط الجزية أيضاً إذا عجز المسلمون عن الدفاع عنهم وحمايتهم .

يروي البلاذري أن المسلمين عندما دخلوا حمص أخذوا الجزية من أهل الكتاب الذين لم يريدوا أن يدخلوا في الاسلام . ثم عرف المسلمون أن الروم أعدوا جيشاً كبيراً لمهاجمة المسلمين ، فأدركوا أنهم لا يقدرون على الدفاع عن أهل حمص ، وقد يضطرون للانسحاب ، فأعادوا إلى أهل حمص ما أخذوه منهم وقالوا لهم : شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم . فقال أهل حمص : إن ولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم ، ونهضوا بذلك فسقطت عنهم الجزية(30) .

ونذكر في النهاية أنه في ظل نظام إسلامي لا يقبل من المسلم مال في مقابل سقوط

(28) سورة المائدة الآية 82 .

(29) الأحكام السلطانية للماوردي ص 127 .

(30) فتوح البلدان للبلاذري ص 143 .

القتال عنه وان الأصل أن يؤخذ من كل غير مسلم بـدل عسكري هـو الجزيـة إلا إذا ارتضى أن يقاتل مع المسلمين ، وهذا متروك للمسلمين إذا وثقوا به .

الغنيمة :

الغنيمة معناهـا اللغوي مـأخوذ من الفـوز بالشيء(31) ومعنـاها الاصـطلاحي مشتق من المعنى اللغوي وهي مال من أموال الكفار ظفر به المؤمنون على وجه الغلبة والقهر(32) .

وبعد أن تجمع الغنائم يقسمها الامام خمسة أقسام ، ثم يتناول خمساً منها ، خمسة أسهم بين أهل الخمس المذكورين في قوله تعـالى : ﴿ واعلموا أن مـا غنمتم من شيء فإن لله خمسـه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل(33) .

والأسهم الخمسة في هذا الخمس أحدها سهم للرسول ينفقه في مصالحه ومصـالح بيتـه وما يراه بعد ذلك من مصالح المؤمنين ، وقد سقط هذا السهم بعد موته .

والسهم الثـاني لذوي القـربى النبي من بني هاشم وبني عبـد المطلب . والسهم الثـالث لليتامى ، والسهم الرابع للمساكين ذوي الحاجة من المسلمين ، والسهم الخامس لابن السبيل المسافر المنقطع عن بلده ، والاخماس الأربعة الباقين للغانمين(34) .

والامام له الحق ام آثر أن يمنّ على الأسرى بالحرية فله ذلـك(35) كما لـه أن يقتلهم جميعاً إن وجـد أن المصلحة في قتلهم لمقـابلة العـدد بـالمثـل في بعض الحـالات . غـير أن الأخمـاس الأربعة ، ملك الغانمين ، نظمها الرسول ﷺ بالعدل بين المقاتلين فأعطى الفارس ثلاثة أسهم والراجل سهماً واحداً(35) .

والغنيمة تقسم الى أربعة أقسام : الأسرى والسباء والأراضي والأموال .

فالأسرى : كل محارب وقع أسيراً ، والسبـاء : يراد بـه النساء والأطفـال فلا يجـوز أن يقتلوا ، ولا سيما إذا كانوا من الذميين . أما الأرض التي استولى عليها المسلمون عنوة وقهراً ، فتقسم بين الغانمين إلا أن يطيبوا نفساً بتركها فتجعل وقفاً على مصالح المسلمين(36) .

هـذا التقسيم كان يحـدث بلا ريب بعـد انتهاء الحـرب ولا بد من الانـتظار حتى تضع الحـرب أوزارها وذلـك حتى لا يتشاغـل المسلمون بـالأسلاب ويتلهـون عن إحـراز النصـر . ويدخل في باب الغنيمة ، وربما أصبح ملكاً لسالبه . وما يبـدو أن هذا العمـل يعتبر تشجيعـاً لبعض المؤمنين على البلاء الحسن في القتال . وجاء في الحديث : « من قتـل قتيلاً فله سَلَبُـه » والقتيل من الكفار الذين آذوا المؤمنين ووقفوا في طريق الاسلام .

---

(31) القاموس المحيط (للفيروزابادي) باب الميم فصل الغين (غنم) ص 121 وكتاب الأم للشافعي ج 4 ص 64 .

(32) سورة الأنفال الآية 41 .

(33) تفسير الجلالين ص 240 .

(34) أحكام أهل الذمة تحقيق الدكتور صبحي الصالح ص 16 .

(36) أنظر أحكام الماوردي ص 132 وأحكام أبي يعلي ص 134 .

الفيء :

فاء يفيء إذا رجع الى الشيء . والفيء اصطلاحاً هو المال الذي أصابه المسلمون عفواً دون قتال وهو كالغنيمة من حيث قسمته يقسم الى خمسة أخماس ، فالسهم الأ،ل منها لرسول الله والأسهم الأربعة الباقية لذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل عملاً بقوله تعالى : ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ، وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾(37) .

أما أربعة أخماس الفيء الباقية فكانت تصرف في المصالح العامة للدولة للجند والأسلحة الحربية وغير ذلك .

وعن فرض الأعطية من الفيء ورد في كتاب الأموال قال : « حدثنا عبد الله بن صالح حدثنا موسى بن علي بن رباح عن أبيه . . . من أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل ، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني ثم قال : فمن أسرع الى الهجرة أسرع به العطاء . ومن أبطأ عن الهجرة أبطأ عنه العطاء ، فلا يلومنّ رجل إلا مناخ راحلته(38) .

فالذين لم يهاجروا لا يحق لهم نصيب من مال الفيء . قال « فأما السنة وليس لهم في الغنيمة والفيء شيء » . وأما التنزيل فقوله تعالى :

﴿ . . . والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا ﴾(39) .

فالفيء مصداق من مصاديق الأنفال يعود البحث فيه ضمن تنمية قطاع ولي الأمر . والفيء جعله الله للمحرومين في مجتمعهم ليرفع من شأنهم ويبلغ بهم مستوى الميسورين وقد جعلها الله بمصاف رسوله وحرم الأغنياء منها ، واختص بهذا السهم اليتامى والمساكين وابن السبيل حتى بلغ بهم رسوله ﷺ معظماً إياهم رافعاً من شأنهم . وكل ذلك تعويض لهم عما لحق بهم من حرمان ، فمن أعطاه فقد أعطى الله ومن منعه فقد منع الله ، ولا ترتفع مكانتهم إلا بارتفاع مسكنتهم .

والرسول ممثل للمساكين واليتامى وابن السبيل وبه ﷺ أحسوا بوجودهم الفاعل في مجتمعهم وحازوا رفعة وفخاراً . لذلك نالوا سهمه ورفعهم الله الى صفه ﷺ إن الاسلام العادل سوى بين الطبقات فلا أغنياء يملكون الضياع ويحفظون المال الوفير ولا فقراء ليس لديهم الكفاية لقضاء حوائجهم الضرورية لحياتهم . والمال ابتلاء وامتحان للانسان وكذلك الحرمان والفقر . فالأول ابتلاء الاداء والشكر « وبالشكر تدوم النعم » والثاني ابتلاء التحمل والصبر .

---

(37) سورة الحشر الآية 6 -7 .

(38) الأموال ص 319 ويعني بالمناخ عى المقعود عن السفر الى الهجرة .

(39) الأموال ص 307 وانظر سورة الأنفال الآية 72

والانسان يشعر مع المال بالعزة والكرامة ، ومع الفقر بالامتهان والاحتقار ، في عصرنا وفي كل عصر . ولكن لو قام الغني بتأدية ما وجب عليه اتجاه الفقير لزادت نعمه ودامت . قال تعالى: ﴿ وإن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا ﴾(40) أما الغني الذي لا يقدر نعمة الله عليه ، ولا يعترف ان المال مال الله وهو مسير له ليس إلا ، تقسو نفسه ويزداد اختيالاً وفخراً ، ويزداد نهمه للمال إكثاراً وجمعاً . هذا المفتخر بماله وغناه تناسى موضع الامتحان دون التفات إلى ما يطلب منه لكي يحافظ على ابتلائه الحسن .

وقد حذر الله أمثال هؤلاء فخاطبهم ﴿كلا بل لا تكرمون اليتيم ، ولا تحاضون على طعام المسكين ، وتأكلون التراث أكلاً لما ، وتحبون المال حباً جما ﴾(41) لذلك تم ابعاد مثل هؤلاء الأغنياء عن سهم الرسول ﷺ واختص بهم المحرومون الصابرون حتى أدركوا به مستوى غيرهم .

العشور (الجمارك)

العشور هي ضرائب في الاسلام تؤخذ على بضائع التجار الكافرين الذين قدموا اليها من دار الحرب الى دار الاسلام . وكان من صلاحيات الامام أن يزيد فوق العشر أو أن ينقص الى نصف العشر ، كما له الحق أن يرفع ذلك عنهم نهائياً إن رأى المصلحة فيه ، بعد أخذ رأي العلماء وكان لا يزيد الأخذ على مرة من كل قادم بالتجارة في كل سنة ، حتى ولو تكرر قدومه خلال السنة(42) .

والعشور ليست من الموارد التي ذكرها القرآن الكريم ، ولكنها اجتهاد اتضح في عهد عمر بن الخطاب ، ويروي قصة ذلك أبو يوسف فيقول : إن أهل منبج ، كتبوا الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقولون : دعنا ندخل أرضك تجاراً وتعشرنا . فشاور عمر أصحاب رسول الله ﷺ بذلك فأشاروا عليه به ، فكانوا أول من عشر من أهل الحرب(43) .

أما الدواعي التي شرعت العشور فهي :

1 ـ إذا دخل تجار المسلمين دار الحرب يدعوا عشر تجارتهم ، فيسترد جماعة المسلمين هذه الخسارة على سبيل المعاملة بالمثل بأخذ عشر تجارة الوافدين من دار الحرب .

2 ـ التجار الوافدون من الخارج ينتفعون بالمرافق العامة ، كالشرطة والقضاء وغيرها وهذه المرافق التي تحافظ عليهم ينفق عليها من بيت مال المسلمين ، فعلى هؤلاء أن يسهموا بنصيب في هذه النفقات ما داموا ينتفعون بها .

3 ـ يدفع المسلمون ما يترتب عليهم كالزكاة ومقادير أخرى للصالح العام عند الحاجة فإذا نافسهم في السوق جماعة ليست عليها مثل هذه المسؤوليات المالية انعدم تكافؤ الفرص

---

(40) الجن الآية 16 .

(41) الفجر الآية 16 -17 -18 -19 -20 .

(42) أنظر أحكام أهل الذمة ص 161 .

(43) الخراج لأبي يوسف ص 162 .

بين أبناء المهنة الواحدة ، وهو ما يسبب تجارة المسلمين .

هـذه الأسباب فـرضت العشر بـالنسبة للقـادم من دار الحرب ، ونصف العشـر $\frac{1}{20}$ بالنسبة للذمي ، لأن الأخير يدفع الجزية[44] .

وقد جددت الشريعة الاسلامية التجارة التي يدفع عنها العشر بأن تسـاوي قيمتها مـائتي درهم أو عشرين مثقالاً على الأقل[45] .

ويدخل في العشور كذلك الضرائب من السفن التي تمر ببعض الثغور فعليهـا أن تدفـع عشر ما تحمله عيناً ونقداً ، فقد كان عمال اليمن يأخـذون هذه الضـريبة من السفن التي تمـر بسـواحلهم قادمـة من الهند ، تحمـل الاعواد المختلفـة والمسـك والكـافـور والعنبـر والصنـدل والصيني ، وقـد بلغت أعشار السفن في أيـام الـواثق بـالله مـالاً كثيـراً . وكـان الانـدلسيـون يضربون على السفن التي تمر ببوغاز جبل طارق في ذهابها وإيابها ، فكان الافرنج أو غيرهم إذا مـروا بسفنهم أدوا الضريبـة في مدينـة هي في أقصى بلاد الأنـدلس جنوبـاً يقال لهـا طريف ، واسمها الآن Tarifa ويزعم الافرنج في هذه الكلمة التي تدل عندهم على الضرائب أو الرسوم التي تؤخذ على البضائع في دخـولها البـلاد وخروجهـا ، إنها تحريف « طـريق » المشار إليهـا ، لأنهم كـانوا يسمـون ما يـدفعون من رسـوم السفن « رسوم طـريف » ، ثم أهمل اللفظ الأول وبقي اللفظ الثـاني . مع أن لفظ « تعـريفة » في العـربية يـدل على نحـو معناهـا الافرنجي ، فيجـوز أن اللفظ الافـرنجي منقـول عن لفظ تعـريفـة العـربي أو تحـريف « طـريف » كـما يقولون[46] .

يتضح مما تقدم أن ضريبة العشر في الاسلام لها موجبان :

الأول: معاملة الدول الأخرى بمثل ما تعامل به الدولة الاسلامية .

الثـاني : سماح الـدولة الاسـلامية لبضـائع غـير المسلمين من الأعـداء في الدخـول إلى أرضنا وانتفاع تجار الحرب بذلك . فهل اليوم كذلك ؟

في المـاضي كانت دول العـرب دولـة واحـدة يحكمهـا مسؤول واحـد ، اسمـه خليفـة المسلمين . فالحدود والحواجز بينها مفقودة ، وكان من السهل جداً تطبيق ضريبـة العشور ، أو جمرك البضائع الأجنبية . أما الآن فهناك الحـدود والحواجـز والحروب بـين الأقطار الاسـلامية وبين المسلمين الذين أوجب عليهم الاسلام أن يكون أخوة ، وأن يكـون المسلم مرآة أخيـه ، يحب له ما يحب لنفسه ، ويكره له ما يكره لها .

والواقع أن تجار المسلمين يستوردون من دار الحرب الى دار الاسلام ، وأي بضاعـة من بـلادنا تـذهـب الى دار الأعداء وتؤخـذ عليهـا جمـارك . ويكفينـا مثـلاً عـلى ذلـك « البتـرول

---

(44) المصدر السابق ص 159 .

(45) المصدر السابق ص 158 .

(46) تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان ج 1 ص 227 .

العربي » . فلو وحد العرب المسلمون كلمتهم في شأنه ترى ماذا كان يحصل ؟ ليس من شأننا في هذا المجال الدخول في التفصيلات .

حكم أرض العشر إذا اشتراها الذمي

يقول بعض الفقهاء مثل أبي حنيفة وأبي يوسف أن يضاعف على الذمي العشر ويقول البعض الآخر مثل مالك بن أنس أن لا شيء عليه، لأن الصدقة إنما هي على المسلمين زكاة لأموالهم ، ولا صدقة على المشركين في أرضهم ومواشيهم . ومن رأيه أيضاً : أن الذي يبيع الأرض الا يبيعها لذمي ، لأن في امتلاكها إبطالاً للصدقة المفروضة عليها(46 أ) .

ويقول فقهاء الحنفية : كل أرض فتحت عنوة فأقر أهلها أو صالحهم الإمام هي أرض خراج . والخراج قسمان : أ ـ خراج مقاسمة وهو أن يكون للدولة جزء الناتج . ب ـ خراج موظف وهو أن يكون للدولة شيء معين سنوياً لا يتبدل ولا يتغير .

والخراج الموظف ينقص إذا تطقه الأرض . ومن أسلم من أهل الخراج أخذ منه الخراج على حاله ، (ولا خراج إن غلب الماء فعطل الأرض أو أصاب الزرع آفة سماوية ، كغرق وحرق وشدة برد) . ويجوز للمسلم أن يشتري أرض الخراج من الذمي ويؤخذ منه الخرج .

الأوقاف

من مصادر موارد بيت المال في النظم الاسلامية ، الأوقاف وهي على قسمين كما عرفها الفقهاء :

أ ـ أوقاف ذرية .

ب ـ وأوقاف خيرية .

وكلاهما لخير الانسان . أما الذرية فقد نسبت إلى ذرية الانسان لأنها تهدف في غايتها الى التكافل الاجتماعي لذرية الواقف وذويه وانتهائها إلى عمل من الأعمال الخيرية كمساعدة الفقراء أو طلبة العلم وما شابه . . .

والأوقاف الخيرية يهدف الواقف فيها عملاً من أعمال البر والخير ، يريد به وجه الله الكريم ، عملاً بالقول الكريم : الخلق كلهم عيال الله وأقربهم إليه أنفعهم لعياله . كما يعمل الى التوازن الاجتماعي ليورث بعمله الخير هذا الشعور بالطمأنينة في قلوب المحتاجين من أبناء أمته وذوي أرحامه . وتشمل هذه الأوقاف التي تنقطع على عمارة المدارس والمساجد ، وإصلاح الجسور والطرقات العامة والانفاق على المجاهدين ؛ كما تنفق أيضاً على المزارعين والتجار فيأخذون بذار أرضهم مجاناً ، ويعطون قسطاً من المال يساعدهم في نماء تجارتهم .

وتعطى أيضاً للعميان والمقعدين ، وتزويج الشباب العزّاب ، وإيواء اللقطاء واليتامى . . . ومن أطرف ما يذكر في هذا المجال وقف « نقطة الحليب » .

ذكر الدكتور صبحي الصالح أن : « الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي وقف نقطة الحليب

(46 أ) ـ الأموال لأبي عبيد ص ٩١ .

في قلعة دمشق لامداد الأمهات بالحليب والسكر لتغذية أطفالهن ، وذلك إن صلاح الدين جعل في أحد أبواب القلعة المذكورة ميزاباً يسيل منه الحليب ، وميزاباً آخر بجواره يسيل منه ماء مذاب بالسكر ، وعين للأمهات يومين في الأسبوع ليأخذن خلالها من الوقف حاجاتهن من الحليب والسكر »(47) .

إنه لأمر طريف كيف اهتدى الملك الناصر لمثل هذه الطريقة في استعمال الميزاب ؟

السياسة المالية الاسلامية تهدف الى عدم حصر المال في طبقة معينة ، أو إقليم معين ، أو شخص معين . ومراعاة حال الفقراء تنطلق من زاوية إصلاحية تراعي كل الظروف لأبناء الأمة الواحدة ، حتى يتمكن كل فرد من تقديم كل ما يملك من جهد وطاقة في سبيل قضيته وقضية مجتمعه ، بدون عوائق تحد من عبقريته أو تحول دون تفجيرها ؛ ذلك أن المجتمع الذي تزداد فيه الفوارق الطبقية ، وتهمل فيه الكفاءات العلمية على حساب الطائفية والمصالح الشخصية ، يحمل بلا ريب بين حناياه روح الحقد والانتقام ، وهو مؤهل في كل لحظة ليتفجر من أول شرارة . فقد يستطيع الحكام الظالمون من قهر فرد أو أفراد ، ولكنهم لن يستطيعوا أبداً قهر الشعوب .

لقد عالج الاسلام بذور الانفجار وأزال الشقة بين الطبقات الاجتماعية وخلق روح التعاون والتعاضد بين أفراده تحت ظل العدالة والمساواة للوصول بهم الى الصلاح والكمال .

الكفارات

الكفارة على حد تعبير الفقهاء هي تغطية الذنب وإزالته ، وتكون هذه التغطية بما هو أهم وأقوى من الذنب حتى تتمكن من إزالته .

وموارد الكفارات نجدها في عتق الرقبة أو إطعام المساكين أو الصيام .

وقد قسمت إلى قسمين :

أ ـ يخير المكلف بين ثلاثة أمور : 1 ـ عتق رقبة . 2 ـ صيام شهرين متتابعين . 3 ـ إطعام ستين مسكيناً .

ب ـ وقسم آخر يجب على المكلف الجمع بين الثلاثة معاً : العتق والصيام والإطعام وقد فصلها لنا الامام الطوسي في النهاية نوجزها بما يلي :

ـ كفارة اليمين إما عتق رقبة أو إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم .

فإن لم يقدر عن جميعها أو عن واحدة منها ، فعليه صيام ثلاثة أيام متتابعات .

وإطعام المساكين قدر مدين من الطعام فإن لم يقدر أطعم كل واحد مداً ولا يطعم إلا فقراء المؤمنين أو من هو بحكمهم .

وإذا أراد كسوتهم فليعط كل واحد منهم ثوبين يواري بهما جسده . فإن لم يقدر عليهما جاز له أن يقتصر على ثوب واحد .

ـ كفارة نقض النذور والعهود : عتق رقبة أو إطعام ستين مسكيناً أو صيام شهرين

---

(47) النظم الاسلامية للدكتور صبحي الصالح ص 370 .

متتابعين . فهو مخير فيها أيها شاء فعل .

- وكفارة الظهار عتق رقبة . فإن لم يجد عليه صيام شهرين متتابعين فإن لم يقدر على الصيام ، أطعم ستين مسكيناً .
- وكفارة من أفطر يوماً من شهر رمضان ، إما عتق رقبة ، أو إطعام ستين مسكيناً ، أو صيام شهرين متتابعين .
- وكفارة قتل الخطأ : عتق رقبة فإن لم يجد عليه صيام شهرين متتابعين فإن لم يستطع يطعم ستين مسكيناً .
- وكفارة قتل العمد : عتق رقبة وإطعام ستين مسكيناً وصيام شهرين متتابعين بعد رضا أولياء المقتول بالدية أو العفو عنه .

النذور والعهود

النذر هو أن يقول الانسان : إن حصلت على كذا أو كان كذا فلله كذا من صدقة أو صيام أو صلاة أو غير ذلك . فمتى كان ما نذر وجب عليه الوفاء بما نذر فيه ، ولم يَسُغ له تركُه . وإن قال : إن كان كذا وكذا فعليَّ كذا ولم يقل لله ؛ لم يكن ذلك نذراً واجباً ، بل يكون مخيراً في الوفاء به أو تركه . والأفضل له الوفاء .

ومن نذر لله تعالى : انه متى حصل أمر ، كان عليه شيء ، دون أن يعين ذلك الشيء أو يميزه ؛ كان له الخيار ، إن شاء تصدق بشيء أو صام يوماً ، أو فعل قربة من القربات .

والعهد هو أن يقول : عاهدت الله تعالى ، أو يعتقد ذلك ، انه متى كان كذا فعليَّ كذا . فمتى قال ذلك أو اعتقده وجب عليه الوفاء به عند حصول الشرط وجرى ذلك مجرى النذر سواء .

والنذر والعهد معاً ، يكون لهما تأثير إذا صدرا عن نية ، فمتى تجردا من النية لم يكن لهما تأثير على أي حال(48) .

ضرائب أخرى

التوظيف والضرائب حين الحاجة اليها

إذا هدد أمن الدولة الاسلامية أو حدثت بعض الطوارىء وجب أن تأخذ الدولة من أموال الناس بقدر ما تدفع به الخطر عن المواطنين ، ولا يحق للأغنياء أن يمتنعوا عن إعطاء الدولة ما تفرضه عليهم مهما كلف الثمن لأنها ترعى مصالحهم وتحمي أرزاقهم(49) .

ويقول الامام الشاطبي في هذا المجال : إذا قررنا إماماً مطاعاً مفتقراً إلى تكثير الجنود وسد الثغور وحماية الملك المتسع الاقطار وخلا بيت المال ، وارتفعت حاجات الجند إلى ما لا يكفيهم فللامام إذا كان عادلاً ـ أن يوظف على الأغنياء ما يراه كافياً لهم في الحال ، إلى أن

---

(48) راجع النهاية للامام الشيخ الطوسي ص 562 وما بعدها .

(49) راجع المستصفي للغزالي ج 1 ص 303 .

يظهر مال بيت المال ، ثم إليه النظر في توظيف ذلك على الغلات والثمرات وغير ذلك . . .
وإنما لم ينقل مثل هذا عن الأولين لاتساع بيت المال في زمانهم بخلاف زماننا .

فإنه لو لم يفعل الامام ذلك النظام بطلت شوكة الاسلام وصارت ديارنا عرضة لاستيلاء الكفار »[50] .

كما ورد في المصدر نفسه : يقول العز بن عبد السلام في كتابه القواعد ج 2 ص 162 « المصلحة العامة كالضرورة الخاصة ، فلو دعت ضرورة واحد الى غصب أموال الناس لجاز له ذلك ، بل يجب عليه إذا خاف الهلاك لجوع أو حر أو برد وإذا وجب هذا لاحياء نفس واحدة ، فما الظن بإحياء النفوس ، بل إقامة هؤلاء أرجح من دفع الضرورة عن واحد » .

يتضح لنا من هذه النصوص ومن نصوص كثيرة مشابهة : أن فرض الضرائب وتنظيمها جائز ولكن بشروط .

1 ـ أن تكون بقية واردات بيت المال لا تفي بحاجات الأمة .
2 ـ أن يكون الامام عادلاً فلا تكون مصارف الدولة على طرق غير مشروعة . فإذا اختل أحد الشرطين امتنع الجواز .
3 ـ في حال فرض ضريبة لا يجوز أن تبقى دائمة ومستمرة ، وإنما تبقى ببقاء الحاجة إليها فإذا انتعش بيت المال وكفت وارداته رفعت الضريبة .
4 ـ إن رأي الامام العادل ومجلس شوراه في مثل هذه الأمور ضروري .

نظام التوريث الاسلامي

نظام التوريث الاسلامي الذي فصلت أحكامه في الأكثر الغالب في سورة النساء يستحق بأمرين . الأول نسب والثاني سبب .

وأما النسب فعلى ضربين : نسب الوالدين ومن تقرب بهما . ونسب الولد للصلب ومن يتقرب بهم .

فالميراث بالنسب ثابت على كل حال ، إلا أن يكون هناك ذو نسب أولى منه بالميراث وأقرب منه ، أو مع كونه مساوياً أو أقرب يكون كافراً أو قاتلاً أو مملوكاً . فإن هذه الأسباب تمنع من الميراث مع وجود النسب .

وأما ميراث السبب فهو على ضربين : سبب الزوجية وسبب الولاء .

فالميراث بالزوجية ثابت على كل حال مع وجود ذوي الأنساب ، إلا ما يمنع من الميراث كما منع صاحب النسب من الكفر والقتل والرق .

وأما سبب الولاء فعلى ثلاثة أضرب : ولاء العتق ، ويكون مقصوراً على المعتق وولاء الجريرة وذلك مقصور على ضامن الجريرة والحدث خاصة . وولاء الامامة ويكون ذلك خاصاً فيمن لا وارث له من ذي نسب أو سبب .

---

(50) الاسلام لسعيد حوا عن الاعتصام للامام الشاطبي ج 2 ص 12 .

هذا تعريف الميراث وأقسامه(51) .

وما يهمنا هنا ما يدخل في موارد بيت المال .

أجاز التوريث الاسلامي للانسان المسلم بأن يوصي بثلث ما له لجهات البر والخير . وقد اجتهد بعض أصحاب المذاهب في فرض الوصية للأقرباء ، غير الوارثين بمقدار الثلث وهم يعتمدون بذلك على الآية الكريمة : ﴿ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت ان ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين ﴾(52) ، وإذا كان للمقتول وارث كافر ، كان ميراثه لبيت المال(53) .

يتضح لكل ذي بصيرة أن الاسلام في توزيع الثروات نظام قائم بذاته ، نظام عادل يرعى مصالح طبقة المحرومين والفقراء ، ويساوي بين الجميع حتى لا يكون في دولة الاسلام فقير أو محروم أو مسكين . وقد جاءت هذه التنظيمات العادلة منذ فرض الزكاة في أواخر العهد المكي ، أي حوالي سنة 620 م ، وبعد الهجرة سنة 622 م بدأ النبي بنفسه ﷺ تنفيذ نظام الزكاة لتأمين نفقات التكافل الاجتماعي .

السياسة المالية العادلة في الاسلام

لهذه السياسة أهمية كبيرة جداً إذ أنها تحقق الضمان الإلزامي العادل لأفراد المجتمع ، بعيداً عن التمييز العنصري ، أو الفوارق الطبقية، أو المصالح الشخصية . وعندما تطبق كما أرادها الله عزّ وجل في دستوره الكريم يسود الرخاء بين أفراد الرعية ويعم الصلاح ، وتحقق العدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص والتكافل الوثيق والتضامن البناء ، والتعاون والتعاطف اللذان يشدان أواصر الأخوة بين المؤمنين . فليس من طبقات اجتماعية دنيا ، وطبقات عليا ، من حيث مستوى المعيشة . قال تعالى في كتابه العزيز ﴿ خذ من أموالهم صدقة : تطهرهم وتزكيهم بها ، وصلِّ عليهم ان صلاتك سكن لهم ﴾(54) .

السياسة المالية في الاسلام أفنت المادة بالروح فحققت هدفها السامي من تشريعها ، حيث دعمت آيات الاستقرار والكمال ، وضمنت أرزاق العباد ونهضت بالمعوزين منه إلى مرتبة الكفاية ، وأفسحت للفطرة لأن تأخذ طريقها بدون مزاحم ، وحققت هدف الدين الذي يدعو للاستقامة والتوازن بين المادة والروح ، فاستخرج من خير الأولى تثبيت خير الأخرى .

السياسة المالية في الاسلام عالجت الفقر معالجة جذرية صحيحة ، الفقر الآفة الفتاكة في المجتمع التي تنخر بنيته السليمة نخراً وتتركه أعجاز نخل خاوية . كما تسبب له من الأمراض والمتاعب ما يقوض البناء الاجتماعي ويقضي على سعادته وراحته .

---

(51) راجع النهاية للامام الشيخ الطوسي ص 623 .

(52) البقرة الآية 180 .

(53) النهاية للامام الشيخ الطوسي ص 672 .

(54) التوبة الآية 103 .

الفقر الذي قال عنه رسول الله « محمد » الموت الأكبر ، والـذي قال عنـه علي بن أبي طـالب (ع) منقصة للدين ومـدهشة للعقـل ، وداعية للمقت ، وإن من البـلاء الفـاقـة[55] . لذلك عمـد الاسلام الى وضـع سياسـة ماليـة عادلـة تضمن للفقير رزقـه في المرحلة الأولى ، وتطرد من نفسه عقدة النقص والخوف والحاجة وتقع هذه المسؤولية على عاتق الوالي أو الخليفة المستخلف على رزق الله ومال الله ، وأداء الأمـانة في المحـافظة عـلى ما أوكـل إليه من شؤون المسلمين . يحضرني في هذا المجال وصية الامام عـلي (ع) العاملة عـلى مصر مـالك الأشـتر : « واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم . واجعل لهم قسماً من بيت مالك وقسماً من غـلات صوافي الاسلام في كل بلد ، فإن للأقصى منهم مثل الذي للأدنى . وكـل قد استـرعيت حقه فـلا يشغلنك عنهم بـطر ، فإنـك لا تعذر بتضييعـك التافـه ، لأحكامـك الكثير المهم ، فـلا تشخص همك عنهم ، ولا تصعّر خدك لهم » .

السياسة المالية في الاسلام وقاية من الفقر ، والوقايـة تحول دون الـدمار ، وهي أفضـل بكثير من المعالجة والتفتيش عن الدواء الناجع .

إن من أسـرار التشريـع المالي في الاسـلام الموازنـة بين العقيـدة والنـظام ، وبـين الخلق والقانون ، وبين القرآن والسلطان .

وربما يسأل البعض : إن مهمـة الأديان إيقـاظ الضمائـر وإحياء القلوب ، وهي تحـاول قيـادة الناس بـزمام الشـوق إلى مثوبـة الله ، أو تحذرهم بسـوط الخشية من عقـابـه ، تـاركـة لأصحاب الملك ورجال القانون أن ينظموا ويـراقبوا ويعـاقبوا . فـالقانـون والتنظيم من شـأن السلطة السيـاسية وليس من مهمـة رجال الـدين . والجواب هـو أن هذا الـرأي قد يصـح في أديان غير الدين الاسلامي ، لأن الانسان في نظر الاسلام جسدٌ وروح كله لله وليس مشطوراً الى شطرين : شطراً للدين وشطراً للدنيا ، البعض لقيصر والبعض الآخر لله .

رسالة الاسلام جاءت شاملة هادية ، هدفها تحرير الفرد من الظلم وتكريمـه وإسعاده ، فهي تسعى دائماً لتوجيه الشعوب والحكام الى الحق والخير وتدعو النـاس كل النـاس الى الله ، ليعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، ولا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله .

من هنا جاءت السياسة المـالية في الاسـلام ، في هذا الاطـار توكـل جبايـة الموارد لبيت المال وتوزيعه على مستحقيه الى الدولة ، وليس الى ضمائر الأفراد وحدها ، وقد عدد الأسباب الموجبة لذلك سعيد حوى في كتابه الاسلام فقال :

1 ـ ان كثيراً من الأفراد قد تموت ضمائرهم ، أو يصيبهـا السقم والهزال بسبب حب الـدنيا ، أو حب الذات ، فلا ضمان للفقير إذا تـرك حقه لمثـل هؤلاء ، كما هـو حاصـل الآن في أكثر بلداننا .

2 ـ إن في أخذ الفقير حقه من الحكومة ، لا من الشخص الغني ، حفظاً لكرامته وصيانة لماء وجهه ان يراق بالسؤال ، ورعاية لمشاعره ان يجرحها المن والأذى .

---

(55) راجع خطبة الامام علي في نهج البلاغة المعروفة بهذا الشأن .

3 ـ إن ترك هذا الأمر للأفراد يجعل التوزيع فوضى ، فقد ينتبه أكثر من غني لاعطاء فقير واحد على حين يغفل عن آخر فلا يفطن له أحد ، وربما كان أشد فقراً .

4 ـ إن صرف الصدقة ليس مقصوراً على الأفراد من الفقراء والمساكين وأبناء السبيل . فمن الجهات التي تصرف فيها هذه الصدقة مصالح عامة للمسلمين لا يقدرها الأفراد ، وإنما يقدرها أولو الأمر وأهل الشورى في الجماعة المسلمة مثل : إعطاء المؤلفة قلوبهم ، وإعداد العدة والعدد للجهاد في سبيل الله ، وتجهيز الدعاة لتبليغ رسالة الاسلام في العالمين(56) .

مصارف بيت المال :

كان المال الذي يأتي من الموارد المتقدمة الذكر ينفق على مصالح الدولة على حسب ما يراه الامام ، فتدفع منه أرزاق القضاة والولاة والعمال وصاحب بيت المال ، كما كان من صلاحيات الامام زيادة أرزاق القضاة والولاة أو إنقاصها ، ودفع رواتب الجند التي كانت في أيام النبي غير محدودة ولا معينة ، بل كانت تدفع من أربعة أخماس الغنيمة وما يرد من خراج الأرض .

ولما ولي الخلافة أبو بكر الصديق سوى بين الجند في العطاء قائلاً : « هذا معاش فالأسوة فيه خير من الاثرة » . وفي عهد عمر بن الخطاب جعل العطاء بحسب السبق الى الاسلام . وبقيت أعطيات الجند تعطى على هذا النحو في عهد الخلفاء الراشدين ، أما في العهد الأموي فقد زاد معاوية في أعطيات جنده عندما استنجد العرب حتى بلغ ستين مليون درهم في السنة ، وذلك حتى يمكن نفسه في الحكم الذي استلمه غصباً وكرهاً .

ومن المصاريف التي كانت تنفق من بيت المال أجرة الترع الكبيرة والمجاري التي تأخذ من الأنهار الضخمة كدجلة والفرات لتوصيل الماء الى الأراضي البعيدة .

أضف إلى ذلك النفقات التي كانت تصرف على المسجونين وأسرى المشركين من مأكل وملبس ودفن من يموت منهم(57) وكذلك ثمن شراء المعدات الحربية ، وإعطاء العطايا ومنح الأدباء الهبات والمكافآت .

ومما يجدر ذكره أيضاً في عهد عمر بن الخطاب أن كل مسلم دون اسمه في دواوين الحكومة يحق له راتب سنوي لقاء خدماته الحربية عدا ما كان يمنحه من الأجر فريضة لابنائه ، ولا فرق في ذلك بين العرب والموالي . « ففرض لكل واحدة من أزواج النبي ﷺ عشرة آلاف درهم وفرض للعباس سبعة آلاف درهم ، وفرض لكل من شهد بدراً من المهاجرين الأولين خمسة آلاف درهم ، وفرض لكل من شهد بدراً من الأنصار أربعة آلاف درهم ، وفرض لكل من هاجر قبل الفتح ثلاثة آلاف درهم ، ولمن أسلم بعد

(56) الاسلام لسعيد حوى ص 149 .

(57) الأحكام السلطانية للماوردي ص 194 .

الفتح ألفي درهم . ثم فرض للناس على منازلهم وقراءتهم القرآن ، وجهادهم[58] . وقد ساعد العرب في فتوحاتهم جماعات من الفرس من كبار الملاكين ،

وقد ساعد العرب في فتوحاتهم جماعات من الفرس من كبار الملاكين ، أطلق عليهم اسم الدهاقين ، ولم يرق للعرب أن يقاسمهم هؤلاء الذين دخلوا الاسلام من غير العرب نصيبهم من الغنائم . وما ذكره اليعقوبي : أن عليا وحده هو الذي تمسك بالقواعد القديمة[59] .

وقد فطن عمر بن عبد العزيز من خلفاء بنى أمية لاجراء بعض الاصلاحات على الضرائب التي فرضها الأمويون قبله والتي أثرت على المفتوحات العربية الجديدة وقد وجدا لزاماً أن تجد الحكومة أعمالاً جديدة غير الغزو والفتح للمرابطين في الولايات الاسلامية من جند العرب حتى لا يكونوا عيالاً على بيت المال .

ولا يخفى أن سياسة عمر بن عبد العزيز العادلة حالت دون ملكية الأرض ، على حين كانت الحال تقضي بمنحهم إياها لاستغلالها واستثمارها ، كما كانت تسخو في منح الأعطيات حتى للموالي من المسلمين ، في الوقت الذي كـ ت فيه مالية البلاد تتطلب إلغاء تلك الأعطيات حتى ما كان يمنح منها للعرب أنفسهم . ولكن هذا التصرف في سياسة بيت المال انقصت موارد الدولة دون أن تنجح مع أنها كانت ترمي إلى الاصلاح وإعفاء الجدد في الاسلام من الجزية .

---

(58) راجع كتاب الخراج للقاضي أبي يوسف ص 24 -26 والأحكام السلطانية للماوردي ص 176 -177 .

(59) تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 213 .

الباب السادس

النظام الاقتصادي

الفصل الأول
اهتمام الاسلام بالحالة الاقتصادية

عمل الاسلام على تنمية الحالة الاقتصادية اهتماماً كبيراً وحث المسلمين على طلب الكسب والعيش . لأن هذا الدين الحنيف يهدف إلى تنظيم الحياة الدنيوية والأخروية والاهتمام بهما معاً . قال الله سبحانه وتعالى : « وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين ﴾[1] .

والعبادة في الاسلام لا تقتصر على أعمال الخشوع والتعبد فقط كالصلاة والصوم والأمور الروحية ، بل تتناول كل حياة الانسان العملية أيضاً . يذكرنا الغزالي في ذلك فقد أفرد باباً في الإحياء في آداب الكسب والمعاش ، مستشهداً بالآيات القرآنية التي تحث على الكسب والعمل فأورد الآية الكريمة : ﴿ وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله ﴾[2] .

فلقد سوى الدين الحنيف بين السعي في الأرض ابتغاء الكسب عن طريق التجارة أو غيرها في مرتبة الجهاد ، وبين الأعمال التعبدية التي تهذب النفس وتصقل الروح وترفع من شأن الانسان روحياً وأخلاقياً . وابن خلدون خصص الباب الخامس من الكتاب الأول وهو يشتمل على ثلاثة وثلاثين باباً في مقدمة تاريخه يقول : « في المعاش ووجوبه من الكسب والضائع وما يعرض في ذلك من الأحوال »[3] مما لا يدع مجالاً للشك في أن الاسلام عني عناية شديدة بهذه الحياة الدنيا التي هي طريق للآخرة . فالسعي في مناكب الأرض ابتغاء الكسب عن طريق التجارة أو غيرها هو في مرتبة الجهاد في نظر الاسلام . فالرجل الذي يسعى لتأمين حياة عياله هو مجاهد والذي يحارب دفاعاً عن وطنه وأمته هو مجاهد ، وكلاهما له الأجر والثواب .

---

(1) سورة القصص الآية 77

(2) سورة المزمل الآية 20 .

(3) المقدمة ص 400- 429.

الزراعة

اعتنى المسلمون بأراضيهم الزراعية واستخراج خيراتها وكان الاصلاح الزراعي قسمة عادلة بين الدولة والملاكين . وفي طائفة من أحاديث الرسول ﷺ يظهر منها اهتمامه بالزراعة والغرس، من ذلك قوله : « ما من مؤمن يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو بهيمة إلا كان له به صدقة » وقال ﷺ أيضاً : « من كانت له أرض فليزرعها فإن لم يستطع أن يزرعها وعجز عنها فليمنحها أخاه المسلم ، ولا يؤجره إياها »[4] وقد وجهت الدولة اهتماماً بالغاً بوسائل الريّ ، فأنشأت القنوات وبنت السدود ، واستخدمت طريقة الري الاصطناعي لري السواد الأعظم خاصة وقد أطلق على تلك الأراضي الزراعية السواد لكثرة ما بها من الشجر والزرع والخضرة[5] ويحد السواد من حديه : الموصل إلى عبادان طولا ، ومن العذيب بالقادسية إلى حلوان غرباً ، وتبلغ مساحته ، على ما ذكره الخطيب البغدادي 36000,000 جريب والجريب عشرة آلاف ذراع[6] .

ومن المعروف أن القنوات التي حفرتها الدولة كانت كثيرة في جنوب العراق وفي منطقة البصرة بوجه خاص . وقد حاولت رفع مستوى الماء لتوزيعه بسهولة الى القنوات الفرعية ، بما أنشأته من سدود اصطلحوا على تسميتها بالنواظم . أما الفلاحون أصحاب الأملاك ، فقد كانوا يستخدمون المحراث الذي تجره الثيران لحرث الأرض مستخدمين التسميد من فضلات الحيوان وبقايا الرماد . واشتهرت معظم المناطق العراقية بانتاج الحنطة والشعير حتى أخذ أهل السواد يدفعون منها الخراج بدل النقد والعملة .

أما منطقة الخابور فقد اشتهرت بانتاج الرز والقطن ، ومنطقة سنجار بزراعة الزيتون ، والبصرة بزراعة النخيل وقصب السكر ، ومنطقة حلوان تميزت بزراعة التين والبطيخ والكرمة .

وفي شمالي العراق في منطقة الجزيرة كان اعتماد الأهالي في الري على مياه الأمطار وفي منطقة حران الفراتية تعاون الأهالي مع الدولة وحفروا بعض الآبار الارتوازية لارواء مزارعهم ومواشيهم .

وقد تفنن المزارعون في زراعة الأزهار والرياحين من جميع الأنواع ، ولا سيما القرنفل والياسمين والبنفسج والورد الجوري . . .

وبلغ من اهتمام الاسلام بالفلاحة والزراعة أنه في حركة الفتوح وفي عهد الراشدين اعفوا الفلاحين من الضرائب . فهذا أبو بكر عندما وجه خالد بن الوليد الى فتح العراق

---

(4) تهذيب ابن القيم لسنن أبي داوود ج 5 ص 56 .

(5) من ذلك قوله تعالى حين ذكر الجنتين « مُدْهامَّتان » (سورة الرحمن الآية 64) . أي خضراوان ، فوصفت الخضرة بالدهمة وهي من سواد الليل .

(6) تاريخ بغداد ج 1 ص 11 ومعجم البلدان لياقوت . وحلوان مدينة آخر حدود السدود مما يلي الجبال من بغداد .

أوصاه بألا يأخذ من الفلاحين والزرّاع أي شيء من المال ، فنفذ الوصية وأقرَّ الذين لم يحاربوا منهم وكفل حمايتهم وحماية أرضهم(7) .

وعمر عندما مسح السواد راعى في كل أرض ما تحتمله ثم ألغى ضريبة النخل والكَـرْم والرطاب عوناً منه للفلاحين(8) .

وبعد الفتح كانت أراض دون مالكين جلا عنها أهلوها في العـراق والشام فضمهـا عمر الى بيت المال واعتبرها من (الصوافي)(9) .

وعثمان حرص عـلى تنمية الـزراعة فـأقطع القـطائع من أرض العـراق كانت لكسـرى ومرازبته وأهل بيته إلى جماعات عمروها واستغلوا خيراتها وقد شرط على من أقطعها أن يأخـذ منه الفيء ، فكأنه جعل إقطاعه بمثابة الاجارة لا التمليك(10) .

وفي العهد الأموي ساعدت الظروف على اهتمام الناس بـزراعة الأراضي وغـراستها . فقد ولّـى معاوية أرض العراق المسماة بالبـطائح وكـانت بين البصـرة والكوفـة ، لعبد الله بن درَّاج ، فأقام السدود واستخرج من موات الأرض ضياعاً عامرة بلغت غلالها خمسة آلاف ألف درهم(11) .

ولما ولي عمر بن عبد العزيز بادر إلى رد الحقوق لأصحابها ، فأخـذ ما في يـد أهل بيتـه من القطائع وما في يديـه التي ورثها عن آبـائه . قـال : « إن أهلي أقـطعوني مـا لم يكن لي أن آخذه ولا لهم أن يعطونيه »(12) وكان مما رده أرض فدك . ومن الظواهر الاقتصادية في العصر الأموي الايغار :

وهو أن يوغر الملك الرجل الأرض فيجعلها له من غير خراج ، أو هو يؤدي الخراج إلى السلطان الأكبر ، فراراً من العمال(13) .

ومن تلك الـظواهر التي عـرفت عند الأمـويـين : التقبُّـل أو القبـالـة ، وهي أن يجعـل الرجل لنفسه قبيلاً ، أو كفيلاً يحصل باسمه الخراج ويأخذه لنفسه لقاء أجر معلوم يدفعه إليـه وفي أغلب الأحيان كان الكفيل أو القبيل من ذوي الجاه والسلطان ، كما فعل فروخ أبـو المثنى عندما كـان يتقبل لهشـام بن عبد الملك أراضيـه ، وكان هشـام يستفيد تعجيـل المال ، بينـما يستفيد المتقبل « أبو المثنى » الفرق بين ما دفعه وما حصله(14) .

---

(7) الطبري ج 4 ص 7 والكامل ج 2 ص 148 .

(8) الخراج ص 38 والأحكام السلطانية للماوردي ص 142 .

(9) الخراج ص 57 .

(10) الأحكام السلطانية للماوردي ص 183 .

(11) كتاب الوزراء للجهشياري ص 24 .

(12) الكامل ج 5 ص 24 .

(13) أنظر القاموس المحيط مادة وغر .

(14) الوزراء والكتاب للجهشياري ص 61 .

لذلك عد الفقهاء التقبل من وسائل التملك الفاسد وأكل أموال الناس بالباطل حتى قال الماوردي « فأما تضمين العمال لأموال العشر والخراج فباطل لا يتعلق به في الشرع حكم »[15] .

أما في العصر العباسي فقد لاقت الزراعة عناية كبرى ، فانتشرت المدارس الزراعية وتوسعت البحوث النظرية فتم دراسة أنواع النباتات وصلاحية التربة لزراعتها ، كما استخدمت الأسمدة المختلفة لها على احدث أسلوب .

وسياسة العباسيين في الزراعة سياسة حكيمة ، فقد عمد بعض الخلفاء الى وضع قواعد ثابتة لأنواع الخراج وذلك بحسب نوع المحصول وجودة الأرض ، فراعوا تخفيض الضرائب إذا خف المحصول لتنشيط المزارعين وعدم إرهاقهم . وقد ألغى أبو جعفر المنصور الضريبة النقدية التي كانت تفرض على الحنطة والشوفان وأحلّ محلّها نظام « المقاسمة » وهذا النظام يجبى بالنسبة للمحصول وحسب خصوبة الأرض وطريقة إروائها .

وفي سنة 204 خفض الخليفة العباسي المأمون ، ضريبة الأرض مرة أخرى فأصبح يجبي الخُمسين بدلاً من النصف حتى على أكثر الأرض إنتاجاً ، كما ألغى القبالة بعد نصيحة أبي يوسف له[16] أما في بابل والجزيرة وفارس حيث يوجد كبار الملاكين والمزارعين فقد فرضوا ضرائب مختلفة وفق شروط الصلح التي عقدت أيام الفتح .

ومن أعمال المنصور في هذا الحقل أنه أقطع بعض أعيان دولته قطائع من الأرض ببغداد يعمرونها ويسكنونها ويحصلون على غلتها مكافأة لهم على ما قدموه من الخدمات الجليلة . وسرعان ما عمرت هذه القطائع واتسع نطاقها ، وازدحمت بالسكان ، وأصبحت كل قطيعة منها تعرف باسم الرجل أو الطائفة التي تسكنها : فيرى من بينها قطيعة الربيع بن يونس وكان بها تجار خراسان من البزازين ، وقطيعة صالح بن المنصور[17] .

ومن المواشي التي اهتم العرب في تربيتها الجاموس ، فقد جلب من الهند ، ثم نقل الى العراق في عهد الأمويين .

ولما ولي المهدي بعد وفاة المنصور سنة 158 هـ حدثت في الدولة العباسية تطورات هامة في الاصلاح الزراعي تعتبر امتداداً لما بدأ به أبو جعفر من مشاريع الاصلاح ومما أحدثه جديداً استبدال نظام المقاسمة بنظام المساحة . فبعد أن كان على كل مسافة محددة من الأرض خراج معين تأخذه الدولة جملة واحدة أو أقساطاً تحول إلى نسب معينة من الضرائب تقوم الدولة بجبايتها . فالنصف مثلاً على الأراضي التي تسقى سحاً ، والثلث على الأراضي التي تسقى بالدوالي ، والربع على تلك التي تسقى بالدواليب ، وما على الزراع بعد ذلك شيء[18] . هذا

(15) الأحكام السلطانية للماوردي ص 168 .

(16) راجع الخراج لأبي يوسف ص 105 فصل أبو يوسف تعسف المتقبلين وظلمهم الرعية .

(17) راجع كتاب البلدان لليعقوبي ص 242 .

(18) الأحكام السلطانية للماوردي ص 168 .

فيما يعود الى الزروع أما الثمار من نخل وكروم وغيرها فبقيت على نظام المساحة .

وقد اعترف أبو يوسف بقيمة هذا النظام فقال : « لم أجد شيئاً أوفر على بيت المال ، ولا أعفى لأهل الخراج من التظالم فيما بينهم وحمل بعضهم على بعض ، ولا أعفى لهم من عذاب ولا تهم وعمالهم ، من مقاسمة عادلة خفيفة للسلطان فيها رضىً ، ولأهل الخراج من التظالم فيما بينهم وحمل بعضهم على بعض راحة وفضل . . . »[20] .

وفي عهد هارون الرشيد عظم أمر الخراج ونهضت إصلاحات زراعية جديدة فاحتفر وزيره يحيى نهر القاطول ، وبنى الحياضات والمساجد والرباطات . . .[21] ومن الظواهر الاقتصادية في العصر العباسي المزدهر كثرة الضياع ، فكانت هناك الضياع الخاصة ، والضياع العباسية ، والضياع الفراتية ، والضياع المستحدثة وبذلك ظهرت زيادة الثروة الأهلية ، ونمت رؤ وس الأموال ، واتسعت موارد الخراج ، وتعددت مظاهر الرخاء التي تجلت بأروع معانيها في رحض وقد بلغت موارد الدولة الاسلامية في عهد الرشيد « كل سنة نحواً من خمس مئة ألف درهم من الفضة وعشرة آلاف ألف دينار من الذهب »[22] .

ولا غرابة بعد ذلك « إن استلقى الرشيد على ظهره ونظر إلى السحابة المارة وقال : إذهبي وامطري حيث شئت فإن خراجك آت إليّ » ! مهما ابتعدت السحابة فستبقى في أرض الرشيد وخراجها يعود إليه .

كما عرف في العصر العباسي نظام الإلجاء[23] والمراد به كتابة الرجل أرضه باسم أمير قوي يلجأ إليه ويحميه . وعندها يقوم صاحب السلطان بدفع الخراج حتى تصير فيما بعد إليه ، ويصبح مالكها الوحيد ، وعلى هذا الأساس أصبحت قرية (المراوغة) في أذربيجان ملكاً لمروان بن محمد ، لأن أهلها ألجؤ وها إليه وكتبوها باسمه[24] ومن ذلك أيضاً القرى المتفرقة في أرض البطائح ألجأت الى مسلمة بن عبد الملك تقوياً به واعتزازاً واحتماءً[25] .

ومن أهم الظواهر الاقتصادية في العصر العباسي نظام التوقيت الكبس ، الفارسي الأصل الذي أخذ به كل من المتوكل والمعتضد بعد أن أدخلا عليه بعض التعديلات . وخلاصة نظام الكبس هذا أن الفرس حددوا بدء السنة في جباية الخراج بيوم النيروز ، الذي هو من أجل أعيادهم ، والسنة في تقويمهم الخاص مكونة من اثني عشر شهراً كاملة ، كل واحد منها ثلاثون يوماً فتكون السنة عندهم 360 يوماً ، لكنهم درجوا على زيادة خمسة أيام بين الشهر الثامن والشهر التاسع من سنتهم هذه حتى أصبحت 365 يوماً . ومن المعروف أن عدد

---

(20) خراج أبي يوسف ص 49 .
(21) الوزراء والكتاب ص 177 .
(22) النظم الاسلامية للدكتور حسن ابراهيم حسن ص 214 .
(23) راجع مادة لجأ في القاموس المحيط .
(24) فتوح البلدان للبلاذري ص 327 .
(25) المصدر نفسه ص 302 .

أيام السنة الشمسية 365 يوماً وربع اليوم وخمس الساعة . فإذا تعاقبت 120 سنة اجتمع من ربع اليوم شهر كامل ، ومن خمس الساعة يوم واحد فأصبح المجموع 31 يوماً فرأى الفرس انه لو تعاقبت 116 سنة فقط اجتمع من ربع اليوم وخمس الساعة شهر يساوي 30 يوماً . عندها تصبح سنتهم كبيسة ، لأنهم يكسبون عليها شهراً كاملاً يلحقونه بها فتصبح 13 شهراً . وفي هذه الحال كانوا يؤخرون موعد النيروز شهراً كاملاً ، فيصبح النيروز في مطلع الصيف إبان نضوج الغلال . فكان كلما تقدم الميعاد الى أيار ردوه الى حزيران .

وقد خاف الحكام المسلمون ومنهم هشام بن عبد الملك أن يدخلوا هذا التأخير في النسيء المحرم الوارد في القرآن الكريم : « إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلّونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرَّم الله »(26) .

وبقي الحال على ما رأينا من الرفض على تطبيق النيروز حتى جاء المتوكل فأقبل على تطبيق نظام الكبس بعد تعديله ، وذلك رغبة منه في الاصلاح الزراعي ، لأنه لاحظ أن الزرع لا ينضج إلا في حزيران فأخر ميعاد النيروز إلى أواسط حزيران وأصدر أوامره بإعادة ميقات النيروز إلى ما كان عليه عام 243 هـ ولما قتل المتوكل ، عاد ميقات الخراج الى ما كان عليه . وكما يقال أن الناس على دين ملوكهم ، ففي خلافة المعتضد سنة 282 هـ أصدر أوامره بتأخير النيروز ستين يوماً لأنه استصوب عمل المتوكل . فأمر مجدداً بإعادة ميقات النيروز فأصبح في 11 حزيران بعد أن كان في 11 نيسان(27) .

وبذلك أعاد العباسيون الى العراق شهرته القديمة في الخصب والنماء ولا سيما الجزء الجنوبي منه المعروف بالسواد .

ومما أدخلوه في فن الزراعة الحديثة ، التلقيح ، فكان أهل فلسطين يلقحون كرومهم وأهل المغرب يلقحون تينهم كما يلقح النخيل بالطلع الذكر ، كذلك عرفوا تطعيم بعض الأشجار من بعض ، حتى استخرجوا منها أصنافاً جديدة .

كما أدخلوا الى أوروبا نباتات لم تكن معروفة من قبل ، كزراعة الأرز ، وقصب السكر ، والزيتون والمشمش وغيرها(28) .

التجارة

كما عني الرسول ﷺ بالزراعة اهتم أيضاً بالدعوة إلى الاشتغال بالتجارة . وهو نفسه ﷺ عمل في التجارة ، إذ ذهب قبل البعث الى الشام بتجارة للسيدة خديجة بنت خويلد مع غلامها ميسرة . وبعد عودته ﷺ من الشام وصفه غلام خديجة بالنشاط والأمانة والاخلاص . ولكنه شغل عن التجارة بأمور أهم وأعظم هي أمور النبوة وما استتبعت من جهاد ونضال وتضحية . عمل الدين الاسلامي إلى تنظيم الجانب الاقتصادي في الحياة الدنيا تنظيماً دقيقاً

---

(26) سورة التوبة الآية 37 .

(27) راجع الآثار الباقية للبيروني ص 31-33 .

(28) راجع تاريخ الحضارة الاسلامية للدكتور أبو زيد شلبي ص 300 .

فشجع التجارة الخالية من الربا . قال سبحانه وتعالى ﴿ وأحلَّ الله البيع وحرَّم الربا ﴾(29) . كما كان يدعو الى القرض الحسن : ﴿ ومن ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ، والله يقبض ويبسط ، وإليه ترجعون ﴾(30) . ومن المعروف أن الدين يسر وليس بعسر فقد أوصى امهال المدين المعسر الى حال اليسار : ﴿ وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة ، وإن تصدَّقوا خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾(31) .

وقد نظم علاقة الدائن بالمدين بالعدل والحق منعاً من إلحاق الأذى والضرر قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأت كاتب ان يكتب كما علَّمه الله ، فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ﴾(32) .

وقد عمل في التجارة أكثر الصحابة ومن الخلفاء الراشدين أبو بكر وعثمان ، ولكنهم شغلوا بالفتوح فتركوا التجارة ، لذلك طبعت الدولة الاسلامية بطابع عسكري في العصرين الراشدي والأموي .

شهدت التجارة عصراً زاهراً أيام العباسيين عندما اختلط العرب بالأعاجم وبدأت المنافسة التجارية التي حققت لهم مكاسب وافرة وأرباحاً طائلة .

وعندما انتقل مركز الخلافة الى بغداد كان ذلك عاملاً مشجعاً للتجارة ، بما لبغداد من موقع عظيم في هذا المجال ، على ملتقى الطرق البرية والنهرية الداخلية ، هذا إلى جانب كونها همزة وصل بين الجزيرة العربية والشام ومصر من جهة ، وبين إيران والهند من جهة ثانية . ولا يخفى ما للبصرة من دور هام في وصل العالم الاسلامي بالهند والصين وافريقية حيث هيمن تجار العراق على أطراف العالم المتمدن وقد سميت البصرة عين العراق .

وبعد أن بنى المنصور مدينة بغداد ، وضع أساس الكرخ في الجهة الجنوبية منها وأصبحت مهداً تجارياً ومركزاً لرجال الأعمال حيث نقلت إليها أسواق بغداد ، وأفرد لكل حرفة سوقاً خاصاً . من هذه الأسواق سوق العطارين ، وسوق الحدادين وسوق النجارين ، وسوق البزازين ، وسوق الرياحين (حيث تباع الزهور) وسوق القصابين . وقد قيل أن المنصور أمر بجعل هذه السوق في آخر الأسواق(33) .

وكانت الموصل في شمالي العراق ملتقى طبيعياً للقوافل التجارية القادمة من أرمينيا والشام وأذربيجان . وقد اشتهرت بأنواع الحبوب ولا سيما الحنطة ، حتى كانت مخزناً يزود العراق في الأزمات الصعبة . كما عرفت بتجارة العسل والمسوح والستائر الصوفية المخططة ، وحتى الآن ما زالت معروفة بهذه الأصناف يقصدونها من كل نواحي العراق . والكوفة في

(29) سورة البقرة الآية 275 .

(30) سورة البقرة الآية 245 .

(31) سورة البقرة الآية 280 .

(32) سورة البقرة الآية 282 .

(33) تاريخ الخطيب البغدادي ج 1 ص 80 بلغ مركز الكرخ التجاري 10 كيلمترات طولاً و5 عرضاً .

الجنوب الغربي من العراق كانت مركزاً تجارياً هاماً في أطراف الصحراء . وأنشط أيامها في مواسم الحج ، فهي رأس الطريق إلى أراضي الحج المقدسة ، وملتقى القوافل التجارية في الجزيرة العربية .

وقد كان الكثير من الحجاج يحجون بيت المقدس بعد أداء فريضة الحج في مكة ، فيلتقون مع حجاج الغرب المسيحيين . هذا ما جعل لدمشق نصيباً وافراً من الحركة التجارية حيث كان معظم الحجاج يجتمعون فيها ثم يسيرون جماعات الى مكة ، ومنها يتفرقون بعد أداء فريضة الحج . وقد أدت هذه الحركة المستمرة إلى انتشار السلع في أسواق دمشق . ولما كانت المدن البحرية مثل طرابلس وبيروت وصور وعكا لا تبعد عن سوق دمشق الكبيرة إلا بضعة أيام ، فقد كانت تحصل جميع السلع التي كانت تبتاع فيه ، كما كانت ببلاد الشام كثير من الأسواق التي قامت بها الحوانيت على جانبي الشوارع ، وهذا ما شجع على قيام فنادق للتجار الغرباء يضعون بضائعهم في الطابق السفلي وينامون في الطابق العلوي .

وعندما تنمو التجارة وتزدهر لا بد من ازدهار الصيرفة ونمو المؤسسات المصرفية . فكان للتجار وكلاء في أهم المدن التجارية ، يكتبون اليهم عن أحوال السوق في البلاد التي يقيمون فيها ويقرضوهم المال ، فيكتب أولئك التجار للصيارفة صكوكاً بديونهم بدل الدفع نقداً . يوقع على الصك شاهدان ويختم بالشمع يثبت على الصك نفسه(34) .

ومن أهم هذه المدن في عالم الصيرفة : بغداد ، البصرة ، القاهرة ، الاسكندرية ، أصفهان(35) طرابلس - صيدا - بيروت .

وقد كانت الاسكندرية وبغداد هما اللتان تقرران الأسعار للعالم في ذلك العصر ، في البضائع الكمالية على الأقل(36) .

نشطت التجارة البحرية عند العرب نشاطاً ملحوظاً ، فوصلوا الى بلاد الصين في القرن الثاني الهجري ، وقاموا برحلات طويلة متخذين بميناء سيراف مرسى لهذه السفن التي كانت تعود محملة بالسلع الواردة من البصرة وعمان وغيرها وتنقل تجارة العرب والفرس إلى بلاد الصين(37) .

وتدليلاً على نشاط هذه التجارة البحرية وضع أبو القاسم بن خرداذبة دليلاً للمسافرين وصف فيه الطريق البحري الذي يبدأ من مصب دجلة ويصل الى بلاد الهند والصين . ويذكر هذا المؤلف أن السفن العربية ، كانت تسير بمحاذاة الشاطىء الفارسي وساحل الهند وذلك ليسهل عليها تفريغ البضائع في الموانىء المختلفة(38) .

---

(34) راجع المدخل الى تاريخ الحضارة العربية لناجي معروف ص 67 . وما بعدها .

(35) بلغ من ازدهار المبادلات المالية والتجارية بها وجود 200 صراف يجلسون جميعاً في سوق يسمى ، سوق العرافين ، آدم متز ج 2 ص 375 الحضارة الاسلامية .

(36) الحضارة الاسلامية لآدم متز ج 2 ص 375 .

(37) الدعوة الى الاسلام تأليف أرنولد وترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن ص 331 .

(38) كتاب المسالك والممالك (ليدن سنة 1306 هـ) .

وبذلك فتحت أمام العرب سوق جديد لسلع الهند والصين وهي : الكافور والقرنفل والصندل وجوز الهند وجوز الطيب والقصدير .

كانت الرحلة من الساحل العربي إلى ساحل الهند الغربي تستغرق مدة تتراوح بين شهرين وثلاثة أشهر ، وقد تستغرق شهراً واحداً إذا ساعدتها الرياح . وقد ذكر الرحالة العرب الذين قاموا بحلاتهم في القرنين الثالث والرابع ، أنهم كانوا يلاقون كثيراً من العطف والرعاية من ملوك الهند ، وأن جماعة من أمرائهم قد اعتنقوا الاسلام وسمحوا للعرب بإقامة المساجد في تلك البلاد . مما شجع العرب على قيام جاليات لهم على سواحل الهند ، ساعدت جيوشهم منذ أوائل القرن الثامن الميلادي على تجاوز حدود فارس حتى استولت على بلاد السند .

كان من أثر ذلك أن نشطت الحركة التجارية حيث كانت سفن فارس وبلاد العرب تعرج على تلك المحطات في ذهابها الى بلاد الصين والهند وفي عودتها حاملة معها حاصلات تلك البلاد(39) .

وكذلك وجدت بين بلاد اليمن والحجاز والحبشة ومصر وبين آسيا الشرقية علاقات تجارية ، فكان زمرد ساحل الهند الشرقي ينقل الى الغرب عن طريق عدن ومكة ، فكان أمراء الشرق الأقصى يطلبون زمرد مصر العليا وناب الفيل الكثيرة في الحبشة ، وكانت ميناء عدن سوقاً ناشطة لتلك السلع ومرسى للسفن الآتية من كل أنحاء آسيا وساحل إفريقية الشرقي(40) .

ولا يخفى ما للبلاد المصرية وعلى الأخص الاسكندرية من دور ناجح في التجارة البحرية يأتي بعد بغداد ، وذلك في عهد الطولونيين حيث انتعشت تجارتها وبدأت السلع تردها عن طريق البحر الأحمر عبر برزخ السويس مما جعل لهذا الطريق أهمية ظاهرة .

أما السلع التي كانت تجلب من الشرق إلى حدة ومنها ترسل الى مكة في موسم الحج ، فإنها كانت تصل إلى الغرب على أيدي التجار المصريين حيث كانوا يفدون بها الى بلادهم براً مع الحجاج ، أو مع التجار السوريين الذين كانوا يحملونها إلى دمشق .

هذا إلى جانب المواد التي امتازت بها مصر دون غيرها ، كالورق البَرْدِيّ ، ونسيج الصوف والكتان ، وأنواع الحيوانات ، وصياغة الذهب والفضة وصناعة الأدوية ، والعقاقير .

وتبقى بغداد ، مدينة السلام ، السوق التجاري من الطراز الأول وكان دجلة والفرات الشريانين التجاريين الهامين في داخل بلاد الدولة العباسية . يقول صاحب كتاب حضارة الاسلام في دار السلام :

---

(39) الدعوة الى الاسلام ص 331 .

(40) المصدر السابق ص 332 .

« إنه لما توافرت الأموال في أيدي العباسيين وأمن هارون الرشيد طرق القوافل والسفن ، حملت السلع من جميع أرجاء العالم إلى العراق . فحملت الآنية من الهند والحديد من خراسان ، والرصاص من كرمان ، والنسيج الملون من قشمير ، والعود والمسك والسروج من الصين ، والعطر وأنواع الطيب من اليمن ، والسلاح والمصنوعات من فارس ، والخيزران والكافور والعود والقرنفل والنارجيل والثياب القطنية والفيلة من الهند والسند ، والجلود والرقيق من بلاد الروم والفاكهة من بلاد الشام ، وجلود الثعالب من روسيا . ثم يتابع قوله :

وقد عني هارون الرشيد بتنظيم التجارة ، فعهد الى المحتسب في مراقبة الأسواق والاشراف على الموازين والمكاييل ، ومراعاة أثمان الحاجيات منعاً للغش أو ابتزاز أموال الأهلين(41) .

هذا من حيث الاستيراد أما المواد التي كانت تفيض عن حاجات العرب في العصر العباسي الأول فهي : الشعير والحنطة والأرز والفاكهة والسكر والزجاج والحرير ، والأقمشة الصوفية والكتانية والحريرية ، والزيت والعطور ، كماء الورد وماء السوسن والزعفران وزيت البنفسج وغيرها(42) .

وصفوة القول أن عناية الخلفاء العباسيين بتسهيل سبل التجارة من إنشاء المنائر في الثغور ، وبناء الأساطيل لحماية السواحل من غارات لصوص البحار ، وتيسير طرق التجارة البرية والبحرية ، ساعد على ترقية التجارة التي تقوم على تبادل المحاصيل ، كما مهد السبيل أمام الكاشفين والرحالة .

أثر التجارة الاسلامية

كان لنشاط المسلمين في الحقل التجاري أثر ملموس فقد ابتكروا بعض النظم المالية والتجارية التي أخذتها عنهم الدول الأوروبية . فكانوا أول من عرف نظام الحوالات المالية واستعمال الشيكات والايصالات ووثائق الشحن ، كما كانوا رواد العالم الحديث في انشاء الاتحادات التجارية وشركات الضمان التي كانت تتألف من عدد من الأفراد يسهمون جميعاً في رأس المال ، ثم يتضامنون على حد سواء في الربح والخسارة(43) .

وفي العصر العباسي ازدهرت التجارة ازدهاراً ملحوظاً « فأنشأ التجار نقابة مسؤولة عن مراقبة المعاملات التجارية ، ومنع التدليس ، وكان رئيسها ينتخب من بين الأعضاء الممتازين ويسمى « رئيس التجار » كما كان يسمى أعضاء النقابة « الأمناء »(44) .

وفضلاً عن ازدياد الثروة المالية والغنى المادي ، استفاد المسلمون استفادة كبرى في مجال الحياة الاخلاقي ، حيث اكتسبوا خبرة بشؤون الحياة ، ومعرفة بأخلاق الناس ، حتى

---

(41) راجع حضارة الاسلام في دار السلام لجميل نخلة مدور ص 116 . وما بعدها .

(42) مختصر تاريخ العرب لسيد أمير علي ص 266 .

(43) تاريخ الحضارة الاسلامية للدكتور أبو زيد شلبي 310 .

(44) المصدر نفسه ص 311 .

أصبحت التجارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري مظهراً من مظاهر تجديد الاسلام وحضارته ، ولها السيادة في البلاد ، وغدت سفن المسلمين ، وقوافلهم تجوب كل البحار ، واحتلت المكان الأول للتجارة العالمية[45] كما كان للعرب بعض الاختراعات التي ساعدت في سهولة المواصلات يقول السيد أمير علي : « اخترع العرب البوصلة البحرية التي ساعدتهم على القيام برحلات إلى جميع أنحاء العالم ، طلباً للعلم أو الاتجار ، فأسسوا المستعمرات من شاطىء افريقيا حتى جزائر الأرخبيل الهندي ، وعلى سواحل الهند وجزيرة مالايا ، وتوغلوا في بلاد الصين ؛ وغدت البصرة ثغراً تجارياً هاماً تتجر مع الهند ، وكاتاي ، واخترقت قوافلهم شمالي افريقيا ، وصحراءها عن طريق المغرب ، ونقلوا البضائع من ثغور البحر الأبيض المتوسط إلى إسبانيا ، وصقلية ، وإيطاليا ، وفرنسا ، ونشطت قوافل بغداد إلى أواسط آسيا ، وشمال الهند بحذاء الخليج الفارسي ، وامتدت تجارتهم الى بحر قزوين ، والبحر الأسود ، وتغلغلوا في روسيا حتى وصلت النقود العباسية الى شواطىء البلطيق وداخل السويد »[46] .

---

(45) الحضارة الاسلامية لآدم متز ص 365 .

(46) المصدر نفسه والحضارة الاسلامية للدكتور أبو زيد شلبي 312 .

الفصل الثاني

الصناعة

العمل هو ميزان تقدم الجماعة والمهارة في إتقانه هي مقياس حضارة الأمة ، والوفاء بالعمل هو الهدف الذي يرجوه الاصلاح الاجتماعي . قال رسول الله ﷺ « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » .

والانسان خليفة الله على الأرض وقد دعاه عز وجل في آيات كثيرات إلى العمل قال تعالى يأمرنا بصورة مباشرة لنعمل : ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾(1) . فلا مناص لنا إلا العمل بضمير حي ، لأن الله يرانا ويراقبنا وكذلك الرسول ﷺ والمؤمنون من عباد الله .

وأي عمل يطلب منا ؟ بلا ريب العمل الصالح فقد اقترن العمل الصالح بالايمان بالله والذي يغش في عمله ليس بمؤمن وليس من المسلمين . قال تعالى : ﴿ وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى ﴾(2) . وليس جزاء الأعمال الصالحة كلها بدرجة واحدة فالأجر على قدر اتقان العمل ، وفي هذا تشجيع بلا حدود للترقي في الأعمال الفنية وبلوغ القمة في الاتقان . قال عز وجل :

﴿ وإن ليس للانسان إلا ما سعى ، وان سعيه سوف يرى ، ثم يجزيه الجزاء الأوفى ﴾(3) . وأكد الله جلّ شأنه على حماية الدولة لحقوق العمال ثم إعطاء كل عامل على قدر ما يستحق من اتقان : ﴿ فاستجاب لهم ربهم إني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو انثى بعضكم من بعض . . ﴾(4) .

وقال سبحانه : ﴿ ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون ﴾(5) . والعمل الصالح زينة الأرض يزينها ويجملها وهو أيضاً مقياس لنا وامتحان لقدراتنا وإرادتنا

---

(1) التوبة الآية 105 .

(2) الكهف الآية 88

(3) النجم الآية 39-41 .

(4) آل عمران الآية 195 .

(5) الاحقاف الآية 19 .

قال تعالى : ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ﴾(6) وقد وضع شروط للعمل الصالح اختصرها سعيد حوى في كتابه (الاسلام) فقال :

من حق العمل

1 ـ أن تتقنه ، وهذا على الصعيد العملي والفني والاختصاص .

2 ـ ألا تغش فيه ، لأنه يضر بالأفراد والمجتمع .

3 ـ انجازه في موعده لأن من علامات المنافق « إذا وعد أخلف » .

4 ـ وإذا كان تاجراً ألا يخدع ولا يكذب والا يحلف كاذباً . قال عليه الصلاة والسلام : (التاجر الأمين الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء) وقال ﷺ : (اليمين الفاجرة منفقة للسلعة محقة للكسب) .

5 ـ أن يكون جائزاً في شرع الله غير محرم ولا مكروه ، لذلك كان شرط العمل الفقه في العمل .

6 ـ إذا كان عاملاً للدولة أو أجيراً عاماً أو خاصاً فحق العمل عليه أن يكون : قوياً على العمل ، أميناً فيه حفيظاً لاجزائه ، عليماً بدقائقه وطرق تنفيذه نأخذ هذا من قوله تعالى :

﴿ إن خير من استأجرت القوي الأمين ﴾(7) .

﴿ اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴾(8) .

ثم تابع يروي عن أبي ذر الغفاري :

قال أبو ذر : قلت يا رسول الله ألا تستعملني ؟ فضرب بيده على منكبي ثم قال : يا أبا ذر : « إنك ضعيف وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها »(9) .

إن اليد التي تطيع الفكر إطاعة تامة تستطيع أن تبدع ، على الصعيد الفني ، وتعطي الخير على الصعيد الاجتماعي ، والفكر الذي تلقح بأفكار الامم الأخرى واستجمع من المعارف الانسانية مؤونة تكفيه ، يتمكن بسهولة من الصعود على سلم الحضارة الانسانية والتقدم العلمي الخير .

والعمل في الاسلام ليس مقصوراً على تنفيذ أحكام الشريعة ، بل إنه يشتمل على جميع العمل الدنيوي وجميع ضروب الصناعة . والعامل في الاسلام له أن يتمتع بزينة الحياة الدنيا ويوفى أجره كاملاً غير منقوص قال عزّ وجل : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفِّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ﴾(10) وميزان الاسلام دقيق وحساس جداً لا يضيع

---

(6) الكهف الآية 7 .

(7) القصص الآية 26 .

(8) يوسف الآية 55 .

(9) الاسلام لسعيد حوا ص 308 .

(10) هود الآية 15 .

مثقال ذرة على المحسنين ولا يترك مثقال ذرة للمسيئين . قال تعالى :

﴿ ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾[11] .

ولقد برع المسلمون في جميع أنواع الصناعات الأولية التي احتاجوا إليها في حياتهم المنزلية ، كما برعوا أيضاً في الصناعة العسكرية لحاجتهم إليها في الحروب . وكذلك أحسنوا الاستفادة من ثرواتهم المعدنية والطبيعية المختلفة .

من هذه الصناعات : أ ـ اليدوية والمنزلية

1 ـ **الحرير** : صناعة الحرير كانت منتشرة في بلاد الروم قبل دخولها الى الشرق وديباج الروم مشهور بجودته . يقول المسعودي : « منذ أن غزا سابور ملك فارس بلاد الجزيرة وغيرها من بلاد الروم ، ونقل من أهلها خلقاً كثيراً . أسكنهم مدناً من فارس صار الديباج والخز يعمل بتستر »[12] .

وأكبر مصانع نسج الحرير كانت في إقليم خوزستان وطبرستان ، حيث نقل الساسانيون هذه الصناعة من بلاد الروم[13] .

2 ـ **القطن** : نقل القطن الى العراق من شمال فارس وما بين النهرين ، وقد نشره أمراء المدانيين ، أما المراكز الكبرى لصناعة القطن فكانت تقع في شرق فارس في مرو ونيسابور (وبمّ) شرقي كرمان . وقد اشتهرت هذه المدينة الأخيرة بثياب القطن الفاخرة . وفي مرو كان يضع القطن الذي بلغ الغاية في اللين[14] ومع ليونته استغلظه المتنبي لثقله وسماه لباس القرود[15] .

ومن أفخر ما كان يصنع في (بمّ) الطيالسة الفاخرة تحمل الى أقطار الأرض وتباع بخراسان والعراق ومصر .

3 ـ **الكتان** : كانت صناعة الكتان نادرة لذلك كان يهدى الى الملوك والأمراء . وقد اختصت به مصر ، وبصورة خاصة الفيوم ومنها كان يصدر إلى البلاد الأخرى . وربما وصل الى بلاد فارس حيث كانت « الأجساد المحنطة تلف دائماً بنسيج من الكتان »[16] .

ومن أكبر المراكز لصناعة هذا النسيج النادر الفيوم وبحيرة تنيس بنواحيها : وهي دمياط ، وسط ، ودبيق التي كانت أكبر المدن لصناعة الكتان ، وإليها ينسب أجود أنواع الأقمشة وهو المسمى « بالدبيقي » .

وفي مدينة تنيس صنعت أجود الثياب الفاخرة سموها « البدنة » كانت تصنع للخليفة ولا

---

(11) الزلزلة الآية 7 .

(12) مروج الذهب ج 2 ص 185 .

(13) الحضارة الاسلامية لآدم متز ج 2 ص 352 .

(14) المصدر نفسه ص 351 والحضارة الاسلامية للدكتور أبو زيد شلبي ص 305 .

(15) ديوان المتنبي ط بيروت ص 17 .

(16) الحضارة الاسلامية للدكتور أبو زيد شلبي ص 306 .

يدخل فيها من الغزل ـ سدى ولحمة ـ غير أوقيتين ، والباقي من الذهب بصناعة محكمة لا تحتاج الى تفصيل ولا خياطة ، وقد بلغت قيمة الثوب ألف دينار[17] .

4 ـ **الصوف** : من الصوف صنع المسلمون الفرش الصوفية التي تميزت بصفات خاصة عن البسط الفارسية والأرمينية والبخارية . ولكن البسط الأرمينية أخذت فيها بعد شهرة واسعة على ما عداها من البسط . وقد وصف الوليد بن يزيد بأنه كان جالساً في بيت منجد بالارمينيّ أرضه وحيطانه[18] . ومما يروي المسعودي : إن أم الهادي والرشيد السيدة خيزران ، كانت تجلس في دارها على بساط أرمينيّ وعندها أمهات أولاد الخلفاء وغيرهن من بنات هاشم على نمارق أرمينية[19] . وسبب جودة البسط الأرمينية يعود إلى جودة الصوف الأرميني وأفضله الأحمر . يقول المسعودي : إن الصوف الأحمر يستعمل في حالات خاصة كالزينة والطرب وأوقات السرور ، وان حس البصر مشاكل للون الحمرة ؛ إذ كان من شأنه أنه إذا أدركها انبسط نور البصر في إدراكها ، ولكنه إذا وقع على اللون الأسود اجتمع نوره ولم ينبسط في إدراكه انبساطه في إدراك الحمرة ، وذلك للنسبة الواقعة بين نور البصر وبين لون الحمرة[20] .

وقد عرف الصوف الأحمر في مصر في مدينة القاهرة وفي مدينة أسيوط بصعيد مصر .

صناعة المواد المعدنية

1 ـ **الذهب والفضة** : اشتهرت البلاد الاسلامية بالفضة والذهب على نحو جميل . فالجزء الشرقي كان يأتي بالفضة والجزء الغربي يأتي بالذهب . أما معادن التبر فكانت تقع في الصحراء الحارة شرقي النيل في الصعيد بين أسوان وعيذاب[21] .

وكانت أكبر مدينة لمنجمي الذهب « العلاقي » تقع على مسيرة خمسة عشر مرحلة من أسوان ، أما الطريقة المألوفة في البحث عن الذهب في مصر وفي جميع بلاد الشرق الأدنى ، كانوا يعلمون ، عند تجولاتهم في الليالي ، على المواضع التي كانوا يرون فيها شيئاً مضيئاً بالرماد أو الطباشير ، فإذا أصبحوا حملوا أكوام الرمل المعلمة ، ومضوا بها إلى آبار هناك ، فغسلوها بالماء ، واستخرجوا التبر[22] .

أما الفضة فكان في شرقي الدولة الاسلامية ، في بلاد هند كوش . يقول ياقوت أن في مدينة ينجهير من تلك البلاد جبلاً من الفضة ، والسوق والجبل كالغربال من كثرة الحفر . فهناك عروق يتتبعونها حتى يصلوا إلى الجوهر[23] .

---

(17) المصدر السابق .

(18) الأغاني ج 5 ص 173 .

(19) مروج الذهب للمسعودي ج 6 ص 234

(20) المصدر نفسه ج 2 ص 102 .

(21) راجع الحضارة الاسلامية لأدم متز ج 2 ص 314 . والتبر بالكسر الذهب والفضة قبل أن يصاغا . . القاموس .

(22) تاريخ الحضارة الاسلامية للدكتور أبو زيد شلبي ص 304 .

(23) الحضارة الاسلامية لأدم متز ج 2 ص 316 .

وكانوا يتابعون الحفر في الأنفاق ما حييت السرج وانقدت المصابيح ، فإذا صاروا في الحفر إلى موضع لا يحيي السراج فيه وقفوا ولم يتقدموا ، ومن تقدم منهم مات في أسرع وقت[24] .

2 ـ **الحديد** : من أشهر مواطن الحديد افريقية فهي الموطن الأول له ، يؤخذ منها الى بلاد الهند ، فتصنع منه أغلى آلات الحديد[25] . كما عرف أيضاً في كرمان وفارس وكابل وصقلية . وفارس كانت أكبر إقليم لاستخراجه وصناعته . كما يروى أنه في عام 355 هـ استهدى القرامطة في هجر (بجزيرة العرب) من سيف الدولة الحمداني حديداً ، فأمر بقلع أبواب الرقة ، وكانت من حديد ، وسد مكانها ، وأخذ حديداً بديار مضر ، حتى أخذ سنجات الباعة والبقالين ، ثم حمل هذا الحديد في الفرات الى هيت ، ومن هيت الى القرامطة في البرية[26] .

3 ـ **النحاس** : كان معدنه في أصفهان وبخارى ، ونحاس بخارى كان يستعمل في طلاء أعلى المنائر : يقول متز في تاريخ الحضارة : ان النحاس الأصفر عليه للسلطان خراج قدره عشرة آلاف درهم سنوياً[27] .

صناعات الآلات الخشبية

بلاد الاسلام غنية جداً بالأخشاب الكثيرة ، فصنعوا منها الآلات المتنوعة . وفي خراسان كان خشب العرعر وهو من أجود أنواع الأخشاب استعمله أغنياء المسلمين في بناء بيوتهم في صدر الاسلام . وفي الهند عرف خشب الساج الهندي استعملوا منه معظم أدوات البيوت للملوك والأمراء . وخشب الخلنج ، وهو خشب أبيض مائل إلى الحمرة تصنع منه أثاث المنازل . وقد اشتهرت به مدينة « قم » في إيران ، (تقع بين أصفهان وسادة) من صناعاتها الخشبية الكراسي الجيدة تصدرها إلى جميع الأنحاء[28] .

وفي العهد الفاطمي برعت مصر بالحفر على الخشب ، وما زالت مصر حتى الآن الأولى في هذا الفن ، فصنعوا المنابر والأضرحة الخشبية ، نقشت عليها رسوم الطيور والحيوانات . كما اشتهرت مصر أيضاً بالمنسوجات المزخرفة التي تكثر فيها الرسوم النباتية[29] .

صناعة الورق

أحدثت هذه الصناعة انقلاباً عظيماً في القرنين الثالث والرابع الهجري . وأول من أشار بصنع الورق الفضل بن يحيى حينما طما بحر التأليف والتدوين ، وكثر ترسيل السلطان ،

---

(24) المصدر السابق وسبب الموت كما هو معروف علمياً ان كمية الأوكسجين تخف كثيراً .

(25) المصدر نفسه ص 318 والمنطقة التي عرف فيها تسمى الآن « بندوف » فيها أغنى مناجم الحديد في العالم كما أفصحت عن ذلك الصحف حينما وقع الاشتباك بين المغرب والجزائر .

(26) المصدر نفسه ص 318 .

(27) الحضارة الاسلامية لآدم متز ج 2 ص 317 .

(28) تاريخ الحضارة الاسلامية للدكتور أبو زيد شلبي ص 309 .

(29) المدخل في تاريخ الحضارة العربية لمعروف ناجي ص 75 .

وصكوكه ، وبلغت الاجادة في صناعته ما شاءت[30] . والكاغد هو أفضل أنواع الورق نقلت صناعته عن الصين ، وقد طور به المسلمون حتى أحدثوا تغييراً هاماً في تاريخ العالم ، فنقوه وحذفوا منه كل ما يشوبه من ورق التوب . وفي القرن الرابع انتشرت صناعته في دمشق وطرابلس وطبرية . ولكن سمرقند بقيت المركز الرئيسي للصناعة الورقية . وأهل الشام بصورة خاصة اشتغلوا بصناعة الورق ، وكانوا ماهرين في فن التجليد ، ولا سيما تجليد المصاحف بأنفس أنواع الحرير كالديباج الجميل الناعم[31] .

صناعة العطور

ظهرت صناعة العطور في العراق وفارس ومن أقاليم فارس المشهورة بهذه الصناعة « سابور » . استخرج الزيوت العطرة من عديد الورود والزهور المعروفة عندهم كالنرجس والبنفسج والسوسن والزنبق والنارنج وغيرها .

كذلك اشتهرت مدينة « جور » في جنوب فارس بالصناعة العطرية ولكن الزهور في محيطها غير تلك التي ذكرناها في سابور منها : الزعفران والورد ـ الذي كان ينقل ماؤه من جور الى سائر البلدان ـ والطلع والقيسوم . أكثر هذه العطور كانت تحمل الى مصر والأندلس واليمن والهند والصين والى بلاد الغرب .

وفي الكوفة استحدث أهلها دهان الخيري وعطر البنفسج فاقت بهما سابور[32] .

صناعة الأدوية والآلات الطبية

برع المسلمون العرب في هذا المجال في صناعة الأدوية فهم أول من أوجدوا **الترشيح والتقطير والتحويل والتبخير والتذويب والتبلور** .

وقد اهتموا بهذا العلم اهتماماً بالغاً فالمأمون أخضع الصيادلة لاجراء امتحان فمن نجح سمح له بممارسة المهنة ، كما هو الحال عندنا اليوم في الدخول إلى نقابة الأطباء . وخالد بن يزيد الأول أول من أدخل علم الكيمياء ، بعد أن استعار لذلك العلماء من مدرسة الاسكندرية . وقد نجح بعضهم نجاحاً عظيماً ، منهم من اكتشف الاكسير الأعلى لاعادة الشباب وإطالة العمر ، وهو الاكسير المسمى حجر الفلاسفة[33] .

أما فيما يعود إلى الآلات الجراحية فقد اخترع العرب المسلمون 280 آلة جراحية استخدمها الأطباء في المستشفيات . نذكر أهمها على سبيل المثال :

المشرط : لشق الورم . والمخرط : لقطع اللحم الزائد في الأنف . والمكبس : لكبس اللسان عندما يراد رؤية اللوزتين وأورام الحلق . والمحك : لحك الأجفان . والمسعط :

---

(30) راجع المقدمة لابن خلدون .

(31) تاريخ الحضارة الاسلامية للدكتور أبو زيد شلبي ص 307 .

(32) راجع تاريخ الحضارة الاسلامية للدكتور أبو زيد شلبي ص 307 . والحضارة الاسلامية لآدم متز ج 2 ص . 355

(33) المدخل في تاريخ الحضارة العربية لناجي معروف ص 156 .

لتقطير الأدهان في الأنف . والمبضع : لقطع أي لحم زائد بوجه عام . والصنارة لجذب الجنين عندما تدعو الحاجة أثناء التوليد(34) .

ومن آلات الطب إلى الات الحرب . وليس غريباً أن يعنى المسلمون في صدر الاسلام بالأسلحة والآلات العسكرية ، لأن حروبهم مع المشركين متوالية فلا بد لهم من الحذر والحيطة والدفاع عن النفس .

صناعة الآلات الحربية

قيل : من أراد السلم فليستعد للحرب . وقال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوفَّ اليكم وأنتم لا تُظلمون ﴾(35) .

فالسلاح في يد المسلم ليس للتعدي أبداً ، وإنما هو وقاية من العدو . وعبارة ترهبون به عدو الله ، حتى لا يقع الحرب فالعدو عندما يعلم بقوة جيش المسلمين وعدته واستعداده تقع الرهبة في قلبه ، فيخاف ويخشى خوض غمار الحرب ، وبذلك يصبح السلاح لرهبة العدو أولاً وليس لقتاله .

ومما يوضح لنا انتشار هذه الصناعة الحربية في الاسلام أن الله وصف للمسلمين خبرة داود بصناعة الدروع السابغات التي قدر سردها تقديراً . قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا داود منا فضلاً : يا جبال أوّبي معه والطيرَ وألنا له الحديد ، ان اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير ﴾(36) .

فالله جلّ شأنه يريد من إشادته بالسلاح وتمهله في عرضها أن يثير المسلمين الى إبداع وابتكار نظائرها . ولقد أتى داود ﷺ النبوة والكتاب وطلب إلى الجبال والطير أن ترجع معه بالتسبيح وجعل الحديد بين يديه كالعجين ليصنع منه الدروع المتناسبة الحلقات المتقنة الصنع . كما طلب عزّ وجل الى أهل النبي أن يساعدوه بصبر ، والله يجازيهم بعملهم .

من الآلات الحربية التي استعملها المسلمون في عصر النبوة ، صناعة المنجنيق وهي آلة ترمى بها الحجارة على الأعداء من بعيد . وابن هشام يخبرنا في السيرة فيقول : « ان النبي ﷺ كان أول من رمى في الاسلام بالمنجنيق »(37) .

وكان ذلك حين سار ﷺ الى الطائف ليطارد فلول ثقيف الذين اعتصموا بحصونهم ورموا المسلمين من فوقها بنبالهم ، مما اضطره لنصب المنجنيق ليرميهم به .

ومما استحدث المسلمون في حروبهم ضد المشركين صناعة « الضُبُّور » مفردها الض . وهي دبابة من الخشب المغطى بالجلد ، يكمن الجنود في داخلها ليتقوا النبال الموجهة ...

---

(34) المصدر السابق ص 80 .

(35) الانفال الآية 60 .

(36) سبأ الآية 10 و11 .

(37) السيرة النبوية لابن هشام ج 4 ص 126 . . والنظم الاسلامية لحسن ابراهيم حسن ص 166 .

من الحصون ، ثم يدفعونها الى جدر الحصون محاولـين نقبها وتهـديمها[38] وقـد فصلنا عنهـا في باب النظام العسكري .

صناعة الطواحين المائية والهوائية

استفـاد المسلمون من الميـاه التي تسقي أراضيهم إفادة ثـانية عـرفوهـا في عصرهـم وهي إدارة الطواحين بمياه الأنهار . ففي البصرة كـان لموقعهـا على النهـر فائـدة كبرى ؛ حيث كـان عندهم المد والجزر كل يوم وليلة مرتين . ففي أثناء المـد يدخـل الماء الأنهار ، وفي أثنـاء الجزر ينحسـر راجعاً . فـأقامـوا الرحى عـلى أفواه الأنهار ليـديرهـا الماء أثنـاء حركتـه عنـد الخـروج والدخول أما المناطق الريفية البعيدة عن الأنهار كان أهلها يستعملون الدواب والبنغال في إدارة الطواحين .

ومما يبدو أن نهر دجلة أنسب من نهر الفرات لاقامة الطواحين ، بالنسبـة للعراق ، ففي تكـريت والحديثـة وبغداد كـانت تقوم طـواحين المـاء . أما في المـوصل ففيهـا طـواحـين مـاء مشهورة . وطواحين معروفـة أيضاً في « بلد » « تقـع فوق المـوصل عـلى نهر دجلة » لها فصـل تدور فيه ، وهو المدة التي تحمل فيها الحنطة في السفن الى العراق[39] .

وكان أكبر رحى ببغداد رحى يقال لها رحى البطريق ، فقد كان فيه مائة حجر تغـل في كل سنة مائة ألف ألف درهم[40] .

والى جانب الطواحين المائية كانت الطواحين الهـوائية في إقليم سجستـان وكرمـان يدوم هبوبها ما يقارب المائة يوم . « فكان أهـل هذه البـلاد ينتفعون بهـذه الريـاح ، فنصبوا عليهـا أرحاء يسيرونها بها »[41] .

وقد و صفها بعض الرحالة فقال : « وللرحى ثمانية أجنحة ، تكون وراء عمودين ينفذ بينهما الهواء كالسهم ؛ والأجنحة تقوم عمودية على قائم عمودي أيضـاً ، طرفـه الأسفل يحـرك حجراً ، فيدور هذا الحجر على حجر آخر فهذه الرحى طاحونة هوائية[42] .

الاسطرلاب وعلم الفلك

صـادف علم الفلك هوى في نفـوس المسلمين حتى أن بعض الخلفـاء كانـوا يشجعـون طلاب العلم على التعلم في هذا المجال . ومن الخلفـاء والعباسيـين ، أبو جعفـر المنصور ففي عهده كان الفلكي المعروف ابراهيم الفـزاري ، من حاشيتـه . يروى عنـه أنه أول من عمـل الاسطرلاب في الاسلام .

وفي عهد المأمون لاقى علم الفلك عنايـة خاصـة ، فأنشـأ مرصـداً للكواكب في بغـداد

---

(38) النظم الاسلامية لحسن ابراهيم حسن ص 166 . وما بعدها .
(39) الحضارة الاسلامية لآدم متز ج 2 ص 357 .
(40) المصدر نفسه ص 358 .
(41) المصدر نفسه .
(42) المصدر نفسه .

وآخـر في تدمـر . واهتمام المسلمـين برصـد الكواكب يعـود لحاجتهم الماسة إليـه في كثير من عباداتهم : كرؤ ية هلال رمضان ومواقيت الصلاة وموسم الحج . « ومن أطرف ما يستنتج من رقي الصنـاعة في بـلاد العرب أن معـظمهم عرف الأصنـاف والنقـابـات ولا سيـما في العصـر العباسي . فكان لكل حرفـة شعارهـا ومراسيمهـا ، وكان لكـل صناعـة نقيبها وممثلهـا ، ولا يستغرب هذا إذا قسنـاه بما ذكـروه عن النقباء حتى في عصر النبي ﷺ إذ كان كـل منهم ممثلاً لناحية برع فيها في ذلك العصر النبوي الكريم »[43] .

ثم يسرد معروف ناجي مؤلف كتاب المدخل في تاريخ الحضارة العربية أسماء وأصنـاف نقاباتهم في زمن النبي عليه السلام : كسلمـان الفارسي نقيب الحـلاقين وذي النـون المصري نقيب الأطباء والجراحين ، وسعيد بن أبي وقاص نقيب النشابين الخ . . .

يظهر لنا من هذا الاستعراض السريع براعة المسلمين في جميع أنواع الصناعات المعدنية واليدوية والخشبية والعسكرية . . . فقد عرفوا جميع الصناعات التي احتاجـوا إليها في حيـاتهم الفـردية والجمـاعية ، فـاتقنوهـا اتقانـاً رائعاً سـدوا بها حـاجـاتهم وصـدروا منهـا الى البلدان الأخرى .

---

(43) النظم الاسلامية للدكتور صبحي الصالح ص 408 .عن كتاب المدخل في تاريخ الحضارة العربيه ص 81 .

الباب السابع
النظام الاجتماعي

الفصل الأول

التنظيم الاجتماعي في الاسلام

منذ تكونت الحكومة الاسلامية في المدينة المنورة وبزغ نور الاسلام الساطع ، برز الى الوجود مجتمع أصيل لم تعرفه البشرية سابقاً ، أنطوت تعاليمه على مبادىء أساسية وقواعد انسانية في التنظيم الاجتماعي بمعناه الدقيق والعميق .

التنظيم الاجتماعي في الاسلام تنسيق عادل بين قوى الحياة والأحياء ، بين الجسد وحاجاته والروح ومطالبها ، فقد طلب الله جل جلاله في القرآن الكريم من المسلم أن لا يحرم نفسه من متعة مادية ولا ملذة جسدية ما دام يتناولها من طريقها المشروع ، وفي حدودها المعتدلة ، كما عليه أن يبتغي فيما أتاه الله الدار الآخرة . قال سبحانه وتعالى : ﴿ وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾(1) .

أباح الاسلام لمتبعيه التجمل بأنواع الزينة والتمتع بالمشتهيات المشروعة في حدود الاعتدال ، فلا إفراط ولا تفريط . جاء في القرآن الكريم : ﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾(2) .

ويقول سبحانه للمؤمنين ليعرفوا حدودهم في الحلال والحرام ، ويأكلوا مما رزقهم الله حلالاً طيباً . ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين . وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ﴾(3) .

فقد سمى الله حرمان النفس اعتداء ، أي خروجاً عن طريق العدل بين الروحانية المتطرفة والمادية المغالية .

جاء في روح الدين الاسلامي :

« فالحالة الوسطى بين الروحانية المتطرفة والمادية المغالية أمر تستدعيه حياة المجتمع ، ولا

---

(1) القصص الآية 77 .

(2) الأعراف الآية 31 -32 .

(3) المائدة الآية 87 -88 .

يوجد فيها بين أيدينا من التعاليم ما هو حاصل على هذه الميزة غير الاسلام »[4] .

وقد حدد الله عزّ وجل للانسان حدود الحلال والحرام في كل شيء ، وحدود الهداية والضلال في كل شيء ، وعلى قدر وقوف الانسان عند هذه الحدود ، يكون كما له وتكون مكانته في المجتمع ، جاء في القرآن الكريم :

﴿ تلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾[5] .

إن كل حد حده الله للانسان هو لصالح الانسان ، وكلما عرف الفرد حدود الله وتورع عن تجاوزها كان أعلم وأكمل وأفضل . ومعرفة الحدود تستلزم كثيراً من الثقافة الدينية والعلوم الانسانية والمعارف الحضارية حتى لا نقع في الحرام فنكون من الضالين الجاهلين ، ولا نتجاوز الحدود فنكون من الطامعين الانانيين . قال النبي عليه الصلاة والسلام :

« إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن أتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ألا وإن لكل ملك حمى ألا وان حمى الله محارمه ألا وان في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب »[6] .

والتنظيم الاجتماعي المعتدل الذي وضعه الاسلام يورث الشعور عند الفرد بالطمأنينة والراحة والسلام ، فقد حدد بوضوح علاقة الفرد مع نفسه ، وعلاقة الفرد مع غيره من أبناء مجتمعه ، وعلاقته مع خليته التي أسهم في بنائها ، وأخيراً علاقته مع دولته بما يضمن المعيشة الضرورية ، ويكفل العدالة الاجتماعية . لأن المجتمع المتوازن إنما يتكون من الأفراد المتوازنين ، بعيداً عن القلق النفسي والاضطراب الروحي .

لقد آثر الاسلام التكافل الوثيق بين الفرد والجماعة ، فلا يعيش فيه الفرد على حساب الجماعة ولا الجماعة على حساب الفرد . كل ذلك لايجاد مجتمع متوازن ، توزع فيه التبعات على الجميع بالعدل والقسطاس . هذا المجتمع الذي يحرص على إطلاق جميع الطاقات الفردية والعامة دعاه القرآن الكريم أمة وسطاً ، فلا إفراط ولا تفريط . قال تعالى سبحانه : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا . . . ﴾[7] .

هذا التوسط بين مطالب الروح والجسد ميزة امتاز بها الاسلام دون غيره من سائر الأديان . لقد خلق الله للانسان كل ما يحتاج إليه في هذه الحياة الدنيا وأعطاه عقلاً يتدبر به شؤونه ، ويسخر كل ما في الكون لصالحه وتلبية حاجاته . قال سبحانه : ﴿ وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[8] .

---

(4) روح الدين الاسلامي ص 136 .

(5) الطلاق الآية 1 .

(6) حديث متفق عليه (راجع المجازات النبوية للشريف الرضي) .

(7) البقرة الآية 143 .

(8) الجاثية الآية 13 .

يرشح من هذه الآية مدى سلطان الانسان على العوالم المادية ، الذي كشفه الاسلام قبل أن تظهر بوادره في عصر الكهرباء والاختراعات .

وقد تتغلب على الانسان النزعة الاجتماعية فيضحي بنفسه من أجل الآخرين ويذيب كيانه في سبيل المصلحة العامة ، مستعلياً بحقه في التسامي الروحي . إن الاسلام شجع على القيام بمثل هذه الأعمال الخيرة ، ولكنه أنكر علينا المبالغة فيها ، فلا رهبانية في الاسلام . جاء في القرآن الكريم مخاطباً النصارى الرهبان « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله ، فما رَعَوْها حق رعايتها ﴾(9) ، لأن الرهبانية تجعل الصالحين من عباد الله لا يهتمون إلا بنجاتهم فينزوون الى الصوامع يتعبدون ، وينتقل زمام أمر العالم إلى المفسدين في الأرض . وهذا ما حذر منه الاسلام . قال الرسول الكريم : « كلكم وكل راع مسؤول عن رعيته » .

وعالج الاسلام تنظيم النسل في المجتمع فوجهه توجيهاً صالحاً وأصلحه بما يعود على الانسان بالخير والراحة .

وعمل على نشر العدالة الاجتماعية بين جميع الأفراد على حد سواء ، جاعلاً الميزان الصحيح تقوى الله . كما أعطى للفرد الحق الكامل في ممارسة حريته ضمن الحدود التي أقرتها الشريعة الاسلامية العادلة . وشجع على توثيق المحبة بين المؤمنين بشريعته وعقيدته ، حتى فرض على المسلم أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لها . ونادى بالأخوّة الصادقة المبنية على الإيمان بالله . ﴿ إنما المؤمنون أخوة ﴾ و﴿ المؤمن مرآة أخيه ﴾ وقد طبقها الرسول الأعظم عملياً بين المسلمين المؤمنين .

ونظم الاسلام الاقتصاد ففرض الزكاة ، وخفف من طغيان رأس المال ، وفرض قانون التوريث ، وحرم كنز الأموال والربا وفرض كتابة العقود المالية والرهن ، وأمر الانفاق على ذوي الحاجة من الطيبات ، لأن المال هو ملك الله والانسان ناقل لهذا المال فعليه أن يجبيه بالطرق الحلال ، وينفقه أيضاً في السبل المشروعة . والمال بنظر المسلم وسيلة لحفظ الكرامة عن الابتذال وليس غاية .

والقاعدة العظمى التي علمها الرسول للمؤمنين لتعينهم أفراداً وجماعات على التكافل التام والضمان الاجتماعي الكامل في تحمل التبعات وضمان الحقوق هي : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فهي التي تضمن استمرار التوازن الاجتماعي ، من خلال مدى المسؤولية الاجتماعية حيث يتحمل الفرد أعباءها في دوره الايجابي المنتج .

لقد جعل الاسلام برسالة شاملة هادية ، هدفه منها تحرير الفرد وتكريمه ، وترفيه المجتمع وإسعاده ، وتوجيه الشعوب والحكومات الى الحق والخير والصلاح ، ودعوة البشرية كلها إلى عبادة الله ، الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد ..

---

(9) الحديد الآية 27 .

النظام الاجتماعي

الأسرة :

لقد وضع الاسلام المرء أمام مسؤولياته الاجتماعية في الحياة فأرشده إلى أفضل أسلوب لبناء خلية اجتماعية صالحة متوازنة ، وهي أسرة البيت ، حافظاً لكل فرد من أفرادها حقوقه المادية والأدبية بالعدل والمساواة..

ولا يخفى أن الأسرة الصالحة هي اللبنة الأولى في بناء الوطن الصالح ، وأول عناصر الأسرة المعمول عليه في بناء الأسرة هو المرأة .

كانت الأسرة قبل الاسلام تعيش في عالم مظلم لا يعرف حدوده ولا يفهم حقوقه ، ليس في جزيرة العرب وحدها وإنما في جميع دول الحضارة آنذاك كاليونان والرومان والفرس وغيرهم .

ولما جاء الاسلام كرم المرأة تكريماً لائقاً لم يبلغه أي تشريع اجتماعي سابق ولاحق ، فلم يفرّق بينها وبين الرجل في المجال الاجتماعي والانساني ، معترفاً لها بأهليتها في الحقوق المدنية والمالية والاجتماعية والتربوية .

وأول ما فعله الاسلام في صيانة الأنثى أن سواها بالرجل ، وكيف لا تساويه ما دامت نشأتها واحدة . قال تعالى :

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساء . . . ﴾[1] .

وحرّم الاسلام جريمة الوأد المنكرة التي كانت سائدة عند العرب في الجاهلية وفي عامة القبائل « يستعمله واحد ويتركه عشرة »[2] وقرّع الوائدين تقريعاً شديداً : « وإذا المؤودة سئلت : بأي ذنب قتلت ؟ (التكوير 8 -9) وقد طمأنهم الله ـ خشية الفقر ـ على أرزاقهم فخاطبهم : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق ، نحن نرزقهم وإياكم ، إن قتلهم كان خطئاً كبيراً ﴾[3] .

---

(1) سورة النساء الآية 1 .

(2) بلوغ الارب ج 3 ص 43 ، أسد الغابة ج 4 ص 220 يروى أن قيس بن عاصم قال للرسول ﷺ « اني وأدت اثنتي عشرة بنتاً أو ثلاثة عشر بنتاً » فأشار عليه الرسول باعتاق نسمة عن كل واحدة !

(3) الاسراء الآية 31 .

أسباب الوأد عند العرب في الجاهلية

اختلفت مذاهب العرب في مسألة وأد البنات ، فمنهم من كان يئد :

إن غيرة على العرض ، ومخافة من لحوق العار . لأن العرب في ذلك الوقت أهل سطو وغزو ، فكانت تساق الذراري مع جملة الغنائم ، وبالطبع النبات تساق مع الغنائم الى الأعداء . وهذا عندهم منتهى العار والذل ـ وكانت قبيلة تميم وكندة من أشهر القبائل التي تئد بناتها خوفاً لمزيد الغيرة والسبب في وأد بني تميم ، كما يرويها التاريخ هو أنهم منعوا الملك النعمان ضريبة الاتاوة التي كانت عليهم ، فجرد النعمان إحدى كتائبه بقيادة أخيه الريان ، وكان أكثر رجال هذه الكتيبة من بني بكر بن وائل ، فاستاق النعمان سبي ذراريهم . فوفدت وفود بني تميم على النعمان بن المنذر ، وكلموه في الذراري ، فحكم النعمان بأن يجعل الخيار في ذلك إلى النساء ، فأية امرأة اختارت زوجها ردت إليه ، فشكروا له هذا الصنيع . ومن بين النساء السّبيات كانت بنت قيس بن عاصم ، التي ورد ذكرها قبل قليل ، فاختارت سابيها على زوجها ، فغضب قيس ، ونذر ان يدس كل بنت تولد في التراب ورواية أخرى تقول :

إن قوماً من الأعراب أغاروا على قبيلة ربيعة وسبوا بنتاً لأمير لهم فاستردها بعد الصلح وبعد أن خيروها بين أن ترجع إلى أبيها ، أو تبقى عند من هي عنده من الأعداء ، اختارت سابيها وآثرته على أبيها ، عندها غضب الأمير وسن لقومه قانون الوأد ، ففعلوا غيرة منهم ، وخوفاً من تكرار هذه الحادثة(4) ومن القبائل من كانت تئد البنات لا لغيرة أو خوف من العار ، بل إذا كانت مشوهة أو بها عاهة مثلاً : إذا كانت زرقاء أو برشاء أو كسحاء ، ويمسكون من البنات من كانت على غير تلك الصفات لكن على كره منهم .

أما عن طريقة الوأد ، فيروي أهل السير أنهم كانوا يحفرون حفرة ، فإذا ولدت الحامل بنتاً ولم يشأ أهلها الاحتفاظ بها رموها في تلك الحفرة ، أو أنهم كانوا يقولون للأم بأن تهيىء ابنتها للوأد ، وذلك بتطييبها وتزيينها فإذا زينت وطيبت أخذها أبوها الى حفرة يكون قد احتفرها من قبل ، فيدفعها فيها ويهيل عليها التراب حتى تستوي الحفرة في الأرض(5) .

ومهما كانت طريقة الوأد واختلفت المسببات ، فلقد حاربه الاسلام ، وعاقب عليه وجعله من الكبائر ، حتى محى أثره ، وأصبح قصة يرويها الرواة من أخبار الماضي . وفي القرآن الكريم آية واحدة تناولت أمر الوأد لا غير(6) وقد وصف لنا الشعراء حالهم وحال المرأة في ذلك العهد وعجزها عن العمل والمقاومة ، في حين أنهم يفضلون النبي لأنهم أقوى منهن ، وأفضل في الحرب وميدان العمل . قال بعض الشعراء :

وزادني رغبة في العيش معرفتي	ذل اليتيمة يجفوها ذوو الرحم
أخشى فضاضة عم أو جفاء أخ	وكنت أبكي عليها من أذى الكلم
تهوى حياتي وأهوى موتها شفقاً	والموت أكرم نزال على الحرم

(4) راجع المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام للدكتور جواد علي ج 5 ص 87 .

(5) المرجع نفسه ج 4 ص 188 .

(6) وهذا دليل واضح ان وأد البنات لم يكن منتشراً في جميع أنحاء الجزيرة العربية وعند أغلب القبائل المعروفة .

ثم وصف سروره بعد أن تخلص منها فقال :

فـالآن تمـت فـلا هـمٌّ يـؤرقـني بعـد الهدوء بـلا وجـد ولا حلم(7)

تكريم الاسلام للأم :

أوحى الاسلام بتكريم المرأة أماً وأكد على ذلـك حتى قرن الاحسـان اليها بعبـادة الله : جاء في القرآن الكريم : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالـدين احسانـا : أما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كـريما ، واخفض لهـما جناح الذل من الرحمة وقل ربي ارحمهما كما ربياني صغيرا ﴾ الإسراء الآية (23 و24) .

وذكر القرآن الكريم الانسان والمراحل العسيـرة التي لاقتها أمـه في تربيتـه منذ حمله حتى الرضاعة ثم الفصال ثم التربية الجسدية والروحية فقال سبحانه ﴿ ووصّينا الانسان بوالـديه : حملته أمه وَهْناً على وَهْنٍ ، وفصاله في عامين : ان اشكر لي ولوالديك ، إليّ المصير ﴾(8) .

والأمهات اللائي جعلت الجنة تحت أقدامهن أوصى الرسول ﷺ في السنة الشريفة بهن فقال : « إن الله يوصيكم بأمهاتكم ، ثم يـوصيكم بأمهـاتكم ، ثم يوصيكم بـأمهاتكم ، ثم يوصيكم بالأقرب فالأقرب »(9) .

وأول ما اهتم به الانسان صيانة كرامة الأنثى وجعلها مساوية للرجل ، ما دامت نشأتها واحـدة . قال الله عـز وجل : ﴿ يـا أيها النـاس اتقوا ربكـم الـذي خلقكم من نفس واحـدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً ﴾(10) .

حقوق البنات :

أثبت الـدين الاسلامي حقـوق البنات في الميـراث والزواج والتعليم وقـد حرم العـرب سـابقاً البنت من هـذه الحقوق . جـاء في القرآن الكـريم ﴿ للرجال نصيب ممـا ترك الـوالدان والأقـربون ، وللنسـاء نصيب مما تـرك الوالـدان والأقربـون ، ممـا قـلَّ منـه أو كـثر ، نصيباً مفروضاً ﴾(11) .

ولما عضلوا بناتهم عن الزواج طمعاً بالمال أو في إرثهن بعد الوفاة زجرهم القـرآن بعنف وقال لهم : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهـاً ، ولا تعضلوهن لتذهبـوا ببعض ما آتيتموهن ﴾(12) .

وأعطى الاسلام للبنت حق الاختيار للزوج الذي تحب أن تقـرن حياتهـا بحياتـه ، فلم يأذن لوليها أن يجبرها طمعاً في مال يكسبه أو حرصاً على جاه يحرزه .

---

(7) المرأة في ظل الاسلام لمريم نور الدين ص 24 .

(8) سورة لقمان الآية 14 .

(9) نداء للجنس اللطيف ، أو حقوق النساء في الاسلام للسيد محمد رشيد رضا ص 118 .

(10) النسـاء الآية 1 .

(11) سورة النساء الآية 7 .

(12) سورة النساء الآية 19 . وعضلوا : منعوا .

وقد أوصى الرسول الكريم بذلك بأحاديث عدة كانت بمثابة دروس للآباء حتى لا يتدخلوا في شؤون بناتهم الداخلية فذكّر أن صدقاتهن نحلة لهن وحق خالص قال تعالى : ﴿ وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبينا ﴾(13) .

أما قبل الزواج فقد جعل الاسلام البنت قبل أن تبلغ الرشد تحت وصاية أوليائها ليقوموا بتعليمها وحسن تربيتها . من هنا شاع على السنة الناس تشجيع العلم من قبل الرسول ﷺ حيث جعله فريضة مطلوبة لازمة . وقد ذكرنا بعض الأحاديث النبوية في طلب العلم والحث عليه وتعليم المرأة في الفصل السابق . .

نظام الزواج في الاسلام :

إعتنى الاسلام بنظام الأسرة وصيانتها فشرع الزواج وحث الرجل ليختار زوجة صالحة يسكن إليها يوجد في جوارها راحته ، ويجعل لها من قلبه صلة مودة ورحمة . فهي أقرب شيء الى نفسه وألصق ما يكون بقلبه وحسه . قال سبحانه مشيراً الى ما يحدثه الزواج بين الزوجين من قرب جسدي وروحي كاملين .

﴿ ومن آياته انه خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾(١٤)

وقال : ﴿ . . . . هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾(15) والمراد باللباس هو سكن النفس واطمئنانها ومحل راحتها . كيف لا والمرأة شريكة الرجل في حياته وصاحبة بيته وأم أولاده . تدبر أمرهم وتقوم بتربيتهم وترعاهم ليتفرغ زوجها لواجبه ، ساعياً في طلب رزق عياله ، متحملاً في ذلك المشقات والأتعاب حتى إذا عاد في المساء الى بيته سكنت اليه نفسه ولقي من هدوئه وطمأنينته ما ينسيه آلامه ومتاعبه . وبلا ريب يقصد بالمرأة المطيعة لزوجها ، الصالحة في تربية أطفالها ، المضحية في سبيل غيرها وليس المرأة الأنانية التي همها متعتها ومسراتها وبهارج الحياة الدنيا فقط .

ولقد أوصى الاسلام الرجل بحسن عشرة الزوجة والتلطف في رعايتها فقال الرسول خير الرجال خيرهم لنسائهم . وفي حديث آخر : ما أكرم النساء إلا كريم ولا أهانهن الا لئيم . وحديث آخر : « . . . رفقاً بالقوارير » سمى المرأة قارورة رفقاً بها وتلطفاً .

وكما أوصى الاسلام بحق المرأة على الرجل جعل للرجل حقاً عليها ، فطلب اليها أن تطيعه وتقدمه على أقرب المقربين . جاء في الحديث : « ان رضى الزوج من رضى الله » . على هذا النحو من العلاقة الكريمة فرض الاسلام صلة كل من الزوجين بالآخر صلة عادلة محقة . وقد نص القرآن على هذه العلاقة « لهن مثل الذي عليهن بالمعروف » وكلمة معروف هنا لها وزنها فهي تدلنا بحق أن علاقة الزوجين ليست مبادلة تجارية تقوم على التدقيق

---

(13) سورة النساء الآية 20 .

(14) سورة الروم الآية 21 .

(15) سورة البقرة الآية 187 .

والحساب العسير . دون تساهل ، بل هي علاقة رفق ويسر من الجانبين .

وقد سمى القرآن عقدة النكاح ميثاقاً غليظاً ليس الفكاك منه بالأمر الميسور ، قال تعالى : ﴿ وأخذن منكم ميثاقاً غليظا ﴾(16) .

كما يريد الاسلام للحياة الزوجية الاستقرار والتوازن وخاصة بعد إنجاب الأطفال ، لذلك طلب الى الرجال : ﴿وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾(17) .

ويبعد الاسلام ما استطاع عن العائلة السعيدة شبح الطلاق فيقول الرسول : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق »(18) وسببه يجب أن يكون عند تباين الأخلاق ، وحدوث البغضاء الموجعة لعدم إقامة حدود الله وشرعه . أما إذا كان لأسباب تافهة يكون حمقاً وسفاهة وكفراناً بالنعمة التي أرادها الله ، هذا بالاضافة الى إلحاق الأذى بالزوجة المطلقة وبأهلها وأولادها . قال تعالى : ﴿ فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ﴾(19) . وحتى تبقى الأسرة في توازن عادل ويسود البيت السعادة الزوجية حرصاً على ذلك طلب الاسلام الى الزوج التروي وأفسح له المجال لمراجعة نفسه وتصحيح موقفه ، فقال : ﴿ الطلاق مرتان ، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾(20) .

والطلاق في المرة الأولى رجعي يمكن للزوج فيه إذا ندم أن يراجع زوجه ، أما في المرة الثانية فيصبح بائناً ويلزمه عقد جديد . وقد رغب الاسلام في رجعة الحياة الزوجية ﴿ لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ﴾(21) .

والقرآن يعبر عن الرجعة (بالرد) كما في قوله تعالى : ﴿ وبعولهن أحق بردهن في ذلك ان أرادوا اصلاحا ﴾(22) وكلمة اصلاح مقيدة بالقرآن الكريم . فلئن الرجعة لهدف الاصلاح لا غير ، أما إن كان هدف الزوج الضرار فهي مراجعة باطلة ومخالفة لروح الشريعة ، التي ترمي بالرجعة اصلاح حال الزوجين وإزالة الوحشية بينهما ، لذلك كان التحكيم . فقد نصت الآية الكريمة على تعيين الحكمين من أهل الزوجين أو من غير الأهل شرط أن تتوفر فيهما شروط معينة من حيث العقل والبلوغ والعدل قال تعالى : ﴿ وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها ان يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيرا ﴾(23) ، فعليه أن يبعث حكمين (يعني الحاكم) ينظران في أمرهما وإن لم يرفعا اليه دعواهما ، إذ لا

---

(16) النساء الآية 21 .

(17) النساء الآية 19 .

(18) سنن ابن ماجة ج 1 ص 318 .

(19) النساء الآية 34 .

(20) البقرة الآية 229 .

(21) سورة الطلاق الآية 1 .

(22) سورة البقرة الآية 228 .

(23) سورة النساء الآية 35 .

يحل لمن جعله الله مسؤ ولاً عن الرعية أن يتركها على ما هي عليه من الشقاق والفساد .

والحكمان أو الوكيلان لا مانع أن يكونـا امرأتـين ، أو أن يكون أحـدهما امـرأة لأن كل من تقبل شهادته في أمر جاز أن يكون حكماً فيه(23) .

والاسلام الذي يريد للانسان حياة زوجية هـادئة وسعيـدة لم يسمح للرجـل بأن يفصم عرى الزوجية بكلمة واحدة ، بل أعطاه المجال الكافي لمراجعة نفسه ، فلعله يصحح موقفه . فقال تعالى : ﴿ الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به . تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾(24) . علق الاستاذ محمد جاد الله على الاسلام العادل الذي أنصف كل فرد من الزوج أو الزوجة في هذا المجال وغيره من المجالات الاجتماعية . « هل تر إنصافاً أكثر من أن الشارع الاسلامي ، يعلن : أن أبغض الحلال الى الله الطلاق ، وإن الطلاق مرتان ، وإن التحكيم يسبق إنفاذ الطلاق ؛ وإن للمرأة حق طلب الطلاق لأسباب شرعية ؟ كل ذلك ؛ لأن الاقدام عليه دون استيفاء شروطه مقوض لسعادة الاسرة . وله أثر سيء جداً في تربية الابناء »(25) .

من حقوق الرجل وواجباته

1 ـ هو أب الأسرة والقائم بشؤ ونها ، والانفاق عليها .

2 ـ له الحق في التزوج بأكثر من واحدة حتى أربع بالشروط المعروفة ؛ من استطاعة النفقة ، وعدم الإضرار ، وعدم الخوف من الجور ، وإلا فواحدة . قال عز وجل : ﴿ . . . فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة . . . ﴾(26) .

3 ـ أباح له الطلاق ولكن أبغضه فيه .

4 ـ أمره بمعاشرة زوجته بالمعروف أو تسريحها بإحسان ، وشككه في وجدانه إن هو أحس من نفسه بكراهة لها . قال سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما أتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيرا ﴾(27) .

وأي مسلم مهما علت مرتبته الاجتماعية لا يتأثر مما ذكره الله من توقع الخير الكثير ممن يكرهها ؛ فهو ولا شك يتهم نفسه ووجدانه في كراهته لزوجته .

---

(23) معين الحكام لعلاء الدين الطرابلسي ص 27 - (8) سورة النساء الآية 35 .

(24) البقرة الآية 229 .

(25) محمد المثل الكامل الاستاذ محمد جاد المولى ص 188 .

(26) النساء الآية 3 .

(27) النساء الآية 19 .

من حقوق المرأة وواجباتها

1 ـ جعل لها على زوجها المهر ، والنفقة ، والمعاشرة بالمعروف ، وأعطاها حرية التصرف بمالها ، وحفظ لها كرامتها الانسانية .

2 ـ جعلها على قدم المساواة مع زوجها في الحقوق والواجبات : ﴿ ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة ﴾[28] . ولكن هذه الدرجة فرضها الله من أجل استقرار نظام البيت ، وهي بلا ريب ضرورية إذ أن كل مجتمع مهما كان صغيراً لا بد له من مدبر يشرف على شؤون الرعية حتى يستقيم نظامه . وفي هذا المجال وجد المدبر القدير جل شأنه أن الرجل أقدر من المرأة ، فأعطاه هذه الدرجة وحمله هذه المسؤولية .

3 ـ جعل العلاقة بين الزوج والزوجة قائمة على معنى انساني كريم ؛ فهو يسكن إليها على أساس من المودة والرحمة قال تعالى : ﴿ ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[29] .

4 ـ لم يلق الشارع على عاتقها عمل أي شيء ، حتى إرضاع ولدها إن شاءت أرضعته ، وإن أبت كلف به الزوج .

5 ـ على الزوجة أن تعمل كل ما في وسعها لسعادة زوجها ، لأن في سعادته سعادتها وسعادة العائلة بكاملها . كما عليها أن تطيعه وتعمل بتعليماته فيما يعود لها ولأسرتها .

حقوق الأولاد وواجباتهم

1 - يقوم الوالدان بتربية أولادهم تربية صالحة ، فيعملان على تنشئتهم تنشئة خيرة مستقيمة ، حتى لا ينزلقوا في متاهات ضالة ويعتادون عادات سيئة . لأن من شب على شيء شاب عليه . وتقويم الغصون ضروري لها وهي غضة طرية فإذا ما خشنت وغلظت يصعب جداً تقويمها . ولا ريب أن الشاعر مصيب في قوله :

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ... ولا يلين إذا قومته الخشب

2 ـ وعلى الأولاد أن يعرفوا حق والديهم عليهم وأن يبروهما . وقد عني الاسلام ببر الوالدين عناية بالغة وأمر بالاحسان اليهما حتى أنه قرنه عزّ وجل بعبادته في أكثر من آية . قال الله في كتابه الحكيم : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يَبْلُغَنَّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ﴾[30] .

تعدد الزوجات

لقد وضع الاسلام نظاماً لتعدد الزوجات قيده بشروط ، ولم يرخص بالطلاق إلا في حين تعذر الحياة الزوجية بصورة سليمة .

---

(28) البقرة الآية 228 .

(29) الروم الآية 21 .

(30) الاسراء الآية 24 و25 .

أول هـذه الشـروط : العـدل عمـلاً بـوحي الآيـة الكـريمـة ﴿ فـإن خفتم ألا تعـدلـوا فواحدة ﴾ .

والشرط الثاني : القدرة على الانفاق ، لقولـه تعالى في ختـام آية التعـدد : ﴿ ذلك أدنى ألا تعولوا ﴾ والمعنى ألا تكثروا عيالكم .

فمن وجد في نفسه أنه لا يستطيع العدل في الانفاق حسب النص الشرعي ، فعليـه أن يبتعد عن التعدد . والفطرة السليمة تـرى الاكتفاء بـالأصل ، وهـو وحدانيـة الزوجـة ، ولقد مضى جمهـور المفسرين عـلى تفسير العـدل بالتسـوية بـين الزوجـات في النفقة وليس المقصـود المساواة في المحبة لأن ذلك أمر متعذر ﴿ إن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها ﴾ . ولذلـك فسروا العدل بالمحبة والميل القلبي في تفسير الآية التالية : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ﴾(31) .

فمن وحي هذه الآية إن الله لم ينه عن مجرد الميل وإنما نهى عن (كل) الميل ، في ذلـك إيحاء بأن « بعض الميل » الطبيعي لا إثم فيه . وإن ميل القلب واتجـاه النفس ليسا ممـا يملكهما الانسـان ، ولذلـك لا يتعلق بهما التكليف ، وإنمـا الذي وقـع شرطـاً هو المسـاواة في الانفـاق والرعاية وهذا هو المقدور والمستطاع .

ضرورات التعدد :

تدل الاحصاءات العلمية أن عدد النساء في الأحوال العادية يفوق عدد الـرجال ، ففي ألمـانيـا مثـلاً طلب الأهـالي من الحكـومـة لـوضـع نص تشـريعي في القـانـون يسمـح بتعـدد الزوجات(32) . وأما في أيام الحروب فيظهر لنا أن عـدد النساء لا تقـل عن ثلثي السكان إن لم تكن أكثر .

فالاسلام وضع حلولاً سديدة لمثل هذه الحالات . أما عن ضرورات التعـدد الشخصية فقد تمر بعض الضرورات يلجأ الانسان الى تعدد الزوجات منها :

- ان تكون زوجته عقيماً ، وهو يرغب في الانجاب فيبقيها على عصمته وفاء منه وكرمـاً ، بدلاً من طلاقها حيث تقل الرغبة فيها متى علم خاطبها عن سر طلاقها .
- أو تكون الزوجة مصابة بمرض مزمن ، أو معد ، أو منفّـر ، لا يتيح له أن يعاشرها معاشـرة الأزواج ، فيبقيها على عصمته ويأتي لها بالدواء نبلاً منه وشهامة .
- أو أن يكون الزوج كثير الرحلات ، وليس باستطاعته أن يحمل زوجته وأولاده معه ، ويخشى على نفسه الوقوع في الفحشاء ، فيتزوج زوجـة شرعيـة بدلاً من أن يخـادن خليلة أو بغياً ، ويعترف له المجتمـع بأولاده الشـرعيين بـدلاً من أن يكونـوا أولاد سفاح . ولا ريب أن العمل بهذا التشريع الانساني هو الذي يحول بـين ما يعـانيه المجتمـع من التدهـور الخلقي

(31) سورة النساء الآية 129 .

(32) أحكام الأحوال الشخصية للدكتور محمد يوسف مـوسى ص 121 . وتاريـخ الفقه الجعفري للسيد هـاشم معروف الحسني ص 73 .

ويحفظ للمرأة كرامتها وشرفها لكي لا تصبح فريسة لذوي الشهوات والأطماع الدنيئة .

النساء اللواتي يباح التزوج بهن :

نص القرآن الكريم بآيات صريحة على من يحل التزوج بها ومن يحرم قال تعالى : ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف أنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلا ﴾(34) . وقد نبه الاسلام على هذا النوع لأنه كان شائعاً قبل الاسلام حيث كانت منكوحة الأب يرثها أولاد الميت كما يرثون بقية أمواله . ثم عدد القرآن أصنافاً من النساء غير هذه ممن لا يتحقق بينهن وبين الرجال رابطة الزوجية فقال :

﴿ حرمت عليكم امهاتكم وبناتكم ، وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم ، وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم ، وأخوتكم من الرضاعة وأمهاتكم من الرضاعة ، وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ، وان تجمعوا بين الأختين ، الا ما قد سلف أن الله كان غفوراً رحيما . والمحصنات من النساء إلا ما ملكت ايمانكم ﴾(35) .

وفيما عدا هذه العناوين التي ورد ذكرها في الآية يمكن أن تحصل رابطة الزوجية بين الرجل والمرأة إذا وقع عقد الزواج بينهما بالطرق التي أقرها الاسلام .

وقد منع الاسلام زواج المسلم بالمشركة والمشرك بالمسلمة كما نصت على ذلك الآية الكريمة : ﴿ ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ﴾ . أولئك يدعون الى النار والله يدعو الى الجنة والمغفرة بإذنه . وقال : ﴿ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولامة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ﴾(36) أما عن الزواج بالكتابيات قال تعالى :

﴿ اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم . . . ﴾(37) .

وقد فرض الاسلام على الرجل الذي يبغي الزواج أن يدفع للمرأة ما يتفقان عليه من المال . قال سبحانه ﴿ وأحلَّ لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين﴾ . (النساء الآية 25) الى آخر الآية ﴿ فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة أن الله كان عليماً حكيما ﴾ .

يرى البعض جواز عقد الزواج الى أجل معين من صريح نص الآية ومعناها : إذا عقدتم عليهن الى أجل آتوهن أجورهن ، فوجوب إعطاء الأجرة مترتب على الاستمتاع ، أما في العقد الدائم فيثبت المهر ولا دخل للاستمتاع بذلك .

---

(34) سورة النساء الآية 22 .

(35) سورة النساء الآية 23 -24 .

(36) سورة البقرة الآية 221 .

(37) سورة المائدة الآية 5 .

الفصل الثاني
الزواج المؤقت

تعريفه :

هو عقد ازدواج بين رجل وامرأة مسلمة أو كتابية غير ذات بعل وغير ذات عدة إلى أجل معين بمهر معين يذكر في متن العقد .

وقد سموه بالمتعة ، وتسميته هذه متناسبة مع غاية تشريعه من قوله تعالى ﴿ فما استمتعتم به منهن ﴾ وهذه اللفظة لها جرس وواقع مختلف تماماً عن لفظة الزواج .

مشروعية الزواج المؤقت (المتعة)

أ ـ من القرآن :

قال تعالى : ﴿ فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ﴾[1] هذا دليل واضح على مشروعيتها ولا ينكرها إلا مكابر أو جاهل . وكل باحث تحلل من التعصب تظهر له بوضوح تام دلالة الآية وصحة مشروعيتها . وهو يرى إذا أراد أن الله تعالى شرع في أوائل السورة المذكورة في بيان النكاح الدائم بقوله سبحانه : ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة﴾ من المسلم به عند كافة المسلمين أن مورد الآية النكاح الدائم . وبعدها ذكر تعالى ما يحرم من النساء بقوله : ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف انه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلا ﴾ و﴿ حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وبائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وان تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفوراً رحيما ﴾ .

ثم قال سبحانه عقب ذلك : ﴿ وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة ان الله كان عليماً حكيما ﴾ وبعد هذه الآيات الكريمة يكون إتيان النساء محللاً من طرق ثلاث :

1 ـ النكاح الدائم . 2 ـ نكاح المتعة . 3 ـ ملك اليمين .

---

(1) النساء الآية 24 .

والمخادنة وهي اتخاذ الخليلة للزنا بها سراً . والسفاح بلا ريب هو غير المتعة إذ لا يعقل أن تكون من الزنا بعد أن أحلهـا الله تعالى بقـوله : ﴿ فـما استمتعتم به منهن ﴾ بـل انها عقد زواج مؤقت كالعقد الدائم ، وقد أحلها الرسـول ﷺ وبقيت حلالاً إلى أواسط خـلافة عمـر (رض) .

ب ـ من السنة

روايات كثيرة رواها الأئمة من أهل السنة كـأصحاب الصحـاح تثبت مشروعيـة الزواج المؤقت (المتعة) .

روى البخاري في صحيحه : عن جـابر بن عبـد الله وسلمة بن الأكـوع قالا : كنـا في جيش فأتانا رسول الله ﷺ فقال : إنه قد أذن لكم أن تستمتعوا فـاستمتعوا[2] وروى مسلم في صحيحه : عن اسماعيل عن قيس قال : سمعت عبـد الله بن مسعود يقـول : كنا نغـزو مع رسـول الله ﷺ ليس لنا نسـاء ، فقلنا : ألا نستخصي ؟ نهانـا عن ذلـك ، ثم رخص لنـا أن ننكح المرأة بالثوب إلى أجل . ثم قرأ عبـد الله : ﴿ يا أيهـا الذين آمنـوا لا تحرمـوا طيبات مـا أحل الله لكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين ﴾[3] .

ولكن عمر بن الخطاب نهى عن متعة النساء وعـاقب عليها . جـاء في صحيح مسلم : « كنت عند جابر بن عبد الله فأتاه آت ، فقال : إن ابن عباس وابن الزبير اختلفـا في المتعتين (متعة الحج ومتعة النساء) فقال جابر : فعلناهمـا مع رسـول الله ﷺ ثم نهانا عنهـما عمر فلم نعد لهما »[4] .

ج ـ من الاجماع

قـال الفخر الـرازي في تفسيره آيـة المتعة : واتفقـوا عـلى أنها كـانت مبـاحـة في ابتـداء الاسلام : روى أن النبي ﷺ لما قدم مكة في عمرته تزين نساء مكة ، فشكا أصحاب الرسول ﷺ طول العزوبة . فقال : استمتعوا من هذه النساء .

وحكى النووي في شرحه على صحيح مسلم : واتفق العلماء على أن هـذه المتعة كـانت نكاحاً إلى أجل ، لا ميراث فيها . . . .[5] .

شروط الزواج المؤقت (المتعة)

ورد في وسائل الشيعة أن شروط المتعة خمسة :

1 ـ العقـد . 2 ـ المهر . 3 ـ أن تكـون المرأة مسلمـة أو كتابيـة . 4 ـ أن لا تكون ذات بعل ولا عدة . 5 ـ تعيين المدة ، الأجل .

---

(2) صحيح البخاري ج 3 ص 173 .

(3) راجع المطبوع مع شرحه للامام النـووي في هامش ارشـاد الساري للعسقـلاني ج 6 ص 124 . والآية 87 من سورة المائدة .

(4) صحيح مسلم ج 4 ص 130 باب نكاح المتعة .

(5) راجع المتعة في الاسلام للسيد حسين يوسف مكي ص 31 .

فالعقد يجب أن يشتمل على الرضى والقبول . والمهر : لم يضعوا حداً لقليله ولا لكثيره . وأن تكون المرأة مسلمة أو كتابية وغير ذات بعل : فلا يصح العقد على الكافرة أو المشركة ولا على المطلقة وهي في العدة ولا على المرأة التي عندها زوج مهما كان نوعه ورد عن أبي عبد الله (ع) قال : « كل قوم يفرقون النكاح من السفاح فنكاحهم جائز »(6) .

وتعيين الأجل قليلاً أو كثيراً كساعة أو شهر أو سنة أو عدة سنوات لا فرق . تقول المرأة الجامعة للشروط هذه :

« زوجتك نفسي لمدة كذا بمهر كذا فيقول الرجل بعد أن تكمل كلامها : قبلت » بهذه البساطة تصبح المرأة زوجة دون أي حاجة الى الاشهاد أو التسجيل .

وهنا يظهر ما للكلمة من احترام والتزام ، فالميثاق الذي استحل به النكاح قد أخذ بشرف الكلمة « زوجتك نفسي » وكرامة الالتزام : « بقبلت » فالانسان الشريف يحترم كلامه ويلتزم به . قال بعض الحكماء في هذا المجال : إذا تكلمت بالكلمة ملكتني وإذا لم أتكلم بها ملكتها .

وقال الشيخ سليمان اليحفوفي : « فالكلمة نظام الانسان ورقيه وحضارته وهي مذ كانت ! ترخص في سبيلها الأموال والأرواح والدماء ، فإذا استذلت ، ماذا يبقى من الانسان »(7) ثم تابع :

« من استحل بها كل المرأة ، جمالاً وفتنة وجاذبية ، واستمتع بكل ما وهبتها الطبيعة من سحر ومغريات ، وقضى كل نهمه ما يلسع جسمه بأفانين الحب ، كيف يمكنه أن يتخلى عن شرف ما أعطاه ويخون الكلمة »(8) .

الفوارق بين الزواج الدائم والزواج المؤقت

هناك فوارق عدة بين الزواج الدائم والزواج المؤقت تعطي لهذا الأخير الكثير من المرونة والحرية على الاطلاق .

أولاً : لا طلاق في حالة الفراق وإنما يحصل بانتهاء الأجل المتفق عليه من قبل الطرفين أو إبرائها المدة المتبقية .

ثانياً : لا نفقة للزوجة المتمتع بها على زوجها إلا إذا حصل ذلك بعد اتفاق مسبق بين الطرفين .

ثالثاً : لا ميراث بين الزوجين إلا أن يشترط أحدهما أو كلاهما في متن العقد فيرث الذي يشترط وتنفذ الوصية حسب الاتفاق .

رابعاً : يحق للزوجة المتمتع بها عدم إطاعة زوجها في الانتقال معه حيث يريد أو الخروج من منزلها بغير إذنه ، وجل ما عليها أن تمكنه من الاستمتاع بها بتسليم نفسها له ساعة

---

(6) وسائل الشيعة ج 7 ص 588 .

(7) ضمان الجنس في الاسلام ص 131 .

(8) المصدر نفسه .

يـريد خـلال المدة المتفق عليهـا ، ولو أخلت ببعض المـدة ، فاختصـرت منها مثـلاً ، سقط من المهر بالنسبة نفسها .

خامساً : يحق للزوجة المتمتع بهـا أن تشترط عـلى زوجها أن لا يـدخل بهـا الا بتقديمـه بعض الطلبات ، وعليه الوفاء بهذه الشروط ، ولكنها إذا أسقطت الشرط عن رضـا وقناعـة جاز له ذلك .

فـلاحظ معي هذه المـرونة والحـرية للزواج المؤقت التي يتمتـع بها كـلا الطرفـين حيث باستطاعتهما تجديد العقد عند انتهائه بمدة يتـراضيان عليهـا من إنقاص أو تمـديد لفتـرة أخرى معينة ، ولو أرادا لجعلاه زواجاً دائماً . فأي يسر أفضل من هذا الزواج الـذي شرعـه الاسلام حيث باستطاعة الشاب البالغ أن يوفر لنفسـه شريكـة في فترة النمـو الجنسي والرغبـة الجامحـة وصعوبة المغريات بدون أي حساب لتكاليف الأسرة التي لا يستطيع تحملهـا . وشيء آخر ان باستطاعتهما تجنب الانجاب ، وإذا حصل ذلك فهو ابن شرعي لهما تترتب له كل حقوق البنوة المعتـرف بها لـلأبناء . فـلا يجوز الاجهـاض ولو فعلت أو أكـرهت على ذلـك فعليها أو عليـه الدية . أما النفقة فتجب على الزوج إذا كان منصوص عنها في العقد وإلا فإنها تسقط عنه .

فالشباب والشابات الراغبين في هذا الزواج المؤقت يجدون فيه حلاً يصون كـرامتهم ولا يلزمهم بنفقات يعجزون عنها وتكاليف زوجية تثقل كاهلهم سوى المهر المنصوص عنـه في متن العقد .

وهكـذا يجد شبـابنا في مثـل هذا السن ، بعـد البلوغ وقبل الـزواج الـدائم ، إطـلاقـاً لحريتهم وتلبية لرغباتهم في نظام مشروع وطهارة تامـة . فلا إثم ولا عبث ولا انحـراف ، كما لا ضغط ولا كبت ولا اضطهاد للرغبات الجنسية ، وإنما هو حل سليم متوازن يـريح الجميـع دون أي جهد أو إجهاد .

فالزواج المؤقت المنصـوص عنه في القـرآن الكريم ، إذا تم حسب الأصـول الموضـوعة له ، أفضل حل لقضايا الجنس عند الشباب والشابات في عصرنـا الحاضـر . فبه تمتنـع الكثير من المشـاكل التي تضـج بها المحـاكم بأسلوب حضـاري يمنـع السفـاح ويضمن حقـوق أبنـاء المجتمع الجنسية ويلبي رغبـاتهم بشكل عـادل متوازن ، كـما يحفظ طهارة النسـل ويقضي على جيل اللقطاء الذي يقلق بال العـالم المتحضر . فـما ذنب هذا اللقيط الـذي جنى عليه أهله في نزواتهم وطيشهم ليعامل المعاملة المزرية وينـظر إليه بـاحتقار وتـلاحقه القـوانين التي تحط من كرامته . إنه يكفر بمجتمعه وينفجر حقداً عليه .

وما ذنب هذه الروح التي تذهب ضحية سوء تصرف المجتمع الـظالم الغاشم ! وكم من الأخبـار التي تحملها الصحف كـل يوم عن الحـاملات المنتحـرات حين علمن بحملهن الغـير مشروع . وكم من حالات الاجهاض الخيالية في العالم التي يرفضها الدين ويندى لها الجبين !

وقد تعرض الكثير من علماء الاجتماع وعلماء النفس لهذا الموضوع وعرضوا جميع آرائهم ومقترحاتهم وأقوالهم دون وضع أي حـل للمشكلة الجنسية وجـل ما رشـح عنهم أن القضايـا

الجنسية ضرورة اجتماعية . ولما بقيت أقوالهم كلاماً بلا حلول كانت الخيانة الزوجية ، والدعارة ، والتضحية بالكرامة الانسانية ، وقتل الأجنة والوقوع في غياهب الظلم والكفر .

إن الإقدام على إعدام الجنين هو اعتداء صارخ على حياة الآخرين ، وعلى الروح التي ليست من صنع الانسان ولا خاضعة لارادته فأي شريعة تسمح له بإزهاق الأرواح ؟! ذلك الحمل الغير مرغوب فيه والغير شرعي لا يجوز إسقاطه لأنه مخالفة صريحة لإرادة الله .

والحل المناسب الذي فرضته الشريعة الاسلامية لمنع هذا الانحلال الأخلاقي والتدهور الاجتماعي والجرائم البشعة التي تذهل العقول هو الزواج المؤقت .

وقد عارض هذا الزواج كثير من المتحذلقين الذين اتخذوه ذريعة للطعن على الاسلام وعلى رسول الله محمد ﷺ . كالشوكاني(9) والبيهقي(10) . . . والشيخ أحمد زكي باشا وابراهيم الراوي اللذان عقبا على كتاب أصل الشيعة وأصولها للامام كاشف الغطاء فيما يتصل بموضوع المتعة .

وقد تبين حالة الشطط التي سارع اليها هؤلاء وغيرهم من المستشرقين مثل « لهيوز » و« رسل » . وقد رد عليهم الاستاذ العقاد وكفانا شرهم فقال : « في قاموس الاسلام الذي ألفه توماس باتريك هيوز ، بحث عن الزواج الاسلامي يقول فيه عن زواج المتعة : إن هذه الزيجات الموقوتة هي ولا ريب أعظم الوصمات في تشريع محمد الأخلاقي ، ولن تقبل المعذرة بأي حال من الأحوال . . . . رد العقاد على هذا الادعاء فقال(11) :

لقد كان النافع للرجل أن يعيش حتى يرى فيلسوفاً من أكبر فلاسفة قومه يدرس مشكلة الجنسين في الحضارة الحديثة دراسة الفلاسفة المحققين فلا يهديه الرأي فيها الى حل غير زواج المتعة أو ما هو من قبيله ، فقد كان خليقاً به إذن أن يتهيب مشكلة الجنس قليلاً من التهيب ، وأن يدرك مدركاً أو طائعاً أنها ليست باللعبة التي يلعب بها المتطلعون الى سمعة اللطافة والفروسية المصطنعة في الأندية والمحافل وان مشكلات النوع الانساني في الضخام قد تلجىء أساتذة العصر الى مقام المتعلمين من أبناء العصور الماضية ، فيتعلمون أن الحذلقة أسهل شيء على طلاب المظاهر وأدعياء اللطافة ، ولكنها بسهولة لن تنفع البشر في المعضلات الصعاب التي تعتبر حلاً لمشكلات النوع الانساني الضخام والتي تتجدد مع الزمان وتستفحل على تعاقب الأجيال » .

إن المفارقات التي سجلت على الزواج المؤقت تختلف في موضوعيتها باختلاف الباحثين

---

(9) الشوكاني : هو محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني من كبار علماء اليمن ، من أهل صنعاء ، ولد في شوكان باليمن سنة 173 هـ ـ 125 هـ وله عدة مؤلفات منها كتاب نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار يقع في ثماني مجلدات .

(10) منسوب الى بيهق وهي قرية من بلاد خراسان وهو أحمد بن الحسين بن . . . موسى البيهقي الخسروجردي ولد سنة 384 هـ وتوفى 458 هـ وهو فقيه ومحدث . غلب عليه الحديث ورحل في طلبه وسمع وصنفد فيه كثيراً . راجع كتاب (الزركلي) .

(11) الفلسفة القرآنية للعقاد ص 75 .

فأحمد أمين حملها النتائج نفسها التي تسببها العلاقات الجنسية غير المشروعة كـاختلاط الميـاه ، وضياع الانساب ، وامتهان كرامة الانسان في المرأة باعتبارها سلعة تؤجر لامتاع الآخرين .

ونجيب عنها جميعاً دون تفصيل . يتضح الجواب على هذه المفارقات إذا عدنـا إلى تفهم واقع الزواج المؤقت بعد التعرف على أحكامه وشروطه .

ـ **أولاً** : الزواج المؤقت علاقة طبيعية باعتراف الشريعة ، يشعر فيها الـزوجان بكـرامة الوفاء وكرامة الكلمة التي يقع بها العقد ، وذلك بحكم كونها عقداً من العقود . ولا فرق بين الزواج المؤقت والزواج الدائم من هذه الناحية سوى أن المرأة في المؤقت تملك تحديد المدة ولا تملكها في الزواج الدائم بل تظل تحت رحمة الزوج إن شاء طلقها ، وإن شاء مد بالمدة إلى آخر العمر . إذن هي ليست سلعة تؤجر للمتعة كما يتوهمون وإنما هي كالطرف الآخر في المعاملة ، تعطي من الالتزامات بقدر مـا تأخـذ . وفي هذه الحـالة قـد تكون الـزوجة هي الـرابحة لأنها سوف تكتشف أخلاق الزوج ومعاملته ، فتستطيـع عند ذلـك تحديـد موقفهـا منه . فـإما أن تنفصل عنه وإما أن تكوِّن علاقة دائمة معه بتحويل الزواج المؤقت إلى زواج دائم . وهذا مـا يحصل عندنا اليوم أثناء الخطوبة في البلدان المتحضرة ، وهي كما نعلم فترة من أصعب مـا يمر بها الخطيبان لما تنطوي عليه من تصنع وتزيف وحسن مـظهر في أكـثر الأحيان يكـون كاذبـاً ، لأن كلاً منهما يشعر في أعماقه أنه مراقب من صاحبه في كل أعماله وحركاته . وفي هذا المجال النساء مخادعات أكثر من الرجال . هذه الأجواء كلها من نفسية واجتماعية أثناء فترة الخـطوبة تكاد تكون معدومة في فترة الزواج المؤقت ، بفضل اختبار كل منها للآخر بعيدين عن عوامل التكلف والتصنع .

فأية مهانة على المرأة في أن تنشىء عـلاقة شـريفة يعتـرف بها القـانون وتقـرها الشـريعة وتتوفر فيها كرامة الكلمة وشهامة الالتزام ، دونما حـاجة الى التسـتر تحت أجنحة الـظلام وفي أوكار الليل .

ـ ثـانياً : تتقيـد المرأة في الـزواج المؤقت بتوحيـد علاقتهـا الجنسية مـا دامت في عصمة الزوج ، وحالها حال الزوجة في العقد الدائم . وإذا انتهى أجل العقد أو انتهى بمـوت الزوج لحقتها العدة وهي تتراوح بين خمسة وأربعين يوماً وأربعة أشهر وعشرة أيام . وهذه المدة كـافية بنـظر التشريـع لاستبراء المـرأة ، والوقـوف دون اختلاط الميـاه . بينما الـزنى المتفشي في أكـثر البلدان المتحضرة ! لا تتقيد المرأة في علائقها الجنسية فحسب بـل تكون ملكـاً للجميع ، وفي ذلك ما يسبب الأمراض الفتاكة التي تقع نتيجة اختلاط المياه . وهذه الحالة أدهى وأخـطر من حياة الناس في عصر الجاهلية ، حيث كان عندهم زواج الرهط أو زواج الميراث . . .[12] .

ـ ثـالثاً : الفـارق الثالث أن الـزنى الذي حـرمته الأديـان السمـاوية ينهي الى اختـلاط الأنسـاب وخلق طبقة من النـاس لا يعترف بهـا أحد من الآبـاء والقوانـين ، كما يكـونـون في موضع ازدراء ونقمة . لذلك ينشأون على التنكر والبغض والحقد والتمرد على كل ما يحيط بهم

---

(12) راجع حضارة العرب في عصر الجاهلية للمؤلف ص 128 .

من دين وقوانين فالآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون . وتركوا جيشاً من المشردين النـاقمين على أديان وعادات وتقاليد مجتمعهم .

كل هذا غير موجود ومرفوض في الزواج المؤقت فالأنساب محفوظة والولد ولد لابويه لا فارق بينه وبين أخوته من الزوجة الدائمـة في الإنفاق والارث وكـل الحقوق التي نصت عليهـا الشريعة الاسلامية .

أما في حال سفر الزوج فالاسلام فرض عليه أن يعطي عنوانـه الكامـل لزوجتـه لتؤذنه بنتائج الحمل إن حصل . وعلى كل حال ليست المرأة متاعاً مطروحاً على قارعة الطريق يتنـاولها أي عابر سبيل بسهولة ويسر دون أن تعرف اسمه وعنوانه .

وبعد هذا السرد للفروقات والأوهام والاتهام لا يسعنا إلا أن نقر بما جاءت به الشـريعة الاسلامية العادلة المتكاملة . ولكن إيماننا بالزواج المؤقت يحتاج إلى رياضة ومعاناة طويلة حتى يصبح من عاداتنا المألوفة وتصبح الدعـوة الى حضور زواج مؤقت كـالدعـوة الى حضور زواج دائم لا تنطوي على أية علامة من التندر والاستهزاء . فالشرع أقرهـا والمنطق أقـرها وظـروف الشباب والشابات تحتاجها ولا غنى لهم عنها .

المتعة رحمة

ورد في كتاب المفتي الشيخ سليمـان اليحفوفي (ضمـان الجنس في الاسلام) : « المتعـة رحمـة من الله للبشر لتصـريف طاقـاتهم الجنسية الـطافحة في الـطرق النظيفـة العـادلـة : فـلا تضيعوها معاشر المسلمين وتخونوا أنفسكم مسافحين ومسرورين لصبغة عملكم الغربية »[13] .

أما عن أسباب منعها فالذي نعلمه أن النبي عمل بها منفذاً قول الله عزّ وجل في سـورة النساء (الآية 34) وبقي عمول بها في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه حتى عهد عمر بن الخطاب فعمد الى منعها . ويخبرنا عن هذا المنع الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصـاري حين بلغه ما دار من حديث بين ابن الزبير وعبد الله بن عباس حين اختلفا في المتعتين (متعـة الحج ومتعة النساء) فقال جابر : « على يدي جرى الحديث ، تمتعنـا مع رسـول الله ﷺ ومع أبي بكر ، فلما ولي عمر خطب الناس ، فقال : ان رسول الله هذا الرسول ، وان القرآن هذا القرآن وانهما ـ كانتا ـ متعتان على عهد رسـول الله ، وأنا أنهي عنهـما وأعاقب عليهـما إحداهمـا متعة النساء ، ولا أقدر على رجل تزوج امرأة الى أجل إلا غيبته بالحجارة »[14] .

ومما يبدو لنا أن بعض المسلمين قد أساء استعمال هذا التشريع ممـا أثار حفيـظة الخليفة عمر فهب في ثورة عاطفية الى التحريم المطلق .

وسبب آخر نظن أنه يعود الى هذا التشريع الجديد بالنسبة للمسلمين في ذلـك الوقت إذ لم يسهل عليهم تقبله وهو في البداية ، وبصورة خاصة التشريع الذي يتعلق بشؤون الجنس ،

---

(13) ضمان الجنس في الاسلام ص 138 .

(14) صحيح مسلم باب نكاح المتعة ج 4 ص 130 والنص والاجتهاد للسيد عبد الحسين شـرف الدين المـوسوي ص 187 .

فربما استنكروه لأنه لم يمر عليه بعد مدة كافية لترويض نفوسهم عليه .

وهناك أيضاً سبب آخر لعله يكون إعراض الرجال عن زوجاتهم والحاحهم في طلب زواج المتعة . ورد في الوسائل عن أبي الحسن (ع) في كتابه الى بعض مواليه : « لا تلحوا على المتعة ، وإنما عليكم إقامة السنة ، فلا تشتغلوا بها عن فرشكم وحرائركم ، فيكفرن ، ويتبرين ، ويدعين على الآمر بذلك ، ويلعنوننا »[15] .

لقد أظهر (ع) ميل بعض الرجال الى غريزة التبدل الجنسي ، كما حدد من جهة أخرى إقامة السنة وعدم الإلحاح في طلب المتعة وذلك لحفظ حقوق الزوجات الحرائر ؛ لأن الزوجة التي ينشغل عنها زوجها بصورة شبه مستمرة ، تكفر بالقيم وتدعي على الآمر بها .

هذا على ما أظن ما جعل كثيراً من الناس يتمسكون بنهي الخليفة عمر عنها وينتحلون الأخبار والروايات في نسخها . قال أستاذ الأصول والفقه المقارن في كلية الفقه بالنجف الأشرف السيد محمد تقي الحكيم[16] :

« والذي يبدو لي أن بعض المسلمين أساء استعمال هذا التشريع ، فأثار حفيظة الخليفة ، ودفعه في ثورة عاطفية الى هذا التحريم المطلق . . . . وهو تشريع جديد على المسلمين إذ لم يسبق له نظير في أية شريعة سابقة دينية أو مدنية ، لذلك سارعوا الى الأخذ برأي الخليفة ، واعتباره شريعة ، وكان ممن انكر هذا التحريم عليه ولده عبد الله بن عمر فقد سئل بعد ذلك عن متعة النساء ، فقال : « والله ما كنا على عهد رسول الله زانين ولا مسافحين » وقال له مرة رجل من أهل الشام :

إن أباك قد نهى عنها ، فقال ابن عمر (رض) : أرأيت إن كان أبي نهى عنها وصنعها رسول الله ﷺ أنترك السنة ونتبع قول أبي ؟ »[17] وقد علق السيد الحكيم على رأي ابن عمر .

« . . . والذي يبدو من هذا الكلام أن ابن عمر كان ممن لا يسيغون الاجتهاد في مقابل النص مهما كان ذلك الاجتهاد وبواعثه لذلك لم يأخذ بوجهة نظر أبيه مع صراحة النص » .

وإذا كان لاجتهاد الخليفة عمر ما يبرره في وقته ـ وهو ما لم يتضح لدينا الآن ـ فليس هناك ما يبرر استمراره ، ورفع اليد عن صريح القرآن لأجله . علماً أن « حلال محمد حلال الى يوم القيامة وحرامه حرام الى يوم القيامة »[18] . وقد ورد في مصادر ثابتة ان جملة من الصحابة الاجلاء لم يقروا عمر على اجتهاده . قال ابن حزم :

« ثبت على إباحتها (المتعة) بعد رسول الله ﷺ ابن مسعود وأبو سعيد وابن عباس وسلمة ومعبد ابنا أمية ابن خلف وجابر وعمر بن حريث ومن التابعين : طاووس وسعيد بن

---

(15) الوسائل ج 7 ص 450 .

(16) الزواج المؤقت ودوره في حل مشكلات الجنس ص 40 .

(17) راجع كتاب المتعة للفكيكي ص 54 نقلاً عن صحيح الترمذي .

(18) الزواج المؤقت للسيد محمد تقي الحكيم ص 42 نقلاً عن البيان ص 217 .

جبير وعطاء وسائر فقهاء مكة »[19] والاستاذ العقاد قد أبدى استغرابه لمنع عمر الزواج المؤقت فقال : « لقد خالف عمر المألوف في منع زواج المتعة » فمألوف الطباع هو ما أقره الاسلام ومنعها يضر بالمجتمع ويعقد مشكلات النوع الانساني[19] .

ومشكلات شبابنا اليوم ما هي الحلول العملية المطروحة لهم وبصورة خاصة الفترة الدراسية بين الثامنة عشر والثامنة والعشرين . فترة التخصص وهي طويلة يقضيها الشاب بين سن البلوغ وسن الزواج . ولا يخفي أنها فترة النمو الجنسي والرغبة الجامحة وصعوبة مقاومة المغريات ، وما أكثرها في عصرنا المتحضر ، فهل يعقل أن نغفل هذه الفترة كما أغفلها السابقون ؟ وهذه بعض احصاءات ذكرها الشيخ سليمان اليحفوفي نقلاً عن ندوة تنظيم الوالدية ، الاسلام وتنظيم الاسرة[20] .

« أما في أمريكا فقد أعلن الدكتور و. براون من المركز الامريكي لمكافحة المرض سنة 1965 أن 650 000 من الامريكان شباباً وفتيات تحت سن العشرين يصابون سنوياً بالزهري والسيلان ، وان حالات الزهري المعروفة قد زادت على مدى عام بمقدار 55% في نيوجرسي و30% في مدينة نيويورك .

كما أعلن الدكتور ماكنزي بولوك ، من جمعية الصحة الامريكية أن الاصابات شهدت مؤخراً تفاقماً مروعاً ودعا لاعلان حالة الطوارىء القومية » أما عن نسبة الاجهاض فيقول (ص 323) .

« النساء المجهضات 44% منهن متزوجات، على حين 47% فتيات غير متزوجات و9% مطلقات أو أرامل أو منفصلات عن أزواجهن . أي أن نسبة الحمل السفاح في المجموع بلغت 56% . ويضيف :

« إن احصائيات الاجهاض في انكلترا لسنة 1969 أبانت 47% من المجهضات كن متزوجات و53% كن حاملات مه سفاح كذلك .

وقد سألت مندوب السويد عن نسبة المتزوجات في 50000 إجهاض التي تجري سنوياً فأجاب : بأن أكثر من النصف فتيات غير متزوجات . من يتأمل نسبة هذه الأرقام يذهل بلا ريب فقتل الأجنة يزيد على قتل الشباب أثناء الحروب !

وبعد ما هي الحلول التي وضعوها بعد إعلان حالة الطوارىء لتصحيح الوضع ؟ إما الكبت وقد رفضه علماء النفس والاجتماع على الاطلاق وإما علاقة جنسية بين الطرفين مع اجتناب حدوث حمل وهو الزنى بعينه وأما الزواج المكبر الشرعي وقد يرهق كاهل الشباب في مثل هذه السن من حيث النفقات على الاسرة وحقوق الزوجية .

وأما سلاح الوعظ والتخويف والتحذير ، وأظن أن نداء الجنس أقوى في تأثيره من نداء الوعظ والارشاد كأداة في علاج المشكلة ، ولا يقوى على إسكاته التغافل بل يحتاج إلى حلول

(19) عثمان بن عفان لعباس محمود العقاد ص 38 .

(20) ضمان الجنس في الاسلام ص 123 -124 .

جذرية تحد من تأثيره دون أن تخلق منها مضاعفات سلبية .

رأينا في حل هـذا الاشكال هـو رأي أهل البيت عليهم السـلام ، وهل للمسلم المؤمن إلا أن يسلك طريقهم ويأخذ برأيهم ؟ الحل هو الزواج المؤقت (المتعة) .

قال العقاد ان مألوف الطباع هـو ما أقـره الاسلام من إبـاحة زواج المتعـة ومنعها يضـر بالمجتمع ويعقد مشكلات النوع الانساني الضخام(21) .

ولو لم يكن الزواج المؤقت علاجاً شـافياً لحـل مشكلات الشبـاب فهل يمكن أن يبيحـه رسول الله لأصحابه ؟ وهل يمكن أن يعتبره السلف الصالح رحمة من الله رحم بها عباده ؟

يوافقنا على هذا الرأي الاستاذ أحمد حسن الباقوري حيث قال : « إذا كان لنا أن نختار رأياً تقوم الحجة به ، وتتوافر الدلائل عليه ، فهو أن نكاح المتعة مباح إذا دعت اليه ضرورة ، ومستندنا في هذا أمران :

احداهما : إباحة رسول الله ﷺ لأصحابه هذا النكاح وقد شكوا إليه الغربة

وثانيهما : اعتبار السلف الصالح هذا النكاح رحمة رحم الله بها عباده ثم تابع قوله :

وبهذا النظر تخيرنا القول بإباحة هذا النوع من الزواج وارتأينا ما يـراه فقهاء أهـل البيت من مشـروعيته مشـروعية دائمـة غير منسـوخة فهم في هـذا كانـوا من سعة الأفق وبعـد النظر بحيث لا يملك المسلم المنصف إلا أن يسلك طـريقهم ويـأخـذ بـرأيهم إيثـاراً للحق وابتغـاء لصالح المسلمين »(22) .

إن اسكات صراخ الكبت في قلوب الشباب المراهقين بشتى الوسـائل أو استعمـال القوة الخارجية في الرقابة والوعظ والارشاد ، أو الاباحة الجنسية والاستهتار والزنى أو الـزواج الدائم للمبكر المرهق . كلهـا حلول فاشلة غـير ناجحـة . وأفضل حـل للحفاظ عـلى طهارة نفـوس شبابنا وعدم انزلاقهم في إغـراءات الحياة الكثيـرة هو الـزواج المؤقت فهو رحمـة من الله لعباده لتصريف طاقاتهم الجنسية بطريقة مشـروعة نـظيفة عـادلة(23) . وعلينـا أن نكون مـوضوعيـين متحررين جهدنا من رواسبنا وتقاليدنا لنكون أقرب الى الواقعية وأبعد عن التهريج العاطفي .

الحالة الثالثة ـ وهي ملك اليمين

هذه الحالة نادرة جداً ولكن الاسلام المعـروف بشموليتـه لم يترك أي حـالة من حـالات المجتمع إلا ووضع لها قانـوناً وأحكـامها تتنـاسب مع ظـروفها وأسبـابها وقـد أعطى الاسـلام أحكام هذه الحـالة (ملك اليمـين) بالآيـة الكريمـة الآتية : ﴿ ومن لم يستـطع منكم طَوْلاً أن يَنْكِحَ المحصنات المؤمنـات فمن ما ملكت أيمـانكم من فتياتكم المؤمنـات والله أعلم بايمـانكم بعضكم من بعض فانكحوهن باذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخـذات أخدان فـإذا أحصنَّ فإن أتـين بفاحشـة فعليهن نصف مـا عـلى المحصنـات من

(21) راجع عثمان بن عفان للعقاد ص 38 .

(22) مع القرآن للاستاذ الباقوري ص 178 .

(23) منهاج الصالحين للامام الحكيم والبيان للمرجع الامام الخوئي .

العذاب ذلك لمن خشي العنت منكم وان تصبروا خير لكم والله غفور رحيم ﴾[24] .

هؤلاء ملك اليمين ، هم العبيد وحالتهم تشكل وضعاً شاذاً في المجتمع نتيجة ترسبات مزمنة مرت بها الانسانية في طورها البدائي من الحضارة . ولم تخل أي أمة منهم هذه الحالة الغريبة عن فطرة الاسلام الانسانية ، أفرزتها العلاقة الظالمة المشتركة بين العبد ومالكه .

وقد وقف الاسلام وقفة جبارة ليقضي على هذه الحالة الشاذة مسخراً كل ما عنده من إمكانيات ، ففرض عتق الرقبة على أكثر المخالفات والأخطاء التي يقع فيها المسلم ، وذلك للتكفير عن مخالفاته . فشجع على العتق وحث عليه[25] . لأجل أن يحرر جميع المستعبين ﴿ الذين ولدتهم أمهاتهم أحراراً ﴾ . إن الاسلام ، الدين الانساني ، يرفض العبودية لغير الله ، ويساوي بين البشر في جميع الحقوق والواجبات ، وقد أوجد حلاً ناجحاً لكل معضلة يقع فيها الانسان ولجميع الحالات الشاذة التي ابتلي بها المجتمع . والمستعبد يعطى من الزكاة لتحرير ما تحت يده من نظرائه في الخلق . لأن الناس صنفان : إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق[26] .

حرية المرأة القانونية والمالية في الاسلام :

أعطى الاسلام المرأة حريتها القانونية والمالية إلى أبعد الحدود ، فلها الحق أن تتصرف بأموالها كما يتصرف الرجل سواء بسواء . فتبيع وتتاجر وتعقد الصفقات ، وتؤجر البيوت وترهنها وتقوم بالغرس والزراعة والحصاد كما تشتغل عند الضرورة القصوى في المعامل والمصانع في حدود ما يليق بها من أعمال . ولا يجوز للزوج أن يأخذ منها شيئاً بغير رضاها فهي تتصرف بأموالها كما تشاء عملاً بقوله تعالى :

﴿ ولا تتمنّوا ما فضّل الله به بعضكم على بعض ، للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن ، واسألوا الله من فضله ، إن الله كان بكل شيء عليما ﴾[27] .

هذا ما حصلته المرأة في ظل الدين الاسلامي العادل فأعطاها ما كانت محرومة منه في الجاهلية ، وقد قارن عمر بن الخطاب بين حال المرأة في الجاهلية فقال : والله إنا كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمراً حتى أنزل الله فيهن ما أنزل ، وقسم لهن ما قسم »[28] .

بعد هذا العرض الموجز نستطيع القول أن المرأة استنشقت في ظل الاسلام وحكمه العادل روح الحرية ، مما أعطاها الثقة بنفسها بعد أن لاقت ما لاقت من الاضطهاد والاهانة ، وبعد أن كان يظن أنها خلقت العوبة للرجل . وخادمة لأولاده . فقد جعلها الاسلام مساوية للرجل ، وفرض عليها ما فرض على الرجل من صيام وصلاة وحج وزكاة وغير ذلك من واجبات قال سبحانه وتعالى :

---

(24) النساء الآية 25 .

(25) راجع فصل النظام المالي ـ باب الكفارات .

(26) راجع وصية الامام علي لمالك الأشتر في ولايته على مصر .

(27) سورة النساء الآية 32 .

(28) الاسلام والمرأة للاستاذ محمد سعيد الأفغاني ص 24 .

﴿ ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا ﴾[29] .

وبعد أن كانت المرأة تباع وتشرى عند اليونان القدماء كما كان يسمح لها عندهم بأن تتزوج بأكثر من رجل . والعرب في الجاهلية اعتبروها متاعاً يورث إذا سلمت من الوأد . والفراعنة اضطهدوها واحتقروها ، والصينيون حبسوها خوفاً من تسرب شرها ، وهكذا كان حالها عند شعوب الأرض قاطبة ، جاء الاسلام فانتشلها من هوة سحيقة وجعل لها المرتبة التي تليق بها كانسان كامل وساواها بالرجل . فلا فرق بين مسلم ومسلمة وبين مؤمن ومؤمنة . . . قال تعالى : ﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيما ﴾[30] .

لقد ساوت الآية بينهما في العمل والجزاء ورسمت لكل منهما طريق السعادة والفوز برضوان الله ونعمه . إذا كان هناك من تفاوت بين الجنسين في بعض مواد التشريع مستمداً من الأعباء والتبعات الملقاة على عاتق المرأة ، وقد يكون هذا لمصلحة أدركها المشرع ، وعلى أساسها تم التعاون بين الزوجين .

شهامة المرأة المسلمة

تحصنت المرأة المسلمة بالشهامة والعفة والكرامة ، وقد تمتعت بقسط وافر من الحرية التي مارستها ممارسة صحيحة ، فاختلطت بالجمهور وسمعت خطب الخلفاء وحضرت المحاضرات التي كان يلقيها الخطباء البلغاء أمثال علي بن أبي طالب (ع) وعبد الله بن العباس وغيرهما .

وكان لها مواقف بطولية سجلها التاريخ على صفحاته الناصعة نذكر بعضاً منها . لما سار الحجاج بن يوسف إلى مكة وحاصرها وضرب الكعبة بالمجانيق ، وأرغم أهلها على طلب الأمان ، وانضم اليه بعض اتباع ابن الزبير وغيرهم من أقربائه . بقي عبد الله بن الزبير في عدد قليل من أنصاره . ولما أيقن أنه مقتول لا محالة ، دخل على أمه أسماء بنت أبي بكر وقال لها : يا أماه ! قد خذلني الناس حتى ولدي وأهلي ، ولم يبق معي إلا اليسير ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة . والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا ! فما رأيك ؟

فقالت : « أنت أعلم بنفسك ؛ إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو ، فامض له ، فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن من رقبتك غلمان بني أمية يلعبون بها .

وإن كنت أردت الدنيا فبئس العبد أنت ، أهلكت نفسك ومن قتل معك ، وإن قلت : كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت ، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين .

---

(29) سورة النساء الآية 124

(30) الأحزاب الاية 35 .

كم خلودك في الدنيا ؟ القتل أحسن . فقال : يا أماه ؟ أخاف إن قتلني أهل الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني .

فقالت : يا بني ! إن الشاة لا تتألم بالسلخ بعد ذبحها ، فامض على بصيرتك واستعن بالله ، فقبل رأسها وقال : هذا رأي ، فطفقت أمه تدعو له وتشجعه »(31) .

ومضى عبد الله في طريق الحق يقاوم ظلم الأمويين المنحرفين وعميلهم الحجاج بن يوسف المشهور بظلمه وقسوته وفظاظة طبعه ، وكان نصيبه ان قتل وصلب كما كان يتوقع . وبعد أيام من صلبه مرت أمه أسماء الشجاعة البطلة ، وقالت للحجاج السفاح : أما آن لهذا الفارس أن يترجل ؟ . وسارت كلمتها على لسان كل إنسان حتى هذا الزمان .

خطبة السيدة زينب (ع) في مجلس يزيد في الشام :

وقفت السيدة زينب في مجلس يزيد والآباء والأنفة يملآن نفسها ، وقد أسمعته من التوبيخ والتقريع غير هيابة ولا وجلة ، بل تعدت التنديد والتهديد مستصغرة قدره ، مستنكرة جريمته الشنعاء .

قالت عليها السلام : « ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السُّوأى ان كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤون ﴾(32) .

أظننت يا يزيد أنه حين أخذ علينا بأطراف الأرض ، وأكناف السماء ، فأصبحنا نساق كما يساق الأسارى ، ان بنا على الله هوانا ، وبك عليه كرامة .

وإن هذا لعظيم خطرك ! فشمخت بأنفك ، ونظرت في عطفك جذلاناً فرحاً حين رأيت الدنية مستوسقة لك ، والأمور متسقة عليك ، وقد أمهلت ونفست ، وهو قول الله تبارك وتعالى :

﴿ ولا يحسبن الذين كفروا إنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين ﴾(33) .

أمن العدل يا ابن الطلقاء تخديرك نسائك وامائك ، وسوقك بنات رسول الله ﷺ ؛ وقد هتكت ستورهن وأصلحت أصواتهن ، متكثبات تجري بهن الأباعر ، ويحدو بهن الأعادي من بلد إلى بلد ، لا يراقبن ولا يؤوين يتشوفهن القريب والبعيد ، ليس معهن ولي من رجالهن ! وكيف يستبطأ في بغضتنا من نظر الينا بالشنق والشنآن والأحن والأضغان .

أتقول : « ليت اشياخي ببدر شهدوا » ؟ ! غير متأثم ولا مستعظم وأنت تنكث ثنايا أبي عبد الله بمحضرك !!

ولم لا تكون كذلك ، وقد نكأت القرحة ، واستأصلت الشأفة ، باهراقك ذرية رسول

---

(31) تاريخ ابن الأثير ج 4 ص 147 .

(32) الروم الآية 10 .

(33) آل عمران الآية 178 .

الله ﷺ ونجوم الأرض من آل عبد المطلب ، ولتردن على الله وشيكاً موردهم ، ولتودن لو أنك عميت وبكمت وانك لم تقل : « فاهلوا واستهلوا فرحا » .

ثم قالت : والله ما فريت الا جلدك ، ولا حززت إلا في لحمك وسترد على رسول الله ﷺ برغمك ، وعشرته ولحمته في حظيرة القدس ، يوم يجمع الله شملهم ملمومين من الشعث ، وهو قول الله تبارك وتعالى : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾(34) .

وسيعلم من بوأك ، ومكنك من رقاب المؤمنين ، إذا كان الحكم الله . . . . والخصم محمد ﷺ ، وجوارحك شاهدة عليك .

فبئس للظالمين بدلاً أيكم شر مكاناً وأضعف جنداً .

مع أني والله يا عدو الله وابن عدوه ، استصغر قدرك واستعظم تقريعك ، غير أن العيون عبرى والصدور حرى ، وما يجزي ذلك أو يغني . وقد قتل الحسين عليه السلام ، وحزب الشيطان يقربنا إلى حزب السفهاء ، ليعطوهم أموال الله ، على انتهاك محارم الله .

فهذي الايدي تنطف من دمائنا ، وهذه الأفواه تتحلب من لحومنا ، وتلك الجثث الزواكي يعتامها عسلان الفلوات .

فلئن اتخذتنا مغنماً ، لتجدنا مغرماً حين لا تجد إلا ما قدمت يداك . تستصرخ يا ابن مرجانة !! . . . ويستصرخ بك ، وتتعاوى واتباعك عند الميزان ، وقد وجدت أفضل زاد زودك معاوية قتلك ذرية محمد ﷺ . فوالله ما اتقيت غير الله . . . ولا شكواي إلا الى الله . . . فكد كيدك واسع سعيك ، وناصب جهدك ، فهوالله لا يرخص عنك عار ما أتيت إلينا أبداً . والحمد لله الذي ختم بالسعادة والمغفرة ، لسادات شبان الجنان فأوجب لهم الجنة ، اسأل الله أن يرفع لهم الدرجات ، وأن يوجب لهم المزيد من فضله فإنه ولي قدير »(35) .

هذه الخطبة البليغة التي قالتها امرأة بين يدي خليفة ، كانت البداية في إيقاظ المشاعر في الشام عاصمة الأمويين آنذاك . ولا غرابة فهي السيدة العظيمة زينب بنت علي بن أبي طالب الهاشمية الأبية الثائرة على الظلم ، المتمردة على الطغيان .

حوار الزرقاء بنت عدي مع معاوية

ساهمت المرأة المسلمة المؤمنة في جميع المجالات السياسية والثقافية ، وشقت طريقها بفضل الاسلام وتعاليمه الخيرة ، وأنارت حياتها بنور العلم والايمان . وفي الصراع الدامي بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) ومعاوية في حرب صفين ظهر كثير من النساء المجاهدات اللواتي أبلين بلاء حسناً في نصرة الحق ومساندة أهل بيت النبوة .

نذكر على سبيل المثال الزرقاء بنت عدي . كانت من ربات الفصاحة لا تعرف التملق

---

(34) آل عمران الآية 169 .

(35) راجع بلاغات النساء لابن طيفور .

أو الموازبة ، ناصرت علي بن أبي طالب (ع) في صفين ، ولما تم الأمر لمعاوية بالحيلة والدهاء ، طلبها معاوية إليه بعد أن أوفد إلى عامله بالكوفة . ولما قدمت على معاوية دار بينهما الحوار التالى : مرحباً وأهلاً ، هل تعلمين لماذا بعثت إليك ؟

قالت : سبحان الله انى لي بعلم ما لم أعلم ، وهل يعلم ما في القلوب إلا الله .

قال : بعثت إليك أسألك ؟

« ألست راكبة الجمل الأحمر يوم (صفين) بين الصفين ؛ توقدين الحرب وتحرضين على القتال ، فما حملك على ذلك ؟ » .

قالت : يا أمير المؤمنين ، إنه قد مات الرأس ، وبتر الذنب ، والدهر ذو غير ومن تفكر أبصر والأمر يحدث بعده الأمر .

قال لها : هل تحفظين كلامك يوم صفين ؟ فقالت : ما أحفظه . قال : أحفظه لله أبوك لقد سمعتك تقولين : « أيها الناس إنكم في فتنة غشتكم جلابيب الظلم وجارت بكم عن المحجة فيا لها من فتنة عمياء صماء تسمع لناعقها ، ولا تسلس لقائدها ، إن المصباح لا يضيء في الشمس وان الكواكب لا تنير مع القمر ، وإن البغل لا يسبق الفرس ، وان الزف لا يوازن الحجر ولا يقطع الحديد إلا الحديد .

إلا من استرشدنا أرشدناه ، ومن استخبرنا أخبرناه ، إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها .

فصبراً يا معشر المهاجرين ، والأنصار ، فكأن قد اندمل شعب الشتات والتأمت كلمة العدل ، وغلب الحق باطله ، فلا يعجلن أحد فيقول كيف العدل وأنّى ؟ ليقضي الله أمراً كان مفعولا .

« ألا إن خضاب النساء الحناء ، وخضاب الرجال الدماء والصبر خير عواقب الأمور . أيها الناس الى الحرب قدما غير ناكصين ولا متشاكسين فهذا يوم له ما بعده . ثم قال معاوية :

والله يا زرقاء لقد شركت علياً في كل دم سفكه .

فقالت : أحسن الله بشارتك يا أمير ، وأدام سلامتك مثلك من بشر بخير وسر جليسه .

قال لها : وقد سرك ذلك ؟ قالت : نعم والله لقد سرني قولك فأنى لي بتصديق الفعل .

فقال معاوية : ولوفاؤ كم له بعد موته ، أعجب إلي من حبكم له في حياته ، أذكري حاجتك ، قالت : يا أمير أني قد آليت على نفسي أن لا أسأل أميراً أعنت عليه شيئاً[36] .

(36) راجع : اعلام النساء لعمر رضا كحالة والعقد الفريد لابن عبد ربه وبلاغات النساء لابن طيفور .

الفصل الثالث

أهل الذمة

الذمة في اللغة هي العهد والضمان والأمان ، وأهل الذمة هم اليهود والنصارى الذين يعيشون في بلاد الاسلام ، وقد أطلق عليهم لقب أهل الذمة لأن النبي أعطاهم ذمته وأمانته . وقد دعاهم القرآن « أهل الكتاب » نسبة الى الكتاب المقدس : التوراة والانجيل ، وقد أثنى عليهم وأوصى بهم خيراً . وفي الحديث النبوي أقوال كثيرة بمحاسنة أهل الذمة(1) .

كان النبي (محمد) ﷺ يعرض على النصارى واليهود دينه ، فإن قبلوه دخلوا الاسلام ، وإن رفضوه لم يكرههم على الدخول فيه ، وإنما يسألهم أن يعطوا الجزية وهي ثمن حماية المسلمين لهم ليأمنوا على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم وكف الأذى عنهم .

وكان الخلفاء الراشدون إذا أنفذوا جيشاً للفتح أوصوا قوادهم بأهل الذمة خيراً ولا سيما النصارى ورهبانهم .

وكان مقدار الجزية ونوعها يختلف باختلاف الأحوال ، وعلى مقتضى التراضي بين المسلمين وأهل الكتاب ، ولكل طائفة شروط تختلف باختلاف البلاد ، ولكنها في كل حال تقضي على المسلمين بحمايتهم والدفاع عنهم . فاذا امتنعوا عن أداء الجزية امتنع المسلمون عن حمايتهم ، وإذا عرض للمسلمين ما يمنع حمايتهم جاز لأهل الذمة الامساك عن الدفع .

وفي تاريخ الفتوح عهود كثيرة كتبت لأهل الذمة ، عاهدهم المسلمون فيها بحمايتهم وتسهيل أعمالهم ، في مقابل ما يؤدونه من الجزية ، ككتاب النبي ﷺ الى صاحب ايله (في العقبة) والى أهل أذرخ في أثناء غزوة تبوك . وهذا ما ورد في كتاب النبي ﷺ الى صاحب ايلة : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذه أمنة من الله ومحمد رسول الله ليحيى بن رؤبة وأهل ايلة : سفنهم وسياراتهم في البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه ، وأنه طيب لمن أخذه من الناس ، وانه لا يحل أن يمنعوا ما يردونه ولا طريقاً يردونه من بر أو بحر »(2) .

---

(1) التمدن الاسلامي ج 2 ص 376 .

(2) سيرة ابن هشام ج 3 ص 40 .

واقتدى بالنبي ﷺ قواده أثناء الفتح بالشام ومصر والعراق وفارس ، وكتبوا العهود لأهل الذمة على نحو ما تقدم في مقابل الجزية ، منها عهد أبي عبيدة إلى أهل بعلبك هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب أمان لفلان بن فلان وأهل بعلبك ، رومها وفرسها وعربها على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ودورهم ، وأهل المدينة وخارجها وللروم أن يرعوا سرحهم ما بينهم وبين خمسة عشر ميلاً ، ولا ينزلوا قرية عامرة فإن مضى شهر ربيع وجمادى الأولى ساروا حيث شاؤوا ، ومن أسلم منهم فله ما لنا وعليه ما علينا ، ولتجارهم أن يسافروا الى حيث أرادوا من البلاد التي صالحنا عليها ، وعلى من أقام منهم الجزية والخراج ، شهد الله وكفى بالله شهيدا »(3) .

حقوق أهل الذمة :

كان أهل الذمة أحراراً في إقامة شعائرهم الدينية ، وكانوا يرجعون في أحوالهم الشخصية الى رؤسائهم الدينيين ، على أن الولاة المسلمين استوجبوا من رجال الكنائس القريبة من المساجد أن يمسكوا عن قرع النواقيس في أوقات صلاة المسلمين .

وقد جاءت بعض الظروف المناسبة للنصارى فبنوا كنائس جديدة ، وأصلحوا كنائس قديمة وأظهروا الصلبان في السير والمواكب ، وقال آدم متز :

« لم تكن الحكومة الإسلامية تتدخل في الشعائر الدينية لأهل الذمة ، بل كان يبلغ من بعض الخلفاء أن يحضر مواكبهم وأعيادهم ويأمر بصيانتهم ، وان الحكومة في حالات انحباس المطر ، كانت تأمر بتنظيم مواكب يسير فيها النصارى وعلى رأسهم الأسقف ، واليهود وعلى رأسهم النافخون بالأبواق »(4) .

وقد سمح لأهل الذمة في ظل الدولة الاسلامية مزاولة المهن والحرف والأعمال التي يشاؤون ، كما كانت لهم حرية السكن والانتقال أنى شاؤوا ورغبوا .

كما ضمنت الدولة الاسلامية الكيان الخاص لكل ديانة ، فكان الذمي إذا مات ، يترك أمر تركته الى ملته فلا يأخذ بيت مال المسلمين شيئاً منها ، بعكس المسلم فإنه حين يموت يتولى بيت المال أمر تركته .

وأما حياة الذمي فقد اختلف الفقهاء ، في تقدير الدية فهي عند أبي حنيفة وابن حنبل كدية المسلم ، وعند مالك فدية اليهودي ، أو النصراني نصف دية المسلم وترى الحنفية أن المسلم إذا قتل ذمياً يقتل به .

وقد أباح الاسلام للمسلم أن يتزوج كتابية ، يهودية أم نصرانية ، ولو أقامت على دينها .

(3) فتوح البلدان للبلاذري ص 130 .

(4) الحضارة الاسلامية لآدم متز ح 1 ص 70 .

الذميون والعمل :

لم يكن في التشريع الاسلامي ما يغلق دون أهل الذمة أي باب من أبواب الأعمال ، فكان قدمهم راسخاً في الصنائع التي تدر عليهم الأرباح الوافرة ، فكان منهم الصيارفة والتجار والأطباء(5) فاليهود اهتموا بالصيرفة والنصارى اشتهروا بالكتابة والطب .

وقال آدم متز « من الأمور التي تعجب لها كثرة عدد العمال والمتصوفين غير المسلمين في الدولة الاسلامية ، فكان النصارى هم الذين يحكمون في بلاد الاسلام »(6) . وقد اهتم الامويون بشأن أهل الذمة لحاجتهم اليهم . ونظراً لانشغال بني أمية الأموال ، وأهل الذمة أقدر على مساعدتهم في جمعها من سواهم ، لاقتدارهم في الحساب والكتابة واعمال الخراج ، استخدموهم في هذا السبيل رغم إرادتهم ، ولم يكن ذلك يهمهم من وجه ديني لنشر الاسلام أو حصر النصرانية .

وكان النصارى في زمن بني أمية يدخلون المساجد ويمرون فيها فلا يعترضهم أحد والأخطل يدخل على عبد الملك بن مروان بغير إذن ، وهو سكران ، والصليب في صدره ، ولا يعترضه أحد ، ولا يستنكفون من ذلك لأنهم كانوا يستعينون به في هجو الأنصار(7) .

ولما قويت شوكة النصارى واتسعت سلطتهم في الحكم ، قاومهم المسلمون . ففي عام 135 هـ أمر الخليفة المتوكل الا يستعان بأهل الذمة في الدواوين واعمال السلطان التي تجري أحكامهم فيها على المسلمين . وفي سنة 296 هـ علا أمر النصارى وغلبوا على الكتّاب ، فأمر المقتدر بما أمر به المتوكل . من رفضهم وأطراحهم عن الخدمة . ومن طريق الخير ان المتوكل بعد ذلك عاد فاستعان بدليل بن يعقوب النصراني كمسؤول عن نفقة قصره المسمى بالجعفري(8) .

الأعياد والمواسم :

كان للنفوذ الفارسي تأثير واضح في الحياة الاجتماعية والفكرية للدولة الاسلامية ، وقد شمل هذا التأثير كل مظاهر الحياة عامة ، حتى طرق الأكل ونوعه ، ومراسم الزواج ،

---

(5) كتاب الخراج لأبي يوسف القاضي ص 69 وانظر المقدسي ص 183 وفي عام 210 هـ قام الطبيب جبريل وزميله ميخائيل باختيار النسطوري فقال أبو نواس :

سألت أخي أبا عيسى ... وجبريل ، له عقل
فقلت : الراح تعجبني ... فقال : كثيرها قتل
فقلت له : فقدر لي ... فقال ، وقوله فصل
رأيت طبائع الانسا ... ن أربعة ، هي الأصل
فأربعة لأربعة ... لكل طبيعة رطل

الديوان ص 356 .

(6) الحضارة الاسلامية لآدم ميتز ج 1 ص 68 -69 .

(7) تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان ج 2 ص 389 .

(8) تاريخ الطبري ج 3 ص 438 .

والاحتفال بالأعياد . ففي بغداد مثلاً نلاحظ أن الميل للأزياء الفارسية أخذ ينمو ويضطرد ، وكذلك الاحتفال بالأعياد الفارسية القديمة وخاصة بالنيروز والمهرجان والرام . أما الاحتفال الكبير فقد كان بالعيدين الأضحى والفطر . « وكانا الى جانب النيروز الفارسي أكبر الأعياد عند أهل بغداد(9) وأهل البصرة يعلفون الأضاحي سنة « ثم تباع لعيد النحر ، الواحدة منها بعشرة دنانير »(10) .

كان الخلفاء يحتفلون بالعيدين احتفالاً دينياً ، فيؤمون الناس في الصلاة ، ويلقون فيهم الخطب عن فضائل العيد وما يجب على المسلمين إتباعه للمحافظة على شعائر الاسلام ، ولا غرو فقد كانت مظاهر الاسلام تتجلى في الاحتفال بهذين العيدين في الأمصار الاسلامية وعلى الأخص في بغداد وبيت المقدس ودمشق . أما المسلمون الذين كانوا يفدون الى مكة من كافة أنحاء العالم لأداء فريضة الحج ، ففي اليوم السابع من شهر ذي الحجة بعد صلاة الظهر كان الخطيب يخطب في المسجد الحرام خطبة بليغة ، يشرح لهم فيها مناسك الحج ثم يأخذون في أداء شعائره ، ويرمون الجمار بمنى ، ويضحون أضحيات العيد .

وذبح ضحية في عرفه هي من شعائر الحج المباركة تذكيراً بالنبي ابراهيم عليه السلام ، الذي أراد أن يضحي بابنه عندما رأى في المنام أنه يذبحه . وفعلا انها لذكرى كريمة تقشعر لها الأبدان . إنها الصدق في الايمان ما بعده صدق . قال تعالى في كتابه العزيز .

﴿فلما بلغ معه السعي قال يا بني أني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال : يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين ، فلما اسلما وتله للجبين ، ونـاديناه ان يا ابراهيم ، قد صدّقت الرؤيا انا كذلك نجزي المحسنين ، إن هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم ﴾(11) .

وبقيت هذه الذكرى العظيمة يضحون المسلمين بذبح في عرفة يوم عيد الأضحى وقد كان الاحتفال بعيدي الأضحى والفطر يبلغ منتهى الروعة والابهة في البلاد التي يكون فيها الشعور الاسلامي قوياً .

« وكانت الأنوار تسطع في أرجاء المدن الاسلامية في ليالي العيد وتتجاوب أصوات المسلمين بالتهليل والتكبير ، وتزدحم الانهار بالزوارق المزينة بأبهى الزينات ، وتسطع من جوانبها أنوار القناديل ، وتتلألأ الأنوار الساطعة من قصور الخلافة ، وقد لبست الجماهير الطيالسة السود تشبهاً بالخلفاء العباسيين الذين اتخذوا السواد شعاراً لهم . وكان بعضهم يتخذ بدل العمائم قلانس طويلة مصنوعة من القصب والورق مجللة بالسواد كذلك ، ويلبسون بدل الدروع دراعات كتب عليها « فسيكفيهم الله هو السميع العليم »(12) .

---

(9) تاريخ الطبري ج 3 ص 170 .

(10) الأغاني ج 3 ص 82 .

(11) سورة الصافات الآيات 102 -103- 104- 105- 106- 107 .

(12) حضارة الاسلام في دار السلام لنخلة المدور ص 22 وما بعدها .

وعيد الفطر من الأعياد التي اهتم بها المسلمون ، وما زالوا ، لأن شهر رمضان شهر الصيام والبركة ، يتجلى فيه منتهى الكرم والسخاء للميسورين عند المسلمين . حيث تقام المآدب وولائم الافطار للصائمين . ومما يحكى : عن الوزير ابن عباد « إن داره كانت لا تخلو في كل ليلة من ليالي رمضان من ألف نفس تفطر فيها ، وان أصدقاءه وأقرباءه في هذا الشهر كانت تبلغ مبلغ ما يطلق منها في جميع شهور السنة[13] .

والاحتفال بعيدي الفطر والأضحى كان يبلغ منتهى الروعة والأبهة في البلاد التي يكون فيها الشعور الاسلامي قوياً . كمدينة طرطوس حيث أصبح عيدا الفطر والأضحى فيها من محاسن الاسلام[14] .

ثم عيد المولد النبوي الشريف كان يحتفل به أهل الصلاح والورع ، يحكى أن أول من احتفل به احتفالاً عظيماً ، الأمير أبو سعيد مظفر الدين الأربلي المتوفى عام 630 هـ ؛ وفي ذلك العيد كانت العادة جارية بقراءة السيرة النبوية مع ايثار الكلام في قصة المعراج ، فكان ذلك كوناً كبيراً على تكوين السيرة النبوية[15] ويروي ابن خلكان « انه كان يفد الى هذا العيد الذي يقيمه الأمير طوائف الناس من بغداد والموصل والجزيرة وسنجار ، بل من فارس ؛ منهم العلماء المتصوفون والوعاظ ، والقراء ، والشعراء . وكان الأمير يقيم في الشارع الأعظم مناضد عظيمة من الخشب ، ذات طبقات كثيرة ، بعضها فوق بعض ، تبلغ الأربع والخمس ، ويزينها ويجلس عليها المغنون والموسيقيون ولاعبو الخيال حتى أعلاها ؛ ولم يكن للناس شغل إلا التمضي أمام تلك المناضد والتمتع بما يقدم لهم ؛ وكان الأمير في ليلة المولد نفسها يركب في الشارع وبين يديه الشموع العظيمة ، كل منها مربوط في بغل ؛ وكان العيد ينتهي بموكب ووليمة »[16] .

الاحتفال بالنوروز والمهرجان :

النوروز هو من أول أيام السنة عند الفرس وهو من المواسم القديمة ، اتخذوه لاحياء العام الجديد ، ويقع عند الاعتدال الربيعي أي عند ابتداء فصل الربيع . وقد اعتمده ملوك خراسان سنة جديدة فاتخذوا هذا اليوم موسماً يلبس فيه جنودهم ملابس الربيع والصيف ، يحتفلون بعيد النيروز . وأول من اتخذ هذا اليوم على ما ذكره البيروني هوجم جمشيد ، وهو كما يقول براون نقلاً عن المصادر العربية سليمان بن داود[17] .

وقد أبطل المسلمون الاحتفال بهذا العيد في بلاد الفرس ، غير أنه عاد في العصر العباسي الأول . وقد أضرَّ نظام النيروز القديم بالمزارعين ضرراً بليغاً ، لأن التقويم الجديد قدَّم يوم النوروز ، فكان يجيء والزرع أخضر في الوقت الذي يجب أن تدفع فيه الضرائب .

---

(13) يتيمة الدهر للتعالبي ج 3 ص 36 .

(14) تاريخ الاسلام لحسن ابراهيم حسن ج 2 ص 435 .

(15) الحضارة الاسلامية لآدم متز ج 2 ص 293 .

(16) ابن خلكان ج 1 ص 6 .

(17) الأثار الباقية للبيروني ص 215 .

لذلك اجتمع الملاكون في عهد هشام بن عبد الملك الأموي (105 هـ ـ 125 هـ) وشكوا الى عامله ما يجدونه من الصعاب وسألوه أن يؤخر النوروز شهراً ، فأبى بعد أن كتب الى الخليفة .

كان الفرس في عيد النوروز يتهادون الهدايا المختلفة ومنها السكر والملابس ، يقول البيروني : « إن قصب السكر إنما ظهر في مملكة جم يوم النوروز ، ولم يكن يعرف قبل ذلك الوقت ، وهو انه رأى قصبة كثيرة الماء ، وبعد أن مجّ شيئاً من عصارتها ، وذاقها ، وجد فيها حلاوة لذيذة ، فأمر باستخراج مائها وعمل منها السكر وتهادوه في اليوم الخامس تبركاً به . . . وجرى الرسم لملوك خراسان فيه ، ولبسوا ثيابهم الربيعية والصيفية . كما اعتادوا الاغتسال بالماء ، ورشوا بعضهم بعضاً به في ذلك اليوم تبركاً ودفعاً للأمراض »[18] .

ولا غرابة إذا قلد الخلفاء العباسيون الفرس في الاحتفال بيوم النوروز فقد قلدوهم أيضاً في نظم الحكم وفي طرق الطعام وصناعة الأزياء، واحتفلوا بأعيادهم التي أصبحت من الأعياد الرسمية عندهم ونخص بالذكر العصر العباسي الأول .

الألعاب وأنواع التسلية :

شغل العرب أوقات فراغهم ببعض ضروب التسلية كالصيد وسباق الخيل . كما كان بعض خلفاء بني أمية كلفين بالصيد لفوائد كثيرة ، اختصرها الفخري فقال : كان الصيد يرمي الى تمرين العساكر على الركض والكر والعطف وتعويدهم الفروسية . وادمانهم بالرمي بالنشاب ، والضرب بالسيف والدبوس ، واعتياد القتل والسفك ، وتقليل المبالاة بإراقة الدماء وغضب النفوس ، ومنها أن حركة الصيد حركة رياضية تعين على الهضم وتحفظ المزاج . وكان يزيد بن معاوية من أشد الأمويين كلفا بالصيد . فكان يلبس كلاب الصيد الأساور من الذهب والجلاجل المنسوجة منه ، ويخص لكل كلب عبداً يقوم على خدمته »[19] .

وكان سباق الخيل من أجمل أنواع التسلية عند الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة وعامة الشعب على اختلاف طبقاته . ويقال ان هشام بن عبد الملك كان أول من أقام حلبات السباق وقد اشترك في السباق في عهده نحو أربعة آلاف من خيله وخيول الأمراء ، ولم يسبق لهذا السباق مثيل ، حتى أن بعض الأميرات كن يتدربن على ركوب الخيل ويشتركن في السباق[20] .

وبلغ من شغف الناس بسباق الخيل واهتمامهم به ، ان كان السابق يستولي على الحصان المسبوق في بعض الأحيان ، وتنافس الخلفاء والوزراء في تربية خيل السباق[21] .

ومن أنواع ألعاب التسلية عند العرب :

---

(18) الآثار الباقية للبيروني ص 218-219 .

(19) أنظر تاريخ الاسلام السياسي لحسن ابراهيم حسن ج 1 ص 549 .

(20) مروج الذهب للمسعودي ج 3 ص 188 -189 .

(21) الحضارة الاسلامية لآدم متز ج 2 ص 215 .

الكرة ، وكانوا يتدافعونها بالصواجة والكرة والمقلاة وهما عودان يلعب بهما الصبيان ، فيرمي الصبي بالقلة في الهواء ، ثم يضربها بمقلاة في يده ، وهي خشبة طولها ذراع ، فتستمر القلة في حركتها وإذا وقعت كان طرفاها مجافين للأرض ، فيضرب أحد طرفيها فتستدير وترتفع ، ثم يعترضها بالمقلاة فيضربها في الهواء فتستمر ماضية(22) .

ومن أنواع التسلية التي عرفها العرب في العصر العباسي الأول لعبة التنس ويسمونها لعبة (القراح) وكان النساء يمارسن الرمي بالسهام . ولم يكن الرمي في بادىء الأمر مقصوراً على الطبقات المحرّفة فحسب ، بل كثيراً ما كانت فتيات الطبقة الراقية يشتركن فيه أيضاً .

الملابس

سار الخلفاء الراشدون على سنة النبي ﷺ في ملبسهم ، فلم يتأنفوا ، بل كان الزهد في عرض الدنيا من أبرز صفاتهم . وقد قدم على أبي بكر ملوك من أهل اليمن عليهم الحلل الموشاة بالذهب والمحلاة بالتيجان . فلما رأوا ما على الخليفة من الزهد والتواضع ذهبوا مذهبه ونزعوا ما كان عليهم من أفخر الثياب ، حتى إن ذا الكلاع ملك حمير رؤ ي يوماً في سوق المدينة يمشي وعلى كتفه جلد شاة ، ففزعت عشيرته وقالوا له :

« فضحتنا بين المهاجرين والأنصار ، قال : فأردتم أن أكون ملكاً جباراً في الجاهلية جباراً في الاسلام ؟ لا والله لا تكون طاعة الرب إلا بالتواضع والزهد في هذه الدنيا »(23) .

وكان سلمان الفارسي عامل عمر بن الخطاب على المدائن يلبس الصوف ، ويركب الحمار ببرذعته ، ويأكل خبز الشعير . وكان أبو عبيدة بن الجراح يظهر للناس وعليه الصوف الجافي ، فلاموه على ذلك وقالوا له : إنك بالشام وحولنا الأعداء ، فغير من زيك وأصلح من شارتك فقال : ما كنت بالذي أترك ما كنت عليه في عصر الرسول ﷺ »(24) .

ولباس البدو يختلف عن لباس الحضر ، أكثره يتكون من قباء طويل مشقوق من الوسط ، ومتدل إلى العقب ، ومربوط من الوسط بحزام من الجلد ، ولا يزال البدو رجالاً ونساء يستعملون هذا اللباس حتى اليوم .

وقد أصبح القباء ، لباس البدو ، لباساً رسمياً لرجال الدولة حوالي العام 300 هـ حتى كان لا يدخل المقصورة في يوم الجمعة إلا من كان من الخواص المتميزين بالأقبية السود ، وقد حضر بعضهم لابساً دراعة فُرُدّ ، حتى مضى ولبس القباء . وكان هذا الرسم جارياً ومأخوذاً به في سائر مقاصير الجوامع ، ثم بطل فيما بعد(25) .

وفوق القباء كانوا يلبسون العباءة المصنوعة من وبر الجمال التي يستعملها اليوم الأغنياء من رجالاتنا في المناسبات الرسمية .

---

(22) المخصص لابن سيدة ج 3 ص 17 ، 19 .
(23) مروج الذهب للمسعودي ج 1 ص 413 .
(24) المصدر نفسه ج 1 ص 418 .
(25) راجع الحضارة الاسلامية لآدم متز ج 2 ص 223 .

أما لباس الرأس فهو العمامة ، من اللون الأبيض ، كان يختلف حجمها تبعاً للمركز العلمي وللسن ، فالشاب يصغر حجم عمامته عن الشيخ . وكانوا يلقون الطيلسان فوق العمامة ، وهو عبارة عن منديل كبير متدلٍ الى الكتفين ليقي الرقبة حرارة الشمس(26) .

وفي عهد أبي جعفر المنصور صار لباس القلسوة والدراريع لباساً رسمياً أمر به الخليفة في عام 153 هـ ، يكتب على الدراعة بين كتفي الرجل : فسيكفيكهم الله ؛ كما أمرهم بتعليق السيوف في أوساطهم . ومن طريف ما يروى في هذا الموضوع ، ان دخل أبو دلامة على المنصور ، وعليه قلنسوة طويلة وبقية الملابس التي أمر بها الخليفة ، فقال له :

كيف أصبحت يا أبا دلامة ؟ قال : بشر . قال المنصور : كيف ؟ ويلك ! قال : ما ظنك برجل ، وجهه في نصفه ، وسيفه في أسته ، وقد نبذ كتاب الله وراء ظهره ! فأمر المنصور بتغيير الزي ، عندها قال أبو دلامة :

وكنا نرجي من إمام زيادةً	فزاد الامام المصطفى في القلانس
تراها على هام الرجال كأنها	دنان يهود جللت بالبرانس

وهذه القلانس كانت تدعم بعيدان من داخلها(27) .

أما الرشيد فكان لا يأنس للقلانس وما رغب في التجديد الذي أحدثه المنصور . يروي الجاحظ : أن العماني الراجز دخل على الرشيد لينشده شعراً وعليه قلنسوة طويلة وخف ساذج ، فقال له : إياك أن تنشدني ، إلا وعليك عمامة عظيمة الكور »(28) .

ولما جاء المعتصم 833 م أعاد لبس القلانس تشبهاً بملوك الأعاجم ، فلبسها الناس اقتداءً بفعله وسميت المعتصميات . ولكن المستعين 862 م أمر بتصغير القلانس بعد أن كانت طوالاً كأقباع القضاة(29) واستحدث لبس الأكمام الواسعة التي لم تكن تعهد من قبل ، حيث جعلها ثلاثة أشبار أو نحو ذلك(30) . هذه الأكمام كانت تقوم مقام الجيوب التي يحفظ فيها الانسان كل ما يحتاج الى حفظه ، مثل الدنانير وغيرها . فالمهندس يضع فيها ميله ، والصيرفي يجعل فيها رقاعه ، والخياط يجعل فيها الجلم ، والقاضي يضع فيها الكراسة التي يقرأ فيها الخطبة يوم الجمعة ، والكاتب يضع فيها الرقعة لعرضها(31) وكان بعض العمال يحفظ المستندات في خُفِّه . يحكى عن الحسن بن مخلد ، وزير المعتمد 870 م ، أنه لما كان كاتباً بين يدي الموفق بن المتوكل 847 م سأله يوماً : كم عنده في الخزائن من ثوب أعجبه ؛ فأخرج من

---

(26) تاريخ الاسلام لحسن ابراهيم حسن ج 1 ص 545 .
(27) راجع الأغاني ج 9 ص 121 .
(28) البيان والتبيين للجاحظ ج 1 ص 42 .
(29) مروج الذهب للمسعودي ج 8 ص 402 .
(30) المصدر نفسه .
(31) راجع الارشاد لياقوت ج 1 ص 254 ومروج الذهب للمسعودي ج 6 ص 345 .

خفه قائمة طويلة كتب عليها جمل ما في الخزائن من الأمتعة والثياب ، وأجاب الخليفة بما أراد »[32] .

أما الثياب الملونة فكانت من شأن النساء والاماء ، لذلك تجنبها الرجال الأدباء وأصحاب المكانة . واللون الأبيض كان من لبس الرجال والنساء المهجورات ، غير ذات بعل . واللون الأزرق عرف للأحزان كان في المشرق لبس الحداد ، أما في الأندلس فكان البياض يلبس لذلك .

وكان لكل طبقة لباسها فالكتاب يلبسون الدراريع ، وهي ثياب مشقوقة الصدر ، والعلماء يلبسون الطيلسان ، والقواد يلبسون الأقبية الفارسية القصيرة . والتجار انقسموا إلى طبقتين : الأغنياء منهم يلبسون قميص ورداء فوق السراويلات ، وهذا كان لباس الخليفة القاهر 932 م يوم أحضر للبيعة في عام 330 هـ ـ 932 م[33] .

وأما الممطر الذي كان يعمل من القماش المشمع للوقاية من المطر ، بحيث لا يمكن أن ينفذ إليه ، فقد جاء من الصين . وقد سأل الشاعر العباسي البحتري المتوفى 284 هـ ـ 897 م ، ممدوحه أن يهب له ممطراً يتقي به المطر[34] لذلك نرى أن أهل اليمن لم يرد ذكر المماطر في كلامهم لقلة المطر في بلادهم . ولبس الجوارب كان معروفاً عند الرجال والنساء على حد سواء[35] .

وكان لباس الخفاف الحمر معيباً عند العرب الكمال ، لأنها كانت من لباس المتطرفين والمتخنثين والجهال .

وقد جرت العادة زمناً طويلاً حتى العصور العباسية بأن يلوى الجواري والغلمان شعر صداغهم على شكل حرف (ن) أو على صورة العقرب .

قال أبو نواس متغنياً :

أصداغهن معقوبات ... والشوارب من عبير[36]

وجاء بعده ابن المعتز فذكر النون والعقرب فقال :

لوى صدغه كالنون من تحت طُرَّة ... مُمَسَّكة تزهى بعاج جبين

وقال أيضاً :

ريم يتيه بحسن صورته ... عبث الفتور بلحظ مقلته
وكأن عقرب صدغه وقفت ... لما دنت من نار وجنته[37]

---

(32) الفخرى في الآداب السلطانية لابن الطقطقي ص 298 .

(33) الحضارة الاسلامية لادم متز ج 2 ص 232 ..

(34) ديوان البحتري ج 1 ص 85 .

(35) الأغاني ج 6 ص 85.

(36) ديوان أبي نواس ص 82 .

(37) ديوان ابن المعتز ج 2 ص 66 و70 .

أما عن الشعر المصبغ فحدث ولا حرج .

كـان القوط الشـرقيون يصبغـون شعـورهم بـاللون الأخضـر ؛ فلما رآهم أهـل أوروبـا الجنـوبية ذعـروا منهم . وأهل تـراقيه يصبغـون شعورهم الشقـراء باللون الأزرق . وفي بـلاد الشـرق كانت عـادة خضاب الشعـر منتشرة ، سـواء في جزيـرة العرب أو في ايـران[38] . ومما يلاحظ أن الذين كتبوا ترجمة الرجـال كانـوا حريصـين على أن يـذكروا في تـرجماتهم إن كـانوا يخضبون شعورهم أم لا .

ومما يبدو أن عادة الخضاب هذه كانت نادرة بين الأغنيـاء . ورد في الفهرست في تـرجمة قصيرة كتبها ابن النديم لابي الحسن المنجم ، وكان أديباً وممن يجالس الخليفة ، ذكر مؤكداً أنه كان يخضب إلى أن مات عام 325 هـ وله من العمر ست وسبعون سنة[39] .

مجالس الغناء والطرب

كان لتردد أشراف العرب على بلاط كسرى وقيصر أثر بعيد في حياتهم الاجتماعيـة فقد نعمـوا بسماع المـوسيقى والغناء ونمى هـذه النزعـة عندهم طبيعـة بلادهم حيث كـان لها أثـر واضح في تقدم فن الغناء. فالأسفار البعيدة والمتعبة تضني المسافر أثناء سيره في الليل والنهار ، ووعورة الطرق ومشتقـاتها تقلق راحتـه فكان لا بـد له من الحـداء وهو راكب إبله . من هنـا جاءت أوزان الشعر الجاهلي المنسجمة مع حياة الجاهليـين آنذاك ، والمتنـاغمة مـع أحاسيسهم ومشاعرهم .

ولما ظهر الاسلام لم يغفل العرب أثر الصوت الجميل ، فكانوا يختارون أجمل الأصـوات في آذان الصـلاة . وقد أثـر عن الـرسـول الكـريم ﷺ أنـه طلب إلى بـلال الحبشي أن يؤذن للصلاة لأنه كان ندي الصوت . وكذلك الحال في تلاوة القرآن الكريم واستمر الحال على هذا المنوال في عهد الخلفاء الراشدين الذين انصرفوا الى الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الاسلام .

ولما تحولت الخلافة إلى الأمويين شاع الغزل وانتشر شعراؤه في الحجاز أمثال عمر بن أبي ربيعة ، وكثير عزة ، وجميل بثينة ، وقيس المجنون بحب ليلى . وقد أعجب الناس بأشعـارهم ومالوا اليها وتغنوا بها .

والأمويون كالعباسيين من بعدهم ، أخـذوا نظـام مجـالسهم عن الفرس . فـأردشير بن بابك هو أول من رتب الندماء في مجالس الغناء ، فجعلهم ثلاث طبقات .

أ ـ **الطبقة الأولى** : وتضم أبناء الملوك والأمراء ومجلسها يبعد عشرة أذرع عن الستارة .

ب ـ **الطبقة الثانية** : وهي بطانة الملك وندماؤه ومحدثوه من أهل الشرف والعلم وكـان مجلسها على بعد عشرة أذرع من الطبقة الأولى .

ج ـ **الطبقة الثالثة** : وهـم المضحكون وأهل الهزل والبطالـة ومجلسهم على بعـد عشرة أذرع من

---

(38) الحضارة الاسلامية لآدم متز ج 2 ص 324 .

(39) الفهرست لابن النديم ص 144 .

الطبقة الثانية . غير انه لم يكن في هذه الطبقة خسيس الأصل ولا وضيعه ، ولا ناقص الجوارح ولا فاحش الطول أو القصر ، ولا مصاب بآفة ، ولا مرمى بعيب ، ولا مجهول الأبوين ، ولا ابن صناعة دنيئة كإبن حائك أو حجام .

وكان الذي يماثل الطبقة الأولى من أبناء الملوك والأمراء أهل الحذاقة بالموسيقى والأغاني ، فكانوا يجلسون بإزاء هؤلاء على خط واحد .

ويقابل الطبقة الثانية من ندماء الملك وبطانته ، الطبقة الثانية من أصحاب الموسيقى والغناء .

ويقابل الطبقة الثالثة من أصحاب الفكاهات والمضحكين ، وأصحاب المعارف والصنابير . وكان لا يرمز الحاذق من الزامرين إلا على الحاذق من المغنين ، وإن أمره بذلك ، راجعه واحتج عليه(40) .

أما آلات الموسيقى فعلى الأغلب كانت أربعاً : الجنك ، والعود ، والقانون ، والمزمار(41) . وكان الجواري يغنين من وراء الستار ، إلا إذا أراد الملك أو الأمير المبالغة في إكرامهن يغنين بين يدي الستار .

وهذا الحجاب أو الستار كان ضرورياً وذلك حتى لا يطلع الندماء والمغنيات على ما يفعله الخليفة إذا طرب . فقد تأخذه النشوة فيطرب لبه ويقوم بحركات لا يطلع عليها إلا خواص جواريه . وهكذا كان يفعل معاوية ، وعبد الملك ، ويزيد ، والوليد وسليمان وهشام ومروان بن محمد .

وإذا ارتفع من خلف الستارة صوت أو حركة غريبة صاح صاحب الستارة : « حسبك يا جارية ! كفى ! انتهى ! اقصري ! » موهماً بذلك أن الفاعل لتلك الحركات هو بعض الجواري .

والبعض الآخر من خلفاء بني أمية لا يحفلون بمثل هذه الحركات المريبة ، فيظهرون للندماء والمغنين ، ومنهم الوليد بن يزيد ويزيد بن عبد الملك ، كانا يبالغان في المجون بحضرة الندماء عندما تثيرهما نشوة الطرب . روى الجاحظ :

« كان يزيد بن عبد الملك يبالغ في المجون بحضرة الندماء ، كما سوى بين الطبقة العليا والسفلى ، وأذن للندماء في الكلام والضحك والهزل في مجلسه ، فلم يتورعوا في الرد عليه وحذا حذوه في ذلك الوليد بن يزيد »(42) . فانظر معي رحمك الله الى هذا الخليفة الذي أوصل نفسه الى مثل هذا الدرك السافل ووضع نفسه في هذا الموضع الذي حط من كرامة الخلافة ، فهو مع المغنين والخلعاء وكما قال الشاعر :

---

(40) راجع المسعودي في مروج الذهب ج 1 ص 151 . وما بعدها والجاحظ في أخلاق الملوك ص 25-26 .

(41) ديوان ابن المعتز ج 2 ص 118 . ومن أسماء المزمار : الناي واليراع انظر المخصص لابن سيدة ج 3 ص 11

(42) التاج في أخلاق الملوك للجاحظ ص 31-32 .

أما عن التأثر بالغناء فقد كان قوياً إلى حد الذهول والغشيان ؛ فمنه ما يبكي ، ومنه ما يذهب بالعقل حتى يغشى على صاحبه . ويذكر أنه لم يكن في الاسلام أحسن صوتاً من « مخارق » غنى يوماً في متنزه ، وقد سنحت ظباء ، فجاءت إعجاباً بغنائه ، وتوسط دجلة يوماً ، وغنى ، فلم يبق أحد إلا بكى ؛ وكان غناؤه أحياناً يسر من جماله كل قلب[43] .

وشارك في الغناء بعض الأمراء . فالأمير ابراهيم بن المهدي غنى مرة مجلس المأمون فأحسن ، وكان في المجلس كاتب من كتاب طاهر بن الحسين يكنى أبا زيد ، فلما سمع الكاتب غناء الأمير طار من الفرح وطرب كثيراً فأخذ بطرف ثوب الأمير ابراهيم وقبله ، فنظر إليه المأمون مستنكراً . فقال له أبو زيد ! ما تنظر ! أقبله والله ! ولو قتلت ؛ فتبسم المأمون[44] .

« أما الأرواح المتميزة بشدة الالتهاب ، فكان أحدهم يمزق ثيابه ، ويدق الحائط برأسه ، ومنهم من كان يتمرغ في التراب ، ويهيج ويزيد ويعض بنانه ، ويركل برجله ، ويلطم وجهه »[45] .

ولا غرابة فقد تشبه هذه المطربة التي دفعت بهذا المسكين الى ضرب رأسه بالحائط أو تمزيق ثيابه ، أم كلثوم ، كوكب الشرق وسيدة الغناء العربي . وما أحب ذكره في هذا المجال أنني حضرتها في حفلة عام 1970 في مصر فغنت وأطربت كعادتها فرأيت البعض من المتفرجين ، وقد بلغ الطرب منه مبلغه فألهب لبه وأذهب عقله ، يرمي بعصاه التي يتوكأ عليها الى المسرح ، الآخر تحمس أكثر منه فخلع (جاكيته) ورمى بها أيضاً الى المسرح . ففي كل عصر أم كلثوم وفي كل عصر معجبون متهوسون ! ومهما كلف الناس بالغناء والموسيقى لا أظن أنهم قد بلغوا ما بلغوه في عصر بني أمية . ورد في الأغاني وفي تاريخ الطبري :

أنهم كانوا يسرفون في الغناء والموسيقى كل الاسراف ، وينفقون الأموال الطائلة على المغنين المشهورين الذين كان الخليفة يدعوهم من أقاصي البلاد . روى الطبري قال :

« حج يزيد بن عبد الملك في خلافة سليمان بن عبد الملك فاشترى « حبابة » المغنية المشهورة ، وكان اسمها العالية ، بأربعة آلاف دينار ، فقال سليمان هممت أن أحجر على يزيد ، فرد يزيد حبابة واشتراها رجل من أهل مصر فلما ولي يزيد الخلافة قالت له زوجته سعدة : يا أمير المؤمنين ! هل بقي شيء في الدنيا تتمناه بعد ؟ قال : نعم حبابة . فأرسلت سعدة رجلاً فاشتراها بأربعة آلاف دينار ، فأراحتها حتى ذهب عنها كلال السفر ؛ ثم أتت بها يزيد ، فأجلستها من وراء الستر وقالت : يا أمير المؤمنين ! أبقي شيء من الدنيا تتمناه ؟ قال : ألم تسأليني عن هذا مرة فأعلمتك ؟ فرفعت الستر ، وقالت : هذه هي حبابة .

(43) محاضرات الأدباء ج 1 ص 443 .

(44) كان ابراهيم هذا ممن رشح للخلافة ، وخرج على المأمون ، فقبض عليه .

(45) الحضارة الاسلامية لآدم متز ج 2 ص 145 .

فحظيت سعدة عند يزيد وأكرمها وحباها . وقد أثر تدفق طبقات المغنين المحترفين على دمشق في أخلاق الناس ، وفي حياة المجتمع حتى دب الترف في الدولة »[46] . ثم تابع معدداً أشهر المغنين في ذلك العصر فكان أشهرهم :

« طويس » مولى بني مخزوم ، كان ينقر بالدف وعالماً بأنساب أهل المدينة وهو أول من غنى بالمدينة غناءً يدخل في الايقاع وبنى ألحان الغناء على موقعها وميزانها . وأهل المدينة يؤثرون غناء طويس على كل غناء ، وقد سمعهم مرة يشيدون بغنائه ، فاستخرج دفاً ثم نقر به وغناهم بشعر عمارة بن الوليد المخزومي في خولة بنت ثابت وعارضها بقصيدة فيها :

يا خليلي نابني سهدي لم تنم عيني ولم تكد

وهو :

تناهى فيكم وجدي وصدَّع حبكم كبدي
فقلبي مصعرٌ حزناً بذات الخال في الخدِّ
فما لاقى أخو عشق عُشَيْر العشر من جهد

فأقبل عليه ابن سريج : فقال والله هذا أحسن الناس غنا[47] .

وقد غنى طويس الشعر الذي قيل في الحروب التي وقعت بين الأوس والخزرج قبل هجرة الرسول ﷺ الى المدينة ، فآذى القوم وأثار ما بينهما من العداء حتى سالت بسبب ذلك الدماء .

وممن اشتهر بالغناء في العصر الأموي أبو مروان الغريض ، وقد لقب الغريض لأنه كان طري الوجه نضراً غض الشباب حسن المنظر . كان من رجال الأدب ، إلا أن الغناء غلب عليه بما وضعه من الألحان .

وقد أخذ الغناء عن المغني المشهور ابن سريج الذي أضمر له الحسد لتفوقه وذياع صيته . وقد عده جرير رابع أربعة اشتهروا بالغناء : سيد ميزر ، وتابع مسدد وابن سريج وأبو مروان الغريض .

ومن شدة إبداع الغريض بالغناء توهم الناس انه يتلقى الغناء عن الجن وكان يعترض الحجاج في طريقهم ، ويتوارى في مكان عن أنظارهم ثم يغني من شعر عمر بن أبي ربيعة .

أيها الرائح المجد ابتكارا قد قضى من تهامة الأوطارا

فملك الطرب قلوب السامعين وقالوا : طائفة من الجن حجاج[48] .

---

(46) راجع الأغاني ج 2 ص 35 .
(47) المصدر نفسه .
(48) الأغاني ج 3 ص 362 وما بعدها .

وقد تقدم الغناء تقدماً ملحوظاً على أيدي القيان في العصر الأموي . ومما يروى أن فتى من بني أمية كان يختلف الى قينة كانت تحبه حباً شريفاً . فقال لها ، وقد أراد أن يختبر ميلها إليه : أتحسنين القول :

أحبكم حباً بكل جوارحي ... فهل عندكم علم بما لكم عندي
أتجزون بالود المضاعف مثله ... فإن كريماً من جزى الود بالود

قالت : نعم ! وأحسن أحسن منه وقالت :

للذي ودنا المودة بالضعـ ... ـف وفضل البادي به لا يجازى
لا بدا ما بنا لكم ملأ الأر ... ض وأقطار شامها والحجازا

فعجب الفتى من حذقها وحسن جوابها فازداد كلفاً بها وقال :

أنتِ عذر الفتى إذ هتك الستـ ... ـر وان كان يوسف المعصوما

وقد أقامت هذه القينة الفنانة عند ذلك الفتى الأموي حولاً ثم ماتت . فرثاها ولما انتهى من الرثاء قضى في حاله تلك . فدفنا معاً . ومن مرثيته لها قوله :

قد تمنيت جنة الخلد للخلـ ... ـد فأُدْخلتها بلا استمهال
ثم أخرجت إذ تطمعت بالنعـ ... ـمة منها والموت أحمدُ حال

وقد سموه شهيد الهوى ، فنحروا على قبره سبعين بدنة(49) .

ومما يلاحظ أن أكثر المطربين والمغنين كانوا من غير العرب ، لأن العرب لم يحترفوا الغناء والموسيقى ، وإنما برعوا في الشعر وخاصة الفن الغزلي .

(49) مروج الذهب للمسعودي ج 2 ص 171 . والبدنة : الذبيحة السمينة .

الفصل الرابع
بناء المساجد

الحرم النبوي الشريف :

لما وصل النبي ﷺ الى المدينة المنورة بنى مسجده الذي دفن فيه . كانت الأرض التي بني عليها المسجد لغلامين يتيمين في حجر اسعد بن زرارة ، وكانت مربداً للتمر[1] . وقد أرادوا تقدمة هذه الأرض هبة لله وللرسول فأبى إلا أن يشتريها بالثمن . وأمر بقطع النخل وحفر الحفر وشرع بالبناء من اللبن .

وكان يبني فيه بنفسه ليرغب المسلمين في العمل فيه ، فعمل فيه المهاجرون والأنصار ، كان سقف المسجد من الجريد ، وأعمدته من خشب النخل ، وارتفاعه قدر قامة . وبنى الصفة وهي موضع مظلل من المسجد ليأوي اليها الفقراء من المسلمين . وبعد فتح خيبر زاد عدد المسلمين فبنى ﷺ بجوار المسجد بيوتاً من اللبن وسقفها من جذوع النخل[2] .

ولما ولي عمر أراد أن يوسع المسجد ، فطلب دار العباس بن عبد المطلب عم الرسول ليشتريها ويضمها الى المسجد فلم يرض العباس بيعها بثمن بل وهبها الى الله والمسلمين . بذلك أصبح طول المسجد مائة وأربعين ذراعاً وارتفاعه أحد عشر ذراعاً . وجعل له ستة أبواب وحصنه وكان ذلك سنة (17 هـ) ثم جاء عثمان فرغب في تحسين المسجد فجلب اليه الحجارة المنقوشة والمرصعة لتزيينه . وجعل سقفه من الساج وكان ذلك حوالي - (29 هـ - 30 هـ) .

وفي عهد الوليد بن عبد الملك كان والي المدينة عمر بن عبد العزيز المعروف بعدله وتقاه قد أدخل على المسجد حجرات خاصة لزوجات الرسول ﷺ فأصبحت مساحته مائتي ذراع . ثم كتب الى امبراطور الروم يطلب منه العمال المهرة في فن البناء فلبى طلبه وأرسل اليه أربعين رجلاً من الروم وأربعين من القبط بالاضافة الى هدية بالغة من الفسيفساء وألف مثقال من الذهب .

وشرع العمال في بناء مسجد النبي فبنوا الأساس والجدران والأساطين بالحجارة . وجعلوا عمد المسجد من الحجارة المحشوة بعمد الحديد والرصاص ، وجعل المحراب

---

(1) المربد الموضع الذي يجفف فيه التمر .

(2) السيرة النبوية لابن هشام ج 1 ص 496 .

والمقصورة من الساج . ثم تولى أمراء المسلمين مسجد الرسول بالعمارة والتجديد[3] .

والمساجد كونها دوراً للعبادة كانت لها مجالات أخرى تفيد منها الدولة . فكل شؤون الدولة كانت تدار في المساجد قبل إنشاء الأبنية الخاصة بدور الحكومة . يقول في ذلك توماس ارنولد :

» لم يكن المسجد مكاناً للعبادة فقط ، بل كان أيضاً مركز الحياة السياسية والاجتماعية . فكان النبي يستقبل في المسجد السفراء ويدير شؤون الدولة ، ويخطب جماعة المسلمين من على المنبر في الأمور السياسية والدينية . . . فمن فوق منبر المدينة أعلن عمر تقهقر جيوش المسلمين في العراق وحث قومه على السير الى هذه البلاد ، ومن على المنبر أيضاً وقف عثمان يدافع عن نفسه . كما كان الخليفة يلقي بعد بيعته من فوق المنبر خطبته الأولى التي هي بمثابة بيان لسياسته في الحكم . فكان المنبر بذلك أشبه بالعرش الذي يلقى من فوقه بيان سياسة الدولة في الأمم الدستورية ، « ثم يزيد فيقول من حيث شكل البناء :

كان المسجد الذي بناه محمد ﷺ في المدينة سنة 622 م ، يعتبر النموذج الأول لسائر المساجد الأخرى[4] .

ولقد كان للعقيدة الاسلامية أثرها في تغيير أساليب فن العمارة المحلية المختلفة ، كما أعان على أن يستخرج منها طرازاً له مميزاته الذاتية . فالأبنية التي اهتم العرب في بنائها أول الأمر أكثرها من المساجد والقصور . والمسجد بصورة خاصة هو أهم ما كانت تتمثل فيه العمارة العربية ، وكان يختلف الى حد ما باختلاف البقاع ولكنه ظل دائماً يحتفظ بميزاته الرئيسية .

والذي ساعد بلا ريب على وجود نظام تقليدي لبناء المسجد هو الحج السنوي الى مكة من سائر أنحاء العالم الاسلامي . قال تعالى : ﴿ وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامرٍ يأتين من كل فج عميق ﴾[5] .

وبعد فترة لم تعد المساجد مقراً لتفسير الحديث وتلقي العلم ، حتى فقدت بعض أهميتها السياسية والاجتماعية وغدا المسجد مقصوراً على إقامة الخطبة الدينية ، يمجد فيه الله ، ويترحم على الصحابة ، ويدعى للخليفة باعتباره نائباً عن الرسول ﷺ في المحافظة على الدين . لقد فقد المسجد مظاهر السياسة وبات لا يذكر فيه الا اسم الخليفة كاعتراف ضمني بسلطته الاسمية .

---

(3) أنظر معجم البلدان لياقوت لفظ يثرب .

(4) تراث الاسلام لأرنولد ص 113 . ذهب المستشرق الايطالي كيتاني الى أن النبي لم يشيد في يثرب مسجداً ، وإنما شيد داراً لم تصبح جامعاً إلا بعد أن نقل علي بن أبي طالب مقر الحكومة الى الكوفة . وكثيرون من المستشرقين وعلماء الآثار يؤمنون بهذا الرأي ويلفتون النظر الى أن الدار المذكورة كانت أشبه شيء بدار الندوة للجماعة الاسلامية تبث فيها أمورها ويقضي فيها بين أفرادها .

(5) الحج الآية 27 .

مسجد دمشق :

أول من اختطه أبو عبيدة بن الجراح ثم بناه الوليد بن عبد الملك سنة 88 هـ على وجه التقريب . وكان الوليد كما يروى عنه كلفاً ببناء المساجد خاصة وبفن العمارة عامة . وقبل أن يشرع ببناء مسجد دمشق جمع زعماء النصارى في دمشق وعرض عليهم رغبته في إدماج كنيسة القديس يوحنا في مسجد المسلمين ويعوض عليهم بدلاً منها أي مكان شاؤوا ، ، كما يدفع لهم ثمناً مضاعفاً لبناء كنيسة أخرى ، فرفضوا اقتراحه واحتجوا بالعهد الذي أخذه المسلمون على أنفسهم ، بأن لا يتعرضوا لكنائس النصارى ولا لأي ذمي موجود في ظل دولتهم بسوء .

ولكن الوليد لم يأبه لقولهم وتناسى العهود المكتوبة وسارع الى هدم الكنيسة وبنى مكانها مسجد دمشق . وقد تأنق في بنائه كثيراً حتى قيل أنه انفق على عمارته خراج دولته سبع سنين تقرباً الى الله بهذا العمل الديني الجليل(6) .

قال المسعودي في مروج الذهب :

وحكى عثمان بن مرة الخولاني قال : لما ابتدأ الوليد ببناء مسجد دمشق وجد في حائط المسجد لوحاً من حجارة فيه كتابة باليونانية ، فعرض على جماعة من أهل الكتاب فلم يقدروا على قراءته ، فوجه الى وهب بن منبه فقال : هذا مكتوب في أيام سليمان الحكيم بل داود عليهما السلام فقرأه فيه : بسم الله الرحمن الرحيم يا آدم ، لو عاينت ما بقي من يسير أجلك لزهدت فيما بقي من طول أملك ، وقصرت عن رغبتك وحيلك ، وإنما تلقى ندمك إذا زلت بك قدمك ، وأسلمك أهلك ، وانصرف عنك الحبيب وودعك القريب ، ثم صرت تدعى فلا تجيب فلا أنت الى أهلك عائد ولا في عملك زائد : فاغتنم الحياة قبل الموت والقوة قبل الفوت ، وقبل أن يأخذ منك ويحال بينك وبين العمل ، وكتب زمن سليمان بن داود ، فأمر الوليد أن تكتب بالذهب على اللاوزردي في حائط المسجد :

ربنا الله لا نعبد إلا الله . أمر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التي كانت فيه عبد الله الوليد أمير المؤمنين في ذي الحجة سنة سبع وثمانين . وهذا الكلام مكتوب بالذهب في مسجد دمشق الى وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة »(7) .

ومسجد دمشق هذا هو المسجد الأموي اليوم الذي يعتبر عن حق آية من آيات الفن العربي البيزنطي ، وقد زرته فوجدته انه ما زال محافظاً على رونقه وبهائه . وقد قال عنه المعجبون : هو جامع المحاسن كامل الغرائب معدود من إحدى العجائب .

وقد تأنق الوليد في بناء مسجد الشام ، فرصع محرابه بالجواهر الثمينة وعلق عليه قناديل من الذهب والفضة ، وحلاه بالفسيفساء ، والسلاسل الذهبية حتى أطلق عليه البعض أنه قصير النظر مبذر ، لأنه أسرف كثيراً من بيت مال المسلمين دون أي فائدة تدر عليهم من

---

(6) مروج الذهب للمسعودي ج 2 ص 152 .

(7) تاريخ الاسلام السياسي لحسن ابراهيم ج 1 ص 526 .

وراء هذا الاسراف ، وقد وصلت هذه الأخبار الى مسامع الوليد . فجاء الى المسجد وخطب في جماعته المتقدمين قائلاً :

«بلغي أنكم تقولون وتقولون في بيت مالكم عطاء ثماني عشرة سنة إذا لم يدخل لكم فيها حبة قمح » وهذا يدل على ثراء الدولة في ذلك الوقت من جهة وعلى قصر نظر الوليد من جهة ثانية . ولما جاء عهد عمر بن عبد العزيز ، العاقل المدرك ، ورأى هذا البذخ الذي لا مبرر له ، نزع الفسيفساء عن المسجد ووضع حبالاً بدل السلاسل الذهبية ، وعوض على بيت مال المسلمين ما أصابه من بعض الخسائر .

ومما يظهر أن أول منارة أو مئذنة في الاسلام كانت في مسجد دمشق . بنيت لتكون مكاناً مشرفاً يدعو منه المؤذن بصوته النديّ المؤمنين الى الصلاة ، على غرار ما كان عند المسيحيين بدق المقرعة قبل استخدام النواقيس(8) أو مقابلاً لما كان عند اليهود من نفخ الابواق :

مسجد الكوفة

وضع تخطيط لبناء الكوفة ينبىء عن نظام هندسي جميل فضلاً عن كونه يتلاءم مع طبيعة العرب . وكان أول شيء خط بالكوفة مسجدها . وقد أقاموا في وسطه رام شديد النزع فرمى عن يمينه وشماله ، ومن بين يديه وخلفه . ثم بني المسجد وراء مواقع السهام . كما بني في مقدمة المسجد ظلة ذرعها مئتان ، على أساطين رخام كانت للأكاسرة ، سماؤها كسماء المساجد الرومية ، وبنوا لسعد(10) داراً بحياله بينهما طريق منقب مائتي ذراع ، وجعل فيها بيوت الأموال ، وبنى له روزبة الفارسي من آجر بنيان الأكاسرة بالحيرة(11) .

وقد اتخذ علي (ع) الكوفة مقراً لخلافته(12) وما زال لها شأن وأهمية عند جميع الشيعة الى وقتنا الحاضر . وفي ولاية عبيد الله بن زياد ، بنى المسجد وأنفق عليه أموالاً طائلة ، حتى أصبح فريداً بين مساجد زمانه ، وأشاد به الشعراء ، ومنهم الشاعر اسماعيل الحميري . قال فيه :

لعمرك ما من مسجد بعد مسجد ... بمكة ظهراً أو مصلّى بيثرب
بشرق ولا غرب علمنا مكانه ... من الأرض معموراً ولا متجنب
بباين فضلاً من مصلى مبارك ... بكوفان رحب ذي أراس ومحصب(13)

---

(8) راجع خطط المقريزي ج 2 ص 248 ونذكر أنه عندما ولد النبي محمد ﷺ ضرب الناقوس ابتهاجاً وفرحاً . راجع اسلاميات أحمد شوقي .

(9) الكوفة قرب الحيرة وسميت بالكوفة لاستدارتها ، أخذاً من قول العرب رأيت كوفاناً للرملة المستديرة ، وقيل سميت بالكوفة لاجتماع الناس بها من قولهم تكوف الرمل راجع لسان العرب والقاموس .

(10) سعد : هو عامل الخليفة عمر بن الخطاب على الكوفة .

(11) تاريخ الطبري ج 3 ص 148 . ومعجم البلدان لياقوت ج 7 ص 297

(12) لأن بها شيعته وأنصاره ، ولخصوبة أرضها ، وكثرة خبراتها ، ووقوعها في مكان متوسط بين أقاليم الدولة الاسلامية ، ولأنها من وجهة نظره أصلح من غيرها في حرب معاوية بالشام .

(13) معجم البلدان لياقوت ج 7 ص 299 .

هذا المسجد الذي بناه محمد في المدينة سنة 662 م يعتبر النموذج الأول لسائر المساجد الأخرى ، ولعل السقف كان مصنوعاً من جريد النخيل المغطى بطبقة من الطين . وكان جماعة المصلين يولون وجوههم شطر الشمال أي شطر بيت المقدس وهذا الاتجاه وهو القبلة كان يحدده المصلون بطريقة ما . وفي سنة 624 م تغيرت قبلة المصلين من بيت المقدس الى مكة ، أي من الشمال الى الجنوب بالنسبة الى أهل المدينة . وقد أوحي الى النبي أن يجعل قبلته الكعبة الشريفة لما نزل قوله تعالى : ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وان الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون ﴾(14) .

القصور

كان الخلفاء والأمراء على اختلاف الدول والمماليك يبذلون عناية كبرى في بناء المساجد والقصور ، ويتأنقون في هندامها واتقانها ، فضلاً عن المتنزهات والحدائق التي أنفقوا عليها الأموال الطائلة جلبوا لها الأغراس والنصوب من أطراف المعمور .

مباني الأمويين في الشام

لم يصلنا عن مباني الأمويين في الشام ما يستحق الذكر سوى الجامع الأموي الذي سموه مسجد دمشق والذي جدد بناءه الوليد بن عبد الملك وقد مر ذكره في بناء المساجد وفي واسط بني الحجاج بن يوسف قبة الاسلام . وكانت من أفخم الأبنية .

في الأندلس

بنى آل مروان في الأندلس قصوراً سارت بذكرها الركبان ، وأجاد في وصفها الشعراء . ولا يزال بعض آثارها باقياً الى اليوم وأكثرها في قرطبة وغرناطة .

ففي قرطبة القصر الكبير :

هو آية في الجمال والإتقان ، شرع في بنائه عبد الرحمن الداخل في أواسط القرن الثاني للهجرة . وأتمه من جاء بعده من الأمراء وبنوا القصور في داخله . يتألف القصر من 430 داراً ، بينها قصور فخمة لكل منها اسم خاص ، مثل الكامل ، والمجدد ، والحائر ، والمعشوق ، والمبارك ، والرشيق ، والبديع ، والروضة ، وقصر السرور . وقد غالوا كثيراً في زخرفها ، واتقانها ، فأنشأوا فيها البرك والبحيرات والصهاريج والأحواض ، ومدوا اليها قنوات الماء على مسافات بعيدة من الجبال ، الى جانب هذا ترى الرسوم المذهبة والأشكال المموهة بالفضة والنحاس ، والبحيرات الهائلة والبرك الجميلة الرائعة المنقوشة جدرانها الرخامية بالرسوم البديعة ، ينصب فيها الماء من أنابيب من الذهب أو الفضة . بصور حيوانات كاسرة أو صور جميلة على أشكال بديعة(15) .

---

(14) البقرة الآية 144 .

(15) نفح الطيب ج 1 ص 219 .

قصر الزهراء :

بدأ بإنشائه الخليفة الناصر سنة 325 هـ على بعد أربعة أميال من المدينة ، وأتمه ابنه الحكم فاستغرق البناء أربعين سنة .

والقصر عبارة عن مدينة ، طوله من الشرق الى الغرب 2700 ذراعاً وعرضه 1500 ذراعاً وعدد أعمدته 4300 عاموداً بعضها حمل الى قرطبة من روما وافريقيا وتونس ، وبعضها أهداه صاحب القسطنطينية ، وفيها الرخام الأبيض والأخضر والوردي والمجزع . وفي الزهراء مسجد فخم وعدة قصور وحدائق على نحو ما رأينا في القصر الكبير . وفيها البحيرات والأحواض المنقوشة على أشكال شتى بين مذهب وغير مذهب . من بينها حوض منقوش بتماثيل الانسان جيء به من القسطنطينية نصبه الناصر في بيت المنام بالمجلس الشرقي المعروف بالمؤنس وجعل عليه اثنا عشر تمثالاً من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس مما صنع بدار الصناعة في قرطبة . صورة أسد بجانبه غزال والى جانبه تمساح يقابله ثعبان وديك وحدأة ونسر وكلها من ذهب مرصع بالجواهر يجري الماء من أفواهها(16) .

ذكروا أن الناصر كان ينفق على بناء الزهراء ثلث ميزانية الدولة المقدرة بـ 6 ملايين دينار سنوياً . ينفق منها 2 مليون على البناء . وبقي العمل مدة 40 سنة ، وبذلك تقدر نفقات بناء قصر الزهراء بـ ثمانين مليون دينار ، ولا غرابة في ذلك إذا عرفنا أن المرصعات والمذهبات تفوق الحصر ، حتى أنهم جعلوا بعض قرميدها من الذهب . وان العمال الذين عملوا في بنائها هم عشرة آلاف رجل و1500 دابة . وأغرب من كل هذا إذا عرفنا أن الناصر عمد الى بناء الزهراء مرضاة لمحظية له كان اسمها (زهراء) طلبت اليه أن يبني مدينة تعرف باسمها وتكون خاصة بها(17) .

قصر الحمراء :

في غرناطة كان قصر الحمراء بناه ابن الأحمر في أواسط القرن الثامن الهجري في أرض مساحتها 35 فداناً على مرتفع فسيح . يقال انها سميت الحمراء نسبة الى لون قرميدها ، وفي هذا القصر كانت بركة السباع ، وفي وسطها تماثيل سود تقذف المياه من أفواهها وتحدث بذلك منظراً رائعاً .

وبنى المنصور قصراً فخماً في بجاية ، أنشأ فيها بركة على حافاتها أسود يجري الماء من أفواهها . وعلى البركة أشجار من ذهب وفضة ترمي فروعها في الماء وعلى أغصانها أطيار من أشكال شتى بألوان بديعة وصنع عجيب . وقد نظم أحمد بن حمد بيس الشاعر الأندلسي قصيدة يصف بركة هذا القصر وخروج الماء من أفواه الأسود قال فيها :

وضراغم سكنت عرين رياسة   تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشي الفضاء جسومها   وأذاب في أفواهها البلورا

---

(16) نفح الطيب ج 1 ص 248 وفيات الأعيان ، وابن خلكان ج 2 ص 29 .

(17) نفح الطيب ج 1 ص 248 .

أسْدٌ كأن سكونها متحرك | في النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنما | أقعيت على أديارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها | ناراً وألسنها اللواحس نورا
فكأنما سلت سيوف جداول | ذابت بلا نار فعدن غديرا
وكأنما نسج النسيم لمائه | درعاً فقدر سردها تقديرا[18]

وقس على ذلك قصر المأمون بن ذي النون الأندلسي فإنه أنفق في بنائه بيوت الأموال وكان من عجائبه أنه صنع فيه بركة ماء كأنها بحيرة ، وبنى في وسطها قبة من زجاج وساق الماء من تحت الأرض حتى علا فوق رأس القبة بتدبير أحكمه المهندسون ، فكان الماء ينزل من أعلى القبة وحواليها محيطاً بها متصلاً بعضه ببعض ، فكانت القبة في غلالة من ماء سكبا لا يفتر والمأمون قاعد فيها[19] .

مباني العباسيين في العراق :

قصر التاج وقصر الثريا : كان المعتضد بالله 892 م محباً للعمارة فبنى قصراً في الجانب الشرقي من بغداد سماه (قصر التاج) ولم يتم بناؤه في أيامه فأتمه من بعده ابنه المكتفي 902 م ويروى أنه كان في مكانه قصر بناه جعفر البرمكي ، ثم سكنه الحسن بن سهل فسمي القصر الحسني . فلما تولى المعتضد سنة 289 هـ أضاف إليه ما جاوره ، فوسعه وكبره وأدار حوله سوراً واتخذ حوله منازل كثيرة ودوراً ، واقتطع منه قطعة سماها ميداناً ، وأخذ في بناء قصر التاج واتفق خروجه الى آمد ، فلما عاد رأى الدخان يرتفع الى الدار فكرهه وابتنى على ميلين منه قصراً سماه (**قصر الثريا**) طوله ثلاثة فراسخ أنفق فيه 4 ملايين ديناراً . وصله بالقصر الحسني وابتنى بين القصرين على مسافة ميلين سرداباً تمشي فيه جواريه وحرمه . ولما توفي المعتضد قام ابنه المكتفي سنة 289 فأتم بناء قصر التاج وكان وجهه مبنياً على خمسة عقود كل عقد على عشرة أساطين في خمسة أذرع[20] .

دار الشجرة :

في أول القرن الرابع بنى المقتدر 908 م بالله في أول القرن السابع داراً فسيحة ذات بساتين غناء عرفت بدار الشجرة ، وذلك لشجرة كانت فيها مصنوعة من الذهب والفضة في وسط بركة كبيرة أمام إيوانها وبين شجر بساتينها . لها ثمانية عشر غصناً من الذهب والفضة لكل غصن منها فروع كثيرة مكللة بأنواع الجوهر على شكل الثمار ، وعلى أغصانها أنواع الطيور من الذهب والفضة ، إذا مر الهواء عليها أبانت عن عجائب من ضروب الصفير والهدير . وفي جانب الدار من يمين البركة تماثيل خمسة عشر فارساً على خمسة عشر فرساً ، ومثلها عن يسار البركة ، قد ألبسوا أنواع الحرير المدبج مقلدين بالسيوف وفي أيديهم المطارد ،

---

(18) نفح الطيب ج 1 ص 233 .

(19) المصدر نفسه .

(20) معجم ياقوت ج 1 ص 806 .

يتحركون على خط واحد فيظن الناظر اليهم أن كل واحد منهم يقصد صاحبه[21] .

وكل هذه القصور لم يبق لها من أثر اليوم .

ومما عرفت به بغداد خاصة كثرة القصور وأول من شاد الأبنية فيها المنصور 754 م بنى الجامع والقصور والحصون كقصر الخلد ، وقصر باب الذهب . وقد سار على منواله الخلفاء الذين عقبوه في الحكم فأقاموا قصوراً فخمة عرفت غالباً بأسماء بانيها ، **كقصور البرامكة** في الشماسية ، **وقصر ابن الخصيب ، وقصر الرشيد ، وقصر الأمين ، وقصر ابن الفرات ، ودار القرار** وهي قصر الست زبيدة زوجة هارون الرشيد .

وقد أخذت رغبتهم تتزايد كلما أغرقوا في الترف والرخاء ، غير أن بعض الخلفاء كانوا مغرمين بالبناء كالمعتصم بالله الذي بنى سامرا ، والمتوكل على الله الذي أحدث أساليب من الأبنية لم تكن معروفة قبله . فقد بنى ثلاثة أبنية تعرف بالهاروني والجوسق ، والجعفري ، بذل في بنائها جميعاً أكثر من مئة مليون درهماً أنفق منها على القصر الجعفري أكثر من مليونين ديناراً[22] . ثم صار تشييد المباني عادة جرى عليها الخلفاء والأغنياء ، فضلاً عن المتنزهات حيث بنى اسماعيل بن علي متنزهاً أنفق فيه خمسين مليون درهماً[23] .

الفنون الزخرفية وأثر الفن العربي في الفن الأوروبي :

الفن كلمة واسعة المدى تشمل كل أنواع العطاء وكل مجاري الحياة بشتى ألوانها فكل عمل وللفن علاقة مباشرة به وكل قول جميل اعتماده الأساسي على الفن ، والحياة هي مادة الفن ومسرحه وعطاءاته الخيرة . والانسان يرغب بكل طاقته الفكرية ليعطي في الميدان الذي يشغله بأسلوب فني ، مبدعاً قدر مهاراته الذاتية وكفاءاته العلمية . وبما أن الحياة مختلفة الألوان والميادين فالتعبير عنها فنياً لا بد وأن يكون مختلفاً ، إن في الموضوع أم في آلة التعبير .

أراد الانسان منذ أول وجوده بناء بيت يقيه حر الشمس وبرد الليل فعمّر البيت البسيط الذي ما فتىء يجاهد في سبيل تحسينه شكلاً ومضموناً مراحل مديدة ، حتى وصل الى القصور الفخمة الجميلة والمريحة التي أراحت جسده وأمتعت نظره وطمأنت نفسه . وطوال هذا التاريخ كان فن البناء أو فن العمارة .

ونظر الى الحيوان كيف يتناول طعامه فلم يستسغ طريقة أدائه ، ففكر في طريقة أفضل تريحه وتسهل عليه سبل غذاء جسده ، فاخترع طرق الطهي المختلفة وموادها الضرورية والمفيدة وتفنن في ذلك حتى كان فن الطهي أو الطعام .

وأراد أن يستر جسده ، فقطف غصون الأشجار ، واتخذ منها ستراً بسيطاً أول الأمر ، فما اطمأن الى عمله هذا ، فعرف الخيط ونسج منه الأقمشة الصوفية البسيطة الخشنة ، وما زال يرتقي في هذا السبيل حتى توصل الى الكساء الناعم الجميل الذي يناسب جسده وكان

---

(21) معجم ياقوت ج 3 ص 520 .

(22) ابن الأثير ج 7 ص 33 .

(23) ابن الأثير ج 6 ص 28 .

فن الخياطة واختراع الأزياء المختلفة التي تلبي رغباته وترضي ذوقه .

ولما سمع أصوات ما في الطبيعة من حفيف غصون الأشجار ، وترديد نشيد الأطيار ، وسقسقة الجداول والأنهار ، أحب أن يقلدها فغنى وتلهى ، وعندما ضجر من الفراغ الممل اخترع بعض الآلات الموسيقية فعزف عليها وطرب وشرب . واستمر في ممارسة هذه الأعمال فكان الفن الموسيقي الغنائي .

ولا يخفى أنه يروق مع الفن الموقع الرقص والحركة المعبرة فكانت مدارس الرقص المنوع ، من شرقي وغربي وكان فن التعبير عن الفكرة بالحركة بدل الكلمة .

أما فن القول والتعبير بالكلمة الدالة فهو ميدان الأدب الواسع من شعر ونثر . والانسان منذ عرف الحياة بكل ما فيها من سعادة وشقاء عبر عن ميوله وعواطفه بأساليب مختلفة ، ولما مهر في التعبير وحمّل كلماته رموزاً أكثر مما استطاع حمله ، كان فن المجازات والاستعارات والتشابيه وكان الايداع في عالم الخيال البعيد والخلق الجديد .

وكذلك القول في بقية ميادين الحياة الأخرى ، من حفر وتصوير ونحت وتمثيل وجيمع الفنون التي عرفها الانسان ترجع بكليتها الى التصوير ، فبعضها صور محسوسة كالمنحوتات والمرسومات ، والبعض الآخر صور خيالية كالشعر والموسيقى . والأمم التي تحضرت وتمدنت قبل الاسلام عملت في هذه الفنون وخاضت ميادينها على تفاوت في إتقانها .

أما المجتمع الاسلامي منذ عهد الرسول والخلفاء الراشدين من بعده ، حيث البساطة والخشونة في العيش والجهاد في سبيل الله ، لم يكن حينئذٍ مرتعاً خصيباً للفنون الجميلة بأنواعها . يقول ابن خلدون : « فكان الدين أول الأمر مانعاً من المغالاة أو البنيان والاسراف في غير القصد »[24] .

ولما اتسعت فتوح العرب واختلطوا بغيرهم من الأمم الأخرى من روم وفرس ، أخذوا عنهم شتى الأساليب الفنية القديمة ، وطبعوها بطابع دينهم الجديد . وبعد الممارسة وبعد النظر اتسع أفق الفن في أعينهم ، واستطاعوا أن يخرجوا صوراً فنية جديدة ، لا تخرج عما رسمه الدين الاسلامي . وما نريد أن نذكر به أن العرب لم يعنوا بفن النحت والتصوير للجسم عنايتهم بالبناء والزخرفة ، لأنهم رأوا في ذلك تشبهاً بعبدة الأوثان ، ولهذا كان العنصر الأساسي في زخرفتهم الرسوم النباتية والهندسية[25] .

وورد في تراث الاسلام : « نظر العرب الى الفنون في ريبة ووصلوها بالسحر ، شأن الجماعات الفطرية الأولى ، فضلاً عن أنهم في بداية حماسهم الديني كانوا يحرمون الترف ويعرضون عنه اعتقاداً منهم أنه غرور كافر ، أو أنه من حبائل الشيطان الذي يجب ألا يكون

---

(24) المقدمة الفصل الثامن ص 312 -313 . يريد أن المباني والمصانع قليلة بالنسبة الى قدرتها وإلى قدرة من كان قبلها من الدول

(25) راجع فنون الاسلام للدكتور زكي محمد حسن ص 1 .

له على المؤمن من سلطان[26] .

من بين الفنون العديدة التي عرفها العرب اخترنا فن العمارة وقد أتينا على ذكره في بناء المساجد ، وفن الزخرفة والنقش وما اليه الذي نريد التحدث عنه الآن :

هذا الفن من الفنون الاسلامية الفرعية Arts mineurs ويمكن أن نسميها الفنون الصناعية أو التطبيقية ولكنها عرفت باسم الفنون الزخرفية . وقد تمثلت غالباً في الأشياء المنقولة ، التي ينتفع بها أو تتخذ للزينة والزخرف . كان الفن في العصور الوسطى قبل كل شيء وسيلة لشرح الأفكار الدينية والتعبير عنها ، ويمكننا أن نرد مذاهب الفن في تلك العصور الى العقائد التي شكلتها .

والحقيقة أن كل هذه الفنون على اختلافها ترجع جميعها الى أصل واحد لولا أن المؤثرات الدينية قد حصلت منها وحدات متمايزة .

كانت نشأة الفن الاسلامي في المساجد ، فيها ولد وفي رحابها نما وترعرع ، والمساجد الأولى كانت أبنية عادية أقيمت للصلاة والوعظ وحدهما ، وليس فيها نزوع الى إتقان في فن العمارة ، وكان كل تجديد يظهر بالمساجد عرضة للنقد اللاذع . كما أن أول محراب أعد ليرشد الناس الى اتجاه الكعبة قد أثارت جدلاً كبيراً لأنه يشبه الحنية Apse التي توجد في صدر الكنائس والتي كان المحراب نفسه تقليداً لها[27] .

وسرهان ما ظهر جيل أقل تديناً أخذ يقارن بين فقر المساجد وترف الكنائس ولم يمض زمن طويل حتى أصبح المنبر والمحراب أظهر زينة في تلك الأبنية التي تعتبر في براعة تصميمها وتنوع زخرفتها من مفاخر فن العمارة .

وعندما انتشر الاسلام وامتد سلطانه اختلط العرب بغيرهم من الأجناس الأجنبية عنهم ، وأدى ذلك الى اتساع أفق الفن في أعين المسلمين الذين استطاعوا ، في حدود الالتزامات الدينية ، أن يخرجوا بفضل هذا الاختلاط صوراً جديدة للمثل الأعلى في الفن عندهم .

الى جانب هذا دخل في الاسلام عنصر جديد هو عنصر ثقافة دنيوية بحتة ، ثم سرت عادات دخيلة في نفوس الحكام المسلمين الذين لم يكونوا من الأتقياء المتحمسين لعقيدتهم ، فضعفت المسحة الدينية في قصور الخلفاء وتسللت الى الاسلام فنون لم تكن تتفق وقواعده كل الاتفاق . إذ بدأ الحكام المثقفون بثقافات مطعمة بعضها من الفرس والبعض الآخر من الروم ، يميلون الى ما يصلح للملك ولا يليق بخليفة رسول الله . وانتقلت عدوى حب الفن الى من قلد الحكام ، فظهر فن متميز يمكن أن نسميه « فن القصر » وعاد كل ذلك بالخير على الصناع والفنانين ولكنه أثار رجال الدين[28] .

(26) تراث الاسلام لأرنولد ترجمة زكي محمد حسن ج 2 ص 5 -6 والمرجح أنه يريد فن صناعة صور القديسين والنحت والتماثيل فهو عمل وثني في أعين العرب .

(27) راجع كتاب الفن الاسلامي للدكتور زكي محمد حسن ج 1 ص 51 -53 .

(28) راجع كتاب الفن الاسلامي للدكتور زكي محمد حسن ج 1 ص 99 .

على كل حال ظهر فن ملكي دنيوي في عهد الأمويين ذلك هو فن النقوش الجدرانية البديعة .

ولما نقل العباسيون مقر الحكم من الشام الى دمشق ، كان بداية عهد جديد في تاريخ الفن الاسلامي . وأبرز ما يذكر فن العمارة حيث حقق العرب أفكاراً هندسية معينة بعبقرية حاذقة وبصيرة فنية رائعة ، ولئن كان اعتراض الدين على الصور الآدمية حائلاً دون أي تقدم في صناعة التماثيل وفن النحت ، فلقد برع المسلمون في الحفر على الأحجار والأخشاب وغيرها ، وحققوا تفوقاً فنياً كبيراً في اختيار الألوان وصناعتها .

وكما أن علماء المسلمين قد نقلوا الى الخلف ذخيرة من العلوم والدراسات القديمة ، فإن الصناع المسلمين قد حفظوا وهذبوا ، ثم نشروا في البلاد الأجنبية ما كان ذائعاً في الشرق من صناعات دقيقة مراكزها الحوانيت والمصانع ، ولم تكن هذه الصناعات قد نفذت قبل ذلك الى أوروبا .

والحقيقة أن كل شيء أعد للاستعمال العادي أو للحفلات وما اليها ، قد دب فيه المسلمون الحياة وخلعوا عليه الكثير من الزخرف بدت موضوعاته طبيعية كمثل الأشكال التي تسبغها الطبيعة نفسها على المخلوقات الحية . على أن هذه الخصوبة الزخرفية ليست مجرد وسيلة لملء الفراغ ، أو تغطية أشكال ، وإنما هي أصول جوهرية لدقة الصناعة بدونها يعد الأثر الفني ناقصاً(29) .

والواقع أننا نلاحظ أن غنى الموضوعات الزخرفية وتكرارها على وتيرة واحدة يريحان العين الشرقية والفكر الشرقي كما يريح الأذن الغربية توافق النغمات وتنوعها . ولقد كان الصناع الشرقيون مولعين بالزخارف حتى لقد وقفوا على دراسة مسائلها جهوداً متواصلة عظيمة ، ووضعوا لها أصولاً ما يزال الصناع المحدثون يقتفون آثارها حتى اليوم ، فالزخرفة التي أنتجتها قرائح العرب في العصر الاسلامي خليقة بأن تتبوأ المكان الأعلى بين الفنون الاسلامية الفرعية .

ومن المميزات الظاهرة في الزخرفة الاسلامية استعمال النقوش الخطية العربية فكثيراً ما ترى آية من آيات القرآن الكريم ، أو بيتاً من الشعر ، أو عبارة من عبارات التهنئة تدور حول حافة تحفة أثرية وتكوّن شريطاً زخرفياً تملأ شكلاً هندسياً أو طغرة(30) كما نجد في هذا الفن الزخرفي أثراً من الآثار الثمينة يزينه اسم صاحبه النبيل ومعه ألقابه الفخمة . فيفيدنا في معرفة تاريخ هذا الأثر ومصدره حين يمهر الصانع عمله الفني بتوقيعه . مثبتاً مع هذا التوقيع اسم المدينة التي صنع فيها الأثر والسنة التي تم صنعه فيها .

---

(29) في المتاحف العربية قطع أثرية عديدة تؤيد صحة هذا القول وتثبت أن الفنان القدير في العالم الاسلامي كان يعمل للفن قبل كل شيء ، كما يظهر من الزخارف الدقيقة التي نراها على التحف الأثرية في أجزاء ليست ظاهرة لعين الرائي ولا رقيب على الصانع في زخرفتها إلا نفسه وإخلاصه لتقاليد الفن والصناعة .

(30) هي شكل هندسي أو زخرفة تشتمل على نقش فيه كتابة أو ترسم فيه اشارة . كالأشكال المستطيلة المقوسة الجانبين التي كانت تحفر فيها أسماء الفراعنة المصريين .

والكتابة بالخط العربي هي أفضل ما قدمه العرب أنفسهم للفن الاسلامي ، وتعتبر حيثما وجدت دليلاً على سيادة الاسلام وعظم تأثيره . الى جانب هذا ، منها الخط الذي دوّن به القرآن الكريم ، كانت مقدسة في كل بلاد الاسلام وكل عصوره[31] وطالما تنافس الخطاطون في تحسين حروفها الجميلة وأتت أجيال منهم تعمل بنجاح حتى أصبح الكتاب الجميل كنزاً لا يقدر بثمن . وقد ألِفَ الصناع الأوروبيون شكل الخط العربي شيئاً فشيئاً حتى أدخلوه في القطع النقدية . ففي المتحف البريطاني قطعة شبيهة بالدينار الاسلامي لملك مرسية Mercia (757 -796) مكتوب عليها الملك أوفا Offa وحولها كتابة عربية منقولة نقلاً دقيقاً حتى لترى ظاهراً فيها تاريخ القطعة الأصلية (157 هـ) .

وفي المتحف المذكور نفسه مثل آخر لاتصال الغرب بصناعة الشرق يظهر في صليب ايرلندي مطلي بالبرونز يرجع عهده الى القرن التاسع الميلادي ، كتب في وسطه على الزجاج بالخط الكوفي عبارة عربية هي « باسم الله » .

ومما يبدو أن الصناع كانوا يجهلون معنى العبارات المتكوبة ، لأنه لا يحتمل أن توضع مثل هذه الكتابة الاسلامية البحتة على عملة ملك مسيحي أو تنقش على شارة مقدسة .

ومنذ ذلك الوقت أخذ نقل الحروف العربية والزخارف الاسلامية يزداد انتشاراً في صناعات أوروبا المسيحية .

أما الدوافع التي حثت الغربيين الى زيارة البلاد الاسلامية ،فكثيرة منها الرغبة الصادقة في زيارة الأماكن المقدسة ، ومنها التعطش الى أخذ العلم الذي ورثه المسلمون دون غيرهم ، ومنهم الأعمال التجارية ، وبعد ذلك يعودون الى بلادهم حاملين معهم من بدائع الصناعة الاسلامية التي تؤيد ما كان يقصه عليهم القوم وما يتحدثون به عن مهارة العرب الفائقة في هذا الفن الزخرفي .

ومن أهم ما حصل عليه العلماء المتجولون الذين كانوا ينقبون في مراكز العلم الاسلامي ، النتائج التي توصل اليها الشرقيون في تذهيبهم الكتب تظهر في موضوعات زخرفية بديعة زين بها جلد الكتاب يرجع عهده الى أواخر القرن الرابع عشر[32] .

وتعتبر هذه الزخرفة أعجوبة من أعاجيب الفن الزخرفي أخرجتها يد فنان صبور . ولقد ظلت أوروبا نحو ألف سنة تنظر الى الفن الاسلامي كأنه أعجوبة من الأعاجيب ، وكان أكبر باعث لهذه النظرة في أول الأمر ان هذا الفن كان يتصل أوثق الاتصال بالأراضي المسيحية

---

(31) نلاحظ أن الكتابات على الأبنية والتحف الأثرية من العصور التي ازدهر فيها الفن الاسلامي كانت باللغة العربية الواسعة الانتشار والعظيمة النفوذ . ولأننا نحن المسلمين نعتقد أن القرآن كلام الله عز وجل نزل به الوحي على رسوله محمد ﷺ ولا نسمح بنشره باللغات الأخرى إلا تفاسير وشروح ولهذا السبب عنه كانت جميع الكتابات ذات الصبغة الدينية في العالم الاسلامي كله مكتوبة باللغة العربية وكذلك أكثر الكتابات ذات الصبغة الرسمية كالشاء على السلاطين والكتابة على شواهد القبور وصكوك الهبات والمنح .

(32) راجع تراث الاسلام ج 2 ص 89 وما بعدها .

المقدسة ، ولكن بعد ذلك سرعان ما أصبح مصدر الدهشة من ذلك الفن جماله الذاتي ليس غير .

والكثير من التحف الاسلامية النفيسة مدينة ببقائها في حالة جيدة من الحفظ الى عاطفة التقوى الدينية التي كانت سائدة في العصور الوسطى ، فإن عدداً وافرا منها ظل محفوظاً في الكنائس قروناً عديدة .

وصفوة القول أنه منذ بداية الاسلام كان الشعور الديني والعلم والتجارة والاعجاب بالطريف الغريب من الأشياء ، كل هذا أوجد في الفن الاسلامي والمهارة الاسلامية ما يلائمه . وقد حاكى فريق من كبار الصناع وتأثروا بمهارة المسلمين الفنية .

ذكر لنا أرنولد بعض روادهم منهم أوديريكس Odericus من مدينة روما وهو الذي رسم الزخرفة الاسلامية عام 1286 على بلاط الرخام المطعم في جزء من هيكل كاتدرائية وستمنستر .

ووليم موريس Wiliam Morris الذي نسج زخارف اسلامية أخرى في المخمل المصنوع سنة 1884 وغيرهما من الفنانين والصناع الذين سبقوهما أو أتوا بعدهما .

وأضاف قائلاً : « وقدر لهؤلاء أجمعين أن ينعشوا فن المغرب بين حين وحين ، وان يسقوه من ذلك المعين الذي كان يعتبر في نظر الأوروبيين منهلاً دائماً للغرب أكثر منه ارثاً خلفه الاسلام[33] .

والحضارة بمعانيها وأبعادها جملة من الفنون تتجلى في تقارب اليد العاملة من الفكر المخطط ، ثم تتحول في مراحل نامية حتى تمهر اليد من إطاعة الفكر اطاعة كاملة ، وذلك بعد ممارسة ناجحة وتمارين مفيدة ، وبعدها يكون الابداع الجميل والخلق العظيم والفن الأصيل .

من هذا المنطلق تكون الحضارة فناً نامياً متحركاً كالكائن الحي ، تولد ثم تحبو طفلة طرية العود ، حتى إذا اشتد ساعدها وأينعت بدأ شبابها المعطى وعهدها المزدهر وتصبح في هذا الطور في إبان خصبها.

والتفاعل بين الفنون الحضارية أمر طبيعي لا بد منه ، فهو مظهر من مظاهر عدوى التقاليد وانفتاح كل حضارة على التاريخ ، وأشد ما يكون هذا التفاعل حين تكون الفنون الناشئة في دور التلقي والاقتباس ، فإذا ما تجاوزته الى دور الهضم والتمثيل استحال ما أخذته الى دم قوي نشيط يساعدها على بدء عملية الخلق والابداع . هذه العملية تعطي الفنون طابعها الخاص وشخصيتها المميزة ، وكيانها المستقل الواضح الخصائص .

والفنون العربية واحدة من تلك الفنون المنفتحة على التاريخ ، وهي من الفنون التي تأثرت بها شعوب مختلفة ، وقامت بدورها المجيد في سير الحضارة البشرية ، عدا عن أخذها

---

(33) تراث الاسلام ج 2 ص 99 .

عن اليونان والرومان والفرس ، فقد شقت طريقها ومدت ظلها على الشرقين الأدنى والأوسط وتجاوزتهما الى بعض أوروبا ، وكان لها أثرها الفعال في بعث الحضارة الأوروبية الحديثة[34] .

(34) الحضارة العربية للدكتور مصطفى الرافعي ص 12 .

الباب الثامن

النظام التربوي في الاسلام

الفصل الأول

ضرورة التربية لتطور الحياة

توصل الانسان الى مرحلة النضوج العلمي والتقدم الاجتماعي بفضل التربية الواعية الهادفة الى تنمية وعيه وبناء شخصيته . فالتربية ضرورة من ضرورات الحياة وشأن أصيل من شؤون الانسان . فهي تعد الفرد للمجتمع بما فيه من قواعد ونظم وقيم وتقاليد ، وتمكنه لأن يكيف نفسه مع أفراد مجتمعه في إطار هذه القواعد والنظم .

إن الحضارة الانسانية ميراث اجتماعي جاهد الجنس البشري في اكتسابه وحافظ عليه طوال الدهور ، ولم ينتقل من جيل إلى جيل إلا بفضل التربية ، فهي التي نقلت الثروات الفكرية ، والقيم الانسانية ، والعادات الطيبة ، من السلف الى الخلف . يقول علماء الاجتماع : إن تطور المجتمعات البشرية وبقاءها واستمرارها يتوقف على عملية النقل الثقافي . وبغير انتقال المثل العليا والمطامح الخيرة والآراء النيرة والآمال السعيدة ، لا يمكن لحياة الجماعة أن تدوم .

والتربية ، بعد البحوث والتجارب هي من الأمور الكسبية (Acucilli) التي يتطبع عليها الانسان . وقد أشار القرآن الكريم الى هذه الظاهرة قال تعالى : ﴿ والله أخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئاً ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾(1) . فما يحصله الانسان من علوم ونمو فكري إنما هو عن طريق الكسب بسبب ما يلتقطه السمع والبصر والعقل .

ونوجز القول : إن التربية قاعدة أساسية لتطور الانسان وارتقائه فكرياً واجتماعياً ، وغايتها الازدهار التام لشخصيته ، وغرس النزعات الخيرة في نفسه . وأسمى أنواع التربية وأصلحها لتقويم نفس الانسان هي التربية الدينية ، التي تهدف الى التهذيب النفسي ، وتنمية السلوك والنمو الروحي ؛ بما تعود النفس على العادات الصالحة والأخلاق الفاضلة والمثل الكريمة . ولا ريب أن الدين يمنح الانسان قوة الايمان والتعقل والتأمل والبصيرة وهذه القوى تشكل بمجموعها الطاقات الروحية التي تهدف الى تدعيم الخير في قلوب البشر ، وهو أسمى وأنبل الغايات الانسانية .

---

(1) النحل الآية 78 .

الدين كما أظهرت التجارب ، هو العاصم الوحيد من الشذوذ والانحراف ، لأنه يعمل على تهذيب الغرائز وطهارة النفس وابعادها عن الانحلال ، وصيانتها من الانهيار . إنه يودع فيها قوة هائلة توحي لها بالأعمال الخيرة ، وتصدها عن ارتكاب الشر والانحراف .

للدين أثر فعَّال في تكوين الحياة العامة وتوجيهها ، وفي إيجاد وسائل الأمن والاستقرار في الأرض. ولما ضعف الوازع الديني في عصرنا الحاضر ، شاع الانحلال الأخلاقي ، وكثرت الجرائم ، ومني المجتمع الانساني بكثير من المشاكل الرهيبة . فللنظر حولنا ونأخذ الشواهد والعبر .

من أهم الأمور في الحياة الايمان بالقيم الأخلاقية وتقديرها وإذا لم نجتهد لاكتساب هذا الإيمان أو لتقويته لا يبقى للعلوم التي نحصلها أية قيمة . وتتحول من نعمة إلى نقمة على البشرية عامة . فالولايات المتحدة بكل ما أحرزته من التقدم العلمي لم تستطع أن تقضي على الظلم والغبن والتفرقة بين أبناء الانسان ، لأن العلوم المادية وحدها لا تقدر على خلق روح المودة والتعاون بين أفراد المجتمع الواحد .

. . . حتى بزغ نور الاسلام ، وسوى بين مطالب الروح والجسد ، وأقام المساواة بين جميع خلق الله ، وعمم العدالة الاجتماعية التي كانت وما زالت مطلب المحرومين على وجه هذه الأرض .

استخدم الاسلام جميع ما لديه من طاقات وأجهزة بشكل إيجابي وبناء من أجل إيجاد التربية الصحيحة الهادفة الى تنمية الوعي ، ورفع المستوى الفكري والاجتماعي ، وذلك ضمن عملية تربوية موحدة ، يتم على أساسها تربية الأفراد وتنظيمهم على منهج واحد ، فينصاعون للعدل ، ويتسابقون في ميادين البر والخير دون أي ضغط أو إكراه .

إن طابع التربية الاسلامية لم يكن دينياً محضاً كما عند المسيحيين في الصدر الأدل من تاريخهم ، ولم يكن دنيوياً محضاً كما عند الرومان ، وإنما كان يلائم بين الدين والدنيا ويهدف الى الاصلاح الشامل للحياتين .

ولا يستطيع أحد من المربين أن ينكر أن التربية الاسلامية هي الأساس المتين لحضارة المسلمين ، وأن مثلها العليا تتفق بكل طواعية مع الاتجاهات الحديثة في عالم التربية الحديثة . لقد قدر الاسلام العلماء ، وقدس العلم ، وسما به الى درجة العبادة . وعني العناية الخالصة بجميع أنواع التربية الروحية ، والدينية ، والخلقية ، والصحية ، والنفسية ، ونادى بالحرية والمساواة وتكافؤ الفرص بين جميع خلق الله ، وقضى على نظام الطبقات (الناس كلهم سواسية كأسنان المشط) وجعل العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وفتح المساجد ودور العلم والحكمة والحلقات الدراسية والمنتديات الأدبية والعلمية ، للتعلم والبحث والدراسة . وقدم الى الطلاب كل ما يحتاجون إليه من مساعدات تمكنهم من التفرغ لطلب العلم والاستزادة منه . قال تعالى : ﴿ قل ربي زدني علما ﴾[2] .

---

(2) طه الآية 114 .

أهداف التربية الاسلامية

أ ـ الهدف الروحي

ذهب بعض المربين الاسلاميين إلى أن الغرض الأساسي من التربية إنما هو تطهير النفس ، وصفاء الذات .

وذهب البعض الآخر إلى أن تطهير النفس من العيوب شرط أساسي لتلقي العلوم لذلك كان على المعلم أن لا يقبل طالباً حتى يختبره في أخلاقه ، فإن وجده مهذباً قبل بتعليمه ، وإلا منعه ، وذلك خوفاً من أن يستعين بالعلم على الفساد فيؤذي نفسه ويؤذي معه الآخرين . قال هؤلاء :

« إن التربية ينبغي أن تقود الانسان الى معرفة نفسه الداخلية ، « من عرف نفسه عرف ربه » وتقدير الطبيعة ، والثقة بوحدانية الله ، ويجب أن ترفع الانسان الى الحياة الطاهرة المقدسة الناشئة عن معرفة الله ، والطبيعة ، والنفس الانسانية »[3] .

ب ـ الهدف الاجتماعي

نادى الاسلام بالإخاء بين المؤمنين ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ والمساواة بين الناس أجمعين ﴿ ليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى ﴾ على أن يكون التفاضل بالعمل الصالح والتقوى قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[4] .

وأمر الاسلام بالاحسان الى الناس ﴿ وأحسن كما أحسن الله إليك ﴾[5] ورغب في الاتيان بالحسنات : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾[6] .

وقد دعا الله الى مقابلة شرور الناس بالاحسان إليهم لأن ذلك داعية الى نزع العداوة من صدورهم وإحلال المودة مكانها : ﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة إدفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾[7] .

ونادى الاسلام بالصدق ليستقر المجتمع وتضمن الثقة بين الأفراد ، ولأنه من ضرورات المجتمع الذي ينبغي أن ينال حظاً عظيماً من العناية في الأسرة والمدرسة والجامعة والمجتمع . فيه ترد الحقوق ، وبه يحصل الناس على الثقة فيما بينهم . وبالتالي يكون التعاون التام والمحبة المثمرة التي تربط بين أفراد المجتمع الواحد برباط وثيق . قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديدا ﴾[8] ودعا الاسلام الى الاصلاح بين الناس ، لأنه من أرفع

---

(3) راجع روح التربية والتعليم لمحمد عطية الأبرشي ص 21 .

(4) الحجرات الآية 13 .

(5) القصص الآية 77 .

(6) الانعام الآية 160 .

(7) فصلت الآية 34 .

(8) الأحزاب الآية 70 .

الخصـال في النفس الانسـانيـة التي لا تصـدر إلا من قلوب نبيلة أحبت الغـير وضحت من أجله . قال تعالى : ﴿ لا خير في كثير من نجـواهم إلا من أمر بصـدقة أو معـروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيما ﴾[9] .

يحمل هذا النص القرآني أروع معاني السمو الخلقي الذي تفتقر إليه الجماعة للحصـول على الاستقرار الذي تنشده المجتمعات السعيدة الراقية .

ج ـ الهدف المادي

المـال هو عصب الحيـاة ، والاسـلام دين التكـامـل والعـدالـة ، سعى إلى كسب المـال بوسائل مشروعة ، فدعا الى العمل باليد أو الآلة أو زراعة الأراضي وإحياء الموات .

والعمل الذي أراده تنـاول جميع وجـوه النشاط والحـركة الفـاعلة الايجابيـة سواء أطلب العمـال تحقيق الضروري من حـاجاتهم أم أرادوا الـدنيا وزينتهـا وشيئاً فـوق الكفايـة . قـال تعـالى : ﴿ من كان يـريد الحيـاة الـدنيـا وزينتهـا نـوّف إليهم أعمـالهم فيهـا ، وهم فيهـا لا يبخسون ﴾[10] .

وقد أشاد القرآن بالعمل اليدوي ليأكل الناس مما كسبت أيديهم ، مثلما يأكلون مما أنعم الله عليهم من طيب الثمرات . قال سبحانه :

﴿ ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون ﴾[11] . ومثل قـوله تعـالى : ﴿ وأن ليس للانسان الا ما سعى . وان سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى ﴾[12] . والانسـان بحسب حبـه للبقاء مـرغم عـلى السعي لاكتسـاب حـاجـاتـه ، وليست هنـاك وسيلة أهم من تحصيل العيش واكتساب الرزق اللازم لبقاء الذي يعمل وبقاء من يعول . والمجال واسع أمام الناس ، وليس لهم إلا السعي والعمل الشريف في الأرض التي جعلها الله ذلـولاً لنا ثم أمـرنا بالسعي في مناكبها . قال تعالى : ﴿ هو الـذي جعل لكم الأرض ذلـولا فامسكـوا في مناكبهـا وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾[13] .

والله يرحم عباده دائماً فيذكرهم حتى لا ينسوا نصيبهم من الدنيا وينعموا من خيرات ما رزقهم الله . جاء في سورة القصص : ﴿ وابتغ في ما أتاك الله الدار الآخـرة ولا تنس نصيبك من الدنيا . . . ﴾[14] .

فعلينا أن نوازن بين الدنيا والآخرة فلا نغلب واحدة منها على الأخرى . وذلك بـالعمل الذي نقوم به ، فالدين له وقته ونظامه والدنيا لها وقتها ونظام العمـل فيها . والاسـلام يشمل الاثنين معاً بتعادل كامل .

---

(9) النساء الآية 114 .

(10) هود الآية 15 .

(11) يسن الآية 35 .

(12) النجم الآيات 39 -40- 41

(13) الملك الآية 15 .

(14) القصص الآية 77 .

قال المستشرق الدكتور « شاخت » الاسلام نظام كامل من الثقافة يشمل الدين والدنيا معاً »(15) .

ولا غرابة ! ذلك أن الأصول المستمدة من وحي السماء قد أوجدت المجتمع المثالي الفاضل الذي لم نر له عدلاً ولا مثيلاً .

تطور التربية

تولد بذرة التربية وتنمو في المنزل ، يشربها الطفل مع حليب أمه وعناية أبيه . منذ فجر التاريخ الانساني والمنزل هو الجهاز الوحيد للتربية المقصودة والعشيرة البدائية كانت وحدها تقوم بتربية الأطفال من جميع النواحي العقلية والخلقية والجسمية ، وتهيء لهم ما يلزمهم من وسائل لاعدادهم للحياة . واستمر الحال على هذا الوصف زمناً طويلاً . فعند الرومان كانت الأسرة وحدها تشرف على تنشئة أطفالها وتربيتهم وفق ما تسمح لها نظمها الخاصة ، وليس لأي سلطة من السلطات الحق في التدخل بشؤونها الخاصة . فالمنزل يبذل ما بوسعه من جهود تربوية ولكنها كانت مختلطة بنشاطات أخرى غير مميزة عنها . فالتربية كانت غير مقصودة بذاتها وليس لها منهج معروف تسير عليه .

ثم أخذ المنزل يوجه عناية خاصة لشؤون التربية وذلك بعد أن عرف التدوين والكتابة ، فأخذ الانسان يجمع ما اهتدى اليه السلف من حقائق تربوية في مختلف نواحي الحياة العلمية والأخلاقية والفنية ، فانضم الى وظائف المنزل التربوية القديمة وظيفة جديدة هي وظيفة التعليم بمعناه المدرسي . كان يقوم بهذه الوظيفة كبار أفراد الاسرة والأقرباء من العشيرة حيال أطفالهم ، فكل بيت رغب في تعليم أطفاله جعل من المنزل مدرسة خاصة . ولما أشرق نور الاسلام أحدث تغييراً هائلاً في جميع نواحي الحياة الاجتماعية والدينية والسياسية والادارية والتربوية .

عني الاسلام بتربية الجيل عناية فائقة فحث المسلمين على التعليم حتى يتمكنوا من الاطلاع على مصادر المعرفة ومجالات الثقافة من أجل رفع مستواهم وتحسين سبل حياتهم ، لأن الشخصية الانسانية لا يقومها ولا يرقيها الا العلم .

قال تعالى مصرحاً بأن العلماءلهم درجاتعندربهم وميزات يخصهم بها : ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾(16) . وقد ساوى الله شهادة العلماء بشهادة الملائكة فقال سبحانه : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط ﴾(17) .

ولم يكتف الاسلام بهذه الدعوة الى العلم ، بل قرر أصولاً تمنع من الجمود العقلي وتحمي من التحجر الفكري ، فكان دين الحجة والبرهان ، فلا يقول عن شيء انه حق إلا

---

(15) تاريخ الحضارة الاسلامية للدكتور أبو زيد شلبي ص 64 .

(16) المجادلة الآية 11 .

(17) آل عمران الآية 18 .

إذا قام عليه البرهان اليقيني القاطع . قال تعالى : ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم ، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾(18) .

قانون الوراثة في الاسلام

عرفوا الوراثة بأنها ميل طبيعي في الفرع لمشابهة الأصل في تكوينه الجسماني ، وفي وظائف أعضائه .

والتحليل العلمي للوراثة هو أن الانسان في بدء حياته وتكوينه إنما هو خلية صغيرة هي أعجب ما في الكون ، ومن أغمض الأسرار وأدقها . وهي تدل على عظيم قدرة الله خالق الكون بما فيه ومن فيه . وهي تحصل من إخصاب خليتين البويضة والحيوان المنوي . وعندما تتحد هاتان الخليتان تنتجان نواة إنسان جديد ، وفي هذه الخلية تنطبع جميع الصفات والمميزات من حيث الجنس والشكل واللون . . . فالوراثة إذن هي مجموعة المميزات التي تتركز في البويضة المخصبة . وقد وصف الله تعالى في كتابه العزيز هذه العملية بكل تطوراتها مفصلاً تكوين الجنين في الرحم :

﴿ لقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾(19) .

وقد اكتشف الاسلام قانون الوراثة قبل علماء النفس والوراثة ، ودلّل على آثارها ومميزاتها ، فوجد أنها تؤثر أثراً ذاتياً في الفرد منذ بداية تكوينه ، إن من حيث التكوين الجسدي أو الصفات والنزعات والعقائد . قال تعالى عن انتقال عقائد الكفار الى أبنائهم : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديّارا ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا ﴾(20) .

وأثر عن النبي ﷺ أنه قال : » الشقي شقي في بطن أمه والسعيد سعيد في بطن أمه . . «(21) .

فالعوامل الوراثية تمنح الطفل ، قبل أن يولد ، الشقاء إن كانت طباع آبائه شريرة ، أو السعادة إن توفرت الصفات الفاضلة في طباعهم . فالوراثة كما لا يخفى ، تنقل أدق الصفات وأعمقها إلى الأبناء . لذلك اهتم الاسلام كثيراً بأحكام الوراثة وشدد عليها لما لها من تأثير في طباع ونفوس وأفكار الأجيال الناشئة . فالبذار الجيد يعطي ثماراً جيدة إذا توفرت له العناية اللازمة ، والبذار الرديء يعطي ثماراً رديئة مهما بذلنا من جهد وعناية في زراعته . ونذكر بتعريف الوراثة الذي يقول : » إنها مشابهة الفرع لأصله « .

من اهتمامات الاسلام بالوراثة نذكر :

(18) البقرة الآية 111 .
(19) المؤمنون الآية 12 -13 -14 .
(20) نوح الآية 26 .
(21) البحار ج 3 ص 43 .

1 ـ التعرف على المرأة قبل الزواج

طلب الاسلام من الرجل الذي يريد الحياة الزوجية أن يتعرف على المرأة قبل الزواج ، فيبحث في شؤونها وشؤون أسرتها حذراً من أن يكونوا مصابين ببعض العاهات ، أو الأمراض ، التي تنتقل من الوالدين الى الأولاد . خطب رسول الله ﷺ بين أصحابه مؤكداً لهم التبصر بأحوال المرأة فقال : أيها الناس إياكم وخضراء الدمن » فسأله القوم :

يا رسول الله ، وما خضراء الدمن ؟ قال ﷺ : المرأة الحسناء في منبت السوء »[22] كما أثر عنه الكثير من هذه الأحاديث منها : « إنكحوا الأكفاء ، وانكحوا فيهم واختاروا لنطفكم » وقال في حديث آخر : « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس »[23] .

وأئمة أهل البيت وهم المدرسة الخيرة الغنية ، اهتموا اهتماماً بالغاً وأولوا الوراثة المزيد من العناية . قال الامام الصادق ﷺ لبعض من استشاره في الزواج : « أنظر أين تضع نفسك ، ومن تشركه في مالك ، وتطلعه على دينك وسرك فإن كنت لا بد فاعلاً فبكراً تنسب الى الخير وإلى حسن الخلق »[24] وحفاظاً على الأسرة النظيفة وصيانتها من التدهور الأخلاقي حذر من الزواج بالمرأة الحمقاء . روى الامام أبو عبد الله عن جده أمير المؤمنين عليهما السلام أنه قال : « إياكم وتزويج الحمقاء فإن صحبتها بلاء وولدها ضياع »[25] .

2 ـ تعرف المرأة على الرجل قبل الزواج

وللمرأة الحق في التعرف على الرجل الذي تريده أن يكون شريك حياتها قبل الزواج . وذلك حذراً من أن يكون مصاباً ببعض الأمراض والعاهات أو عنده انحراف في سلوكه ، وهنا تقع مسؤولية التقرير على عاتق ولي أمرها ، فهو أخبر وأدرى بصفات من سوف يصبح صهره ، فعليه أن يستقصي أخباره من معاشريه يقول المثل : عاشر التقي تتقى وعاشر الشقي تشقى . روى الامام الرضي عن آبائه عن رسول الله ﷺ قال : « النكاح رق، فإذا نكح أحدكم وليدة فقد أرقها ، فلينظر أحدكم لمن يرق كريمته »[26] .

وقد كره الاسلام أن تتزوج المرأة برجل سيء الخلق فظ الطباع ، لأن ذلك يسري إلى أبنائها منه . روى عن أبي الحسن الرضا (ع) سأله رجل قال : لي قرابة قد خطب إلي وفي خلقه سوء أجابه الرضا : « لا تزوجه إن كان سيء الخلق »[27] .

كما حذر المسلم من تزويج المرأة برجل مدمن على شرب الخمر . قال رسول الله ﷺ : « شارب الخمر لا يزوج إذا خطب »[28] .

---

(22) وسائل الشيعة ج 14 . ص 29 والمجازات النبوية للشريف الرضي .
(23) المصدر نفسه .
(24) المصدر نفسه ج 14 ص 14 .
(25) الكافي ج 2 ص 13 .
(26) وسائل الشيعة ج 14 ص 52 .
(27) من لا يحضره الفقيه ج 2 ص 131 .
(28) الكافي ح 2 ص 11 .

وقال الامام الصادق (ع) : « من زوَّج كريمته من شارب خمر فقد قطع رحمها »[29] وقد سألت بعض الأطباء عن تأثير الخمور بنقل الوراثة الى الأبناء . فأجابني : الإدمان على الخمرة من مسببات العقم . ويعود السبب في ذلك إلى ضعف مركز الصلب ، وتنبه مركز المخ ، والشخص المتسمم به تنتقل سمومه وعلله إلى ذريته . وذكر لي أيضاً : إن من يولد من أبوين مدمنين فإنه يحمل آثار الضعف البنيوي، ويكون عرضة للاصابة باضطرابات خطيرة قد تنتهي به الى الشلل العام ، أو العقم ، أو العته . وفوق هذا كله ، فإن ذرية المدمنين قد تصاب بتشوهات مؤلمة كعدم تساوي الجمجمة ، أو قصر القامة ، أو تأخير في نمو القوى العقلية كضعف الذاكرة ، أو البله ، وربما الهستيريا أو غير ذلك من العلل النفسية ، لذلك كله حرم الاسلام تزويج المدمن نظراً لهذه الأخطار المترتبة على زواجه . فيصاب هو ، وتصاب ذريته وتصاب الأمة والنوع الانساني .

3 ـ الخيار لكل من الزوجين في فسخ عقد الزواج

أعطى الاسلام الخيار لكل من الزوجين في فسخ عقد الزواج فيما إذا ظهر أحدهما مصاباً بعاهة جسمية نص عليها الفقهاء ، أو شذوذ فكري كما يحصل أحياناً في أيامنا هذه ، عند ذلك يحق للطرف الآخر الحق في فسخ العقد ، والتخلي عنه . قال الامام الصادق (ع) :

« إنما يرد النكاح من البرص والجذام والجنون »[30] .

فصيانة للمجتمع الاسلامي أعطى الاسلام الحق لكل من الزوجين في فسخ عقد الزواج خوفاً من أن ينشأ جيل ملوث بهذه الأمراض المؤدية الى تأخير وضعف الكيان الاسلامي . وقد أقر الفقهاء المسلمون ما أوصت به منظمات الصحة العالمية من فحص دم الرجل والمرأة قبل اقترانهما ، حذراً من أن يكون أحدهما مصاباً ببعض الأمراض الجنسية ، كالسيلان الذي يسبب في كثير من الأحيان عمى الطفل حين ولادته ، أو السفلس أو غيرها من الأمراض الزهرية التي سببتها الفوضى الجنسية . حيث تنتقل كل هذه الأمراض الى الأبناء المساكين الذين جنى عليهم جهل آبائهم فعاشوا في شقاء وحرمان من الحياة السعيدة .

---

(29) المصدر السابق .

(30) وسائل الشيعة ج 14 ص 594

الفصل الثاني
الأسرة في الاسلام

من الزواج كانت الأسرة[1] وهي الركن الأساسي في بناء الكيان التربوي والبذرة الأولى في تكوين النمو الفردي وبناء الشخصية . فالطفل في أكثر أحواله مقلد لأبويه في سلوكهم وعاداتهم . والأسرة لها الأثر الهام في سلوك الطفل الفردي وبعث الحياة والطمأنينة في نفسه فمنها يتعلم اللغة ويكسب القيم ، ومنها يكسب سلوكه واتجاهاته في مجالات الحياة . ولها الفضل الأول في تعلم الطفل أصول الاجتماع وقواعد الآداب والأخلاق . لذلك كله اهتم الاسلام بالاسرة اهتماماً بالغاً وأولاها العناية الفائقة لأنها اللبنة الأولى في تكوين المجتمع . فاعطني أسرة سعيدة وخذ وطناً سعيداً .

وضع الاسلام نظاماً عادلاً متوازناً للأسرة ، مبنياً على أسس سليمة تتفق مع ضرورة الحياة الانسانية الكريمة ، وتتناسب مع حاجات الناس الضرورية وسلوكهم السليم . وقد أكد الاسلام أن الغريزة العائلية هي من الغرائز الذاتية التي منحها الله للانسان . قال تعالى :

﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾[2] فالله عز وجل فطر الانسان منذ تكوينه على الحياة السعيدة في الأسرة التي تربط بينها ميثاقاً غليظاً من المودة والرحمة .

إن إشاعة الود والعطف بين أفراد الأسرة الواحدة يترك عليها ظلاً ظليلاً من الطمأنينة التي تؤثر أثراً هاماً في تكوين أفرادها تكويناً سليماً . فإذا لم يرع الآباء ذلك فإن أطفالهم يصابون بعقد نفسية تسبب لهم الكثير من المشاكل في حياتهم حيث لا تثمر عندها وسائل النصح والارشاد . وقد ثبت في علم النفس أن أشد العقد التي تصيب الأطفال وأخطرها ، هي في مرحلة الطفولة الباكرة من صلة الطفل بأبويه ، كما أن تفاهم الأسرة وإرخاء روابط المودة فيما بينها يساعد كثيراً على نموه الفكري وازدهار شخصيته[3] .

وأمر آخر ، بالاضافة الى المودة والرحمة جدير بالاهتمام ، هو أن الاسلام سعى إلى

---

(1) الاسرة في علم الاجتماع رابطة اجتماعية تتكون من زوج وزوجة وأطفالهما وتشمل الجدود والأحفاد والأخوال وبعض الأقارب على أن يكونوا مشتركين في عيشة واحدة . والزواج الذي لا تصحبه ذرية لا يكون أسرة . (راجع الأسرة والمجتمع للدكتور علي عبد الواحد وافي) .

(2) الروم الآية 20 .

(3) الأمراض النفسية والعقلية لابن عربي .

جعل الأسرة المسلمة قدوة حسنة تتوفر فيها كل عناصر القيادة الرشيدة . وقد وصف الله تعالى عباده الصالحين فقال سبحانه :

﴿ والـذين يقولـون ربنـا هب لنـا من أزواجنـا وذريـاتنـا قـرة أعـين واجعلنـا للمتقـين إماماً ﴾(4) .

وقد ألمحنا في بحث الوراثة واهتمـام الاسلام البـالغ بـالرابـطة الزوجيـة التي تقوم عـلى الفحص والاختبار ، حذراً من أن يكون أحد الـزوجين مصـاباً ببعض العـاهات فتسـري الى الأبناء ، أعضاء المجتمع الانساني . لذلك حذر الاسلام الزوج لكي يختار الزوجة الصـالحة ، التي منها ذريته ، ترضعهم الصلاح أو الشقاء مع حليبها الطفولي ، ويبتلي منهـا بذريـة طالحـة يشقى الـوالد المخـدوع ويشقى بهم المجتمـع . ومن الـطبيعي أنـه لا يحسن اختيـار الـزوجـة الصالحة له التي لا تعلم من الحياة الا قشورها . فتبدي له الحديث المصطنع والوعـود الخلابـة بمـا تنمقه من رسـائل الغـرام ومعسول الكـلام ، أو ما تبـديـه من حسن الصـورة والتجميـل والتـزيين بـالأزياء المغـرية . وهـو بصـورة جـازمـة لم يـطلع بعـد عـلى مكـر الحيـاة ، وخبث العاشقات ، وكيد الفاسقـات الخائنـات ، ولعله نسي القول العـظيم : كن من خيارهن عـلى حذر . أو انه لم يفقه أن الزواج السعيد الذي يحقق أحلامه وآماله إنما يكون إذا اقتـرن بامـرأة شريفة النفس كريمة الخلق ، صادقة الايمان ، ينجب منها الذرية الطيبة التي تكون قرة عـين له في حال شيخوخته . وهذا ما يريـده الاسلام ومـا أمرنـا أن نحذره ونحتـاط من أجله « إياكم وخضراء الدمن » .

إن نظام الأسرة الذي سنه الاسلام ، يقوم على أساس متين من الوعي وكـل ما تسعـد بـه الأسرة ويؤدي إلى تمـاسكهـا وتـرابـطهـا من جميـع النـواحي : الأخـلاقيـة ، والنفسيـة ، والفزيولوجية ، والاجتماعية ، بحيث ينعم كل فرد منهـا بالـطمأنينـة والسعادة ويجـد في ظلال أسرته الاسلامية المؤمنة ظلال الرأفة ومتعة الحنان وطيب الدعة ولذة الاستقرار .

وقد سبق الاسلام علماء النفس أشواطاً بعيدة في هذا المجال . جاء في التـربية الجنسيـة (لسير ل. بين) قوله : « لا يقوم الزواج المثالي حقاً على توافق الشهوة فقط ، وإنما يقـوم على اتحاد غير شهواني ، أساسه مودة عميقة تتوثق على مر الأيام وتشمل شتى نواحي الحياة ، وهـو إتفاق الأذواق والمشاعر والميول ، وهو إتفاق عـلى الحياة المشتـركة ، بمـا قد تستلزمـه من أعباء الأبوة » وهذا بلا ريب ما نشده الاسلام في الرابطة الجنسية لتكون مثـالية طـاهرة ، تقـوم على أساس وثيق من الحب الصحيح والتفاهم العميق حتى تؤدي العمليات التـربويـة الناجحـة في تكوين مجتمع سليم .

أما إذا كان الرابط مادياً فقط ، طمعاً بثروة كبيرة أو لقب كبير ، فإن الـزواج فاشـل لا محـالة ولا يعمـر طويـلاً ، ومن الأوفق عدم إنجـاب أطفال يكـونون عـالة عـلى أنفسهم وعلى أهلهم وعلى مجتمعهم . ويكون عندها التسيب والانحلال .

(4) الفرقان الآية 74 .

قال أمير الشعراء شوقي رحمه الله :

ليس اليتيم من انتهى أبواه من هَمّ الحياة وخلفاه ذليلا
إن اليتيم هو الذي تلقى له أماً تخلت أو أباً مشغولا

لقد شرع الاسلام المناهج الشاملة الهادفة الى إصلاح الأسرة وازدهارها وسعادتها ، فوضع آداباً مشتركة بين أعضاء الأسرة الواحدة ، وجعل لكل عضو فيها واجبات ومسؤوليات اتجاه الآخرين ، مما دعاهم الى الترابط الوثيق والتماسك الايجابي في سعادة ونعيم ، دعاهم الى : المودة والتآلف ، والى التعاون فيما بينهم ، والى الاحترام المتبادل ومراعاة الآداب .

مسؤوليات الأب وواجباته

الأب هو رب البيت وعليه يترتب مسؤوليات هامة اتجاه أسرته . من واجباته تقديم جميع مستلزمات الحياة المادية ، من مأكل وكسوة وتعليم . ومن جانب آخر أهم مما ذكرنا ، الأب مسؤول عن تربية أطفاله وتهذيبهم وتوجيههم الوجهة الصالحة ، وتعويدهم العادات الطيبة ، ليكونوا قرة عين له في مستقبله . ولنا بأئمة أهل البيت عليهم السلام المثل الصائب والصادق . يقول الامام علي (ع) المربي الأول في الاسلام بعد النبي ﷺ الى ولده الحسن (ع) :

« وجدتك بعضي ، بل وجدتك كلي حتى كأن شيئاً لو أصابك أصابني ، وكأن الموت لو أتاك أتاني ، فعناني من أمرك ما يعنيني من أمر نفسي » .

فعندما يكون الابن هو الأب نفسه يحكي وجوده وكيانه ، فعليه أن يهتم بشؤونه التربوية لأنه فخر وزين له .

على الأب أن يولي أبناءه المزيد من الاهتمام ، فيغدق عليهم العطف والحنان ، ويكرمهم أمام الغير ليقوي لهم شخصيتهم ، ويصبحوا من أروع أمثلة التكامل . من هنا كان المثل القائل : الولد سر أبيه . وعلى هذا الأساس كان النبي ﷺ يرعى سبطيه وريحانيته الحسن والحسين ويقول لهما : « هذان ريحانتي من الدنيا ، من أحبني فليحبهما »[5] .

النبي ﷺ المربي الأول والعظيم في الاسلام ، سكب في نفس الحسن والحسين (ع) عاطفته النبيلة ، ونزعته الرحيمة حتى صار بحكم تربيته مثلاً يحتذى بسيرتهما الندية التي تمثل كل مظاهر العظمة والاعتزاز في تاريخ التربية الانسانية على مر العصور . فسمو في الذات وسمو في الخلق والخلق وهدي في دروب الخير والحق والصلاح .

هذه المعاملة اللطيفة التي تفيض بالعطف والحنان تقوي شخصية الطفل وتبعده عن العقد النفسية العقيمة . وقد أكد علماء النفس أن رجال العلم العظماء الصالحين يأتون من أسر تعنى بالأطفال . كما ذكروا أن المنبوذين من الأبناء ، والذين يبدون سلوكاً عدوانياً يكونون من أسر لا تهتم بتربية الأطفال وليس في قلوبهم محبة ورحمة .

---

(5) حياة الامام الحسن ج 1 ص 83 .

روي أن الأقرع بن حابس لما رأى شدة إقبال النبي ﷺ على حفيديه قال له : « إن لي عشرة من الأولاد ، ما قبلت واحداً منهم » فغاظ ذلك النبي وقال له: «ماعلي إن نزع الله الرحمة منك »[6] .

ورد في علم النفس التربوي عن سبب سلوك الطفل الاجرامي ومظاهر النبذ والتمرد فعددها :

1 ـ القسوة في المعاملة وأخذ الطفل بالشدة المسرفة .
2 ـ نقد الطفل نقداً مستمراً وكشف معايبه أمام الغير .
3 ـ استعمال العقاب البدني القاسي .
4 ـ إهمال الطفل واتهامه دائماً .
5 ـ عدم ذكر ما يقوم به من أعمال خيرة .
6 ـ مراعاة العدالة في معاملة الأخوة .
7 ـ إبداء الدهشة والاستغراب إذا ذكره بعض الناس بخير[7] .

فعلى الآباء جميعاً الابتعاد عن هذه الطرق الملتوية في معاملة أبنائهم ، فلذات أكبادهم خوفاً من الشذوذ والانحراف ، وحفاظاً على سلوكهم ليكونوا أعضاء صالحين في مجتمع صالح ، كما نذكر أن التنبه لمثل هذه الأمور بعد فوات الأوان يفقد فعاليته ويصبح بلا جدوى . قال أحد الشعراء :

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ولا يلين إذا قومته الخشب

المساواة بين الأبناء

إن تميز الأب لأحد أولاده على الأفراد الباقين يثير في نفوسهم الغيرة والبغضاء ، ويؤدي الى نشوب ثورات انفعالية تحملهم الى الوقوع بالعقد النفسية والأمراض العصبية الخطيرة . فعلى الأب أن يغمر أولاده جميعاً بالحب والحنان والعطف والرعاية ، وإذا ما وجد بين أولاده من يتميز بالأخلاق الحسنة والاطاعة والسلوك الايجابي فعليه أن يحتفظ بذلك سراً بينه وبين نفسه ، ولا يصرح به أمام الجميع حتى لا يكون طرفاً بين أطفاله . روى عن الرسول ﷺ أنه رأى رجلاً له ابنان فقبل أحدهما وترك الآخر ، فنهره ﷺ وقال له : « هلاّ ساويت بينهما »[8] .

وقصة يوسف في القرآن الكريم مشهورة حينما آثره أبوه يعقوب على أبنائه الباقين ، فحقدوا على أخيهم وألقوه في الجب ، ثم رجعوا عند المساء الى أبيهم يبكون ، فحزن يعقوب على يوسف حزناً ما بعده حزن ، حتى ابيضت عيناه من البكاء والحزن . كل ذلك سببه الاثرة والتمييز .

﴿ إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين ﴾

---

(6) مكارم الأخلاق للقرسي ج 1 ص 252 .
(7) راجع علم النفس التربوي لزكي صالح ج 3 ص 100 .
(8) مكارم الأخلاق للطبرسي ج 1 ص 252 .

﴿ وجاءوا أباهم عشاء يبكون ﴾ ﴿ قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ﴾[9] .

فعلى الآباء أن يعدلوا بين أبنائهم ولا يؤثروا واحداً على الآخر ليجنبوهم داء الحقد والانتقام والغيرة التي تنخر في كيانهم النفسي وتؤدي بهم الى المهالك التي لا تحمد عقباها .

مراقبة سلوك الأبناء

على الآباء مراقبة أبنائهم في كل حركاتهم وتصرفاتهم ، لأن الجرائم الأخلاقية التي تصدر عن الأحداث كثيراً ما تنشأ من إهمال أهلهم لهم لما يصدر عنهم من شذوذ وانحراف . وأمر طبيعي أن الطفل الذي لم يكتمل وعيه ، فإنه حينما يرتكب القبيح ، ويرى غض النظر عنه ، فإنه لا بد أن يتمادى في الشر حتى ينطبع في نفسه ويصبح عادة من عاداته .

ولقد حث الاسلام على مصاحبة الأبناء في سنهم المبكر ، ومراقبة سلوكهم خاصة في سنوات الدراسة في المعاهد والكليات . لأن الفتى أو الفتاة قد يخدعون في اختيار الأصحاب ، فيتعلمون منهم العادات السيئة التي تؤذي صحتهم كما تؤذي سمعتهم ، فيخسرون في الدنيا والآخرة على حد سواء . فالأب مسؤول أمام الله وأمام الناس عن تصرفات أبنائه . الولد صفحة بيضاء ، يولد على الفطرة ، وهو قابل لأن يكتب عليها كل نقش أو صورة ، فإن رافق أهل الخير والتقى تعود على الخير ونشأ عليه ، وان رافق أهل الشر والشقاء تعود على الشر وفسدت به نفسه .

ورد عن الغزالي قوله :

« إعلم أن الطريق في رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها ، والصبي أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة خالية عن كل نقش أو صورة وهو قابل لكل ما ينقش ، ومائل إلى كل ما يمال إليه ، فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه ، وسعد في الدنيا والآخرة ، وشاركه في ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدب ، وان عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك وكان الوزر في رقبة القيم عليه ، والوالي له »[10] وقد قال الله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾[11] .

يذكر الغزالي الصبيان وهو يرمي الصبيان والبنات معاً ورأيه هام ومفيد تؤكده البحوث التربوية الحديثة .

اجتناب رديء الكلام

على رب الأسرة وعمادها أن يتجنب رديء الكلام أمام أولاده ويبتعد عن كل ما يخل

---

(9) يوسف الآية 8 و16 و17 .

(10) راجع تاريخ التربية لعبد الله المشنوق ص 82 .

(11) التحريم الآية 6 و7 .

بـالآداب العامـة وكذلـك الأم إذ لها الـدور الأكبر في هـذا المجال ، لأن أول مـا يقلد الأولاد والديهم ، إن خيراً وإن شـراً ، وكلامهـما ينفذ الى أعمـاق قلوبهم . وقد يحـدث بعض المكاره والمشاكل للوالدين نتيجة اختلاف في الآراء والحياة ، فعليهما عند ذلك ضبط الأعصاب وكظم الغضب أمام أولادهم . الوالدان هما المعلمان الأولان ، والبيت هو المدرسة الأولى في الحياة . والمعلم هو القدوة الحسنة في كل تصرفاته وسلوكه . وهنـا نتذكـر قولاً جميـلاً للامـام علي (ع) قال : « أقدر انسان من استطاع ضبط عواطفه عند الفرح أو الغضب » .

فإذا أردنا أن يكون أولادنا قـدوة حسنة علينـا نحن الآباء أن نكـون قدوة حسنـة ونسير سيراً طيباً . وهل يعقل مثلاً أن يطلب الأب من ابنه الصدق في قـوله وتصـرفاتـه ويكون هـو كاذباً ! فإنه لا ينصاع لقوله ، وإنما يتبع عمله وسيرته .

تأديب الأبناء

من واجب الأب تـأديب أولاده إذا شذوا عن الـطريق الصحيح أو ارتكبـوا مـا يخـالف التقـاليد الـدينية والاجتمـاعية ، فعليـه عند ذلـك الاسـراع في تـأديبهم ليقلع روح الشـر من نفوسهم قبل أن يعتادوا عليه ويأخذ مجراه .

وقد أكد الاسلام ذلك مراراً . قال رسول الله ﷺ : « لأن يؤدب أحدكم ولده خير لـه من أن يتصدق بنصف صاع كل يوم »(12) .

والعقوبات التي يفرضها الآباء على تأديب أبنائهم تتضمن العقوبات المـادية والعقـوبات النفسية .

فالعقاب المادي يجب أن يكون أكبر من السرور الحادث من ارتكاب الـذنب وعلى الأب أن يتأكد من أن الألم الناتج منه أكبر من السرور المشتق من ارتكاب الذنب . وزيادة على ذلك يجب أن يأتي العقاب مباشرة بعد وقوع الخطأ . ومن الأخطاء التي يـرتكبها بعض الآبـاء شدة انفعالهم أثناء العقاب وايقاعه بصورة انتقامية لا بصـورة إصلاحيـة ، لأن هذا يسبب كـراهية بين الوالد والولد . ومن الخطأ أيضاً تهديد الطفـل بعقوبـة إذا اقترف ذنبـاً ما ثم عـدم التنفيذ بعد وقوع الذنب . هذا التصرف يضعف من سلطة الوالد ويقلل من قيمة تهديداته وأقواله في نظر الطفل . كما له تأثير سلبي في نفس الطفـل إن في اتجاه الضعف أو في اتجـاه العنف ، لأن مثال القوة الذي يحتذيه الطفل قد أصبح واهناً في نظره .

أمـا اعتماد العقـوبات البدنية التي يلجـأ اليها الآبـاء والمدرسـون فنتائجهـا الـظاهـريـة سريعة ، قد تخدع الـوالد أو المـدرس بكفايتهـا . ولكن النظريـات الحديثـة عند علماء النفس والتربية تنصح بعدم اللجوء الى هذا النوع من العقوبات البدنية ومن الأفضل تركها عند الأهل والمدرسين معاً .

والضـرب الثاني من العقـوبات هي العقـوبات النفسيـة ، وكثيـراً مـا تكـون أقسى من العقوبات البدنية . لذلك لا يجوز تكرارها كأن نوبخ الطفل ونـذكره بخـطئه يـوماً بعـد يوم .

---

(12) مكارم الأخلاق للطبرسي ج 1 ص 270

وإذا استعملنا التوبيخ مرات عديدة ماذا يحصل ؟ بعد فترة وجيزة يشعر الطفل بالذنب فيتألم .

وفي المرحلة الثانية يتضايق فيكره ويحقد على مصدر التوبيخ ، وبزيادة التكرار تأتي مرحلة عدم الاكتراث ، فلا يعير التوبيخ أي اهتمام بعد ذلك وبعض الآباء يطلبون من أبنائهم الاعتذار مباشرة بعد توقيع العقاب عليهم ، هذا الأسلوب يرفضه علماء النفس ، لأن فيه إذلالاً وعدم اعتبار لما يجب إنماؤه في الأطفال من الشعور بالكرامة وعزة النفس .

والطريقة المثلى التي ينصح باتباعها المربون في تربية الأطفال هي اعتمادهم سياسة ثابتة . فإذا أظهروا مثلاً في وقت أنهم يرفضون سلوكاً معيناً عند أبنائهم ، فلا يجوز لهم التراجع عن موقفهم والتذبذب بين رأي وآخر . ونعطي مثلاً واقعياً . فافرض أن طفلاً ما صدر منه لفظ بذيء فلا يجوز لأهله أن يضحكوا منه مرة ، وإذا تكرر منه اللفظ يعاقبونه عليه . عندها يضيع الطفل ولم يعد يعرف مدى الخطأ والصواب .

فكيف بنا إذا نحن علمنا أطفالنا اللفظ ببعض الكلمات النابية وخاصة في مرحله تعلمهم اللغة ، فماذا يحدث ؟ لقد سمعتها مراراً من أهل جاهلين يستلطفون تلفظ ابنهم المدلل بمثل هذه الألفاظ . ثم يعودون في مجال آخر فيضربونه أمام الناس للخطأ عينه .

إن هذا التذبذب في التربية وتغيير المواقف يخلق في الطفل قلقاً واضطراباً وضعف عزيمة . وهناك الكثير من الانهيار العصبي عند الشبان يرجع سببه الى هذا النوع من السياسة التربوية : عدم اتخاذ موقف ثابت .

تعويد الطفل على تناول الحلال

على الأب أن يعوّد أطفاله منذ نعومة أظفارهم على تناول الحلال وإبعادهم عما حرمه الله في كتابه الكريم وفي سنته الشريفة . كأخذ شيء ليس لهم وأكلهم الطعام النجس ، كلحم الخنزير وغيره من المحرمات المنصوص عنها في كتب الفقه والتي ذكرها فقهاء المسلمين في رسائلهم العملية .

لقد شدد الاسلام على كل هذه الأشياء المحرمة لأنها تعيق نمو الطفل وتضعف شخصيته وتؤثر في نفسه تأثيراً سيئاً ، فألزمنا نحن الآباء بإبعاد أطفالنا عن الغذاء الحرام ، وقد روي عن الرسول ﷺ :

أنه رأى سبطه الحسن (ع) ياخذ ثمرة من ثمر الصدقة وكان طفلاً ، فزجره وقال له : « إرم بها أما علمت أنا لا نأكل الصدقة »[13] .

كما روى أيضاً عن حفيدة الرسول ﷺ السيدة أم كلثوم ، بعد موقعة كربلاء حملت عيال الامام الحسين (ع) الى الكوفة ، فانبرى أحد الكوفيين وناول أطفال الإمام بعضاً من التمر والجوز متصدقاً بها عليهم ، عندها زجرتهم حفيدة الرسول ﷺ وعرفتهم أنها صدقة وهي محرمة على أهل البيت . فرماها الصبية للحال . فانظر هذا السلوك النير المستقيم في ميادين التربية عند أهل البيت الذين لم يعرف التاريخ مثيلاً لهم من نزاهة في السلوك ، وعفة في الأعمال ، وصدق في الأقوال ، وسمو في الغاية والقصد .

---

(13) رياض الصالحين ص 147 .

إبعاد الأطفال عن العملية الجنسية

لم يترك الاسلام أمراً صغيراً أو كبيراً يضر بأطفالنا إلا نهانا عنه .. فقد أمرنا أن نبعد أطفالنا عن المكان الذي يغشى فيه الرجل زوجته . فلا يجوز للطفل أن يرى أو يسمع ماذا يحدث في ذلك المكان . لأنه يوجب تهيج الشهوة عندهم ، وتعويدهم ميادين الدعارة والفجور . وهذا ما يحدث في البيوت الضيقة ، حيث تسكن عائلة مؤلفة من كذا نفس ، فيهم البنات والصبيان ، فينام الجميع مع أهلهم في غرفة واحدة . هذا مرفوض أبداً في الاسلام والتربية الحديثة . قال الامام الصادق (ع) : « لا يجامع الرجل امرأته أو جاريته وفي البيت صبي ، فإن ذلك مما يورث الزنا »(14) .

وقال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده لو أن رجلاً غشي امرأته وفي البيت صبي مستيقظاً يراهما ، ويسمع كلامهما ، ونفسهما ، ما أفلح أبداً إن كان غلاماً كان زانياً أو جارية كانت زانية »(15) .

وما نهى عنه أهل البيت ينهى عنه علماء التربية اليوم ، وهو أمر لا يحتاج الى نقاش ، لأن حلال محمد ﷺ حلال الى يوم القيامة وحرامه حرام الى يوم القيامة .

أكد علماء التربية إبعاد الأطفال عن أهلهم أثناء العملية الجنسية ، لأن في ذلك صيانة لهم من الانحراف والشذوذ . ولما لم تعن التربية الغربية بذلك انزلق أبناؤها الى الانحلال الأخلاقي وسائر المشكلات الجنسية ، وتدهور العلاقات الاجتماعية . ورد في كتاب التربية الجنسية .

« ما دامت الناحية الجنسية موجودة عند الجميع حتى عند الأطفال منذ مولدهم ولو بقيت في حال الكمون حتى سن البلوغ فمن المهم أن تتفادى الاتيان بأي عمل قد يستثيرها قبل أوانها ، وثمة آباء لا يرون ابعاد الطفل عن الحجرة عندما يخلعون ملابسهم ولكنهم يتمادون في هذا السبيل ، ويظنون أن واجبهم يحتم عليهم باعتبارهم من التقدمين المجددين (أو المثقفين) أن يوفوا الغرض لكي نراهم عراة ولكن متى تكررت رؤية الطفل فإنها عن قريب تولد بدورها اهتماماً زائداً بخصائصه في نفسيته »(16) .

إن نفسية الطفل سريعة التأثر بما يراه ، لذلك كان من الضروري إبعاده عن كل ما يثير الشهوات ويقلق نفسيته باكراً قبل أوانها .

يجب على الآباء أن يعنوا بالخبرات الجنسية الأولى للطفل لتكون صحية وصحيحة ما أمكن كما عليهم أن يجيبوا على أسئلة الطفل إجابات صحيحة وصريحة بروح علمية خالصة . وإذا امتنعوا عن الاجابة فإن الأطفال يحصلون على هذه المعلومات من رفاقهم أو من الخدام أو السوقة الأشرار .

---

(14) وسائل الشيعة ج 7 ص 95 .

(15) الكافي ج 2 ص 85 .

(16) التربية الجنسية للسيد لد بين ص 55 .

وسـواء أكانت هـذه الأسئلة متصلة بـالعـالم المـادي أو الاجتمـاعي ، أم كـانت متصلة بجسمـه ووظائفـه والفروق بـين جسمه وجسم غيـره من الانسان والحيـوان ، فعلى الآبـاء أن يكون موقفهم من أطفالهم واضحاً وثابتاً .

مسؤوليات الأم وواجباتها

قال العلماء : الدنيا أم ، وقال الشعراء : الأم هي الدنيا . وقال الأدباء واللغويون الأم هي المصدر الأصيل منه تتفرع الفروع والجزئيات . وقالوا عن فاتحة الكتاب هي أم الكتاب . وقال عنها المربون :

الأم هي المدرسة الأولى في بناءشخصية الطفل وإكسابه العادات . أول وجه يراه الطفل ويتأثر به هو وجه الأم . فالأم الصالحة المهذبة المثقفـة تنشىء جيلاً صـالحاً لنفسـه ولمجتمعه . والأم غير الصالحة والجاهلة تخرج جيلاً جاهلاً مصـاباً بـالانحلال الأخـلاقي والسلوك الفاسـد وغير المتزن .

تتحمـل الأم مسؤولية تـربويـة واجتماعيـة وانسانيـة كبيـرة جـداً ، فهي مسؤولـة عن مستقبل الأمة وصلاحها وانطلاقها في ميادين الحضارة . وحضانتها لأطفالها تكوّن اللبنة الأولى في بناء الكيان التربوي الصالح أو الطالح . قال عنها الشاعر

الأم مدرسة إذا أعددتها   أعددت شعباً طيب الأعراق

يكتسب الطفل من أمه قبل الثامنة من عمره الفضائل والطموح والاقدام والاعتماد على النفس في كل ما يقـول وما يعمـل . فهي التي تبني الأسس الأولى لاتجاهـاته وأخـلاقه في سن مبكـرة ، وهذه الأسس التي يكسبهـا يصعب تبديلها فيما بعـد . فإذا اعتـاد الطفـل أن يكون طموحاً ومقداماً ومثابراً في أعماله ، يتقن ما يعمل ، يكون ركناً متيناً في مجتمع متحضر . قال رسول الله ﷺ : « المؤمن هو من إذا عمل عملاً اتقنه » وقد خلقهـا الله بفطرتهـا تمتلك دوافع ذاتية لرعاية الطفل وتربيته .

أودع تعالى في قلبها الصبر الجميل ، والحب العميق في تـربية أطفـالها ، وذلـك بدافـع فطري ذاتي ، وهذا ما أمكن الطفل أن يعيش ويحيا .

والأم أكثر دراية بأخلاق أبنائها ونفسياتهم ، وأبصر من عيرها بـالوسـائل السليمـة التي تجدي فلذات كبدها وتوجههم نحو الخير والصلاح ، وتبعدهم عن الشر والفساد .

وأمر هام أيضاً هو أن الطفل بفطرته يستجيب لأوامر أمه لحـاجته إليهـا في كل أمـوره ، فهي مشكى ضيمه ، ومنفذ رغباته ، ومصدر عطائه .

لذلك نراه يسعى إليها جاهداً لتنفيذ رغباتها وكسب رضاها .

هذه بعض الأمور التي تحمل الأم عبئاً كبيراً ومسؤولية خـطيرة في تنشئـة أطفالهـا تنشئة صالحة واعية .

الأم انسـانة حيـة ووالدة أحيـاء تعلم النشء كيف يمارس منـاشط الحيـاة فكـراً وفعـلاً وقولاً . وكيف يستمتع بمباهجها طرباً وغناءً وحبا .

تعلم ولدها كيف يحقق ذاته ويؤدي رسالته لينتصر في معركة الحياة ويتجاوز مخاوفها من المهد الى اللحد بأمان وثقة وسلام .

الأم الصالحة تاج معقود على جبين الأعمدة وسنابل القمح الغنية ، ومفتاح جنات يتدلى على باب السعادة الكبير .

ماذا أقول في إنسانة تهز السرير بيمينها وتهز العالم بيسارها ؟ ماذا أقول في مولدة حياة وأرواح الجنة تحت أقدامها ؟

سمت الطبيعة بمادتها فأخرجت مباسم الزهر الملونة تفتحاً لمادة التراب وإعلاءً لمعاني الطين .

وسما الله بالانسان فكرمه وجعله خليفته على أرضه مسخراً له قوى الكون بشتى أنواعها وأشكالها .

وسما الانسان بالصخر الصلد فسواه بإرادته وفنه معبداً وقصراً ، وبالحديد فذوبه وصبه وجعله طيراً محلقاً .

وسمت المرأة بالرجل فجعلته يعيش حياة عليا في تاريخ القلب تفيض عن جانبيه السعادة ويرفل في ظلال الحب والطمأنينة .

واجبات الأم

بقدر ما للأم من دور عظيم في صناعة الحياة بقدر ما يترتب عليها مسؤوليات هامة وكثيرة :

1 ـ على الأم أن ترعى سلوك أبنائها ، وتسهر على تربيتهم ، وتزرع في نفوسهم النزعات الكريمة والمثل العليا ، فهم قرة عينها وذخيرة لها في مستقبلها . تعودهم على السلوك الطيب وتشجعهم عليه بجميع طاقاتها .

2 ـ تجنبهم عن العادات السيئة والسلوك العاطل الذي يتنافى مع العقائد الدينية والعادات الاجتماعية ، وتوضح لهم الضرر الناجم لهم ولاسرتهم ولمجتمعهم .

3 ـ على الأم أن تربي بناتها على العفة والطهارة ، وترشدهن الى الطرق الحسنة والعادات الشريفة ، فتحذرهن من الاستهتار وارتداء الملابس الغربية البعيدة عن الحشمة والوقار ، حتى لا يتلوثن بالأخلاق الفاسدة التي داهمت حياة شبابنا وشاباتنا الفكرية والعقائدية .

ولا يخفى أن البنت أطوع لأمها من الصبي وأحرص منه على كسب رضاها لأنها بحاجة ماسة إليها ، فعلى الأم في مثل هذه الحالة أن تروضها على إدارة المنزل وتجعلها تشعر بأعباء الحياة لتؤدي البنت دوراً مشرفاً في الحياة وتكون أماً صالحة لنشء صالح .

4 ـ الأم ربة الأسرة في غياب الأب فعليها أن تشعر أبناءها بمقام أبيهم ودوره الهام في الانفاق على الأسرة والتعب من أجلها ، وعليها أن تظهر له الاحترام والتقدير أمامهم حتى يتسنى له القيام بتأديبهم وإرغامهم على السلوك الحسن .

5 ـ من واجب المرأة الصالحة أن تطيع زوجها وتتجنب كل ما يزعجه ويسيء له لأن ذلك يخلق جواً من الكراهية والبغضاء يؤدي الى اضطراب الأبناء وشعورهم بالمخاوف ، كما يخلق في نفوسهم عقداً نفسية في حياتهم الخاصة . وقد حرم الاسلام على المرأة إغضاب زوجها في كل ما يكره ، وحثها على إرضائه وخلق جو مريح له بعد قضاء يومه في الكد والتحصيل والتعب .

قال رسول الله ﷺ : « ايما امرأة آذت زوجها بلسانها ، لم يقبل الله منها صرفاً ولا عدلاً ولا حسنة ، من عملها حتى ترضيه »[17] .

وقال ﷺ في حديث آخر : « ايما امرأة لم ترفق بزوجها وحملته على ما لا يقدر عليه ، وما لا يطيق منها لم تقبل منها حسنة ، وتلقى الله وهو غضبان »[18] .

6 ـ عليها أن لا تسرف في دلال أطفالها لأن ذلك يفقدها سلطتها عليهم ويخلق مضاعفات سيئة تسيء الى تربية الطفل في مستقبله فيضعف عن تحمل الأمور الصعبة والمشاكل التى تعترضه في مستقبل حياته .

7 ـ على الزوجة أن لا تخفي شيئاً عن زوجها فيما يعود الى أمور أبنائها فلا تستر لهم ذنب ، ولا تموه ما يقترفون من أخطاء ، وواجبها يحتم عليها إخباره عن كل شؤون الأسرة وذلك حتى يقوم بدوره اللازم في تأديب المذنب من أولاده وإرغامهم على السلوك الحسن .

8 ـ عليها أن تراقبهم مراقبة دقيقة مع معاشريهم ورفاقهم ، وخاصة في هذه الأيام التي تعج بالمغريات والفساد من شتى الألوان ، إذ يتأثرون بعادات رفاقهم وينحرفون مع المصابين منهم فيتلوثون بأمراضهم ورذائلهم .

وإني أعرف الكثير من الطلاب الأذكياء والشرفاء انحرفوا عن صوابهم بعد مخالطتهم رفاق سوء ، فتعلموا منهم العادات السيئة كشرب الدخان والخمور والقمار . . . وانجرفوا معهم الى أوحال الحياة ومنكراتها . نسأل أمهاتهم كما نسأل آباءهم أين كانوا ؟ وماذا فعلوا ؟ وهل استطاعوا درء جرثومة الفساد بعد أن استفحل واستشرى ؟

9 ـ على الأم أن تحافظ على عفتها وحسن سلوكها ، فلا تتبرج تبرج الجاهلية الأولى وتخلع حجاب الحياء عنها ، بل عليها أن تحافظ في سيرتها على الآداب الاسلامية لتكون قدوة حسنة لأبنائها لأنهم يتمثلون بها في كل ما تقول وتعمل .

هذه بعض الأمور التي ينبغي للأم مراعاتها وتطبيقها على حياتها الزوجية وبين أفراد أسرتها . وبذلك تكون قد ساهمت في جلب السعادة والراحة لها ولزوجها ، وعاشت عيشة راضية بعيدة عن كل هم وغم .

أجل ان الزوجة الصالحة تسهل أمام زوجها طريق الخير ليجتاز مصاعب الحياة ومتاعبها

---

(17) (18) مكارم الأخلاق ج 1 ص 46 -47 .

وتنظر بالحاظ العطف والفطنة والذكاء ، فتعيره نشاطاً جديداً ودفعاً جديداً . وقد روي عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : « ألا أخبركم بنسائكم في الجنة ؟ قلنا بلى يا رسول الله . قال : كل ودود . . . ولود . . . إذا غضبت أو أسيء إليها أو غضب زوجها لحق . . . قالت : هذه يدي في يدك لا أكتحل بغمض حتى ترضى . . »[19] .

واجبات الأبناء

الاسلام العادل المتكامل فرض على الآباء مسؤوليات وواجبات ، وفرض لهم حقوقاً بالمقابل تحفظهم . فقد أوجب عليهم الانفاق وأوجب على الأبناء طاعتهم المطلقة . فعلى الابن المسلم أن يعامل والديه بالرفق والاحسان ويقدم لهما كل ما يملك من طاقات الخدمة ، فيسخر نفسه للعمل بكل ما يرضيهما ويسعدهما ، ويرضى الله الرحمن الرحيم . قال تعالى في عدة آيات مشرقات بلزوم الاحسان والبر للوالدين منها :

﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحسانا إما يبلغنَّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍ ، ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ﴾[20] .

وانظر معي هذا النهج الانساني العظيم الذي يمثل أصالة الاسلام في تربيته وتعاليمه ، لقد قرن سبحانه وتعالى الاحسان للأبوين وطاعتهما بعبادته وطاعاته .

وانظر معي هذه الصياغة الأدبية الساحرة في التعبير ، فأي خطابة وأي شعر ، وأي كلام ، وأي سحر ، وأي أداء ! لقد أكد رب العالمين :

« إن من البيان لسحرا » بيان يأخذ بألبابنا فنسحر أمام وقعه وتأثيره وروعة أسلوبه . ﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾ إنه التعبير المعجزة الذي تقف عنده أقلام البلغاء والأدباء والشعراء وأرباب البلاغة والبيان ! خاشعة مستلهمة . ونعود الى دلالة الآية الكريمة التي تطلب من الأبناء أن يسخروا أنفسهم للعمل بما يرضي والديهما ، وما يشيع في نفوسهما روح الرضى والقبول . فليس لهم أن يتفوهوا بكلمة يرشح منها السأم أو الضجر ، وبصورة خاصة عندما يبلغان سن العجز والشيخوخة ، ويعجزان عن القيام بشؤونهما ، كما كانت حالة الأبناء في أول خروجهم الى الدنيا . فكم تعب الوالدان وكم ضحيا وسهرا من أجل راحة أبنائهم . فرد الجميل بمثله أو أفضل منه واجب انساني أمر به الاسلام دين العدالة والسماحة والصلاح . فإنه أكد على الأبناء خدمة الوالدين ورعايتهما ، وعليهم أن يخفضوا جناح الذل والتواضع والرفق ، ويدعوا لهما بكل ألوان الاكبار والتكريم .

روي عن أبي ولاد الحناط قال : « سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجل : ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ ما هذا الاحسان ؟ فقال : الاحسان أن تحسن صحبتهما وان لا تكلفهما ان يسألاك شيئاً مما يحتاجان إليه ، وإن كانا مستغنيين[21] . أليس يقول الله عز

(19) الترغيب والترهيب للمنذري .

(20) الاسراء الآية 23 و24 .

(21) أصول الكافي للكليني ج 2 (وإن كانا مستغنيين) : أي يمكنهما تحصيل ما احتاجا إليه .

وجل : ﴿ لا تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ ثم قال أبو عبد الله (ع) : وأما قول الله عزّ وجل : ﴿ إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما ﴾ قال :

إن أضجراك فلا تقل لهما : أف ؛ ولا تنهرهما إن ضرباك قال : وقل لهما قولاً كريما » قال : ان ضرباك فقل لهما : غفر الله لكما فذلك منك قول كريم ؟ قال : واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » لا تملأ عينيك من النظر إليهما إلا برحمة ورقة ، ولا ترفع صوتك فوق أصواتهما ، ولا يدك فوق أيديهما ، ولا تقدم قدامهما .

روى عن الامام زين العابدين (ع) : « وأما حق أمك ، فإن تعلم انها حملتك حيث لا يحتمل أحد أحداً وأعطتك من ثمرة قلبها ، مالا يعطي أحد أحداً ووقتك بجميع جوارحها ، ولم تبال ان تجوع وتطعمك ، وتعطش وتسقيك ، وتتعرى وتكسوك ، وتضحي وتظلك ، وتهجر النوم لأجلك ووقتك الحر والبرد لتكون لها ، وانك لا تطيق شكرها الا بعون الله وتوفيقه .

وأما حق أبيك : فإن تعلم أنه أصلك ، وانه لولاه لم تكن ، فمهما رأيت في نفسك ما يعجبك ، فاعلم أن أباك أصل النعمة عليك فيه ، فاحمد الله واشكره على قدر ذلك ولا قوة إلا بالله[22] .

وفي هذا المعنى قال الشاعر أمية بن أبي الصلت بين يدي النبي ﷺ :

غذوتك مولوداً وعلتك يافعاً	تُعَلُّ بما أدني إليك وتُنْهَلُ
إذا ليلة نابتك بالشكو لم أبت	لشكواك الا ساهراً أتململ
كأني أنا المطروق دونك بالذي	طرقت به دوني وعيني تهمل
تخاف الردى نفسي عليك وأنها	لتعلم أن الموت حتم مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التي	اليها مدى ما كنت فيك أؤمل
جعلت جزائي منك جبهاً وغلظة	كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك إذ لم ترعَ حق أبوتي	فعلت كما الجار المجاور يفعل
وسميتني باسم المفند رأيه	وفي رأيك التفنيد لو كنت تعقل
تراه معداً للخلاف كأنه	بردٍّ على أهل الصواب موكل[23]

وعن جابر عن أبي عبد الله الامام الصادق قال : أتى رجل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إني راغب في الجهاد ، نشيط ، قال : فقال له النبي ﷺ : فجاهد في سبيل الله فإنك إن تقتل تكن حياً عند الله ترزق ، وان تمت فقد وقع أجرك على الله ، وان رجعت رجعت من الذنوب كما ولدت ، قال : يا رسول الله إن لي والدين كبيرين يزعمان أنهما يأنسان بي ويكرهان خروجي ، فقال رسول الله ﷺ : فقرّ مع والديك فوالذي نفسي بيده

---

(22) مكارم الأخلاق للطبرسي في باب ذكر الحقوق على الانسان .

(23) هذا الشعر من ديوان الحماسة لأبي تمام ألشده بين يدي النبي ﷺ فأخذ عليه الصلاة والسلام بتلابيب الولد وسلمه لوالده قائلاً له : « أنت ومالك لأبيك » الأخلاق الاسلامية للسيد علي فضل الله ص 98 .

لأنسهما بك يوماً وليلة خير من جهاد سنة . . . »[24] .

إن بر الأبناء لآبائهم أكثر ثواباً ، وأعظم أجراً من الجهاد الذي هو باب من أبواب الجنة .

وعن عناية الاسلام بالبر بالوالدين ، روى زكريا بن ابراهيم قال : كنت نصرانياً ، فأسلمت وحججت فدخلت على أبي عبد الله ، فقلت له : « إني كنت نصرانياً ، وإني أسلمت » « فأي شيء في الاسلام رأيت ؟ » . قال النصراني : قول الله عز وجل ﴿ ما كنت تدري ما الكتاب ، ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء ﴾ .

فرفع الامام يديه بالدعاء له بالهداية والتوفيق ، وسأله زكريا ، فقال له : إن أبي وأمي على النصرانية ، وأمي مكفوفة البصر ، فأكون معهم وآكل من آنيتهم » فقال (ع) يأكلون لحم الخنزير ؟

قال : لا ، ولا يمسونه » أجابه الصادق (ع) : « لا بأس ، فانظر أمك فبرها ، فإذا ماتت فلا تكلها الى غيرك ، كن أنت الذي تقوم بشأنها . . . » .

ولما قفل راجعاً الى بلده عمل بوحي الشريعة الاسلامية ونفذ ما وجهه إليه الامام الصادق ، فبر والدته وأحسن إليها ، وتعهد خدمتها ، فاستغربت من كثرة عنايته بها ، ومن تغيره مجرى معاملته لها فقالت له : « يا بني ، ما كنت تصنع هذا بي ، وأنت على ديني ، فما الذي أرى منك منذ هاجرت فدخلت في الحنيفية ؟!! » .

« رجل من ولد نبينا أمرني بهذا » قالت : هذا الرجل نبي ﷺ . قال : « لا ـ ولكنه ابن نبي » . فقالت : « إن هذه وصايا الأنبياء ، إن دينك خير دين » وطلبت منه أن يعرض عليها الاسلام فأسلمت .

الدين الاسلامي لم يدع صفة حميدة ، ولا مزية صالحة إلا جعلها من صلب نظامه ، وأمر المسلمين المؤمنين ليكونوا المثل الصالح في مجتمعهم ، والقدوة الحسنة وخير أمة أخرجت للناس .

الروابط بين الوالدين

إن للروابط السليمة والمتينة بين الوالدين أهمية كبرى في تكوين الأبناء فتعاونهما وانسجامهما يخلق جواً هادئاً ومتزناً ينشأ فيه أفراد الأسرة . من هذا الاتزان العائلي يكسب الطفل ثقته بنفسه ، وثقته بالمحيط الاجتماعي الذي يعيش فيه ويتعامل معه . يقول الدكتور القوصي : « وبدراستنا لما يزيد عن ثلثمائة حالة من حالات الأحداث المجرمين والمشردين تبين أن 75% تقريباً من الحالات يرجع فيها الاجرام والتشرد رجوعاً مباشراً الى انهيار صرح الأسرة ، مما يدل أن تماسك كيان الأسرة له أثره القوي المباشر في سلوك الأبناء »[25] .

---

(24) مكارم الأخلاق للشيخ الطبرسي ـ باب ذكر الحقوق على الانسان

(25) أسس الصحة النفسية ص 197 .

- وعلى العكس من ذلك إذا ما حدث خلاف بين الوالدين فإن تفكك روابط الأسرة حاصل لا محالة . ذلك أن الطفل عندما يرى ويسمع المشاجرة بين والديه ويعيش جواً ثقيلاً قلقاً ، يترك البيت ويلجأ في أكثر أوقاته الى الشارع ، وتبدأ هنا سلسلة من سلوك غير مرغوب فيه وسبب ذلك كله عدم ثقة الولد بالكيان العائلي .

وقد يحدث هذا التفكك العائلي وانحلال روابط الأسرة لأسباب عديدة ، على الآباء والأمهات الذين لم يقعوا فيها ولم يذوقوا طعمها المر بعد ، ان يحذروها . منها :

- سوء الحالة الاقتصادية قد يخلق جواً من التوتر العائلي إذا لم تستوعب الزوجة حالة زوجها وامكاناته ، أو إذا كان الزوج كسولاً متراخياً في تحصيل نفقات الأسرة اللازمة . فعلى الزوجة هنا أن تنشط زوجها وتشجعه دون أن تهمل واجبها نحو أطفالها .

- اختلاف الوالدين على طرق تربية الأبناء فالأب يعتمد طريقة ما في تربية أطفاله قد تكون غير مرضية بالنسبة للزوجة، فاما أن تكون قاسية جداً أو متراخية جداً ، فيحصل الاختلاف في وجهات النظر المتباينة . وبعد ذلك تحدث المشكلة التي يجب تداركها من قبل الوالدين مهما كلف الأمر حرصاً منهما على مصلحة أولادهم ، مستقبلهم وأمل حياتهم .

- قد يحدث التفكك بسبب وفاة الأم أو الطلاق ، وهو أبغض الحلال عند الله ، فيترتب على ذلك أن يتزوج الأب بزوجة ثانية ، ويكون أخوة غير أشقاء ، وتبدأ سلسلة من الهزات العائلية بين زوجة الأب وأولاده من زوجته الأولى ، ويسود القلق الأسرة وتضعف الثقة بين أفراد الأسرة . نواة المجتمع وركيزته الأولى .

ونوجز القول أنه كلما توثقت الروابط بين الوالدين كلما زاد احتمال صلاحية الجو العائلي لتربية الأبناء تربية صالحة ، أما في حال اختلافهما ، فقد ينعكس ذلك على جو الأسرة وتفقد الثقة بالوالدين مما يؤدي الى سلوك الأطفال في متاهات مضللة لا تحمد عقباها .

الفصل الثالث
الأسرة في العصور الحديثة

تتخبط الأسرة اليوم في مشاكل خطيرة بسبب التغيرات الاجتماعية التي أفقدتها الكثير من وظائفها الرئيسية السابقة ؛ مما أدى إلى تفكك عرى الأسرة ، وانهيار الروابط الوثيقة التي كانت تشد أفرادها بعضهم الى بعض مدى الحياة ومن المؤسف أن الواقع الذي نعيشه اليوم قد آل إلى إهمال شؤون الأسرة حتى أصبحت عند البعض مصدراً من مصادر الاستغلال . فالرجل يستغل زوجته وأولاده متخذاً منهم أدوات انتاج . وبذلك تحولت إدارة المنزل إلى إدارة مصنع ، وأصبحت العناية بالأطفال قضية عامة . فالمجتمع يأخذ على عاتقه تربية جميع الأطفال . . . وبهذا يذوب حجاب الخجل الذي كان يساور قلب الفتاة ، وتضيع القيم الأخلاقية الشريفة . وباختصار لقد منيت الأسرة العصرية بأضرار فظيعة في ظل الحضارة المادية الحديثة .

كانت المرأة سابقاً مستقرة في بيتها تعنى بتربية أطفالها وتقوم بشؤون زوجها وأسرتها على أكمل وجه . أما اليوم فقد تركت منزلها لتشارك بأعمال تشابه أعمال الرجل ، وأصبحت شؤون المنزل والأسرة عملاً ثانوياً وفي كثير من الدول المتحضرة ترى المرأة أن انجاب الأطفال وتربيتهم يتعارض مع قيامها بتولي الوظائف العامة ويعيقها سير عمليها الوظيفي . الأمر الذي نجم عنه تحديد النسل أو عدم التفكير في إنجاب الأطفال . وإذا ما أنجبت ، ولداً أو ولدين تتركهم للخادمة لتسهر عليهم وتشرف على تربيتهم فيكسب الطفل وراثة أمه وأخلاق خادمته .

والذي نتج من تخلي المرأة عن رعاية أسرتها تفكك هذه الأسرة وانحلالها وضعف الرابط النفسي والاجتماعي الذي يربط بين أفرادها .

وقد أثبتت التجارب أن الطفل لا ينمو من حليب أمه فحسب ، بل يحتاج الى عطفها وحنانها وهذا الغذاء العاطفي الذي يغذي نفسه أهم بكثير من الغذاء الجسدي الذي ينمي شخصيته : «من هنا كانت أهمية التغذية الطبيعية من ثدي الأم على التغذية الاصطناعية . لأن في الأولى يتمتع الطفل بأمرين هامين هما الغذاء والحنان . وأما التغذية الاصطناعية فإنها تخلو غالباً من شعور الطفل بحنان أمه . فيحسن بالأطفال الذين يحرمون من التغذية الطبيعية أن تضمهم أمهاتهم إلى صدورهن حسب ما ينصح به أطباء الأطفال »[1] .

---

(1) أسس الصحة النفسية للقوصي ص 75 .

وقد شدد علماء النفس والتربية على خروج المرأة من بيتها والمساوىء التي تنزل بالأسرة من جراء ذلك ، لأن الطفل لا ينشأ نشأة سليمة إلا إذا أخذ حظه من الحب والحنان من أمه . يقول الفيلسوف العظيم « رسل » : « إن الأسرة انحلت باستخدام المرأة في الأعمال العامة ، وأظهر الاختبار أن المرأة تتمرد على تقاليد الأخلاق المألوفة »(2) .

ويقول العالم الكبير ساموئيل سمايلس : « إن النظام الذي يقضي بتشغيل المرأة في المعامل مهما تنشأ عنه من الثروة للبلاد ، فإن نتيجته هادمة لبناء الحياة المنزلية لأنه يهاجم هيكل المنزل ، ويقوّض أركان الأسرة ، ويمزق الروابط الاجتماعية . . . »(3)

إن استقرار الأسرة من استقرار المرأة في بيتها واهتمامها بتربية أطفالها تربية صحيحة واعية ، واستقرار الأسرة ينجم عنه استقرار المجتمع ؛ أما خروجها من بيتها ومزاحمتها الرجل في أعماله ، فإنه يؤدي الى عجزها عن القيام بمهامها الجليلة في تربية النشء ، حيث يكون العمل قد أتعبها واستنزف منها جميع قواها .

ولا ريب أن هذا التصرف يشكل خطراً جسيماً على الجيل الناشىء إذ يعرضه الى الاصابة بالكثير من الأمراض النفسية والانحلال الأخلاقي ، وعدم الاستقامة في السلوك بعد أن دلت التجارب العملية في المجتمعات المادية على ذلك التدهور الخطير .

نجم عن كل ذلك إشكالات عديدة في الأسرة الحديثة عند البلدان المتحضرة منها :

1 ـ تدني نسبة الزواج .
2 ـ الميوعة والتحلل الأخلاقي .
3 ـ عقوق الأبناء .
4 ـ الشذوذ الجنسي .

أ ـ إنخفاض نسبة الزواج

الأمر الخطير الذي يهدد كيان الأسرة الحديثة في أنحاء العالم المتحضر الذي تخلت فيه المرأة عن واجبها المقدس في حفظ كيان الأسرة وحسن رعايتها ، هو تضاؤل نسبة الزواج وانخفاضه الى حد كبير . وقد تسرب هذا الخطر الى بلداننا نحن اليوم عبر شبابنا المتخصصين في البلدان الأجنبية . فقد يبلغ الواحد منهم الأربعين والخمسين من العمر عازباً ، وإذا سألته عن سبب التأخير في زواجه ، يجيب : لم يحن الوقت بعد ، ولماذا الاستعجال !

فلماذا امتنع الكثيرون من الشباب عن الزواج ؟ إن ما ينشدونه من المتعة الجنسية قد صار بمتناول أيديهم ، وما يطلبونه لسد غرائزهم أصبح ميسوراً ولماذا يقدمون على الزواج ويعانون من أعبائه الفادحة .

ورد في النظام التربوي في الاسلام عن الشيخ بهي الخولي قال : « يمتنع الشباب عن

(2) الاسلام والحضارة العربية لمحمد كردعلي ج 2 ص 92 .
(3) نظرية العلاقة الجنسية في القرآن الكريم ص 95 .

الزواج لأنه قيد يحجزه عن التخوض فيما شاء من اللذة المتجددة ، فقد أقبلت عوامل التطور الحديث على كثير من المجتمعات الغربية بحريات واسعة في الفكر والقول ، والعقيدة والسلوك الخاص وأنشأت لهم أهدافاً في المال ، والمنفعة واللذة الحسية تعارض ما كان لهم من أهداف روحية ، ومقاييس لمعاني العرض والعفة ، وصار لكل منهم حريته الواسعة في حياته الخاصة يفعل منها ما يريد دون رقابة من قانون أو تحرج من عرف .

وكان من ذلك أن تفجرت الشهوات ، وسادت عبادة الجنس ، وراج جنون اللذة يستبد بألباب كثير من أفراد تلك المجتمعات ، فرأوا في الزواج قيداً يحد من حرياتهم في ابتغاء ما يريدون ، فنبذوا حياة الأسرة ، وركنوا الى المخادعة ، كلما فترت رغبة أحدهم في خليلته أو فترت رغبتها فيه انصرف كل منهما عن صاحبه حيث يجد اللذة في رغبة جديدة وشوق أشد »[4] . مما لا ريب فيه أن ذلك يفضي الى انخفاض نسبة الزواج وتضاؤ ل النسل وبالتالي الى تناقص عدد السكان . وقد ظهرت آثاره السيئة في الكثير من البلدان الأوروبية . ودراسة واقعية تبين لنا بوضوح إلى بن يسير النسل البشري في العالم المتحضر !

ففي فرنسا مثلاً (لا تزال تهبط فيها نسبة المواليد منذ ستين عاماً متوالية) وقد تبين أن عدد الجنود الذين اضطرت الحكومة إلى أن تعفيهم من العمل وتبعثهم الى المستشفيات في السنتين الأولين من سني الحرب العالمية الأولى لكونهم مصابين بمرض الزهري خمسة وسبعون ألفاً ، وابتلي بهذا المرض وحده (242) جندياً في آن واحد في ثكنة متوسطة ، ومثل هذا المرض يؤ ثر على النسل تأثيراً هائلاً » .

ومثل هذه الظاهرة منتشرة بكثرة بين الشباب الأمريكي . « وقد أعلن رئيس الولايات المتحدة الامريكية أن أكثر من مليون شاب أمريكي لم يصلحوا للخدمة العسكرية من بين ستة ملايين تقدموا للتجنيد » .

وقد عزا ذلك الى حياة الترف التي انغمس فيها الشعب الأميركي بصورة عامة .

وفي السويد انخفاض مستمر في نسبة المتزوجين وارتفاع مستمر في نسبة عدد المواليد غير الشرعيين ، مع الملاحظة أن 20% من البالغين الأناث والذكور لا يتزوجون أبداً ، ونسبة الطلاق في السويد هي أكبر نسبة في العالم كله ، وان طلاقاً واحداً يحدث بين ست أو سبع زيجات طبقاً للاحصاءات التي أعدتها وزارة الشؤ ون الاجتماعية بالسويد .

وفي ألمانيا عار على البنت أن تبقى بكراً وأدوات منع الحمل موجودة في كل طريق[5] فأين هذا كله من صالح المجتمع البشري ؟ وإلى أين المصير ؟

وجملة القول إن نسبة المتزوجين من رجال ونساء قد انخفضت عن ذي قبل بسبب ظروف وعوامل أوجدتها المدنية الحاضرة والحضارة الحديثة باسم الحرية الشخصية المزيفة .

كل هذا حصل بسبب البعد عن الاسلام ،لأن الانسان البعيد عن الاسلام يظلم نفسه

---

(4) النظام التربوي في الاسلام لباقر شريف القرشي ص 97 .

(5) راجع الاسلام لسعيد حواص 216 وما بعدها .

ويقتل نفسه ويعيش حياة الألم والندم ، والانسانية بلا اسلام تدمر نفسها وتعيش حياة الشقاء الدائم مهما أخذت حظها من اللذة العابرة .

ب ـ الميوعة والتحلل الأخلاقي

أسرفت الأسر الحديثة بألوان غريبة من الملذات والمحرمات ، مما أدى الى انهيار الأخلاق ، وانحطاط السلوك . فأكثر الشبان المتحضر ينساق وراء اللهو وينحرف عن الطريق الشريف السليم . كل ذلك بسبب انحراف الأهل فالطفل الذي يشاهد أبويه بأم عينه ، وهما عاكفان على شرب الخمر والأعمال المشينة فإنه حتماً يتأثر بذلك في سلوكه وتوجيهه .

ومن الطبيعي بعد ذلك أن يخلق جيل متحلل أخلاقياً غير متماسك ، لا يعنى بالقيم الانسانية والمثل الاجتماعية ، ولا تؤثر فيه النصائح والإرشادات ، ولا يحس باللوم والمهانة . قال المتنبي واصفاً هذه الحال :

من يهن يسهل الهوان عليه   ما لجرح بميت إيلام

والحقيقة أن فساد الأبناء يعود الى فساد الأسرة التي يعيشون فيها ، فمن شب على الميوعة والتحلل شاب على الفسق والانحراف .

وقد وصف الأسرة بعض الباحثين في الشؤون التربوية فقال :

« لقد أصبحت الأسرة جواً مخزياً للتربية بصورة عامة لأن الآباء والأمهات في العصر الحديث قد تجاوزوا الحد المقرر في السذاجة أو العصبية أو الضعف أو الشدة ، وربما يعلم أكثرهم بعض العيوب لأطفالهم . وأكثر الأطفال الذين يجدون صوراً مختلفة عن سوء الأخلاق والفساد ، والمشاكسة والسكر في البيت والأسرة ، والكثيرون منهم إن لم يجدوا مثل هذه القضايا في البيت فلا بد وأنهم تعلموها من أصدقائهم »[6] .

ج ـ عقوق الأبناء

البيئة الصالحة تنشىء أسرة صالحة والأسرة الصالحة تنشىء جيلاً صالحاً . أما إذا فسدت البيئة وطغى معشر الفاسدين فسرعان ما يتفشى هذا المرض ويقضي على البقية من الشباب الصالحين ، وغالباً ما يحدث هذا في سن المراهقة .

وعقوق الأبناء هو من مظاهر الانحلال الذي منيت به الأسرة الحديثة .

إن انفصال الأبناء عن أسرهم ساعات طويلة من اليوم ومعاشرتهم عصابات السوء ، تخلق في نفوسهم التشكيك بقيم الآباء وعاداتهم وأفكارهم ، فيثورون وينقمون على كل ما يعتنقه الأهل من قيم انسانية شريفة وتقاليد اجتماعية صالحة . عند ذلك يبدأ الآباء بالشكوى مما يعانون من عقوق أبنائهم وسوء آدابهم وعدم حشمتهم ، ومقابلتهم بالقسوة والحرمان . وقد عرفت كثيراً من الطلاب يطيعون أهلهم ويحترمونهم ولما عاشروا المنحرفين والشاذين غيروا معاملتهم مع ذويهم ، ونتج صراع عنيف بينهم وبين آبائهم بسبب تمردهم وخروجهم على

---

(6) الطفل بين الوراثة والتربية لمحمد تقي فلسفي ج 1 ص 289 وما بعدها .

حدود الطاعة . وقد علل العالم الكبير الشيخ الدكتور صبحي الصالح أسباب عقوق الشباب المعاصر ورفضهم فقال :

« إن شباب اليوم ـ أمام التغيرات المفاجئة المذهلة في عصرهم ـ يعانون معاناة شديدة من تكاثر مطالبهم وتعقدها ، من غير أن يجدوا الفرصة الملائمة لتلبيتها وتحقيقها ، من هنا يصعدون موجات تمردهم على المجتمع متمثلاً في سلطة الآباء ، أو سلطة المعلمين ، أو سلطة الحكام ، أو سلطة التقاليد المنبثقة بزعمهم من الدين مع أن الدين من جمهرتها براء ثم تابع :

والشباب عندما ينتابهم الضجر والملل والسآمة ، ويقعون فريسة الفراغ والبطالة والضياع ، وتبلغ بهم الحيرة منتهاها ، يؤنسون الحاجة إلى ما يروي ظمأهم ، ويزيل قلقهم ، ويملأ فراغهم ، ويستجيش طاقاتهم من مناهج التربية الواعية المسؤولة ، ومن أساليب التوجيه الروحي ، ومن طرائق التخطيط الاجتماعي ، ولكنهم لا يجدون في شيء منها ما يشفي الغليل ، فيعودون كرة أخرى إلى تصعيد التمرد والرفض لكل شيء من حيث يريدون أو لا يريدون »(7) . وقد أطلق على مجتمعنا العصري « مجتمع الاستهلاك » .

إن التغيرات الحادثة في نظام الأسرة التربوي والاجتماعي قد أوجبت تمرد الأبناء وخروجهم على حدود الطاعة . وهذه التغيرات الخطيرة في نواميس الحياة البشرية ، لا يمكن درأها أو مقابلتها إلا بتغير كاف في التهذيب ، ونكرر القول ان الاسلام هو الطريق الوحيد للتخلص من كل هذه الأمراض الاجتماعية .

د ـ الشذوذ الجنسي

من أخطر آثار تضاؤل الزواج وانخفاضه في الدول المتحضرة ، إشاعة الشذوذ الجنسي وانتشاره بين الناس . وهو مرض عضال يهلك الحرث والنسل وتضاع فيه الانساب وتنهار قواعد الأخلاق(8) . لذلك شدد الاسلام على جريمة الزنا وقرنها مع جريمة قتل النفس والشرك بالله . قال تعالى : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلّـه آخر ، ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق اثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾(9) .

وحرصاً من الاسلام على صيانة شرف المرأة وكرامة الرجل منع من خلو الرجل بالمرأة الأجنبية . قال رسول الله ﷺ : « لا يخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذي محرم »(10) . كما أمر بأن

---

(7) معالم الشريعة الاسلامية ص 242 .

(8) من الزنا : اللواط وهو شذوذ جنسي أصاب قديماً قوم لوط فسمي لواطاً بحيث يكتفي الذكر بالذكر . « وقد كان حكم مرتكب الحب الشاذ في انكلترا ان يدفن حياً أو يلقى في حطب مستعر ، ومن ثم منذ 1861 أصبحت ممارسته بالتراخي والاتفاق لا عقاب عليه من قبل المشترعين في أغلب البلاد الأوروبية ، وقد خصص أمكنة خاصة لممارسته بكل حرية في فرنسا وانكلترا وألمانيا والنمسا وغيرها . راجع عمر كحالة .

(9) الفرقان الآية 68 -69- 70 .

(10) صحيح البخاري .

تخفي المرأة زينتها ولا تظهرهـا إلا لمن يحق لها . قـال تعالى : ﴿ وقـل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن وآبائهن إلى آخر الآية ﴾(11) .

لقد حارب الاسلام الشذوذ الجنسي بشتى ألوانه كما حارب الفـوضى الغريـزية وطـالب النهوض بالمرأة إلى أعلى المستويات ، فأرادها سيدة كريمة جليلة تحافظ على عزتهـا وكرامتهـا ، وتبقى كـما أرادها رب العـالمين ، ربـة عائلة كـريمة ومـربية جيـل . والمجتمـع الـذي يصـاب بالفوضى الجنسية تنتشر فيه الأمراض الزهرية المهلكة التي تقضي على تماسك شخصيته وترمي به إلى هاوية الموبقات والرذائل ، كما تهدد الأسرة بأمواج من الآثام الطاغية المهلكة .

البيئة وأثرها في التربية

كل إنسان لا يخضـع في سلوكه لتكـوينه الـداخلي فحسب وإنمـا تؤثر فيـه عدة عـوامل خارجية تتفاعل معه وتؤثر فيه . وقد رأى علماء التربية والاجتماع أن للبيئة أثـراً هامـاً في عالم التربية . فـالطفـل يقلد بيئته تقليـداً غير شعـوري وتطبـع في نفسه عـاداتها وتقـاليدهـا . فإذا حسنت البيئة حسنت آثارهـا ، وإن ساءت أصيب النشء بـآفاتهـا ومشاكلهـا . وكما قـالوا : الانسان ابن بيئته لأنها تطبع آثارها في دخائل نفسه ، وتكسبه أخلاقها وعاداتها .

أجمع علماء التربية أن البيئة الاجتمـاعية من أهم العـوامل التي تعتمـد عليها التـربية في تحقيق رغبات الأفراد وتشكيل الشخصية الانسانية ، كما تعمل على تحقيق التكامل الاجتماعي فتقلل من ظهور التوترات ومظاهر السلوك المنحرف مما يؤدي الى اندماج الفرد بالجماعة وإيمانه بأهدافها وقيمها(12) .

وعن طريق البيئة الاجتماعية يرتفع مستوى طموح الأمة العلمي والأدبي في البلاد ، كما أنها مسؤولة عن أي انحطاط أو انحلال للقيم التربوية . فعليها أن تطالب المسؤولـين بإيجـاد الـوسائـل الفعالـة لنشر الثقـافة والـوعي بين أفـراد المجتمع . وكـل فرد منـا مسؤول بمطالبـة حكومته لايجاد الوسائل التي تدفع مجتمعـه الى التطور والـرقي وتساهم مـع غيرهـا من البلدان الأخرى المتطورة في بناء الحضارة الانسانية .

وأمر هام جداً له تأثيره في تطور البيئة الاجتماعية ، هو استقرارها وابتعادها عن الهزات والاضطراب . لأن ذلك يؤدي الى اضطراب الأسرة وعدم استقامة سلوك النشىء .

ورد في كتاب التكيف النفسي لمصطفى فهمي « ان استقرار البيئة من أهم الأسبـاب في تماسك شخصية الطفل وازدهارهـا وأبعادهـا عن عوامـل القلق فقد ذهب علماء النفس الى أن اضطراب البيئة ، وما تحويه من تعقيدات ، وما تشتمل عليه من أنواع الحرمان كل هذا يجعل الطفل يشعر بأنه يعيش في عالم متناقض مليء بالغش والخداع والخيـانة والحسـد ، وإنه مخلوق ضعيف لا حول له ولا قوة تجاه هذا العالم العنيف »(13) .

---

(11) النور الآية 31 .

(12) راجع الأسس.الاجتماعية للتربية (اليونسكو) .

(13) التكيف النفسي ص 22 .

وبعد دراسة قام بها إخصائيون في عالم التربية وجدوا أن البيئة المستقرة سيكولوجيا والأسرة التي يعيش أفرادها في جو من العطف المتبادل ، هي أول أساس يرتكز عليه تكيف الطفل من الناحية العاطفية . ومن هذا المنطلق يتم تركيز الطفل في علاقاته الاجتماعية بصورة صحيحة وناجحة . أما إذا اضطربت الأسرة وساءت معاملة الوالدين فقد يعجز الطفل عن الاندماج في المجتمع .

وقد ميز علماء التربية بين نوعين من البيئة :

أ ـ **الطبيعية** : وهي كل ما يحيط بالانسان من الأمور المادية كالأرض والنبات والحيوان وما يتولد فيها من القوى والطاقات على اختلاف أنواعها . كما تتكون منها العلوم الطبيعية والفيزياء والكيمياء التي تدرس في الثانويات والجامعات ، فجميع هذه العوم تتعلق بالبيئة الطبيعية التي ينبغي أن يتفهمها الطلاب ليتمكنوا من تكييف أنفسهم مع أحوال بيئتهم ومعطياتها .

ب ـ **الاجتماعية** : ونقصد بها المجتمع البشري وعلاقة أفراده وجماعاته بعضهم مع بعض من سياسية أم ثقافية أم اقتصادية أم سيكولوجية التي منها جميعاً تتألف البيئة الاجتماعية ، كما تتكون منها العلوم الاجتماعية : كالتاريخ والجغرافية ، والاقتصاد ، والتربية ، والسياسة ، فكلها جميعاً تتعلق بالبيئة الاجتماعية التي ينبغي للمتعلمين أن يلموا بها إلماماً تاماً ، حتى يتمكنوا من تكييف أنفسهم بمقتضاها ، فمنها تنمو القيم الروحية والنفسية في تربيتهم ورفع مستواهم .

الاسلام والبيئة الاجتماعية

عني الاسلام بأمر البيئة لأنه وجدها من العناصر الفعالة في التكوين التربوي والاجتماعي . فبصلاح البيئة صلاح الأسرة التي تمد المجتمع بخيرة الرجال الصالحين ، وبفسادها تبتلي الأمة بالأشرار والفجار الذين يفسدون في الأرض ويجرون الويلات على مجتمعهم .

لذلك أرصد الاسلام كل إمكاناته وأجهزته من أجل إصلاح البيئة ، لكي تسود فيها القيم الانسانية الواعية من الحق والخير والمساواة ويزهق فيها الباطل والظلم والأنانية ، وتكون خير أمة أخرجت للناس خالية من كل فتنة واضطراب .

واهتم الاسلام اهتماماً بالغاً في أمر البيئة الخاصة فلاحظ بدقة أهم جوانبها المؤثرة في انفعال الفرد وإكسابه العادات الحسنة والأخلاق الطيبة ، ألا وهي الصداقة .

لقد أكد علماء الاجتماع أن الصداقة من أقوى العوامل التربوية التي تنقل أخلاق الصديق وميوله ونزعاته الى كل من يصادقهم ، لأن الحياة الاجتماعية حياة تأثر وتأثير فيمن نرافق ونعاشر . والمثل المأثور : قل لي من تعاشر أقل لك من أنت . وقال الشاعر :

عن المرء لا تسل وسل عن قرينه   فكل قرين بالمقارن يهتدي

إن مصاحبة الأخيار تغرس في النفس الأخلاق الطيبة وتدفع بأصحابها إلى المعالي النبيلة ، أما معاشرة الأشرار فإنها تقود الى الاستهانة بالقيم الشريفة ، وتباعد بين الانسان وبين القيام بالأعمال العظيمة ، كما تهون عليه اقتراف الآثام والرذائل .

فالقرين الصالح هو الملاذ في الملمات ، وهو المرشد الأمين ، لطريق الحق والنجاح في هذه الحياة . والقرآن الكريم دعا الى اختيار الأصحاب الصالحين الذين يطيعون الله ، والمتجردين من كل إثم ومعصية . قال تعالى :

﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فُرُطا ﴾(14) .

وقال سبحانه في آية أخرى : ﴿ فاعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ﴾(15) .

حث الاسلام على المتمسكين بدينهم ومصاحبة ذوي النبل والشرف والاستقامة حتى يكسب منهم حسن السلوك ومكارم الأخلاق .

قال رسول الله ﷺ واصفاً الجليس الصالح والجليس السوء خير تصوير في قوله : « مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة . ونافخ الكير إما أن يحرق ثوبك ، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة »(16) .

وبما أن الصداقة ، كما أسلفنا ، تأثر وتأثير ، وتفاعل الفرد بأخلاق صاحبه وميوله واتجاهاته ، فقد حذر الاسلام من مصاحبة المصابين ببعض الأمراض النفسية والأخلاقية .
قال المربي الكبير أمير المؤمنين الامام علي بن أبي طالب (ع) لولده الامام الحسن (ع) :

« يا بني إياك ومصادقة الأحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك ، وإياك ومصادقة البخيل فإنه يبعد عنك أحوج ما تكون إليه ، وإياك ومصادقة الفاجر فإنه يبيعك بالتافه ، وإياك ومصادقة الكذاب فإنه كالسراب يقرب إليك البعيد ، ويبعد عنك القريب . . »(17) .

بعد أن عين الامام علي (ع) الأشخاص الذين يجدر بنا البعد عنهم ، حدد لنا الامام الحسن بكلمات ذهبية واجبات الصداقة في الاسلام التي تقضي بلزوم الرعاية والود والتعاون الشريف بين الصديقين .

قال (ع) في وصيته لجنادة : « وإذا نازعتك الى صحبة الرجال حاجة ، فاصحب من إذا صحبته زانك وإذا أخذت منه صانك ، وإذا أردت منه معونة أعانك ، وإذا قلت صدق

---

(14) الكهف الآية 28 .

(15) النجم الآية 29 .

(16) رواه مسلم وراجع المجازات النبوية للشريف الرضي . يحذيك : يعطيك .

(17) أصول الكافي ج 2 ص 242 . وحياة الام الحسن ج 2 ص 474 .

قولك ، وإن صلت شد صولتك وإن مددت يدك بفضل مدها ، وإن بدت منك ثلمة سدها ، وإن رأى منك حسنة عدها ، وإن سألته أعطاك ، وإن سكت عنه ابتدأك وإن نزلت بك إحدى الملمات واساك ، من لا تأتيك منه البوائق ولا تختلف عليك منه الطرائق ، ولا يخذلك عنه الحقائق ، وإن تنازعتما منقسماً آثرك . . »[18] .

فعلى الشاب المؤمن بدينه وعقيدته أن يكون حذراً من الاتصال ببعض المصابين بأخلاقهم وسلوكهم ، وما أكثرهم في هذه الأيام ، أولئك المنحرفين الذين لا يفقهون أي مغزى نبيل لمجتمعهم ، ولا يملكون أدنى وعي اسلامي أو وطني ، فراحوا ينالون من مقدسات الأمة الروحية وقيمها الاجتماعية . فعلى الشاب المؤمن أن يحذرهم ولا يتلوث بآثامهم وعاهاتهم .

وما يأسف له جميع المؤمنين في عصرنا اليوم ما منيت به البيئة الاجتماعية بالمخاوف والقلق وفقدان الأمن ، وذلك من جراء الجشع الذي أترعت به نفوس السياسيين في الدول الكبرى وغزوهم الشعوب المستضعفة في الأرض واستعمارها بشتى الوسائل .

فأين نحن اليوم من الجاهلية القديمة ، أين جاهلية القرن العشرين من جاهلية الماضين ؟ بل هي أخطر وأدهى ! وذلك بسبب المخترعات التي اكتشفتها العقول الحديثة : كالصحافة والراديو والتلفزيون وغيرها من وسائل النقل التي سهلت الاندماج والتشابه بين الشعوب ، في تبادل الأفكار ونقل العادات بسرعة فائقة لم يسبق لها مثيل في العصور السابقة . وقد واجه المؤمنون بدينهم وعقيدتهم ومبادئهم ألواناً مختلفة من الاستعمار ، حين أسرعت كل دولة كبرى الى فرض مبادئها وسياستها وأفكارها . وكان الصراع الحاد الذي نجم عنه الحروب المدمرة والويلات المرعبة ، وأصبحنا نعيش في قلق دائم لا نعرف ماذا تضمر لنا الدول الكبرى من هزات وكوارث وشرور ، ولم تترك شيئاً من أجهزتها الحديثة في الدمار الا وعرضته على أرضنا في لبنان وغير لبنان من الدول المستعمرة ، المستضعفة . لقد شجعت المخترعين عندها في إبداع الأجهزة الالكترونية والأقمار الصناعية والرؤوس النووية ، ولا أدري ماذا بعد من السلاح المدمر للحياة البشرية والحضارة الانسانية .

نقول لهؤلاء جميعاً أن الفجر لقريب مهما طال الليل ، ونور الاسلام الحق سوف يزهق الباطل على كل أرض العالم ، ان الباطل كان زهوقا . وبعد هذا كله يعمدون الى معاهدات صداقة بيننا وبينهم . فانظر ، رعاك الله ، الى قيمة هذه المعاهدات ومبدأ هذه الصداقات المفروضة ! يجيبهم الله في كتابه العزيز وهو خير القائلين :

﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾[19] .

لقد حذرنا الاسلام من الصداقات المزورة واجتناب المنحرفين عن خطه السليم

---

(18) المصدر نفسه ج 2 ص 474 .

(19) البقرة الآية 256 .

القويم . قال تعالى :

﴿ ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا ﴾[20] .

وقال سبحانه : ﴿ ولا تؤمنوا إلا لمن اتبع دينكم . . ﴾[21] .

المسلم المؤمن هو من أحب لله ، وكره لله ، وجاهد لله ، وعمل في سبيل الله ، وصادق المؤمنين الأخيار « إنما المؤمنون إخوة » وتجنب الملحدين الأشرار ، واتبع رسالة الأئمة الأطهار ، وعمل بسنة المصطفى المختار . وقد جاء على لسان أحد المؤمنين قوله :

« الله غايتنا والرسول قدوتنا والقرآن دستورنا والجهاد سبيلنا والموت في سبيل الله أسمى أمانينا » .

---

(20) المائدة الآية 77 .

(21) ال عمران الآية 73 .

الفصل الرابع
التخطيط التربوي الاسلامي

فضائل العلم

العلم تحيـا به القلوب كـما تحيا الأرض بـوابل المـطر . والعلم أساس لكـل فضيلة فبـه عمـرت البلاد وعم الخـير ، وبـه اكتشف الانسـان أسـرار الحقيقـة ، ولم تنهض أمـة من أمم الأرض إلا بواسطة العلم .

والعلم نور يهدي بصـائر المؤمنـين الى نعيم الدار الآخـرة وإلى سعادة الحيـاة المثلى التي يتطلبها كل زمان .

والله تعالى جعل الانسان أفضل مخلوقاته وميزه عن غيره بالعقل والعلم ، وعلمه بالقلم ما لم يعلم . والعلم أهم شيء يحتاجه الانسان في حياته لأن به سعادة الروح وراحة الجسـد ، فهو يمنح صاحبه مقاماً عزيزاً منيعاً ، ويجعل حامله شريفاً رفيعاً .

قال أحد الشعراء :

العلم يحـيي قـلوب الميـتـين كـمـا ... تحيـا البـلاد إذا مـا مسهـا المـطر
والعلم يجـلو العمى عن قلب صاحبه ... كـما يُجَلِّـي سـواد الـظلمـة القمـر

والعلوم التي عرفها الانسان كثيرة ومتنوعة والعلوم الدينية هي الأولى بالتعلم والتعليم ، أما العلوم الزمنيـة فهي من الضروريـات التي تتطلبهـا الحياة الاجتمـاعية ، وعـلى هذا يكـون طلب العلم لازماً وضرورياً بل واجباً كفائياً على كل فرد من أفراد المجتمع .

والعلماء هم القادة الأمناء لبني البشر جميعاً الذين أناروا العقول وأحيوا الأفكـار ، ونبهوا الغافل من سباته ، وأنقذوا الجاهـل من ضلالـه . وكل بـلاد لم يكن العلماء فيها هم قـادتها ، يتسلط عليها الطامع فيفرق أهلها وتصبح فريسة لشهواته ، وميداناً لغاراته . ولا يمكن لأحـد أن ينكـر أن العلماء هم الذين خـدمـوا الانسـان في كـل أنحـاء الأرض ، وقـد [illegible]ا الحضـارة الانسانية أشواطاً في ميادين التقدم العلمي ، والانجازات العمرانية ، ووسائل [illegible]ة وغيرهـا من الاختـراعات الهـامة التي تـدهش العقـول ، كـل ذلـك بفضـل عصـارة أفكـارهم النيـرة ومجهودهم المشكور . فعلماء الفيزياء والكيمياء ، والأطباء ، والمهندسون ، قدموا كل ما يـريح الجسم الانساني من متاعب الحياة وأعباء الدنيا ؛ والأنبيـاء الكرام ، والأدبـاء العظام ، وهبـوا كل ما يسعد الروح الانسانية ويـزيل عنهـا حجب الظلام وكـابوس الـظلم ، بالقيم الـروحية والعلوم الأخلاقية التي هـذبت النفوس وكـانت تفتحاً لمـادة التراب ، وإعـلاءً لمعاني الـطين ،

ومفتاحاً لجنات يتدلى على باب السعادة الكبير .

فالعلوم الزمنية التي رفعت مستوى الحضارة الانسانية والعلوم الدينية التي حفظت النظم الاجتماعية والسعادة الاخروية ، كلها نحن بحاجة اليها ؛ فالأولى غذت الأجساد ، والثانية غذت الأرواح . فالعلماء قدموا أنفسهم لخدمة المجتمع وضحوا في سبيل رفاهية غيرهم كالشمعة التي تحترق لتضيء على الآخرين . وقد قرن الله اسمهم مع الملائكة في كتابه العزيز قال سبحانه :

﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾(1) .

فالمؤمنون بالله وأولوا العلم رفعهم الله درجات وفضلهم على عباده الآخرين . قال تعالى :

﴿ يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير ﴾(2) .

ذلك ان العلماء هم الذين يخافون الله ويخشونه قال عزّ وجل : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماءُ ﴾(3) .

وقال سبحانه : ﴿ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾(4) .

ما عاذ الله الاسلام منطق ، والاسلام عدالة ، والاسلام رحمة .

وهل للانسان أن ينطق ويعلم إلا بفضل الله ، وهل له أن يكشف الحقائق إلا بالعلم الذي شبهوه بالنور ؟ قال تعالى :

﴿ إقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم ﴾(5) .

والعلماء هم ورثة الأنبياء خزنوا العلم في صدورهم ليشرحوه ويفصلوه للناس آيات بينات : قال سبحانه وتعامى :

﴿ بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ﴾(6) .

وقال سبحانه وتعالى :

﴿ ولو ردوه الى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾(7) .

---

(1) آل عمران الآية 18 .
(2) المجادلة الآية 11 .
(3) فاطر الآية 28 .
(4) الزمر الآية 9 .
(5) العلق الآية 1 -2 -3 -4 -5 .
(6) العنكبوت الآية 49 .
(7) النساء الآية 83 .

وقال عز وجل :

﴿ الرحمن ، علم القرآن ، خلق الانسان ، علمه البيان ﴾[8] .

وتواترت الأخبار عن الرسول الأعظم وأئمة الهدى المعصومين في فضل العلم والعلماء .

قال رسول الله الذي أرسله الله رحمة للعالمين ورساجاً منيراً :

« تعلموا العلم ، وتعلموا له السكينة والوقار والحلم ، ولا تكونوا جبابرة العلماء ، فلا يقوم علمكم بجهلكم » .

وقال ﷺ : « من أراد الدنيا فعليه بالعلم ، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ، ومن أرادهما فعليه بالعلم » .

وعن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ : « ساعة من عالم يتكىء على فراشه ، وينظر في علمه ، خير من عبادة العابد سبعين عاماً » .

وقال : ﷺ « تعلموا العلم ، فإن تعلمه لله حسنة ، ودراسته تسبيح والبحث عنه جهاد ، وطلبة عبادة ، وتعليمه صداقة ، وبذله لاهله قربة » .

ويكون العلم فضيلة إذا كان ناتجاً عن الاخلاص في العمل ، أما إذا كان لمآرب شخصية ، ومنافع خاصة فيصبح كما قال رسول الله ﷺ : « يا علي ، من تعلم علماً ليماري به السفهاء ، أو يجادل به العلماء ، أو ليدعو الناس الى نفسه ، فهو من أهل النار »[9] .

وقال ﷺ واصفاً أهل العلم وأهل الجهاد :

« أقرب الناس من درجة النبوة ، أهل العلم والجهاد : أما أهل العلم فدلوا الناس على ما جاءت به الرسل ، وأما أهل الجهاز فجاهدوا بأسيافهم على ما جاءت به الرسل »[10] .

وكثيراً من الأحاديث التي أثرت عن الرسول ﷺ تحث المسلمين الى التقدم في المجالات العلمية ، أما ما أثر عن أئمة الهدى في فضل العلم والعلماء ، فأخبار كثيرة نلمح الى بعضها على سبيل المثال .

قال الامام علي (ع) :

« أيها الناس اعلموا أن كمال الدين طلب العلم والعمل به ، ألا وان طلب العلم أوجب عليكم من طلب المال ، إن المال مقسوم مضمون لكم قد قسمه عادل بينكم وضمنه وسيفي لكم ، والعلم مخزون عند أهله ، وقد أُمرتم بطلبه من أهله فاطلبوه »[11] .

وقال (ع) في كلام له لتميذه كميل بن زياد النخعي بعد أن أخذ بيده وخرج الى ناحية الجبانة : « يا كميل ، ان هذه القلوب أوعية ، فخيرها أوعاها ، فاحفظ عني ما أقول لك :

(8) الرحمن الآية 1 -2 -3 -4 .

(9) وهذا لا إشكال فيه عند أهل المنطق وأصحاب العقول السليمة راجع تحف العقول للحراني ص 43 .

(10) يراجع في هذه الأحاديث أصول الكافي ـ مسند أحمد ! سنن ابن ماجة ـ سنن الدارمي ـ مسند أبي داود ـ العقد الفريد .

(11) أصول الكافي ج 1 ص 31 .

الناس ثلاثة : عالم رباني ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع أتباع كل ناعق ، مع كل ريح يميلون ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجأوا الى ركن وثيق ، يا كميل : العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو على الإنفاق ، ومنفعة المال تزول بزواله ، يا كميل : محبة العلم دين يدان به ، يكسب الانسان الطاعة في حياته ، وجميل الأحدوثة بعد وفاته . والعلم حاكم والمال محكوم عليه . يا كميل : مات خزان المال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقي الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم في القلوب موجودة »(12) .

وقال أيضاً عليه السلام :

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم	على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرىء ما كان يحسنه	والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلم تعش حياً به أبداً	الناس موتى وأهل العلم أحياء

وقال أبو الأسود الدؤلي : « ليس شيء أعز من العلم ، الملوك حكام الناس ، والعلماء حكام على الملوك »(13) .

وقال الغزالي في إحياء علوم الدين :

تعلموا العلم ، فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه من لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة ، وهو الأنيس في الوحدة والصاحب في الخلوة ، والدليل على الدين ، والمصبِّر على السراء والضراء ، والوزير عند الاخلاء ، والقريب عند الغرباء ، ومنار سبيل الجنة ، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة سادة هداة ، يقتدى بهم أدلة في الخير ، تقتص آثارهم وترمق أفعالهم ، وترغب الملائكة في خلّهم ، وبأجنحتها تمسحهم ، وكل رطب ويابس لهم يستغفر حتى حيتان البحر وهوامه ، وسباع البر وأنعامه والسماء ونجومها ، لأن العلم حياة القلوب من العمى ، ونور الأبصار من الظلم ، وقوة الأبدان من الضعف ، يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى ، والتفكر فيه يعدل بالصيام ، ومدارسته بالقيام ، به يطاع الله عز وجل وبه يعبد ، وبه يوحّد ، وبه يمجد ، وبه يتورع وبه توصل الأرحام ، وبه يعرف الحلال والحرام ، وهو امام والعمل تابعه ، يلهمه السعداء ، ويحرمه الأشقياء »(14) .

وأخبار كثيرة مأثورة عن أئمة أهل البيت (ع) وكلها تدعو المسلمين الى تثقيف نفوسهم وتنوير أفكارهم بزينة العلم ، وتحثهم على الاهتمام به ، لا لمآرب شخصية ولا لمنافع خاصة ، وإنما لوجه الخير لجميع بني البشر لأن العلم أراده الاسلام أن يكون مباحاً حراً كالهواء يتنفسه جميع الخلق ، وكالشمس يستفيد من نورها كل من في وجهه نظر .

وقد شجب الرسول الأعظم جميع الدوافع المادية والمآرب الشخصية التي ينشدها من

(12) راجع العقد الفريد لابن عبد ربه ونهج البلاغة للشيخ محمد عبده .

(13) تذكرة السامع لابن جماعة .

(14) إحياء علوم الدين ج 1 ص 9 .

لا إيمان له(15) حتى يكون الداعي لطلب العلم خالصاً لوجه الله .

ورد في رسائل إخوان الصفا : على أن يكون الداعي لطلب العلم خالصاً لوجه الله غير مشفوع بأي جهة مادية ، فإن ما يعانيه الطالب من الجهد والعناء وما ينفقه من السهر المتواصل ، والتعب الشاق في تلقي العلوم لا ينبغي أن يقصد به مكسباً عظيماً يعود عليه وعلى المجتمع بالخير العميم ، وليس هناك أسمى قصداً ولا أكثر عائدة من أن يطلب به رضا الله واليوم الآخر . فقالوا : « إعلم يا أخي ان كل علم ، وأدب لا يحمل صاحبه على طلب الآخرة ، ولا يعينه على الوصول اليها ، فهو وبال على صاحبه وحجة عليه يوم القيامة »(16) . من هذا المنطلق ركز الاسلام أهدافه الأصيلة في إلزامه بطلب العلم وحتميته ، وقد حرص الاسلام على أن يكون طلب العلم نشر المعرفة وإشاعة التقوى بين الناس للتفقه في شؤون الدين ، ومعرفة أحكام الله ، وإبلاغها الى الناس كافة . قال سبحانه وتعالى :

﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾(17) .

يريد الاسلام بطلب العلم تهذيب النفوس ورفع مستوى الخلق وإبعادهم عن كل انحراف أو شذوذ ، كما يبغي في أهدافه التعليمية ، نشر العقيدة الاسلامية وتعريف الناس بأحكام الشريعة التي أنزلها رب العالمين على رسوله الأمين رحمة للناس أجمعين .

ومن دواعي التعليم في الاسلام إعداد الناس للحياة الدنيا والآخرة على حد سواء ، فدعا الانسان الى طهارة القلب وصفاء النفوس والشعور بالمسؤولية وكل ما يشجع نموه الفكري وتحسين حياته العامة .

قال سبحانه وتعالى :

﴿ وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾(18) .

ومن أهداف التعليم في الاسلام تفتح ذهن الانسان أمام مصالحه العامة ونشر الوعي السياسي والاجتماعي . قال رسول الله ﷺ : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته . . » فقد حمل كل فرد مسؤولية شخصية حسب طاقته ومنزلته وإمكاناته .

كما هدف العلم في الاسلام الى وحدة الأمة الاسلامية وتماسكها في جميع النواحي ، في العقيدة ، والسلوك ، والعبادة ، والتاريخ ، واللغة ، والمشاعر ، والأفكار ، وطلب من المسلمين ليكونوا جسماً واحداً تجمعهم رابطة الايمان بالله بدل رابطة النسب . قال تعالى :

﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون ﴾(19) . وقال سبحانه : ﴿ وإن هذه

---

(15) راجع الحديث ص 3

(16) رسائل إخوان الصفا .

(17) التوبة الآية 122 .

(18) القصص الآية 77 .

(19) الأنبياء الآية 92 .

أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾[20] .

هذا عن أهداف الاسلام التعليمية أما عن العلم الذي دعا إليه :

العلم الذي يدعو إليه الاسلام

لقد أراد الاسلام بعلمه الخير كل الخير للانسان ، أراد كل علم ينفع عباد الله ، وكل علم يدفع الجهل والهمجية ، سواء أكان في العقائد الدينية ، أم في الشؤون المادية ؛ فجميع العلوم الحياتية أرادها الله في كتابه العزيز كالعلوم الطبيعية ، والعلوم الاجتماعية ، والتاريخ والجغرافيا ، وعلم النفس ، حض الله المسلمين على تعلم هذه العلوم ليتعرفوا على الله من خلال عظمته المتجلية في آيات صنعه ، فكلما تأمل العالم في دقة هذه المصنوعات كلما ازداد إيماناً وإعجاباً بصانعها ، فاطر السماوات والأرض . قال تعالى : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾[21] . كما أن هناك حكماً أخرى وهي ما يتبع هذه العلوم من منافع مادية من استخدام الحقائق العلمية في تلبية الحاجات الانسانية .

دعوة الاسلام الى تعلم العلوم الطبيعية

ورد في القرآن الكريم ، الدستور الانساني الكامل ، آيات كثيرة تحض على تعلم العلوم الطبيعية . قال سبحانه وتعالى :

﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء[22] ﴾ وقوله تعالى أيضاً :

﴿ ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾[23] .

يتضح من سياق هاتين الآيتين أن العلماء هنا هم العالمون بأسرار الخلق التي أودعها الله في مخلوقاته المختلفة الأشكال والألوان . وموضوعها يبحث موضوع العلم الطبيعي نفسه . ففي آية فاطر مثلاً لا يعرف سر نزول الماء من السماء الا بعلم الطبيعة ولا يعرف تركيبه وخواصه الا بعلم الكيمياء ، ولا يعرف الانبات والاثمار فيهما إلا بعلم النبات ولا يعرف ما الجبال ولا ما طرائقها البيض والحمر والسود الا بعلم طبقات الأرض ، ولا يعرف اختلاف أجناس البشر والدواب والأنعام إلا بعلمي أصل الشعوب والحيوان . والله جل شأنه حصر الخشية الكاملة من الله في العلماء الذين يتدارسون آياته الكونية ، حيث ان علمهم بأسرار الطبيعة شملهم على خشية الخالق العلي العظيم .

---

(20) المؤمنون الآية 52 .

(21) فاطر الآية 27 .

(22) فاطر الآية 28-28

(23) الروم الآية 22 .

قال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾(24) . وقال سبحانه في هذا المعنى أيضاً :

﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ﴾(25) .

يرشح من هاتين الآيتين المباركتين تكليف المسلم لينظر فيما هو أمامه من الكائنات ، وليبحث فيما كانت عليه الأمم السالفة من قوة السلطان واتساع العمران وازدهار حياتهم الاجتماعية وتطورها نحو الأفضل من أجل تلبية حاجات الانسان ورغباته المتعددة .

ثم دعاه سبحانه ليتأمل ما آلت إليه تلك الأمم من هلاك ودمار لاتباعها الشهوات ، وانحرافها عن الصراط المستقيم ، فكانوا أنفسهم يظلمون . لقد أهمل هؤلاء تعاليم ما جاء به رسلهم بالبينات المشرقات ولم ينظروا في أسباب تكون الأمم في ارتقائها السلم الحضاري وتطورها وتقدمها ، حتى بلغت قمة الازدهار ، ثم انحطاط هذه الشعوب وخرابها ودمار ما حصلته من جهود ومآثر وتراث . فإذا ما تأملوا هذا الخط البياني في الارتقاء والانهيار والأسباب المؤدية إليهما ؟ أفلا يؤدي هذا التعرف كله الى القواعد والأصول في علمي الاجتماع والتاريخ بكل ما يشتملان عليه من مباحث ونتائج ؟

لو سألنا ابن خلدون عالم الاجتماع والتاريخ لاجابنا في مقدمته عن كل ما نريد بنتائج ايجابية لا محالة(26) .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان ﴾(27) .

من أسمى ميزات الحياة الروحية التعاون على الخير للنهوض بالحياة الاجتماعية الى المستوى الراقي الذي يؤدي الى رفاهية المجموع والتخفيف من آلام الآخرين ، أخوتنا في الدين وأمثالنا في الخلق . وقد أدركت الحضارة الحديثة ميزة التعاون وأهميته في العطاء والنجاح فانتشرت الجمعيات التعاونية في جميع نواحي الأرض التي يبغي أهلها التحضر والعمران . لذلك أمر الله عباده بالبر ويعني في اللغة : العطية والطاعة والصلاح والصدق والتقوى : وتعني أن يتقي الانسان مما يغضب ربه وما فيه ضرر لنفسه أو ضرار لغيره ، وذلك حتى يقي نفسه ويصونها .

ثم يأتي الشطر الثاني من الآية وهو النهي عن الإثم والعدوان .

فالإثم : هو عمل ما لا يحل ويشمل كل الرذائل الروحية .

---

(24) الروم الآية 9 .

(25) النمل الآية 69 .

(26) راجع المقدمة الفصل الأول (في العمران البشري) ص 35 .

(27) المائدة الآية 2 .

والعدوان : هو الظلم . فكل عمل يعود على الفرد أو على المجتمع بالفساد يدخل في نطاق الاثم .

فالتعاون الذي يدعو إليه الاسلام هو التعاون على البر والتقوى وليس التعاون على معصية الله والاضرار للناس ، فيصبح في حدود إسعاد النفس والغير ، وهو ما تطمح إليه الدول المتحضرة من استقرار وسلام .

علم النفس

لقد دعانا الله في القرآن الكريم إلى التفكير في أنفسنا ، والتبصر في وجودنا ، والنظر فيما نقدم لغدنا . قال سبحانه : ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾(28) . وقال عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾(2) .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ ألم نجعل له عينين ، ولساناً وشفتين ، وهديناه النجدين ﴾(30) .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾(31) .

أليس في كل هذه الآيات التي أوردناها على سبيل الذكر لا الحصر ، وغيرها ما يستنبط منه علم النفس بكل ما فيه من الميول والغرائز والبواعث والنزعات ، وكل ما يحيط بالنفس البشرية ؟ إن في ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون .

وماذا بعد ، مهما تفنن الانسان في إخفاء ما يضمر ، ومهما حاول لتهرب والانكار ، فإنه قاصر لا ريب . قال تعالى :

﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾(32) .

في القرآن الكريم نهل خصب لعلماء النفس في جميع مناحي النفس البشرية وفي جميع حالاتها ومجالات إصلاحها وتقويمها .

علم البيولوجيا

دعانا الله في كتابه العزيز لننظر في أنفسنا ، وكيفية ولادتنا بجميع أطوارها ، منذ الرحم حتى القبر . قال تعالى :

﴿ فلينظر الانسان مما خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب ﴾(1) يخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة (أضلاعها) .

فمن النظر في أصل التكوين يتوصل علماء البيولوجيا الى علم الحياة ، وفيه من عجائب نمو الجرثومة الانسانية وتقلبها في أدوار مختلفة وتطورها لتخرج الى الوجود .

(28) الذاريات الآية 21 .

(29) الحشر الآية 18 .

(30) البلد الآية 8-9-10 .

(31) المدثر الآية 38 .

(32) الطارق الآية 4 .

والتحليل العلمي للوراثة تظهر أن الانسان في بدء تكوينه إنما هو خلية صغيرة واحدة وهي أعجب ما في الكون ، ومن أعظم الأسرار وأدقها ، تدل لكل متأمل على عظيم قدرة الخالق تعالى خالق الكون ورب العالمين .

وهي تنشأ من نتيجة عملية اخصاب بين خليتين هما في غاية الدقة : البويضة[33] والحيوان المنوي[34] . وعندما تتحد هاتان الخليتان تنتجان نواة انسان جديد . وقد سألت أخي الدكتور محمد الحاج حسن إخصائي في الجراحة العامة وابن أخي الدكتور علي الحاج حسن إخصائي في الصحة العامة فأجاباني بما يلي :

عند تكوين الجنين في تلك اللحظة يكون نواة الانسان الجديد ذكراً أو أنثى طويلاً أو قصيراً ، ذكياً أو غبياً ، بعد أن يتم تلوين عينيه بالأسود أو الأزرق أو العسلي . . . . ففي هذه الخلية تنطبع جميع الصفات والمميزات للفرد الجديد . كل ذلك فصله سبحانه وتعالى خالق الكون ، منه كل شيء وإليه المصير :

﴿ لقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾[35] فسبحان الله رب العالمين والرحمن الرحيم الذي

---

(33) البويضة : حجيرة صغيرة جداً بيضوية الشكل ، تحتوي على قشرة فيها مادة مائية تسمى (بروتوبلازما) .

(34) ان الحيوانات المنوية المندفعة بكثرتها ، والتي تقدر بالملايين ، تقصد البويضة للقاح وحينما تشعر هذه بهجومها عليها تستعد لانتخاب أي منها وأنشطها حركة . وعندما يدنو الحوين منها يظهر على سطحها انتفاخ صغير من الجانب المقابل له ، ثم يرق قشره استعداداً لهجومه فيهجم الحوين عليها من جهة الانتفاخ ، ويثقبه برأسه ، ثم يلج في صميمها ، ويبقى ذنبه خارجاً فتنكمش البويضة عليه ، وتتقلص حتى تقطع ذنبه فيمتزج الحوين داخل البويضة بالنواة ، وبهذا يتم تكميل اللقاح . وبعد مدة قليلة تنزل البويضة من البوق الى الرحم حيث تلتصق بإحدى جدرانه الداخلية ، وتنمو هناك ، وتتقلب في أطوارها ، إذ تتكون فيها الأنسجة ، والأجهزة الحيوية العضوية ، وتظهر الاطراف والجذع والرأس بالتدريج ، ويحصل هذا غالباً في الشهر الثاني من الحمل ، ثم يستر هذا المجموع بغشاء قوي سميك يسمى (المشيمة) وظيفتها حفظ الجنين ، وتغذيته بواسطة أوعيتها الشعرية المنبثة في جدرانها حيث تمتص دم الأم الذي كان حيضاً قبل الحمل ، وهذه التغذية تكون بصورة كيماوية عجيبة أشبه ما تكون بجذور النبات للماء من الأرض ، وبعد كمال خلقة المشيمة يتولد داخلها سائل أصفر باهت الصفرة يسمى سائل الأمينوس) وهو يتولد من ترشحات الرحم المائية ومن الأغشية المحيطة به ، وفائدته أن يحيط بالجنين داخل الرحم ليدفع عنه كل ما تلاقيه الأم من هزات وصدمات مضافاً إلى أنه يحفظ للجنين الحرارة المناسبة له ، وهو مع ذلك كله يحدد عنق الرحم ويوسعه عند الولادة كما يقوم بتطهير الطريق وتعديمه أمام الجنين قبل الولادة ليسهل خروجه مع رفع الضغط الرحمي عليه حين الطلق إلى غير ذلك من الفوائد ، ثم بعد تكوين المشيمة ، وحدوث السائل ، وحصول هيكل الجنين ، يظهر الحبل السري في جانب السرة ، ويطول الى نصف متر أو أكثر وفائدته نقل الدم من الأم الى الجنين لتغذيته ، ثم إخراج الدم من الجنين الى الأم ليلتقي مع دم أمه في دورتها الدموية . هذا ما يقول العلماء عن تكوين الجنين في الرحم . وقد فصله سبحانه وتعالى بالآية الكريمة المذكورة .

(35) المؤمنون الآية 12 -13 -14 .

خلق فسوى ، والذي قدر فهدى ﴾[36] . والذي ﴿ جعل لكم السمع والابصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾[37] .

فعلى الانسان أن يتبصر بنفسه ويتأمل ملياً في تركيب جسده بجميع أجهزته عندها يعرف ربه جل وعلا . فمن سر معرفة المخلوق نقف على عظمة الخالق ، قال الرسول الأعظم : » من عرف نفسه عرف ربه «[38] .

علم الفلك

أشار القرآن الكريم الى قدرة الخالق عز وجل في تدبير أمور الكون تدبيراً دقيقاً يدهش ويسحر الألباب ، كل شيء جعل له نظاماً يسير عليه حسب حاجة الانسان إليه ، وكل شيء قدره تقديرا .

إذا تأمل الانسان في كل ما يحيط به هذا الكون الواسع ، وبصورة خاصة الكواكب ، تجلت له قدرة الخالق في كل شيء . جاء في شرح النهج :

فيك يا أعجوبة الكون غدا الفكر عليلا
أنت حيرت ذوي اللب وبلبلت العقولا
كلما أقدم فكري فيك شبراً فر ميلا
ناكصاً يخبط في عمياء لا يهدى السبيلا[39]

وعندما نقوم بتحليل ظواهر هذا الكون تحليلاً علمياً نرى آياته في أنفسنا وفي كل ذرة من ذرات هذا الوجود .

فلننظر هذه الكواكب المنتشرة في الفضاء التي تعد بمئات الملايين ، نلاحظ أن ما اكتشفه العلم الحديث من الكواكب يفوق العد والاحصاء . بحيث لو كنا نعدها بسرعة 1500 كوكباً في الدقيقة لاستغرق عدنا لها 700 سنة . ونسبة الأرض التي يرتع الانسان على سطحها يكاد يعجز عن بلوغ أطرافها يعدها العلماء أقل من نقطة على حرف في مكتبة تضم نصف مليون من الكتب من الحجم المتوسط[40] .

ومن المؤكد أنها لم تكن ناشئة عن الصدفة ، إذ كيف يستطيع العلماء الفلكيون من تفسير هذا الانتظام في ظواهر الكون والعلاقات السببية والتوافق والتوازن والتكامل التي تمتد آثارها من عصر الى عصر دون أي انحراف أو زلل . يقول العالم « كوتس » :

« إن هذا العالم الذي نعيش فيه مليء بالروائع والأمور المعقدة التي تحتاج الى مدبر ، ولا

---

(36) سورة الأعلى الآية 2-3 .
(37) النحل الآية 78 .
(38) المجازات النبوية للشريف الرضي .
(39) شرح النهج لابن أبي الحديد ج 13 ص 51 .
(40) راجع النظام التربوي في الاسلام ص 143 .

شك أن العلوم قد ساعدتنا على زيادة فهم وتقدير ظواهر هذا الكون وهي بذلك تزيد من معرفتنا بالله »[41] .

قال سبحانه وتعالى :

« إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون ﴾[42] .

وقال عز وجل :

﴿ الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر **كل يجري لأجل مسمى** يدبر الامر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون ﴾[43] .

وقال جل وعلا :

﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ، والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾[44] .

لقد حاولت الدول الكبرى بأقمارها الصناعية ، ومراكبها الفضائية التعرف عن كثب على واقع هذه الكواكب ، وصرفوا آلاف الملايين لمعرفة إذا كانت صالحة للحياة . ولكنهم ، ويا للأسف ، لم يصرفوا أفكارهم الى النظر في خالق هذه الكواكب ومبدعها ، ولم يتأملوا في نظامها العجيب ، وسيرها في مسيرة مرتبة يدهش العقول ويحير الألباب .

إن دورة الشمس ، ودورة الأفلاك ، ودورة الأرض ، مضبوطة بأحكام ، وذلك حسب سرعة الشعاع الذي يقطع 186 ألف ميل في الثانية . وعلى هذا النظام الدقيق انتظمت شؤون الكون بأجلى معانيها[45] .

ونسأل هؤلاء العلماء وغزاة الفضاء ، هل أمعنوا النظر في هذا الكوكب الذي نعيش على سطحه ، والمعلق في الفضاء يدور على محوره كل 24 ساعة دورة كاملة ، وسرعة حركته 1000 ميل في الساعة ، ويسبح حول الشمس مرة واحدة كل عام فيتكون بذلك تتابع الفصول الأربعة .

قال العلماء : إن الأرض لو دارت حول محورها بسرعة 100 ميل في الساعة لكان طول الليل عشرة أمثال ما عليه الآن ، وكذلك طول النهار ، ولكانت الشمس محرقة في الصيف لجميع النبات .

وقالوا : لو اقتربت الشمس من الأرض أكثر مما عليه الآن لازدادت الأشعة التي تصل

---

(41) الله يتجلى في عصر العلم ص 48 .

(42) يونس الآية 3 ..

(43) الرعد الآية 2 .

(44) يسن الآية 37 -38 -39 -40 .

(45) راجع النظام التربوي في الاسلام ص 144 .

إليها الى درجة تمتنع الحياة فوقها . وإذا ابتعدت عنها أكثر لحدث العكس ومات جميع الخلق من شدة البرودة ودوام الجليد .

ولو كانت الأرض بحجم القمر لعجزت عن احتفاظها بالغلاف الجوي والمائي اللذين يحيطان بها ، وارتفعت فيها درجة الحرارة الى حد الموت .

أما إذا كان قطرها ضعف قطرها الحالي لأصبحت جاذبيتها للأجسام ضعف ما هي عليه ، ولزاد بذلك الضغط الجوي وتعطلت الحياة .

ولو كانت الأرض قدر حجم الشمس لتضاعفت جاذبيتها للأجسام التي عليها الى 150 ضعفاً ، ونقص بذلك ارتفاع الغلاف الجوي ، ووصل وزن الكائنات الحية الى زيادة 150 ضعفاً عن وزنها الحقيقي ، وعندها تتعطل بلا ريب الحياة الفكرية للانسان بصورة عامة .

وبحكمة ربانية « خص الله الأرض بميزة أخرى ، بأن جعل لها خلافاً غازياً كثيفاً سميكاً يقدر (بـ 800) كيلومتر تقريباً وهو يحفظ درجة حرارتها في الحدود المناسبة للحياة ، ويحمل بخار الماء من المحيطات إلى مسافات بعيدة داخل القارات حيث يتكاثف مطراً يحيى به الأرض بعد موتها ، كما أنه السبب في حيلولة الشهب القاتلة إلى الأرض ، وهو السبب في إيصال حرارة الشمس بصورة معتدلة ، بحيث يمكن أن تعيش على سطح الأرض جميع الكائنات الحية . . . وليس لبعض الكواكب هذا الغلاف مما سبب عدم ظهور الحياة عليها فالمريخ له غلاف غازي رقيق خالٍ من الأوكسيجين مما جعله غير صالح للحياة[46] .

التعليم الالزامي في الاسلام

إمتاز الاسلام على بقية الأديان والمذاهب أنه أوجب على المسلمين تحصيل العلوم وجوباً كفائياً ، كما أوجب عليهم التفقه في شؤون دينهم ، وجوباً عينياً ، أما تقليداً أو اجتهاداً . قال رسول الله ﷺ :

« طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » .

حتم الاسلام على جميع المسلمين تحصيل العلوم الدينية والزمنية من أجل تطويرهم ، وتنظيم حياتهم وتثقيفهم ثقافة إنسانية عالية ، وفرض على الدولة أن تقوم بدور إيجابي وتسعى جاهدة الى نشر العلم والمعرفة بين الناس . لاقصاء الجهل عن واقع حياتهم وتحطيم أغلال الأمية في ديارهم .

ولأن التعليم ضرورة من ضروريات الحياة ، وعنصر هام في تطور المجتمع ورقية ، ألزم الاسلام به كقاعدة اجتماعية في بناء مجتمع متحضر ، وجيل واع مستنير ، يلتزم بالحق ويسعى من أجل إحقاقه .

وحري بنا أن نتأمل كيف عمل الاسلام على إخراج الأمة العربية من الظلمات الى النور، وكيف أشرقت الرسالة النبوية بأشعتها الساطعة التي أضاءت الكون وانارت عقول الناس. فأقبل العلماء المسلمون والصحابة الأجلاء ينهلون من معين الرسول الأعظم ﷺ ما جعلهم

(46) راجع النظام التربوي في الاسلام ص 145 .

سادة الأمم ، وقادة المفكرين ، وخير أمة أخرجت للناس أجمعين . أولئك الأئمة الأطهار والعلماء الأبرار ، المصابيح الساطعة التي بددت الظلمات وقضت على جهل الجاهلين . يأتي على رأسهم أول القوم إسلاماً ، خليفة الرسول الأعظم ﷺ وابن عمه وصهره ووزيره الذي أدبه فأحسن تأديبه ، وعلمه فأحسن تعليمه حتى قال النبي ﷺ : «أنا مدينة العلم وعلي بابها» ولا يمكن لأحد أن ينكر أن علياً كان أول معلم للمسلمين بعد الرسول ﷺ يأتي بعده سبطاه الحسن والحسين عليهما السلام اللذين نشرا لواء العلم خفاقاً بعد أبيهما . وقد سار على نهجهما الامام علي زين العابدين (ع) ، وووولده الباقر (ع) الذي لقب بباقر علوم الأولين والآخرين ، ثم الامام جعفر الصادق (ع) العلم المعروف لدى أهل العلم والفضائل ، والذي تخرج على يده آلاف العلماء من تلاميذه وتلاميذ تلاميذه وكل من جاء بعدهم جميعاً نهلوا من معينه الذي لا ينضب وثمرة جهاده المتواصل ، أمثال : أبي حنيفة وجابر بن حيان ، ومحمد بن مسلم وزرارة بن أعين . وغيرهم من العلماء المعروفين .

لقد ناضل الامام الصادق في سبيل إرساء قواعد العلم ، ومحاربة الجهل ، ونشر الفضيلة بين جميع أفراد الأمة ، فكان المثل الأعلى في كفاحه الذي سار عليه أحفاده من بعده ، ونهجوا منهجه فكانوا خير خلف لخير سلف حتى آخرهم ، وهو الامام محمد بن الحسن عليهم السلام أجمعين .

وإذا أردنا أن نستعرض ما بذله الأئمة الاثنا عشر الأطهار في سبيل نشر العلم وخدمة الدين لاحتجنا الى مجلدات :

قال علي بن أبي طالب (ع) يحث على تهذيب الناشئة وتأديبها :

حَرِّضْ بنيك على الآداب في الصغر	كيما تقر بهم عيناك في الكبر
وإنما مثل الآداب تجمعها	في عنفوان الصبا كالنقش بالحجر
هي الكنوز التي تنمو ذخائرها	ولا يخاف عليها حادث الغير
إن الأديب إذا زلت به قدم	يهوى الى فرش الديباج والسرر
الناس اثنان ذو علم ومستمع	واع وسائرهم كاللغو والعكر[47]

أجر المعلمين

أكثر العلماء كانوا يتأثمون من الاكتساب بالتعليم في أكثر العصور الاسلامية وغايتهم كسب رضى الله والدار الآخرة ، لأن التعليم بنظرهم هداية الى الله ولا يصلح أن يأخذوا عليه أجر . وهم بذلك يتأسون سير الأنبياء عليهم السلام . يقول الحاج خليفة في كشف الظنون :

« فالعلوم ليس الغرض منها الاكتساب بل الاطلاع على الحقائق وتهذيب الأخلاق على أن من تعلم علماً للاحتراف لم يأت عالماً إنما جاء شبيهاً بالعلماء ولقد كوشف علماء ما وراء

(47) راجع الأخلاق الاسلامية للسيد علي فضل الله ص 223 .

النهر بهذا الأمر ونطقوا به ، ولما بلغهم بناء المدارس في بغداد ، أقاموا مأتم العلم . وقالوا : كان يشغل به أرباب الهمم العالية والأنفس الزكية الذين يقصدون الشرق والكمال به فيأتون علماء ينتفع بهم وبعلمهم ، وإذا صار عليه أجرة تدانى اليه الاخساء وأرباب الكسل . . . »[48] .

فالغاية كانت فائدة الناس وكسب رضى الله وليس تحصيل الأجر المادي ، حتى كانت العصور العباسية واتسعت معها الحركة العلمية اتساعاً هائلاً ، وأخذ المتعلمون يدخلون جهاز الحكم في الدولة وينالون بعلمهم مراكز عالية . ومنذ ذلك الوقت أصبح العلم سبباً للمعيشة يؤخذ عليه أجر مادي . جاء في المقدمة لابن خلدون :

« وأصبح العلم من جملة الصنائع والحرف واشتغل أهل العصبية بالقيام بالملك والسلطان ، فدفع للعلم من قام به سواهم وأصبح حرفة للمعاش » واليوم ما زالت الجامعة الدينية الكبرى في النجف الأشرف تحتفظ بطابع التعليم المجاني في جميع مراحل الدراسة . وكذلك هي الحال في جامعة قم في ايران ، لا يؤخذ فيها على التعليم أي أجر وإنما هو خالص لوجه الله تعالى . قال سبحانه وتعالى :

﴿ . . . يبتغون فضلاً من الله ورضوانا ﴾[49] .

تحديد سن التعليم

إهتم الاسلام بجميع الجوانب التعليمية ومنها تحديده سن التعليم بما يتفق والنمو الفكري للطفل حتى يستطيع استيعاب الكلام صورة ومضموناً .

روى عن الامام الصادق (ع) الذي لم يترك باباً من أبواب العلم إلا ولجه وبرز فيه . فقد حدد سن دخول الطالب المدرسة في السنة السابعة من عمره .

جاء في الوسائل : « الغلام يلعب سبع سنين ، ويتعلم الكتاب سبع سنين ، ويتعلم الحلال والحرام سبع سنين »[50] .

إن إرسال الأطفال قبل هذه السن الى المدرسة ، كما يحصل عندنا اليوم ، يخلق عندهم مضاعفات سيئة ، تؤثر في نموهم الفكري بما تخلق في نفوسهم من الضجر والملل . وقد أكدت الدراسات السيكولوجية الحديثة ومنظمة الأونيسكو العالمية ، ان إرسال الطفل الى المدرسة قبل أن يبلغ هذه السن يرهقه ويضعف تفكيره . والواقع أن الأهل يرسلون أطفالهم الى المدارس والكتاتيب مبكرين لا يقصدون تعليمهم ، ولكنهم يريدون التخلص من متاعبهم وإبعادهم عن البيت »[51] .

وظاهرة هامة أكد عليها الاسلام ورعاها ، وهي ضرورة قيام المربين بالتعاون مع أهالي

---

(48) كشف الظنون للحاج خليفة ج 1 ص 53 .
(49) المائدة الآية 2 .
(50) وسائل الشيعة ج 7 ص 194 .
(51) التخطيط للتربية والتعليم لمحمد علي حافظ ص 88 .

الطلاب ، بتغذية الأطفال بالروح الدينية التي تبعدهم عن الالحاد ، وتخلق في نفوسهم مناعة تحميهم من الانحراف والأفكار الإلحادية . قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) :

« إنما قلب الحدث كالأرض الخالية ما لقي فيها من شيء قبلته »(52) .

فسلام عليك يا أبا الحسن لقد أبدعت في معارف الحياة وكل ما يصلح من شأن الفرد وشأن المجتمع وشأن الانسانية !

فالطفل أشد قابلية للتشكيل ، وأطوع ما يكون للتأثير بأي فكرة كانت فهو كالصفحة البيضاء ، يكتب عليها الأهل والمجتمع ما يريدون ، فدعوتنا لهم الى الدين الاسلامي إنما هي تطهير لنفوسهم من الزيغ والضلال .

ومن المؤسف في عصرنا الحاضر أن إهمال الآباء والمربين وعدم توجيههم الجيل الناشىء توجيهاً صحيحاً ، يتسم بالتوازن والاستقامة وحسن السلوك ، جنى على الأطفال الكثير من الأوبئة المستوردة من الغرب ، حتى انعدمت فيهم جميع المقاييس السليمة والقيم الانسانية التي دعا اليها الاسلام ألزم المربين بمراعاتها والقيام بها خير قيام .

وقد احتفى الاسلام بالمعلم احتفاءً بالغاً لأنه اللبنة الأولى في رقي المجتمع وتكامله ، ولأنه يزرع البذور الخيرة في نفوس الأفراد والجماعات ، فيتبنى أفكارهم ويوجههم التوجيه الصالح .

أثر عن النبي ﷺ أنه رأى مجلسين واحد فيه جماعة يدعون الله عزّ وجل ، والثاني جماعته يعلمون الناس . فقال ﷺ : « أما هؤلاء فيسألون الله فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم ، وأما هؤلاء فيعلمون الناس ، وإنما بعثت معلماً »(53) ثم عدل إليهم وجلس معهم مشجعاً لهم على أعمالهم .

المعلم في الاسلام قدوة حسنة

ينظر الطلاب الى المعلم نظرة تقدير وإعجاب لأنه في نظرهم المثل الأعلى لهم ، يقلدونه في كل ما يعمل ويقول ، ومنه يكتسبون العادات والسلوك والسيرة الحسنة . فالحسن عنده حسن عندهم والقبيح عنده قبيح عندهم . ورد في عيون الأخبار عن بعض الخلفاء لمعلم ولده :

« ليكن إصلاحك بنيّ إصلاحك لنفسك ، فإن عيوبهم معقودة بعيوبك فالحسن عندهم ما استحسنت والقبيح عندهم ما استقبحت »(54) .

وقال مرب في مفتاح السعادة : « إن أكثر الناس مقلدون ينظرون الى حال القائل ، فلتكن عناية المعلم بتزكية نفسه أكثر منه بتحسين علمه ونشره »(55) . فالمعلم يراقبه طلابه دائماً

(52) وسائل الشيعة ج 7 ص 197 .

(53) النظام التربوي في الاسلام ص 176 .

(54) عيون الأخبار لابن قتيبة ج 2 ص 166 .

(55) مفتاح السعادة لطاش كبرى زادة ج 1 ص 43 .

ويأخذون عنه من حيث لا يعلم . لذلك وجب على المعلم أن يراقب نفسه ويحاسبها محاسبة دقيقة ليتجنب الوقوع في الأخطاء . وإن اشتغال الانسان بعيب نفسه يجعله لا يلتفت إلى عيوب الآخرين . قال علي بن أبي طالب (ع) : « من حاسب نفسه ربح ، ومن غفل عنها خسر ، ومن خاف أمن ، ومن اعتبر أبصر ، ومن أبصر فهم ، ومن فهم علم »(56) .

وعلى العالم أن يعمل بما يعلم وإلا أصبح علمه كالكنز المخبوء لا يستفيد منه أحد . جاء في مختصر جامع بيان العلم : « إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته من القلوب كما يزل القطر عن الصفا »(57) .

ومن الأبيات المنسوبة لأبي الأسود الدؤلي قوله :

يا أيها الرجل المعلم غيره	هلا لنفسك كان ذا التعليم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله	عار عليك إذا فعلت عظيم
وابدأ بنفسك فانهها عن غيها	فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل إن وعظت ويقتدى	بالقول منك وينفع التعليم

آداب المعلم

لكي يكون المعلم قدوة حسنة عليه أن يتخلق بصفات وآداب تجعله مثالاً يحتذى بين أفراد مجتمعه . من هذه الصفات التي أدلى بها كبار علماء التربية :

1 ـ أن يقصد بعمله التهذيبي وجه الله ، وأن يكون اشتغاله بالتعليم في سبيل الله لا طمعاً في مال أو جاه .

2 ـ أن يكون قوي اليقين بالله عز وجل ، وأن يقوم بشعائر الدين ويتخلق بمحاسن الأخلاق ، حتى يقذف الله في قلبه الفهم . قال ابن مسعود : « ليس العلم بكثرة الرواية إنما هو نور يقذفه الله في القلب » .

3 ـ ان لا ينصب نفسه للتعليم حتى يستكمل أهليته ، ويشهد له أفاضل العلماء . قال الشبلي : « من تصدر قبل أوانه ! فقد تصدى لهوانه » .

4 ـ أن يبتعد ما استطاع عن الحكام وأصحاب السلطة . قال الامام الأوزاعي : « ما شيء أبغض الى الله من عالم يزور وزيراً » .

5 ـ أن يعتني بنظافة جسمه ، وحسن هندامه ، واجتناب المكروه وغير المألوف .

6 ـ أن يحب طلابه ، ويسعى في حل مشاكلهم ما استطاع ويبعدهم عن كل أذى .

7 ـ أن يغفر لطلابه خطاياهم ، وإن أراد تنبيههم على ما بدر منهم من هفوات لمح لهم ، فإن لم يتعظوا صرح لهم ، فإن لم يفدهم ذلك وبخهم . قال رسول الله ﷺ : « علموا ولا تعنفوا ، فإن المعلم خير من المعنف » .

---

(56) راجع نهج البلاغة

(57) مختصر جامع بيان العلم لطاش كبرى زادة ص 98 .

8 ـ ان يتفهم مستوى طلابه ، ويخاطبهم على قدر فهمهم وإدراكهم فيكتفي للذكي بالاشارة ، ويوضح لمن خفي عليه الشرح أول مرة بالعبارة ، ويكرر لمن لا يعلم دون إظهار الضجر والملل .

9 ـ أن يحرضهم على مواصلة العمل إذا ما بدر منهم فتور ، ويطالبهم بإعادة محفوظاتهم ، فمن وجده حافظاً أثنى عليه أمام رفاقه ، ومن وجده مقصراً عنّفه أمام الجميع .

10 ـ أن لا يطيل عليهم ، ولا يعلمهم ما لا يحتمله ذهنهم ، ولا يمكنهم من الاشتغال بعدة علوم لا يستطيعون اتقانها معاً .

11 ـ أن يساوي بين طلابه فلا يميز بعضهم على بعض إن في المجلس أو المعاملة .

12 ـ أن يرعى ميول المتعلم ورغباته النفسية ، فلا يكرهه على علم لا يرغبه . فإن لم يكن عنده ميل أرشده إلى علم سواه يرى فيه مصلحته .

قال ابن سينا : « ليس كل صناعة يرومها الصبي ممكنة له ومؤاتية ، ولكن ما شاكل طبعه وناسبه ، وإنه لو كانت الصناعات والآداب تجيب وتنقاد بالطلب والمرام دون المشاكلة ، ما كان أحد غفلاً من الأدب ، وعارياً من صناعة . وإن لو اجتمع الناس كلهم على اختيار أشرف الآداب وأرفع الصناعات ، وربما نافر طباع الناس جميع الآداب والصناعات فلم يعلق منها بشيء . . . ولذلك ينبغي لمدير أمر الصبي إذا رام اختيار صناعة أن يزن أولاً طبع الصبي ويسبر قريحته ، ويختبر ذكاءه فيختار له الصناعات بحسب ذلك » .

13 ـ أن يكون دقيقاً في معاملته لطلابه وحذراً لكل حركة في الصف .

14 ـ أن ينمي في نفوس طلابه الرغبة إلى العلم ، فيبين لهم أنه من أهم المكاسب التي تعود عليهم وعلى المجتمع بالخير العميم ، فإن هذه النزعة الكريمة إذا انطبعت في نفوسهم اندفعوا وراء العلم بلذة وشوق وازدهرت بذلك الحياة الفكرية والعلمية والأدبية في البلاد(58)

حقوق المعلم

كما على المعلم مسؤوليات كبيرة له حقوق وافرة على طلابه ، فهو مصدر معرفتهم بخبرات الحياة ، وهو مصدر نجاحهم في مستقبلهم . لذلك حقه عليهم أكثر من حق آبائهم، لأن الآباء إذا كانوا سبب وجودهم فإن المعلمين سبب سعادتهم ونجاحهم . فمن الطلاب أن يكنوا لمعلميهم أسمى ألوان الاحتفاء والتبجيل .قال الامام زين العابدين (ع) :

« وأما حق سائلك بالعلم فالتعظيم له ، والتوفير لمجلسه ، وحسن الاستماع إليه ، والاقبال عليه ، والمعونة له على نفسك فيما لا غنى بك عنه من العلم بأن تنزع له عقلك ،

---

(58) راجع المصادر الآية : تدريب الراوي ص 128 . وإحياء علوم الدين ج 3 ص 62 . وتذكرة السامع ص . 30

وتحضره فهمك وتـذكي له قلبـك ، وتجلي لـه بصرك بتـرك اللذات ، ونقص الشهوات ، وأن تعلم أنـك فيما ألقى إليـك رسولـه الى من لقيك من أهـل الجهل فلزمـك حسن التأدية عنـه إليهم ، ولا تخنه في تأدية رسالته ، والقيام إذا تقلدتها »(60) .

إن احتـرام المعلمـين واجب عـلى الـطلاب ، الجيـل المعـد للمستقبـل ، وعـلى الأمـة بأسرهـا . لأن في صلاح الفـرد صلاح المجتمـع ، ولانها تستمد من المعلمـين عوامـل نهضتها ورقيها . والحضارة الانسانية لم تـزدهر إلا عـلى أيدي المعلمـين ، ولم تتحقق آمالهـا الجسام إلا بفضلهم . أولئك الذين قدموا عقولهم وأعصابهم وراحتهم وكل ما عندهم من حول وقـوة في سبيل غيرهم . وهل هناك أكبر تضحية من إنسان يجود بنفسه من أجل الآخرين !

لا ريب أن « الجود بالنفس أسمى غاية الجود » .

المعلمـون الصالحـون علموا النـاس الايثار ، شعـار النفوس الكبيـرة الساعيـة لخـدمـة الانسانية ، والعامل الهام في توثيق المحبة بين أفراد المجتمع .

الايثـار الذي دعـا إليه القـرآن ومدح قـوماً تخلقـوا به . قـال تعالى : ﴿ ويؤثـرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾(61) .

فانظر معي هذه الدعـوة التي تدل عـلى عمق التربيـة الروحيـة التي غرسهـا الاسلام في نفوس اتباعه ، وفيها قبس للذين ينشدون السمو الروحي لخير المجتمع وخير الناس أجمعين .

فعلينا احترام المعلمين الذين بفضل جهودهم تأسست الحضارة ، وازدهرت معالم الحياة وتحققت آمال الأمة في جميع مراحلها ، كما علينـا أن نعلم أولادنا احتـرام معلميهم وتقديـرهم وأن يرددوا قول الشاعر العظيم أحمد شوقي :

قـم لـلمـعـلـم وفـه الـتـبـجـيـلا ... كـاد المـعـلـم أن يـكـون رسـولا
أرأيـت أشـرف وأجـل من الـذي ... يـبني ويـنشـىء أنفسـاً وعقـولا(62)

آداب المتعلم

ذكرنا قبل قليل اهتمـام الاسلام بـالمعلم وما يجب أن يتحـلى به من صفـات وآداب ولا ننسى عنـايته واهتمـامه بشـأن طلاب العلم ، حيث وضـع لهم المناهـج الرفيعـة الهـادفـة إلى تهذيبهم وتعليمهم الأخلاق الكريمة والآداب الفاضلة .

وقد أوجزها علماء التربية الاسلامية فقالوا :

1 ـ على طالب العلم أن يطلب علمه لله والدين لا لأمور الدنيا ، ولا لأغراضها الزائلة ، لأن من عقد النية على الاخلاص لله ، رفـع الله من شأنـه ، وسهل لـه العسير من الأمـور ، وقذف في قلبه النور والهداية في الدنيا والآخرة .

(60) تحف العقول ص 260 .
(61) الحشر الآية 9 .
(62) راجع الديوان لشوقي .

2 ـ أن يحافظ على شعائر الدين ومكارم الأخلاق ، وإظهار السنن ويطهر قلبه من الصفات الذميمة كالحسد والكبرياء والكذب والرياء والغيبة والغضب والسخرية واللمز واللغو وغيرها من الصفات الرذيلة التي تحجب عنه التوفيق وتسد أمامه طريق النجاح .

قال بعض المربين المسلمين : « كما لا تصح الصلاة إلا بتطهير الظاهر من الأحداث والأخباث ، فكذلك لا تصح عبادة القلب بتعلم العلم إلا بعد طهارته من خبائث الأخلاق ، ونجاسات الصفات ، وليس العلم بكثرة الرواية إنما هو نور يقذف في القلب » .

3 ـ على الطالب أن يتزين بالحلم والوقار والتواضع والمحبة . قال رسول الله ﷺ « تعلموا العلم ، وعلموه الناس ، وتعلموا الوقار والسكينة ، وتواضعوا لمن تعلمتم منه العلم ، وتواضعوا لمن علمتموه العلم ، ولا تكونوا جبابرة العلماء . . » .

وقال الامام جعفر الصادق (ع) : « أطلبوا العلم وتزينوا معه بالحلم والوقار ، وتواضعوا لمن طلبتم منه العلم ، ولا تكونوا علماء جبارين ، فيذهب باطلكم بحقكم » .

ولا ريب أن العالم المتواضع يحبه الناس ويجذبهم إليه كما يجذب الزهر الطيب النحل لامتصاص رحيقه .

4 ـ أن يجدّ في تحصيله ويبذل قصارى جهده ، لأن تحصيل العلم هو من الأمور الكسبية وليس إلهامياً ، فكلما سعى طالب العلم وثابر جاهداً ظفر بالثروة العلمية ، وعليه أن يكسب وقته كاملاً ولا يتأخر عن موعد الدراسة لأن الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك .

5 ـ كما عليه أن لا يرهق نفسه بالدراسة المتواصلة ، لأن ذلك يعيق نموه الفكري ويضعف قوة ذاكرته في التركيز والتحصيل . فالذاكرة عندها طاقة معينة لدى كل فرد منا فلا يجوز أن نتعدى حدودها ونحملها فوق طاقتها . وإن لجسمنا علينا حقاً فلا بد من رعايته وكل جهد فكري يلزمه راحة جسدية . قال الغزالي في هذا المجال :

ينبغي أن يؤذن للولد بعد الانصراف من المكتب أن يلعب لعباً جميلاً ، يستريح إليه من تعب العلم بحيث لا يتعب في اللعب ، فإن منع الصبي من اللعب وارهاقه في التعليم مما يميت قلبه ، ويبطل ذكاءه ، وينغص عليه العيش ، حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه » .

وقد أكد المربون في العصر الحديث على وجوب إعطاء فرص لراحة الطالب بعد الدرس حتى يجدد نشاطه ويعود بشوق الى متابعة التحصيل .

6 ـ أن يسأل أسئلة استفهام وليس أسئلة تعنت وتعجيز . قال رسول الله ﷺ : « العلم خزائن مفاتيحها السؤال ، ألا فاسألوا ، فإنه يؤجر فيه أربعة : السائل ، والعالم ، والمستمع ، والمحب لهم .

7 ـ أن لا يجمع في دراسته بين علمين في وقت واحد فإن ذلك مما يوجب انشغال فكره ، ويخلط عليه الأمور . « فإنه حينئذٍ قل أن يظفر بواحد منهما لما فيه من تقسيم البال ،

وانصرافه عن كل واحد منهما إلى تفهم الآخر » .

8 ـ عليه أن لا ينتقل من درس إلى آخر إلا بعد اتقان الدرس الأول واستيعابه لأن إهماله يؤدي به الى التأخير وعدم الفهم . ذلك أن الدروس حلقات متصل بعضها ببعض ولا يجوز إهمال حلقة منها .

9 ـ أن لا يعاشر غير المجدين من رفاقه لأنه يتأثر بسلوكهم ويعتاد على الاهمال مثلهم .

10 ـ أن ينظر الطالب الى استاذه نظرة إجلال واحترام ، فلا يناديه باسمه بل يخاطبه بأسمى عبارات التكريم[63] .

---

(63) راجع المعيد للعلموي ص 13 . وأصول الكافي ج 1 ص 36 .

الفصل الخامس

التربية المهنية في الاسلام

دعا الاسلام الى تعويد أصحاب المكاسب والمهن الى التحلي بالفضائل والأخلاق الاسلامية ، فحثهم على إتقان أعمالهم ، وعدم الغش ، وزيادة الانتاج وتنميته ، والاحتياط في المكاسب ، كما طلب اليهم تطوير أعمالهم بما يتفق مع ارتقاء الأمة وتطويرها في المجالات الاقتصادية ، من تجارة ، وصناعة ، وزراعة ، لتطرد البؤس من ديارها وتحرر رقاب الناس من الفقر والحرمان .

وضع الاسلام أروع المناهج التربوية لأصحاب المهن والحرف والعمال وهذه بعض نماذج منها :

أ ـ إتقان العمل :

طلب الاسلام من أصحاب العمل الاخلاص في أعمالهم وإتقانها وليبذلوا في ذلك كل طاقاتهم من نشاط ومهارة وفن . قال الرسول الأعظم : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » فالذي لا ينصح في عمله لم يظفر بالمال الحلال ويكون آكلاً ماله بالباطل .

ب ـ الابتعاد عن الغش

حرم الاسلام الغش وأمرنا بالبعد عنه ، لما يسبب من أضرار اقتصادية واجتماعية في البلاد . وقد تواترت الأخبار في تحريمه . قال النبي ﷺ : « من غش مسلماً في بيع أو شراء فليس منا ، لأن من غش الناس ليس بمسلم » ويجب إنجاز العمل في موعده لأن من علامات المنافق « إذا وعد أخلف » . وإذا كان تاجراً علية ألا يخدع وألا يكذب وألا يحلف كاذباً فيه يقول عليه الصلاة والسلام : « التاجر الأمين الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء » وقال ﷺ : « اليمين الفاجرة منفقة للسلعة ممحقة للكسب » .

وقال الامام الصادق لرجل يبيع الطحين : « إياك والغش ، فمن غش غش ماله ، فإن لم يكن له مال غش في أهله . . . » .

ج ـ الابتعاد عن الأعمال المحرمة

على العامل أن يعمل في أعمال حلال أقرها الاسلام ويبتعد عن الأعمال التي حرمها الله ، لأن ما يظفر به من راتبه أو أجر يجب أن يكون من عرق جبينه بعد كد وجهد . فهو مسؤول كيف يحصل المال وكيف ينفقه .

وقد نص الاسلام على الأعمال المحرمة التي تجر الى المآثم والمفاسد كتجارة الخمور ومختلف ميادين اللهو . . .

ومن واجب العامل أن يكون قوياً على العمل أميناً فيه ، نشيطاً في طرق تنفيذه . جاء في قوله تعالى : ﴿ إن خير من استأجرت القوي الأمين ﴾(1) .

د ـ القوة والحزم

الكسل والخمول موجب لشل الحركة الاقتصادية ، وتجميد طاقات الانسان . لذلك دعا الاسلام الى بث روح النشاط والحزم في نفوس العمال وذوي المهن قال الامام الصادق : « إياك والكسل والضجر فإنهما مفتاح كل سوء ، إنه من كسل لم يؤد حقاً ، ومن ضجر لم يصبر على حق . . . »(2) .

وقد تحدثنا عن حقوق العامل وحق العمل في فصل سابق من كتابنا هذا .

هـ ـ التخصص المهني

التخصص المهني يدفع بالبلاد الى التطور وزيادة الانتاج ، وهو من علامات البلدان المتحضرة الراقية المزدهرة اقتصادياً ، وعلى الدولة تقع مسؤولية تشجيع الراغبين في ميادين التخصص المختلفة التي تحتاجها الدولة من أجل نهضتها الاقتصادية الرائعة ، فترسل المتفوقين من طلابها الى المعاهد للتخصص في المهن في داخل البلاد أو خارجها . وأن تقوم بالانفاق عليهم طوال فترة تخصصهم . وذلك من أهم واجباتها الاجتماعية لأنه يعود على البلاد بالخير العام وزيادة الانتاج وتحسينه .

و ـ المحافظة على مصادر الثروة وأدوات الانتاج

على الدولة أن توجه العمال وذوي المهن ليعملوا بوعي وإخلاص على الحفاظ على مصادر الثروة وتنميتها ، لأن لا تطور لأية أمة في مجالاتها الاقتصادية ، ما لم يكن وعي عام عند العمال وتوجيه خاص من ذوي الاختصاصات للحفاظ على مصادر الثروة الوطنية وتنميتها . وهنا يكمن دور وزارة التصميم الهام جداً .

فهذه الوزارة هي أم الوزارات كلها ، ومنها تنطلق البرامج والتخطيطات لجميع احتياجات الدولة في جميع مجالاتها الحيوية والانمائية .

كما على ذوي المهن والعمال المحافظة على آلات العمل وأدوات الانتاج من صيانة وإصلاح وعدم تعريضها للتلف لأنها وديعة عندهم ، ومن واجبهم الحفاظ عليها لأن التفريط بها يضر برب العمل من جهة وبالاقتصاد العام من جهة أخرى .

إن الاسلام لم يترك مجالاً واحداً من مجالات الحياة إلا وضع له منهجاً واضحاً سليماً يهدف الى تحسين أوضاع الانسان وتطويرها نحو الأصلح والأفضل . فحث على العمل

---

(1) القصص الآية 26 .

(2) من لا يحضره الفقيه للقمي .

الصالح الشريف ، وأكد في كثير من آياته على الأعمال الصالحة . أمرنا الله بالعمل ووضع علينا عدة مراقبين ليكون عملنا متقناً ناجحاً . المراقب الأول : الله عز وجل والمراقب الثاني الرسول ﷺ والمراقب الثالث : المؤمنون . جاء في الكتاب الكريم : ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله أعمالكم ورسوله والمؤمنون ﴾[3] . ثم عين لنا نوع العمل وكيفيته وقيمته .

العمل الصالح المفيد ، ولا يكون العمل صالحاً حتى يكون متقناً مستكملاً من جميع وجوهه . جاء في القرآن الكريم قوله عز وجل :

﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ﴾[4] .

ثم دعانا سبحانه إلى المنافسة في العمل وتجويده . قال سبحانه : ﴿ قل كل يعمل على شاكلته ﴾[5] .

وطلب منا الدقة البالغة في العمل : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾[6] .

الى غير ذلك من الآيات الكريمة التي نحتاجها في جميع المجالات الحياتية والاقتصادية المفيدة ، فحرم الربا ، وحرم كنز المال ، وحرم القمار ، وحرم أكل أموال الناس بالباطل ، وذم الاسراف ، وأوصى بالفقراء ، وطلب الانفاق في سبيل الله . إنه قول عزيز حكيم ، هدى للعالمين .

---

(3) التوبة الآية 105 .

(4) الكهف الآية 110 .

(5) الاسراء الآية 84 .

(6) الزلزلة الآية 7 و8 .

الفصل السادس
التربية الاجتماعية في الاسلام

كلف الاسلام الفرد ليعمل من أجل إسعاد مجتمعه ، فيندفع بوعي وإخلاص مجاهداً في سبيل نفسه وفي سبيل أفراد مجتمعه على حد سواء ، يحب لهم ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لها .

علم الاسلام الفرد ليتفانى في خدمة غيره ، ويتفاعل معهم للنهوض بأمته ، لأن مجتمعاً تسود فيه الأنانية وتفضل فيه المصلحة الشخصية على المصلحة العامة ، هو مجتمع خائر القوى هش ، يتحطم كيانه لأضعف الضربات ولا يستحق الحياة الحرة الكريمة .

لقد عمل الاسلام على تربية أفراد مجتمعه تربية اجتماعية عالية . فألغى الفوارق والامتيازات ، وحطم الأنانية والعصبيات . وجعل المقياس الحقيقي للمواطن الصالح التقوى ومخافة الله في السر والعلانية .

قال الله في كتابه العزيز : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾[1] .

بنى الاسلام الوحدة الاجتماعية على الأخوة بين المسلمين المؤمنين ، ليقفوا صفاً واحداً كالبناء المرصوص متعاونين متفاهمين ، يؤثر بعضهم بعضاً حتى يكونوا نموذجاً فريداً من التكافل الاجتماعي ، خير أمة أخرجت للناس ، يحملون عقيدة واحدة ويهدفون الى تحقيق هدف واحد . جاء في الحديث الشريف : « المسلمون في توادهم وتراحمهم كالجسد الواحد إذا أصيب عضو بأذى تداعت له سائر الأعضاء بالحمى والسهر » . الإخوة الاسلامية ليست مجرد عاطفة ظاهرة ، إنما هي علاقة وثيقة تنفذ إلى أعماق القلوب ودخائل النفوس فتحتم على المسلمين أن يحبوا في الله ويكرهوا في الله ، ويعملوا في سبيل الله . قال سبحانه وتعالى : ﴿ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون ﴾[2] .

إن جنسية المسلم التي يعرف بها ، ليست جنسية حكم ، وعشيرة المسلم التي يأوي إليها ليست قرابة دم . وراية المسلم التي يعتز بها ، ويستشهد تحتها ، ليست راية قوم . وعصبية

---

(1) الحجرات الآية 13 .

(2) الحجرات الآية 10 .

العشيرة والقبيلة والقوم والجنس واللون والأرض عصبية جاهلية رفضها الاسلام وسماها رسول الله : « منتنة » تقززاً واشمئزازاً .

لقد أطلق الاسلام البشر من اللصوق بالطين ليتطلعوا الى السماء ، وأطلقهم من قيد الدم ، ليرتفعوا في عليين ويعيشوا عيشة كريمة راضية .

فالوطن في الاسلام دار تحكمها شريعة من الله ، والجنسية في الاسلام عقيدة ومنهج حياة ، والحاكم فيها هو الله ، والدستور فيها القرآن كتاب الله .

ولما ادعى اليهود بعصبيتهم وأنهم شعب الله المختار بجنسهم وقومهم أبطل الله عليهم هذه الدعوى ، ورد ميزان القيم الى الايمان وحده ، على توالي الأجيال ، وتغاير الأقوام والأجناس والأوطان . جاء في قوله عز وجل : ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفاً وماكان من المشركين . قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم . صبغةَ الله ومن أحسنُ من الله صبغةً ونحن له عابدون ﴾(3) .

الأخوة الدينية التي أرادها الاسلام قوية متينة كالأخوة النسبية ، وقد شرع لها أروع المناهج المؤدية الى تلاحم تلك القوى . قال الرسول الأعظم ﷺ « المؤمن مرآة أخيه يرى فيه حسنه وقبحه »(4) .

والمراد أن المؤمن الناصح لأخيه ، يبصره مواطن رشده ويطلعه على خفايا عيوبه ، فيكون كالمرآة ينظر فيها محاسنه فيستحسنها ويزداد منها ، ويرى مساوئه فيستقبحها وينصرف عنها .

وضع الاسلام المناهج التربوية القويمة المؤدية الى حتمية الترابط الاجتماعي ، وشيوع المحبة والإخاء بين المؤمنين بالله والمتحابين بذكر الله . من ذلك قول النبي ﷺ : « تحابوا بذكر الله وروحه »(5) .

فالروح هنا تعني القرآن تشبيهاً له بالروح القائمة بالحيوان المصححة لانتفاع الأبدان . ذلك أن انتفاع الناس بالقرآن في رشاد السبيل ومصالح الدنيا والدين كانتفاع الأبدان بالأرواح في تصريف حركاتها ، وتصحيح لذاتها وشهواتها .

من مناهج الاسلام الموحدة بين القلوب والهادفة لغاية انسانية واحدة نذكر .

التراحم والتعاطف

أكد الاسلام على التراحم والتعاطف بين المسلمين لأنه وجدهما من أنجع الوسائل في وحدة المسلمين واتفاقهم . قال الامام جعفر الصادق (ع) : « اتقوا الله وكونوا إخوة بررة متحابين في الله ، متواصلين متراحمين ، تزاوروا وتلاقوا ، وتذاكروا أمرنا وأحيوه »(6) .

---

(3) البقرة الآية 135 -136 -137 و138 .

(4) المجازات النبوية للشريف الرضى ص 79 .

(5) المجازات النبوية ص 43 .

(6) أصول الكافي ج 2 . ص 457 .

السعي في قضاء حوائج الناس

حث الاسلام على السعي في قضاء حوائج الناس قدر المستطاع لأن ذلك من العوامل المهمة في ربط أفراد المجتمع وشدهم الى بعضهم البعض ، يعين كبيرهم صغيرهم ، ويساعد غنيهم فقيرهم ، مما يولد المحبة الخالصة في نفوسهم ، وتبادل العاطفة الصادقة بينهم . قال النبي ﷺ :

« من مشى في قضاء حاجة أخيه ساعة في ليل أو نهار قضاها أو لم يقضها كان خيراً من اعتكاف شهر »[7] .

التزاور

إن زيارة المسلم لأخيه تبعث على التعاون والتآلف والمحبة ، وهي قاعدة أساسية دعا اليها الاسلام . قال الامام علي (ع) :

« لقاء الاخوان مغنم جسيم ، وإن قلوا » .

وقد حفلت أخبار أهل البيت بجمهرة من الأحاديث تحث المسلمين على التربية الوطنية والاجتماعية .

الاغاثة والمواساة

ندب الاسلام الى الإغاثة والمواساة لأنها تبعث على الوحدة الاجتماعية بين المسلمين ، فتجمع كلمتهم وتوحد أمرهم وتعلي من شأنهم . أثر عن النبي ﷺ « من نفّس عن مسلم كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب الآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه » وقال الامام الصادق (ع) : « أيما مؤمن نفس عن مؤمن كربة وهو معسر يسر الله له حوائجه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر على مؤمن عورة يخافها ستر الله عليه سبعين عورة من عورات الدنيا والآخرة ، والله في عون المؤمن ما كان المؤمن في عون أخيه ، فانتفعوا بالعظة وارغبوا في الخير . . . »[8] .

الاخوة في الاسلام

الاخوة بين المسلمين هي أساس تماسكهم وسبيل اتحادهم وقد ركز عليها الاسلام وألزم المسلمين بمراعاتها وتطبيقها . وقد تضافرت الأخبار في بيانها . نذكر بعضاً منها على سبيل المثال . سئل الامام الصادق (ع) [9] ما حق المسلم على المسلم ؟ فقال (ع) : سبع حقوق واجبات ما منهن إلا وهو عليه واجب إن ضيع منها شيئاً خرج من ولاية الله وطاعته ، ولم يكن لله فيه من نصيب .

1 ـ أنْ تحب له ما تحب لنفسك ، وتكره له ما تكره لنفسك .

2 ـ أن تجتنب سخطه ، وتتبع مرضاته ، وتطيع أمره .

---

(7) المصدر نفسه .

(8) راجع الجامع الكبير للترمذي وأصول الكافي للكليني .

(9) أصول الكافي ج 2 ص 169 .

3 ـ أن تعينه بنفسك ، ومالك ولسانك ويدك ورجلك .
4 ـ أن تكون عينه ودليله ومرآته .
5 ـ أن لا تشبع ويجوع وتروى ويظمأ ، ولا تلبس ويعرى .
6 ـ أن يكون لك خادم وليس لأخيك خادم ، فواجب أن تبعثه فيغسل ثيابه ، ويصنع طعامه ، ويمهد فراشه .
7 ـ أن تبر قسمه ، وتجيب دعوته ، وتعود مرضه ، وتشهد جنازته . وإذا علمت أن له حاجة تبادره الى قضائها ولا تلجئه أن يسألكها ، ولكن تبادره مبادرة فإذا فعلت ذلك وصلت ولايتك بولايته وولايته بولايتك » .

فانظر هذا المنهج الوثيق للرابطة الاسلامية المكينة التي لا تؤثر فيها رياح الأعداء ، ولا تزعزعها أية قوة خارجية . وأي مسلم عمل بموجب هذه الوثيقة منهجاً واتخذها نموذجاً في حياته عاش مع أخوته عيشة راضية ، تجمعهم مشاعر وعواطف موحدة ، ويندبهم هدف مشترك ومصلحة عامة مشتركة بعيدة عن الأنانية والغيرة والحسد .

وللامام الصادق (ع) كلمات عدة عن حق المؤمن على أخيه المؤمن ، كلها تعاليم اجتماعية رائعة تمد الأمة بأفضل مقومات النهوض والارتقاء داخلياً وتصون المجتمع بسياج منيع تتحطم على قدميه أطماع العدو ومؤامراته . ومن جهة أخرى نهى الاسلام عن جميع الاسباب التي تؤدي الى تباعد المسلمين وتفريق كلمتهم ، وتشتيت شملهم .

كالتقاطع ، وعدم التعاون ، والإيذاء ، والتحقير ، والارهاب ، والتخويف ، وتتبع العثرات والعيوب ، والسباب ، والتفاخر بالانساب ، وغيرها وكل ما يعمل على تصديع الأخوة الاسلامية .

إن الناس في شريعة الاسلام سواسية كأسنان المشط لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح . وما أحرانا نحن اليوم في لبنان ، رواد النهضة العلمية والحضارة الحديثة ، أن نطبق هذه القاعدة العادلة المتزنة فنعيش أخوة متحابين متعاونين لتحقيق المصلحة الوطنية العامة ، فلا عصبيات ولا امتيازات ولا فروقات ، اللبنانيون كلهم سواسية لا فضل لواحد منهم على الآخر إلا بالعمل الصالح لوطنه لبنان ، والتعاطف والتراحم مع جميع أبناء وطنه اللبنانيين .

وعلينا أن نطبق قول أمير المؤمنين (ع) المالك الأشتر في ولايته على مصر « الناس صنفان إما أخ لك في الدين أو شبيه لك في الخلق . وقول الامام الباقر (ع) : « إن الله رفع بالايمان من كان في الناس وضيعاً إذا كان مؤمناً ، ووضع بالكفر من كان الناس يسمونه شريفاً إذا كان كافراً فليس لأحد على أحد فضل إلا بالتقوى »(19) .

ومن معالم التربية الاجتماعية في الاسلام

أ ـ يدعو الاسلام الى التسامح والتساهل مع أهل الأديان السماوية الأخرى ، وينبذ التعصب للعرق والدم أو لحزب أو فريق أو ناحية ، لأن الحق لا يتأثر بمثلهذه الفروقات . فالناس

---

(1) راجع النظام السياسي في الاسلام ص 258 .

كلهم عباد الله ، والرسول الأعظم رسول الله أرسله سبحانه رحمة للعالمين ، مبشراً ونذيراً وسراجاً منيرا . قال تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سَواء بيننا وبينكم ان لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴾(10) .

وقد وضع النبي الكريم ﷺ أصول هذا التسامح وقواعده فجاء في الحديث الشريف « من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه بغير طيب نفسه فانا حجيجه يوم القيامة » .

يشهد بتسامح المسلمين وحسن معاملتهم للمسيحيين السير توماس أرنولد فيقول : « لقد عامل المسلمون الظافرون العرب المسيحيين بتسامح عظيم منذ القرن الأول للهجرة ، واستمر هذا التسامح في القرون المتعاقبة ، ونستطيع بحق أن نحكم أن القبائل المسيحية التي اعتنقت الاسلام إنما اعتنقته عن اختيار وإرادة حرة ، وإن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح »(11) .

إن خير وسيلة لنهضة المسلمين رجوعهم الى هدي القرآن الكريم . قال سبحانه وتعالى ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾(12) . فرابطة الأخوة جعلها الاسلام أقوى وأعز من رابطة النسب وأمر برعايتها والحفاظ عليها .

ب ـ على المسلم أن يتخلق بأخلاق دينه العظيم فيعود نفسه عليها ليسمو بذاته الى رحاب عالية تشمل الصلاح والتقوى والعفة وقوة الإرادة والسلوك المستقيم والصدق والأمانة . فيعطف على الضعيف ، ويساعد الفقير المحتاج ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

ج ـ توعية المسلم توعية اجتماعية ناضجة تساعده في معرفة ماله من حقوق وما عليه من واجبات ليحصل حقوقه كاملة ، ويقوم بواجباته بقناعة شخصية ، بعيداً عن الضغط والاكراه . وهذا ما يجعل الفرد مندمجاً في مجتمعه متعاوناً مع حكامه ، مؤمناً بأهداف أمته إيماناً راسخاً ، لا تثنيه عن عزمه الاغراءات ولا تغير مواقفه الماديات كما يحصل اليوم عند بعض المسلمين الذين بقي الاسلام لعقاً على ألسنتهم ولم يرسخ في أعماق نفوسهم .

إن ما ينشده الاسلام في تربيته الاجتماعية أن يجعل من الفرد عضواً صالحاً منتجاً في الهيئة الاجتماعية ، يتكيف مع مجتمعه في إطار القواعد السليمة والقوانين الحكيمة التي شرعها الله عز وجل ، واضع الأحكام ورب العالمين . إن المسلم المؤمن الذي يرغب في كسب رضى الله يعمل جاهداً في إفادة خلق الله ، إخوته في الايمان وأمثاله في الخلق . مطبقاً قول الرسول الكريم : « الخلق كلهم عيال الله وأقربهم إليه أنفعهم لعياله » .

والمسلم المؤمن هو الذي يحب في الله ويكره في الله ويعمل في سبيل الله . فالذين يحبهم

(10) آل عمران الآية 64 .

(11) الدعوة الى الاسلام لارنولد .

(12) الحجرات الآية 10 .

هم عبيد الله الصالحون والذين يكرههم هم أعداء الله ، من كفار ومنحرفين ومغضوب عليهم وضالين .

ومن يعمل في سبيل الله يطبق أحكام كتاب الله ، الذي يهدي للتي هي أقوم ، ويسير على منهج سنة رسول الله المبشر والمنذر والسراج المينر والداعي الى مأدبة الله . جاء في الحديث الشريف :

« إن الله سبحانه جعل الاسلام داراً ، والجنة مأدبة ، والداعي إليها محمد صلى الله عليه وآله » .

فتأمل معي رعاك الله ، هذه الدار الواسعة المقصودة للانتجاع ، والجنة والمأدبة والدال عليها والداعي اليها محمد . فالاسلام دار سلام لأنه كان جامعاً لأهليه حامياً لمن فيه ، والجنة مأدبة لأنها مجتمع الشهوات ومنتجع اللذات . والداعي الى هذه المأدبة محمد رسول الاسلام وهادي الانام الى السلام .

فالمسلم المؤمن هو من كان من المدعوين الى هذه المأدبة ومن كان من أهل تلك الدار ، دار الاسلام والسلام لجميع أفضل الخلق وخير الأنام .

---

(1) المجازات النبوية للشريف الرضي .

الفصل السابع

التربية الرياضية في الاسلام

كما اعتنى الاسلام بالتربية الروحية للانسان اهتم أيضاً بالتربية الرياضية للابدان . لأنه وجد فيها عنصراً مهماً في تنمية نشاط الجسم وحيويته . وقد وضع لذلك منهجاً مفيداً جديراً بالتقدير .

السباق

وغايته الاستعداد لممارسة القتال والتمرين للأعمال الحربية ليكون الفرد على أهبة الاستعداد دائماً لخوض المعارك التي كانت مفروضة على المسلمين بصورة شبه مستمرة . فالمسلم كان يحارب ليدافع عن نفسه وعن قومه وفي سبيل الدعوة الاسلامية . فالتمرين ضروري له ليقوي به جسمه . وقد أثر عن الرسول الأعظم :

« لا سبق الا في نصل أو خف أو حافر »(1) وهو مما يوهب الجسم نشاطاً والعضلات قوة .

وقال ﷺ : « من أدخل فرساً بين فرسين وهو لا يؤمن أن يسبق فليس بقمار ومن أدخل فرساً بين فرسين وقد آمن أن يسبق فهو قمار »(2) .

الرماية

الرماية تمرين على عمليات الحروب وحمل السلاح وتجهيز الجندي ليرمي رماية صائبة ، ولا يحصل هذا إلا بمزاولة الرماية باستمرار كما يحدث الآن عند أغلبية الجيوش . ولا ريب أن هذا التمرين المستمر يبعث على توفير القوى الجسمية ، وزيادة نشاط العضلات ، كما يفيد من ناحية أخرى ، وهو تقوية إرادة المحارب واعتماده على نفسه . وكان النبي ﷺ يشجع على الرماية ويفضلها : قال ﷺ :

« فارموا واركبوا وأحب إلي أن ترموا من أن تركبوا كل لهو باطل ، ليس من اللهو محمود إلا ثلاثة : تأديب الرجل فرسه ، وملاعبته أهله ، ورميه بقوسه ونبله ، فانهن من الحق ، ومن ترك الرمي بعدما تعلمه رغبة عنه ، فإنما هي رغبة تركها »(3) .

---

(1) رواه أصحاب السنن .

(2) رواه أبو داود .

(3) رواه أصحاب السنن .

يظهر من الحديث أن النبي ﷺ كان يفضل الرماية على غيرها من التمارين الأخرى ، ويشجع على الاستمرار بمزاولتها .

روى مسلم عن سلمة بن الأكوع قال : « فبينما نحن نسير وكان رجل من الأنصار يقول : هل من مسابق الى المدينة ؟ وجعل يعيد ذلك فلما سمعت كلامه قلت له : أما تكرم كريماً ولا تهاب شريفاً ؟ قال : لا . إلا أن يكون رسول الله ﷺ قلت : يا رسول الله بأبي أنت وأمي ذرني فلأسبق الرجل . قال : إن شئت . قلت : أذهب إليك وثنيت رجلي فطفرت فعدوت فربطت عليه شرفاً أو شرفين ، ثم إني دفعت حتى ألحقه فامسكه بين كتفيه . قلت : قد سبقت والله . قال : انا أظن فسبقته إلى المدينة . . » .

الصيد

ويستوجب تحريك الأعضاء وتنبه العضلات وتقوية الجسم كله ، لأنه يستلزم الحركة الدائمة والسير بجميع أنواعه . وكم من الملوك والأمراء والخلفاء وكبار القوم استهواهم الصيد بمتعته ورياضته . وكما نعلم أن الصيد خروج على رتابة العيش الى الفلاة الواسعة حيث الحرية البريئة النقية ، يتخلص الانسان ولو لساعات من مسكنه الضيق المحدود ومجتمعه المقيد ، ليجتمع في مصادفة حلوة مع الطبيعة الصادقة الحنونة ؛ التي لا تعرف الغش ولا الخداع من أجل مصلحة شخصية أو هدف معين . عندنا يفتح الصياد مغالق نفسه عليها ويبث لواعج صدره إليها ، ويتبادلان الحب الصادق كأحسن عاشق ومعشوق . وجميل للانسان أن يعيش لحظات تأمل ! ويحس بمتعة جديدة يضيفها الى متع هواياته »(4) وقد عرضت كتب الفقه بصورة مفصلة الى محلل الصيد ومحرمه ، وما يشترط فيه من الأمور التي تبيحه . فعينوا الرياضة المفيدة التي يترتب عليها فائدة الفرد ومصلحة الجماعة ، أما الضارة منها فقد حرمها الاسلام وألزم المسلمين بالابتعاد عنها .

ومن العبادات في الاسلام فوائد رياضية شرعها الدين الحنيف ، تهدف الى صحة الانسان ورياضة جسمه وتنشيط عضلاته ، كما تهدف كذلك الى سمو في الأخلاق وتهذيب النفوس واتصالها بالله واهب الحياة ورب العالمين . من هذه الرياضات الجسدية والروحية :

1 ـ الصلاة

الصلاة صلة المؤمن بربه ، ومفزعه حينما تتنازعه الهموم وتصارعه الآلام ، وهي كما جاء في الحديث الشريف معراج المؤمن وقربان كل تقي . عندما يصلي المؤمن يتصل بخالقه اتصالاً مباشراً ناسياً كل الروابط المادية والمصالح الشخصية ، فتستقر نفسه وتطرد عنها كل قلق واضطراب لتلجأ إلى أصلها الذي تنزلت منه .

الصلاة في جوهرها ليست كلاماً يتكرر أو عبارة تردد ، وإنما هي الحركة التي تقوم بها النفس لتضع نفسها في علاقة شخصية ، واتصال مباشر بالقدرة الخفية التي يحس الانسان بوجودها قبل أن يطلق عليها اسماً ، وإذا خلت الصلاة عن ذلك فهي فاقدة لروحها وواقعها .

---

(4) راجع أعلاه في العصر العباسي للمؤلف ص 70 .

وقد توعد الله عزّ وجل الغافلين عن معاني الصلاة الحقيقة قال تعالى : ﴿ فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾(5) .

والصلاة رياضة جسدية ودينية يؤديها المسلم خمس مرات في اليوم فتكون خير مقوم لبدنه ومنشط لامعائه ولجميع عضلات جسمه ومفاصله . لاحظ علماء الرياضة ان حركات الصلاة يوجد شبه بينها وبين النظام السويدي الذي لا يزيد عمره عن مئة عام .

تبدأ الصلاة بالتكبير برفع اليدين وتحريك مفصلي الكتفين إلى أعلى ، وهذا من التمرينات التي تفتح الصدر .

وبعد التكبير قراءة الفاتحة ثم يثني المصلي جذعه الى الامام واضعاً يديه على ركبتيه . قالوا : إن الجسم في هذه الحالة يستفيد عدة فوائد منها :

إنه يحرك مفصل الفخذين ويفرد العمود الفقري ، ويضغط بيديه على ركبتيه فيشدهما ، وكلتا العمليتين ـ شد فقرات العمود الفقري وضغط الركبتين للخلف ـ هامتان ومفيدتان للجسم .

وقد قلدت النظم الرياضية هذا الوضع فجعلت الانسان يميل بجذعه للامام وهذا يدل بوضوح على الحكمة البالغة في حركات الصلاة .

أما السجود : فحركة جامعة شاملة الفائدة لأكثر أجهزة الجسم .

فثني الركبتين لآخرهما يفيد في منع تصلب مفصلي الركبتين ، وثني الجذع ووضع الجبهة على الأرض في حركة السجود هذه تعتبر من أفيد الحركات في عمل نوع من التدليك الذاتي للمعدة والجهاز الهضمي مما يساعد على الهضم ويمنع الامساك . والسجود يساعد على إزالة هبوط المعدة . وقد أقر الأطباء المعاصرون أن أحسن علاج لهبوط المعدة هو السجود ومن حكم الاسلام أنه أعطى عضلات البدن ومفاصله حقها من الرياضة والحركة في الصلاة .

أما الذي يقصر ويهمل في صلاته فلا يقوم بها حق قيام فقد ذمه الله في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وإذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى ﴾(6) وعن فوائد الصلاة الرياضية قال السيد محمد حسين كاشف الغطاء(7) :

« لها أعظم الأثر في نشاط الأعضاء وتقلص العضلات وقوتها وتماسكها ، وتنبيه العصب الحساسة وتحريك الدورة الدموية وإيقاد الحرارة الغريزية التي تهيء بيئة داخلية ثابتة ، وتنشط القوى لأعمال الفكر الصحيح ، . . . وتلك الحركات تمارين صحية ورياضية طبيعية ، لها في كل عضو أثر خاص عميق ، منظمة أبدع تنظيم في أوقات معينة كل يوم ، بل هي مع ذلك وصفة طبية ، وطراز بديع في تحصيل المناعة للمفاصل والعظام والأعصاب والقلب والرئة ، والمعدة بل والرئيس الأعلى وهو الدماغ . والصلاة رياضة بدنية ، ورياضة روحية . رياضة معتدلة تمنح

---

(5) الماعون الآية 4-5 .

(6) النساء الآية 142 .

(7) راجع روح الصلاة في الاسلام للاستاذ عفيف طبارة ص 137 .

بالمواظبة على أدائها في أوقاتها الخاصة : قوة الارادة ، وضبط الوقت وحفظ النظام ، ورسوخ ملكة الوفاء بالعهد ، وصدق الوعد الى كثير من أمثال هذه السجايا والمزايا » .

ولا جدال في أن الصلاة خير رياضة يومية تتحرك بها أغلب عضلات الجسم ومفاصله ، الميسرة في أي مكان ، الموزعة على أوقات النهار قبل طلوع الشمس وبعد الزوال وقبل الغروب وبعده وقبل النوم مع الاعتناء بنظافة البدن .

2 ـ الصيام

الصيام من أقوى الوسائل في رياضة النفس ، وتقوية الارادة ، وتعويد النفس على الصبر . وباختصار هو الرمز العملي لضبط النفس في دين الله ، لذلك كان من أركان الدين الاسلامي وطريقاً من طرق الوصول الى حقيقة التقوى التي هي التعبير العملي عن أخذ المسلم نفسه بالاسلام . قال سبحانه وتعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾(8) .

أوجب الإسلام الصيام على المؤمنين وجعله شهراً كاملاً كل عام ، وهو رياضة صحية من نوع آخر خاص بالجهاز الهضمي وما يتعلق به من غدد وغيرها . وقد تبين للعلماء أن الصيام يفيد الصائم القادر على القيام به في حالات كثيرة وهو العلاج الناجع للوقاية من أمراض كثيرة . جاء في كتاب الاسلام والطب الحديث : يفيد الصيام في الأمراض التالية(9) :

1 ـ اضطرابات الأمعاء المزمنة والمصحوبة بتخمر في المواد الزلالية والنشوية . وهنا ينجح الصيام وخصوصاً مع عدم شرب الماء بين الأكلتين ، وأن تكون بين الأكلة والأخرى مدة طويلة كما في صيام رمضان ويمكن أخذ الغذاء المناسب حسب حالة التخمر . وهذه الطريقة هي أنجع طريقة لتطهير الأمعاء .

2 ـ زيادة الوزن الناشىء من كثرة الغذاء وقلة الحركة ، فالصيام هنا أنجع من كل علاج ، مع الاعتدال في الطعام وقت الافطار ، والاكتفاء بالماء وقت السحور .

3 ـ زيادة الضغط الذاتي ، وهو آخذ في الانتشار بازدياد الترف والانفعالات النفسية ، ففي هذه الحالة يكون شهر رمضان نعمة وبركة ، خصوصاً إذا كان وزن الشخص أكثر من الوزن الطبيعي لأمثاله .

4 ـ البوال السكري ، وهو منتشر انتشار الضغط ، ويكون في مدته الأولى وقبل ظهوره مصحوباً غالباً بزيادة في الوزن ، فهنا يكون الصيام علاجاً نافعاً ، إذ أن السكر يهبط مع قلة السمنة ، ويهبط السكر في الدم بعد الأكل بخمس ساعات الى أقل من الحد الطبيعي في حالات البوال ، السكري الخفيف ، وبعد عشر ساعات في أقل من الحد الطبيعي بكثير . ولا يزال الصيام مع بعض ملاحظات في الغذاء أهم علاج في هذا المرض حتى بعد ظهور دواء(الانسولين) ،وخصوصاً إذا كان الشخص يزيد عن الوزن الطبيعي ولم يكن هناك علاج

(8) البقرة الآية 183 .

(9) الاسلام والطب الحديث للدكتور عبد العزيز اسماعيل ص 23-24 .

لهذا المرض قبل « الأنسولين » غير الصيام .

5 ـ التهاب الكلى الحاد والمزمن المصحوب بارتشاح وتورم .

6 ـ أمراض القلب المصحوبة بتورم .

7 ـ التهاب المفاصل المزمنة ، وخصوصاً إذا كانت مصحوبة بسمنة ، كما يحصل عند السيدات غالباً بعد سن الأربعين . وهو ما يدعى طبياً التهاب المفاصل التنكسي ورب سائل يقول : ولكن الصيام في كل هذه الحالات يحتاج الى إرشاد طبيب في كل مرض على حدته ، والصيام الذي كتب على المسلمين إنما كتب على الأصحاء . وهذا صحيح ولكن فائدة الصيام هي الوقاية من هذه الأمراض .

هذه أهم الفوائد الصحية التي تنتج عن الصوم . قال الرسول الأعظم ﷺ في حديث شريف : ﴿ صوموا تصحوا ﴾ فالصوم وقاية للابدان واستقامة في السلوك والأخلاق ، وضبط في الارادة والنفس . وهو الصيغة الوحيدة للانسان التي ينبغي أن تصاع عليها نفسه ، وان تضبط بها شهواته ، وبه حياة الناس وهو الطريق المستقيم الذي لهم ، وعليهم أن يسلكوه .

الاعتدال في الرياضة

أعطى الاسلام الانسان المجال اللازم له للاستزادة من الأعمال الرياضية ، لكنه اشترط عليه عدم الاجهاد وتحميل النفس أكثر من طاقتها ، وذلك كي لا تخرج الرياضة عن معناها الحقيقي . قال سبحانه وتعالى : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت . . ﴾(10) .

فالصلاة ، كما مر معنا ، تحمل الى جانب معناها الرياضي عبادة روحية يلتزم على القيام بها الصحيح والمريض على حد سواء ، ولكل منهما حق التصرف حسب إمكاناته وقدرته ، فالمريض الذي لا يمكنه القيام بجميع حركاتها خفف الله عنه بقدر ضعفه وعجزه . فقد أباح للمريض والمسافر الأفطار في شهر رمضان رحمة بهما . قال تعالى : ﴿ . . . . فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر . . . ﴾(11) ، فالله ، الرحمن الرحيم ، يريد للانسان اليسر وليس العسر والانسان الضعيف الذي لا يستطيع القيام بالجهاد في سبيل الله أو الحج الى بيت الله ، اسقط الله عنه الواجب . جاء في القرآن الكريم : ﴿ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج . . ﴾(12) . فلا إفراط ولا تفريط في الاسلام ، كل شيء جاء بالعدل والقسط ، حكمة من رب العالمين خالق الكون وفاطر السماوات والأرض وهو العلي القدير .

وتقوية الاجساد ضرورية للانسان ، وهو ما أكده العلم الحديث لأن تقويتها من موجبات تقوية العقل . فقالوا : « العقل السليم في الجسم السليم . وهذا دليل واضح على أن الاسلام

---

(10) البقرة الآية 286 .

(11) البقرة الآية 185 .

(12) النور الآية 61 .

يماشي الميول الانسانية الحقة من كل وجه . فأمر بالاعتدال ورفض الاسراف . جاء في قوله عز وجل : ﴿ . . . ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾(13) .

الحج

أمر الله المسلمين بفريضة الحج من استطاع وكان قادراً على أدائه . قال سبحانه : ﴿ . . . والله على الناس حِجُّ البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾(14) .

فالحج بطوافه وسعيه وسائر الأعمال المطلوبة رياضة بدنية موجبة لتقوية العضلات ، وتنشيط حركات الجسم ، بالاضافة الى كونه رياضة روحية وتنفيذاً لأوامر الله سبحانه وتعالى . في ذلك اليوم العظيم يأتي المسلمون من كل أنحاء الأرض ليقفوا في جبل عرفات جميعهم يؤدون طقوس الحج وواجباته وكفى . ويا ليتهم استغلوا تجمعهم هذا فعرضوا ما يلم بهم من شؤون سياسية واقتصادية واجتماعية ، لاستفادوا خيراً عميماً ، ولكان هذا المؤتمر الاسلامي انطلاقة بناءة في نجاح وتحسين أحوال المسلمين المؤمنين المتمسكين بعقيدتهم الاسلامية الانسانية .

---

(13) الانعام الآية 141 .

(14) آل عمران الآية 97 .

الفصل الثامن
التربية الصحية في الاسلام

كما وضع الاسلام تشريعات للروح وضع كذلك تشريعات خاصة للأبدان ، لأن البدن وعاء للروح يقيها من العلل ويحفظها من الأمراض . فصاحب الجسد العليل لا تتاح له الفرصة للقيام بكل ما يلزم في ميادين الحياة الخاصة والعامة فهو مضطرب التفكير ، عصبي المزاج ضعيف الارادة لا يستفيد منه المجتمع الانساني كما يستفيد من الأصحاء . وقد مدح الله في قرآنه الكريم قوة البدن مع سلامة النفس على لسان ابنة شعيب عن موسى عليه السلام :

﴿ يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوي الأمين ﴾[1] .

وقال تعالى في طالوت : ﴿ إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم ﴾[2] .

والخطاب في هذه الآية لبني اسرائيل وقد بين الله سبحانه أن اختياره لطالوت وتفضيله عليهم لأمرين : مقدرته العلمية التي يكون بها حسن التدبير ، ومقدرته البدنية المستلزمة لصحة الفكر .

وقد أشار الرسول الأعظم الى مزية المؤمن القوي ايماناً منه بأن الانسان لا يمكن أن تتوفر فيه عناصر الحياة السليمة ، والطاقات الحيوية ، إلا إذا سادت معالم التربية الصحية ، وطبقت مناهجها على واقع الحياة : قال ﷺ : « المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف وفي كل خير »[3] .

وقد بلغ من اهتمامه بالصحة (ع) أنه كان يقول لأصحابه : « سلوا الله العافية والمعافاة ، فما أوتي أحد بعد اليقين خيراً من المعافاة » .

كما أشاد بعلم الطب ودعا الى التخصص به فقال ﷺ : العلم علمان : علم الأبدان وعلم الأديان » .

كما وضع ﷺ برنامجاً عاماً للطب عرف « بالطب النبوي » تحدث فيه عن أهم الأمراض

---

(1) القصص الآية 26 .

(2) البقرة الآية 247 .

(3) رواه المسلم .

ووصف أدويتها ، كما احتوى على بيان شامل لبعض الأغذية من الفواكه ، والأطعمة واللحوم ، والخضراوات وذكر خواصها الطبية[4] .

ولعلي بن أبي طالب (ع) وصايا صحية هامة ، من بينها هذه الوصية التي زود بها ولده الامام الحسن (ع) قال له :

« لا تجلس على الطعام إلا وأنت جائع ، ولا تقم عن الطعام إلا وأنت تشتهيه ، وجَوِّد المضغ ، وإذا نمت فاعرض نفسك على الخلاء ، فإذا استعملت هذه استغنيت عن الطب »[5] .

فالطب الحديث يقر هذه النصيحة الصحية ذلك أن النهمة في الطعام ، وعدم مضغه تسببان إصابة الجهاز الهضمي بأمراض مهلكة .

وللامام الصادق (ع) باع طويل في علم الصحة والوصفات الطبية الرائعة تناولت دقائق علم الطب : فقد عرض فيها إلى وظائف الأعضاء ، ودوران الدورة الدموية والجراثيم المسببة للأمراض وخواص الأغذية كاللحوم والخضراوات والفواكه . وهذه البحوث القيمة دونت كلها في كتاب سمي « طب الامام الصادق » وقد ناظر كبار علماء الطب في عصره ، وخاض معهم في البحوث الطبية المعمقة فبذهم جميعاً ، وله كتاب رائع في هذا الفن اسمه « أمالي الامام الصادق » .

ومن المعروف أن لهذه البحوث أثراً كبيراً في تطور علوم الصحة والبحوث الطبية ولعل من أروع البحوث الصحية التي أثرت عن أئمة أهل البيت (ع)،طب الامام الرضا (ع) المسمى « بالرسالة الذهبية » التي ألفها بطلب من الخليفة العباسي المأمون ، وقد عني بها عناية خاصة وأمر أن تكتب بالذهب لعظم فائدتها . وقال فيها :[6] « ومسيتها « المذهبة » وخزنتها في خزانة الحكمة ، وذلك بعد أن نسخها آل هاشم فتيان الدولة ، لأن بتدبير الأغذية تصلح الأبدان ، وبصلاح الابدان تدفع الأمراض ، وبدفع الأمراض تكون الحياة ، وبالحياة تنال الحكمة ، وبالحكمة تنال الجنة . ويتابع . . .

وقد عرضتها على خاصتي وصفوني من أهل الحكمة والطب وأصحاب التأليف والمذكورين بالحكمة ، وكل مدحها وأعلاها ، ورفع قدرها ، وأطراها ، انصافاً لمصنفها ، وإذعاناً لمؤلفها ، وتصديقاً له فيما حكاه » .

وقد جمع المأمون كبار عصره لمناظرته فعجزوا عن مجاراته واعترفوا له بالفضل عليهم .

ومن يتتبع التشريعات الاسلامية المتعلقة بصحة الأبدان يلاحظ أن الاسلام قد وضع أسساً عامة للمناهج الصحية ، يعتبرها الطب الحديث اليوم من القواعد الأولية التي تقي الانسان من الاصابة بكثير من الأمراض ، كما تخفف من حدتها إذا وقعت ، وهي تشمل التشريعات الوقائية والتشريعات المرضية .

---

(4) راجع طب النبي لمحمد تقي فلسفي .

(5) راجع خصال الصدوق .

(6) طب الامام الرضا .

التشريعات الوقائية

يقول المثل : درهم وقاية خير من قنطار علاج . فخير علاج للمرض هو أن نتفادى الوقوع فيه . وهذا ما يسعى إليه الطب الوقائي في الدول المتحضرة ، إذ نراها تعمل جاهدة على تلقينه لأبناء المدارس والمواطنين كعلم ضروري لا غنى عنه . والتشريعات الوقائية في الاسلام تقسم الى أربعة أقسام رئيسية ولكل منها أجزاء تتفرع منها .

أ ـ النظافة

عني الاسلام بالنظافة عناية فائقة لأنها من العناصر المهمة في تكوين الحياة الصحية وازدهارها ، حيث تجعل الانسان بمأمن التلوث بالأمراض السارية والأوبئة الفتاكة . ومن حرص النبي ﷺ عليها واهتمامه بها قرينها بالايمان فقال ﷺ النظافة من الايمان . و« بني الدين على النظافة » وقد منح الله وسام حبه لمن اتصف بها قال سبحانه وتعالى : ﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾(7) .

وتشمل النظافة التي دعا إليها الاسلام ما يلي :

نظافة الجسم وإزالة ما عليه من أوساخ ، نظافة اللباس ، نظافة المسكن ، ونظافة المأكل ومياه الشرب .

ويتضح حرص الاسلام البالغ بالنظافة من تشريعاته التالية :

ـ الوضوء

شرع الاسلام الوضوء قبل القيام الى الصلاة . قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم الى الصلاة ، فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين(8) . . ﴾ .

وسن النبي زيادة على ذلك : المضمضة ، والاستنشاق ، ومسح الأذنين ، وتدليك أجزاء الجسم التي يمر عليها ماء الوضوء ، وتخليل ما بين أصابع اليدين والرجلين وغسل كل عضو ثلاث مرات .

وقد ذكر الأطباء أن للوضوء فوائد صحية هامة منها :

1 ـ أن الماء الذي نغسل به الوجه واليدين يجعل انقباض العروق الشعرية السطحية الجلدية ثم عودها منبسطة الى حالتها الأولى ، حركة القلب تزداد ، والمبادلات في الجسم تنشط ، والحركات النفسية تقوى واستنشاق الأوكسيجين يزيد ، وبذلك تتنبه الأعصاب المدركة المحركة ، ثم يسري هذا التنبيه الى جميع الأعصاب في القلب والرئتين والمعدة والغدد .

2 ـ تطهير مجاري الأنف من الجراثيم ووقاية العين من الاصابة بالرمد .

3 ـ وقاية الجلد من الاصابة بالأمراض الجلدية ، وخاصة الوجه واليدين لأنها مكشوفة وعرضة للاصابة بالميكروبات ، فإذا غسلت في اليوم عدة مرات توفرت فيها المناعة من الاصابة .

(7) البقرة الآية 222 . وراجع التوبة الآية 108 .

(8) المائدة الآية 6 .

4 ـ وقاية الجوف من الجراثيم التي تدخل من طريق الفم عن طريق الأيدي الملوثة(9) .

هذه الفوائد الصحية التي تنجم عن الوضوء .

2 ـ الاستحمام

أوجب الاسلام غسل جميع البدن بالماء عقب الاتصال الجنسي أو الاحتلام للرجل والمرأة على حد سواء . جاء في القرآن الكريم :

﴿ . . . وإن كنتم جنباً فاطهروا ﴾(10) .

وقد ثبت طبياً أن الجسم الانساني يفقد شيئاً من حيويته ونشاطه بعد الانتهاء من الاتصال الجنسي ، وليس من شيء يعيد إليه تلك الحيوية والقوة إلا غسل الجسم كله وبدلكه جزءاً جزءاً بالماء النظيف .

أما المرأة فعليها أن تطهر من دم الحيض ، وتغسل بدنها وتزيل ما عليه من قذر الدم ، حتى تعود إليها حيويتها ونشاطها .

وقد ذكر فقهاء المسلمين أنواعاً أخرى من الاغتسال الواجبة كالاغتسال من لمس جثة الميت . . . وكل ذلك يجعل المسلم نظيفاً مرتاحاً صحياً ونفسياً .

3 ـ تنظيف الاسنان

أوصى الاسلام بتنظيف الاسنان بالسواك . قال رسول الله : « لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك قبل كل صلاة »(11) .

والسواك فرشاة طبيعية زودت بأملاح معدنية ومواد عطرية ، يتكون كيمائياً من ألياف السيليلوز وبعض الزيوت الطيارة وكلورور الصوديوم وكلورور البوتاسيوم واكسالات الجير . وقد استعمل السواك النبي ﷺ والصحابة لتنظيف أسنانهم . هذا وان الانسان إذا أهمل أسنانه يسري فيها الفساد والتسوس التي يمتصها الجسم وتسبب أمراضاً كثيرة .

4 ـ أمر الاسلام بالاعتناء بسائر أجزاء البدن فحث على حلق الشعر الزائد في الجسم ، وتقليم الأظافر ، وقص الشارب ، ونتف شعر الابط . قال رسول الله ﷺ : « خمس من الفطرة : الاستحداد ، والختان ، وقص الشارب ، ونتف الابط ، وتقليم الأظافر »(12) .

4 ـ نظافة الثياب

أوجب الاسلام طهارة الثوب من النجاسات حال الصلاة ، لأن المصلي إذا صلى بالثوب النجس اختياراً مع علمه بالنجاسة ، بطلت صلاته ، ووجب عليه إعادتها بثوب طاهر . قال

---

(9) راجع الاسلام والطب الحديث للدكتور عبد العزيز اسماعيل ص 62 -63 .

(10) المائدة الآية 6 .

(11) والسواك عود من شجر الاراك فيه ألياف دقيقة يستعمل لتنظيف الاسنان .

(12) صحيح البخاري وصحيح مسلم . والاستحداد : حلق الشعر من الأعضاء التناسلية (شعر العانة) . والمراد بالفطرة : السنة القديمة التي اختارها الأنبياء واتفقت عليها الشرائع وقيل المراد بها : الدين .

سبحانه وتعالى : ﴿ وثيابك فطهر ﴾[13] . ومن الطبيعي أن طهارة الثياب لها أثر صحي في تكوين الصحة الفردية والاجتماعية ووقاية الفرد من الاصابة ببعض الأمراض .

5 ـ الاستنجاء

ومما شرعه الدين الاسلامي للنظافة الاستنجاء بالماء الطاهر ، وذلك بتطهير مخرج البول ثلاث مرات ، ومخرج الغائط ليزيل عين النجاسة . ومن حكم الاسلام في الاستنجاء ما سنه من استعمال اليد اليسرى لازالة النجاسة دون اليمنى التي قرر بها التحية وتناول الطعام . قال الرسول الأعظم : « إذا شرب أحدكم فلا يتنفس في الإناء وإذا أتى الخلاء فلا يمس ذكره ولا يتمسح بيمينه »[14] .

كما روى عنه ﷺ بغسل اليدين عند الاستيقاظ من النوم . فقال ﷺ : « إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يدخل يده في الإناء حتى يغسلها ثلاث مرات ، فإن أحدكم لا يدري أين باتت يده »[15] .

فانظر هذا التشريع العظيم الذي استلزم نظافة الجسم ، ووقاية مما يحمله البول والغائط من الميكروبات المؤذية .

إن النظافة في الاسلام أوجبت ازدهار الصحة العامة كما أوجبت في جعل الطب وقائياً ، وهو مما تجهد إليه منظمات الصحة العالمية على إشاعته بين جميع الشعوب . والطهارة الشرعية دعت الى تطهير الأبدان من الأوساخ وتطهير النفوس من الذنوب والعيوب . وهذا أمر واقعي لأن الأبدان أوعية الأرواح .

ب ـ المأكل والمشرب

الجسم الانساني بحاجة إلى الغذاء الكامل ليقوم بوظيفته في الحياة ، لذلك نرى الاسلام قد وضع منهجاً خاصاً للتغذية وأمر المسلمين بتطبيقه على واقع حياتهم ليأكلوا من طيبات ما رزقهم الله الرحمن الرحيم ولا يقربوا الخبيث من المآكل . قال سبحانه وتعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله إن كنتم إياه تعبدون ، إنما حرَّم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ﴾[16] .

سمح الله تعالى لعباده ليأكلوا من طيبات ما رزقهم سبحانه وحرم عليهم الخبيث من المآكل كالميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، فكلها من المحرمات .

الميتة :

هو الحيوان غير المذبوح الذي يموت ميتة طبيعية أو بحادث من الحوادث . فالميت ميتة طبيعية ، فإن كان لمرض . فالجسم الميت في هذه الحالة يشبه الغذاء المتخمر الذي مهما طهر من

(13) المدثر الآية 4 .

(14) رواه البخاري .

(15) رواه البخاري ومسلم .

(16) البقرة الآية 172 و173 .

الجراثيم بالحرارة مثلاً يبقى مضراً بالصحة وربما أدى الى الوفاة .

وإذا كانت الميتة بالشيخوخة فضررها كضرر الميتة بالمرض ، لأن الشيخوخة تعني انحلال أحد الأنسجة قبل الأخرى ، مما يؤدي الى انحلال جميع الأنسجة . وانحلال أحد الأنسجة لا يأتي إلا لضعف فيها أو بمرض تدريجي غير منظور ، يحدث تغييرات في لحوم الحيوان تقلل من قيمتها الغذائية . **إذا** مما لا شك فيه طبياً أن لحم الحيوان السليم الذي يذبح ويصفى دمه أحسن غذاءً وليس فيه أقل ضرر بخلاف الحيوان المريض المتخللة لحومه بالدم(17) . أما الميتة بحادث من الحوادث فقد حرمها الاسلام أيضاً . جاء في القرآن الكريم : ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع . . . ﴾(18) .

فالمنخقة : الحيوانات التي تموت خنقاً . فالاختناق يجعل لحم الحيوان المخنوق أسرع الى التعفن كما أن المنخنقة لا تصلح للأكل طبياً لتغير شكل لحمها واسوداده ورائحته الكريهة .

والموقوذة هي المضروبة حتى تشرف على الموت فتترك حتى تموت .

والمتردية هي التي سقطت من مكان مرتفع فماتت من أثر صدمة الوقوع .

والنطيحة هي التي ماتت من أثر عراكها من الحيوانات مثيلاتها . فلحوم هذه الحيوانات كلها لا تصلح للأكل .

ما أكل السبع : وحرم الاسلام ما ترك السبع ، وهو كثيراً ما يعتدي على قطعان الماشية فيتناول فريسته ويترك قسماً منها بعد عراكه مع الرعاة . فلا يجوز والحالة هذه أكل الحيوان إذا كان ميتاً لأنه يشبه الحالة السابقة (المنخنقة) وضرر ذلك ناتج عن أن الحيوانات المفترسة تأكل الجيف عادة التي تحمل الأمراض ، وقد تنقل الجراثيم من فم السبع الى الفريسة ولهذا السبب حرمها الاسلام .

تحريم الدم : وحرم الاسلام الدم لأنه أصلح وسط لنمو الجراثيم المختلفة وتوالدها وانتشارها ، ولأنه يحمل إفرازات وسموماً يجب التخلص منها ، كما يحمل محتويات البول . وعلى أي حال لا يعتبر الدم غذاءً مطلقاً .

تحريم الحيوان المفترس والطير الجارح المفترس : ومن المحرمات في الاسلام أكل كل ذي مخلب من الطير وكل ذي ناب من السباع لصلابة عضلاتها وتلون لحمها وقبح رائحتها ، قال الرسول الأعظم : « حرم عليكم كل ذي مخلب من الطير وكل ذي نابٍ من السباع » .

فلحوم هذه الحيوانات كلها غير صالحة لمعدة الانسان لأن هذه الحيوانات تبذل مجهوداً عضلياً في افتراسها لغيرها فتقوى بذلك عضلاتها وتكون صعبة الهضم .

تحريم لحم الخنزير : وقد حرم الاسلام لحم الخنزير لأنه يحدث الداء المسمى « تريشينوز » وهو داء خطير يصحبه إسهال حاد وأحياناً إسهالاً دموياً مع مغص وحمى قوية وانحطاط في القوى

(17) راجع في ذلك الاسلام والطب الحديث للدكتور عبد العزيز اسماعيل ص 17 .

(18) المائدة الآية 3 .

وجفاف في الحنجرة ، وأوجاع مؤلمة في المفاصل تورّم ظاهر في الوجه ، وخاصة حول العينين ، وربما يؤدي الى الموت .

وقد اكتشف بعض الأطباء بعد التجارب المتعاقبة أن هذا الداء ينشأ من دودة تسمى « تريشينيا » تعيش في أمعاء بعض الحيوانات ذات الثدي كالكلاب والجرذان والفئران والخنازير غير أنها أربى في الخنازير من غيرها لأنها تأكل الجيف من كل حيوان يموت وفيه الطفيلية . فإذا أكل الانسان لحم الخنزير المصاب بها ، تذوب تلك الأغشية في أمعاء الإنسان بعد مدة وجيزة ويدخل في جوفه قسم كبير من أكياسها الحية المخزونة في لحم الخنزير فتخرج منها الديدان ، وتنتشر في جميع أنحاء البدن فتسبب الأمراض السالفة الذكر »[19] .

وقد ذكر بعض الأطباء عن هذا المرض الحقائق التالية :

أ ـ لا يمكن للطبيب الأخصائي من التقرير ان خنزيراً ما غير مصاب بهذه الديدان إلا إذا فحص كل جزء من عضلاته تحت المجهر وهذا غير ممكن إذ ينفذ بذلك لحم الخنزير .

ب ـ الأنثى الواحدة من هذه الديدان تضع 1500 جنيناً في الغشاء المخاطي المبطن لأمعاء المصاب ، فتوزع الملايين المولودة من الأناث جميعاً بطريق الدورة الدموية ، الى جميع أجزاء الجسم فتتجمع الأجنة في العضلات الارادية حيث تسبب آلاماً شديدة والتهابات عضلية تدعو إلى انتفاخ النسيج العضلي وصلابته وتكون نتيجة ذلك الأورام التي تمتد بطول العضلات .

ج ـ لا يوجد علاج لهذا المرض ، ولأسباب فنية لا يجدي معه دواء . وبجانب ذلك ينقل لحم الخنزير للانسان بعض الجراثيم العفنة والبارا تيفود التي تسبب للانسان تسمماً حاداً مصحوباً بالتهابات شديدة في الجهاز الهضمي قد تسبب الوفاة في بضع ساعات[20] .

وبعد هذه الأضرار الفظيعة لا بد إلا أن يحرمه الدين الاسلامي ، دين الانسانية المتطورة .

تحريم الخمور في الاسلام

حرم الاسلام الخمر لأنه مصدر كل موبقة ، إذ يسلب الانسان مقوماته الفكرية ، وهي أسمى ما أعطاه الله سبحانه للانسان وميزه بها عن الحيوان الأبكم . قال سبحانه وتعالى : ﴿ إنما الخمر والميسر والانصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾[21] .

وتواترت الأخبار في تحريمه . قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يدخلون الجنة مدمن خمر . ومدمن سحر ، وقاطع رحم »[22] .

---

(19) القرآن والطب الحديث لمحمد الخليلي ص 76. من هؤلاء الأطباء الطبيب الانجليزي (باجت) 1835 م شرح جثة انسان كان يكثر من أكل لحم الخنزير .

(20) راجع روح الدين الاسلامي ص 372 .

(21) المائدة الآية 90 .

(22) وسائل الشيعة كتاب الأطعمة والأشربة .

وقال ﷺ : « لعن الله الخمر وشاربها وساقيها ومبتاعها وبائعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه » وقال ﷺ : « كل مسكر خمر ، وكل خمر حرام »[23] .

وقال الامام الصادق (ع) : « من شرب الخمر حتى يفنى عمره كان كمن عبد الأوثان ومن ترك مسكراً مخافة الله أدخله الجنة وسقاه من الرحيق المختوم »[24] . وقال أيضاً (ع) : « مدمن الخمر كعابد وثن ، وإن الخمر رأس كل إثم وشاربها مكذب بكتاب الله ، لو صدَّق كتاب الله حرَّم حرامه »[25] .

أضرار الخمر

للخمر أضرار بالغة على قوى الشخص الجسمية والعقلية والادمان على شربه يحدث انهياراً للحصة وضعفاً في التقدير والادراك . ومن أضراره الفظيعة : ضرره على القلب والدم . يتسرب الكحول الى الدم مباشرة . فبمجرد دخوله الى المعدة ينحل ثم يتوزع إلى جميع الأعضاء والأنسجة ، وقليل منه يكون حامضاً كربونياً ، وحامضاً خلّياً ، وقد استدلوا على ذلك عندما قربوا قليلاً من دم سكران وقربوه من النار فالتهب كما يلتهب (الكحول) .

وأما تأثيره على القلب فإنه يحدث ارتفاعاً في ضغط الدم ، فيشتد النبض وتسرع دقاته ، وبعدما تنقص تلك الحركة الحماسية يصيب القلب ذبول وانحطاط . وقد ذكر الأطباء أن الادمان على الخمر يسبب تصلباً في الشرايين أو انفجاراً في شرايين المخ فقد ينجو المريض جزئياً أو لا ينجو البتة .

ضرره على الكبد والكليتين : بعد أن يمتص الجسم كمية من الخمر ، ولو كانت عشر غرامات ، يمر الكحول في الكبد عن طريق التيار الدموي ، وبذلك يخرب الخلايات الكبدية ، ويحدث التهاباً فيها . وإذا أدمن عليها يصبح الالتهاب مزمناً ويتضخم الكبد ، كما يسبب تشمعاً فيه .

وأما تأثيره على الكليتين فإنه يسبب قلة في إدرار البول وذلك بسبب تمدد الأوعية الدموية الكلوية ، كما يحدث التهاباً خطيراً فيهما .

ضرره على المعدة : عندما يدخل الخمر المعدة يتعذر الهضم كما أنه يهيج غشاء المعدة المخاطي ، ويسبب تدفق العصارة المعدية . والادمان عليه يتلف فاعلية تلك العصارة . أما الغير متعود على الخمرة . فإنها تسبب له غثياناً أو قيئاً وإذا كانت الجرعة كبيرة أحدثت له التهاباً في المعدة وعسر هضم يستمر أياماً .

ضرره على النسل : وللخمر تأثير سلبي في الوراثة فالمسكر ينتقل بالوراثة الى النسل . فالأولاد من أبوين مدمنين ينشأون ضعفاء البنية غير صحيحي الجسم ، ناقصي العقول ، ويكونون عرضة للاصابة باضطرابات خطيرة تنتهي بالعته أو الشلل العام .. وقد يؤدي الى موت الطفل بعد ولادته . وفوق هذا فإن ذرية المدمنين على الخمر قد تصاب بتشوهات مؤلمة

---

(23) رواه مسلم .

(24) و(25) وسائل الشيعة كتاب الأطعمة والأشربة .

كعدم تساوي الجمجمة أو قصر القامة ، الاستسقاء في الدماغ ، أو بتأخير في نمو القوى العقلية ، كضعف الذاكرة أو البله وغيرها . .

وبعض البلدان الباردة قد يستعينون بالخمر لتدفئة الأجسام ومكافحة البرد . أثبتت التجارب الطبية أن هذه الوسيلة غير صالحة وغير نافعة . كما حدث في جزيرة اسلندا الباردة جداً . كان أهلها يستعينون على مكافحة البرد بالمشروبات الروحية ، فكان أن زادت بينهم الوفيات الى حد كبير ، فألفوا لجنة من الأطباء لتبحث في الأمر وتعرف أسبابه . وبعد الدراسة أعطت اللجنة تقريراً يثبت أن كثرة الوفيات في الجزيرة راجع الى أن القوم كانوا يستنفدون حرارة أجسامهم بما يتعاطونه من الخمر ، مما يسبب بتأثير الكحول صعود الدم من داخل الجسم الى سطح الجلد فتبيده برودة الجو تدريجياً حتى تأتي على آخره ، فتنتهي الحياة بانتهاء الحرارة من الجسم . ومن ثم عرض الأمر على برلمان اسلندا فقرر الموافقة على سن قانون يحرم تعاطي المسكرات على أهل البلد .

ولكن هذا القرار كان قد سبقه منذ قرون قرار النبي محمد ﷺ . روي عن ديلم الحميري قال : سألت النبي ﷺ قلت : يا رسول الله إنا بأرض باردة نعالج فيها عملاً شديداً ، وانا نتخذ شراباً من هذا القمح نتقوى به على أعمالنا وعلى برد بلادنا . قال : هل يسكر ؟ قلت نعم . قال : فاجتنبوه قلت : إن الناس غير تاركيه . قال : فإن لم يتركوه فقاتلوهم[26] .

والعلم الحديث أثبت أن التداوي بالخمر لا فائدة منه وهي فكرة خاطئة . سأل طارق الجعفي النبي ﷺ عن الخمر فنهاه عنها فقال : إنما أصنعها للدواء فقال : إنه ليس بدواء ولكنه داء[27] .

وقد أشاد بعض علماء الغرب بالتشريع الاسلامي في مكافحة الخمرة فقال (بنتام) في كتاب « أصول الشرائع » ما نصه : « النبيذ في الأقاليم الشمالية يجعل الانسان كالأبله ، وفي الاقاليم الجنوبية يصير كالمجنون وقد حرمت ديانة محمد جميع المشروبات وهذه من محاسنها »[28] .

لذلك كله حرم الدين الاسلامي الخمر تحريماً باتاً وجعلها من الكبائر والموبقات لأنه يؤذي صحة الانسان ويسلبه كرامته ويمسخه ويلقيه في شر عظيم .

وسائل مكافحة الخمر

بعد أن عرضنا تحريم الاسلام للخمر نعرض الآن وسائل مكافحة هذا الداء الخطير المبيد والمدمر للصحة والحياة .

1 ـ على السلطة أن تحرمه تماماً فتبيد معامله وتنزل العقوبات الصارمة بكل من يتجر ويرتزق منه .

---

(26) راجع روح الدين الاسلامي ص 374 رواه أبو داود .

(27) رواه مسلم .

(28) روح الدين الاسلامي ص 375 .

2 ـ الطلب من أجهزة الإعلام من إذاعة وتلفزيون وصحافة بعرض أضراره الفظيعة بالطرق العلمية المعبرة .
3 ـ قيام رجال الدين والتربية والأطباء ومنظمات الصحة بإعطاء بيانات ومحاضرات وندوات تشرح أضراره للمواطنين .
4 ـ فتح النوادي الرياضية ، ومزاولة الشباب لأنواع الرياضة والنشاطات المفيدة .
5 ـ منع الإعلانات والدعاية في جميع وسائل الاعلام التي تحبب استعماله والترغيب فيه .

هذه بعض الوسائل التي ينبغي أن تستخدم لمكافحة هذه الآفة الفتاكة المضرة بالانسان من جميع النواحي الصحية والانسانية والأخلاقية والاقتصادية .

منهج التغذية في الاسلام

1 ـ الاعتدال في الطعام

وضع الاسلام منهجاً خاصاً للتغذية ، وأمر المسلمين بتطبيقه على واقع حياتهم ، فأكد على ضرورة الاعتدال في الطعام وعدم الاسراف فيه لوقايتهم من أمراض الجهاز الهضمي . قال سبحانه وتعالى :

﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾(29) .

كلمات قليلة العد ، تعتمد قانوناً من قوانين الصحة ، من سار على حكمه ضمن لنفسه العافية وأبعد عن جسمه السقم والمرض .

فالانسان الأكول إذا أكثر من الطعام أصيب بالتخمة وعسر الهضم وربما الاسهال أو الصداع .

والاسراف في الطعام ينتج عنه البدانة التي منها البدانة والتعرض لارتفاع الضغط وأمراض القلب والكلي والسكر .

وقد دلت الاحصاءات أن نسبة الوفيات في حالات أمراض الكلى الحادة بين المسرفين في البدانة ضعف النسبة بين أولئك الذين تتناسب أوزانهم مع طول قامتهم وأعمارهم ؛ لأن زيادة الوزن تعني كثرة المواد الفاسدة في الدم وفي الجهاز الهضمي ، وهذا يعني زيادة الكليتين . ومن المعلوم أن الكليتين تعمل طوال ساعات الليل والنهار في جميع الأجسام المعتدلة الصحيحة ، فإذا ما أسرف الانسان بالطعام تضاعف عملها وأصيبتا بالتعب ومن ثم بالأمراض المختلفة .

قال الامام الصادق (ع) : لو اقتصد الناس في المطعم لاستقامت أبدانهم . وقال الامام الرضا (ع) : من أخذ من الطعام زيادة لم يفده ، ومن أخذ بقدر لا زيادة عليه ولا نقص

(29) الأعراف الآية 31 .

نفعه ، وكذلك ما سبيلك أن تأخذ من الطعام كفايتك في إبانة وارفع يديك منه ، وعندك إليه ميل فإنه أصلح لمعدتك ، ولبدنك وأذكى لعقلك ، وأخف على جسمك »(30) .

لقد نهى الاسلام عن الشراهة وأمر بضرورة الاعتدال في الأكل ، مما يوجب صحة الأبدان وإبعادها عن الأمراض .

قال الرسول الأعظم : « المعدة بيت كل داء ، والحمية رأس كل دواء ، واعط كل نفس ما عودتها »(31) .

الشراهة في الأكل تورث البدانة والرجل البدين تكسو قلبه طبقة من الشحم تحمل عضلاته عبئاً كبيراً تعيقه عن تأدية وظائفه الطبيعية . فلا غرابة أن تكون نسبة الوفاة بين البدينين ـ بسبب مرض الذبحة الصدرية وما شابهها ـ أعلى منها بين متوسطي الوزن . وتقليل وزن الجسم ، إذا كان مبكراً ، يفيد الرجل البدين المصاب بارتفاع الضغط فائدة كبيرة .

2 ـ مضغ الطعام

حث الاسلام على مضغ الطعام وجعله من جملة مناهجه الصحية . فالذي يمضغ جيداً يريح معدته التي وصفها النبي ﷺ « ببيت الداء » ويستغني بذلك عن الأطباء . وقد أيدت البحوث الطبية الحديثة ذلك . وأكدت أن عدم مضغ الطعام جيداً يعرض الجهاز الهضمي للاصابة بكثير من الأمراض ، من أخطرها مرض (القرحة) .

ومن الأغذية الصحية المفيدة التي وجد فيها الاسلام شفاء للناس

3 ـ العسل

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وأوحى ربك الى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾(32) .

فالشراب الذي يخرج من بطون النحل فيه شفاء للناس وهو دواء مفيد وهذه أيضاً من مآثر القرآن الكريم ، دستور الحياة والأحياء ، أثبتها الطب . وعودة الى التركيب الكيماوي نجد أن العسل يحتوي على 25-40% من Glucose وهذه المادة الموجودة فيه هي التي يعول عليها الطب ويستعملها في ازدياد مستمر ، فتعطى بالحقن وتحت الجلد ، وفي الوريد ، وعن طريق الفم . كما تعطى أيضاً ضد التسمم الناشىء من أمراض أعضاء في الجسم مثل التسمم البولي الناشىء من أمراض الكبد والاضطرابات المعدية والمعوية وضد حمى التيفوئيد والالتهابات الرئوية والسحائية والحصبة ، وفي حالات ضعف القلب والذبحة القلبية . كل هذه الحالات يشفيها الـ Glucose .

وللعسل فوائد أخرى هامة فهو دواء ملطف يزيد في إفرازات الفم فيفيد في صعوبة

---

(30) راجع طب الامام الرضا .

(31) راجع المجازات النبوية جمع الشريف الرضي .

(32) النحل الآية 68 و69 .

الابتلاع وفي حالات السعال الجافة ، لذلك أدخلته صناعة الأدوية في الغراغر وأدوية السعال . كما يستعمل العسل كملين ضد الامساك . حيث يعطى ملعقة صغيرة على الريق .

وقد ركز القرآن الكريم على العسل بصورة خاصة دون الفواكه الأخرى لأنها لا تحتوي إلا على مادة قليلة من Glucose والكمية الباقية كلها من مادة السكر Saccarose . وذكره في كتاب الله ليس صدفة ولكنها معجزة من معجزات الاسلام التي قررها منذ ثلاثة عشر قرناً ونيف ، عندما كان لا يعرف شيء عن مركبات العسل ولا عن الـ Glucose في المركبات الطبية .

ومن المنجزات الصحية الوقائية التي سبق بها الاسلام الطب الحديث :

الحجر الصحي

وضع الاسلام قانون الحجر الصحي قبل أن عرفته الدول الكبرى المتحضرة . قال الرسول الأعظم : « إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها ، وإذا نزل وأنتم بأرض فلا تخرجوا منها »[33] .

كما وضع الاسلام الحجر الصحي للحيوان أيضاً وفي ذلك قال النبي ﷺ : « لا يورد ممرض على مصح » أي لا يورد صاحب الماشية المريضة على صاحب الماشية السليمة لكي لا يعدي مريضها سليمها .

ومن تعاليم الاسلام الصحية الوقائية قول النبي ﷺ أيضاً : « فر من المجذوم فرارك من الأسد »[34] .

ولو علمت أوروبا بالحجر الصحي لخفت عنها الخسائر التي منيت بها في الأرواح في أواسط القرن الرابع عشر عندما اجتاحها الطاعون ، فقد قدر عدد الموتى الذين قضى عليهم هذا الوباء الخطير بخمسة وعشرين مليون نسمة في ذلك الوقت نفذت البندقية وميلانو قوانين صارمة بالحجر الصحي فأنشأت المآوي بعيداً عن المدينة ليقيم فيها القادمون المشتبه فيهم ، فيبقوا معزولين لمدة ثلاثين يوماً ، ثم زيدت المدة بعد ذلك حتى صارت أربعين يوماً . فانظر كيف كان الاسلام السباق الى وضع القوانين والأنظمة التي تسير مع كل عصر في جميع الميادين العلمية والأخلاقية والصحية والاجتماعية . ومن تعاليم الاسلام الصحية للوقاية من الأمراض :

تحريم وطء الحائض

حرم الدين الاسلامي وطء المرأة أثناء الحيض ، وقاية للزوجين من الأمراض . جاء في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن ﴾[35] .

---

(33) رواه أصحاب السنن .

(34) رواه البخاري ومسلم .

(35) البقرة الآية 222 .

وقد أثبتت البحوث الطبية الحديثة أن افرازات الجسم على نوعين :

نوع له فائدة في الجسم مثل الافرازات التي تساعد على الهضم الصادرة عن الغدد اللعابية والغدد المعوية ، أو غدد التناسل ، أو إفرازات داخلية تنظم أجهزة الجسم وأنسجته . . . وهذا النوع يسمى secretion وهو ضروري للحياة .

ونوع ثان ليس له فائدة ، بل يجب طرده من الجسم الى الخارج لأن بقاءه أكثر من الوقت المحدد له يؤذي . وهو مكون من مواد سامة مثل البول والبراز والعرق ودم الحيض . . . وهذا النوع يسمى excretion .

والآية الكريمة التي حرمت وطء الحائض هي آية علمية لأنها علمت الانسان قبل أن يعرف شيئاً عن الافرازات المختلفة المفيدة والضارة منها .

أما الجزء الثاني من الآية ﴿ فاعتزلوا النساء في المحيض ﴾ فقد أمر الاسلام به لأن دم الحيض يحوي ميكروبات وجراثيم لا تلبث أن تصيب الرجل فتحدث له التهابات . كما أنه في زمن الحيض تحتقن أغشية المرأة الداخلية وفي المخالطة قد يحدث لها التمزيق فتنتشر العدوى من الميكروبات الموجودة وتنتقل من مكان الرحم إلى أمكنة أبعد مما يؤثر في صحة المرأة ويضرها ، كما أن الاختلاط ربما منع نزول الحيض كما يسبب كثيراً من الاضطراب العصبي[36] .

والاسلام الذي اهتم بالانسان ووضع له منهجاً انسانياً سليماً ، حرم كل ما يؤذيه ومنها وطء الحائض لأن ذلك يقي الزوجين من الاصابة بكثير من الأمراض ، ويعود عليها بأروع الثمرات الصحية . ولنتذكر دائماً كيف يسير الطب الحديث وراء القرآن الكريم مهتدياً بهديه .

ومن حكم الاسلام في وقاية الأبدان الحذر من :

نجاسة الكلب :

أطلق الاسلام اسم النجاسة على كل ما هو ملوث بالجراثيم ، أو ما كان عرضة لاتصال العدوى والمرض الى الانسان . ومن أقذر هذه النجاسات ، نجاسة الكلب . قال النبي ﷺ :

« إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليرقه ثم ليغسله سبع مرات إحداهن بالتراب » .

فعلينا أن نحذر الأوعية إذا ولغ فيها كلب ولوثها وترك عليها مختلف الجراثيم والأمراض. وقد أثبت الطب الحديث أن الكلاب تنقل كثيراً من الأمراض الى الانسان ، كما حذر من الأخطار الناجمة عن اقتناء الكلاب أو الاقتراب منها .

قال بعض الأطباء الغربيين : « إن ازدياد شغف الناس باقتناء الكلاب في هذا العهد الأخير يضطرنا الى لفت الأنظار للأخطار التي تنجم عن ذلك ، وخاصة إذا دفع اقتناؤها إلى

---

(36) راجع روح الدين الاسلامي ص 379 .

مداعبتها وتقبيلها والسماح لها بلحس أيدي أصحابها وتركها تلعق فضلات الطعام من أوانيها. فكل ما ذكر مناف للذوق السليم والآداب العامة لا يتفق وقوانين الصحة لأن الأخطار التي تهدد صحة الانسان وحياته بسبب هذا التسامح لا يستهان بها . فإن الكلاب تصاب بدودة شريطية(37) تتعداها الى الانسان ، وتصيبه بأمراض عضالة قد تصل الى حد العدوان على حياته » وتابع :

« وقد ثبت أن جميع الكلاب حتى أصغرها حجماً لا تسلم من الاصابة بهذه الديدان الشريطية . وقد شوهد أن الحيوانات أكثر تعرضاً للعدوى بهذه الدودة من الانسان . لذلك يجب العناية بأمر الذبائح المنزلية فقد تكون مصابة بدودة الكلاب ولا يعرفها صاحبها ولا القصاب المكلف بذبحها »(38) .

كل هذه المآثر الصحية الوقائية قررها الاسلام لوقاية الابدان من الاصابة بآفات خطرة تهدد حياته ، فهو دين الدنيا ودين الرحمة .

---

(37) اسمها العلمي Taénia Echinococcus

(38) راجع روح الدين الاسلامي ص 381 .

الباب التاسع

النظام العسكري

الفصل الأول

الجيش

جاء الاسلام ليوحد بين قلوب العرب ويهديهم الى الخير والحياة الكريمة التي أرادها الله لهم . وكلف تعالى رسله الكرام ليصلحوا الأرض ومن عليها ، وكان خاتمهم النبي محمد عليه السلام ، أرسله بالهدى ودين الحق ولو كره المشركون . أرسله سراجاً منيراً لجميع الناس من كل عرق ولون . ولما جهر ﷺ بالدعوة الاسلامية أنزل به المشركون وبأصحابه وأهله أشد الأذى وأمرّ الاضطهاد . فطلب أعوانه من برد العدوان على هؤلاء الجناة ، فلم يرخص لهم الرسول في بادىء الأمر بل أجابهم : ﴿ كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾[1] وعندما اشتد أذى المشركين وزاد ، جاء الأذن من الله بالقتال : ﴿ أُذِنَ للذين يقاتلون بأنهم ظُلِموا ، وان الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامعُ وبِيَعُ وصلواتٌ ومساجدُ يُذْكَرُ فيها اسمُ الله كثيرا ﴾[2] .

ولما كان الأمر كذلك فقد شعر النبي بالحاجة إلى تأليف جيش يحمي الدعوة المباركة ويرد عنها كيد المعتدين . فكان **التطوع الاختياري** .

وكما عرف من سيرته الطاهرة أنه لم يلزم نفراً من أصحابه بالتجنيد ، وجل ما فعله ﷺ حضّ المؤمنين على القتال ، وعلى الأخص القادرين منهم . وقد وصف القرآن بعضهم : ﴿ لو كان عَرَضاً قريباً وسَفَراً قاصداً لاتّبعوك ، ولكن بَعُدَتْ عليهم الشُّقة ﴾[3] وتابع في وصف البعض الآخر فشبههم ﷺ بالنساء الخوالف :

﴿ رَضُوا بأنْ يكونوا مع الخوالفَ وطبع على قلوبهم فهم لا يعلمون ﴾[4] .

لقد جهر ﷺ بدعوته العادلة دون أن يلزم أحداً على القتال ، فالمقاتل المؤمن بعدالة قضيته يطير الى الحرب عن رضى وطواعية ، أما المتثاقل والمتباطىء فلا حاجة اليه ولا نفع

---

(1) سورة النساء الآية 77 .

(2) سورة الحج الآية 39-40 .

(3) سورة التوبة الآية 42 .

(4) سورة التوبة الآية 93 .

يرجى منه . قال رسول الله ﷺ : لا يخرجنّ معنا إلا راغب في الجهاد »[5] . وقال ﷺ أيضاً : « لا يخرجنّ معنا إلا من حضر يومنا بالأمس »[6] ويقصد بالأمس غزوة أُحد المشهورة .

وبإرادة الله تم فتح مكة فتحاً مبيناً ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، وزاد عدد المؤمنين وأصبح من الممكن إعدادُ جيش يعنى بأمر القتال . فألّف عليه السلام جماعة لتكون على استعداد للحرب يوم النفير . ومع ذلك لم تأخذ هذه الجماعة صفة جندية إلزامية ، بل بقيت فيها ملامح التطوع غالبة في أكثر الحالات .

وفي عهد أبي بكر بقي الدخول في الجيش تطوعاً وليس إلزامياً ، حتى كان عهد عمر فأنشأ ديوان الجند للاشراف والتنظيم . وأصبح التجنيد إلزامياً ، وحددت رواتب للجنود النظاميين تدفع لهم من بيت المال .

وعندما أفضى الأمر الى معاوية اختل نظام التجنيد ، وأخذ يدفق المال على الجنود والقواد لنيل رضاهم . فأصبح هدف القتال كسبُ المال ، وإلا فهم مع الخوالف قاعدون[7] . وكذلك كان رأي ابن الأثير قال : « وازداد الأمر سوءاً في دولة بني أمية ، حتى أضحى الخلفاء يدفعون إلى الجنود العطايا والأموال قبل اشتراكهم في القتال ، ولما رأوا الإغراء لا يجدي ، صلبوا المتخلفين على الجدران ودقوا في أطرافهم المسامير[8] . ولا يخفى أن الأمويين تركوا إنسانية الاسلام وعملوا لمصالحهم الشخصية . وعن فرق الجيش المعروفة كان المحاربون المشاة ، وكان الفرسان . والفارس أهم من الراجل . يقول الطبري : في عهد عمر بلغ عدد الفرسان في الكوفة أربعة آلاف فارس ، وكان في كل مصر من الأمصار الباقية كما في الكوفة[9] نستدل من هذا ما كان للخيالة من دور فعال في حماية الدولة .

وتم تنظيم الجيش فجعل لكل عشرة عسكريين عريفاً ، ولكل عشرة عرفاء نقيباً . فالرسول نفسه هو الذي اختار ليلة « العقبة الثانية » اثني عشر « نقيباً » ، ممن وفد إلى مكة من أهل المدينة ، وجعلهم مشرفين على العرفاء ، وهو الذي قسم أصحابه عرافات ، وجعل على كل عشرة منهم عريفاً[10] .

أما الرتب الباقية فنستقي بعضها من كتب التاريخ . فالخليفة يأمر خمسين جندياً والقائد مئة جندي وأمير الكردوس على ألف ، وأمير الجيش على عشرة آلاف أو يزيد »[11] .

وكان يتم تدريب الجند ، ولا سيما الفرسان في (الحمى) القريب من مكة ، فيقومون

(5) طبقات ابن سعد ج 2 ص 27 .
(6) تاريخ الطبري ج 3 ص 28 .
(7) مروج الذهب ج 3 ص 95 .
(8) الكامل لابن الأثير ج 3 ص 159 .
(9) تاريخ الطبري ج 4 ص 196 .
(10) المصدر نفسه ج 4 ص 158 .
(11) الكامل ج 2 ص 200 .

بمناورات . وكان يصحب هؤلاء بعض العارفين بأمراض الخيل ومعالجاتها ، فيشرفون على بيطرتها وسياستها . من هؤلاء كان سلمان بن ربيعة الباهلي اطلق عليه لقب (سلمان الخيل) لخدمته أمر الخيل وخبرته بها(12) .

شروط التعيين في الجيش

في عهد الرسول ﷺ كان التعيين يتم بنظرة دقيقة من الرسول ﷺ قبل المعركة فمن أعجبته لياقته في القتال أجازه ، ومن وجده غير لائق رده(13) . لم يكن يشترط سناً معيناً للانخراط في سلك الجندية . بعد الرسول ﷺ عينوا بعض الشروط . أن يكون : مسلماً ، عاقلاً ، بالغاً ، سليماً من الأمراض ، غير هياب في القتال . ودرج على هذا الأمويون والعباسيون .

أما القائد فكان يدعوه الرسول ﷺ ويعقد له لواء على رمح طويل ينشره أثناء مسيرته الى المعركة . وغالباً ما كان القائد يستلم اللواء من يد الرسول ثم يركزه في المسجد النبوي ، لينضوي حوله الراغبون في الجهاد . وقد اعتبر الخلفاء الراشدون أن عقد اللواء للقائد هو بمثابة تعيينه لأمرة فرقة معينة من الجنود ، وعلى ذلك مضت سُنّة الأمويين ، إلى أن كان عهد العباسيين ، حيث تغيرت القاعدة المألوفة فأصبحوا يرسلون اللواء إلى القواد ، حيث يكونون ، ومع اللواء خلعة يلبسونها بمناسبة تعيينهم ، وقد يبعثون إليهم أوامرهم بالبريد(14) .

قيادة الجيش

كان النبي ﷺ كما ذكرنا هو القائد الأعلى لجيش المسلمين . وبعده كانت الأحوال قد تطورت وميادين القتال قد كثرت ، فأصبح من العسير على الخليفة أن يقوم منفرداً بمهمة قيادة الجيش . لذلك نراه قد أسندها الى من يتأكد أنه أهل لها ، ممن عرف بالشجاعة والنجدة ، والاقدام والحزم ، وحسن التدبير ، والخبرة بفنون القتال « وإعمال الخدعة ، وانتهاز الفرصة ، والتماس العزة ، وإذكاء العيون ، وإفشاء الطلائع واجتناب المضايق »(15) .

كانت إطاعة القائد واجبة لازمة ، كطاعة الخليفة نفسه ؛ فهو ينوب عنه في إقامة الصلاة ، ويستعرض فرق الجيش قبل لقاء العدو ، ليطمئن على حسن استعدادهم وتأهبهم وذلك اقتداء بالنبي ﷺ ؛ فقد سن للمسلمين هذه السنة في حروبه .

وبعد الانتهاء من المعركة تصبح مهمة القائد النظر في أمر الجند ، وتدريبهم تدريباً لائقاً ، وتحسين معداتهم وإصلاح ما فسد منها أثناء القتال ، والاستزادة منها حسب ما تقتضي الحاجة .

---

(12) عيون الأخبار لابن قتيبة ج 1 ص 155 وتاريخ الطبري ج 4 ص 182 .

(13) الكامل لابن الأثير ج 2 ص 62 .

(14) المصدر نفسه ج 5 ص 144 .

(15) العقد الفريد ج 1 ص 108 .

هنـاك قلوب مـريضـة في بعض أفـراد الجيش ، يعملون عـلى تثبيط الهمم وخـذلان الأفراد ، والاتصال بالعدو لاعطائه بعض المعلومات السرية عن جيشهم . والاسلام لم يغفـل عنهم بل عرفهم جميعاً وكان لهم بـالمرصـاد ، وحذرهم وأبعـدهم عن كل مـا له صلة بسـلامة الدولة وأمنها . قال تعالى :

﴿ ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيَّـت طائفةٌ منهم غيرَ الذي تقول والله يكتب مـا يبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾[16] .

أولئك كانوا جرثـومة الـوهن في الجيش ، وأساس التخـاذل في صفوف الأمـة ، .من هنا نرى الأمم الواعية المدركة ، تحتاط منهم وتحذرهم ، وتباعد بينهم وبين كـل وسيلة قد يصلون بهـا الى تحقيق غرضهم . والتـاريخ يعيـد نفسه ، ففي كـل عصـر نجـد من هؤلاء الجـراثيم الاجتماعية التي هي أخطر بكثير من الجـراثيم الجسديـة التي تهاجم جسم الانسـان . وكما أن الكريات البيض في الجسم تهاجم أي جرثوم يريد الفتك به كذلك هناك عيون ساهـرة ترصـد هؤلاء المتخاذلين الجبناء وتقضي عليهم .

رواتب القادة والجنود :

كانت الفتوح تدر على القادة والجنود خيرات عميمة لا تقدر ، وذلك بما يخصهم به أمير المؤمنـين من العطايـا والأرزاق . وما ذكـر لنا رسميـاً عن رواتب الجنود ذكـره ابن خلدون في المقدمة فقال : « حتى كان الفارس الواحد يقسم له في بعض الغزوات ثلاثون ألفاً من الذهب أو نحوها »[17] .

وفي عهد عثمان أثرت الدولة ثراء كبيراً ، فازدادت رواتب الجنـود وبلغت أموال بعض القواد أرقاماً خيالية لا تصدق . قال ابن خلدون : « كان لعثمان يوم قتل عند خازنه خمسـون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهمـا مائتـا ألف دينار وخلّـف إبلاً وخيلاً كثيرة . . . وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينـار كل يـوم ومن ناحيـة السـراة أكثر من ذلـك ، وكان عـلى مربط عبـد الرحمن بن عـوف ألف فرس ولـه ألف بعـير وعشرة آلاف من الغنم وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألفاً . . . »[18] .

ولا ندرك مدى ارتفاع تلك الرواتب إلا إذا عرفنا أن الخليفـة عمر تقـاضى 6000 درهم راتباً للخلافة وكذلك كان أبو بكر[19] . أمـا علي المعـروف بزهـده وتقاه لم يكتـرث للدنيا التي وصفها بدار الفناء ، بل اهتم بالآخرة التي وصفهـا بدار البقـاء . وقد انتقـل عن هذه الـدنيا وهو يقول :

« أأقنـع من نفسي أن يقـال أمـير المؤمنـين ولا أشـاركهم في مكـاره الـدهـر وخشـونـة

(16) النساء الآية 81 .

(17) المقدمة لابن خلدون ص 204 .

(18) المصدر السابق ص 204 .

(19) تاريخ الطبري ج 4 ص 164 .

العيش »[20] وقال أيضاً في خطبه المتكررة :

« والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصى الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلت ، وان دنياكم لا هون عندي من ورقة في فم جرادة » .

وقد كان يجمع اليتامى ويطعمهم أطايب الطعام ، حتى قال بعض أصحابه : وددت أني كنت يتيماً يا أبا الحسن . وجاء عن أبي طفيل أن (ع) أوقف جميع ما كان يملكه في الحجاز على الفقراء . روى الرازي في تفسيره الآية : ﴿ والذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية ﴾ من سورة البقرة . نزلت في علي بن أبي طالب . نقل ذلك المظفري في دلائل الصدق عن الواحدي في كتابه أسباب النزول[21] . وكان علي بزهده في الدنيا وإعراضه عن مفاتنها وطيباتها يتأسى برسول الله المرسلين الذين كانوا يتسابقون الى مرضاته عزّ وجل .

جاء في بعض خطبه التي قال فيها : « لقد كان لي برسول الله أسوة إذ قبضت عنه أطرافها ووطئت لغيره أكنافها ، وإن شئت ثنّيت بموسى كليم الله إذ يقول : ربي إني لما أنزلت إلي من خير فقير ، والله ما سأله إلا خبزاً يأكله . وإن شئت ثلثت بداود صاحب المزامير ، وقارىء أهل الجنة فقد كان يعمل سفائف الخوص بيده ويقول لجلسائه : أيكم يكفيني بيعها ويأكل قرص شعير من ثمنها . وإن شئت قلت في عيسى ابن مريم فلقد كان يتوسد الحجر ويلبس الخشن ويأكل العشب ، وكان أدامه الجوع وسراجه الليل والقمر ، وظلاله في الشتاء مشارق الأرض ومغاربها وفاكهته وريحانه ما تنبت الأرض ، ولم تكن له زوجة تفتنه ولا ولد يحزنه ولا مطمع يذله دابته رجلاه وخادمه يداه »[22] .

لقد سار أمير المؤمنين على سنة محمد ﷺ وموسى وداود وعيسى عليهم السلام . وآثر اللباس الخشن وخبز الشعير والخل على ملذات الدنيا وطيباتها . وهو القائل : والله لو شئت لاهتديت الطريق الى مصفى هذا العسل ولباب هذا القمح ونسيج هذا القز ، ولكنها نفسي أروضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الفزع الأكبر ، ما لعلي ونعيم يفنى ولذة لا تبقى .

وفي العصر العباسي كثرت الجيوش ولم تعد الحاجة ماسة إلى إغراء الناس بالتجنيد فتضاءلت رواتب الجنود ، إلا أن يكونوا مرابطين على الثغور ، فيبذل لهم حينئذٍ ضعف الرواتب الأخرى تعويضاً لهم عن مشقات الاغتراب[23] .

التجنيد الإلزامي :

بدأ الناس في عهد عمر بن الخطاب يتشاغلون بكسب المال عن القتال بعد أن أمطرتهم الفتوح والجزية بالغنائم الوفيرة . ولما تمكنت جيوش المسلمين من فتح العراق والشام واطمأنوا الى النصر الذي حققوه ، أقام الجند في هذه الأمصار معسكرات خاصة بهم ، وانصرفوا إلى

---

(20) سيرة الأئمة الاثني عشر ص 328 للسيد هاشم معروف الحسني .

(21) المصدر نفسه ص 334 .

(22) المصدر نفسه ص 335 . وقابل بالعقاد عبقرية علي فقد تحدث عن زهد علي (ع) .

(23) الكامل لابن الأثيرج 6 ص 162 .

الزراعة وتكوين الثروة وامتلاك العقار الثابت ، وبذلك انصرفوا عن الجندية ، وفترت الروح العسكرية فيهم ، ففطن عمر إلى هذا الخطر وأمرهم أن ينصرفوا إلى الجهاد وضمن لهم أرزاقهم وأرزاق أسرهم(24) .

هذا ما دعا أمير المؤمنين إلى أن يفكر في التجنيد الالزامي ، ويعيد النظرة في بناء الجيش ليكون قوياً مرهوب الجانب فأمر عماله على الأقاليم باحضار كل فارس ذي نجدة أو رأي أو فرس أو سلاح ، فإن جاء طائعاً ، وإلا حشروه حشراً وقادوه مقاداً(25) .

الى جانب الترهيب والشدة عمد عمر الى الترغيب والاغراء ، فذكّر القوم بما ينتظرهم من الفيء في إتمام فتوح العراق ، وإنما يرث الأرض العامرة عبادُ الله الصالحون . هذا وقد أقام لهم الحصون والمعسكرات الدائمة لراحة الجنود في أثناء الطريق ، بعد أن كانوا يقطعون المسافات البعيدة على ظهور الإبل ، ولا يرتاحون إلا في أكواخٍ مصنوعة من سعف النخل . ومن ثم بنيت العواصم وأقيمت الحاميات لصد هجمات الأعداء المفاجئة(26) .

وأكمل الأمويون ما بدأه عمر في نظام الجندية ، ولكن لما استقر الأمر لهم قعد المسلمون عن الحرب وانصرفوا عن القتال . فأدخل عبد الملك بن مروان نظام التجنيد الالزامي . كان الجيش في عهده من العنصر العربي . كما كانت عليه سياسة الدولة الأموية . وظلت الحال على ذلك ، من استخدام العنصر العربي وحده ، حتى توسع الأمويون في فتوحاتهم ، وضموا شمال افريقية وبلادَ الأندلس فاستعانوا بالبربر في الجيش ، وفي عهد العباسيين دخل العنصر الفارسي في الجيش اعربي ، ولما تولى المعتصم الخلافة 218 هـ ـ 833 م استكثر من الأتراك(27) . فولاهم حراسة قصره ، وأسند إليهم المناصب العالية في الدولة ، وبصورة خاصة الجيش ، وأدر عليهم أعطياته وهباته وفضلهم على الفرس ، وحتى على العرب . عند ذلك دب دبيب الغيرة والحسد في نفوس القواد العرب . وتآمروا على التخلص من المعتصم ، صاحب الميول التركية ، ولما فشلوا أقصى المعتصم جميع القواد العرب والفرس أيضاً ، ومنع عنهم مخصصات ديوان العطاء ، واعتمد الأتراك دون سواهم . ويا له من نهاية . لقد أصبح الخليفة مسجوناً في قفص ، لا قوة له ولا حول ، وغدا ألعوبة في أيدي الأتراك حيث صار لهم وحدهم السلطة في بقائه على كرسي الخلافة ، أو عزله أو حبسه أو قتله .

---

(24) تاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم ج 1 ص 478 .

(25) راجع تاريخ الطبري ج 4 ص 63 .

(26) تاريخ الاسلام السياسي ج 1 ص 478 .

(27) لأن أمه تركية .

الفصل الثاني
أسلحة الجيش

كان الجيش يتألف من الرجالة والفرسان . فالرجالة يتسلحون بالدروع والسيوف والقسي والسهام ، والفرسان يتسلحون بالدروع والسيوف والرماح .

والعرب في الجاهلية كانوا يحسنون الرمي بالقسي ، ولما جاء الاسلام ساعدتهم مهارتهم تلك على قهر الروم الذين لم يكونوا يحسنون الرمي بها . لذلك كان القادة المسلمون يدربون جنودهم على اتقان الرمي بالنبال . كان النبي يقول : « إرموا واركبوا ، وأن تركبوا أحب إلي من أن ترموا » وفي القرآن الكريم : ﴿ واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ وكان الرسول يقول وهو على المنبر بعد أن يتلو هذه الآية ﴿ ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ﴾[1] .

الدرع :

هو قميص منسوج من حِلَق حديدية رفيعة ، يسمونها (سابغة) إذا غطت البدن كله بأكمامها الطويلة ، وحاشيتها التي تصل إلى نصف الساق .

وفيها المِغْفَر الذي يغطي الوجه ، والبيضة التي تغطي الرأس والقنا ، هذه السابغة ذات الأكمام . أما إذا كانت قصيرة بلا أكمام ، ولا تبلغ أسفل الركبة ، فهي الدرع « البتراء » . وقد تتصل الدرع بمسامير تسمى « الغلائل » وقد تنسج حلقة داخل حلقة فتدعى « مفردة » بينما تدعى التي تنسج حلقتين داخل حلقتين « مضاعفة »[2] .

وكان الشجعان من الفرسان المسلمين يتخففون من لبس الدروع اعتداداً ببطولتهم ومنهم علي بن أبي طالب ، (ع) كان يكتفي بدرع لا ظهر لها . وهو القائل : « إذا استمكن عدوي من ظهري ، فلا يبقي »[3] لأنه على ثقة من نفسه من أنه لا يهزم ولا يلحق بمهزوم . وهذا الدرع بلا ظهر كانوا يسمونه الجوشن .

هؤلاء الدارعين كانوا في مقدمة الجند ، في الصفوف الأمامية ، والحاسرين منهم يؤخرون الى الصفوف الخلفية .

---

(1) تاريخ الاسلام السياسي ج 1 ص 479 .

(2) المخصص لابن سيدة ج 6 ص 70 .

(3) عيون الأخبار ج 1 ص 131 .

السيف :

وهو أكثر الأسلحة العربية شيوعاً ، وأعظمها شأناً وأكثرها استعمالاً وكلام العرب في السيف طويل وطويل ، فوصفوا أجزاءه وطريقة استعماله . ومنه بشفرة واحدة ومنه بشفرتين . وأشهر أنواعه : الهندي واليماني .

الرمح :

إتخذه العرب من الأشجار الصلبة كالنَّبْع والشوحط . . . وهو من الأسلحة التي استعملها المسلمون كثيراً في حروبهم . وللرمح أحجام مختلفة ، فمنه القصير ذو أربعة أذرع ، وهو أشبه بالعصا ، أطلقوا عليه : النَيْزَك والحَرْبة والعَنَزَة والمِرْزاق وكلها تعني الرمح . ومنه الطويل الذي يترجح بين أربعة أذرع وعشرة ، وله طبقات وهذا أطلقوا عليه علاة أسماء : المربوع ، والمخموس ، والتام . وإذا أفرط في الطول سموه : الخَطِل لاضطرابه في يد صاحبه(4) . وكان المسلمون يفضلون القناة الصماء على الجَوفاء ، ويدهنونها بالزيت لتظل مرنة كما استخدموا قناة طويلة في رأسها حرْبة ، أو حَرْبتان مستقيمتان حربة عوجاء لينقبوا بها الجدران(5) .

ومن شدة عنايتهم بهذا السلاح الشائع عمدوا الى قيام حلقات مبارزة قصد التمرين . فيسددون طعناتهم الى حلقة من حديد سموها (الوَتْرة) . أو انهم يقومون برحلات صيد يصطادون الوحوش في البراري . وبقي الرمح السلاح المستعمل في العصر الأموي والعباسي مع إدخال بعض التعديلات في طرق رمايته .

الترس :

أو المجنّ استخدمه المسلمون كغيرهم من الشعوب الأخرى ليقيهم أذى طعنات الرماح والسيوف وأطلقوا عليه اسم الدَّرقة والحجفة ، صنعوه من الخشب وصفحوه بقطعة من الجلد يلصقونها به ، ورصعوه بالمسامير الكثيفة . وهو عندهم على أشكال فمنه المحدَّب المنحني الأطراف ، ومنه المخصَّر المستطيل وعلى أحجام وأوزان مختلفة ، فهو صغير أو كبير ، وضعيف أو ثقيل(6) .

القوس والنشاب :

عرف من الرماية بالقوس والنشاب عند غير العرب، فقد اشتهر به الفرس حتى بلغ من مهارتهم « أنّ أحدهم كانت ترفع له الكرة فيرميها ويشكها بالنشاب »(7) وهذا ما استثار همة المسلمين ليتقنوا الرمي ويدافعون عن أنفسهم .

ولما تلا الرسول ﷺ على المنبر قوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾(8) .

(4) البيان والتبيين ج 3 ص 19 .

(5) المعجم الوسيط ج 1 ص 84 . ودائرة المعارف ج 16 ص 699 .

(6) المعجم الوسيط ج 1 ص 84 . ودائرة المعارف ج 10 ص 522 .

(7) الطبري ج 4 ص 140 .

(8) سورة الأنفال الآية 60 . وتاريخ الاسلام السياسي ج 1 ص 479 .

فسر القوة بالرمي . فكان عليه السلام يفضل الرمي على ركوب الخيل لـذلك اهتم المسلمـون بالتمارين على الرمي وبـرعوا فيـه حتى فاقـوا الفرس وأصبحـوا من أمهر الشعـوب في الرمـاية بالقسي والسهام .

والقوس عود من شجر جبلي صلب ، يحنى طـرفه بقـوة ، ويشد فيهـما وتر من الجلد أو العصب . ولا بد لها من سهام يحتفظ بها الجندي في جعبته الجلدية ليرمي بهـا عن قوسـه عند الـطلب كالـرصاص للبنـدقية في عصـرنا اليـوم . وقد عني العـرب بصناعـة القسي والسهـام وتـطورت تطوراً ملحـوظاً فبعـد أن كانت القـوس متصلة الأجزاء فصلوا بعض أحـزائهـا عن بعض ، ثم ركّبوها وألصقوها بـالغراء وجعلوا لهـا مقبضاً وسِيَتَـيْنْ[9] . وبعد أن كـان السهم عوداً رفيعاً من شجر صلب في رأسه نصل من حديد مدبَّب ، سقَوْا نصله بالسمّ عـلى طريقـة الروم ، فأمسى سلاحاً فتاكاً رهيباً .

ومن طرائف السهام ، سهم يستعمل بدل الرسالة ، يطلقه الرامي بعـد أن يكتب عليه ما شاء ، فيلقي به الذعـر في قلوب الأعداء ، ويحملهم عـلى الاستسلام في بعض الأحيـان . وقد يرد عليه عدوه بسهم مماثل وتكون المراسلة بواسطة الرفاح .

الدبابة

عـرف العرب في حـروبهم الدبـابـة ، كـانـوا يصنعـونها من الخشب السميـك ، تغلف باللبابيد والجلود المنقوعة في الخل لدفع النار . تركب على عجلة وتحرك فتجر فيدفعها الرجـال على البكر . « وهي أقدم من المنجنيق ، استخدمها المصريـون القدمـاء والأشوريـون فاليـونان فالرومان فالفرس فالعرب . وهي عبارة عن قلعة سائرة على عجل ، يهجمون بها على الأسوار لمحاربة المحاصرين من أعلى السور »[10] . ومما يبدو أن الدبابة كانت عندهم سلاحـاً هجوميـاً يستخدمونها لهدم الأسوار « فيسيرونها ويحتمون بجـدرانها ويجعلون رأسها محـدداً يصدمـون بها الأسوار حتى تهدم »[11] .

وورد في تاريخ الحضارة الاسلاميـة أن المسلمين استعـانوا بـالدبـابات في حـروبهم ضد البيزنطيين « فيدخلون في جوفها ، ويزحفون بهـا الى جدار الحصن فينقبـوه »[12] . استخدمـوا عدة دبابات تسع الـواحدة منهـا بضعة رجـال استعان بهـا الخليفة العبـاسي عندمـا فتح قلعـة عمورية البيزنطية ، وقد كان حدثاً عظيماً دوى صيته العـالم آنذاك . قـال شاعـر الامبراطـورية الاسلامية ، أبو تمام مادحاً المعتصم في ذلك الفتح العظيم :

يـا يـوم وقعـة عمـوريـة انصـرفت منـك المنى حُفَّلاً معسـولـة الحلب[13]

(9) نهاية الأرب ج 6 ص 228 . والسيتان مثنى سية وهي ما انعطف من طرفي القوس وركب فيه الوتر أما المقبض فهو موضع اليد اليسرى منه في وسطه .

(10) تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان ج 1 ص 190 .

(11) المصدر نفسه .

(12) تاريخ الحضارة الاسلامية لأبي زيد شلبي ص 161 .

(13) مأخوذ من قولهم ناقة حافل أي مجتمعة اللبن . المعسولة : الحلوبة .

فتــح الفتــوح تعــالى ان يحيط بــه نــظم من الشعر أو نــثر من الخـطب
فــتــحٌ تُفَتَّـحُ أبــواب الــسـماء لــه وتبـــرز الأرض في أثــوابهــا القشب
تــدبــير معتـصم بــالله ، منتـقــم لله ، مــرتــقــب في الله مــرتـغــب
رمى بــك الله بـرجيهـا فهـدمهـا ولــو رمى بك غـير الله ، لم تصب[15]

طرق القتال :

يرجع الفضل إلى القواد العرب في تنظيم طـريقة القتـال ، ففي الجاهليـة كانـوا يتبعون طريقة الكر والفر ، يهجمون على العدو فإذا ما آنسوا في أنفسهم ضعفاً فروا راجعين . وهكذا يسيرون على غير ضابط أو نظام . غير أن الجنود المسلمين لم يـطمئنوا إلى هـذه الطريقـة ورأوا أنها لا تحقق لهم النصر ، فأخذوا يقفون صفوفاً منـظمة كـما لو كـانوا في طـاعة الصـلاة ، ثم يسيرون لملاقاة العدو متضامنين كالبناء المرصوص . عملاً بقول الآيـة الكريمـة ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾[16] .

وفي عهد الأمويين اختلط العرب كثيـراً بالفـرس وأخذوا عنهم نـظام التعبئة . فقسمـوا الجيش إلى خمس كتائب . ولذلك كانوا يسمون الجيش كله خميساً تكون إحدى هذه الفـرق في الوسط تحت إمرة القائد العام وتسمى « قلب الجيش » ، وإلى يمين القلب فرقة اسمها «الميمنة» والى اليسار فرقة اسمها الميسرة ، وتكون أمام هذه فرقة من الفرسان في غالب الأحيان وتسمى المقدمة ، وخلفها كتيبة تسمى ساقة الجيش ، وبعد ذلك تركوا نظام الصفوف[17] .

وكانت طاعة القائد واجبة كطاعة الخليفـة نفسه لأنـه يعتبر نـائبه ، ينـوب عنه في إمـرة الجيش وفي إقامة الصلاة . أما إذا اجتمع أكثر من قائد في مكـان واحد عـين الخليفة أحـدهم للصلاة بالناس ، فيصبح هذا القائد بمثابة « قائـد القواد » وإذا مـا انتهى القتال تصبـح مهمة القواد مقصورة على النظر في أمر الجند ، وتدريبهم ، وتحسين معداتهم ، ومراقبة أسلحتهم .

لذلك نرى أن ديوان الجنـد الذي استحـدثه عمـر بن الخطاب يعـد أكبر مسـاعد عـلى تحسين أحوال الجندية وضبط نظامها وحسن تدريب عناصـرها . وممـا يذكـر أن النساء كـانت تصحبن الجيش طوال المعركة ، يقـرعن الطبول من أجل إثارة الحمـاسة في نفـوس المقاتلين . وقد خصصن لهن أماكن في المدن الحصينة خوفاً عليهن من السبي .

الى جانب هذا كان الجنود يتلون الآيات القرآنية ويكبِّـرون أثناء سيرهم للغزو والجهـاد وفي أثناء اشتباكهم مع العدو في معارك حربية .

عمليات الحصار :

كانت عمليات الحصـار تتم بطرق مختلفـة ، استخدمهـا المسلمون في حصـارهم القلاع

---

(15) راجع كتابنا أعلام في العصر العباسي ص 106 . وما بعدها .

(16) سورة الصف الآية 4 .

(17) تاريخ الاسلام لحسن ابراهيم ص 481 .

والحصـون التي وقف أهلها حجـر عثرة في طـريق نشر الـدعوة الاسـلاميـة . من بعض هـذه العمليات استعمال **المنجنيق** :

ذكر المؤرخون أن النبي أول من رمى بالمنجنيق وقد استعمله في خيبـر ليلقي الذعـر في قلوب اليهود ، وأكد بعضهم أنه حاصر أهل الطائف ورماهم بالمنجنيق[18] .

ويقال أنه كان شرقي جبل السواد من أرض البلقـاء مدينـة عظيمـة يقال لهـا جرْش ، اشتهـر سكانها بصنـاعة المجـانيق ، كما يـروى أن غيلان بن سلمـة وعروة بن مسعـود كـانـا يتعلمـان صناعـة تلك الآلات الحربيـة الثقيلة في تلك المدينـة[19] وقد أدخـل عليـه المسلمـون تحسينات حْتى بات من الأسلحة الثقيلة التي لا يستغني عنها قـوادهم ولا سيما في حصـار المدن وفتح الأسوار .

وفي العصـر الأموي أخـذ الرجـال يجرونـه عـلى الـزحـافـات ، ثم يـرمـون بـه الكتـل الصخرية ، والأخشاب المشتعلة . كما يـروى أن مروان بن محمـد نصب على سعيـد بن هشام وأنصاره بحمص نيفاً وثمـانين منجنيقـاً ، ظل يـرهبهم بها طـوال عشرة أشهـر ، وقد أصبـح المنجنيق في العصر العباسي سلاحاً مدمراً مخيفاً يقذفون منه قذائف النفط .

سلم الحصار : أو ما سموه رأس الكبش

عرف المسلمون في عمليات الحصار سلاحاً حديدياً ثقيلاً سمـوه رأس الكبش ومما يبـدو أن له شكلاً عـلى صورة الكبش بقـرونه وجبهتـه ، يركب هـذا الرأس الحـديدي داخـل برج خشبي ، فم يتدلى من سطح البـرج ، محمولاً بسـلاسل . تـربطه من مـوضعين ، وبـالكبش المغلق بالدبابة بعمود غليظ يعمل الرجال على نقب السور وهدمها مستعينين على ذلـك بسلالم الحصار ، كما صنـع خالـد بن الوليـد يوم فتـح أسوار دمشق والنـاس من حولـه يكبرون[20] . والكبش كالدبابة يتحصن المقاتلون في داخله أثناء الهجوم .

الحسك الشائك :

نـوع جديـد أتقنه المسلمـون وصنعه الـرسـول ﷺ في حصـار الـطائف ، هـو الحسـك الشائك . هو عبارة عن حصيرة يصنعونها من حسك السعدان ، وهـو شوك صلب ذو ثـلاث شُعَب ، تنـثر منه شعبتـان في الأرض ، وتبقى الثالثـة بارزة لتعـطب بها حـوافر الخيـل أثنـاء الهجوم وأقدام العدو المغير[21] .

ومما يبدو أنـه فيما بعـد تطورت صنـاعته عنـدهم فاستبـدلوا حسَـك السعدان بـأصابـع حديدية مدبّبـة ، ذوات شعـب ثـلاث ، وثبتوه حول الخنادق في بعض حروبهم ، ليمنعوا بـه تقدم الرجال المشاة والفرسان[22] .

---

(18) سيرة ابن هشام ج 4 ص 126 . تاريخ الطبري ج 3 ص 133 . والكامل ج 2 ص 111 .

(19) تاريخ الطبري ج 3 ص 132 .

(20) الكامل ج 2 ص 180 . وتاريخ التمدن الاسلامي ج 1 ص 190 .

(21) القاموس المحيط مادة (حسك) باب الكاف فصل الحاء .

(22) طبقات ابن سعد ج 2 ص 114 . والسيرة لابن هشام ج 2 ص 303 .

حفر الخنادق :

الخندق لفظ فارسي معرب ينم عن أصله ، فاسمه بالفارسية « كندة » ومعناه محفور . وفي غزوة الأحزاب المسماة غزوة الخندق جاءت الفكرة للرسول ﷺ عن طريق سلمان الفارسي الذي ذكر له أن من وسائل الدفاع في بلاده حفر الخنادق . فراقت له الفكرة . وفي يوم الخندق جعل الرسول ﷺ جبل سَلْع وراء ظهره ، وشارك أصحابه في حفر الخندق الممتد من الحَرَّة الشرقية إلى الحرَّة الغربية . مخصصاً لكل عشرة من أصحابه أربعين ذراعاً ، على كل رجل منهم أن يحفر أربعة أذرع ، وكان عدد أصحابه يومذاك ثلاثة آلاف(23) ، فيكون طول ذلك الخندق اثني عشر ألف ذراع ، حفرها القوم في عشرين يوماً .

وقد أدخل المسلمون عدة تحسينات مع تقدم الزمن ، في عملية حفر الخنادق فأدخلوا عليها إصلاحات جديدة ، عرفوا الخنادق المائية يتحصنون بها على الطريقة الرومية . ويتم ذلك بأن يضربوا خندقاً حول خندق العدو ، ليجبروه على التسليم(24) . فيكون الخندق الثاني عملية من عمليات الحصار تقطع عن العدو كل امتداد أو معونة خارجية .

هذا ما دعا الحجاج بن يوسف ، عندما فرغ من بناء مدينة واسط إلى إحاطتها بخندق يحيط بها . وكذلك فعل العرب ، أمسوا يحفرون الخنادق الدائمة التي تحيط بما يبنون من المدن والثغور(25) .

وقد تفنن العرب في طرق حصار المدن فبلغوا آية في الذكاء والدهاء . فكانوا إذا أرادوا اقتحام خنادق العدو طمّوها في أضيق موضع منها بالبرادع والرحال ، وجلود الإبل ، ثم عبروها آمنين بسلام(26) .

الجاسوسية

إعتمد المسلمون في حروبهم على رجال أذكياء مدربين مهمتهم التعرف على أخبار العدو واستطلاع أحواله . عرف هؤلاء بالعيون . وقد كان النبي ﷺ يذكي العيون ليأتوه بأخبار الأعداء . من ذلك أنه أرسل عبد الله بن جحش في اثني عشر مهاجراً إلى « نخلة » بين مكة والطائف ليترصد بها قريشاً ، ويتعرف عن كثب أخبارهم ، كما أرسل الى بدر رجلان يستقيان ويتنطسان(27) الأخبار . وفي موقعة أحد بعث بابني فضالة : أنس ومؤنس يتلمسان خبر قريش ؛ فأخبراه الخبر اليقين واستفاد من أخبارهما لانجاح المعركة(28) وهكذا لقد كان ﷺ يهتم بأخبار عدوه ليأخذ منه حذره وليعد له للأمر عدته .

---

(23) تاريخ الطبري ج 3 ص 45 .

(24) تاريخ الطبري ج 3 ص 188 .

(25) الكامل ج 4 ص 168 .

(26) الطبري ج 4 ص 20 . والكامل ج 5 ص 60 .

(27) المتنطس : الذي يحسن النظر في الأمور ويستقصي أدقها .

(28) راجع سيرة المصطفى للسيد هاشم معروف الحسني ص 131 . وص 393 .

وقد سار الخلفاء بعد النبي ﷺ على طريقته فأرسلوا العيون تستكشف وتتحرى قال عمر بن الخطاب لسعد بن أبي وقاص في وصية له : « فاذك العيون بينك وبينهم ، ولا يخف عليك أمرهم »[29] . وفي عهد العباسيين عنوا بالجاسوسية وأحكموا أمرها ، فاستخدموا لها الرجال والنساء ، يذهبون الى البلاد البعيدة والمجاورة متنكرين في زي التجار ، أو الأطباء ، (يتنطسون) الأخبار ثم يعودون بها إلى الدولة لتحتاط للأمر ولم تكن الجاسوسية أكثر نشاطاً ، ولا أعم انتشاراً في بلد من البلاد منها في الدولة البيزنطية التي كانت لا تزال تنافس الدولة الاسلامية[30] .

حرب الأعصاب

عرف المسلمون كذلك حرب الأعصاب ، واستعملوها في إضعاف عزيمة العدو أثناء القتال . من ذلك يروى أنهم عندما حاصروا قنسرين ، تحصن أهلها منهم ؛ فأرسل إليهم خالد بن الوليد يحذرهم قائلاً :

« لو كنتم في السحاب حملنا الله إليكم ، أو لأنزلكم إلينا » فألقوا السلم وفتحوا مدينتهم للمسلمين[31] .

كلمة السر عند المحاربين

كان الجيش في أوائل الاسلام إذا تهيأ للقتال نادى قواده بهذه العبارة : النفير النفير . وتعني عندهم الهجوم . وإذا أرادوا التراجع والانسحاب قالوا : الرجعة الرجعة ! وإذا أرادوا أن يركب الفرسان للمشاركة في القتال قالوا : الخيل الخيل ! وإذا أراد الخيالة الترجل قالوا : الأرض الأرض .

ولما تقدم المسلمون في حروبهم واتسعت فتوحاتهم وكثر عدد الجند عندهم تغيرت هذه العبارات وجعلوا لكل حركة نداء خاصاً يدل لفظه على المراد به . فإذا ما أراد قائد الجند أن يميل جنده الى جهة ، أو يتخذ شكلاً معيناً لأفراد جنده نادى بكلمة خاصة تناسب الوضع الذي يريد . وأبرز ما استعمله القواد في حروبهم كلمتين هما : « هوجوا » و« هوبرا » واستعانوا على نجاح الخطة العسكرية في القتال بالاشارات . لذلك كان على الجند أن يراعوا القائد بأعينهم حتى إذا مال الى جهة مالوا معه .

والمراد بلفظة « هوجوا » أن تقبل الوجوه تجاه بعضها بعضاً وبلفظة « هوبرا » عكس الحركة الأولى ان تتدابر الوجوه ويتفرق الجند .

وكلمة السر بين الجند المتعارف عليها أثناء الحرب كانوا يسمونها الشعار . وهي كلمة يصطلحون عليها حسب مقتضى الأحوال . ففي غزوة أحد كان شعارهم : يا للعزى يا لهبل .

---

(29) تاريخ الحضارة الاسلامية لأبي زيد شلبي ص 161 .

(30) المصدر نفسه والنظم الاسلامية للدكتور حسن ابراهيم حسن .

(31) تاريخ الحضارة الاسلامية لأبي زيد شلبي ص 162 .

وكان شعار تنوخ في الحيرة : يا آل عباد الله .

وجعل النبي ﷺ لكل من المهاجرين والأنصار شعاراً ، فكان شعار المهاجرين « يا بني عبد الرحمن » وشعار الأوس « يا بني عبيد الله » وشعار الخزرج : « يا بني عبد الله » وهكذا كان الحال لسائر القبائل الأخرى كل واحدة منها لها شعار خاص بها يتعارف أفرادها عليه(32) .

الفدائيون

كان في الجيش الاسلامي نفر من الفدائيين الذين استشهدوا أمام الرسول ﷺ وأمام الصحابة في معارك مشهورة خاضها المؤمنون مع أعداء الاسلام وفازوا في الدنيا والآخرة . حاربوا بعقيدة ثابتة وإرادة صلبة وقلب كبير يعمره بالايمان ويدفعه حب الاستشهاد للدخول الى الجنة . وعلى الحالين المؤمن في حالة يسر وسعادة ، فإما النصر وإما الدخول الى الجنة . قال تعالى : ﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ان لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل واتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون ﴾(33) .

وآيات كثيرات تبشر المجاهدين في سبيل الله بجنات النعيم .

ففي موقعة أحد تقدم خيثمة أبو سعد وفدى نفسه برسول الله ﷺ فقال : « يا رسول الله إن قريشاً مكثت حولاً كاملاً تجمع الجموع وتستجلب العرب حتى يشنوا الغارات علينا ويصيبوا أطلالنا ويضعوا العيون والأرصاد علينا ، فيجترىء علينا العرب حولنا حتى يطمعوا فينا إذا رأونا لم نخرج إليهم فنذبهم عن حريمنا . وعسى الله أن يظفرنا بهم فتلك عادة الله عندنا ، أو تكون الأخرى فهي الشهادة وتابع قائلاً :

لقد أخطأتني وقعة بدر وكنت عليها حريصاً ولقد بلغ من حرصي أن ساهم ابني في الخروج فرزق الشهادة ، وقد كنت حريصاً على الشهادة ، وقد رأيت ابني البارحة في النوم في أحسن صورة يسرح في ثمار الجنة وأنهارها وهو يقول : إلحق بنا ترافقنا في الجنة فقد وجدت ما وعدني ربي حقاً وقد والله أصبحت يا رسول الله مشتاقاً الى مرافقته في الجنة ، وقد كبرت سني ودق عظمي وأحببت لقاء ربي فادع الله يا رسول الله أن يرزقني مرافقة سعد في الجنة . فدعا له رسول الله ﷺ بذلك فقتل مع من قتل في تلك المعركة(34) .

وكثير من الشهداء الفدائيين قدموا أنفسهم رخيصة في سبيل نصرة الحق ذكرتهم كتب السير والتاريخ .

وهاك علم آخر من الفدائيين الحق استشهد في معركة صفين التي دارت بين علي أمير المؤمنين ومعاوية والي الشام .

---

(32) راجع تاريخ التمن الاسلامي لجرجي زيدان ج 1 ص 201-202 .

(33) البقرة الآية 25 .

(34) سيرة المصطفى للسيد هاشم معروف الحسني ص 395-396 .

لما بلغ القتال أقصى حدود العنف والضراوة ، تقدم أمير المؤمنين ومن بقي حياً من المهاجرين والأنصار يتقدمهم عمار بن ياسر ، البطل الجبار ، وصحابة الرسول الأبرار نحو أهل الشام ، وعمار ينادي بأعلى صوته : والله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لعلمنا أننا على الحق وأنهم على الباطل ، ومضى يستقبل الطعنات والضربات بصدره ونحره ويقول رافعاً يديه : اللهم لا أعلم عملاً أرضى إليك من جهاد هؤلاء القوم ، ولو كنت أعلم عملاً أحب إلي من جهادهم لفعلته .

وتضعضع الكثيرون من أتباع معاوية لموقف عمار البطل وعزيمته الجبارة الصادقة على مواصلة الكفاح حتى النصر أو الشهادة ؛ لأن مقالة الرسول فيه لم تعد خافية على أحد من وجوه المسلمين ، وقد تداولها الناس فيما بينهم وكأنها آية منزلة : طوبى لعمار تقتله الفئة الباغية ، عمار مع الحق يدور معه كيفما دار . وبقي عمار يجاهد في سبيل الحق الى جانب علي ابن أبي طالب حتى استشهد في سبيل الله ضد معاوية الظالم ومن ساعده من البغاة ، وذلك عملاً بحكم القرآن الكريم الذي يأمر المسلمين بقتال الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله كما جاء في الآية الكريمة : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ﴾ .

وفدائي ثالث فدى نفسه برسول الله يوم أحد هو أنس بن النضر ، ظل يقاتل حتى قتل . وكان كثير من الصحابة كفوا عن القتال ظناً منهم أن الرسول ﷺ قد قتل ، فمر بهم أنس المؤمن بعقيدته حتى الايمان وقال لهم متعجباً : « فما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه» ثم اندفع أمامهم بطلاً صنديداً يقاتل حتى قتل ووجدوا فيه سبعين ضربة وطعنة من الكفار الآثمين ، وما عرفته أخته إلا بحسن بنانه »[36] .

---

(35) الحجرات الآية 9 .

(36) الكامل لابن الأثير ج 2 ص 64 .

الفصل الثالث

الحرب في الشريعة الاسلامية

عـرف ابن عبد ربـه الحرب فقـال : « الحرب رحى ثقـالها الصبـر ، وقـطبهـا المكـر ، ومدارها الاجتهاد ، وثقافها الأناة وزمارها الحذر »[1] .

والحرب في تاريخ البشر أمر طبيعي لا تخلو عنه أمة ولا جيل ، وهي ضرورة اجتماعيـة طالما كانت هناك أطماع ومظالم بشرية ، وسببها في « الأكثر إما غيرة ومنافسة ، وإما عدوان ، وإما غضب لله ولدينه ، وإما غضب للملك وسعي في تمهيده »[2] .

والحـرب في الاسلام السمـوح حرب دفـاع عن النفس وعن الدعـوة ، ولم تكن حـرب هجـوم واعتداء كـما كانت الحـال عند سـائر الأمم . وهـذا ما يميـز شريعـة الله عن الشرائـع الـوضعية الملكيـة . وقد وصفـوا الخلافـة بتواضعهـا وانسـانيتهـا بغـير مـا وصفـوا القيصـريـة والكسـروية في التسلط والتحكم في رقـاب العباد . وقـد بين الاسـلام في مواضـع كثيـرة منـه السبب الـذي من أجله شرع القتـال ، وأذن للمؤمنين في حـرب أعداء الاسـلام والجهـاد في سبيل الله . قال تعالى :

﴿ أذن للذين يقـاتلون بأنهم ظلمـوا وان الله على نصـرهم لقدير الـذين أخـرجـوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربُنا اللهُ ولولا دَفْـعُ الله الناسَ بعضهم ببعض لهـدمت صوامـع وَبِيَعٌ وصلوات ومساجـد يذكـر فيهـا اسم الله كثيـراً ولينصـرنَّ اللهُ من ينصـره ان الله لقـوي عزيز ﴾[3] .

لقد أذن الله للمؤمنين في القتـال دون فرضـه عليهم . وقال عـزّ وجل : ﴿ وقـاتلوا في سبيـل الله الذين يقـاتلوكم ولا تعتـدوا ان الله لا يحب المعتـدين ، واقتلوهـم حيثـما ثقفتمـوهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهـم عند المسجد الحرام حتـى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهـم كذلك جزاء الكافرين ﴾[4] .

فهل يسمع اليوم العرب المؤمنون نداء الله وحالة المسجد الأقصى مع اسرائيل المعتـدية

---

(1) العقد الفريد لابن عبد ربه ج 1 ص 108 .
(2) المقدمة لابن خلدون ج 2 ص 653 .
(3) الحج الآية 39 -40 .
(4) البقرة الآية 190 -191 .

الظالمة ؟! وفي السورة نفسها قال تعالى : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾(5) .

فالقتال في الشريعة الاسلامية للمعتدين على الدعوة المباركة حتى لا تكون هناك فتنة بين عباد الله ، لأن الدين لله ، والقتال كله في سبيل الله ، وليس لمآرب شخصية ومنافع مادية كما يحصل في عصرنا اليوم .

وفي سورة النساء يحثنا رب العالمين على القتال في سبيله فيقول سبحانه : ﴿ ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أَهْلُها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيرا ﴾(6) .

أما إذا اعتزلوا القتال وألقوا سلاحهم فلا سبيل للمؤمنين عليهم لأنهم يطبقون شريعة الله والله ينهى عن الظلم والاعتداء . قال تعالى : ﴿ . . . فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا ﴾(7) . ويقول عز وجل في سورة الأنفال ما يشبه هذا القول : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم ﴾(8) .

وأما الذين ينقضون العهد ولا يلتزمون بأقوالهم ومواعيدهم في كل مرة ، كاليهود مثلاً ، فقد أمر الله بقتالهم . قال سبحانه مخاطباً الكفار : ﴿ الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون ، فأما تثقفنّهم في الحرب فشرد بهم مَنْ خَلْفَهُم لعلهم يذكرون ، وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين ﴾(9) .

وقوله أيضاً عزّ وجل عندما مالأ اليهود قريشاً والمنافقين ، وأخافوا المسلمين في غزوة الأحزاب ، ونقضوا ما بينهم وبين المسلمين من عهود ، كما كانت عادتهم باستمرار المراوغة ونقض العهود :

﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾(10) .

وقوله سبحانه حينما اتحدت قريش وقبائل العرب مع اليهود ضد المسلمين ووقفوا جميعاً في سبيل الدعوة الاسلامية . فخاطب المشركين جميعاً : ﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلوكم كافة ﴾(11) .

---

(5) البقرة الآية 193 . وفي سورة الأنفال كررت الآية نفسها بإضافة التأكيد ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ .

(6) النساء الآية 75 .

(7) النساء الآية 90 .

(8) الأنفال الآية 61 .

(9) الأنفال الآية 56-57-58 .

(10) التوبة الآية 29 . وراجع في هذا الشأن البقرة الآية 244 . ال عمران الآية 167 . النساء الآية 76 التوبة الآية 12 و36 و123 الحجرات الآية 9 .

(11) التوبة اية 36

من هذه الآيات وما ماثلها يتبين لنا بوضوح أن الحرب في الاسلام لم تكن معتدية وان الاذن فيها كان متدرجاً ، وطبقاً للأحوال تماماً ، وقد بين هذا التدرج ابن قيم الجوزية في زاد المعاد وتصنيف الناس وموقف الاسلام بالنسبة لقتال كل صنف منهم ، أو الكف عن قتالهم(12) .

من هذا يتبين أن الاسلام لا يريد القتال إلا لغرض الدفاع عن النفس ، أو الدفاع عن الدعوة الاسلامية .

سمو الاسلام في حروبه

لقد نهج الاسلام في حروبه طريقاً لم يكن معهوداً من قبل عند الأمم الأخرى ، ولم تعرفه أي شريعة من الشرائع السابقة . وفي الآيات التي أوردناها في الحرب دليل واضح لنظام الحروب التي لم تصل إليه تلكم الأمم والتي تدعي لنفسها أنها وصلت الى مستوى رفيع من الحضارة الانسانية . وورد في تاريخ الحضارة الاسلامية « إن الاسلام هذب أمور الحرب ، ورفع مستوى الانسانية ، وبث الرحمة والعدل في قلوب متبعيه »(13) .

قال تعالى : ﴿ اليوم أحل لكم الطيبات وطعامُ الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا اتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدانٍ ومن يكفر بالايمان فقد حَبِطَ عملُه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾(14) . فإذا تأملنا هذه الآية وغيرها من الآيات المماثلة لها علمنا روح السمو التي يحملها الاسلام في علاقته مع غير معتنقيه ، فالاسلام بر والاسلام تقوى ، والاسلام محبة ، والاسلام تعاون ، والاسلام الخير كل الخير . قال الامام الشيخ شلتوت في كتابه الاسلام والعلاقات الدولية : « وهي علاقة يتضاءل أمام روعتها أحدث مبدأ عرفه العقل البشري في علاقاته الدولية » .

أين حرب الاسلام من الحروب التي تشن اليوم ، والتي تحتقر القيم الانسانية ، ولا تقيم وزناً لأية علاقة أو عهد أو كرامة . حرب القرن العشرين حرب دنيئة الأساليب ودنيئة الغايات ، وجاهلية القرن العشرين لم تتوصل إليها جاهلية القرون الوسطى . وبالله عليك ما فائدة الاختراعات الحديثة والاكتشافات في جميع ميادين الحياة إذا لم يسخرها الانسان لصالح الانسان ، ورفاهية الانسان ، وتلبية حاجات الانسان بأسرع طريقة وأجودها !

اخترع الانسان الكهرباء والصاروخ والبارود وكل مشتقاته ليفجر الصخور الصلبة ويبني بها الدور وليس أبداً كما هي الحال اليوم ، يهدم بها القصور ويؤذي عباد الله .

« نحن الآن في القرن العشرين ، ومع هذا فالحرب لا توجد شريفة الأسباب ،

---

(12) زاد المعاد ج 2 ص 82 وص 114 .

(13) تاريخ الحضارة الاسلامية لأبي زيد شلبي ص 155 .

(14) المائدة الآية 5 .

والوحشية تتجلى فيها في أفظع مجاليها ، ومعاملة الغالب للمغلوب أخشن ما يمكن أن تكون ، مهما تزينت الحروب بأسمى أسماء العواطف الخادعة ، فما الحرب العامة عنا ببعيدة ، وما الصلح فيها إلا استرقاق الأمم والشعوب البريئة لمن أوتي الظفر ، وإن لم يكونوا من جناتها ولا من مؤرثي نارها »[15] .

وصايا أمراء الجيوش الاسلامية

الدين الاسلامي دين انساني ورسول الاسلام ﷺ رسول السلام والرحمة لجميع بني البشر ، من أي عرق وأي لون . قال تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾[16] وقد تعهد النبي ، وخلفاؤه من بعده ، القواد والجند بالنصيحة قبل توجههم للحرب ، وذلك ليؤدوا واجبهم على أكمل وجه من حيث تسيير الجنود وحسن معاملة الأسرى عند الظفر ، باعتبارهم دعاة الاسلام .

من هذه الوصايا قال ﷺ :

« اغزوا باسم الله ، وفي سبيل الله ، تقاتلون من كفر بالله ، لا تغلوا ، ولا تغدروا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا امرأة ولا وليداً »[17] .

وكان عليه الصلاة والسلام ينهى في مغازيه عن النهبة ، ويقول : « من انتهب نهبة فليس منا » . وكان يمنع التفريق في السبي بين الوالدة وولدها . قال ﷺ : من فرق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة »[18] .

وصية الامام علي (ع) لمالك الأشتر في رؤساء الجند

. . . . ثم ألصَقْ بذوي المروءات والاحساب ، وأهل البيوتات الصالحة ، والسوابق الحسنة ، ثم أهل النجدة والشجاعة ، والسخاء والسماحة فإنهم جماعٌ من الكرم ، وشعب من العرف ، ثم تفقد من أمورهم ما يتفقد الوالدان من ولدهما ، ولا يتفاقمنَّ في نفسك شيء قويتهم به ، ولا تحقرنَّ لطفاً تعاهدتهم به وإن قلَّ ، فإنه داعية لهم إلى بذل النصيحة لك ، وحسن الظن بك . ولا تدع تفقد لطيف أمورهم اتكالاً على جسيمها ، فإن لليسير من لطفك موضعاً ينتفعون به ، وللجسيم موقعاً لا يستغنون عنه .

ثم قال (ع) في رؤساء الجند :

. . . ثم اعرفْ لكل امرىء منهم ما أبلى ، ولا تضمَّنَّ بلاء أمرىء إلى غيره ، ولا تقصِّرنَّ به دون غاية بلائه ، ولا يدعونَّك شرف امرىء إلى أن تعظم من بلائه ما كان صغيراً ، ولا ضَعَةُ امرىء إلى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيماً . واردُدْ الى الله ورسوله ما

---

(15) تاريخ الاسلام للشيخ عبد الوهاب النجار .

(16) الأنبياء الآية 107 .

(17) زاد الميعاد لابن قيم الجوزية ج 2 ص 90 وما بعدها .

(18) المصدر السابق ج 2 ص 90. والعقد الفريد ج 1 ص 151 .

يضلعك[19] من الخطوب ، ويشتبه عليك من الأمور ، فقد قال الله تعالى لقوم أحب إرشادهم :

﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ﴾[20] .

وصية أبي بكر الصديق لاسامة بن زيد

أسامة بن زيد هو أول قائد غزا بعد وفاة الرسول ﷺ وقد كان يحبه النبي ﷺ كما أحب أباه من قبله لحسن بلائه في الاسلام . قال أبو بكر رضي الله عنه : أيها الناس قفوا أوصيكم بعشر ؛ فاحفظوها عني : لا تخونوا ، ولا تغلوا ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ؛ ولا تعقروا نخلاً ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكله ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . . . »[21] .

وصية عمر بن الخطاب لسعد بن أبي وقاص

كان سعد كبير قواد الجبهة الشرقية في زمانه . ومما جاء في وصية عمر له : « . . . وترفق بالمسلمين في مسيرهم ، ولا تجشمهم مسيراً يتعبهم ، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر ينقص قوتهم ، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم ، حامي الانفس والكراع[22] ، وأقم بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون فيها أنفسهم ، ويرمُّون[23] أسلحتهم وأمتعتهم ، ونخ منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة ، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه ، ولا يرزأ أحداً من أهلها شيئاً فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها ، كما ابتلوا بالصبر عليها ، فما صبروا لكم فتولوهم خيراً ، ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح ، وإذا وطئت أرض العدو ، فإذاك العيون بينك وبينهم ، ولا يخف عليك أمرهم . . . ثم أذك أحراسك على عسكرك ، وتيقظ من البيات جهدك »[24] .

كان هدف القواد المحافظة على سلوك الجنود ، سلوكاً اسلامياً صحيحاً ، وكل فرد يخالف التعاليم المعطاة له من قبل قائده يعاقب على خطئه وبصورة خاصة في البلاد المفتوحة ، وذلك امتثالاً لأوامر نبيهم ونصائح الخلفاء من بعده . وهم كونهم دعاة الاسلام ينفذون تعاليمه ويطبقون شريعته يحتم عليهم هذا النهج القويم .

---

(19) ضلع في سيره إذا سار على أحد جانبيه ، وهو يريد ثقل الحق الذي يلتبس عليه مما يجعله يسير به سير الأضلع لثقله .

(20) النساء الآية 59 والرد الى الله : الأخذ بمحكم كتابه والرد الى الرسول الأخذ بسنته الجامعة .

(21) الطبري ج 2 ص 463 .

(22) الكراع : الخيل .

(23) يرمون : يصلحون .

(24) العقد الفريد ج 1 ص 154 .

أما عن جهادهم وبلائهم الحسن في القتال فالسبب في ذلك يعود الى تمسكهم بعقيدتهم مما جعلهم يستهينون بالمخاطر ؛ ويستسهلون الصعاب، فلا بأس عليهم ، فإن من عاش منهم عاش سعيداً ، ومن مات مات شهيداً . لذلك نراهم يدقون الطبول أثناء المعركة ، ويرتجزون الاراجيز لبث الحماس في نفوسهم ، ويصيحون بصوت عال : الله أكبر ! الله أكبر لا إله إلا الله وحده نصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده .

دور المرأة المسلمة في المعركة

كان للمرأة المسلمة أثر فعال في الجيش أثناء المعركة ، فقد كانت تقوم بتضميد الجرحى وسقاية الجند وإثارة الحمية والحماس في نفوس المقاتلين . وفي بعض الأحيان كانت تشارك الرجال في الحرب عندما يحمى الوطيس . فالمحاربون عندما يسمعون أزاهيج النساء ترخص عندهم النفوس وتشتد عزيمتهم . وبعض المحاربين ، أو أكثرهم ، كانوا إذا رأوا النساء يشاركن في المعركة استحيوا من الفرار واستهانوا الموت ، فيتم النصر بإذن الله على عدوهم . وقد خصص لهن أماكن في المدن الحصينة ويقرعن الطبول لاثارة الحماسة في نفوس الجند[25] .

وفي بعض غزوات النبي ﷺ شارك النساء في القتال ، والتاريخ الاسلامي ليفتخر بمثل نسيبة بنت كعبة المازنية التي دافعت عن رسول الله ﷺ في غزوة أحد حتى لقد قال فيها « ما التفت يميناً ولا شمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني »[26] .

وفي غزوة الخندق قتلت صفية بنت عبد المطلب اليهودي الذي كان يطيف بالحصن حتى لا يدل على عورة المسلمين[27] .

وفي غزو عمورية حمل مسلمة بن عبد الملك نساءه معه ، وحمل غيره نساءهم معهم . وقد امتدح « إدوار جيبون » في كتابه سقوط الدولة الرومانية شجاعة النساء المسلمات في حصار دمشق فقال :

« إن هؤلاء النساء اللاتي تعودن الضرب بالسيف ، والطعن بالرمح ، والرمي بالنبل هن اللاتي إذا وقعت إحداهن في الاسر تكون قادرة على حفظ عفتها ، وصون دينها من أي إنسان تحدثه نفسه بإرادتها بسوء »[28] .

---

(25) تاريخ الاسلام السياسي ج 1 ص 48 .

(26) الاصابة لابن حجر العسقلاني ج 8 ص 261 .

(27) المصدر نفسه ح 8 ص 128 .

(28) تاريخ الحضارة الاسلامية لأبي زيد شلبي ص 157 .

الفصل الرابع
الاسطول البحري

غلبت على العرب البداوة في صدر الاسلام ، ولم يكن عندهم العناية بالحروب البحرية فالبحر يخيفهم لأنهم لم يتعودوا على ممارسة أحواله .

كان أول من ركب البحر العلاء بن الحضرمي والي البحرين في عهد عمر ، فقد توجه لغزو بلاد فارس في اثني عشر ألفاً من المسلمين من غير إذن الخليفة ، فانتصروا وعاد المسلمون إلى البصرة محملين بالغنائم بعد أن فقدوا سفنهم التي عبروا بها بلاد الفرس . فلما علم عمر بذلك ، وكان يكره ركوب البحر ، غضب على ابن الحضرمي وعزله من الولاية ، لأنه قام بتلك المغامرة دون إذن منه . ثم أمّر سعد بن أبي وقاص عليه[1] .

ولما فتحت بلاد الشام شاهد العرب سفن الروم ، فتطلعت أنفسهم إلى مجاراة أعدائهم ، فألح معاوية على عمر في أن يأذن له بغزو بلاد الروم بحراً ليقربها منه . فكتب الخليفة عمر بن الخطاب إلى واليه على مصر عمرو بن العاص أن يصف له البحر وراكبه ، فكتب إليه ابن العاص : « يا أمير المؤمنين ! إني رأيت البحر خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير ، ليس إلا السماء والماء ، إن ركد أحزن القلوب ؛ وإن ثار أزاغ العقول . يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة . هم فيه كدود على عود ، إن مال غرق وإن نجا برق » فلما جاء عمر هذا الكتاب كتب إلى معاوية رافضاً طلبه وقال له : « لا والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً »[2] .

وقد علل ابن خلدون سبب امتناع العرب في أول عهدهم عن ركوب البحر فقال : « والسبب في ذلك أن العرب لبداوتهم لم يكونوا أول الأمر مهرة في ثقافته وركوبه والروم والافرنجة لممارستهم أحواله ومرباهم في التقلب على أعواده ، مرنوا عليه فاحكموا الدراية بثقافته فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم ، وصارت أمم البحر خولاً لهم وتحت أيديهم ، وتقرب كل ذي صنعة إليهم بمبلغ صناعته ، واستخدموا من النواتية في حاجاتهم البحرية أمماً ، وتكررت ممارستهم البحر وثقافته ، استحدثوا بصراء بها ، فتاقت نفوسهم إلى الجهاد فيه وأنشأوا السفن والشواني وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح وأمطوها العساكر

---

(1) تاريخ الطبري ج 4 ص 212 ومقدمة ابن خلدون ص 211

(2) النظم الاسلامية لحسن ابراهيم ص 177 .

والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر ، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغرهم ما كان أقرب إلى هذا البحر وعلى حافته مثل الشام وإفريقية والمغرب والأندلس »[3] .

ولما آلت الخلافة الى عثمان أعاد معاوية الكرة وطلب من الخليفة غزو بلاد الروم بحراً ، فأذن له ولكنه اشترط الا يحمل الناس على ركوب البحر كرهاً .

فاستعمل على البحر عبد الله بن قيس ، فغزا خمسين غزوة بين شاتية وصائفة . وكذلك عبد الله بن سعد ابن أبي سرح والي مصر من قبل عثمان فقد حارب قسطنطين بن هرقل في بحر الروم ، وانتصر عليه في موقعة ذات الصواري التي اشتبك فيها حسب ما يروي المؤرخون ، ألف سفينة للبيزنطيين ومائتان للمصريين .

من ذلك الحين بدأت الحملات تتوالى على تلك البلاد . ولما ولي معاوية الخلافة عني بإنشاء السفن الحربية لصد غارات الدولة البيزنطية على البلاد الاسلامية ورتب في غزوها الشواتي والصوائف ، ووضع نظاماً يكفل استمرار الحرب بينه وبينهم شتاء وصيفاً . ومما يروى أن أسطول الشام بلغ 1700 سفينة . وكان قد غزا عقبة بن عامر الفهري جزيرة رودس ، مما أقلق الروم فعاودوا غزو العرب في ولاية مسلمة بن مخلد في سنة (47 هـ ـ 62 هـ) وقتلوا عدداً غفيراً من المسلمين . كان من بين القتلى وردان مولى عمرو بن العاص .

بعد ذلك اهتم أمراء مصر ببناء السفن فأنشأوا لأول مرة سنة 54 هـ داراً للصناعة في جزيرة الروضة[4] . ولما تسلم الخلافة عبد الملك بن مروان (65 هـ ـ 76 هـ) بعث إلى حسان بن النعمان عاملة على افريقية باتخاذ دار الصناعة بتونس لإنشاء السفن والآلات البحرية[5] .

وفي عهد أحمد بن طولون 270 هـ تم توسيع دار لصناعة السفن وتحسينها ، وقد جعل لها أحواضاً حول جزيرة الروضة المتقدم ذكرها ، كانت تعرف باسم « صناعة السفن » وفي عهد الأخشيد انتقلت هذه الدار الى الفسطاط سنة (323 ـ 334 هـ) وسميت باسم « صناعة السفن » حيث غدت مصر المصنع الرئيسي لصناعة السفن الحربية والنيلية .

وفي عهد زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب (عهد الأغالبة) فتحت صقلية على يد أسد بن الفرات ، فازداد المسلمون رغبة في غزو البحر وبالغوا في إنشاء الأساطيل في افريقية ، والأندلس حتى بلغ عدد سفن أسطول الأندلس في أيام عبد الرحمن الناصر في أواسط القرن الرابع الهجري 200 سفينة ، وكان أسطول افريقية نحو ذلك ، وتعددت دور الصناعة هناك[6] .

وفي العهد الفاطمي هدد الروم بلاد الشام ، واستولوا على بعضها مثل انطاكية وحلب ؛ فدعت الضرورة الى قيام أسطول قوي لمجابهة العدو . فأنشأ المعز لدين الله داراً

(3) مقدمة ابن خلدون ص 220 -222 . والشواني جمع شونة وهي المركب المعد للجهاد البحري .
(4) الخطط للمقريزي ج 2 ص 190 -191 .
(5) مقدمة ابن خلدون ج 2 ص 628 .
(6) المصدر نفسه ص 629 .

لصناعة السفن بالقرب من القاهرة صنع بها 600 سفينة من أقوى السفن وأحسنها كما وصفها المؤرخ المصري المعروف السبخي (430 هـ) فقال : « إنه لم ير مثلها فيما تقدم كبراً ووثاقة وحسناً »(7) .

وقد مدح الشاعر الأندلسي ابن هانىء المعز لدين الله بقصيدة أشاد بأسطوله فقال :

لـك البـر ، والبحـر العـظيم عبابـه	فسيـان أغـمـار تخـاض ، وبيـد
مـواخـر في طـامي العبـاب كـأنها	لعـزمـك بـأس ، أو لكفـك جـود
من الـراسيـات الشم لـولا انتقـالهـا	فـمـنهـا قـنـان شـمـخ ، وريـود
من القـادحـات النـار تصـرم للطلى	فـليس لهـا يـوم الـلقـاء خمـود
إذا زفـرت غـيـظاً تـرامت بمـارج	كـما شب من نـار الجحيم وقـود(8)

وبقيت مصر البلد الأول في البلاد العربية في صناعة السفن في أيام الظاهر بيبرس الذي اهتم بإعادة شأن الاسطول الى ما كان عليه في أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب . وكذلك كان الاهتمام بالاسطول البحري في عهد قلاوون الذي جهز أسطولاً مكوناً من ستين سفينة ، جهزها بالآلات الحربية وبالرجال(9) .

ولا ننكر أن العرب كانوا في الأصـل مدينـين للبيزنـطيين في الفنـون الحربيـة ، إلا أنهم أصبحوا فيها بعد أساتذة في هذا الفن ، تتلمذوا للبيزنطيين فترة من الزمن وأخذوا عنهم علوماً أفادتهم في إصلاحات عديـدة أدخلوها عـلى الفن الحربي مـا زالت تحتفظ بسماتهـا العربيـة في أوروبا حتى العصور المتأخرة .

وعنـدما تجهـز الأسطول البحـري الاسلامي ، ضيق الخنـاق على الأسـطول البيـزنـطي فاستولى العرب على المراكز البحرية المهمة كجزيرة قبرص وصقلية ورودس وكريت . واستمـر الاسـطول الاسلامي يكبـر ويتطور حتى اشتـرك فيه سنـة 99 هـ حوالي 1800 سفينـة في غـزوة واحدة(10) .

وكانت تلك المراكب البحرية أنواعاً مختلفة ، منها الصغار الخفاف للحركات والمنـاورات السريعة ، ومنها الكبار الضخام تقذف منهـا النفط المشتعل عـلى الأعداء . وفي مقـدمة السفن الكبـرى وضعوا حـديدة حـادة طويلة تسمى (الفـأس) إذا صـدمت مـركب العـدو خـرقتـه وأغرقته .

لقد اجتمع للمسلمين جيش ثابت قوي بري وبحري مجهز بأسلحة قتالية ثقيلة وخفيفـة يديره قواد تحلوا بالايمان والصبر والشجاعة مدافعين عن الدين الحنيف بصدق وإخلاص .

---

(7) الخطط للمقريزي ج 2 ص 195 .

(8) راجع ديوان ابن هاني .

(9) النظم الاسلامية لحسن ابراهيم حسن .

(10) المدخل في تاريخ الحضارة العربية ص 47 .

أنواع السفن ومعداتها

تفاوتت السفن الحربية في شكلها وقوتها ونـوعها وذلـك تبعاً لـلأغراض المختلفـة المعدة لأجلها وهي :

1 ـ الحراقة : تحمل فيها منجنيقات التي يرمى بها النفط المشتعل على الأعداء .
2 ـ الشونة : وهي مراكب كبيرة كانوا يقيمون فيها أبراجاً ، وقلاعاً للدفاع تتسع لمائة وخمسين رجلاً ، ويحركها مائة مجداف .
3 ـ الطرادة : وهي سفينة صغيرة سريعة الجري .

أما المعدات التي كانوا يستعملونها لسفن القتال كثيرة ومتنوعة منها :

1 ـ الكلاليب : عبارة عن خطاطيف حديدية يلقونها على سفن العدو فتقف ثم تشد ، ويدخلون إليها ويقاتلون من بداخلها .
2 ـ التوابيت : وهي صناديق مفتوحة من أعلاها ، توضع في أعلى السواري ويختبىء فيها رجال لديهم أحجار صغيرة موضوعة في مخلاة الى جانب الصندوق يرمون بها العدو ، وهم مستورون بالصناديق ، فتكون حاجز وقاية لهم .
3 ـ قوارير النفط للاشتعال يحرقون بها عدوهم .
4 ـ جرار النورة وهو مسحوق ناعم من مزيج الكلس والزرنيخ يرمون بها في سفن العدو فتعميهم بغبارها ، وقد تلتهب عليهم إذا تبددت .
5 ـ قدور الحيات والعقارب يرمون بها في سفن الأعداء فتحدث اضطراباً يثير الرعب في صفوفهم .
6 ـ قدور الصابون اللزج الذي يعيق تقدمهم ويزلق أقدامهم .
7 ـ اللجام : كانوا يجعلون في مقادم سفنهم أداة تشبه الفأس سموها اللجام . وهي عبارة عن حديدة طويلة محددة الرأس جداً ، تدخل في خشبة بارزة تشبه سنان الرمح ، فيحتالون في طعن المراكب به فإذا أصاب جانب السفينة يخشى عليها الغرق فيطلب عند ذلك أهلها الأمان .

طرق الوقاية :

عملوا كل ما لديهم من طرق وقاية لصيانة سفنهم فكانوا يعلقون حول السفينة من الخارج الجلود واللبود المبللة بالخل أو النطرون أو الماء والشب .

ومن طرق وقايتهم لسفنهم ، الطين المخلوط بالبورق والنطرون . أو الخطمي المعجون بالخل ، لأن هذه المواد تقاوم فعل النفط .

ومن احتياطاتهم أيضاً كانوا إذا جن الليل لا يشعلون في مراكبهم ناراً ولا يتركون فيها ديكاً حتى لا يصيح ، فيعلم العدو مكان وجودهم .

ومن شدة المبالغة في الاختفاء كانوا يسدلون قلوعاً زرقاء على السفن كي لا تظهر من بعد على أعين الأعداء .

هذا ما توصل إليه المسلمون من أجل صيانة سفنهم ووقايتها من الخطر المحدق بها .

قيادة الاسطول البحري

عدة قواد يتعاونون معاً على قيادة الاسطول . القائد والرئيس والنواتية فالقـائد : يـدير كل ما يتعلق بالحرب والسلاح والقتال .

والرئيس : يدير أمر جـري الاسطول بـالريـح أو المجاديف ، وكـذلك أمـر إرسائـه في المـرافىء . والنواتيـة : يعملون على صيـانة الاسـطول من كل عـطل يلم بـه وينفـذون أوامـر الرئيس .

أما إذا اجتمعت عدة أساطيل فإنهم يولون عليها أميراً من أعلى طبقات الدولـة يسمونـه أمير البحر[11] . ومن هذا اللفظ أخذ الافرنج لفظ (Amiral) .

وفي عهد الفاطميين كان على رأس الاسطول المصري عشرة قـواد . عليهم رئيس سموه قائد القواد . كما كان للاسطول ميزانية ضخمة من خراج الاقطاعـات المحبوسـة عليه . وقـد بلغ عدد جنود البحرية في العهد الفاطمي خمسة آلاف ولما ولي صلاح الدين الأيوبي اهتم بأمر الاسطول البحري اهتماماً كبيراً ، وأنشأ له ديواناً خاصاً سماه « ديوان الاسطول » .

وقد اشتهر من أمراء البحر عند العرب عـدد كبير من بينهم : عبـد الله بن سعد بن أبي سرح ، وجنادة بن أمية وعبد الله بن ميس الحارثي ، وأسد بن الفرات فاتـح صقلية . وأحمـد الصقلي قائد أساطيل المغرب في القرن السادس الهجري الذي بلغت الأسـاطيل الاسـلامية في عهده شهرة منقطعة النظير[12] .

وقد كان الفاطميون يحتفلون بالاسطول البحري عند قيامه بالغزو احتفالاً عظيـماً يحضره الخليفة ، فيجلس في منظرة معدة له على ساحـل النيل ، لـوداع الاسطول ، ثم يحضـر رئيس الاسطول والقواد بين يدي الخليفة قبل التوجه للقتال ؛ فيودعهم الخليفة ويدعـو لهم بالنجـاح وكذلك يحصل مثل هذا الاحتفال عند العودة ظافرين .

وهكذا كان يفعل بعض السلاطين من بعده كالسلطان قلاوون[13] .

أثر الأساطيل في الفتوحات الاسلامية

عندما توسعت الفتوحات الاسلامية وبلغت مصر والشام ، أصبح إنشاء أسطول بحري أمراً لازماً لا بد منه من أجل حماية المرافىء والمدن الاسلامية . فنازلوا الأعداء الطماعين الذين كانت لهم السيادة البحرية في تلك المنطقة .

وكما مر معنا من هوس معاوية بشأن غزو البحر ، فكان أول من غزا الروم في البحر في عهد الخليفة عثمان ، فقد أبحر الى قبرص[14] سنة 28 هـ كما أبحـر إليها أهـل مصر ، بقيـادة

---

(11) المقدمة لابن خلدون ج 2 ص 639 .

(12) المصدر نفسه .

(13) راجع الخطط للمقريزي ج 2 ص 194 .

(14) كان لقبرص أهمية كبرى بالنسبة لموقعها في شرقي البحر الأبيض وكـانت الدول تتصـارع للسيطرة عليهـا ، لذلك استهل العرب نشاط أسطولهم بغزوها .

عبـد الله بن سعد بن أبي سـرح فانتصـروا وصالـح أهلها عـلى سبعة الاف دينـار يؤدونها الى المسلمـين في كـل سنـة عـلى أن يكـون طـريق المسلمـين الى العـدو عليهم وعــلى أن يؤذنـوا للمسلمـين بمسير عـدوهم إليهم . وبـذلـك صـارت قبـرص نقـطة اتصـال بـين أهـل الشـام وأساطيلهم التي أخذت تمخر في بحر الروم(15) . وحارب ابن أبي سرح قسطنطين قيصر الـروم وانتصر عليه في موقعة (ذات الصواري) سنة 31 هـ وكانت سفن المسلمين ما يزيد على المئتين سفينـة في حين أن سفن الـروم كانت أكـثر من ستمايـة سفينة(16) ومنـذ ذلك الحـين أصبحت الدولة الاسلامية دولـة بحريـة قويـة وبدأت تشن الحمـلات المتواليـة على البـلاد البيزنـطية . استعمل معاوية عبد الله الحارثي على البحر وغزا خمسين غزوة بين صائفة وشاتية(17) .

عندها كان المسلمون قد ثقفوا ركوب البحر ومارسوا الحياة العملية مـع السفن الحربيـة ففتحوا جزر بحر الروم مثل رودس التي كان بها دار لصناعة السفن الرومية وسردينيـا ومالـطة وصقلية واقريطش وغيرها وسارت سفنهم في بحر الروم ذهاباً وإياباً وعليها الجنود تجـوز البحر من صقلية الى شواطىء إيطاليا ، تثخن في ممـالك الافـرنج ، وخصـوصاً في أيـام بني الحسن ملوك صقلية القائمين فيها بدعوة الفاطميين ، فانحاز الافرنج بأساطيلهم إلى الجـانب الشمالي الشرقي من هذا البحر .

وفي القرن الرابع أصبح للمسلمين السيطرة التامة عـلى البحر الأبيض المتـوسط وبيدهم وحدهم مفتاح الدخول والخروج في عرض البحر الذي أصبح : « بحراً عربياً». وكـان لا بد لمن يريد أن يقضي لنفسه فيه أمراً من أن يخطب ود العرب ،كما فعلت: نابلي وغيته، وأمالفي، ويـظهر أن المـلاحة الأوروبيـة نفسها كـانت في ذلك العصـر عـلى حـال يـرثى لهـا من الضعـف ؛ ففي سنـة 935 م استطاعت مـراكب عبيد الله المهـدي الفـاطمي أن تغـزو جنـوب فرنسا ومدينة جنوة »(18) .

ولا ننسى مدينة صور في لبنان فقد كانت الميناء الحربي الاسـلامي المواجـه لبوزنـطة إذ كـان « بهـا دار الصنـاعـة ، ومنهـا تخـرج مـراكب السلطان لغـزو الـروم ، وكـانت حصينـة جليلة »(19) .

وظل الأمر كذلك أكثر من ألف وثلاثمـائة سنـة استطاع العـرب خلالهـا أن يبنوا مجداً بحـرياً تحـدثت به انتصـاراتهم الباهـرة ، إلى أن ضعفت الـدولـة الفـاطميـة بمصـر والأمـويـة بـالأندلس ، ولما أحس الافرنـج أفـاقـوا من كبـوتهم واستـرجعـوا بـلادهم ، ثم غـزوا بـلاد المسلمين ، وكان ما كان من نتائج الحروب الصليبية المعـروفة في كتب التـاريخ . وهـذه حال الدنيا يوم لك ويوم عليك .

---

(15) فتوح البلدان للبلاذري ص 159 .

(16) خطط المقريزي ج 2 ص 190 .

(17) خطط المقريزي ج 2 ص 190 .

(18) الحضارة الاسلامية لآدم متز ج 2 ص 425 .

(19) المصدر نفسه .

الفصل الخامس
منهج الاسلام في الحروب

كان الرسول ﷺ رسول سلام يؤثر اعتناق القوم للاسلام على السبي والقتل ، ويوصي بدعوتهم الى الله ، وتـألف نفوسهم ، قبـل إعلان الحـرب عليهم . قال ﷺ : « ألا أخبـركم بأحبكم إليّ وأقربكم مني مجالس يوم القيامة ؟ أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافـاً الذين يـألفون ويُؤلفون »[1] إن من يطالع سيرة الرسول الأعظم يتضح له أنه لم يقـاتل قـوماً قبـل أن يقنعهم بالحجة والبرهان . فهذه قريش التي قال عنها ﷺ في ذكـر الخوارج : « يمـرقون من الـدين كما يمـرق السهم من الرميـة » رغم اضطهـادها لـه ولاصحابـه الكرام صفـح عنها مصغيـاً لقولـه تعالى : ﴿ وإن الساعة لآتية ، فاصفح الصفح الجميل ﴾[2] .

فالدعـوة الاسلاميـة قامت بـالحكمة والمـوعظة والبـرهان والحجـة قبل شن الحـرب قال سبحانه وتعالى في كتابه العزيـز : ﴿ ادعُ الى سبيل ربـك بالحكمـة والموعـظة الحسنة وجـادلهم بالتي هي أحسن ﴾[3] .

إن سبيل الاسلام في دعوته تحمل روح السمو في علاقته بغير معتنقيه ، وتوضح العلاقة بينه وبينهم آيات كريمات نذكر بعضها :

يقول تعالى في كتـابه العـزيز : ﴿ وإن جنحـوا للسلم فاجنـح لها وتـوكل عـلى الله ﴾[4] ويقول سبحانه في سورة البقرة : ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقـاتلوكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين ﴾[5] .

ويقول عز وجل :

﴿ لا ينهـاكم الله عن الذين لم يقـاتلوكم في الدين ولم يخـرجـوكم من ديـاركم أتبـروهم وتقســطوا إليهم إن الله يحب المقسـطين . إنمـا ينهـاكم الله عن الــذين قــاتلوكم في الــدين

---

(1) المجـازات النبويـة ص 187 والموطئـون : الذين يـطأ الناس أي يـدوسون جـانبهم وناحيتهم فـلا يؤذون ولا يزعجون .

(2) الحجر الآية 85 .

(3) النحل الآية 125 .

(4) الأنفال الآية 61 .

(5) البقرة الآية 190 .

وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم ان تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾(6) .

فآية الممتحنة هذه بمثابة دستور اسلامي في معاملة المسلمين لغيرهم . وجاء في سورة المائدة قوله تعالى :

﴿ اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا أتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾(6أ) .

إذا قرأنا هذه الآيات وتأملنا في مضامينها علمنا روح السمو التي يحملها الاسلام في علاقاته بغير معتنقيه ، وانه بر ، وعدل ، وتعاون ، وصلاح . ومن المعلوم أن النبي ﷺ عندما دخل المدينة وجد فيها طوائف من أهل الكتاب ، وكان قد جمع جيشاً كبيراً يأتمر بأمره ، لم يكره أحداً منهم على اعتناق الاسلام ، بل كتب بينه وبينهم عهداً وميثاقاً ، جاعلاً شعاره في ذلك قول الله عز وجل : « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾(7) وهذه الآية محكمة لم ينسخها شيء(8) .

فالقتال كان حماية للدعوة الاسلامية ولتبقى كلمة الله هي العليا ، ودفعاً للعدوان عن عباد الله المؤمنين المسلمين ، أهل الله في أرضه : ﴿ولله ملك السموات والأرض ﴾(9) قال تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم . . . ﴾(10) .

والآن يحسن بنا ان نفهم كيف استعمل الاسلام هذه القوة ؟ لما كانت هذه القوة من أجل رفع كلمة الله فلا يجوز أن تستعمل إلا حيث يأذن الله ، أي في سبيل الله . وقد وضع لنا سبحانه في كتابه العزيز ، الحدود التي يجب أن نتصرف من خلالها . هذه الحدود هي :

1 ـ القضاء على الحروب الداخلية بين المسلمين . فإذا ما حدث خلاف بين قطرين إسلاميين ، أو قبيلتين ، أو فئتين من المسلمين فعلى القوى الاسلامية التدخل للصلح بينهما ، فمن رضخ للأمر الشرعي ولحكم الله كان خيراً ، وإلا يجب قتاله حتى يرضخ للحق . قال تعالى :

﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى

---

(6) الممتحنة الآية 8 .

(6 أ) المائدة آية 5 .

(7) البقرة الآية 256 .

(8) راجع النظم الاسلامية للدكتور صبحي الصالح ص 517 .

(9) آل عمران الآية 189 .

(10) الأنفال الآية 60 .

فقـاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فـإن فاءت فـأصلحوا بينهـما بالعـدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ﴾(11) .

2 ـ حرب المنحرفين عن الاسلام

قال الفقهاء في بلد تركت سنة من سنن الشريعة الاسلامية ، كالآذان مثلاً ، يجب قتالها حتى تعـود . أو امتنعت عن دفع الـزكاة ، أو تعـطيل حـدود الله وأحكامـه ، فقد وجب عـلى المسلمـين أيضاً قتـالها حتى تـرجع لأمـر الله خاضعـة لأحكامـه تاركـة الحرام مقيمـة الفرائض الواجبة والسنن المفروضة .

3 ـ حرب المرتدين

إذا ما ارتد أناس عن الاسلام وشكلوا قوة تمرد أرادت أن تقوم بانقـلاب على الحكم أو أعلنت عدم اعترافهـا بنظام الحكم وخـرجت على طـاعة الامـام الحق بغير حق ، وجب عـلى المسلمين إرجاعها الى حظيرة الاسلام ولو أدى ذلك الى قتلهم .

4 ـ حرب العصابات المخربة وقطاع الطرق

أوجب الاسـلام حرب هؤلاء الـذين يهددون الامن في البـلاد ، وقد قـال فيهم الله عزّ وجـلّ : ﴿ إنما جـزاء الذين يحـاربـون الله ورسـولـه ويسعـون في الأرض فسـاداً أن يقتلوا أو يصلّـبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ﴾(12) .

5 ـ حرب المعاهدين إذا نقضوا عهدهم

إذا سيطر المسلمون على بلد ما وتعاهدوا مع أهلها أن يكونوا ذمة للمسلمين ، ثم نكث هؤلاء العهـد ، فإن عـلى المسلمين تـأديبهم حتى يعطوا الجـزية عن يـد وهي صاغـرة . قـال تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحـرمون مـا حرم الله ورسـوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾(13) .

6 ـ الحرب الدفاعية

عند الاعتداء عـلى أي جزء من أرض الاسـلام فقد وجب عـلى المسلمين الحـرب لصد الهجـوم وإجلاء العـدو . ويطلب من البـلاد المجاورة للعـدو المهـاجم المبـادرة في القتـال أول الأمـر ، فإذا عجـزت عن قهره وإجـلائه فعـلى المسلمين كـافـة فـريضـة الـدفـاع عن الأرض الاسـلامية ، كفلسـطين مثلا التي احتلهـا اليهود اغتصـابـاً وشـردوا أهلهـا في شتى البلدان ، يفرض الاسلام فرض عين على كل مسلم في البلاد المجاورة أولاً أن يدخلوا المعركة في الحرب لطرد الصهاينة الغزاة المعتـدين ، وعندمـا يعجز سكـان البلاد المجـارة وجب فرض عـين على البلدان الاسلامية البعيـدة المشاركـة في حرب الجهـاد المقدس ، الـواجب على كـل مسلم على

---

(11) الحجرات الاية 9 .

(12) المائدة الاية 33.

(13) التوبة الاية 29.

الأرض الاسلامية . جاء في الكتاب الكريم : ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ﴾[14] .

7 ـ الحرب الجهادية

أوجب الاسلام في شريعته الحرب الجهادية ضد أعداء الله وأعداء الانسانية في كل مكان ، وتبقى كلمة الله هي العليا ، والله مع المجاهدين وهو العزيز الحكيم . قال تعالى في شأن هذه الحرب :

﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخِر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾[15] .

وقال سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة ﴾[3] .

وقال عز وجل : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ﴾[17] . بهذه الآيات وغيرها فرض الله على المسلمين أن يكونوا في حالة حرب دائمة مع دار الحرب ما داموا يستطيعون حتى يخضعوا جميع أعدائهم بلداً بلداً لسلطان الله فلا تبقى أية فتنة يفتن بها المسلم عن دينه .

هذه القوة نحتاجها من أجل فرض هيبة الحكم الاسلامي ليسهل تنفيذ الشريعة الاسلامية وتحترم حدود البلاد الاسلامية دون خوف ولا مراعاة والآن ما هو الوطن الاسلامي ، وما هي دار الاسلام ودار الحرب ؟

الوطن الاسلامي

قبل خضوع العالم لسلطان الله ينقسم العالم إلى دارين : **دار إسلام** ، **ودار حرب** .

أ ـ دار الاسلام هي التي يكون فيها السلطان للاسلام والمسلمين وتطبق فيها النظم الاسلامية جميعها ، وهي وطن المسلم من أي جنس كان ، إذ لا يرتبط المسلم بطين الأرض والوطن ، بل بالعقيدة التي آمن بها . فالعقيدة فوق الأرض ، ولا حياة بلا عقيدة . وقد عاب الله على من كانت أرضه فوق العقيدة فقال سبحانه : ﴿ ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً ﴾[18] .

وإذا كان وطن الاسلام دار المسلم فهل تجب عليه الهجرة إليها ؟

يقول الفقهاء : إذا عجز المسلم عن إظهار دينه بمكان يغلب فيه حكم الكفر والبدع

(14) البقرة الآية 190 .

(15) التوبة الآية 29 .

(16) التوبة الآية 123 .

(17) البقرة الآية 193 .

(18) النساء الآية 66 .

المضللة ، بحيث يمنع من القيام بواجباته الدينية ، ففي هذه الحالة يفترض عليه أن يهاجر إلى دار الاسلام . قال تعالى : ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا ، إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عَفُوّا غفورا ﴾[19] .

قال الماوردي في أحكامه : « إذا قدر المسلم على إظهار الدين في بلد من بلاد الكفر فقد صارت البلد به دار إسلام فالاقامة فيها أفضل من الرحلة منها لما يترجى من دخول غيره في الاسلام »[20] .

أما الذين يقيمون في دار الاسلام وطلبوا من إخوانهم المؤمنين نصرتهم في الدين ، فواجب هؤلاء نصرتهم ، إلا على أناس بينهم وبين المسلمين عهود . جاء في سورة الأنفال :

﴿ وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير ﴾[21] . كما يمكن أن يكون دار الاسلام على أقسام :

1 ـ دار العدل : وهي الدار التي تقيم الاسلام وتحمي السنة وعلى رأسها الخليفة الشرعي للمسلمين .

2 ـ دار البغي : وهي التي سيطر عليها الخارجون على الامام الحق ولو حكموا بالاسلام .

3 ـ دار البدعة : هي التي سيطر عليها المبتدعون وأظهروا فيها بدعتهم .

4 ـ دار الردة : وهي التي ارتد أهلها أو سيطر المرتدون عليها أو كان أهلها كافرين خضعوا لحكم المسلمين ثم نقضوا العهد وسيطروا عليها .

5 ـ الدار المسلوبة : وهي الدار التي استولى عليها كافرون من خارج أرض الاسلام وكانت في الأصل دار إسلام .

هذه الأقسام الخمسة كلها داخلة في دار الاسلام . على كل حال ان الدار التي يعطيها المسلم ولاءه ويعتبرها وطنه هي دار العدل من بين هذه الدور[22] . وخلاصة لما تقدم : إن وطن المسلمين هو دار السلام شرط أن تكون دار عدل . ولا تكون دار عدل إلا بخلافة شرعية تقيم أحكام الاسلام بموجب كتاب الله وسنة رسول الله . وإذا لم تكن دار الاسلام كلها كذلك فالمنطقة التي تتوفر فيها هذه الشروط هي التي تكون دار عدل ، وهي التي يتمثل فيها وطن المسلم الذي يرتبط فيه عاطفياً وولاء وتجب الهجرة إليه .

ومتى وجدت دار العدل فقد وجب على حكام المسلمين جميعاً أن يخضعوا لها وإذا رفضوا الخضوع إليها يكونون بغاة ظالمين ، يجوز حربهم وقتلهم ومثلهم مثل غير المسلمين

---

(19) النساء الآية 97 -98- 99 .

(20) راجع الاسلام لسعيد حوى ص 401 .

(21) الأنفال الآية 72 .

(22) قارن بالأحكام السلطانية للماوردي ص 7 .

المعتـدين ، إذ أن وحدة الأرض الاسـلامية كـوحدة الأمـة الاسلاميـة ، ولا يجوز أن يقف أي حاجز أو مانع ، ومن خالف أو حال دون ذلك فقد أهدر دمه شرعاً ولو كان اسمه مسلماً .

وقد قاتل علي (ع) معاوية من أجل هذا المعنى ، ومن بعده (ع) قاتل ابنه الحسين ، أبو الشهداء وبطل الاسلام ، يزيد الظالم البـاغي ، والخارج عـلى الشريعـة الاسلاميـة ، للهدف عينه .

أمـا إذا لاحظ إمام المسلمـين أن قوة دار العـدل ضعيفة وغـير كافيـة عليه أن يلجـأ الى العمل السياسي . وقد أجاز فقهاء المسلمين في حالات ضعفنا أن نرضي عدونا بأمـوالنا ريثما نعد قوتنا .

ولعل أهم واجب تقوم بـه دار العدل هـو تطهـير ذاتها من أعـدائها المـرتدين والمنـافقين وأصحـاب البدع ، فيجـوز شرعـاً قتل هؤلاء الـزنادقـة والمجاهـرين بالمعصيـة ، الذين ثبتت إدانتهم وأذاهم للمسلمين عامة[23] . وبدون هـذا الإستئصال للمـرتدين وأمثـالهم لا يمكن أن تقوم قائمة الاسلام ، وقـد يستطيـع أعداء الله أن يؤلبـوا المسلمين عـلى أولياء الله ، جـاء في القرآن الكريم بهذا الشأن :

﴿ وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين ﴾[24] .

وقال سبحانه وتعالى :

﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ، ملعونين أينـما ثقفوا أخـذوا وقتلوا تقتيلا ، سنـة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾[25] .

إن مثل هؤلاء هم أخطر ما يكون عـلى دار الاسلام . فيجب البـطش بهم واستئصالهم تماماً ، وتخليص المؤمنين من أذاهم ومؤامراتهم .

دار الحرب

وأما دار الحرب فهي الدار الغير اسـلامية التي لا تسـود فيها شـريعة الاسـلام ولا تنفذ فيها أحكامه ، كيفما كانت نظمها القانونية والسياسية . ويطلق على رعاياها « حربيين » إلا أن يعقدوا ميثاقاً أو عهداً مع المسلمين ، فيدعون « معاهدين » .

والاسلام كما هو معروف عنـه لا يبغي الحرب ولا يقـر الخصومـة مع الغـير ، فإن هـذا خارج عن هدفه الانساني العظيم ، إنما يريد تحقق الأمن والسـلام ، وإبعاد الشـر والأذى عن المسلمين الآمنين .

من هنـا كان **عقـد الأمان للمستـأمنين** الـذي أقره جمهـور الفقهـاء فقـالـوا : متى بـذل

---

(23) أجاز كثير من الفقهاء قتل المسلم العاصي الذي ثبتت إدانته إدا ترتب على هذا القتل مصلحة عامة أو دفع شر عام . راجع باب التغرير من كتب الفقه .

(24) التوبة الآية 47 .

(25) الأحزاب الآية 60 -61 -62 .

المسلمون عقد أمـان للمستأمنـين لم يكن لهم نبذة إلا لتهمـة أو مخالفـة فإن وجـدت التهمة أو المخالفة كان نبذ العهد للامام(26) .

وتعريف المستأمن كما ورد في درر الحكام :«هو الذي يدخل دار غيره طالباً الأمان مسلماً كان أو حربياً ، وان غلب إطلاقه على من دخـل دار الاسلام بعقـد أمان »(27) وهـذا التعريف يستند الى قول الله عزّ وجل . قال سبحانه : ﴿ وإن أحد من المشركين استجـارك فأجـره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ﴾(28) .

والمعروف أن احترام العهود والمواثيق أصل عام مشروع في الاسلام حتى مع المشركين ، وقد دعا القرآن الكريم الى الوفاء بها وأكد على ذلك بآيات عديدة. قال سبحانـه : ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤ ولا ﴾(29) . وقـال عز وجـل : ﴿ وأوفوا بعهـد الله إذا عاهـدتم ولا تنقضوا الايمان بعـد توكيـدها ﴾(30) . والمعـاهدون هؤلاء يلتـزم معهم المسلمون إذا استقـاموا والتزموا في معـاهداتهم وإلا عـاملوهم كالمشـركين المعتـدين . قال سبحـانه وتعـالى : ﴿ كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقـاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين ﴾(31) .

إن الحـلال في دار الاسـلام حـلال في دار الحـرب وفي بـلاد الكفـر ، والحـــرام في دار الاسلام حرام في بلاد الكفر ، فمن أصاب حراماً فقد حده الله على ما شاء منه .

وهنا ينبغي أن نلاحظ ملاحظة هامة . وهي أن الحاكم الاسلامي عليه أن يحتاط حيطة كاملة لتكون القوة العملية تحت سلطانه دائماً ، بحيث لا تستطيع ولايـة الاستقلال أو أيـة فئة خارجة عن طاعة الشريعة الاسلامية شق عصا الطاعة واحداث فتنة أو أذى للمسلمين .

لذلك وجب على المسلمين عـامة وعـلى مسلمي كل قـطر خاصـة أن يجعلوا قطرهم دار عدل ، وأن على هـذه الأقطار أن تتحـد لتشكل وطنـاً إسلاميـاً واحداً يقسم إداريـاً ، ويكون لكل ولاية دستورها الاسلامي ونظامها الداخلي . على أن تكون تفصيلات ذلـك كله مستمدة من الكتاب والسنة .

وعلينا أن نتذكر أن العمل لهذا فريضة .

أ ـ أن يكون في كل قطر اسلامي حكومة اسلامية فريضة .

ب ـ أن تتحد هذه الأقطار لتشكل دار العدل فريضة .

ج ـ أن تسعى دار العدل لإنهاء الأوضاع الشاذة من دار الاسلام فريضة.

د ـ أن تسعى دار الاسلام لتعميم الاسلام في العالم فريضة(32) .

---

(26) راجع المغني لابن قدامة الحنبلي ج 8 ص 401 .

(27) درر الحكام في شرح غرر الأحكام ج 1 ص 292 .

(28)التوبة الآية 6 .

(29) الأسراء الاية 34 .

(30) النحل الآية 91 .

(31) التوبة الآية 7 .

(32) راجع الاسلام لسعيد حوى ص 408- 409 .

جريدة المراجع
على حروف المعجم

ـ أ ـ

1 ـ أبو حنيفة للشيخ محمد أبي زهرة القاهرة 1366 هـ .
2 ـ إبطال القياس لابن حزم مطبعة جامعة دمشق .
3 ـ الاتقان في علوم القرآن للسيوطي مطبعة حجازي بالقاهرة .
4 ـ الآثار الباقية عن القرون الخالية للبيروني نشر ادوار سخا وليبسيك 1876 م .
5 ـ الأحكام للآمدي مطبعة المعارف 1332 هـ .
6 ـ الأحكام السلطانية لأبي يعلي طبعة البابي الحلبي 1356 هـ .
7 ـ الأحكام السلطانية للماوردي طبعة البابي الحلبي 1357 هـ .
8 ـ أحكام أهل الذمة لابن قيم الجوزية مطبعة جامعة دمشق 1381 هـ .
9 ـ أحكام الأحوال الشخصية للدكتور محمد يوسف موسى .
10 ـ إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي القاهرة 1346 هـ .
11 ـ الله يتجلى في عصر العلم لمجموعة من العلماء الطبيعيين .
12 ـ الأخلاق الاسلامية للسيد علي فضل الله دار مكتبة الحياة .
13 ـ الاختيار شرح المختار لعبد الله محمود بن مودود الحنفي البابي الحلبي القاهرة 1355 هـ .
14 ـ أدب السياسة لأحمد محمد الحوفي .
15 ـ الأدب الصغير لابن المقفع مكتبة البيان 1964 م .
16 ـ الارشاد لياقوت الحموي .
17 ـ ارشاد الفحول من علم الأصول للشوكاني مطبعة البابي الحلبي مصر .
18 ـ الاسلام لسعيد حوى دار المكتبة العلمية بيروت 1399 هـ .
19 ـ الاسلام والحضارة العربية لمحمد كردعلي .
20 ـ الاسلام والطب الحديث للدكتور عبد العزيز اسماعيل .
21 ـ الاسلام والمرأة للاستاذ محمد سعيد الأفغاني دار الفكر بدمشق 1384 هـ .
22 ـ الأسرة والمجتمع للدكتور علي عبد الواحد وافي مكتبة النهضة بمصر 1386 هـ .
23 ـ أسس الصحة النفسية للدكتور عبد العزيز القوصي مكتبة النهضة المصرية 1382 هـ.
24 ـ الأسس الاجتماعية للتربية (اليونسكو) .
25 ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير القاهرة 1286 هـ .

26 ـ الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني القاهرة 1358 هـ.
27 ـ الأصول العامة للفقه المقارن لمحمد تقي الحكيم دار الأندلس ـ بيروت 1963 م .
28 ـ أصول الكافي للكليني دار الكتب الايرانية 1385 هـ.
29 ـ أعلام في العصر العباسي للدكتور حسين الحاج حسن المؤسسة الجامعية ـ بيروت 1985 م .
30 ـ أعلام النساء لعمر رضا كحالة .
31 ـ أعلام الموقعين عن رب العالمين لابن قيم الجوزية مطبعة النيل 1325 هـ.
32 ـ الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني بولاق 1285 هـ.
33 ـ الأمراض النفسية والعقلية لابن عربي .
34 ـ الامام الصادق والمذاهب الأربعة للشيخ أسد حيدر .
35 ـ الأمالي للسيد المرتضى .
36 ـ الامامة والخلافة للسيد رشيد رضا القاهرة .
37 ـ الامامة والسياسة لابن قتيبة 1325 هـ.
38 ـ الأموال لابي عبيد القاسم بن سلام القاهرة 1353 هـ.
39 ـ انساب الاشراف للبلاذري .

ـ ب ـ

40 ـ البرهان في علوم القرآن للزركشي دار إحياء الكتب العربية القاهرة 1376 هـ.
41 ـ البداية والنهاية لابن كثير مطبعة السعادة بالقاهرة 1351 هـ.
42 ـ البحار لملا باقر المجلسي طبع إيران طهران 1315 هـ.
43 ـ بلاغات النساء لابن طيفور .
44 ـ بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب للألوسي .
45 ـ البلدان لليعقوبي .
46 ـ البيان للامام الخوئي طبعة النجف الاشرف .
47 ـ البيان والتبيين لأبي عثمان الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون 1948 م .

ـ ت ـ

48 ـ تاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم حسن ـ النهضة المصرية 1964 م .
49 ـ تاريخ الاسلام للشيخ عبد الوهاب النجار مطبعة الفتوح 1347 هـ
50 ـ تاريخ الامامية للدكتور فياض .
51 ـ تاريخ ابن خلدون مؤسسة الأعلمي بيروت .
52 ـ تاريخ الامم والملوك للطبري مؤسسة الأعلمي بيروت 1983 م .
53 ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي طبعة الخانجي بمصر 1349 هـ.
54 ـ تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان دار مكتبة الحياة بيروت .
55 ـ تاريخ التربية لعبد الله المشنوق .

56 ـ تاريخ التشريع الاسلامي للخضري القاهرة 1960 م .
57 ـ تاريخ التشريع الاسلامي محمد السبكي ومحمد البربري ومحمد السايس ـ القاهرة 1365 هـ.
58 ـ تاريخ الحضارة العربية .
59 ـ تاريخ الحضارة الاسلامية لأبي زيد شلبي مكتبة وهبة 1383 هـ.
60 ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي طبعة مصر 1305 هـ.
61 ـ تاريخ اليعقوبي دار بيروت 1400 هـ.
62 ـ التاريخ الكامل لابن الأثير دار صادر بيروت 1399 هـ.
63 ـ التاج في أخلاق الملوك للجاحظ .
64 ـ تراث الاسلام لارنولد مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1936 م .
65 ـ تدريب الراوي للسيوطي مصر 1307 هـ.
66 ـ الترغيب والترهيب للحافظ المنذري مطبعة السعادة 1379 هـ.
67 ـ التربية الجنسية لسيرل بين .
68 ـ تاريخ الفقه الاسلامي للدكتور محمد يوسف دار الكتاب العربي بمصر 1378 هـ.
69 ـ التشريع الجنائي في الاسلام لعبد القادر عودة .
70 ـ التبيان في تفسير القرآن للشيخ الطوسي النجف .
71 ـ تحف العقول للحراني .
72 ـ تذكرة السامع لابن جماعة .
73 ـ تذكرة الحفاظ لشمس الدين الذهبي 1375 هـ.
74 ـ التكيف النفسي لمصطفى فهمي .
75 ـ التخطيط للتربية والتعليم لمحمد علي حافظ .
76 ـ التكامل في الاسلام لأحمد أمين الايراني .
77 ـ تمهيد لتاريخ الفلسفة لمصطفى عبد الرزاق مصر.
78 ـ تهذيب ابن القيم لسنن أبي داود القاهرة .

- ج -

79 ـ جامع الأصول من أحاديث الرسول . لمنصور علي ناصف ـ السنة المحمدية 1368 هـ.
80 ـ جامع بيان العلم وفضله للحافظ ابن عبد البر القاهرة المطبعة المنيرية .
81 ـ جامع السعادات لمحمد مهدي التراقي .

- ح -

83 ـ الحضارة الاسلامية لآدم متز نقله محمد عبد الهادي أبو ريدة .
84 ـ الحضارة الاسلامية لجوستاف جرون باوم .
85 ـ حضارة الاسلام في دار السلام لجميل نخلة مدور .

86 ـ الحضارة العربية للدكتور مصطفى الرافعي .
87 ـ حضارة العرب في عصر الجاهلية للدكتور حسين الحاج حسن المؤسسة الجامعية ـ بيروت 1984 م .
88 ـ حقوق النساء في الاسلام للسيد محمد رشيد رضا .
89 ـ حياة الامام الحسن لباقر شريف القرشي .
90 ـ حياة محمد لمحمد حسين هيكل مطبعة مصر القاهرة 1354 هـ .

- خ -

91 ـ الخطط للمقريزي بولاق 1270 هـ .
92 ـ الخراج لأبي يوسف المكتبة السلفية القاهرة 1952 م .
93 ـ الخراج والنظم المالية (للدكتور محمد ضياء الدين الريس) مكتبة الانجلو المصرية القاهرة 1961 م .
94 ـ خطط الشام لمحمد كردعلي .
95 ـ الخصائص لابن جني دار الهدى بيروت حققه محمد علي النجار .

- د -

96 ـ دائرة المعارف للبستاني .
97 ـ الدر المنثور للسيوطي طبعة الحلبي بمصر 1314 هـ .
98 ـ درر الحكام في شرح غرر الأحكام لمنلا خسرو المطبعة الشرقية 1304 هـ .
99 ـ دعائم الاسلام للنعمان بن محمد القاهرة 1951 م .
100 ـ الدعوة الى الاسلام لارنولد القاهرة 1957 م .
101 ـ ديوان ابن هاني .
102 ـ ديوان أحمد شوقي (الشوقيات) .
103 ـ ديوان أبي نواس نشر الغزالي مصر .
104 ـ ديوان ابن المعتز رواية الصولي .
105 ـ ديوان الحماسة لأبي تمام دار المعارف القاهرة .

- ر -

106 ـ رسائل أخوان الصفا .
107 ـ روح الصلاة في الاسلام للاستاذ عفيف طبارة منشورات جماعة عباد الرحمن .
108 ـ روح الدين الاسلامي للاستاذ عفيف طبارة .
109 ـ روح التربية والتعليم لمحمد عطية الابرشي .
110 ـ روضات الجنات للخونساري طبع ايران .
111 ـ رياض الصالحين للامام النووي مطبعة الاستقامة القاهرة .

- ز -

112 ـ زاد الميعاد لابن قيم الجوزية القاهرة 1324 هـ .
113 ـ الزواج المؤقت ودوره في حل مشكلات الجنس لمحمد تقي الحكيم دار الأندلس بيروت .

- س -

114 ـ السيرة لابن هشام ط. الحلبي 1348 هـ.
115 ـ سيرة المصطفى للسيد هاشم معروف الحسني دار القلم بيروت 1981 م.
116 ـ سيرة الأئمة الاثني عشر للسيد هاشم معروف الحسني ـ دار القلم بيروت 1981 م.
117 ـ سلم الوصول الى علم الأصول لعمر عبد الله .
118 ـ السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي للدكتور مصطفى الرفاعي دار العروبة ـ بالقاهرة 1380 هـ.
119 ـ سنن ابن ماجة القاهرة 1313 هـ.
120 ـ سنن الترمذي ط. الحلبي 1356 هـ.
121 ـ سنن الدارمي دمشق 1349 هـ. .

- ش -

122 ـ شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي دار الكتب المصرية .
123 ـ الشعر الغنائي للدكتور شوقي ضيف القاهرة .
124 ـ شرح النهج لابن أبي الحديد طبعة القاهرة .
125 ـ الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة للسيد هاشم معروف الحسني دار النشر للجامعيين 1964 م.

- ص -

126 ـ صبح الأعشى في صناعة الانشا (للقلقشندي) القاهرة 1917 م.
127 ـ صحيح البخاري المطبعة الخيرية بمصر 1320 هـ.
128 ـ صحيح مسلم دار الطباعة العامرة 1332 هـ.

- ض -

129 ـ ضحى الاسلام لأحمد أمين ـ النهضة المصرية 1966 م.
130 ـ الضمان الاجتماعي في الاسلام للشيخ سليمان اليحفوفي ـ الدار العالمية 1982 م.
131 ـ ضمان الجنس في الاسلام للشيخ سليمان اليحفوفي ـ الدار العالمية 1984 م.

- ط -

132 ـ الطبقات لابن سعد دار صادر ودار بيروت 1376 هـ.
133 ـ الطبقات لابن أبي يعلى طبع مصر .
134 ـ طبقات الحنابلة للقاضي محمد بن أبي يعلى مطبعة الاعتدال بدمشق 1350 هـ.
135 ـ طبقات الشافعية لابن السبكي ط. الحسينية القاهرة 1324 هـ.
136 ـ طب النبي لمحمد تقي فلسفي .
137 ـ طب الامام الرضا للامام الرضا .
138 ـ الطرق الحكيمة في السياسة الشرعية القاهرة 1953 م.
139 ـ الطفل بين الوراثة والتربية لمحمد تقي فلسفي .

- ع -

140 ـ عبقرية علي لعباس محمود العقاد .
141 ـ عثمان بن عفان لعباس محمود العقاد .
142 ـ عدة الأصول للشيخ الطوسي طبعة ايران .
143 ـ العروة الوثقى للسيد كاظم اليزدي طبعة صيدا .
144 ـ عقائد الشيعة لمظفر محمد رضا .
145 ـ العقد الفريد لابن عبد ربه مطبعة الاستقامة القاهرة 1940 م.
146 ـ العقيدة والشريعة في الاسلام لاجناس جولدزيهر القاهرة 1946 م. ترجمة : د. محمد يوسف موسى وعبد العزيز عبد الحق وعلي حسن عبد القادر مطابع الكتاب العربي .
147 ـ عمر بن الخطاب لابن الجوزي القاهرة .
148 ـ عيون الأخبار لابن قتيبة تحقيق بروكلمن طبعة برلين 1900 م.
149 ـ علم النفس التربوي لزكي صالح .
150 ـ عوامل وأهداف نشأة علم الكلام للسيد كاظم اليزدي طبعة صيدا .

- ف -

151 ـ فتوح البلدان للبلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر) شركة طبع الكتب العربية مصر 1319 هـ.
152 ـ فجر الاسلام لأحمد أمين القاهرة 1969 م.
153 ـ الفخري في الآداب السلطانية لابن الطقطقي شركة طبع الكتب العربية بمصر 1317 هـ.
154 ـ فرق الشيعة للنوبختي صححه محمد صادق النجف 1355 هـ.
155 ـ الفلسفة القرآنية للعقاد .
156 ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم الظاهري القاهرة 1928 م.

157 ـ فلسفة التشريع في الاسلام للدكتور صبحي المحمصاني طبعة ثالثة .
158 ـ فنون الاسلام للدكتور زكي محمد حسن .
159 ـ الفهرست لابن النديم ـ فوجل ـ ليبسيك 1871 -1872

ـ ق ـ

160 ـ القرآن الكريم .
161 ـ القاموس المحيط للفيروز ابادي بولاق 1301 هـ.
162 ـ القرآن والطب الحديث لمحمد الخليلي .
163 ـ قواعد التحديث للقاسمي مطبعة ابن زيدون بدمشق 1353 هـ.

ـ ك ـ

164 ـ الكامل لمحمد بن يزيد المبرد بشرح المرصفي طبع مصر 1929 م .
165 ـ كشف الظنون لحاجي خليفة مصر 1274 هـ.
166 ـ كشف القناع عن وجوه حجية الاقناع للشيخ أسد الله التستري طبعة ايران .

ـ ل ـ

167 ـ لسان العرب لابن منظور بولاق 1300 هـ.
168 ـ لسان الميزان لابن حجر ط. حيدر آباد 1331 هـ.
169 ـ اللمعة للشهيد الأول والثاني طبع النجف 1967 م .

ـ م ـ

170 ـ مباحث في علوم القرآن للدكتور صبح الصالح دار العلم للملايين بيروت 1979 م .
171 ـ المتعة في الاسلام للسيد حسين يوسف مكي دار الأندلس بيروت .
172 ـ المتعة للفكيكي .
173 ـ محاضرات الأدباء لأبي القاسم الأصفهاني .
174 ـ المدخل الى علم أصول الفقه لمعروف الدواليبي مطبعة الجامعة السورية .
175 ـ المدخل في تاريخ الحضارة العربية للاستاذ ناجي معروف بغداد 1960 م .
176 ـ المدخل للفقه الاسلامي لمحمد سلام مدكور مطبعة الرسالة مصر .
177 ـ المرأة بين الفقه والقانون للدكتور مصطفى السباعي .
178 ـ المرأة في ظل الاسلام لمريم نور الدين دار الزهراء بيروت 1983 م .
179 ـ المراجعات للسيد شرف الدين مطبعة العرفان .
180 ـ المذاهب الاسلامية لأبي زهرة باشراف الثقافة العامة بمصر .

181 ـ مروج الذهب للمسعودي المطبعة البهائية المصرية 1346 هـ.
182 ـ المخصص لابن سيدة .
183 ـ مختصر جامع بيان العلم لطاش كبرى زادة .
184 ـ مختصر تاريخ العرب لسيد أمير علي ـ بيروت 1961 م .
185 ـ مجمع البيان للطبرسي صيدا 1379 هـ.
186 ـ مجمع الزوائد لابن حجر الهيثمي ط. حسام الدين القدسي 1352 هـ.
187 ـ مسند أحمد بن حنبل القاهرة 1313 هـ.
188 ـ مسند أبي داود الطيالسي حيدر آباد 1321 هـ.
189 ـ المستصفى لأبي حامد الغزالي . دار صادر بيروت .
190 ـ المستدرك للحاكم النيسابوري حيدر آباد 1334 هـ.
191 ـ معالم الشريعة الاسلامية للدكتور صبحي الصالح . دار العلم للملايين بيروت 1975 م .
192 ـ معين الحكام لعلاء الدين الطرابلسي المطبعة الاميرية 1300 هـ.
193 ـ معجم البلدان لياقوت الحموي القاهرة 1906 م .
194 ـ المعجم المفهرس للاستاذ محمد عبد الباقي مكتبة وهبة 1378 م .
195 ـ معرفة علوم الحديث نشر الدكتور معظم حسين القاهرة 1937 م .
196 ـ معالم الحضارة الاسلامية للدكتور مصطفى الشكعة دار العلم للملايين . بيروت 1975 م .
197 ـ معالم الحكومة الاسلامية للشيخ جعفر السبحاني دار الأضواء 1405 هـ.
198 ـ مع القرآن للاستاذ الباقوري .
199 ـ المعيد للعلموي وقف على طبعه أحمد عبيد المكتبة العربية بدمشق .
200 ـ المغني لابن قدامة الحنبلي المنار 1348 هـ.
201 ـ المجازات النبوية للشريف الرضي مؤسسة الحلبي وشركاه القاهرة .
202 ـ مصادر التشريع الاسلامي لعبد الوهاب خلاف مطابع دار الكتاب العربي بمصر .
203 ـ مصابيح الأصول للسيد علاء الدين بحر العلوم طبعة ايران .
204 ـ مصابيح السنة للبغوي القاهرة .
205 ـ مقدمة في تاريخ صدر الاسلام للدكتور عبد العزيز الدوري .
206 ـ المقدمة لابن خلدون القاهرة 1322 هـ.
207 ـ مفتاح السعادة لطاش كبرى زادة .
208 ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام للدكتور جواد علي .
209 ـ مكارم الأخلاق للطبرسي .
210 ـ من لا يحضره الفقيه محمد بن بابويه القمي المعروف بالصدوق النجف 1957 م .
211 ـ مناقب آل أبي طالب لابن شهر أشوب النجف : 1956 م .
212 ـ الملل والنحل للشهرستاني مصر 1321 هـ.
213 ـ الموافقات في أصول الشريعة الاسلامية للشاطبي مطبعة مصطفى محمد القاهرة .
214 ـ منهاج الصالحين للامام العلامة السيد الخوئي دار الغدير 1393 هـ.

- ن -

215 ـ النظام التربوي في الاسلام لباقر شريف قرشي دار التعارف بيروت 1983 م.
216 ـ نظام الحكم في الشريعة والتاريخ لظافر القاسمي دار النفائس بيروت 1977 م.
217 ـ نظام الحكم والادارة في الاسلام للشيخ محمد مهدي شمس الدين . دار حمد ـ بيروت 1954 م.
218 ـ النظم الاسلامية للدكتور حسن ابراهيم حسن النهضة المصرية 1964 م.
219 ـ النظم الاسلامية للدكتور صبحي الصالح دار العلم للملايين 1978 م.
220 ـ نظرية العلاقة الجنسية في القرآن الكريم للعلامة سامويل سمايلس .
221 ـ النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم (للمقريزي) طبعة ليدن 1888 م.
222 ـ نفح الطيب للمقري طبع مصر 1302 هـ.
223 ـ النص والاجتهاد للسيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي .
224 ـ نهاية الارب في معرفة أحوال العرب للنويري دار الكتب المصرية 1923 م.
225 ـ نهج البلاغة للامام علي بن أبي طالب شرح الشيخ محمد عبده .
226 ـ النهاية للشيخ الطوسي دار الكتاب العربي بيروت 1400 هـ.

- و -

227 ـ الوحي المحمدي للسيد محمد رشيد رضا مطبعة المنار بالقاهرة 1935 م.
228 ـ وسائل الشيعة للشيخ محمد حسن الحر العاملي المطبعة الاسلامية بطهران .
229 ـ الوزراء والكتاب للجهشياري مطبعة البابي الحلبي 1357 هـ.
230 ـ وفيات الأعيان لابن خلكان المطبعة الميمنية القاهرة 1310 هـ.

فهرس الاعلام
ويشمل الأشخاص والشعوب والقبائل والمذاهب والفرق والملل

أ

ب

خ

د

ذ

ر

ز

س

ش

فهرس الأماكن
ويشمل البلدان والمواضع والمغازي

و

ي

فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**

الباب الأول معالم الحكومة الاسلامية

الباب الثاني
لمحة عن الحركة الفقهية والتشريعية في الاسلام

الباب الثالث
النظام السياسي

الباب الرابع النظام الاداري

الباب الخامس : النظام المالي

الباب السادس : النظام الاقتصادي

الباب السابع : النظام الاجتماعي

الباب الثامن : النظام التربوي في لاسلام

الباب التاسع النظام العسكري

المؤلف في سطور

هو حسين ابراهيم الحاج حسن من مواليد شمسطار 1933 م .

حصل على الثانوية العامة 1961 م ودخل الجامعة اللبنانية كلية الآداب 1962 فحصل على الإجازة التعليمية في الأدب العربي 1964 م . وفي الوقت نفسه حصل على إجازة أخرى في التربية من دار المعلمين العليا في بيروت . إنقطع عن التحصيل العلمي مدة ثلاث سنوات لأسباب صحية وعائلية . تسجل في الجامعة اللبنانية 1967 م في قسم الماجستير فنالها عام 1969 م وكانت أطروحته بعنوان « الاسطورة عند العرب في الجاهلية » ، بإشراف رئيس الجامعة اللبنانية الدكتور فؤاد البستاني .

دخل معهد الآداب الشرقية في الجامعة اليسوعية 1970 م في قسم الدكتوراه فحصل عليها عام 1975 م وكان عنوان الأطروحة « نقد الحديث في علم الرواية وعلم الدراية » .

دخل سلك التعليم الابتدائي منذ عام 1954 م فأمضى خمس سنوات فيه ثم انتقل الى التعليم التكميلي فاستمر عشر سنوات . عين مدير مدرسة التكميلية الرسمية في إحدى ضواحي بيروت (الغبيري) مدة سنتان . ثم انتقل الى التعليم الثانوي فأمضى خمس سنوات .

الآن يشغل منصب استاذ جامعي متفرغ في الجامعة اللبنانية منذ سنة 1978 وما يزال يدرّس الأدب العربي والحضارة العربية في كلية الآداب . الفرع الرابع .

صدر للمؤلف

1 ـ علم الاجتماع الأدبي ، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر بيروت 1983 بيروت طبعة أولى .

2 ـ أدب العرب في عصر الجاهلية المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر بيروت ، 1984 بيروت طبعة أولى .

3 ـ حضارة العرب في عصر الجاهلية ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر بيروت ، 1984 بيروت طبعة أولى .

4 ـ أعلام في العصر العباسي ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر بيروت ، 1985 بيروت طبعة أولى .

5 ـ نقد الحديث في علم الرواية وعلم الدراية ، مؤسسة الوفاء ، 1985 بيروت طبعة أولى .

6 ـ النظم الاسلامية ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر بيروت ، 1986 بيروت طبعة أولى .

هذا الكتاب

وهذا مؤلف خامس أبصر النور في دارنا «المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع للدكتور حسين الحاج حسن نظم إسلامية» تناول فيه المؤلف ما أعطاه الاسلام من نظم إنسانية شاملة متطورة تتناسب مع كل جيل ينشد الحياة العادلة المستقرة. وما تميز به الدين الحنيف التوسط العادل بين مطالب الروح ومطالب الجسد، وهذا التوسط بين الروحانية المتطرفة والمادية المغالية أمر تستدعيه المجتمعات السعيدة الهانئة، وما تقبله الفطرة الانسانية.

أتى الدين الاسلامي مكملاً للشرائع والأديان التي جاء بها النبيون قبله فأوحى الله عزّ وجل الى الرسول الأعظم محمد ﷺ خاتم النبيين والرسل لينشر الاسلام ويخرج الناس من الظلمات الى النور من الظلم والجور الى الصراط المستقيم.

والاسلام هو دين الفطرة، دين الحياة والأحياء انطوت تعاليمه وتشريعاته على مبادىء جوهرية في البناء الاجتماعي والانساني العظيم. فقد عمل في التشريع الديني والاجتماعي والاقتصادي والسياسي والتربوي والعسكري معالجاً جميع المشكلات الاجتماعية والحضارية وواضعاً لكل واحدة منها الحل العملي الناجح لاسعاد البشر أجمعين. ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيرا ﴾.

وحقيقة هامة في الدين الاسلامي لا بد من ذكرها وهي أنه توصل الى هدفه النبيل بتوفير العنصر الأخلاقي في نفس الإنسان، فالاسلام ومكارم الأخلاق صنوان أساسيان لا يفترقان. كما حث على تحصيل العلم وكسب المعارف الأساسية من دينية وعلمية وفلسفية في كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل كريم من رب العالمين.

نأمل لهذا الكتاب التوفيق والنجاح وبلوغه الغاية العلمية الانسانية التي يرمي إليها.

والله ولي التوفيق.

الناشر

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع